
تفسير الجيلاني
للغوث الرباني والإمام الصمداني
سيدي محيي الدين عبد القادر الجيلاني

تفسير الجيلاني

الغوث الرباني والإمام الصمداني

سيدي محيي الدين عبد القادر الجيلاني

المتوفى ٧١٣هـ

تحقيقه وتخريجه وتعليقه

الشيخ أحمد فريد المزيدي

الجزء الرابع

المحتوى:

أول سورة الروم - آخر سورة محمد ﷺ



المكتبه المعروفيه

كانسی روڈ شالدرہ کوئٹہ پاکستان

فون: 0333-7807152,0333-7907398

طبعة جديدة منقحة

ISBN: 9953-27-144-5

2010م 1431هـ



رَجَـــاءٌ

غَفَرَ اللهُ ذُنـــوْبَ هٰذَا النَـــاشِرِ

وَذُنـــوْبَ وَالِدَيْهِ مَعاً فِي النَّاظِرِ

غَفَرَ اللهُ ذُنُوْبَهُ وَسَتَرَ عُيُوْبَهُ وَوَالِدَيْهِ وَالْمُسْلِمِيْنَ

أَجْمَعِيْنَ وَلِمَنْ دَعَا لَهُ بِخَيْرٍ



راجي عفو ربه

عبدالغني حليمي

المكتبة المعروفية – كويتا – باكستان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة الروم

فاتحة سورة الروم

لا يخفى على من تحقق بتجددات التجليات الإلهية، وتبدلات شئونه وتطوراته لطفًا وقهرًا، قبضًا وبسطًا، جمالاً وجلالاً أن دوام العسر واليسر، والنعمة والنقمة، والجدب والرخاء، والفرح والترح والغالبية والمغلوبية، وكذا جميع الأوصاف المتضادة المتناقضة، والأطوار المتخالفة الحاصلة من الإضافات والانتسابات الواقعة بين الشئون والتطورات الحادثة في الأكوان والأزمان بين أهل الزمان، حسب التجليات الإلهية المقتضية لحدوثها مما لا يتصور امتداده أبدًا مستمرًا بلا تبدل وتحول، بل هي أعراض متبدلة متجددة على تعاقب الأمثال وتوارد الأضداد، لا يبقى زمانًا متطاولاً بالنسبة إلى قوم دون قوم؛ بل يتداول ويدور بينهم على مقتضى سنة الله وجري عادته المستمرة كما هو المشهود المتعارف.

لذلك رد الله سبحانه على مشركي مكة فرحهم وسرورهم حين أُخبروا بغلبة فارس الذين هم ليسوا من أهل الروم الذين هم نصارى من أهل الكتاب، ومن غاية فرحهم وجهلهم قالوا للمؤمنين على سبيل التبجح: نحن نظهر ونغلب، كما ظهر إخواننا على إخوانكم، فاغتم المؤمنون من هذه الوقعة الهائلة، أنزل الله سبحانه هذه السورة؛ تسليةً لهم، وإزالةً لغمهم، مخاطبًا لحبيبه ﷺ مخبرًا إياه، متيمنًا باسمه الكريم: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ المتجلي على مقتضى جماله وجلاله حسب إرادته واختياره ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ لعموم عباده بسعة رحمته وسبقها على غضبه ﴿الرَّحِيمِ﴾ لخواصهم بدوام الرحمة عليهم، والرضا عنهم، والبسط معهم بلا تخلل الغضب والقبض.

﴿الم ﴿١﴾ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾

بِنَصْرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعْدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾﴾ [الروم: 1-7].

﴿الم﴾ [الروم: 1] أيها الإنسان الأفضل الأكمل اللبيب، اللائق الملازم المداوم لاستكشاف غوامض أسرار الوجود، ورقائق دقائق آثار الكرم والجود، الفائضة من الخلاق الودود على خواص مظاهر الأكوان المحبوسين في مضيق الإمكان؛ ليوصلهم إلى فناء الوجوب وصفاء الكشف والشهود، مخلصين عن جميع الأوهام والخيالات المستتبعة لأنواع الضلالات والجهالات.

﴿غُلِبَتِ الرُّومُ﴾ [الروم: 2] أي: صاروا مغلوبين من عسكر الفرس.

﴿فِي أَدْنَى الأَرْضِ﴾ وأقربها من أرض العرب وأرض الروم، وهي أذرعات الشام أو الأردن أو فلسطين - على اختلاف الروايات من أصحاب التواريخ - ﴿وَ﴾ ولا تغتموا أيها المؤمنون من مغلوبية أهل الكتاب وضعفهم؛ إذ ﴿هُم﴾ أي: الروم ﴿مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ﴾ ومغلوبيتهم من الفرس ﴿سَيَغْلِبُونَ﴾ [الروم: 3] ويصيرون غالبين عليهم، آخذين انتقامهم عنهم على أبلغ وجه وأشده لأبعد مدة مديدة، وأمد بعيد.

بل ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ والبضع عند العرب من الثلاث إلى التسع.

ورُوي أن فارس غزوا الروم فتلاحقا بأذرعات الشام، وهي أقرب أرض الروم من الفرس والعرب أيضًا، فلما اقتحما غلب الفرس على الروم، فوصل الخبر إلى مكة فأخذ المشركون في فرح عظيم وسرور مفرط، شامتين بالمسلمين، قائلين إياهم: أنتم والنصارى أهل الكتاب، ونحن وفارس أميون لا كتاب لنا، وقد ظهر إخواننا على إخوانكم، فنحن لنظهرنَّ أيضًا عليكم مثلهم عن قريب، فنزلت الآية فقرأها ﷺ على أبي بكر ﷺ، فخرج عليهم، فقال لهم: لا يقر الله أعينكم أيها المشركون المسرفون، فوالله ليظهرن الروم على فارس بعد بضع سنين، فقال له أبي بن خلف: كذبت، اجعل بيننا أجلاً أناحبك وأراهنك فناحبه أبو بكر ﷺ على عشر قلائص من كل واحد منهم، وجعل الأجل ثلاث سنين، فأخبر أبو بكر ﷺ ما جرى بينهما على رسول الله ﷺ،

فقال ﷺ: «البضع ما بين الثلاث إلى التسع»[1].

فرجع ﷺ إلى أُبي فزايده الجعل والمدة أيضًا، فجعلاها مائة قلوص إلى تسع سنين، ومات أُبي من طعن طعنه رسول الله ﷺ يوم أُحد، وظهرت الروم على فارس يوم الحديبية أو بدر، فأخذ أبو بكر ﷺ الخطر والرهن من ورثة أُبي، وجاء بها إلى رسول الله ﷺ فقال ﷺ: «تصدق به»[2] فتصدق، فهذا قبل تحريم القمار، فلا يصح الاستدلال به على جواز العقود الفاسدة.

وهذه الآية من دلائل النبوة والرسالة؛ لكونها إخبارًا عن الغيب بوحي الله وإلهامه؛ إذ ﴿لله﴾ وفي قبضة قدرته واختياره ﴿الأَمْرُ﴾ كله غيبًا وشهادةً، دنيا وعقبى ﴿مِن قَبْلُ﴾ أزلاً ﴿وَمِنْ بَعْدُ﴾ أبدًا، لا راد لأمره، ولا معقب لحكمه، يفعل الله على مقتضى إرادته واختياره ما يشاء، ويحكم حسب حكمته ما يريد ﴿وَيَوْمَئِذٍ﴾ أي: حين غلب الروم على الفرس في رأس السنة التاسعة؛ إنجازًا لما وعد به سبحانه المؤمنين ﴿يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [الروم: 4] مثلما فرح المشركون في الوقعة السابقة.

وفرح المؤمنين إنما هو ﴿بِنَصْرِ اللهِ﴾ وتأييده أهل الكتاب والملة، وتقوية أهل دينه وكتابه النازل من عنده، وتغليبهم على أهل الأهواء والآراء الباطلة، لا بمجرد الغيرة والحمية الجاهلية والعصبية، كما هو ديدنة أهل الزيغ والضلال، وإلا ﴿يَنصُرُ﴾ سبحانه ﴿مَن يَشَاءُ﴾ من عباده على مقتضى مراده، سواء كان من أهل الهداية والضلال، أو السعادة والشقاوة؛ إذ لا يُسأل عما يفعل ﴿وَ﴾ كيف يُسأل عن فعله سبحانه، مع أنه ﴿هُوَ الْعَزِيزُ﴾ المنيع ساحة عز حضوره عن أن يُسأل عن كيفية أفعاله، الغالب المقتدر بالقدرة الكاملة على جميع مراداته ﴿الرَّحِيمُ﴾ [الروم: 5] لعباده، يتفضل عليهم بمقتضى سعة رحمته تفضلاً وإحسانًا؟!.

وما ذلك النصر والتأييد إلا ﴿وَعْدَ اللهِ﴾ وعهده، وعده مع المؤمنين حين اشتد عليهم الحزن وهجم الهموم وقت مغلوبية الروم غيرةً منهم على دين الله وأهله، ومن سنته سبحانه أنه ﴿لَا يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ﴾ الذي وعده مع خلّص عباده ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ المجبولين على الغفلة والنسيان ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: 6] وعده، ولا يؤمنون

(1) رواه الترمذي (492/11).

(2) ذكره الألوسي في «تفسيره» (324/15).

ويصدقون بإنجازه الوعد، وعدم خلفه في الموعود.

بل ما ﴿يَعْلَمُونَ﴾ إلا ﴿ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يعني: لا يترقى علمهم عن المحسوسات الظاهرة مثل الحيوانات العجم، بل هم أسوأ حالاً منهم؛ إذ هم مجبولون على التأمل والتدبر، والتفطن بما هو المقصود من ظهورها، والتفكر في حكمة إظهارها على هذا النمط البديع والنظم العجيب، وكيفية ارتباطها بالأسماء الإلهية والأوصاف الذاتية وانعكاسها منها ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿هُمْ عَنِ﴾ النشأة ﴿الْآخِرَةِ﴾ المعدة لكشف السرائر، ورفع الحجب والسدل، وجميع الأغطية والأستار المانعة عن ظهور الحق، وانكشاف لقائه بلا سترة وحجاب ﴿هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: 7] غفلة مؤبدة تامة، بحيث لا يرجى منهم الإطلاع أصلاً؛ لكثافة حجبهم، وغلظ أغطيتهم وأغشيتهم؛ لذلك لم يتدرجوا من عالم الكون والفساد ومضيق الإمكان، وما يترتب عليه من اللذات الوهمية إلى عالم الغيب وفضاء الوجوب، وما يترتب عليها من الكشف والشهود، وأنواع المعارف والحقائق الفائضة على مقتضى الجود الإلهي.

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ۝٨ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٩ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ۝١٠ ﴾ [الروم: 8-10].

﴿أَ﴾ يقنعون بهذه المزخرفات الفانية أولئك الضالون الغافلون، ويرضون أنفسهم بلذاتها الوهمية وشهواتها البهيمية ﴿وَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ ويتدبروا في آلاء الله ونعمائه الفائضة على الترادف والتوالي في الآفاق على الصور العجيبة، والهيئات الغريبة، سيما ﴿فِي أَنفُسِهِم﴾ التي هي أقرب الأشياء إليهم، وأبدعها نظمًا وتركيبًا، وأعجبها ظهورًا، وأشملها تصرفًا، وأكملها علمًا ومعرفة، وأعلاها شأنًا، وأوضحها برهانًا؛ لذلك ما وسع الحق إلا فيها، وما انعكس أوصافه وأسماؤه إلا منها، واستحقت هي بخصوصها من بين مظاهره سبحانه لخلافته ونيابته، أيطمئنون بهذه المزخرفات الزائلة الخسيسة، ولم

يعبروا منها إلى مبادئها التي هي الأوصاف الذاتية والأسماء الإلهية، مع أنهم مجبولون على الجواز والعبرة بحسب أصل الفطرة ولم يعلموا، ولم يفهموا أنه ﴿مَّا خَلَقَ﴾ وأظهر ﴿اللَّهُ﴾ الحكيم المتقن في جميع أفعاله ﴿السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ أي: العلويات والسفليات ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من البرازخ المتكونة من امتزاجاتهما واختلاطاتهما أثرًا وأجزاءً ﴿إِلَّا﴾ ملتبسًا ﴿بِالْحَقِّ﴾ ومنتهيًا إليه إعادةً وإبداءً، لكنه قدر بقاءه وظهوره بوقت معين.

﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ عنده، وحين انقضائه انتهى إليه ورجع نحوه ما ظهر من الموجود، وانتفى وفني ما لمع عليه نور الوجود، وحينئذٍ لم يبق في فضاء الوجود إلا الواحد القهار للأظلال والأغيار ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ المجبولين على الكفران والنسيان ﴿بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ﴾ في النشأة الأخرى ﴿لَكَافِرُونَ﴾ [الروم: 8] منكرون جاحدون عتوًا واستكبارًا؛ بسبب ما عندهم من حطام الدنيا ومزخرفاتها الفانية.

﴿أَوَ لَمْ يَسِيرُوا﴾ أولئك المسرفون المفرطون ﴿فِي﴾ أقطار ﴿الأَرْضِ فَيَنظُرُوا﴾ بنظرة العبرة ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ﴾ أمر المسرفين ﴿الَّذِينَ﴾ مضوا ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ كعاد وثمود، مع أنهم ﴿كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ لدلالة أظلالهم وآثارهم على تمكنهم ﴿وَ﴾ من دلائل قوتهم أنهم ﴿أَثَارُوا الأَرْضَ﴾ وقلبوها للمعادن وإخراج العيون، وإجراء الأنهار، وإحداث الزروع وغير ذلك ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿عَمَرُوهَا﴾ أولئك فيما مضى ﴿أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ هؤلاء اليوم، فدل زيادة عمارتهم على ازدياد قوتهم وتمكنهم.

﴿وَ﴾ بعدما أفسدوا على أنفسهم بأنواع الفسادات مباهيًا بمالهم وجاههم، قلبنا عليهم أمرهم بأن أرسلنا إليهم رسلاً مؤيدين بأنواع المعجزات، فلما ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ القاطعة والبراهين الساطعة، فلجأوا على تكذيبهم وإنكارهم بلا تأمل وتدبر فيما جاءوا به، فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر، فاستأصلناهم وقلبنا عليهم أماكنهم، وخربنا بلادهم ومزارعهم ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ﴾ العزيز المقتدر الحكيم المتقن ﴿لِيَظْلِمَهُمْ﴾ أي: يفعل بهم فعل الظلمة بأخذهم وبطشهم بلا جرم صدر عنهم موجب لانتقامهم ﴿وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الروم: 9] أي: يظلمون أنفسهم بعتوهم واستكبارهم على ضعفاء عباد الله، وتكذيب خلّص أنبيائه وأوليائه، وخروجهم عن مقتضى حدوده سبحانه.

﴿ثُمَّ﴾ بعدما تمادوا في الغفلة والعصيان، وتكذيب الرسل، والاستكبار على عباد

الله وأنواع الإساءة مع رسله ﴿كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا﴾[1] مع الله ورسوله والمؤمنين ﴿السُّوأَى﴾ أي: الخصلة الذميمة والعاقبة الوخيمة المترتبة على إساءتهم في الأخرى جزاء ما كانوا عليها في الأولى، كل ذلك بواسطة ﴿أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ﴾ وأنكروا عليها، واستخفوا بها ولمن أنزلت عليه ﴿وَكَانُوا﴾ من غاية عتوهم واستكبارهم ﴿بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الروم: 10] ويستسخرون، وينسبون إليها ما لا يليق بشأنها افتراءً ومراءً.

﴿ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُا۟ وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْءَاخِرَةِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الروم: 11-16].

وكيف يستهزئ أولئك المسرفون مع الله ورسله وآياته النازلة من عنده؛ إذ ﴿اللهُ﴾ المستقل بالتصرف في ملكه وملكوته ﴿يَبْدَأُ الخَلْقَ﴾ ويبدع المخلوقات من كتم العدم بلا سبق مادة وزمان، ويظهر في فضاء الوجود، ثمّ يميته ويعدمه ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ حيًا كذلك في النشأة الأخرى بعد انقراض النشأة الأولى ﴿ثُمَّ﴾ بعد العرض وتنقيد الأعمال ﴿إِلَيْهِ

(1) قال في التأويلات: أي: عاقبة أمر الفلاسفة الذين هم مكذبوا الأنبياء لما أساءوا بتكذيب الأنبياء بأن صاروا أئمة الكفرة وصنعوا الكتب في الكفر وأوردوا فيها الشبهات على بطلان ما جاء به الأنبياء من الشرائع والتوحيد وسمو الحكمة وسمو أنفسهم الحكماء فالآن بعض المتعلمين من الفقهاء إما لوفور حرصهم على العلم والحكمة، وإما لخباثة الجوهر وليتخلصوا من تكاليف الشرع يطالعون تلك الكتب ويتعلمونها وبتلك الشبهات التي درسوا بها كتبهم يهلكون في أودية الشكوك ويقعون في الكفر، وهذه الآفة وقعت في الإسلام من المتقدمين والمتأخرين منهم فكم من مؤمن عالم فسدت عقيدتهم بهذه الآفة وأخرجوا ربقة الإسلام من عنقهم فصاروا من جملتهم، ودخلوا في زمرتهم داخل هذه الآفة يبقى في هذه الأمة إلى قيام الساعة فإن كل يوم يزاد ويقل طلبة علوم الدين من التفسير والأحاديث والمذهب، ويكثر طلبة علوم الفلسفة والزندقة ويسمونها الأصول والكلام، وقد قال الشافعي ﷺ: «من تكلم تزندق» ثم وبال هذه الجملة إلى قيام الساعة يكتب في ديوان من سن هذه السنة السيئة ومن أوزار من عمل من غير أن ينقص من أوزارهم شيء على أن كذبوا بآيات الله بالقرآن واستهزءوا بها وسموا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أصحاب النواميس وسموا الشرائع الناموس الأكبر عليهم لعائن الله تترى.

﴿تُرْجَعُونَ﴾ [الروم: 11] رجوع الأمواج إلى البحر.

﴿وَ﴾ اذكر لهم يا أكمل الرسل ﴿يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ المعدة للعرض والجزاء ﴿يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [الروم: 12] أي: يسكتون حيارى سكارى، تائهين هائمين آيسين عن الخلاص.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُم﴾ حينئذٍ ﴿مِّن شُرَكَائِهِمْ﴾ ومعبوداتهم ﴿شُفَعَاءُ﴾ يجتهدون لخلاصهم وإنقاذهم من عذاب الله على مقتضى ما هو زعمهم إياهم، بل ﴿وَ﴾ هم حينئذٍ ﴿كَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الروم: 13] ينكرون ويكفرون بهم حيث يئسوا عنهم، وقنطوا عن شفاعتهم.

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل ﴿يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ التي يحشر فيها الأموات ويعرضون على الله بما اقترفوا في دار الابتلاء من الحسنات والسيئات ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾[1] [الروم: 14] فرقًا فرقًا، وفوجًا فوجًا كل مع شاكلته في الإيمان والكفر، والصلاح والفساد.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله وكتبه ورسله في دار الاختبار ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ المؤكدة لإيمانهم فيها ﴿فَهُمْ﴾ حينئذٍ من كمال فرحهم وسرورهم ﴿فِي رَوْضَةٍ﴾ ذات أزهارٍ وأنوارٍ وأنهارٍ ﴿يُحْبَرُونَ﴾ [الروم: 15] يتنزهون ويسيرون مسرورين متنعمين.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بتوحيدنا ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ المنزلة من عندنا على رسلنا ﴿وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ﴾ أي: أنكروا بلقائها في النشأة الأخرى، مع أنا وعدناهم على ألسنة رسلنا إياهم ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ الأشقياء المردودون عن ساحة عز الحضور ﴿فِي الْعَذَابِ﴾ المؤبد المخلد ﴿مُحْضَرُونَ﴾ [الروم: 16] لا نجاة لهم منه، أعاذنا الله من ذلك.

(1) من كان في الدنيا على حد التفرق فيوم القيامة يرجع إليها، ومن كان في الدنيا على حد الجمع فيكون في الآخرة جمعًا، ومن كان مع الله فهو جمع ومن كان مع غير الله فهم متفرقون إلى أماكنهم من السعادات والشقاوات والبعاد والقربات، فأهل القرب في مشاهدة الأنس والقدس، وأهل البعاد في الوحشة والتفرقة، قال أبو بكر بن طاهر: يتفرق كلٌ إلى ما قُدِّر له من محل السعادة ومنزل الشقاوة، ومن كان تفرقه إلى الجمع كان مجموع السر، ينقلب إلى محلّ السعداء، ومن كان تفرقه إلى فرقة كان متفرق السر، ثم لا يألف الحق أبدًا فيرجع إلى محل أهل الشقاوة، ثم فسر الله سبحانه حال الفريقين بالنعتين المتضادين. [عرائس البيان].

﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الروم: 17-21].

ثمَّ أشار سبحانه إلى أسباب النجاة والخلاص عن الوعيدات الأخروية، ونيل لذاتها ومتنزهاتها الروحانية، فقال: ﴿فَسُبْحَانَ اللهِ﴾ أي: سبحوا الله الواحد الأحد الصمد، المنزه عن شوائب النقص وسمات الكثرة مطلقًا أيها الأحرار المتوجهون نحوه في السرائر والإعلان، سيما ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾ وتدخلون في المساء الذي هو أول وقت الفراغ عن الشواغل الجسمانية، وفتح باب الخلوة مع الله، والعزلة عن أسباب الكثرة مطلقًا ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ [الروم: 17] وتدخلون في الصباح الذي هو نهاية مرتبة خلوتكم مع ربكم، فاغتنموا الفرصة فيه، وتعرضوا للنسمات المهبة بأنواع النفحات من قِبَل الرحمن.

وبعدما تزودوا بأنواع الفتوحات الروحانية في تلك الساعة الشريفة التي هي البرزخ بين اللذائذ الروحانية والجسمانية فاشتغلوا بالأشغال الجسمانية المتعلقة لتدبير المعاش النفساني.

﴿وَ﴾ لكم أيها المتوجهون نحو الحق أن تحمدوه وتشكروا نعمه، وتداوموا على أداء حقوق كرمه في خلال أيامكم ولياليكم، سيما طرفي النهار؛ إذ ﴿لَهُ الْحَمْدُ﴾ والثناء الصادر عن ألسنة جميع ما ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَ﴾ ما في ﴿الأَرْضِ﴾ من المظاهر التي لمع عليها برق الوجود، وانبسطت أظلال شمس الذات وأضواؤها ﴿وَ﴾ لاسيما ﴿عَشِيًّا﴾ إذ هو وقت مصون عن الكثرة ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [الروم: 18] أيضًا؛ إذ فيها يحصل الفراغ عن أمور المعاش غالبًا.

وكيف لا يتوجهون نحو الحق، ولا يديمون الميل إليه في أوقات حياتهم؛ إذ هو سبحانه بمقتضى لطفه وجماله ﴿يُخْرِجُ﴾ ويظهر بكمال قدرته ﴿الْحَيَّ﴾ أي: ذا الحسّ والحركة، والإرادة التي هي أنواع الحيوانات ﴿مِنَ الْمَيِّتِ﴾ الذي هو النطفة الجامدة

﴿وَ﴾ كذا ﴿يُخْرِجُ﴾ ويظهر بمقتضى قهره وجلاله ﴿الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ يعني: يعقبه الموت بالحياة، والحياة بالموت ﴿وَ﴾ من كمال قدرته ﴿يُحْيِي الْأَرْضَ﴾ بأنواع النضارة والبهاء ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي: يبسها وجمودها ﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي: مثل إعادة الحياة والنضارة للأرض وقت الربيع ﴿تُخْرَجُونَ﴾ [الروم: 19] من قبوركم أيها المنكرون للبعث والحشر وإعادة المعدوم.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ الدالة على كمال قدرته على الإعادة والإبداء على السواء: ﴿أَنْ﴾ أي: إنه ﴿خَلَقَكُم﴾ وقدر جسمكم وصوركم أولاً ﴿مِّن تُرَابٍ﴾[1] يابس، ثمَّ بدلكم أطوارًا وأدوارًا؛ لتكميلكم وتشويقكم إمدادًا وأدوارًا إلى أن صوركم في أحسن صورة، وعدلكم في أقوم تعديل ﴿ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ﴾ أي: بعدما كمَّل صورتكم، وتمم تمثالكم وشكلكم، واستوى بشريتكم فاجأتم ﴿تَنتَشِرُونَ﴾ [الروم: 20] في الأرض على سبيل التناسل والتوالد، ومن قدر على إبدائكم وإبداعكم على الوجه المذكور قدر على حشركم وإعادتكم، بل هو أسهل من الإبداء.

﴿وَ﴾ أيضًا ﴿مِنْ آيَاتِهِ﴾ الدالة على كمال قدرته: ﴿أَنْ خَلَقَ﴾ وقدر ﴿لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: من جنسكم وبني نوعكم ﴿أَزْوَاجًا﴾ نساءً؛ حتى تؤانسوا بهن وتستأنسوا بهن، بل إنما قدر لكم أزواجًا ﴿لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ وتتوطنوا معها توطنًا خاصًا، وتألفًا تامًا إلى حيث يفضي إلى التوالد والتناسل ﴿وَ﴾ بهذه الحكمة البديعة ﴿جَعَلَ بَيْنَكُم﴾ وبينهن ﴿مَّوَدَّةً﴾ خاصة خالصة، منبعثة عن محض الحكمة الإلهية بحيث لا يكتنه لميتها وكيفيتها أصلاً.

﴿وَ﴾ من كمال قدرته ومتانة حكمته: جعل من امتزاج النطفة النازلة منكم ومنهن، الناشئة من المودة المذكورة، والمحبة المقررة بينكم ﴿رَحْمَةً﴾ ولدًا مثلكم، ومحييًا لكم اسمكم ورسمكم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الخلق والإيجاد، والتكميل والتمكن،

---

(1) قال في التأويلات: يشير إلى أن التراب أبعد الموجودات عن الحضرة؛ لأنا إذا نظرنا على الحقيقة وجدنا أقرب الموجودات إلى الحضرة عالم الأرواح؛ لأنه أول ما خلق الله الأرواح ثم العرش؛ لأنه محل صفة رحمانية ثم الكرسي ثم السماء السابعة ثم السموات كلها ثم فلك الأثير، ثم فلك الزمهرير الهواء، ثم الماء ثم التراب وهو جماد لا حس فيه ولا حركة وليس له قدرة على تغيير ذاته وتبديل صفاته، فلما وجدنا ذاته متغيرة عن وصف الترابية صورة ومعنى وصفاته متبدلة كتغير صورته بصورة البشر وتبدل صفته بصفة البشرية؛ علم أنه محتاج إلى مغير ومبدل وهو الله سبحانه وتعالى.

والتقدير والانبعاث، والانزعاج وأنواع التدبيرات الواقعة فيها، والحكم العجيبة المحيرة لأرباب الفطنة والذكاء ﴿لَآيَاتٍ﴾ عظام ودلائل جسام ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: 21] في آثار صنائع الحكيم القدير، والعليم الخبير البصير.

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾[الروم: 22-25].

﴿وَ﴾ أيضا ﴿مِنْ آيَاتِهِ﴾ العجيبة الشأن، والبديعة البرهان: ﴿خَلْقُ السَّمَوَاتِ﴾ وإيجاد العلويات متطابقة مترافعة مع ما فيها من الكواكب المتفاوتة في الإضاءة والإشراق على أبدع نظام، وأبلغ التئام وانتظام، بحيث لا يكتنه عند ذوي العقول، وأولي الإفهام المجبولين على الاستعلام والاستفهام، بل لاحظ لهم منها سوى الحيرة والعبرة، وأنواع الوله والهيمان ﴿وَ﴾ خلق ﴿الأَرْضِ﴾ ممهدة منبسطة مشتملة على جبال راسيات، وبحار واسعات، وأنهار جاريات، وأشجار مثمرات، ومعادن وحيوانات، وأصناف من نوع الإنسان المجبول على صورة الرحمن، الجامع لأنواع التبيان والبيان، وأصناف الدلائل والبرهان؛ ليصير مرآة مجلوة يتراءى فيها صور الأسماء والصفات الإلهية، وينعكس منها شئونه وتطوراته ﴿وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ﴾ أي: لغاتكم وتكلمكم أيها المجبولون على فطرة النيابة والخلافة.

﴿وَ﴾ اختلاف ﴿أَلْوَانِكُمْ﴾ من السواد والبياض، وأنواع التخطيطات والتشكيلات، والهيئات الصورية والمعنوية التي اشتملت عليها هياكلكم وهوياتكم، إنما هي من آثار الأوصاف والأسماء الإلهية التي امتدت على ماهياتكم وتعيناتكم أظلالها وانبسطت ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الانطباق والالتصاق، وأنواع الائتلاف والانتظام الواقعة في الأنفس والآفاق على أغرب الوجوه وأبدع الطرق ﴿لَآيَاتٍ﴾ دلائل واضحات، وشواهد لائحات على كمال قدرة العليم الحكيم ﴿لِلْعَالِمِينَ﴾ [الروم: 22].

أي: لكل من يتأتى منه التفطن والتدبر للمبدأ والمعاد من أرباب الهداية والرشاد، والتأمل والتفكر على سبيل النظر والاستدلال من الصنائع والآثار إلى الصانع المؤثر المختار.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ العظام أيضًا: ﴿مَنَامُكُم﴾ واستراحتكم؛ تقويمًا لأمزجتكم، وتقوية لقواكم ﴿بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ وقت عروض الإعياء والعناء ﴿وَابْتِغَاؤُكُم﴾ طلبكم المعاش فيهما ﴿مِّن فَضْلِهِ﴾ وسعة رحمة جوده، أو على طريق اللف والنشر بأن قدر لمنامكم زمان الليل ولابتغائكم النهار ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ التقدير والتدبير المبني عن كمال العطف واللطف ﴿لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [الروم: 23] دلائل توحيده سبحانه سمع قبول ورضا، ويتأملون في حكمة الحكيم المدبر لمصالح عباده، وما هو إلا صلح لهم.

﴿وَمِنْ﴾ جملة ﴿آيَاتِهِ﴾ أيضًا: إنه سبحانه ﴿يُرِيكُمُ الْبَرْقَ﴾[1] المنبئ عن هجوم البلاء ونزول المطر أيضًا، إنما أريكم سبحانه؛ ليحصل لكم ﴿خَوْفًا﴾ من خشية الله وحلول غضبه وعذابه ﴿وَطَمَعًا﴾ لنزول فضله ورحمته، وإنما فعل سبحانه معهم كذلك؛ لتكونوا دائمًا خائفين من سخطه وبطشه، راجين من فضله وجوده ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ﴾ جانب ﴿السَّمَاءِ مَاءً﴾ بعدما أراكم البرق المخيف المطمع ﴿فَيُحْيِي بِهِ﴾ أي: بالماء النازل ﴿الْأَرْضَ﴾ اليابسة ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي: بعد جمودها ويبسها ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الإراءة والإخافة والإطماع، والإنزال والإحياء ﴿لَآيَاتٍ﴾ على حكمة القادر المختار، المستقل في التصرف والآثار ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: 24] ويستعملون عقولهم في التفكر والتدبر في المصنوعات العجيبة والمخترعات البديعة الصادرة من الفاعل المطلق بالإرادة والاختيار.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ المحكمة أيضًا: ﴿أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ يعني: من جملة آياته الظاهرة الباهرة: قيام السماء والأرض بلا عمد وأوتاد وأسانيد، وقرارها ومدارها في مكان معين بلا تبدل وتحول، إنما هو بأمره وحكمه، وعلى مقتضى إرادته ومشيئته، بحيث لا يسع لهما الخروج عن أمره وحكمه أصلاً ﴿ثُمَّ﴾ بعدما تأملتم نفاذ حكمه

(1) أي: برق شواهد الحق عند انخراق سحاب حجب البشرية وظهور تلألؤ أنوار الروحانية أولها برق، ثم اللوامع ثم الطوالع ثم الإشراق ثم التجلي فينور البرق فيرى شهوات الدنيا أنها نيران فيخاف منها ويتركها ويرى مكروهات تكاليف الشرع على النفس أنها جنان فيطمع فيها ويطلبها. [التأويلات].

سبحانه، ومضاء قضائه في معظم مخلوقاته، فلكم أن تتيقنوا ﴿إِذَا دَعَاكُمْ﴾ وقت إرادة إعادتكم وإحيائكم ﴿دَعْوَةً﴾ متضمنة لإخراجكم ﴿مِنَ الأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم: 25] يعني: بعدما أسمعكم بكمال قدرته مضمون دعوته إليكم فاجأتم إلى الخروج منها أحياءً بلا تراخٍ ومهلةٍ تتميمًا لسرعة نفوذ قضائه.

﴿ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الروم: 26-29].

﴿وَ﴾ كيف لا تسمعون وتخرجون منها أحياءً بعدما تعلق قدرته سبحانه بإخراجكم وإعادتكم؛ إذ ﴿لَهُ﴾ ملكًا وتصرفًا، إبداعًا وإنشاءً ﴿مَن فِي السَّمَوَاتِ﴾ من الملائكة المغمورين في آلاء الله ونعمائه، المستغرقين بمطالعة وجهه الكريم ﴿وَ﴾ من في ﴿الأَرْضِ﴾ من أرباب الولاء التائهين في بيداء الألوهية، الفانين في فضاء الربوبية، الهائمين في صحراء الوجود؛ لذلك ﴿كُلٌّ﴾ ممن أشرق عليه شمس الذات، ولاح عليه نور الوجود، ولمع عليه برق التجليات الحبيبة اللطيفة ﴿لَّهُ قَانِتُونَ﴾ [الروم: 26] منقادون مطيعون طوعًا وطبعًا؟!.

﴿وَ﴾ كيف لا ينقادون ويطيعون لحكمه أولئك المسخرون لصولجان قضائه، وقلم تقديره ﴿هُوَ الَّذِي يَبْدَأُ﴾ ويظهر ﴿الْخَلْقَ﴾ من كتم العدم في فضاء الوجود بمقتضى اللطف والجود، ثمّ يعدمه ويميته بمقتضى قهره وجلاله أيضًا فيها ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ أيضًا على ما ينشئه في النشأة الأخرى إظهارًا لكمال قدرته ومقتضى حكمته؛ كي يظهر مصلحة الإبداء والإبراز في النشأة الأولى، وفائدة ما يترتب عليها في النشأة الأخرى يوم العرض والجزاء ﴿وَ﴾ أهل الأهواء والآراء الباطلة ينكرون الإعادة، مع أنه ﴿هُوَ﴾

أي: الإظهار بعد الإعدام ﴿أَهْوَنُ﴾ وأسهل ﴿عَلَيْهِ﴾[1] سبحانه بالنسبة إلى عقولهم السخيفة، وأحلامهم الضعيفة من الإبداء والإبداع لا عن شيء وبلا سبق مادة، وإن كانت نسبة قدرته وإرادته سبحانه إلى كل ما دخل في حيطة حضرة علمه وخبرته على السواء؛ إذ ﴿مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ﴾ [الملك: 3] وكرر النظر ﴿هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ﴾ [الملك: 3] وفتور وقصور في مبدعات الحق ومخترعاته؟!.

﴿وَ﴾ كيف يتفاوت دون قدرته الأشياء؛ إذ ﴿لَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى﴾ واليد الطولى، والتصرف التام، والاقتدار العام الشامل لكل ما لاح عليه برق الوجود سواء كان ﴿فِي السَّمَوَاتِ﴾ أي: العلويات التي هي عالم الأسماء والصفات باعتبار التنزلات من مرتبته الأحدية، والعماء التي لا يسع فيه إدراك مدرك وخبرة خبير ﴿وَالأَرْضِ﴾ أي: السفليات التي هي عالم الهيولي والطبيعة القابلة لأن تنعكس منها أشعة أنوار العلويات المتفاوتة حسب تفاوت الشئون والتطورات المرتبة على الأسماء والصفات المتخالفة المتكثرة حسب التجليات الحِبِّية الإلهية؟! ﴿وَ﴾ كيف لا يكون له سبحانه المثل الأعلى؛ إذ ﴿هُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب في ذاته، حيث تفردت بوجوب الوجود، ودوام البقاء المنيع فناء على سرادقات سطوته وسلطنته عن شوب النقص والقصور مطلقًا ﴿الْحَكِيمُ﴾ [الروم: 27] المتقن في أفعاله وآثاره بالاستقلال على مقتضى حيطة حضرة علمه الكامل بجميع وجوه الكمالات اللائقة لكل ذرة من ذرائر الكائنات؟!.

لذلك ﴿ضَرَبَ لَكُم﴾ سبحانه تبيينًا وتنبيهًا ﴿مَّثَلاً﴾ متخذًا منتزعًا ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أيها المشركون المتخذون لله شركاء من مصنوعاته وعبيده؛ إذ هي أقرب الأشياء إليكم، وأوضحها عندكم ﴿هَل لَّكُم﴾ أيها الأحرار المتصرفون بالاستقلال في منسوباتكم متصرف آخر سواكم ﴿مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم﴾ وحصلت من أكسابكم من العبيد

(1) يعني: البداءة من الإعادة لأن في البداءة كان بنفسه مباشرًا بنفسه للخليقة وفي الإعادة كان المباشر إسرافيل بنفخه، والمباشرة بنفس الغير في العمل أهون من المباشرة بنفسه عند نظر الخلق وعنده سواء؛ لأن أفعال الأغيار أيضًا مخلوقة وفيه إشارة في غاية الدقة واللطافة أن الخلق أهون عند الله عند الإعادة منهم عند البدأة؛ لأنه في البداية لم يكونوا ملوثين بلوث الحدوث ولا متدنسين بدنس الشرك في الوجود بأن يكونوا شركاء في الوجود مع الله فلعزتهم في البداية باشر بنفسه خلقتهم وفي الإعادة لهوانهم باشر بنفس غيره. [التأويلات].

والإماء الذين هم من جملة منسوباتكم، وهل يصح ويجوز لمملوكيكم أن يكونوا، ويعدوا ﴿مِّن شُرَكَاءَ﴾ معكم يتصرفون أمثالكم ﴿فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ مثل تصرفكم بلا إذن منكم؟!.

وبالجملة: ﴿فَأَنتُمْ﴾ أيها المالكون وما ملكت أيمانكم ﴿فِيهِ﴾ أي: في التصرف والاحتياج إلى الأموال ﴿سَوَاءٌ﴾ إذ هم أمثالكم، فلأي شيء تحتاجون إليه أنتم، وهم أيضًا محتاجون إليه بلا تفاوت ولكن ﴿تَخَافُونَهُمْ﴾ وتحذرون منهم أن تتصرفوا في أموالكم وأكسابكم بلا إذنٍ منكم ﴿كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾[1] يعني: تخافون على تضييع أموالكم، مثل خوفكم على أنفسكم، بل أشد من ذلك، وبالجملة: تخافون منهم أن تساووا معكم في التصرف في أموالكم؛ فلذلك منعتموهم، ولم ترضوا بتصرفهم وشركتهم في الحطام الدنيا، فكيف ترضون لنا شركة عبيدنا ومخلوقاتنا في ألوهيتنا وربوبيتنا، والتصرف في ملكنا وملكوتنا أيها الغافلون المفرطون في شأننا، والجاهلون بقدرتنا ومكانتنا؟! ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ﴾ ونوضح ﴿الْآيَاتِ﴾ أي: دلائل توحيدنا، وبراهين وحدتنا وتفريدنا ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: 28] ويستعملون عقولهم في تأمل الآيات، والتدبر فيها على وجه العبرة والاستبصار، فاعتبروا يا أولي الأبصار.

﴿بَلِ اتَّبَعَ﴾ الجاهلون ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أنفسهم بالخروج على مقتضى الآيات الواضحة، والبراهين اللائحة ﴿أَهْوَاءَهُم﴾ الباطلة، وآراءهم الزائغة الزائلة، مع أن اتباعهم بها ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ فائض عليهم من المبدأ الفياض، بل عن جهل مركوز في

---

(1) قال في التأويلات: يعني: تصفية الروح عن القلب ألا يضيع شيئًا مما أفاض إليه من الفيض الإلهي والمواهب الربانية بأن يصرفها في غير موضعها رياءً وسمعة، وطلب مراد هواه عند إظهار شيء منها وتصفية القلب عن السر والعقل بأن تصرفها فيها بنوع من التصرفات الفاسدة التي تفسد العقائد، وتوقع في الشكوك والظنون الفاسدة والشبهات العقلية وغيرها من الآفات فكما لا يصلح هؤلاء لشركهم؛ لأنكم معهم بمثابة الملوك مع العبد، كذلك هم مع حسن استعدادكم في قبول الفيض الإلهي يا روح وأتباعه لا تصلحون أن تكونوا شركاه في كمالية ذاتي وصفاتي إذا تجليت عليكم، فبسطوات أنوار جمالي وجلالي تنمحي آثار ظلمات أوصافكم وبأنوار صفاتي تشاهدون صفاتي فتسبحوني أني صرت حالاً فيكم، أو صرتم بعضًا مني أو تصيرون أنا، أو أصير أنتم، فأنا «الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا قَذَفْتُهُ فِي النَّارِ»(1) ومن كبريائي ألا أكون جزءًا لأحد أو مثلاً ومن عظمتي؛ إذ لا يكون أحد جزئي ولا مثلي، وأنا الذي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى:11].

جبلتهم، مركب مع طبيعتهم في أصل فطرتهم؛ لمقتضى الشقاوة الأزلية والغباوة الفطرية الجبلية، وإذا كان الأمر على ذلك ﴿فَمَن يَهْدِي﴾ ويرشد ﴿مَنْ أَضَلَّ اللهُ﴾ وأراد ضلاله، وأثبته في لوح قضائه وحضرة علمه من جملة الضالين وزمرة الجاهلين ﴿وَمَا لَهُم﴾ بعدما نفذ القضاء على شقاوتهم وضلالهم ﴿مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [الروم: 29] ينصرونهم، ويرشدونهم إلى سبيل الهداية وطريق السعادة والرشاد.

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٠) ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٣٢) وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٣٣) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٤) ﴾ [الروم: 30-34].

وبعدما سمعت يا أكمل الرسل أن الهداية والضلال إنما هو مفوض إلى الكبير المتعال ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾ فاستقم واعتدل بوجه قلبك الذي فاض عليك من ربك تتميمًا لتكميلك، وتخليصًا لك عن قيود بشريتك وأغلال طبيعتك؛ لتصل به إلى مقرك من التوحيد الذي جُبلت لأجله ﴿لِلدِّينِ﴾ النازل لك من عند ربك تأديبًا لك يا أكمل الرسل ولمن تبعك، وإصلاحًا لشأنك وشأن متابعيك ﴿حَنِيفًا﴾ أي: حال كونك مائلاً عن الأديان الباطلة، والآراء الفاسدة مطلقًا، واعلم يا أكمل الرسل أن ﴿فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ وصبغته التي صبغهم بها أصلية جبلية لا تزول عنهم أصلاً، إذ ﴿لَا تَبْدِيلَ﴾ ولا تغيير وتحويل ﴿لِخَلْقِ اللهِ﴾ الحكيم العليم، وتقديره الذي قدره بمقتضى علمه وحكمته كما قال عز شأنه: ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ [ق: 29].

﴿ذَٰلِكَ الدِّينُ﴾ المنزل عليك من ربك يا أكمل الرسل؛ لوقاية الفطرية الأصلية المذكورة هو الدين ﴿الْقَيِّمُ﴾ والطريق الأعدل الأقوم، الموصل إلى توحيده سبحانه على الاستقامة بلا عوج وانحراف ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ المجبولين على الغفلة والنسيان ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: 30] حقيقته، ولا يفهمون استقامته وإيصاله إلى التوحيد، فعليكم أيها المحمديون أن تتدينوا بدين الإسلام، وتطيعوا بجمع ما فيه من

أوامر الله ونواهيه.

﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ راجين نحوه بالإخلاص التام ﴿وَاتَّقُوهُ﴾ واحذروا عن محارمه خوفًا من انتقامه بالخروج عن مقتضى حدوده، ومع ذلك لا تقنطوا من فضله وسعة رحمته وجوده ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿أَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ وأديموا الميل نحوه في جميع أوقاتكم وحالاتكم، سيما في الأوقات المكتوبة والساعات المحفوظة ﴿وَلَا تَكُونُوا﴾ أيها المنيبون المتوجهون نحو الحق، المتدينون بدين الإسلام ﴿مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الروم: 31] المشركين معه سبحانه غيره في حال من الأحوال، ولا تنسبوا الحوادث الكائنة في ملكه وملكوته إلى غيره من الأظلال والأسباب الهالكة، المستهلكة في شمس ذاته مع كمال توحده واستقلاله في الوجود والتصرفات الواقعة في مظاهره مطلقًا.

وبالجملة: لا تكونوا أيها المحمديون المتدينون بالدين النازل من عند الله؛ لحفظ فطرتكم التي هي التوحيد الذاتي ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ﴾ الوحداني الذي هو وقاية توحيدهم فرقًا مختلفة، وابتدعوا فيه مذاهب متفاوتة متخالفة فتشعبوا شعبًا كثيرة ﴿وَكَانُوا شِيَعًا﴾ وأحزابًا يشايع ويروج ﴿كُلُّ حِزْبٍ﴾ منهم ﴿بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ وعندهم من المذهب المبتدع المستحدث من تلقاء نفوسهم ﴿فَرِحُونَ﴾ [الروم: 32] مسرورون، مدعون كل منهم حقية ما هم عليه من الباطل الزائغ.

ثمّ أشار سبحانه إلى ما حداهم وأغراهم على هذا الزيغ والضلال من الخصلة الذميمة المركوزة في جبلتهم فقال: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ﴾ المجبولين على الكفران والنسيان ﴿ضُرٌّ﴾ أي: شدة وبلاء، ومصيبة وعناء يزعجهم إلى الدعوة والتوجه نحو الحق؛ لكشفه وتفريجه ﴿دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾[1] مائلين عن الأسباب العادية مطلقًا، مسترجعين نحوه عن محض الندم والإخلاص ﴿ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم﴾ الحق، وأنجاهم ﴿مِّنْهُ﴾ أي: من الضر ومن آثاره ولوازمه المستتبعة ﴿رَحْمَةً﴾ لهم، وعطفًا إياهم على

---

(1) يشير إلى طبيعة الإنسان أنها ممزوجة من هداية الروح وطاعته، ومن ضلالة النفس وعصيانها وتمردها، فإن الناس إذا أظلتهم المحنة ونالتهم الفتنة ومستهم البلية انكسرت نفوسهم وسكنت دواعيها وتخلصت أرواحهم عن أسر ظلمة شهواتها ورجعت على وفق طبعها المجبولة عليه إلى الحضرة، ورجعت النفوس أيضًا بموافقة الأرواح على خلاف طباعها مفطورة في دفع البلية إلى الله مستغيثين بلطفه مستجيرين عن محنتهم، مستكشفين الضر، فإذا جاد عليهم بكشف ما نالهم ونظر إليهم باللطف فيما أصابهم. [التأويلات].

مقتضى اللطف والجمال ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾ أي: فجاء فريق منهم ﴿بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: 33] أي: يشركون بربهم، وينسبون الكشف والتفريج إلى الأسباب والوسائل العادية، بل إلى ما اتخذوها من دون الله من الآلهة الباطلة التي اعتقدوها شفعاء ينقذونهم عن أمثاله.

وإنما فعلوا ذلك ونسبوا ما نسبوا إلى الأظلال الباطلة ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ وأعطيناهم من النعم العظام والفواضل الجسام؛ وما ذلك إلا من خبث طينتهم، وتركب جهلهم في جبلتهم، قل لهم يا أكمل الرسل نيابةً عنا: ﴿فَتَمَتَّعُوا﴾ أيها الكافرون لنعمنا، ولفواضل لطفنا ولكرمنا، ولتعيشوا بها بطرين مسرورين ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الروم: 34] عاقبة تمتعكم وكفرانكم، وما يترتب عليها من أنواع العذاب والنكال؛ إذ يأتي عليهم زمان يعترف كلٌّ منهم بما جرى عليه من الكفران والعصيان وقت رؤيتهم أحوال الكافرين وأهوالهم في النار.

﴿ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ (٣٥) وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ (٣٦) أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣٧) فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ (٣٨) وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ (٣٩) ﴾ [الروم: 35-39].

﴿أَمْ أَنزَلْنَا﴾ يعني: بل أنزلنا ﴿عَلَيْهِمْ﴾ حينئذٍ ﴿سُلْطَانًا﴾ ملكًا ذا سلطنة وسطوة ﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ﴾ معهم، ويذكرهم ﴿بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: 35] أي: بجميع ما صدر عنهم من الشرك والكفران، وأنواع الفسوق والعصيان بلا فوت شيءٍ منها.

ثمَّ قال سبحانه: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً﴾ وأعطيناهم نعمة وسعة في الرزق، وصحة في الجسم على الترادف والتوالي ﴿فَرِحُوا بِهَا﴾ وأفرطوا في الفرح والسرور إلى أن بطروا، وباهوا مفتخرين بما عندهم من الأسباب ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ﴾ أحيانًا ﴿سَيِّئَةٌ﴾ مثل جدب وعناء، ومصيبة وبلاء تسوءهم، مع أنهم إنما أصابهم ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: بشؤم ما اقترفوا من المفاسد والمعاصي الموجبة للبطش والانتقام، فانتقمنا منهم؛

لذلك ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ [الروم: 36] أي: فجاءوا على اليأس والقنوط منا بحيث لا يتوجهون إلينا؛ لكشفها وتفريجها، بل لا يعتقدون قدرتنا على كشفها ورفعها.

﴿أَ﴾ ينكرون قدرتنا أولئك المنكرون المفرطون ﴿وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ﴾ القادر على أنواع اللطف والكرم كيف ﴿يَبْسُطُ﴾ ويفيض ﴿الرِّزْقَ﴾ الصوري والمعنوي ﴿لِمَن يَشَاءُ﴾ بسطه إياه ﴿وَ﴾ كيف ﴿يَقْدِرُ﴾ ويقبض لمن يشاء قبضه عنه على مقتضى حكمته المتقنة؟! ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ القبض والبسط ﴿لَآيَاتٍ﴾ دلائل واضحات، وشواهد لائحات ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الروم: 37] بتوحيد الله وأوصافه الذاتية الكاملة الجارية آثارها على مقتضى الحكمة والعدالة الإلهية، المعبرة عنها بالصراط القويم والقسطاس المستقيم.

وبعدما أشار سبحانه إلى بسط الرزق على من يشاء، وقبضه عمن يشاء إرادةً واختيارًا، أراد أن يشير إلى مصارفه فقال مخاطبًا لحبيبه ﷺ؛ إذ هو جدير بأمثال هذه الخطابات الإلهية: ﴿فَآتِ﴾ وأعط يا أكمل الرسل من فواضل ما رزق لك من النعم ﴿ذَا الْقُرْبَىٰ﴾[1] المنتمين إليك من قِبَل أبويك ﴿حَقَّهُ﴾ أي: ما يليق به من الصلة وحفظه ورعايته، فهم أولى وأحق بالرعاية من غيرهم ﴿وَ﴾ بعد أولئك الأولى بالرعاية: ﴿الْمِسْكِينَ﴾ وهو الذي أسكنه الفقر في هاوية الهوان، وزاوية الحرمان ﴿وَ﴾ أعط بعده: ﴿ابْنَ السَّبِيلِ﴾ وهم الذين فارقوا عن الأموال والأوطان بأسباب أباحها الشرع لهم ﴿ذَٰلِكَ﴾ التصرف المذكور ﴿خَيْرٌ﴾ في الدنيا والآخرة ﴿لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ﴾ بأموالهم وصرفها ﴿وَجْهَ اللَّهِ﴾ وابتغاء مرضاته، وخوضًا في طريق شكره، أداء حق شيء من نعمه وفواضل كرمه ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿أُولَٰئِكَ﴾ الباذلون أموالهم في سبيل الله على الوجه الذي أمرهم الحق به ﴿هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الروم: 38] المقصورون على الفوز والفلاح من عنده سبحانه.

ثمّ أشار سبحانه إلى أحوال الجهلة الذين بذلوا أموالهم؛ لطلب الجاه والثروة والسمعة ،وازدياد مال صديقه بلا وجه الله وابتغاء رضوانه وطلب الثواب منه، بل

(1) يشير إلى أن القرابة على قسمين: قرابة النسب، وقرابة الدِّين. فقرابة الدين: أمس بالمواساة والمراعاة أحق وهم الإخوان في الله والأولاد من طلب الولاية من أهل الإرادة الذين تمسكوا بأذيال الأكابر منقطعين إلى الله مشتغلين بطلب الله متجردين عن الدنيا غير مستفرغين للمعيشة، فالواجب على الأغنياء بالله القيام بأداء حقوقهم فيها يكون لهم عرف على الاشتغال بموجب الطلب بفراغ القلب. [التأويلات].

لمجرد الكبر والخيلاء، فقال: ﴿وَمَا آتَيْتُم﴾ وأعطيتم مما عندكم ﴿مِّن رِّبًا﴾ زيادة من أموالكم حاصلة من الربا، إنما أعطيتم ﴿لِّيَرْبُوَ﴾ ويزيد ﴿فِي أَمْوَالِ النَّاسِ﴾ مكافأة لهم، أو نية فاسدة أخرى بلا امتثال أمر الله وطلب مرضاته ﴿فَلَا يَرْبُو﴾ ولا يزيد لكم صرفكم هذا ﴿عِندَ اللهِ﴾ شيئًا من الثواب، بل لا يقبل عنده سبحانه أصلاً؛ لإفسادكم في أغراضكم ونياتكم ﴿وَ﴾ أمّا ﴿مَا آتَيْتُم﴾ وأعطيتم للفقراء ﴿مِّن زَكَاةٍ﴾ قد فرضها سبحانه عليكم امتثالاً لأمره، وإطاعةً لدينه على الوجه الذي أُمرتم به، مع أنكم ﴿تُرِيدُونَ﴾ وتقصدون بإخراجها وصرفها ﴿وَجْهَ اللهِ﴾ ومحض رضاه بلا خلط شيء من أماني أهويتكم، وتسويلات أمارتكم معها ﴿فَأُوْلَئِكَ﴾ الفاعلون للزكاة على الوجه المذكور المأمور ﴿هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ [الروم: 39] عند الله ثوابها إلى سبعين، بل إلى سبعمائة، بل إلى ما شاء الله عنايةً من الله، وإفضالاً لهم.

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾[الروم: 40-43].

وكيف لا تطلبون وتقصدون بخيراتكم وصدقاتكم خالص وجه الله، وتشركون معه غيره من التماثيل والأظلال الهالكة، الباطلة العاطلة؛ إذ ﴿اللهُ﴾ المتوحد المتفرد في ذاته، القادر المقتدر، الحكيم العليم ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ وأظهركم من كتم العدم، ولم تكونوا شيئًا مذكورًا لا بالقوة ولا بالفعل ﴿ثُمَّ﴾ بعدما أظهركم في بيداء الوجود ﴿رَزَقَكُمْ﴾ وأنعم عليكم من أنواع النعم؛ ليربيكم بها على مقتضى اللطف والكرم ﴿ثُمَّ﴾ بعدما انقضى الأجل المسمى عنده لبقائكم في النشأة الأولى ﴿يُمِيتُكُمْ﴾ على مقتضى قهره وجلاله تتميمًا لقدرته الكاملة الغالبة ﴿ثُمَّ﴾ بعدما انقرضت النشأة الأولى المعدة لأنواع الابتلاءات والاختبارات الإلهية، المتعلقة لحكمة إظهاركم وإيجادكم في عالم الكون والفساد؛ لتتزودوا فيها من المعارف والحقائق، والاتصاف بالأخلاق الإلهية لنشأتكم الأخرى ﴿يُحْيِيكُمْ﴾ فيها؛ للعرض والجزاء وتنقيد ما اقترفتم من الأعمال والأحوال في النشأة الأولى؛ لتجازوا بها على مقتضاها فيها.

وبعدما سمعتم ما سمعتم تأملوا وتدبروا منصفين أيها المشركون بالله المتوحد المتفرد، المستقل في التصرفات الواقعة في ملكه غيرةً منه سبحانه وحميَّة؛ لحمى قدس ذاته من أن يحوم حول سرادقات عزه وجلاله شائبة فتور وقصور، وبعدما سمعتم هذا من خواص اوصافه سبحانه تأملوا ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم﴾ الذين ادعيتم شركتهم مع الله القادر المقتدر على أمثاله بالاستقلال والاختيار ﴿مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم﴾ الذي سمعتم صدوره منه سبحانه ﴿مِن شَيْءٍ﴾ حقير قليل، كلا وحاشا صدور شيء من الأشياء من غيره ﴿سُبْحَانَهُ﴾ أي: هو في ذاته منزه عن شوب الشركة والمظاهرة مطلقًا ﴿وَتَعَالَىٰ﴾ شأنه ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: 40] أولئك المشركون المسرفون علوًا كبيرًا.

ومن كمال جهلهم بالله، وغفلتهم عن علو قدره وسمو مكانته ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ﴾ وأنواع البليات والمصيبات الواقعة ﴿فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾[1] من الجدب والعناء والوباء والزلزلة، وأنواع الحرق والغرق والضلالات الواقعة في السفن الجارية، مع أن أصل الظهور والبروز باعتبار الفطرة الأصلية على العدالة والاستقامة، وإنما ظهر ما ظهر من الانحرافات والانصرافات المنافية لصرافة الاعتدال الحقيقي الإلهي ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ أي: بشؤم ما اقترفوا من الكفر والكفران، والفسوق والعصيان، والخروج عن مقتضى الحدود الإلهية الموضوعة على الاعتدال والقسط القويم، والحكمة في صدور هذه الانحرافات والفسادات منهم: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ أي: ليذيق لهم العليم الحكيم في الدنيا وبال بعض أعمالهم الفاسدة، ويبقى بعضها إلى الآخرة ليستوفيها، وإنما نذيقهم نبذًا منها عاجلاً ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: 41] إلينا بعدما ذاقوا ما ذاقوا من أنواع المحن والشدائد.

---

(1) قال البقلي: إن الله سبحانه غلب الإنسانية على الكون طاعةً ومعصيةً، فإذا رزق الإنسان الطاعة صلح الأكوان ببركتها، وإذا رزقه العصيان فسد الحدثان بشؤم معصيته؛ لأن طاعته ومعصيته من تأثير لطفه وقهره، ولطفه وقهره هذا بنعت الاستيلاء على الوجود، فإذا فسادها يؤثر في بر النفوس وبحار القلوب، ففساد بر النفوس فترتها عن العبودية، وفساد بحر القلب احتجابه عن مشاهدة أنوار الربوبية. قال الواسطي: البر النفس، والبحر القلب، وفساد النفس متعلقٌ بفساد القلب، فمن لم يعمل في إصلاح قلبه بالتفكر والمراقبة وفي إصلاح نفسه بأكل الحلال ولزوم الأدب ظهر الفساد في ظاهره وباطنه. وقيل: في البر والبحر ": السرائر والظواهر. قال جعفر: شاهد البر من عرف نفسه، وشاهد البحر من عرف قلبه، وصلاح هذين بالهيبة والحياء، فهيبة الرب تزيل فساد الظاهر، والحياء منه يميت فساد الباطن.

وإن أنكر هؤلاء المشركون إذاقتنا العذاب لأمثالهم ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل نيابةً عنا: ﴿سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ المعدة لأنواع الكون والفساد ﴿فَانظُرُوا﴾ نظر معتبر منصف، ومتأمل مستبصر؛ ليظهر عندكم ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ﴾ مضوا ﴿مِن قَبْلُ﴾ مع أنهم ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ [الروم: 42] أمثالكم، مشاركين معكم في الشرك والكفر، وأنواع الفسوق والعصيان.

وبعدما أشار سبحانه إلى وخامة عاقبة أصحاب الآراء الفاسدة، والأهواء الباطلة من المنحرفين عن جادة الاستقامة، المنصرفين عن سبيل السلامة، أمر حبيبه ﷺ بالإقامة والاستقامة في منهج العدالة التي هي دين الإسلام الناسخ لجميع الأديان الباطلة، والآراء الزاهقة الزائلة، فقال: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾ أي: استقم وتوجه يا أكمل الرسل بوجه قلبك الذي يلي الحق ﴿لِلدِّينِ الْقَيِّمِ﴾ المنزل من عنده سبحانه على الاستقامة والعدالة تفضلاً عليك وامتنانًا ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ﴾ ويجيء ﴿يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ﴾ أي: لا يرد فيه ما نفذ من القضاء المبرم؛ لأن إتيانه ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ العليم الحكيم على هذا الوجه؛ إذ لا استكمال ولا رجوع حينئذٍ، ولا ينفع الطاعة والعبادة حين حلوله، بل ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ [الروم: 43] أي: يتفرق الناس فرقًا، ويتحزبون أحزابًا على مقتضى ما كانوا عليه في نشأة الابتلاء والاختبار.

﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الروم: 44-47].

﴿مَن كَفَرَ﴾ فيما مضى ﴿فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ أي: وبال كفره وفسقه ملازم معه يدخله في النار، ويخلده فيها مهانًا ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا﴾ فيما مضى ﴿فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ [الروم: 44] أي: فهم بإيمانهم وعملهم الصالح يمهدون، ويبسطون لأنفسهم منزلاً ومهادًا في الجنة هم فيها خالدون.

والسر في قيام الساعة والنشأة الأخرى: ﴿لِيَجْزِيَ﴾ سبحانه ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾

وأيقنوا بتوحيده وبجميع ما جاء من عنده على رسله ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ المقبولة عنده امتثالاً لما أمروا به على ألسنة رسله ﴿مِن فَضْلِهِ﴾ أي: يجزيهم من محض فضله ولطفه معهم، ومحبته إياهم بأضعاف ما استحقوا بأعمالهم وإيمانهم، ويجزي الكافرين أيضًا بمقتضى عدله بمثل ما اقترفوا من الكفر والشرك، وأنواع الظلم والضلال ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الكَافِرِينَ﴾ [الروم: 45] المصرين على الكفر والضلال، سيما بعد إرساله سبحانه إليهم منْ يصلحهم ويهديهم إلى صراط مستقيم، فكذبوه وأنكروا له عنادًا واستكبارًا.

﴿وَمِنْ﴾ جملة ﴿آيَاتِهِ﴾ سبحانه الدالة على كمال رأفته ورحمته للمؤمنين المتحققين لمرتبة التوحيد، المتمكنين بمقر الوحدة الذاتية: ﴿أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ﴾ المشتملة لأنواع الروح والراحة، المهبة من نفحات النفسات الرحمانية؛ ليتعرضوا لها ويستنشقوا منها فيضان آثار اللطف والجمال، مع كونها ﴿مُبَشِّرَاتٍ﴾ لمزيد فضله وطوله، ونزول أنواع رحمته وجوده ﴿وَلِيُذِيقَكُم﴾ ويفيض عليكم ﴿مِّن﴾ سعة ﴿رَّحْمَتِهِ﴾ ما ينجيكم ويخلصكم من لوازم بشريتكم وناسوتكم ﴿وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ﴾ أي: سفن تعيناتكم الجارية في بحر الوجود ﴿بِأَمْرِهِ﴾ وعلى مقتضى مشيئته وإرادته ﴿وَلِتَبْتَغُوا﴾ وتطلبوا بعدما فوضتم أموركم إليه واتخذتموه وكيلاً ﴿مِن﴾ موائد ﴿فَضْلِهِ﴾ وإحسانه، وعوائد كرمه وجوده ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر ﴿وَ﴾ إنما فعل معكم سبحانه هذه الكرامات ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الروم: 46] رجاء أن تشكروا نعمه، وتفوزوا بمزيد كرمه، وتتحققوا بمقام معرفته وتوحيده الذي جبلتم لأجله.

ثمَّ قال سبحانه مقسمًا تسليةً لرسول الله ﷺ وإزالةً لهمه وحزنه من تكذيب الجهلة المسرفين، المشركين بالله، المستهزئين مع رسوله: ﴿وَ﴾ الله ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿رُسُلاً﴾ مبشرين ومنذرين ﴿إِلَى قَوْمِهِمْ﴾ الذين ظهرتْ عليهم أمارات الكفر والطغيان، وعلامات الكفر والعدوان ﴿فَجَاءُوهُم﴾ مؤيِّدين من عندنا ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الواضحة، والمعجزات اللائحة، ففاجئوا على تكذيبهم عنادًا واستكبارًا بلا تدبر وتأمل منهم في آياتهم وبيناتهم ﴿فَانتَقَمْنَا﴾ بمقتضى قهرنا وجلالنا ﴿مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ بالجرائم العظام، سيما تكذيب الرسل - عليهم السلام - ﴿وَ﴾ كيف لا ننتقم عنهم بتكذيبهم رسلنا، مع أنه ﴿كَانَ حَقًّا عَلَيْنَا﴾ بمقتضى ما ثبت في لوح قضائنا، وحضرة علمنا ﴿نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: 47] أي: نصر الرسل والمؤمنين بهم،

وتغليبهم على الكافرين بعدما امتثلوا لأوامرنا، واجتنبوا عن نواهينا، وبلّغوا جميع ما أمرناهم وأوحيناهم إلى ما أرسلناهم، فكذبوهم ولم يقبلوا منهم؟!.

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾[الروم: 48-53].

فكيف لا يقبل منهم أولئك البعداء، المنكرون المسرفون وحي الحق إياهم وإلهامهم عليه، مع أنه ﴿ٱللَّهُ﴾ الجامع لجميع مراتب الأسماء والصفات الظاهرة، المتجلي على مقتضاها بالاستقلال إرادةً واختيارًا ﴿الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ﴾ المنتشئة من محض فضله وجوده بلا سبق سبب يوجبها، وعلة تقتضيها على ما جرى عليه عادته سبحانه في سائر الموجودات ﴿فَتُثِيرُ﴾ وتحرك أجزاء البخار والدخان، ويمتزج بعضها مع بعض فتركمها وتكشفها حتى صارت ﴿سَحَابًا﴾ هامرًا ﴿فَيَبْسُطُهُ﴾ سبحانه ﴿فِي﴾ جو ﴿السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ عرضًا وطولاً، سائرًا وواقفًا، مطبقًا وغير مطبقٍ، إلى غير ذلك من الأوضاع الممكنة الورود عليها.

﴿وَ﴾ بعدما مهده سبحانه وبسطه ﴿يَجْعَلُهُ كِسَفًا﴾[1] أي: قطعًا مختلفة ﴿فَتَرَى﴾ أيها الرائي ﴿الْوَدْقَ﴾ المطر ﴿يَخْرُجُ﴾ ويفيض ﴿مِنْ خِلَالِهِ﴾ وفتوقه بعدما تكوّن فيه

---

(1) قال في التأويلات: قطعًا، قطعة: تمطر غيث القربة على النفوس فتطهرها من الذنوب، وقطعة: تمطر على الأسرار بغيث الأنوار فتطهرها عن النظر إلى الأغيار، وقطعة: تمطر على الأرواح بغيث الكشف على الأسرار فتطوى ببساط الحشمة على ساحات قربه وتضرب قباب الهيبة بمشاهد كشفه، وينشر عليهم أنهار أنسه، ثم يتجلى لهم بحقائق قدسه ويسقيهم بكأس التجلي شراب طهور محبته، وبعدما محاهم عن أوصافهم أصحهم لا بهم ولكن بنفسه والعبارات عن ذلك خرس والإشارات دونها طمس.

بقدرة الله من اجتماع أجزاء الأبخرة والأدخنة المتصاعدة الممتزجة، المتراكمة المتكاثفة، المتفاعلة بعضها مع بعض إلى أن صارت ماء فتقطر وتسيل ﴿فَإِذَا أَصَابَ بِهِۦ﴾ أراضي ﴿مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ عنايةً منه سبحانه إياهم، وتفضلاً عليهم ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الروم: 48] أي: فوجئوا بنزوله إلى أنواع الاستبشار والابتهاج، والفرح والسرور متفائلين بنزوله إلى الخصب والرخاء، وأنواع البهجة والصفاء.

﴿وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم﴾ المطر ﴿مِّن قَبْلِهِۦ﴾ أي: من قبل ثوران الأبخرة والأدخنة، وانعقاد السحب وتراكمها منها ﴿لَمُبْلِسِينَ﴾ [الروم: 49] آيسين قانطين؛ لطول عهد عدم نزوله إياهم.

﴿فَانظُرْ﴾ أيها المؤمن المعتبر، الناظر بنور الله ﴿إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ﴾ وكمال فضله وجوده ﴿كَيْفَ يُحْيِ﴾ ويخضر ﴿ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ أي: جمودها ويبسها، وعدم نضارتها ونزاهتها، ويظهر عليها أنواع الأزهار والأثمار عنايةً منه سبحانه لعباده، وفضلاً لهم؛ ليتزودوا بها ويسلكوا سبيل هدايته وتوحيده ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ القادر المقتدر بالإرادة التامة والاختيار الكامل ﴿لَمُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ ومخرجها ألبتة من قبورها وقت تعلق إرادته بإحيائها ﴿وَ﴾ كيف لا ﴿هُوَ﴾ بذاته ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ دخل في حيطة حضرة علمه وإرادته ﴿قَدِيرٌ﴾ [الروم: 50] على الوجه الأتم الأكمل بلا فتور وقصور؟!.

﴿وَ﴾ من عدم رسوخهم في الدين القويم، وقلة تثبتهم على الصراط المستقيم ﴿لَئِنْ أَرْسَلْنَا﴾ عليهم ﴿رِيحًا فَرَأَوْهُ﴾ أي: ما هبت عليه من الزروع ﴿مُصْفَرًّا﴾ من أثرها بعدما كان مخضرًا؛ يعني: لا يربي زروعهم ولا ينميها، بل يضعفها ويرديها، مع أن إضرارها واصفرارها أيضًا إنما هو بشؤم ما اقترفوا من المعاصي والآثام ﴿لَّظَلُّوا مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي: صاروا وأخذوا بعد اصفراره ﴿يَكْفُرُونَ﴾ [الروم: 51] بالله وبنعمه، وينكرون بعموم فضله وكرمه، مع أن أخذهم بالبأساء والضراء؛ إنما هو ليتضرعوا نحوه، ويلتجئوا إليه منيبين خاشعين خاضعين؛ ليكشف عنهم ما يضرهم؛ إذ لا كاشف إلا هو، ولا منجي لهم سواه.

وبالجملة: هم من خبث طينتهم، وجمود قريحتهم أموات حقيقة ومعنى، وإن كانوا من الأحياء صورة، لا تبال يا أكمل الرسل بهم وبشأنهم، ولا تجتهد إلى إهدائهم وتكميلهم ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي: ليس في وسعك وطاقتك إسماع الموتى، بل

ما عليك إلا التبليغ والدعوة ﴿وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ﴾ الجبلي ﴿الدُّعَآءَ﴾ والدعوة، سيما ﴿إِذَا وَلَّوْا﴾ وانصرفوا عنك ﴿مُدْبِرِينَ﴾ [الروم: 52] معرضين منكرين لك، مكذبين رسالتك ودعوتك.

﴿وَ﴾ كيف تجتهد وتسعى يا أكمل الرسل في حصول ما هو خارج عن وسعك وطاقتك، مع أنك لا تؤمر به؟! إذ ﴿مَا أَنتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ﴾ إذ هم مجبولون على الغواية الجبلية في أصل فطرتهم، فاقدون بصائر قلوبهم المدركة دلائل التوحيد وشواهد الوحدة الذاتية، ولا يتأتى لك أن تهديهم إلى طريق التوحيد وترشدهم إليه ﴿إِن تُسْمِعُ﴾ بتبليغك وإرشادك ﴿إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾ ونوفقهم على الإيمان بمقتضى ما ثبت وجرى في لوح قضائنا وحضرة علمنا ﴿فَهُم﴾ بعدما سبقت العناية منا إياهم ﴿مُّسْلِمُونَ﴾ [الروم: 53] منقادون لك، مسلمون منك جميع ما بلغت لهم من شعائر الدين، ودلائل التوحيد واليقين.

﴿ ۞ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۖ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [الروم: 54-57].

ثمّ قال سبحانه على سبيل الامتنان إظهارًا لكمال قدرته على إبداء الشئون والتطورات الواردة على عباده حسب تعاقب الأزمنة والأوقات في النشأة الأولى، فكيف ينكرون إعادتها في النشأة الأخرى مع أن الإعادة أهون من الإبداء، وإن كان الكل في جنب قدرته على السواء: ﴿اللَّهُ﴾ القادر المقتدر، الحكيم المتقن في أفعاله وأحكامه، العليم بمقتضاها هو ﴿الَّذِي خَلَقَكُم﴾ وقدر وجودكم بعدما أبدعكم من كتم العدم في عالم الطبيعة والهيولي ﴿مِّن ضَعْفٍ﴾ هو ماء النطفة الضعيفة المهينة ﴿ثُمَّ جَعَلَ﴾ ما صير وخلق ﴿مِن بَعْدِ ضَعْفٍ﴾ كائن في نشأة النطفة ﴿قُوَّةً﴾ جسمانية متزايدة؛ مستكملة فيها إلى أن بلغت كمال الشباب ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ﴾ كائنة في

عالم الشباب ﴿ضَعفًا﴾ وانحطاطًا ﴿وَشَيبَةً﴾[1] مضعفة لجميع القوى والآلات، منتهية إلى الهرم الذي عبر عنه سبحانه بأرذل العمر؛ كي لا يعلم صاحبه من بعد علم شيئًا، وبالجملة: ﴿يَخلُقُ﴾ ويظهر سبحانه جميع ﴿مَا يَشَاءُ﴾ ويريد إرادةً واختيارًا ﴿وَ﴾ كيف لا ﴿هُوَ العَلِيمُ﴾ بجميع ما أحاط عليه إرادته ومشيئته ﴿القَدِيرُ﴾ [الروم: 54] لإيجاده وإظهاره في فضاء العيان بلا فتور وقصور.

﴿وَ﴾ كيف ينكر من ينكر الحشر والنشر، وإعادة الموتى أحياءً بعدما شهد هذه التطورات المتخالفة المتعاقبة؟! اذكر لهم يا أكمل الرسل ﴿يَومَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ الموعودة المعدة لحشر الأموات من الأجداث ﴿يُقسِمُ المُجرِمُونَ﴾ أي: يقسم ويحلف كلٌّ منهم عند صاحبه بمدة لبثهم في الدنيا مترفهين متنعمين، واتفقوا بعدما اختلفوا وترددوا في مكثهم فيها أنهم ﴿مَا لَبِثُوا﴾ فيها ﴿غَيرَ سَاعَةٍ﴾ واحدة بالنسبة إلى طول يوم القيامة، ومن شدة عذابها وأهوالها، وكثرة الهموم والأحزان فيها صار لبثهم في الدنيا مدة أعمارهم فيها ساعة واحدة عندهم، بل بعضهم تخيلوا أقصر منها ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: مثل صرفهم عن طول مدة مكثهم في الدنيا يوم القيامة ﴿كَانُوا يُؤفَكُونَ﴾ [الروم: 55] ويصرفون في النشأة الأولى عن طريق التوحيد، وسبيل الهداية والرشاد من كمال غفلتهم وقسوتهم.

﴿وَ﴾ بعدما سمع منهم المؤمنون الموحدون استقصارهم مدة لبثهم فيها، وانصرافهم عن الحق ﴿قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا العِلمَ﴾ اللدني من قِبَل الحق ﴿وَالإِيمَانَ﴾ بالمغيبات التي أُمروا بتصديقها على ألسنة الرسل والكتب، سيما يوم البعث والنشور ردًا عليهم، وتخطئةً لهم: ﴿لَقَد لَبِثتُم﴾ في الدنيا بمقتضى ما ثبت ﴿فِي كِتَابِ اللهِ﴾

---

(1) قال في التأويلات: في الإيمان لمن كان العقل عقيلته فكما تعقل بعلاقة المعقولات، فينظر فيها بداعية الهوى بنظر مشوب بآفة الوهم والخيال، فيقع في ظلمات الشبهات فتزل قدمه عن الصراط المستقيم والدين القويم فيهلك كما هلك فمن شرع في تعلم المعقولات بلا نور المتابعة ونور الشريعة وسعوا في إبطال الشريعة بظلمة الطبيعة ﴿يُرِيدُونَ لِيُطفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفوَاهِهِم واللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَو كَرِهَ الكَافِرُونَ﴾ [الصف:8] وأيضًا خلقكم من ضعف أي ضعف التردد والتحير في الطلب، ثم جعل من بعد ضعف قوة في صدق الطلب، ثم جعل من بعد قوة في الطلب ضعفًا في حمل القول الثقيل وهو حقيقة قوله: لا إله إلا الله فإنها توجب الفناء الحقيقي في المعنى ويوجب الضعف الحقيقي في الصورة بحمل المعاتبات والمعاشقات التي تجري بين المحبين فإنها تورث الضعف أو الشيب، كما قال النبي ﷺ: «شيبتني سورة هود وأخواتها».

ولوح قضائه، وحضرة علمه ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ﴾ وحشر الموتى، وقيام الساعة ﴿فَهَٰذَا﴾ اليوم الذي أنتم فيه معذبون الآن ﴿يَوْمُ الْبَعْثِ﴾ الموعود لكم في الدنيا على ألسنة الرسل ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ﴾ من خبث طينتكم وجهلكم ﴿كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الروم: 56] ولا تؤمنون به، ولا تصدقون قيامه، بل تنكرونها وتكذبون من أخبر بها من الرسل العظام، مع أنهم مؤيَّدون مِن قِبَل الحق بالدلائل القاطعة، والبراهين الساطعة، والمعجزات الباهرة الظاهرة.

وبعدما فوَّتوا الفرص في دار الاختبار، وضيعوا عين العبرة والاعتبار فيها ﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾ أي: حين قيام الساعة، وانقضاء أيام التفقد والتدارك ﴿لَّا يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أنفسهم بالخروج عن حدود الله والعرض على عذابه ﴿مَعْذِرَتُهُمْ﴾ أي: عذر منهم ليعتذروا عن قصورهم، ويتوبوا عن فتورهم متداركين لما فوَّتوا ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [الروم: 57] أي: لا يُطلب منهم العتبى حتى يزول عتابهم بالتوبة والإنابة والندم والرجوع؛ إذ قد انقضت نشأة الابتلاء والاختبار، حينئذٍ لا يُقبل منهم التوبة والعبادة أصلاً.

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الروم: 58-60].

ثمّ قال سبحانه على سبيل التأكيد والمبالغة مشيرًا إلى كمال قسوة أهل الزيغ والضلال: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا﴾ وبيّنا ﴿لِلنَّاسِ﴾ الناسين طريق الوصول إلى توحيدنا ووحدة ذاتنا ﴿فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ﴾ المنزل من عندنا؛ لتبيين طريق توحيدنا، وسلوك سبيل الاستقامة والرشاد فيه ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ ينبئ لهم عنه، وينبئهم عليه، ويبين لهم كيفية التنبه والتفطن منه، ومع ذلك لم يتنبهوا ولم يتفطنوا إلا قليلاً منه ﴿وَ﴾ من غلظ غشاوتهم، ونهاية غفلتهم وضلالهم ﴿لَئِن جِئْتَهُم﴾ يا أكمل الرسل ﴿بِآيَةٍ﴾ من آيات القرآن ملجئةٍ لهم إلى الإيمان، لو تأملوا معناها وتدبروا فحواها ﴿لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: أعرضوا عن الحق، وانصرفوا عن توحيده والإيمان على سبيل الحصر والمبالغة بلا مبالاة بك وبآياتك: ﴿إِنْ أَنتُمْ﴾ أي: ما أنتم في دعواكم هذه أيها المدعون الكاذبون - يعنون: الرسول والمؤمنين - ﴿إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ [الروم: 58] مفترون مزورون، تفترون على الله ما

تختلقون من تلقاء نفوسكم تغريرًا وترويجًا.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل طبعهم وختمهم الذي شهدت يا أكمل الرسل من هؤلاء الجهلة ﴿يَطْبَعُ اللَّهُ﴾ الحكيم المتقن في أفعاله، ويختمه ﴿عَلَىٰ قُلُوبِ﴾ جميع الكفرة والجهلة ﴿الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: 59] الحق، ولا يذعنون به؛ لتركب جهلهم في جبلتهم، والجهل المركب لا يزول بالقواطع والشواهد قطعًا ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور: 40].

وما متى سمعت يا أكمل الرسل من أحوالهم وأوصافهم ما سمعت من عدم قابليتهم واستعدادهم إلى الهداية والرشاد ﴿فَاصْبِرْ﴾[1] على إيذائهم، وثق بالله وبوعده الذي وعدك بأن يُظهر دينك على الأديان كلها ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ وإنجازه لما وعد به ﴿حَقٌّ﴾ بلا خلف وتردد ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ﴾ أي: لا يحملنَّك ويبعثنَّك يا أكمل الرسل على الخفة والاضطراب، وقلة التصبر، وعدم الثقة بالله القوم ﴿الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: 60] ولا يتصفون باليقين في أمر من الأمور أصلاً، فكيف بالمعارف والحقائق الإلهية؛ إذ هم مجبولون على فطرة الضلال، مترددون في بيداء الوهم والخيال، لا نجاة لهم منها في حال من الأحوال؟!.

هب لنا من لدنك جذبةً تنجينا عن مضيق الجهل والضلال، ووصلنا إلى سعة العلم وفضاء الوصال، نحمدك على كل حال، ونستعيذ بك منك من جميع الأهوال.

خاتمة السورة

عليك أيها المحمدي المتحقق لمرتبة اليقين العلمي والعيني والحقي - مكنك

(1) في العبودية، فإن بعد أداء العبودية كشف الربوبية لك، ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾: بكشف الحجاب لك، ويا عاقل إن أشد الصبر، الصبر في الحجاب، ثم الصبر في العتاب، ثم الصبر في كشف النقاب، ثم الصبر في الخطاب، ثم الصبر في القربات، ثم الصبر في المداناة، ثم الصبر في الوصلات، ثم الصبر في لطف الأنس، ثم الصبر في سطوة القدس، ثم الصبر في الانبساط، ثم الصبر في العربدة، ثم الصبر في الاتصاف، ثم الصبر في الاتحاد، ثم الصبر في السكر، ثم الصبر في الغيبة عن الحق، ثم الصبر في رؤية نفسه بعد غيبة الحق، ثم الصبر في غلبة الأنانية، هذا أشد جميع الصبر والاصطبارات، ولا يعرف هذه المقامات في الصبر إلا ذو الكمال من العارفين. وقال رويم: الصبر ترك الشكوى. وقال المحاسبي: الصبر التهدف بسهام البلاء.

الحق في مقر لاهوتك، وجنبك عن لوازم ناسوتك مطلقًا - أن تتصبر على أذيات أصحاب التقليدات والتخمينات، وتتحمل على تشنيعات أرباب الظنون والجهالات المترددون في تيه الجهل والضلال بمتابعة الوهم والخيال، وتصفي خاطرك وضميرك عن معارضتهم ومقابلتهم، والبغض معهم والالتفات إليهم مطلقًا؛ إذ هم قوم خذلهم الله وأحطهم عن مرتبة الإنسان التي هي التحقق بمقام اليقين والعرفان، والتمكن في مرتبة الخلافة والنيابة من الرحمن المستعان، والتخلق بأخلاق الحنَّان المنَّان، وأسكنهم في مضيق الإمكان مقيدين بسلاسل التقليد وأغلال الحسبان، لا نجاة لهم منها أبدًا.

وعليك أن تتوجه بوجه قلبك إلى ربك، وتفوض أمورك كلها إليه وتتخذه وكيلاً، وتجعله حسيبًا وكفيلاً، فإنه سبحانه يكفيك مؤنة شرور أعدائك وحاسديك، ولك التبتل والانقطاع إلى الله في كل الحالات، والرجوع نحوه في جميع المهمات والملمات؛ إذ ما من خير يسرك وشر يضرك إلَّا منه بدأ وبقدرته ظهر، وعلى مقتضى علمه صدر وبموجب حكمته جرى وقدر.

فلك أن تسترجع إليه، وتتضرع نحوه، وتستعيذ منه به؛ إذ الكل من عنده لا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

سورة لقمان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة لقمان

لا يخفى على من تحقق بالمرتبة الحكمية العليّة من مقامات سالك التوحيد، وتمكن عليها مطمئنًا راضيًا، مداومًا على الميل المعنوي والتوجه التام بجميع الجوارح والأركان نحو الحق، مسقطًا عن نفسه جميع ما يشغله عن التوجه والالتفات إلى المبدأ الحقيقي، والمنشأ الأصلي على الوجه الأتم الأكمل، إن الوصول والتحقق بمرتبة التوحيد والهداية الحقيقية، والتكمن في مقر الاطمئنان واليقين، والنيل إلى شرف الفناء في الله والبقاء ببقائه إنما يحصل برفع الموانع، ورفض الرسوم والعادات العائقة عن إدراك السعادات، وذلك لا يتم إلا بعد خلع خُلع الناسوت مطلقًا، وترك مقتضيات الأوصاف البشرية والقوى الجسمانية رأسًا.

وذلك لا يتيسر إلا بارتكاب متاعب الطاعات، ومشاق التكليفات القاطعة القالعة عرق التعلقات المرتكزة في القوى البشرية، وأصول اللذات الوهمية اللازمة للنفوس البهيمية، والهياكل الهيولانية المستحدثة من خبث الطبيعة المكدرة بأدناس الإمكان المفضي بالطبع إلى الدناءة والنقصان، وأنواع الخساسات والخسران.

والخلاص عن أمثال هذه الموانع والشواغل إنما هو بتوفيق الله وجذبٍ من جانبه، وإرشاد مرشدٍ نبيهٍ مؤيَّدًا من عنده سبحانه بالدلائل والتنبيهات، وأنواع المعجزات والتبيينات الخوارق للعادات.

ولهذه المصلحة العليّة، والحكمة السنيّة خاطب سبحانه حبيبه ﷺ بما خاطب بعدما تيمن بذكره الأجلّ الأعلى، فقال: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي أنشأ ينابيع الحكمة من قلوب أنبيائه وأوليائه، وأجرى على ألسنتهم أنهار المعارف والحقائق المنتشئة منها إرشادًا لعموم عباده ﴿الرَّحْمَنِ﴾ عليهم بإرسال الرسل المؤيَّدين من عنده بنزولِ الكتب والصحف تتميمًا لمكارم أخلاقهم، ومحاسن أطوارهم وشيمهم؛ ليستعدوا بقبول دلائل التوحيد، ونزول سلطان الوحدة على قلوبهم ﴿الرَّحِيمِ﴾ لهم، يوصلهم إلى مبدئهم الأصلي ومنشئهم الحقيقي بعد رفع تعيناتهم، ونفي هوياتهم الباطلة.

﴿الٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّلۡمُحۡسِنِينَ ۝٣ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٥ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ۝٦ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٧﴾ [لقمان: 1-7].

﴿الم﴾[1] [لقمان: 1] أيها الإنسان الكامل اللائق للوامع لطائف أنوار الوجود الإلهي، ولوائح آثار جوده، المكرم المؤيَّد من عنده بمزيد اللطف والكرم، الممتاز المتخصصُ من بين جميع مظاهره بالمرتبة الجامعة المستجمعة لجميع المراتب العلية.

﴿تِلْكَ﴾ الآيات المَتلوة عليك يا أكمل الرسل امتنانًا لك، واختصاصًا بشأنك ﴿آيَاتُ الكِتَابِ﴾ أي: نبذ من آياتَ الكتاب ﴿الحَكِيمِ﴾ [لقمان: 2] المشتمل على الحكمة المتقنة، المنبعثة عن اجتماع القدرة الكاملة والإرادة الخالصة، المترتبتين على العلم الكامل الإلهي الذي لا يغيب عن حضرة حضوره ذرة من ذرائر ما لاحت عليه شمس الوجود.

ولجمعيته وشموله، وصدق نزوله من عند الله اتصف بوصفه سبحانه تأكيدًا ومبالغةً، ولكونه نازلاً من عنده سبحانه على مقتضى الحكمة البالغة؛ لتأييد رسوله المبعوث إلى كافة الأمم صار ﴿هُدًى﴾ عامًا، ورشدًا تامًا كله للممتثلين بما فيه من الأوامر والنواهي، والأحكام والقصص، والتذكيرات والعبر، والرموز والإشارات ﴿وَرَحْمَةً﴾ خاصة نازلة من عنده سبحانه ﴿لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ [لقمان: 3] الذين لا يرون غير الله في الوجود، ولا يعبدون سواه من الوسائل، ولا ينسبون الحوادث الكائنة في الآفاق إلى الأسباب العادية، والمحسنون المرضيون عند الله، الراضون بما جرى عليهم من نفوذ القضاء.

هم ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ﴾ ويواظبون عليها في جميع أوقاتهم وحالاتهم، سيما

---

(1) قال في التأويلات: يشير بالألف إلى آلائه، وباللام إلى لطفه وعطائه، وبالميم إلى مجده وثنائه، فبآلائه رفع الجحد من قلوب الأولياء، وبلطف عطائه أثبت المحبة في أسرار أصفيائه، وبمجده وثنائه مستغن عن جميع خلقه بوصف كبريائه.

الأوقات المحفوظة المقبولة ﴿وَيُؤْتُونَ﴾ وينفقون جميع ما في أيديهم من الرزق الذي يسوق الحق إليهم في سبيله طلبًا لمرضاته، سيما ﴿الزَّكَاةَ﴾ المفروضة عليهم من عنده سبحانه تزكيةً لظواهرهم عن الالتفات إلى ما يشغلهم ﴿وَ﴾ مع ذلك لا يقتصرون أولئك السعداء المقبولون بتهذيب الظاهر والباطن، بل ﴿هُم بِالْآخِرَةِ﴾ المعدة لتنقيد الأعمال وجزاء الأفعال ﴿هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [لقمان: 4] علمًا وعينًا وحقًّا.

وبالجملة: ﴿أُولَئِكَ﴾ السعداء المتصفون بالخصائل السنيّة والأخلاق المرضية ﴿عَلَى هُدًى﴾ صريح صحيح، فائض نازل إياهم ﴿مِّن رَّبِّهِمْ﴾ تفضلاً عليهم، وامتنانًا لهم ﴿وَأُولَئِكَ﴾ الأمناء المقبولون المرضيون عند الله ﴿هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [لقمان: 5] المقصورون على الفوز والفلاح ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: 38].

جعلنا الله من خدامهم وتراب أقدامهم.

﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ المجبولين على كفران نعم الله، ونسيان حقوق كرمه وجوده ﴿مَن يَشْتَرِي﴾ ويستبدل آيات الكتاب المشتمل على أنواع الفضائل والكمالات، وأصناف الهدى والكرامات ﴿لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾[1] أي: يستبدل الآيات الإلهية، ويختار بدلها من الأراجيف الكاذبة ما يلهي النفوس، ويشغلها عما يعنيها ويفيدها، ويقربها إلى ما لا يعنيها ويضرها، وما ارتكب ذلك الضال المضل بما ارتكب من الاشتراء والاستبدال الفاسد إلّا ﴿لِيُضِلَّ﴾ ويصرف ﴿عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ من يميل إليها ويتوجه نحوها؛ ليتدين بدين الله، وينقاد لنبيه على مقتضى فطرته الأصلية، مع أنه صدر عنه هذا الصرف والمنع ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ يتعلق به منه نقلاً أو عقلاً، عن جهل مرتكز في جبلته، وحميته مركوزة في خبث طينته وطبيعته.

---

(1) قال في التأويلات: فما يشغل عن الله ذكره ويحجب عن الله سماعه فهو لهو الحديث، وأما الغناء فمنه محرم وهو ما صرح تحريمه الشرع مثل المزامير وطبل المخنثين، ومنه ما لم يتعرض له الشرع أنه حلال أم حرام فهي كسائر المباحات، ومن جملتها مثل الدف والغناء بالكف في ظاهر الشرع كما حكم به الشافعي رحمه الله، وأما على مذهب أهل الحقيقة فالحكم في المباح منها ما أفتى به الجنيد -قدس الله روحه- فقال: السماع على أهل النفوس حرام لبقاء نفوسهم، وعلى أهل القلوب مباح لوقوف علومهم وصفاء قلوبهم، واجب على أصحابنا لفناء حظوظهم، وقال أبو بكر الكتاني: سماع العوام على متابعة الطبع، وسماع المريدين رغبة ورهبة، وسماع الأولياء رؤية الآلاء والنعم، وسماع العارفين على المشاهدة، وسماع أهل الحقيقة على الكشف والعيان ولكل واحد من هؤلاء مصدر ومقام، فلا ريب في أن السماع مشتمل على كثير من الفوائد.

﴿وَ﴾ بسبب ذلك الجهل الجبلي ﴿يَتَّخِذَهَا﴾ إلى الآيات الموصلة إلى طريق الحق وتوحيده ﴿هُزُوًا﴾ أي: محل استهزاء وسخرية؛ لجهله وغفلته عن السرائر المودعة فيها، والأسرار المكنونة في فحاويها ﴿أُولَئِكَ﴾ البعداء المجبولون عن الغواية والضلالة أصلاً وفرعًا، تابعًا ومتبوعًا ﴿لَهُمْ﴾ في النشأة الأخرى ﴿عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [لقمان: 6] يهينهم فيها بدل ما استهانوا بكتاب الله، واستهزءوا برسله ظلمًا وزورًا بلا تدرب وتدبر.

﴿وَ﴾ من شدة شكيمته، وبغضه بالله ورسوله وكتابه، ونهاية عتوه وعناده ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ﴾ وقرئ عنده ﴿آيَاتُنَا﴾ الدالة على توحيد ذاتنا، وكمال أسمائنا وصفاتنا ﴿وَلَّى﴾ عنها، وأعرض عن استماعها، وانصرف عن قبولها ﴿مُسْتَكْبِرًا﴾ عليها، متجافيًا كشحه عنها ﴿كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا﴾ مع أنها تُتلى عليهم قصد الاستماع، ولم يلتفت إليها ﴿كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ صممًا يعوقه عن السماع والاستماع ﴿فَبَشِّرْهُ﴾ يا أكمل الرسل بعدما أعرض عن كتاب الله، واستنكف عن استماعه وإصغائه مستخفًا عليه، مستحقرًا إياه ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [لقمان: 7] مؤلم في غاية الشدة والألم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَاۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾﴾ [لقمان: 8-11].

ثمّ عقب سبحانه وعيد الكفرة الهالكين في تيه الغي والضلال بوعد المؤمنين على مقتضى سنته المستمرة فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بتوحيد الله، وصدقوا رسله ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ المرضية له سبحانه، المقبولة عنده على مقتضى ما نزل عليهم من الآيات الواردة إياهم، المصفية لظواهرهم وبواطنهم ﴿لَهُمْ﴾ في النشأة الأخرى جزاء ما أتوا به من الإيمان والعمل الصالح في النشأة الأولى ﴿جَنَّاتُ النَّعِيمِ﴾ [لقمان: 8] متنزهات مملوءة بألوان النعم، وأصناف الجود والكرم، لا يتحولون منها أصلاً، بل صاروا ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ مترفهين بنعيمها لا يمسهم فيها نصب ولا وصب ﴿وَعْدَ اللهِ﴾ الذي وعد لخلّص عباده من عنده على مقتضى علمه وإرادته لا بدّ له أن ينجزه ﴿حَقًّا﴾

صدقًا بلا خلف وتردد ﴿وَ﴾ كيف يخلف في وعده ﴿هُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب القادر على جميع ما دخل في حيطة علمه وإرادته ﴿الْحَكِيمُ﴾ [لقمان: 9] المتقن في إيجاده وإظهاره على الوجه الذي أراد.

ومن جملة حكمته المتقنة المتفرعة على حضرة علمه المحيط، وقدرته الشاملة، وإرادته الكاملة أنه ﴿خَلَقَ﴾ وأظهر ﴿السَّمَوَاتِ﴾ أي: عالم الأسباب ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾ وأسانيد على الوجه الذي ﴿تَرَوْنَهَا﴾ معلقة على الأرض بلا استناد واتكاء ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ﴾ التي هي عالم المسببات ﴿رَوَاسِيَ﴾ شامخات، وجبالاً راسيات؛ كراهة ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ وتميل عليكم وقت ترددكم وتحرككم عليها ﴿وَبَثَّ فِيهَا﴾ أي: بسط عليها، ونشر ﴿مِن كُلِّ دَابَّةٍ﴾ تتحرك عليها متبادلة متقابلة كيف اتفق؛ لتستقر وتتمكن؛ لأن طبيعتها في حد ذاتها كانت على الحركة والاضطراب؛ إذ هي محفوفة بالماء السائل المجبول على الحركة والسيلان، وبالهواء المتموج بالطبع، وبالنار المضطربة، وبالأفلاك المتحركة بطبقاتها ﴿وَ﴾ بعدما شهدناها وألقينا عليها من الرواسي العظام تتميمًا لتقريرها ﴿أَنزَلْنَا مِنَ﴾ جانب ﴿السَّمَاءِ مَاءً﴾ مستحدثًا من الأبخرة والأدخنة المتصاعدة المتراكمة، المستحيلة بالماء بمجاورة الكرة الزمهريرية ﴿فَأَنبَتْنَا﴾ وأخرجنا بإنزال الماء عليها ﴿فِيهَا﴾ أي: في الأرض المنبسطة اليابسة بالطبع ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ﴾ صنف من النبات مزدوج مع شاكلته ﴿كَرِيمٍ﴾ [لقمان: 10] كثير المنافع والفوائد، مصلح للأمزجة، مقوم لها؛ لتعيشوا عليها مترفهين متنعمين، شاكرين لنعمنا، غير كافرين بمقتضى جودنا وكرمنا.

ثمّ قال سبحانه من مقام العظمة والكبرياء، وكمال المجد والبهاء على سبيل الإسكات والتبكيت لمن أشرك معه غيره عنادًا ومكابرةً: ﴿هَذَا﴾ الذي سمعتم أيها المجبولون على السمع والإصغاء ﴿خَلْقُ اللَّهِ﴾ القادر المقتدر ذي الحول والقوة الغالبة، والطول العظيم ﴿فَأَرُونِي﴾ أيها المشركون المسرفون، المفرطون في دعوى الشرك معه سبحانه ﴿مَاذَا خَلَقَ﴾ أي: أيّ شيء أظهر وأوجد الشركاء ﴿الَّذِينَ﴾ تعبدونهم وتدعون نحوهم في الخطوب، وتذعنون أنهم آلهة ﴿مِن دُونِهِ﴾ سبحانه مستحقة للعبادة والرجوع، قادرة على لوازم الألوهية والربوبية، فسكتوا بعدما سمعوا ما سمعوا باهتين، وانقلبوا حينئذٍ صاغرين ﴿بَلِ الظَّالِمُونَ﴾ المجبولون على الظلم والخروج عن مقتضى الحدود الإلهية، سيما بدعوى الشركة واتخاذ إلهٍ سواه - العياذ بالله منه - ﴿فِي ضَلَالٍ

﴿مُبِينٍ﴾ [لقمان: 11] وغوايةٍ ظاهرةٍ، وطغيانٍ عظيمٍ.

أعاذنا الله وجميع عباده عن أمثاله.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾ [لقمان: 12-15].

ثمَّ قال سبحانه عن سبيل إظهار الفضل والامتنان، والتفرد بمقتضى الألوهية والربوبية: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا﴾ من مقام عظيم لطفنا وجودنا ﴿لُقْمَانَ﴾ بن باعورا بن ناخور بن آزر، فكان ابن أخت أيوب عليه السلام أو ابن خالته، وعاش إلى أن أدرك داوود عليه السلام فأخذ منه العلم و﴿الحِكْمَةَ﴾ وهي عبارة عن اعتدال الأوصاف الجبلية المودعة في النفوس البشرية على مقتضى الفطرة الأصلية، والتخلق بالأخلاق المرضية المنتشئة من الأوصاف الذاتية الإلهية، وقلنا له بعدما أنعمنا عليه نعمة الحكمة، وأعددناه لقبول فيضان أنواع اللطف والكرامات: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ﴾ واصرف بمقتضى الحكمة الموهوبة لك من عندنا جميع ما أعطيناك من النعم العظام على ما جبلناها لأجله؛ لتكون من زمرة الشاكرين المواظبين على أداء حقوق جودنا وكرمنا، ومن جملة المطيعين لمقتضيات حكمتنا وأحكامنا.

﴿وَ﴾ اعلم أيها المجبول على الحكمة الفطرية أنه ﴿مَن يَشْكُرْ﴾ نعمنا عاد على نفسه فوائد كرمنا ﴿فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ إذ فائدة شكره عائدة إليه، مزيدة لنعمنا إياه، مستجلبة لأنواع لطفنا وإحساننا معه ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ لنعمنا من خبث طينته، وأعرض عن أداء حقوق كرمنا إياه، فوبال كفرانه أيضًا عائد إلى نفسه؛ إذ عندنا الشكر والكفر سيان، ونحن منزهون عن الربح والخسران ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾ المتجلي على عموم الأنفس والآفاق بالاستحقاق ﴿غَنِيٌّ﴾ بذاته عن جميع صور إحسان عباده معه ﴿حَمِيدٌ﴾ [لقمان: 12] هو في ذاته باعتبار أوصافه الذاتية الظاهرة آثارها على صفائح الأكوان والمكونات،

المتجهة نحو مبدعها، المثنية له حالاً ومقالاً، سرًا وجهارًا.

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل لمن تبعك من المؤمنين معناه تذكيرًا لهم، وعظةً عليهم: ﴿إِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ﴾ المسمى بأنعم أو أشكم، أو ماثان قولاً ناشئًا عن محض الحكمة المتقنة، الموهوبة له من عنده سبحانه ﴿وَهُوَ يَعِظُهُ﴾ ويقصد تهذيب ظاهره وباطنه عن الأخلاق الرديّة والخصائل الدنيّة، مناديًا إياه، مصغرًا على سبيل التحنن والتعطف، وكمال الترحم والتلطف، مضيفًا إلى نفسه؛ ليقبل منه ما أوصاه: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللهِ﴾[1] المنزه عن الشريك والشبيه، والكفء والنظير، واعلم أن أجلّ أخلاقك، وأعز أوصافك: التوحيد وتنزيه الحق عن الشبيه والتعديد، وأخس أوصافك، وأرذل أخلاقك، وأردى ما جرى في خلدك وضميرك: الشرك بالله ﴿إِنَّ الشِّرْكَ﴾ واعتقاد التعدد والاثنينية في حق الحق، الحقيقي بالحقية، الوحيد بالقيومية، الفريد بالديمومية، المستقل بالألوهية والربوبية ﴿لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: 13] لا ظلم أعظم وأفحش، أعاذنا الله وعموم عباده منه.

ثمَّ قال سبحانه على سبيل التوصية والمبالغة تأكيدًا وتحقيقًا على ما أوصى به لقمان ابنه من النهي عن الشرك، والزجر عنه: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ﴾ وألزمنا عليه أولاً بعدما أظهرناه قابلاً لحمل التكاليف المستكملة ﴿بِوَالِدَيْهِ﴾ أي: بإطاعتهما، وبحفظ آداب المعاشرة والمصاحبة معهما، ورعاية حقوقها على ما ينبغي ويليق بلا فوت شيء من حقوقهما، سيما الوالدة المتحملة لأجله أنواع المحن والمشاق؛ إذ ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ﴾ بواسطة حمله في بدء وجوده ﴿وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ﴾ أي: ضعفًا على ضعف؛ إذ كلما ازداد نشوءه ازداد ضعفها إلى أن انفصل عنها، وبعد انفصاله تداوم لحفظه وحضانته إلى فطامه ﴿وَفِصَالُهُ﴾ أي: فطامه إنما هو ﴿فِي عَامَيْنِ﴾ وبعدما انفطم تلازم أيضًا على

---

(1) رؤية ما دون الله شركٌ في التوحيد من العرش إلى الثرى، والشرك على ثلاثة أقسام: شرك النفس، وهو حظها من الدنيا، وشرك العقل، وهو حظها من الآخرة، وشرك القلب، وهو حظها من صفاء العبودية، وأخفى من الشرك ما تستلذُّ الروح من تروح أنس الله، وهو أعظم الحجاب؛ لأن من بقي من حظه الأكبر فقد احتجب عن الغوص في بحار الألوهية والسير في ميادين الأزلية، والوصل زجر النفس عن الاشتغال بما دون الله.

قال بعضهم: وعظ لقمان ابنه في ابتداء وعظه على مجانبة الشرك وهو التفرد للحق بالكل نفسًا وقلبًا وروحًا، فلا تشتغل بالنفس إلا بخدمته، ولا تلاحظ بالقلب سواه، ولا تشاهد بالروح غيره، وهو مقام التفريد في التوحيد.

حفظه إلى وقت بلوغه، وبعدما بلغ سن التكليف قلنا له: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي﴾ أيها المكلف المتنعم بأنواع النعم مني أصالةً وتسببًا؛ لأني خلقتك وأظهرتك من كتم العدم ولم تك شيئًا.

﴿وَ﴾ اشكر أيضًا ﴿لِوَالِدَيْكَ﴾، ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء: 24] لإقامتهما على حفظك وحضانتك إلى أن كبرت، وبلغت مرتبة أشدك، وكمال عقلك ورشدك، واعلم أن شكرك لهما راجع إليَّ أيضًا؛ إذ أقدرتهما ومكنتهما على حفظك، وألقيت محبتك في قلبيهما، وبالجملة: ﴿إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [لقمان: 14] والمرجع في جميع الأفعال الصادرة من العباد ظاهرًا؛ إذ هم وما صدر عنهم من الأفعال مستندون إلينا أولاً وبالذات، وكيف لا تُستند أفعالهم إلينا؛ إذ جميع ما صدر عنهم تابع لوجوداتهم، مترتب عليها؟! والحال أنه ليس لهم وجود في أنفسهم، بل وجوداتهم إنما هي رشحة من رشحات وجود الحق، وفيء من أظلال أوصافه وأسمائه الذاتية.

﴿وَ﴾ بعدما أكدنا عليكم أيها المكلفون في حفظ حقوق والديكم، وبالغنا فيه ﴿إِن جَاهَدَاكَ﴾ أي: والداك أيها المكلف، واجتهدا في شأنك، وبالغا في الجهد والسعي إلى أن قاتلا معك وأرادا مقتك ﴿عَلَى أَن تُشْرِكَ بِي﴾ وتعتقد ربًا سواي وتعبده مثل عبادتي، مع أنك خالي الذهن؛ إذ ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ يتعلق بنفي الشريك وإثباته أيضًا ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ في أمرهما هذا وسعيهما فيه؛ إذ أصل فطرتك مجبولة على التوحيد سواء تعلق علمك به أو لم يتعلق، فلك ألَّا تطعهما وتنصرف عن أمرهما هذا ﴿وَ﴾ مع انصرافك عن أمرهما هذا ﴿صَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا﴾ وإن كانا مشركين ﴿مَعْرُوفًا﴾ مستحسنًا عقلاً وشرعًا ومروءةً حفظًا لحقوقهما.

﴿وَ﴾ لا تتبع بشركهما وكفرهما، بل ﴿اتَّبِعْ﴾ في الدين والملة ﴿سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ﴾ ورجع ﴿إِلَيَّ﴾ ودين من توجه نحوي موحدًا إياي، بريئًا من الشرك معي، وبالجملة: امض على التوحيد واسلك طريقه مادمت في دار الابتلاء ﴿ثُمَّ﴾ بعدما انقرضت النشأة الأولى ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ تابعًا ومتبوعًا، أصلاً وفروعًا ﴿فَأُنَبِّئُكُم﴾ وأخبركم ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [لقمان: 15] أي: بتفاصيل أعمالكم التي صدرت عنكم في دار الاختبار، وأجازيكم على مقتضاها، إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر.

﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٖ مِّنْ خَرْدَلٖ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي

ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾ ﴾ [لقمان: 16-19].

وبعدما سجَّل لقمان على ابنه التوحيد بنفي ضده على طريق المبالغة والتأكيد، أراد أن ينبه عليه بأنه لا بدَّ له أن يحفظ على نفسه الأدب مع الله في كل الأحوال، بحيث لا يصدر عنه شيء يخالف توحيده، ولا يلائمه ولو كان ذرة حقيرة؛ إذ لا يعزب عن حيطة حضرة علمه سبحانه شيء، فقال أيضًا مناديًا: ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا﴾ أي: الخصلة الذميمة التي أتيت بها المنافية للتوحيد، أو الخصلة الحميدة الملائمة له، لا يعزب كلاهما عن علم الله مطلقًا، وبالجملة: ﴿إِن تَكُ﴾ فرضًا ما جئت به من الخصلة الذميمة والحميدة في صغر الحبة والوزن ﴿مِثْقَالَ حَبَّةٍ﴾ واحدة كائنة ﴿مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ أي: هي مثل في الحقارة والصغر ﴿فَتَكُن﴾ أنت بعدما جئت بها ﴿فِي صَخْرَةٍ﴾ أي: في جوفها، وهي أخفى المواضع وأستر الأمكنة ﴿أَوْ فِي﴾ أعلى ﴿السَّمَوَاتِ﴾ وفوقها، وهو ما وراء الفلك الأطلس ﴿أَوْ فِي﴾ أسفل ﴿الأَرْضِ﴾ وقعرها.

وبالجملة: إن كنت في أخفى الأماكن وأحفظها ﴿يَأْتِ بِهَا﴾ أي: بك وخصلتك التي صدرت عنك ﴿اللَّهُ﴾[1] الرقيب عليك في جميع حالاتك، ويجازيك بمقتضاها إن تعلق إرادته ومشيئته بإحضارك وإتيانها، وبالجملة: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المطلع على السرائر والخفايا ﴿لَطِيفٌ﴾ لا يحجبه حجب، ولا يمنعه سدل ﴿خَبِيرٌ﴾ [لقمان: 16] ذو خبرة، يعلم كنه الأشياء وإن دقت ورقت ولا يكتنه ذاته، مع أنه أظهر وأبين في ذاته من عموم مظاهره ومصنوعاته.

---

(1) قال الورتجبي: كيف يخفى على موجد الأشياء شيءٌ وهو منشئه؛ فهذا تنبية منه لإحاطة علمه القديم بكل ذرةٍ من العرش إلى الثرى ظاهرها وباطنها؛ حتى يفرغ المراقب الصادق من اطلاع الحق بوصف العظمة والكبرياء على نوادر الخطرات وبطون الحركات، فإن كان خاطره بادرًا من قهره سبحانه تستتر في جريانه في صخرة النفوس أو في سماء الأرواح أو في أرض القلوب، يظهره الحق إلى عرصة العقل لعين السر، فيحاسبه بذلك، ويعرفه مكان نفعه وضره؛ ليعرف صاحبه وصف جلال علمه كيف يحيط بأسرار الضمائر وبطون الخواطر.

وبعدما سمعت ﴿يَا بُنَيَّ﴾ وصف ربك وحيطة علمه وقدرته، ولطافة إطلاعه وخبرته ﴿أَقِمِ الصَّلاةَ﴾ أي: داوم ميلك نحوه بجميع أركانك وجوارحك مخلصًا في ميلك ورجوعك إليه سبحانه، محرمًا على نفسك جميع ما يشغلك عن ربك، مجردًا عاريًا قلبك عن جميع منسوباتك ومقتضيات بشريتك ولوازم هويتك ﴿وَأْمُرْ﴾ يا بني على بني نوعك أولاً إن قصدت تكميلهم وإرشادهم إلى مقصد التوحيد ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ المستحسن عقلاً وشرعًا، وكلم معهم على قدر عقولهم بلا إغراء ولا إغواء، ولا تفش عليهم سر التوحيد ما لم يستحقوا لحفظه، ولم يستعدوا له قبوله ﴿وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ المستهجن عقلاً وشرعًا، وعادةً ومروءةً، ونبههم على وجه القبح والهجنة، وألطف معهم في تبيينها لعلهم يتفطنون بقبحها بمقتضى فطرتهم التي فطروا عليها في بدء الأمر.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿اصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ﴾ في تمشية سلوك التوحيد، وتقوية طريقه، وكن متحملاً على مشاق الطاعات ومتاعب العبادات، وارض من ربك بجميع ما جرى عليك، وثبت لك في لوح قضائه ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ المذكور؛ أي: كل واحد من الأمور المذكورة والخصائل المأمورة ﴿مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ [لقمان: 17] أي: من الأمور التي عزم الحق عليها، وأوجبها على أولي العزائم الصحيحة من خلّص عباده إرشادًا لهم إلى وحدة ذاته، وزلال هدايته الصافية عن كدر الضلالات والجهالات.

وكن يا بني في تمدنك ومعاشرتك مع بني نوعك لينًا هينًا، بشّاشًا بسّامًا ﴿وَلا تُصَعِّرْ﴾ أي: لا تمل ولا تعرض ﴿خَدَّكَ﴾ أي: صفحة وجهك التي بها مواجهتك ﴿لِلنَّاسِ﴾ ولا تلوِ عنقك عنهم كبرًا وخيلاءً، كما يفعله أرباب النخوة من الجهلة المستكبرين المتفوقين، المفتخرين بما عندهم من المال والجاه والثروة والسيادة، والعلوم الرسمية على الفقراء الضعفاء الفاقدين لها ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿لا تَمْشِ﴾ يا بني ﴿فِي الأَرْضِ﴾ التي بُسطت للتذلل والانكسار ﴿مَرَحًا﴾ أي: ذا فرح وسرور، مفتخرًا بما عندك من الحطام الفاني ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المتعزز برداء العظمة والكبرياء ﴿لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ﴾ يمشي على وجه الأرض خيلاء، بحيث يتبادر منه الكبر والنخوة في بادئ النظر ﴿فَخُورٍ﴾ [لقمان: 18] بما عنده من الحسب والنسب، والمال والجاه بطر بها، مباه بسببها.

﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾[1] أي: توسط يا بني في مشيك بين الإسراع المذهب بهاء المؤمن ووقاره، وبين الدبيب الموجب للعجب والخيلاء ﴿وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ أيضًا، وأنقص منه ولا ترفعه وإن كان حسنًا، فإنك - يقصد رفعة صوتك مبالغًا فيها - تشبه الحمار؛ إذ هو مخصوص من بين سائر الحيوانات بترفيع الصوت والمبالغة فيه، ومن بالغ في رفع صوته، فقد أشبه نفسه به، ولاشك أن صوته منكر عند جمهور العقلاء، وجميع الحيوانات أيضًا حتى إن الكلب يتأذى من صوته، ويفزع منه عند سماعه من غاية تأثيره وتألمه، وبالجملة: ﴿إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ﴾ وأوحشها وأقرعها للآذان ﴿لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ [لقمان: 19] وكيف تشبهون أنفسكم أيها المجبولون على الشرف والكمال على أدون الحيوانات، وأذل المخلوقات، وأنزلها رتبةً؟!.

﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ (٢٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ (٢١) ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (٢٢) ﴾ [لقمان: 20-22].

﴿أَلَمْ تَرَوْا﴾ ولم تعلموا أيها المجبولون على الدربة والدراية ﴿أَنَّ اللهَ﴾ الحكيم المتقن في عموم أفعاله ﴿سَخَّرَ لَكُم﴾ وسهّل عليكم تتميمًا لفضلكم وكرامتكم جميع ﴿مَّا فِي السَّمَوَاتِ﴾ أي: العلويات التي هي علل وأسباب، وإن كانت معلولات في أنفسها ﴿وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ أي: السفليات؛ أي: هي مسببات عن العلويات وقوابل لما يفيض عنها بطريق جري العادة؛ ليحصل من امتزاجها ما تعيشون بها، مترفهين متنعمين من أنواع الفواضل والنعم.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿أَسْبَغَ﴾ أي: أكثر وأوفر سبحانه ﴿عَلَيْكُمْ﴾ أيها المجبولون على الكرامة الفطرية، والكمال الجبلي ﴿نِعَمَهُ ظَاهِرَةً﴾ تدركون بها ظواهر الآفاق من

---

(1) قال في التأويلات: في إظهار الدعاوى وكتمان المعاني كن فانيًا عن شواهدك مصطلمًا عن قولك مأخوذًا عن حولك وقوتك بما استولى عليك من كشوفات سرك وانظر من الذي يسمع صوتك حتى تستفيق من خمار غفلتك بل من سكر إعجابك وحسبانك.

المبصرات والمسموعات والملموسات، والمشمومات والمذوقات ﴿وَبَاطِنَةً﴾[1] تدركون بها سرائر المعلومات والمعنويات، وتنكشفون بها إلى المعارف والحقائق الفائضة على قلوبكم التي أودعها الله العليم الحكيم في بواطنكم؛ ليسع فيها وينزل عليها سلطان وحدته الذاتية السارية في ظواهر الأكوان وبواطنها الكائنة أزلاً وأبدًا، مع أنه سبحانه لا يسعه في سعة السموات والأرض وإن فرض لها أضعاف وآلاف، لكنه يسع في قلب عبده العارف المؤمن الموقن، المنكشف بتوحيده وبظهور وحدته الذاتية المتجلية على صفائح ما ظهر وبطن، ومع ظهور وحدته سبحانه في ذاته واستقلاله في إظهار المظاهر الكائنة أزلاً وأبدًا.

﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ المجبولين على الجدال والنسيان، المنهمكين في بحر العناد والطغيان ﴿مَن يُجَادِلُ فِي﴾ توحيد ﴿اللَّهِ﴾ المتوحد المتفرد بالألوهية والربوبية، المستقل بالتصرف في ملكه وملكوته إرادةً واختيارًا، ويثبت له شريكًا سواه ويعبده كعبادته، مع أن جداله ما يستند إلى سندٍ يصلح للاستناد، بل ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ دليل عقلي

(1) قال في التأويلات: فالنعمة الظاهرة هي تسخير ما في السموات وما في الأرض الظاهرة من الكواكب السيارة والملائكة المقربين فتسخير الكواكب تيسيرها في البروج على الأفلاك التي دبرها لكل واحدة منها فلكًا، وقدر لهن القربات والاتصالات وجعلهن مدبرات العالم السفلي متصرفات بالخواص والطبائع في العناصر الأربعة ولقراباتهن واتصالاتهن مقتضيات في إظهار الأمور المقدرة بتقدير العزيز العليم في عالم السفلي من الزماني مثل الشتاء والصيف والخريف والربيع، ومن المكاني مثل المعدن والنبات والحيوان والإنسان فظهور الأحوال المختلفة بحسب سير الكواكب على الدوام لمصالح الإنسان ومنافعهم منها، وتسخير الملائكة بأن الله تعالى من كمال حكمته وقدرته جعل كل صنف من الملائكة موكلين على نوع من المدبرات وأعوانًا لها كالملائكة الموكلين على الشمس والقمر والنجوم وأفلاكها والموكلين على السحاب والمطر، وقد جاء في الخبر أن على كل قطرة من المطر موكلاً من الملائكة لينزلها حيث أمر، والموكلين على الرياح والبحور والمخلوقات، والملائكة الكُتّاب للناس الموكلين عليهم، ومنهم المعقبات من بين أيديهم ومن خلفهم يحفظونهم من أمر الله حتى جعل على الأرحام ملائكة، فإذا وقعت نطفة الرجل في الرحم يأخذ الملك بيده اليمنى وإذا وقعت نطفة المرأة يأخذها الملك بيده اليسرى، فإذا أمر مشجها بمشج النطفتين، وذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ﴾ [الإنسان:2]، وأما الملائكة الموكلين على الجنة والنار كلهم مسخرون لصالح الإنسان ومنافعهم حتى الجنة والنار مسخرات لهم تطميعًا وتخويفًا لأنهم يدعون ربهم خوفًا وطمعًا، والنعمة الباطنة هي تسخير ما في السموات وما في الأرض الباطنة وهي القلب والنفس وقد تقدم ذكر ما فيهما.

يمكن التوصل به إلى إثبات ما ادعاه بطريق النظر والاستدلال ﴿وَلَا هُدًى﴾ أي: كشف صريح لدني نبع من قلبه بلا افتقار إلى المقدمات والوسائل العادية التي يستنتج منها المطالب ﴿وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ [لقمان: 20] أي: دليل نقلي ينور خلده، ويعده لفيضان المعارف والحقائق من المبدأ الفياض، بل إنما نشأ ما ادعاه من محض التقليد والتخمين الحاصل من متابعة الوهم والخيال.

﴿وَ﴾ لذلك ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾ على سبيل العظة والتذكير إمحاضًا للنصح: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ المصلح لأحوالكم من الدين والكتاب المشتمل على أنواع الرشد والهداية، والنبي المؤيَّد من عنده، المبعوث إليكم؛ لهدايتكم وإصلاحكم ﴿قَالُوا﴾ في الجواب: ما نتبع بمفترياتكم المستحدثة التي ابتدعتموها من تلقاء أنفسكم، ونسبتموها إلى الله تغريرًا وترويجًا ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ إذ هو مستمر قديم، فنحن بأثرهم متبعون، وبدينهم راضون متخذون.

قل لهم يا أكمل الرسل نيابةً عنا: ﴿أَ﴾ يتبعون آباءهم أولئك الضالين ﴿وَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ﴾ المغوي المضل إياهم ﴿يَدْعُوهُمْ﴾ وآباءهم أيضًا إلى الباطل؛ ليصرفهم عن الحق، ويوصلهم ﴿إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [لقمان: 21] الذي أُعد لمتابعيه، ومن يقتفي أثره ويقبل دعوته.

ثمَّ قال سبحانه: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ﴾ الذي يلي الحق ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ ويخلص في توجهه نحوه ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿هُوَ مُحْسِنٌ﴾ ناظر إلى الله بنوره سبحانه، مطالع بوجهه الكريم ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ﴾ وتمسك ﴿بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾[1] التي لا انفصام لها، وهي حبل الله الممدود من أزل الذات إلى أبد الأسماء والصفات، ومن تمسك بها فقد فاز بكنف حفظه وجواره، وأمن من شر الشيطان وغوائله وتضليلاته عن طريق الحق وصراطه المستقيم ﴿وَ﴾ كيف لا ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ المستجمع لجميع الأسماء والصفات المترتبة لما

---

(1) قال الورتجبي: أي: من بذل وجوده لوجدان وجود الحق سبحانه وهو يعرفه وتكون معرفته مستفادة من مشاهدته لا بتقليد العلم والأدلة العقلية فقد استمسك بعروة المحبة الأزلية لا يتكدر بعلل الحدثان، والإحسان مشاهدة الربوبية في العبودية، والعروة الوثقى المحبة المتصلة بالألوهية.

قال سهل: من يُخلص دينه لله ويحسن آداب الإخلاص، وقال العروة الوثقى هي السنة. وقال أبو عثمان: العروة محمد ﷺ. وقال أيضًا: هي كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

في الكائنات لا إلى غيره من الوسائل والأظلال العادية ﴿عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾ [لقمان: 22] ومصيرها؟! ومن تشبث بحبل الله مخلصًا، فقد لحق بخلَّص أوليائه الذين ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: 62].

﴿ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَـٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَـٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [لقمان: 23-28].

﴿وَمَن كَفَرَ﴾ وأعرض عن التشبث بحبل توفيقه، وانصرف عن الاستمساك بدلائل توحيده وشواهد استقلاله في آثاره ﴿فَلَا يَحْزُنكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿كُفْرُهُ﴾ وإعراضه عنا، وعن مقتضى ألوهيتنا وربوبيتنا؛ إذ ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ ومصيرهم، كما أن منا مبدأهم ومنشأهم ﴿فَنُنَبِّئُهُم﴾ ونخبرهم، ونفصل عليهم ﴿بِمَا عَمِلُوا﴾ بعدما رجعوا إلينا، ونجازيهم على مقتضاها بلا فوت شيء مما صدر عنهم، وكيف لا يجازون بأعمالهم، ولا يحاسبون عليها ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المطلع على جميع ما ظهر وبطن من ذرائر الأكوان ﴿عَلِيمٌ﴾ محيط حضرة علمه ﴿بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [لقمان: 23] وخفيات الأمور وإن دق ولطف، لا يعزب عن حيطة علمه شيء؟!.

قل لهم يا أكمل الرسل نيابةً عنا: لا يغتروا بإمهالنا وتمتعينا إياهم، وعدم التفاتنا نحوهم، وعدم انتقامنا عنهم؛ إذ ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً﴾ أي: زمانًا قليلاً تسجيلاً للعذاب عليهم، وتغريرًا ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ﴾ بعد بطشنا إياهم ﴿إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: 24] لا عذاب أغلظ منه وأشد؛ لغلظ غشاوتهم وقساوتهم.

﴿وَ﴾ كيف لا نأخذ أولئك المكابرين المعاندين ﴿لَئِن سَأَلْتَهُم﴾ سؤال اختبار وإلزام: ﴿مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ﴾ وأوجد العلويات، وما فيها من الكواكب والبروج وأنواع الفجاج ﴿وَالأَرْضَ﴾ ومن عليها، وما عليها مما لا يُعد ولا يُحصى؟ ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ في الجواب مضطرين حاصرين: ﴿اللهُ﴾ إذ لا يسع لهم إسناد خلقهما وإيجادهما إلى غيره

سبحانه؛ لظهور الدلائل والشواهد المانعة من الاستناد إلى غيره سبحانه ﴿قُلِ﴾ يا أكمل الرسل بعدما اعترفوا بأن الموجد للعلويات والسفليات هو الله سبحانه بالأصالة والاستقلال: ﴿الحَمْدُ لِلَّهِ﴾ حيث اعترفتم بتوحيد الله مع أنكم اعتقدتم خلافه، فيلزمهم لقولهم هذا التوحيد الحق ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [لقمان: 25] لزومه، ولا يفهمون استلزامه؛ لذلك ينكرون له، ويشركون معه غيره عنادًا واستكبارًا، تعالى عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا.

وكيف لا يعلمون ويفهمون مع أنه ﴿لِلَّهِ﴾ الواحد الأحد، المستحق للألوهية والربوبية، وفي قبضة قدرته وتحت تصرفه جميع ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي: العلويات والسفليات، والممتزجات سواء علموا وحدته واستقلاله في ملكه أو لم يعلموا، أو اعتقدوا بتوحيده أو لم يعتقدوا؛ إذ لا يرجع له سبحانه نفع من اعتقادهم وضر من عدمه، بل نفع اعتقادهم وإيمانهم إنما يرجع إليهم، وضر كفرهم وشركهم أيضًا كذلك؛ إذ هو سبحانه منزه عنهما جميعًا ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المستغني عن جميع ما ظهر وبطن ﴿هُوَ الغَنِيُّ﴾ المقصور على الغنى الذاتي ﴿الحَمِيدُ﴾ [لقمان: 26] بمقتضى أوصافه الذاتية، وأسمائه الحسنى التي بها ظهر ما ظهر وما بطن سواء نطقت بحمده ألسنة مظاهره وأظلاله أو لم تنطق؛ إذ هو في ذاته متعالٍ عن النقص والاستكمال، واستجلاب النفع والإجلال مطلقًا.

ثم لمَّا أمر اليهود وفد قريش بأن يسألوا رسول الله ﷺ عن قوله تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ العِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾ [الإسراء: 85] كيف قال سبحانه هذا مع أنّا قد أُنزل إلينا التوراة، وفيها علم كل شيء ظاهرًا وباطنًا؟! ردَّ الله عليهم حصرهم علم الحق بالتوراة، بل بجميع الكتب والصحف المنزلة على عموم الرسل وقاطبة الأنبياء؛ إذ كل ما دخل في حيطة الإنزال والإتيان متناهٍ، وحضرة علمه سبحانه في نفسه غير متناهٍ، ولا نسبة بين المتناه وغير المتناه، بل علمه سبحانه بالنسبة إلى معلوم ومقدور واحد باعتبار شئونه وتطوراته غير متناه، فكيف بعموم المعلومات والمقدورات؟!.

فقال سبحانه على مقتضى استعداد من على الأرض وقابليتهم وقدر عقولهم، مبينًا عن عدم نهاية حضرة علمه منها لها: ﴿وَلَوْ أَنَّ﴾ جميع ﴿مَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ﴾ أي: كل ما لها ساق من هذا الجنس ﴿أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ﴾ أي: المحيط الذي هو كرة الماء الكائن حول الأرض ﴿يَمُدُّهُ﴾ أي: يصير مدادًا لها وحبرًا لثبتها ومدها، بل

يفرض أيضًا ﴿مِن بَعْدِهِ﴾ أي: بعد نفاذ البحر المحيط ﴿سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ مثلاً محيطات كذلك تشيعه وتمد مده، فكتب بهذه الأقلام والمداد على الدوام كلمات الله العلي العلام ﴿مَّا نَفِدَتْ﴾ وتمت ﴿كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾[1] وتنفد المدد والأقلام المذكورة، بل إن فرض أمثالها وأضعافها وآلافها؛ إذ الأمور الغير متناهية لا تقدر بمقدار المتناه، ولا يكال بمكيال مقدر، وكيف يكال ويقدر علمه ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المتعزز برداء العظمة والكبرياء ﴿عَزِيزٌ﴾ غالب قادر على كل ما جرى في حضرة علمه، مع أنه لا نهاية لمعلوماته ﴿حَكِيمٌ﴾ [لقمان: 27] لا ينتهي حكمته وقدرته بالنسبة إلى مقدور دون مقدور، بل له التصرف في كل واحدة من مقدوراته ومراداته إلى ما لا يتناهى أزلاً وأبدًا؛ إذ لا يكتنه طور علمه وخبرته، وحكمته وقدرته مطلقًا؟!.

ومن جملة مقدوراته الصادرة منه سبحانه على مقتضى حكمته إرادة واختيارًا: خلقكم وإيجادكم أولاً على سبيل الإبداع بمقتضى اللطف والجمال، وإعدامكم ثانيًا على مقتضى القهر والجلال، وإعادتكم وبعثكم ثالثًا إظهارًا للحكم المودعة فيه هوياتكم وأشباحكم، والمصلحة المندرجة في إيجادكم وإظهاركم.

والمحجوبون المقيدون بسلاسل الأزمان والساعات يتوهمون بين الأطوار الثلاثة والنشأة المتعاقبة أمدًا بعيدًا وأزمنة متطاولة، وهي عند الله بعدما تعلق إرادته ونفذ قضاؤه، وصدر عنه الأمر بقوله: كن، فيكون الكل بلا تراخٍ ومهلةٍ في أقصر مدة وآن؛ إذ لا يشغله شأن عن شأن، ولا يقدر أفعاله زمان ومكان؛ لذلك قال سبحانه: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ﴾ وإظهاركم في فضاء الوجود في النشأة الأولى ﴿وَلَا بَعْثُكُمْ﴾ وحشركم في

---

(1) أي: لو أن ما في الأرض من الأشجار أقلام والبحار يصير مدادًا، وبمقدار ما يقبله ينفق القرطاس ويتكلف الكتاب حتى تنكسر الأقلام وتفنى البحار وتستوفى القراطيس ويفنى عمر الكتاب ما نفدت معاني كلام الله؛ لأن هذه الأشياء وإن كثرت فهي متناهية ومعاني كلامه لا تتناهى لأنها قديمة والمحصور لا يبقى بما لا حصر له، والإشارة فيه أن الله سبحانه إذا تجلى عبد بصفة المتكلم ينفتح الباب على قلبه فمن عالم غير متناه فيشار إليه ما نفدت معاني ما لنا معك من الكلام، والذي يسمعك مما يخاطبك به بحسب الوقت ومقتضى الحال، وما بيننا من المعاتبات والمعاشقات سرًا بسر وإضمارًا بإضمار لا يطويه الزمان ولا يحويه الزمان ولا يحويه المكان، فإنه منطق المحبة من الحبيب الأزلي إلى الحبيب الأبدي فما لنا معك أزلي أبدي غير متناه وما لك معنا فهو أبدي بغير أزلي ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل:96] إن الله عزيز لعزته لا يتلكم إلا مع الأعزة حكيم لحكمته. [التأويلات].

النشأة الأخرى بعدما انقرضتم عن الأولى ﴿إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ يعني: إيجادكم جملة أولاً، وبعثكم ثانيًا كذلك في جنب قدرتنا وإرادتنا كإيجاد نفس واحدة بلا تفاوت، إذ متى صدر عنا قولنا: كن، إشارةً منّا إلى خلقكم وبعثكم جملة، فيكون الكل في الحال ككون نفس واحدة ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المطلع لسرائر ما ظهر وبطن ﴿سَمِيعٌ﴾ لعموم ما صدر عن ألسنة استعداداتهم وقابلياتهم ﴿بَصِيرٌ﴾ [لقمان: 28] بما لاح عليهم من إشراق نور الوجود.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ الَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي الَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾ [لقمان: 29-32].

وكيف لا يطلع سبحانه لجميع الكوائن والفواسد ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أيها الرائي المتأمل المتدبر ﴿أَنَّ اللهَ يُولِجُ﴾ ويدخل ﴿اللَّيْلَ﴾ أي: أجزاء منه ﴿فِي النَّهَارِ﴾ ويطيله بها في الربيع تتميمًا لتربيتكم وأرزاقكم وأقواتكم ﴿وَيُولِجُ﴾ أيضًا في الخريف ﴿النَّهَارَ﴾ أي: أجزاءه ﴿فِي اللَّيْلِ﴾ ويطيله بها تقويةً وتعميرًا للأرض؛ لتربية ما حدث منها ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿سَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ لمصلحة معاشكم وتربية نفوسكم إلى حيث ﴿كُلٌّ يَجْرِي﴾ ويدور بأمره، ويتم دورته بحكمه ﴿إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ عيَّنه الله سبحانه، وسمَّاه من عنده على مقتضى حكمته تربيةً لعباده، وتقويمًا لأمزجتهم؛ ليشتغلوا على ما جُبلوا لأجله ﴿وَ﴾ اعلموا أيها المجبولون على فطرة التوحيد والعرفان ﴿أَنَّ اللهَ﴾ الرقيب عليكم في جميع حالاتكم ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: بجميع ما صدر عنكم من الأعمال والأفعال ﴿خَبِيرٌ﴾ [لقمان: 29] لا يعزب عن خبرته ذرة من ذرائر ما لمع عليه نور الوجود.

وإنما ظهر منه سبحانه كل ﴿ذَلِكَ﴾ الذي سمعتم أيها المجبولون على فطرة الدراية والعرفان، والمترصد لانكشاف سرائر التوحيد والإيقان من بدائع القدرة

والألوهية، وعجائب العلم والإرادة، وغرائب الشئون والأطوار اللامعة من لوائح لوامع شروق شمس الذات؛ ليدل ﴿بِأَنَّ اللَّهَ﴾ المتجلي على عروش الأنفس والآفاق بالأصالة والاستحقاق الوجود ﴿هُوَ الْحَقُّ﴾ الثابت المثبت أزلاً وأبدًا، القيوم المطلق، الدائم الباقي وبلا انقضاء ولا انصرام.

﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾ ويدعون الوجود له من العكوس والأظلال الهالكة في شروق شمس الذات ﴿الْبَاطِلُ﴾ المقصور، المنحصر على العدم والبطلان، المستهلك في مضيق الإمكان بأنواع الخذلان والحرمان ﴿وَ﴾ بالجملة: اعلموا أيها المتأملون في آثار الوجود الإلهي المتحقق بوحدة ذاته، وكثرة شئونه وتطوراته حسب أسمائه وصفاته ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ المستقل بالألوهية والربوبية، المستحق لأنواع التذلل والعبودية ﴿هُوَ الْعَلِيُّ﴾ بذاته لا بالإضافة إلى غيره؛ إذ لا غير معه ﴿الْكَبِيرُ﴾ [لقمان: 30] في شئونه وتطوراته حسب تجلياته الجمالية والجلالية، واللطفية والقهرية.

وكيف لا يستقل سبحانه بتصرفات ملكه وملكوته؟! ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أيها الرائي المستبصر ﴿أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ﴾ حاملةً ﴿بِنِعْمَةِ اللَّهِ﴾ المنعم المفضل عليكم بمقتضى لطفه وسعة جوده ﴿لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ﴾ الدالة على توحيده؛ لتتفطنوا منها إلى وحدة ذاته ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الإجراء والإمداد بالرياح المعينة لجريها، والحفظ من الغرق والهلاك ﴿لَآيَاتٍ﴾ دلائل قاطعة، وشواهد ساطعات ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ صبر على متاعب ما جرى عليه من القضاء ﴿شَكُورٍ﴾ [لقمان: 31] لما وصل إليهم من الآلاء والنعماء.

﴿وَ﴾ من كمال صبرهم وشكرهم ﴿إِذَا غَشِيَهُم﴾ وغطاهم ﴿مَّوْجٌ﴾ عظيم، واستعلى مغلقًا عليهم ﴿كَالظُّلَلِ﴾ المغطية إياهم من الجبال والسحب ﴿دَعَوُا اللَّهَ﴾ الواحد الأحد الصمد، المنجي لهم عن أمثاله ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ منحصرين التوجه والانقياد إليه بلا ميل منهم إلى الأسباب والوسائل العادية، متضرعين نحوه، داعين إليه بلا رؤية الوسائل في البين على ما هو مقتضى التوحيد ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ﴾ سبحانه بفضله من أهوال البحر ومضيقه، وأوصلهم ﴿إِلَى الْبَرِّ﴾ وسعة فضائه سالمين غانمين ﴿فَمِنْهُم﴾ حينئذٍ ﴿مُّقْتَصِدٌ﴾ أي: معتدل في قصده نحو الحق، غير مائل إلى طرفي الإفراط والتفريط، ومنهم مائل عن الاعتدال، منحرف عنه، ساعٍ إلى تحصيله ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَا يَجْحَدُ﴾ منهم، وينكر ﴿بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على وحدة ذاتنا، وكمال أسمائنا وصفاتنا ﴿إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ﴾ غدار ناقض للعهد الفطري، والميثاق الجبلي ﴿كَفُورٍ﴾

[لقمان: 32] للآلاء والنعماء المترادفة المتوالية.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾ ﴾ [لقمان: 33-34].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ المجبولون على الكفران والنسيان، المشغولون عن البغي والعدوان ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ الذي أظهركم من كتم العدم ولم تكونوا شيئًا مذكورًا، واحذروا عن بطشه وانتقامه، فإن بطشه شديد، وعذابه لعصاة عباده أليم مزيد ﴿وَاخْشَوْا يَوْمًا﴾ وأي يوم يومًا ﴿لَا يَجْزِي﴾ أي: لا يقضي ولا يسقط ولا يحمل ﴿وَالِدٌ﴾ مع كمال عطفه ورأفته ﴿عَن﴾ وزر ﴿وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ بل كل نفس حينئذٍ رهينة ما كسبت، ضمينة ما اكتسبت بمقتضى ما وعد الله لها وكتب، وبالجملة: ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ الذي وعده لعباده ﴿حَقٌّ﴾ لا ريب في إنجازه، ولا خلف في وقوعه ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ﴾ أيها المجبولون على الغفلة والغرور ﴿الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ بتغريراتها وتلبيساتها من مالها وجاهها، ولذاتها الفانية الغير القارة ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ﴾ عفوه وغفرانه، وسعة رحمته وجوده ﴿الْغَرُورُ﴾ [لقمان: 33] أي: الشيطان المبالغ في الغرور والتغرير بأن يجبركم على المعاصي اتكالاً على عفو الله وغفرانه.

ثمّ لمّا أتى الحرث بن عمرو رسول الله ﷺ فقال: متى تقوم الساعة، وأني قد ألقيت بذرًا على الأرض فمتى تمطر السماء، وامرأتي ذات حمل حملها ذكر أم أنثى، وما أعمل غدًا، وأين أموت؟

فنزلت: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المستقل باطلاع الغيوب ﴿عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ وقت قيامها، ولم يطلع أحدًا عليها سوى أنه سبحانه أخبر بوقوعها وقيامها في جميع الكتب المنزلة من عنده على رسله ﴿وَ﴾ أيضًا هو ﴿يُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾ ولم يُطلع أحدًا بوقت نزوله ﴿وَيَعْلَمُ﴾ أيضًا سبحانه ﴿مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ ولم يُطلع أحدًا عليه ﴿وَ﴾ أيضًا ﴿مَا تَدْرِي﴾ وتعلم ﴿نَفْسٌ﴾ من النفوس ﴿مَّاذَا تَكْسِبُ﴾ وتعمل ﴿غَدًا﴾ وإن تدبرت وتدربت، وبذلت جهدها وسعيها لا تفوز إلى دراية أحوال غدها، بل هو أيضًا من جملة المغيبات

التي أحاط بها علمه سبحانه بلا اطلاع أحد عليها ﴿وَمَا تَدْرِي﴾ وتعلم ﴿نَفْسٌ﴾ أيضًا، وإن بالغت في السعي وبذل الجهد والطاقة ﴿بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾[1] بل هو أيضًا من جملة الغيوب التي استأثر الله بها، وبالجملة: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المستقل بالألوهية والربوبية، المستجمع لجميع أوصاف الكمال ﴿عَلِيمٌ﴾ لا يعزب عن حيطة حضرة علمه ذرة ﴿خَبِيرٌ﴾ [لقمان: 34] لا يخرج عن حيطة خبرته طرفة، وإن كان لا يكتنه علمه وخبرته، والله أعلم بحقائق أسمائه وصفاته، ودقائق معلوماته، ورقائق آثاره ومصنوعاته المترتبة عليها.

ربنا زدنا بفضلك وجودك علمًا تنجينا عن الجهل بك وبأسمائك وأوصافك، إنك على ما تشاء قدير.

خاتمة السورة

عليك أيها الموحد المتحقق بمقام التوحيد، والمتمكن في مقعد الصدق، خاليًا عن إمارة التخمين والتقليد ألَّا تتأمل ولا تتمنى في نفسك حصول ما لا يسع في وسعك وطاقتك من الأمور التي ليست في استعدادك وقابليتك حصولها وانكشافها دونك؛ إذ الإنسان وإن سعى، وبذل جهده في طريق العرفان بعدما وفقه الحق وجذبه نحوه لا يبلغ إلَّا إلى التخلق بأخلاقه الله والفناء في ذاته، منخلعًا عن لوازم ناسوته بقدر ما يتمكن له، ويسع في قابليته واستعداده.

وأمَّا الاطلاع على جميع معلوماته سبحانه، والانكشاف بالمغيبات التي استأثر

---

(1) أي أين تموت؟ وربما أقامت بأرض وضربت أوتادها وقالت: لا أبرحها فترمي بها مرامي القدر حتى تموت في مكان لم يخطر ببالها، روي أن ملك الموت مر على سليمان فجعل ينظر إلى رجل من جلسائه فقال الرجل: من هذا؟ فقال له: ملك الموت، قال: كأنه يريدني وسأل سليمان عليه السلام أن يحمله على الريح ويلقيه ببلاد الهند ففعل، ثم قال ملك الموت لسليمان: كان دوام نظري إليه تعجبًا منه لأني أمرت أن أقبض روحه بالهند وهو عندك، وجعل العلم لله والدارية للعبيد لما في الدارية من معنى الختل والحيلة، والمعنى أنها لا تعرف وإن أعملت حيلها ما يختص بها ولا شيء أخص بالإنسان من كسبه وعاقبته، فإذا لم يكن له طريق إلى معرفتهما كان معرفة ماعداهما أبعد وأما المنجم الذي يخبر بوقت الغيث والموت فإنه يقول بالقياس والنظر في الطالع، وما يدرك بالدليل لا يكون غيباً على أنه مجرد الظن والظن غير العلم، وعن النبي صلى الله عليه وسلم «مفاتح الغيب خمس» وتلا هذه الآية. [تفسير النسفي (3/ 114)].

الله به في غيب ذاته فأمر لا يحوم حوله إدراك أحد من الأنبياء والرسل، والكمّل من أرباب الولاء والمحبة الخالصة، بل لا يتفوه به أحد من خلّص عباده أصلاً؛ إذ هو خارج عن استعداداتهم مطلقًا، وما المعجزات والكرامات الخارقة للعادة الصادرة عن خواص عباد الله من الأنبياء والأولياء، فما صدرت أيضًا منهم هذه الأمور إلا بإطلاع الله إياهم، وتوفيقهم عليها، وهم مجبورون مضطرون في ظهور أمثال تلك الكرامات عنهم، مع أن بعض أرباب المحبة والولاء الوالهين بمطالعة جمال الله وجلاله تحزنوا، وتغمموا عند ظهور أمثال هذه الخوارق منهم؛ لمنافاتها بصرافة استغراقهم، كما تشاهد من بعض بدلاء الزمان، أدام الله بركته على معارف أهل الإيمان والعرفان.

وبالجملة: لا بدَّ أن يكون الموحد متمسكًا بحبل الرضا والتسليم بما جرى عليه من صولجان القضاء بلا تطلب منه وترقب له.

جعلنا الله ممن تمكن بمقام الرضا، ورضي بجميع ما أثبت له الحق في لوح القضاء.

سورة السجدة

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة سورة السجدة

لا يخفى على أهل العناية الموفقين من عند الله باستكشاف ما في طي كتابه من المعارف والحقائق المتعلقة بسرائر التوحيد، والمسترشدين منه بقدر ما يسَّر الله من الأخلاق الإلهية المودعة فيه أن أمثال هذه الأسرار والرموز والإشارات المندرجة في هذا الكتاب لا يليق إلا بجناب الحكيم الوهاب، المطلع على سرائر ما ظهر وبطن من آثار الوجود غيبًا وشهادة، دنيًا وعقبى؛ إذ لا يسع لبشر أن يتفوه بهذه الحِكم والأحكام على هذا النهج والنظام الأبلغ الأكمل، وليس في طاقتهم واستعدادهم الوقوف على المغيبات التي تخصص بها سبحانه، والإحاطة بالأمور التي تعلقت بالنشأتين، وترتب عن المنزلتين.

ومن له أدنى دربة بأساليب الكلام، ودراية في اتساقه وانتظامه، وترتيب ألفاظه وكمالاته، وتطبيق معانيه، وترصيف فحاويه ومبانيه جزم أنه خارج عن طرق البشر ومعلوماتهم؛ إذ لا مناسبة لعقولهم به.

ثم لمَّا بلغ المرتابون في قدحه وطعنه، ونسبته إلى الاختلاق والافتراء مجادلةً ومراءً، رد الله سبحانه عليهم على أبلغ وجه وآكده مخاطبًا لحبيبه ﷺ متيمنًا باسمه الكريم: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي أنزل على عبده الكتاب؛ ليبين لهم طريق الصدق والصواب في سلوك سبيل التوحيد والعرفان ﴿الرَّحْمَنِ﴾ لهم بإرسال الرسول الهادي إلى دار السلام وطريق الجنان ﴿الرَّحِيمِ﴾ لهم، يوصلهم فيها إلى لقاء الرحمن.

﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝٣ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۝٤ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى

﴿يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥﴾[السجدة: 1-5].

﴿الٓمٓ﴾ [السجدة: 1] أيها الإنسان الأكمل الأعلم للوازم لوامع أنوار الوجود اللائح على صنحات وجود الأكوان بمقتضى الجود، الملاحظ المطالع لها بتوفيق الله الملك الودود.

﴿تَنزِيلُ الكِتَابِ﴾ الجامع لما في الكتب السالفة، المبيّن لأحكام دين الإسلام، المنزل عليك يا أكمل الرسل؛ لتأييدك وترويج دينك ﴿لَا رَيۡبَ فِيهِ﴾ إنه نازل من الله الجامع لجميع الأسماء والصفات، كما أن مرتبتك جامعة لجميع مراتب أهل العلم، وأنت مبعوث إلى كافة الأمم؛ ولذا صار كتابك نازلاً ﴿مِن رَّبِّ العَالَمِينَ﴾[1] [السجدة: 2] يشكّون ويترددون في نزوله من عنده سبحانه أولئك الطاعنون الضالون.

﴿أَمۡ يَقُولُونَ افۡتَرَاهُ﴾ واختلقه من تلقاء نفسه، ونسبه إلى الله افتراءً ومراءً، تغريرًا وتلبيسًا، لا تحزن يا أكمل الرسل عليهم، ولا تلتفت إلى قولهم هذا ﴿بَلۡ هُوَ الحَقُّ﴾ الثابت المحقق، المثبت نزوله ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ الذي رباك بأنواع الكرم، واصطفاك من بين البرايا لرسالته العامة، أنزله إليك مشتملاً على الإنذارات الشديدة، والتخويفات البليغة ﴿لِتُنذِرَ﴾ بوعيداته ﴿قَوۡمًا﴾ انقطع عنهم آثار النبوة والرسالة؛ لبعد العهد أو ﴿مَّآ أَتَاهُم﴾ بعد عيسى - صلوات الله عليه وسلامه - ﴿مِّن نَّذِيرٖ﴾ أنذرهم عن الباطل وأرشدهم إلى طريق الحق ﴿مِّن قَبۡلِكَ﴾ بل هم على فترة من الرسل فأرسلك إليهم ﴿لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ [السجدة: 3] بهدايتك وإرشادك إلى توحيد الحق، واتصافه بأوصاف الكمال.

وكيف لا يوحدون ولا يؤمنون بتوحيده وأسمائه وصفاته ﴿اللَّهُ﴾ الواحد الأحد، الفرد الصمد ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾ وأوجد بقدرته الكاملة ﴿السَّمَوَاتِ﴾ أي: العلويات ﴿وَالأَرۡضَ﴾ أي: السفليات ﴿وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾ أي: الممتزجات ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ﴾ وساعات

---

(1) قال في التأويلات: إذا تعذر لقاء الأحباب فأعز الأشياء على الأحباب كتاب الأحباب أنزل رب العالمين إلى أهل العالمين كتابًا في الظاهر ليقرأ على أهل الظاهر فينذر به أهل الغفلة. ويبشر أهل الخدمة، وكتابًا في الباطن على أهل الباطن لتتنور بأنواره بواطنهم وتتزين بأسراره سرائرهم فينذر له أهل القربة لئلا يلتفتوا إلى غيره ولا يستأنسوا بغيره، فتسقطهم الغيرة عن القربة ويبشر به أهل المحبة بالوفاء بوعد الرؤية وباللقاء على بساط الوصلة وبالبقاء بعد الفناء في الوحدة فيتكلموا بالحق عن الحق للحق، فإذا سمع أهل الباطل كلامهم في الحقائق من ربهم وأنكر عليهم أهل الغفلة أنه من الله.

منبسطة في الأقطار والجهات الست ﴿ثُمَّ﴾ بعدما تم التمهيد والبسط ﴿اسْتَوَى﴾ واستولى، وتمكن سبحانه ﴿عَلَى الْعَرْشِ﴾ أي: انبسط على عروش عموم ما ظهر وبطن من الآفاق والأنفس بالاستقلال التام، والتصرف العام على صرافة وحدته الذاتية بلا شائبة شركة وطرق كثرة؛ لذلك ﴿مَا لَكُم﴾ أيها الأظلال المنعكسة من شمس ذاته ﴿مِّن دُونِهِ﴾ سبحانه ﴿مِن وَلِيٍّ﴾ يولي أموركم ويتصرف فيكم ﴿وَلَا شَفِيعٍ﴾ ينصركم، ويعاون عليكم سواه سبحانه ﴿أَ﴾ تشكُّون وتترددون في توحيده وولايته سبحانه أيها المنهمكون في الغفلة والضلال ﴿فَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [السجدة: 4] وتتعظون بمواعظه وتذكيراته مع أنه كررها مرارًا.

وكيف لا هو الذي ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ﴾ أي: عالم الأمر المنبئ عن الإيجاد والإظهار بإنزال الملائكة الذين هم مظاهر أوصافه وأسمائه ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي: سماء الأسماء المتعالية عن الأقطار والجهات مطلقًا ﴿إِلَى الأَرْضِ﴾ أي: الطبيعة القابلة لقبول آثارها، وإنما أنزلهم وأهبطهم إليها؛ ليعد حسب حكمته المظاهر والمصنوعات؛ لقبول فيضان سلطان توحيده ﴿ثُمَّ﴾ بعدما تم على الوجه الأبدع، والنظام الأتم الأبلغ ﴿يَعْرُجُ﴾ ويصعد ﴿إِلَيْهِ﴾ سبحانه ما يترتب على عالم الأمر من المعارف والحقائق، والأسرار الكامنة في سريان الوحدة الذاتية بعد انقراض النشأة الأولى ﴿فِي يَوْمٍ﴾ معد لعروجه وصعوده ﴿كَانَ مِقْدَارُهُ﴾ أي: مقدار ذلك اليوم في الطول والامتداد ﴿أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: 5] في هذه النشأة من الأيام والأعوام.

﴿ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [السجدة: 6-11].

وإنما دبَّر سبحانه ما دبَّر من المعارف والحقائق المترتبة على الإيجاد والإظهار، وقدر للعروج والصعود ما قدر لحِكم ومصالح استأثر بها سبحانه في غيبه، ولم يطلع أحدًا عليها؛ إذ ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذات البعيد ساحة عز حضوره عن أن يحوم حوله إدراك أحد

من مظاهره ومصنوعاته ﴿عَالِمُ الغَيْبِ﴾ الذي لم يتعلق به علم أحد سواه ﴿وَالشَّهَادَةِ﴾ المنعكسة منه حسب تجلياته الجمالية والجلالية ﴿العَزِيزُ﴾ الغالب القادر على جميع ما دخل في حيطة حضرة علمه بأن يتصرف فيه كيف يشاء إرادةً واختيارًا ﴿الرَّحِيمُ﴾ [السجدة: 6].

﴿الَّذِي﴾ وسعت رحمته كلما لاحت عليه بروق تجلياته؛ لذلك ﴿أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ أي: قدر وجوده بعدما دخل في حيطة علمه، وقدرته وإرادته ﴿وَبَدَأَ﴾ من بينهم ﴿خَلْقَ الإِنسَانِ﴾ أي: آدم، وقدر وجوده أولاً ﴿مِن طِينٍ﴾ [السجدة: 7] إذ هو أصل في عالم الطبيعة، قابل لفيضان آثار الفاعل المختار، مستعدًا لها استعدادًا أصليًا، وقابليةً ذاتيةً.

﴿ثُمَّ﴾ بعد تعلق إرادته سبحانه بإبقاء نوعه ﴿جَعَلَ نَسْلَهُ﴾ أي: قدر بصنعه وجود ذرياته المتناسلة المتكثرة، المتخلفة منه على سبيل التعاقب والترادف ﴿مِن سُلالَةٍ﴾ فضلة منفصلة مني، كائنة ﴿مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ [السجدة: 8] ممتهن مسترذل مستقذر؛ لخروجه عن مجرى الفضلة.

﴿ثُمَّ﴾ بعدما قدر خلقه أولاً من الطين، وثانيًا من الماء المهين ﴿سَوَّاهُ﴾ سبحانه إظهارًا لقدرته؛ أي: قوّم وعدّل أركانه على أحسن التقويم ﴿وَ﴾ بعد تسويته وتعديله ﴿نَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ﴾[1] المضافة إلى ذاته المستجمع لجميع أوصافه وأسمائه تتميمًا لرتبة خلافته ونيابته، واستحقاقه لمرآتية الحق، قابليته انعكاس شئونه وتطوراته ولياقته؛ للتخلق بأخلاقه ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿جَعَلَ﴾ وهيأ ﴿لَكُمُ﴾ أيها المجبولون على فطرة المعرفة والتوحيد ﴿السَّمْعَ﴾ لتسمعوا بها آيات التوحيد، ودلائل اليقين والعرفان ﴿وَالأَبْصَارَ﴾ ليشاهدوا بها آثار القدرة والإرادة الكاملة المحيطة بذرائر الأكوان ﴿وَالأَفْئِدَةَ﴾ المودعة فيكم؛ لتتأملوا بها سريان الوحدة الذاتية على هياكل الأشباح الكائنة والفاسدة، وتتفكروا بها في آلاء الله ونعمائه المتوالية المتوافرة، ومع وفور تلك النعم العظام، والفواضل الجسام ﴿قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [السجدة: 9] وتصرفونها إلى ما مقتضياتها التي جبلها الحق لأجلها.

---

(1) أضافه إلى نفسه، تشريفاً، إشارة إلى أنه خلق عجيب، وأن له شأناً ومناسبة إلى حضرة الربوبية؛ ولذلك قيل: من عرف نفسه عرف ربه. البحر المديد (5/51).

﴿وَ﴾ من غاية كفرانهم بنعم الله، ونهاية عمههم وسكرتهم فيه: ﴿قَالُوا﴾ أي: أُبي بن خلف ومن معه من المنافقين بعدما سمعوا من البعث والحشر، ويوم العرض والجزاء مستبعدين مستفهمين، مكررين على سبيل المبالغة في الإنكار: ﴿أَئِذَا ضَلَلْنَا﴾ واضمحللنا ﴿فِي الأَرْضِ﴾ وصرنا من جملة الهباء المنبثة، المتلاشية المتناسلة التي لا تمايز فيها أصلاً ﴿أَئِنَّا﴾ بعدما كنا كذلك أيها العقلاء المجبولون على الدراية والشعور ﴿لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ مثلما كنا عليها قبل موتنا؟! كلا وحاشا، ما لنا عود إلى الحياة الدنيا، سيما بعدما متنا وصرنا ترابًا وعظامًا، وهم أيضًا ما يقتصرون من شيء بمجرد قولهم هذا ﴿بَلْ هُم﴾ من غلظ غشاوتهم وغطائهم ﴿بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ﴾ الذي رباهم بأنواع النعم في النشأة الأولى، وأفاض عليهم سجال اللطف والكرم في النشأة الأخرى، وقبض ملك الموت أرواحهم بأمر الله إياه ﴿كَافِرُونَ﴾ [السجدة: 10] منكرون جاحدون.

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل نيابةً عنا بعدما سمعت قولهم: ﴿يَتَوَفَّاكُم﴾ ويستوفي أجلكم أيها المنهمكون في الغفلة والضلال ﴿مَلَكُ المَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ بإذن الله؛ لقبض أرواحكم ﴿ثُمَّ﴾ بعدما قبضتم في النشأة الأولى، وبعثتم من قبوركم أحياءً في النشأة الأخرى ﴿إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [السجدة: 11] للعرض والجزاء.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ ۖ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [السجدة: 12-14].

﴿وَلَوْ تَرَى﴾ أيها المعتبر الرائي يومئذٍ بعدما بعث الخلائق، وعُرضوا على ربهم حيارى سكارى، تائهين هائمين ﴿إِذِ المُجْرِمُونَ﴾ المنكرون بالبعث والنشور، والعرض والجزاء وشرف اللقاء حينئذٍ ﴿نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ من غاية الخجالة والحياء، قائلين من نهاية اضطرارهم واضطرابهم، مناجين معه سبحانه: ﴿رَبَّنَا﴾ يا من ربانا بأنواع الكرامة فكفرناك، وأرسلت لنا رسلاً فكذبناهم عنادًا، وأنكرنا عليهم وعلى دعوتهم مكابرةً، فاليوم ﴿أَبْصَرْنَا﴾ ما هو الحق المطابق للواقع ﴿وَسَمِعْنَا﴾ منك حقًا صدق

رسلك، وجميع ما جاءوا به من عندك ﴿فَارْجِعْنَا﴾ بفضلك ولطفك إلى الدنيا مرة بعد أخرى ﴿نَعْمَلْ﴾ فيها ﴿صَالِحًا﴾ مرضيًا عندك، مقبولاً على مقتضى ما أبصرتنا وأسمعتنا الآن ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: 12] اليوم بجميع ما جاء به رسلك، ونطق به كتابك.

لو رأيت حالهم هذا، وسمعت مناجاتهم هذه حينئذٍ لرأيت أمرًا فظيعًا فجيعًا، ثمّ نودوا من وراء سرادقات العز والجلال: الآن قد مضى وقت الاختبار والابتلاء، وانقرض زمان التدارك والتلافي ﴿وَلَوْ شِئْنَا﴾ وتعلق إرادتنا بهدايتكم أولاً ﴿لَآتَيْنَا﴾ في دار الابتلاء ﴿كُلَّ نَفْسٍ﴾ منكم ﴿هُدَاهَا﴾ ووفقكم عليها كما آتينا لخلّص عبادنا، ويسرنا لهم الهداية والرشاد ﴿وَلَكِنْ حَقَّ﴾ أي: صحّ وثبت ﴿الْقَوْلُ﴾ والحكم ﴿مِنِّي﴾ على مقتضى حكمتي ومصلحتي ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾ بمقتضى عزتي وجلالي ﴿جَهَنَّمَ﴾ المعدة لأصحاب الشقاوة الأزلية ﴿مِنَ الْجِنَّةِ﴾ التي هي جنود إبليس ﴿وَالنَّاسِ﴾ الناسين مقتضى العهود الفطرية، والمواثيق الجبلية بتغريرات شياطين نفوسهم الأمّارة بالسوء ﴿أَجْمَعِينَ﴾[1] [السجدة: 13] وما يبدل القول لدي، ولا معقب لحكمي.

﴿فَذُوقُوا﴾ أي: قلنا لهم بعدما لم نستجب دعوتهم: ذوقوا اليوم أيها الضالون المسرفون ﴿بِمَا نَسِيتُمْ﴾ أي: بسبب نسيانكم ﴿لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ مع أن الرسل بالغوا بإخباره إياكم، والكتب نطقت بتبيينه عليكم على أبلغ وجه وآكده، وأنتم أصررتم على الإنكار غافلين ناسين مكابرين ﴿إِنَّا نَسِينَاكُمْ﴾ اليوم في أنواع العذاب، كما نسيتم أنتم إيانا فيما مضى ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ﴾ أي: المخلّد المؤبّد ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: 14] من الكفران الدائم، والنسيان المستمر في النشأة الأولى، أعاذنا الله وعموم عباده من ذلك.

﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ (١٥) تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا

(1) ولكن تعلقت المشيئة بإغواء قوم كما تعلقت بإدناء قوم، وإدناء أن يكون للنار قطان كما أردنا أن يكون للجنة سكان إظهارًا لصفات لطفنا وصفات قهرنا؛ لأن الجنة وأهلها مظهر لصفات لطفي والنار وأهلها مظهر لصفات قهري، وإني لفعال لما أريد. [التأويلات].

رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾﴾ [السجدة: 15- 18].

ثمّ قال سبحانه على مقتضى سنته المستمرة: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ﴾ ويذعن ﴿بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على توحيد ذاتنا وكمال أسمائنا وصفاتنا الموحدون المخبتون ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا﴾ أي: بالآيات تبشيرًا وإنذارًا ﴿خَرُّوا﴾ وسقطوا ﴿سُجَّدًا﴾[1] مستقبلين مبادرين لقبولها، وامتثال ما فيها من الأوامر والنواهي، والعبر والتذكيرات الواردة في فحاويها ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿سَبَّحُوا﴾ ونزهوا ربهم عمًا لا يليق بجناب قدسه، قائلين ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ عادين نعمه على أنفسهم، مواظبين على شكرها، خاضعين خاشعين أذلاء، واضعين جباههم على تراب المذلة تواضعًا وإسقاطًا للكبر والخيلاء المذمومين عقلاً وشرعًا ﴿وَهُمْ﴾ حينئذٍ ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [السجدة: 15] عن عبادة الله، وعن الانقياد بأوامره وأحكامه الواردة في كتابه.

ومن كمال إطاعتهم وانقيادهم: ﴿تَتَجَافَى﴾ أي: تتنحى وترتفع ﴿جُنُوبُهُمْ﴾ وضلوعهم ﴿عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ أي: البسط والوسائد التي رقدوا عليها في الليل؛ يعني: بعدوا عن مواضع رقودهم واستراحتهم في خلال الليالي ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا﴾ من بطشه وخشيته ﴿وَطَمَعًا﴾ لمرضاته وعموم رحمته، وسعة جوده ومغفرته ﴿وَ﴾ هم لا يقتصرون على قيام الليل للتهجد، بل ﴿مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ وسقنا نحوهم من الرزق الصوري والمعنوي ﴿يُنفِقُونَ﴾ [السجدة: 16] في سبيلنا على الطالبين المتوجهين إلينا، منقطعين عن لذائذ الدنيا ومزخرفاتها، سوى سدّ جوعة وستر عورة، وهم بارتكاب هذه المتاعب والمشاق ما يريدون إلا وجه الله، وما يطلبون إلا رضاه سبحانه، مؤثرين رضاء الله على أنفسهم، مخلصين فيه.

بحيث ﴿فَلَا تَعْلَمُ﴾ ولا تغيب ﴿نَفْسٌ﴾ منهم ﴿مَّا أُخْفِيَ﴾ وأعد ﴿لَهُم﴾ من قِبَل الحق ﴿مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ هي فوزهم بشرف لقائه برؤية وجهه الكريم، وإنما أعدّ لهم

---

(1) قال الورتجبيي: وصف الله سبحانه أهل معرفته الذين إذا سمعوا خطابه سقطوا على وجوههم في جناب كبريائه وعظمته حبًا له وشوقًا إليه، ولا يكون هذا إلا وصف الوالهين من عشقه، الصادقين في توحيده ومعرفته. قال القاسم: إذا وعظوا بها خرُّوا سجَّدًا عند أوقاته، وذلك صفة المؤمنين، ومن أبى ذلك في أوقاته لا يلحقه اسم الإيمان ولا وسمه.

سبحانه ما أعد لهم ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: 17] على وجه الإخلاص من إيثارهم جانب الحق على أنفسهم.

﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا﴾ أي: أتظنون أيها الظانون المسرفون، والجاحدون المنكرون أن من كان مؤمنًا موقنًا بوحدانية الله، متصفًا بالأعمال الصالحة المؤيدة لإيمانه، كمن كان فاسقًا خارجًا عن ربقة الإيمان والإخلاص، وحدود الشرائع الواردة لحفظه؟! كلا وحاشا، إنهم ﴿لَا يَسْتَوُونَ﴾ [السجدة: 18] في الشرف والكمال، والفوز والنوال.

﴿ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَلَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [السجدة: 19-21].

بل ﴿أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بوحدانية الحق ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ المأمورة لهم على وجهها، مع كونهم مخلصين فيها، خاشعين خاضعين ﴿فَلَهُمْ﴾ في النشأة الأخرى بعدما انقرضوا عن دار الدنيا ﴿جَنَّاتُ الْمَأْوَى﴾ أي: المتنزهات المعدة لأهل الإيمان والقبول تأوي إليها نفوسهم على الرغبة الكاملة والطوع التام؛ ليكون ﴿نُزُلًا﴾ لهم؛ أي: منزلاً يسكنون فيه، ويستريحون فيها ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: 19] أي: بمقابلة ما يرتكبون من حمل المتاعب والمشاق في طريق الطاعات والعبادات.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا﴾ أي: تركوا الإيمان بالله، وخرجوا عن مقتضى الأوامر والنواهي الموردة في كتبه وعلى ألسنة رسله ﴿فَمَأْوَاهُمُ﴾ أي: مرجعهم ومثواهم في النشأة الأخرى ﴿النَّارُ﴾ المعدة لأهل الشقاوة الأزلية، هم فيها خالدون مخلدون، مؤبدون لا نجاة لهم أصلاً، بل ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا﴾ وأملوا ﴿أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾ أمهلهم الخزنة إلى أن يصلوا إلى شفيرها، ثمّ بعد ذلك ﴿أُعِيدُوا فِيهَا﴾[1] زجرًا وقهرًا تامًا

---

(1) لأنهم في هذه الصفة عاشوا وفيها ماتوا فعليها حشروا وذلك أن دعاة الحق كانوا في الدنيا ينصحون لهم أن يخرجوا من أسفل الطبيعة بحبل الشريعة ورعاية أدب الطريقة حملهم الشوق الروحاني على التوجه إلى الوطن الأصلي العلوي، فلما عزموا على الخروج من الدركات

مهانين صاغرين ﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾ أي: الزبانية الموكلون عليهم بإلهام الله إياهم: ﴿ذُوقُوا﴾ أيها المنكرون المصرون ﴿عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة: 20] حين أخبركم الرسل والكتب، وأنذروكم به.

ثمَّ أشار سبحانه إلى رداءة فطنة أصحاب الضلال، وخبث طينتهم فقال على سبيل المبالغة والتأكيد: ﴿وَ﴾ الله ﴿لَنُذِيقَنَّهُم﴾ ونصبّنَّ عليهم في دار الابتلاء ﴿مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى﴾ الأنزل الأسهل من القحط والطاعون والوباء، والقتل والسبي والزلزلة، وأنواع المحن والبليات التي هي أدنى وأسهل بمراحل ﴿دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾ أي: عند عذاب الآخرة الذي هو في غاية الشدة، ونهاية الألم والفظاعة، وإنما أخذناهم بها ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: 21] مما هم عليه من الكفر والشقاق، ويتفطنون منها إلى كمال قدرتنا واقتدارنا على أضعافها وآلافها، ومع ذلك لم يتفطنوا ولم يرجعوا عن غيهم وضلالهم، بل أصروا واستكبروا عدوانًا وظلمًا.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ (٢٢) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٣) وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (٢٤) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٢٥)﴾ [السجدة: 22-25].

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ على الله، وأسوأ أدبًا معه سبحانه ﴿مِمَّن ذُكِّرَ﴾ ووُعظ ﴿بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾ ليهتدي بها إلى الإيمان والتوحيد، ويمتثل بمقتضاها؛ ليتخلص عن الكفر والشرك ﴿ثُمَّ﴾ بعدما سمعها ﴿أَعْرَضَ عَنْهَا﴾ فجأة بلا تفكر وتأمل في معناها، وأنكر على مقتضاها، واستكبر على ما أنزل الله إليه، فكذبه ونسب إليه ما لا يليق بشأنه، وأصر على ما هو عليه عنادًا ومكابرةً ﴿إِنَّا﴾ من مقام قهرنا وجلالنا ﴿مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة: 22] أي: قل لهم يا أكمل الرسل نيابةً عنَّا بعدما بالغوا في الإنكار والإصرار: إنَّا منتقمون منهم على أبلغ وجه وأشده من عموم المجرمين الظالمين، فكيف من هو أجرم وأظلم منهم، وأصر على البغي والعناد؟! فننتقم عنهم، ونخلدهم في عذاب النار؛

الشهوية أدركتهم الطبيعة النفسانية الحيوانية السفلية وأمادتهم إلى أسفل الطبيعة. [التأويلات].

إذ لا عذاب أسوأ منه وأشد، أعاذنا الله وجميع عباده منها.

﴿وَ﴾ لا تظنن يا أكمل الرسل أنّا لم ننجز وعدنا الذي وعدنا معك في كتابك من أنّا ننتقم من أهل الشرك والكفر والإصرار على أبلغ وجه وآكده، بل لك أن تتيقن وتذعن إنجاز وعدنا إياك، مثلما أنجزنا مواعيدنا مع أخيك موسى الكليم؛ إذ ﴿لَقَدْ آتَيْنَا﴾ من مقام جودنا أخاك ﴿مُوسَى الْكِتَابَ﴾ أي: التوراة مثلما آتيناك الفرقان، ووعدنا فيه معه مثلما وعدنا معك في كتابك هذا من انتقام أهل الفساد والعناد، بل وعدنا هذا الوعد مع كل نبي ورسول آتيناه الكتاب والصحف ﴿فَلَا تَكُن﴾ أنت أيضًا يا أكمل الرسل ﴿فِي مِرْيَةٍ﴾ أي: شك وارتياب ﴿مِّن لِّقَائِهِ﴾ أي: إنجاز هذا الموعود وإتيانه على الوجه الذي وعدناه في التوراة ﴿وَ﴾ كيف ترتاب في وعدنا هذا مع أنّا قد ﴿جَعَلْنَاهُ﴾ أي: التوراة ﴿هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [السجدة: 23] يهتدون به إلى المعالم الدينية، والمعارف اليقينية، والحقائق العليّة، والمكتشفات السنيّة؟!.

﴿وَ﴾ كيف لا وهم من خواص عبادنا وخلّصهم؛ إذ قد ﴿جَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً﴾ أمناء هادون، مهديون مقتدون ﴿يَهْدُونَ﴾ الناس ﴿بِأَمْرِنَا﴾ ووحينا إياهم، وإلهامنا إليهم إلى ديننا وتوحيدنا، وإنما أعطيناهم ما أعطيناهم من الكرامات ﴿لَمَّا صَبَرُوا﴾ أي: حين وطّنوا نفوسهم على تحمل ما لحقهم في إعلاء كلمة الحق، وإفشاء أعلام الدين من المتاعب والمكروهات المؤدية إلى إتلاف النفس، وبذل المهج وأنواع المصيبات ﴿وَ﴾ هم ﴿كَانُوا﴾ في أنفسهم ﴿بِآيَاتِنَا﴾ النازلة إياهم، الدالة على كمال قدرتنا، الواردة في أي شيء أردناه ﴿يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: 24] يذعنون، لا يترددون فيها ولا يتذبذبون، وأنت يا أكمل الرسل أولى وأحق منهم بإيقان آياتنا وإذعانها.

﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ الذي رباك بأنواع الكرامات، وأيدك بأصناف الخوارق والمعجزات ﴿هُوَ﴾ بذاته ومقتضى حكمته المتقنة، وأحكامه المبرمة ﴿يَفْصِلُ﴾ ويقضي ﴿بَيْنَهُمْ﴾[1]

---

(1) قال نجم الدين كبرى: يشير إلى أنه تبارك وتعالى يحكم بين عباده لوجوه:
أولها: لعزتهم لأنهم عنده أعز من أن يجعل حكمهم إلى أحد من المخلوقين بل هو بفضله وكرمه يكون حاكما عليهم، وثانيها: غيرة عليهم لئلا يطلع على أحوالهم أحد غيره، وثالثها: رحمةً وكرمًا فإنه ستار لا يفشي عيوبهم ويستر عن الأغيار ذنوبهم، ورابعها: لأنه كريم ومن سنة الكرام أنهم ﴿إِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً﴾ [الفرقان:72]، وخامسها: فضلاً وعدلاً فإنه الخالق الحكيم الذي خلقهم وما يعلمون على مقتضى حكمته ووفق مشيئته، فإن رأى منهم حسنا

أي: بين المحقين والمبطلين، ويميز كلاً منهم عن صاحبه ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ المعدة للقطع والفصل، وتنفيذ الأحكام والحكومات، فيومئذٍ يظهر لهم الحق ﴿فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [السجدة: 25] من الأمور الدينية، والمعارف اليقينية.

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾[السجدة: 26-30].

﴿أَوَ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ أي: أهل مكة إلى سبيل الرشاد، ولم يوقظهم عن هجعة الغفلة

فلذلك من نتائج إحسانه وفضله، وأن منهم قبيحًا فذلك من موجبات حكمته وعدله وأنه ﴿لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً﴾ [النساء:40]، وسادسها: عناية وشفقة فإنه تعالى خلقهم ليربحوا عليه لا ليربح عليهم، فلا يجوز عن كرمه أن يخسروا عليه، وسابعها: رحمة ومحبة فإنه تعالى بالمحبة خلقهم لقوله: «فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لأعرف»(1) وللمحبة خلقهم لقوله: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة:54] فينظر في شأنهم بنظر المحبة والرضا وعين الرضا عن كل عيب كليلة، وثامنها: لطفًا وتكريمًا فإنه نادى عليهم بقوله: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء:70] فلا يهين من كرّمه، وتاسعها: عفوًا وجودًا فإنه تعالى عفو يحب العفو، فإن رأى جريمة في جريدة العبد يجب عفوها، وأنه جواد يحب أن يجود عليهم بالمغفرة والرضوان، وعاشرها: أنه تعالى جعلهم خزائن أسراره فهو أعلم بحالهم وأعرف بقدرهم، فإنه خمر طينتهم بيده أربعين صباحًا وجعلهم مرآة يظهر لها جميع صفاته عليهم لا على غيرهم، ولو كانت الملائكة المقربون ألا ترى أنه تعالى لما قال لهم: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة:30] فما عرفوهم حق معرفتهم حتى قال تعالى فيهم عزة وكرامة لهم ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:30] أي: من فضائلهم وشمائلهم، فإنهم خزائن أسراري ومرآة جمالي وجلالي، فأنتم تنظرون إليهم بنظر الغيرة وأنا أنظر إليهم الرحمة والمحبة، فلا ترون منهم ألا كل قبيح ولا أرى منهم إلا كل جميل، فلا أرضى أن أجعلكم حاكمًا بينهم بل بفضلي وكرمي أنا أفضل بينهم فيما كانوا فيه يختلفون، فأحسن مع محسنهم وأتجاوز عن سيئهم، فلا يكبر على اختلافهم لعلمي بحالهم أنهم لا يزالون مختلفين ﴿إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ [يوسف:53] ولذلك خلقهم.

ورقاد العناد ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ أي: كثرة إهلاكنا واستئصالنا ﴿مِن قَبْلِهِم مِّنَ﴾ أهل ﴿الْقُرُونِ﴾ الماضية الهالكة، المغرورين أمثالهم بالكبر والخيلاء بما عندهم من المال والجاه والثروة، مع أن هؤلاء المعاندين ﴿يَمْشُونَ﴾ ويمرون ﴿فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾ الخربة، ودورهم المندرسة حين ارتحالهم نحو متاجرهم وما يعتبرون منها ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: في رؤية تلك المنازل والأطلال المغمورة، والبلاد المقهورة ﴿لَآيَاتٍ﴾ دلائل واضحات، وشواهد لائحات على كمال قدرتنا واختيارنا، وشدة انتقامنا وقهرنا ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ [السجدة: 26] مقتضيات الآيات، ولا يتدبرون فيها حق التدبر والتفكر؛ حتى يتخلصوا عن أودية الضلالات، وأغوار الجهالات، ويتصفوا بأنواع الهدايات والكرامات؟!.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ ولم يبصروا أولئك المعاندون المنكرون على كمال قدرتنا، ووفور حكمتنا واختيارنا ﴿أَنَّا﴾ من مقام جودنا ولطفنا كيف ﴿نَسُوقُ الْمَاءَ﴾ بالتدابير العجيبة، والحكم البديعة من تصعيد الأبخرة والأدخنة، وتراكم السحب منها، وتقاطر المطر من فتوقها وخلالها ﴿إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾[1] التي قطع نباتها من غاية يبسها وجمودها ﴿فَنُخْرِجُ بِهِ﴾ أي: بالماء الذي سقنا ﴿زَرْعًا﴾ أي: أنواعًا من الأقوات ﴿تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ﴾ أوراقه وتبنه ﴿وَأَنفُسُهُمْ﴾ حبوبه وثمرته ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ [السجدة: 27] أولئك المصرون المنكرون هذه القدرة العجيبة، فيستدلون بها على قدرتنا الكاملة، وحكمتنا البليغة البالغة بعدما سمعوا منك يا أكمل الرسل أن ربك يفصل بينهم فيما كانوا فيه يختلفون؟!.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ مستهزئين معك، متهكمين: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ﴾ والفصل الذي وعدتم به، أخبرونا وقته ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [السجدة: 28] في دعواكم؛ حتى نتهيأ ونتزود، ونؤمن به كما آمنتم؟.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل في جوابهم: ﴿يَوْمَ الْفَتْحِ﴾ هو يوم القيامة المعدة؛ لتنقيد الأعمال والحساب، فيومئذٍ ﴿لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في النشأة الأولى مدة أعمارهم ﴿إِيمَانُهُمْ﴾ فيها ﴿وَلَا هُمْ﴾ حينئذٍ ﴿يُنظَرُونَ﴾ [السجدة: 29] ويمهلون؛ حتى يتداركوا

---

(1) يعني: اليابسة الملساء التي ليس فيها نبات، يقال: أرض جرز أي: أرض جدب لا نبات فيها، يقال جرزت الجراد إذا أكلت، وتركت الأرض جرزاً. بحر العلوم للسمرقندي (3 /386).

ما فوَّتوا على نفوسهم طول عمرهم من الإيمان بالله، والامتثال بأوامره ونواهيه، وتصديق الرسل والكتب، وجميع معالم الدين وشعائر الإسلام.

وبعدما تمادوا في الغفلة والضلال، وبالغوا في العتو والعناد ﴿فَأَعْرِضْ﴾ يا أكمل الرسل ﴿عَنْهُمْ﴾ ولا تلتفت إلى هذياناتهم، واصرف عنان عزمك عن هدايتهم وإرشادهم بعدما تاهوا في تيه الغي والضلال، وأصروا عليها ﴿وَانتَظِرْ﴾ النصر والظفر، والغلبة عليهم ﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ [السجدة: 30] أيضًا؛ ليغلبوا عليك ويظفروا.

ربنا أفرغ علينا صبرًا، وثبت أقدامنا، وانصرنا على القوم الكافرين.

خاتمة السورة

عليك أيها السالك القاصد سلوك سبيل التوحيد، والناسك المجاهد مع أعدى عدوك الذي بين جنبيك، أعانك الله ونصرك على عدوك أن تتصبر على متاعب العبودية، ومشاق التكاليف الواقعة في إتيان المأمورات الشرعية، وترك المألوفات الطبيعية، سيما فيما أُشكل أمره عليك، ودفعه عندك من انقهار أمّارتك وانزجارها، وانتقامك عنها مفوضًا أمورك كلها إلى ربك، منتظرًا إلى أن يغلبك الحق عليها بعدما وعدك به بأن يجعل سبحانه سلطانة أمّارتك مأمورة لك، مطمئنة بحكمك، راضية بجميع ما جرى عليها من سلطان القضاء بلا امتناع وإباء.

فلك حينئذٍ أن تتمكن في مقام الرضا والتسليم؛ حتى تصير مطمئنتك فانية مضمحلة، متلاشية بحيث لا يبقى فيها من هوية ناسوتها شيء، بل فنيت هويتها في هوية الحق مطلقًا، فحينئذٍ فزت بدوام أبدي، وبقاء سرمدي بلا عروض انقضاء وانصرام، وبلا لحوق انتهاء وانخرام.

هب لنا من فضلك جذبةً تنجينا من هوية ناسوتنا، وتفنينا في هوية لاهوتك يا أرحم الراحمين.

سورة الأحزاب

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة سورة الأحزاب

لا يخفى على من تحقق بمقام التقوى، واجتنب عن مهلكات الهوى، ورجع إلى المولى متزهدًا عن الدنيا وغرورها وأمانيها مطلقًا أن الموحد والمتحقق بمقام التمكن والرضا لا بدّ أن يكون همته منحصرة على التوجه نحو الحق مطمئنًا به، راضيًا بما جرى عليه من سلطان القضاء، متوكلاً على الله في السراء والضراء، والمنح والعطاء، والمحن والبلاء، مترصدًا للوحي الإلهي، مترقبًا لإلهاماته الغيبية؛ لأن من انخلع عن خلع الناسوت مخلصًا تشرف بخلعة اللاهوت؛ إذ وقع أجره على الله ورجع أمره إليه، وعاد حكمه وشأنه على ما كان عليه في بدء الأمر، فصار محفوظًا في كنف حفظه وجواره، فله أن يتخذ سبحانه وكيلاً، ويجعله حسيبًا وكفيلاً يفوض أمره كله إليه منتظرًا وصيته وإلهامه؛ إذ هو سبحانه بذاته عليم بحاله وحاجاته، حكيم في تربيته وإرشاده، وما له إلا الإطاعة والتسليم والمتابعة لما يُوحى إليه من ربه العليم الحكيم، ماحيًا عن لوح قلبه الالتفات إلى غيره.

كما أمر به سبحانه لحبيبه ﷺ تربيةً وتأديبًا؛ وليتأدب به منْ تابعه وتخلق به منْ آمن له مخلصًا، فقال مناديًا إياه، متلطفًا معه، متيمنًا باسمه الكريم: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي اصطفى حبيبه ﷺ من بين البرايا بالخُلق العظيم ﴿الرَّحْمَنِ﴾ عليه في النشأة الأولى بإفاضة أنواع الكمالات اللائقة له على سبيل التبجيل والتكريم ﴿الرَّحِيمِ﴾ له في النشأة الأخرى بتمكينه في مقعد الصدق، والمقام المحمود الذي هو مقام الرضا والتسليم.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ ۖ وَاللَّهُ يَقُولُ

﴿ٱلۡحَقَّ وَهُوَ يَهۡدِي ٱلسَّبِيلَ ۝٤﴾ [الأحزاب: 1-4].

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ المؤيّد من عند العليم الحكيم مقتضى نبوتك التي صرت بها خاتمًا لدائرة النبوة والرسالة، متممًا لمكارم الأخلاق، مكملاً لأمر التشريع والتدوين: التقوى والتحفظ من مقتضيات الآراء الباطلة، والأهواء الفاسدة، والتحصن بالله والثقة إليه، وجعله وقايتك عند نزول البلاء وهجوم الأعداء ﴿اتَّقِ اللهَ﴾ حق تقاته، واجتنب عما لا يرضى به ربك مطلقًا ﴿وَلَا تُطِعِ﴾ في حال من الأحوال أمر ﴿الكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ الذين خاصموا معك في إسرارهم وإعلانهم، ولا تتبع أهواءهم الفاسدة وآراءهم الباطلة، وابتغ فيما آتاك الله من مقتضيات استعدادك، وما تفضل عليك امتنانًا لك؛ لرضاء الله والفوز بشرف لقاء الله ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المصلح لأحوال عباده ﴿كَانَ عَلِيمًا﴾ في حضرة علمه الحضوري بقابليتك وبمقتضياتها ﴿حَكِيمًا﴾ [الأحزاب: 1] في إفاضة ما يعينك وينبغي لك، ويليق بشأنك.

﴿وَ﴾ بعدما جعلت ربك وقاية نفسك، واتخذته وكيلاً لشأنك وأمرك ﴿اتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ تأييدًا لك، وتدبيرًا لأمورك وأحوالك، ولا تلتفت إلى هذيانات من عاداك، ولا تبال بمكرهم وحيلهم ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ﴾ الرقيب عليك وعليهم ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من المخائل الفاسدة، والتلبيسات الباطلة المتعلقة لمقتك وهلاكك ﴿خَبِيرًا﴾ [الأحزاب: 2] يكفيك مؤنة شرورهم ومكرهم، ويغلبك عليهم ويظهر دينك على الأديان كلها.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ﴾ أيها المتحصن بكنف حفظه وجواره، وثق بكرمه ولطفه ﴿وَكَفَى بِاللهِ﴾ أي: كفى بالله المراقب عليك في جميع أحوالك ﴿وَكِيلاً﴾ [الأحزاب: 3] لك يراقبك ويحفظك من شرور من قصد مقتك، وهجومهم عليك، ومكرهم معك، وكن في نفسك متوجهًا إلى ربك، مخلصًا فيه، مائلاً بوجه قلبك إلى قبلة وجهه الكريم، ولا تلتفت إلى من سواه ولا تُخطر ببالك غيره؛ إذ لا يسع في القلب الواحد إلا همٌّ واحد.

ولهذه الحكمة العليّة ﴿مَا جَعَلَ﴾ وخلق ﴿اللهُ﴾ العليم الحكيم، المتقن في أفعاله ﴿لِرَجُلٍ﴾ واحد ﴿مِّن قَلْبَيْنِ﴾ مشعرين مدركين ﴿فِي جَوْفِهِ﴾[1] حتى لا يتفتت ميله، ولا

(1) قال البقلي: إن الله سبحانه أخبر أن القلب واحد لا يحتاج إلى قلب سواه، فإن القلب خلق على

يتعدد قبلة مقصده ومرماه، وإن خلق له عينين وأذنين ويدين وغيرهما ﴿وَ﴾ كذا ﴿مَا جَعَلَ﴾ الله العليم الحكيم ﴿أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ﴾ وتقولون لهن: أنت عليّ كظهر أمي ﴿أُمَّهَاتِكُمْ﴾ حقيقة؛ ليترتب عليها أحكام الأمهات من التحريم، وعدم القربان والفراش معها وغيرها ﴿وَمَا جَعَلَ﴾ أيضًا ﴿أَدْعِيَاءَكُمْ﴾ أي: الأجانب الذين تدعونهم أبناءً من إفراط المحبة والمودة ﴿أَبْنَاءَكُمْ﴾ حقيقةً؛ حتى يترتب عليهم أحكام الأبناء من الميراث والمحرمية، وحرمة زوجتهم وابنتهم وغير ذلك من الأحكام.

﴿ذَلِكُمْ﴾ أي: الأمور الثلاثة المذكورة ﴿قَوْلُكُمْ﴾ أي: مجرد قول صدر عن ألسنتكم وتكلمتكم ﴿بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ لا حقيقة لها سوى الاشتهار ﴿وَاللَّهُ﴾ المدبر لأموركم، المصلح لأحوالكم ﴿يَقُولُ الْحَقَّ﴾ أي: الحكم الثابت المتحقق عنده سبحانه، المترتب عليه أحكامه إرشادًا لكم، وإصلاحًا لحالكم ﴿وَ﴾ كيف لا ﴿هُوَ﴾ بمقتضى ألوهيته وربوبيته ﴿يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: 4] السوي والصراط المستقيم إلى عباده الذين انحرفوا عن سبل السلامة، وطرق الاستقامة في الوقائع والأحكام.

﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا

استعداد قبول وقائع أنوار جميع الذات والصفات، وفيه عقل قدسي يعرف الأشياء بحقيقتها، ونفس هي مجرى الأقدار الفعلية القهرية من الله، وفيه روح لطيف قدسي مخاطب من الله بجميع طرق المعارف، وفيه سر هو مرآة كشوفات الغيب، فإذا هُدي القلب ميادين ربوبية الأزل والأبد لا يحتاج إلى شيء سواه؛ فإنه الكون الأصغر بالصورة، وفي المعنى الكون الأكبر ومن عرفه فقد عرف الحق، وعرف ما دونه من العرش إلى الثرى، فالقلب الحقيقي ما لم يكن بينه وبين الحق حجاب ولا يكون شغله بشيء سوى الله. قال الصادق: "قلب يرى به أمور الدنيا وقلب يعلم أمور الآخرة وذو القلب الصحيح السليم من كان قلبه حرًا من الاشتغال بشيء سوى الحق.

﴿غَلِيظًا ۝٧ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ۝٨﴾ [الأحزاب: 5-8].

وبعدما سمعتم حقيقة القول في أدعياءكم وحقيته ﴿ادْعُوهُمْ﴾ أي: سموهم أدعياءكم بأسمائهم، وانسبوهم حين دعائكم وندائكم إياه ﴿لِآبَائِهِمْ﴾ المولدين لهم حقيقة لا إلى الداعي إن علموا آباءهم الأصلية النسلية ﴿هُوَ﴾ أي: انتسابهم إلى آبائهم ﴿أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ﴾ وأقوم بين المؤمنين، وأقرب إلى الصدق، وأبعد عن الكذب والفرية؛ إذ كثيرًا ما اشتهر دعيٌّ باسم من تبناه فأراد أن يأخذ منه الميراث، فعليكم ألَّا تنسبوهم إلَّا لآبائهم الحقيقيين ﴿فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ﴾ لتنسبوهم إليهم ﴿فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ﴾ أي: فهم إخوانكم في الدين وأولياؤكم فيه كسائر المؤمنين، فخاطبوهم مثل خطاب بعضكم بعضًا، فقولوا له: يا أخي، ويا صاحبي، ووليي في الدين وغير ذلك.

﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿جُنَاحٌ﴾ إثم ومؤاخذة ﴿فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ﴾ أي: بقولكم هذا ونسبتكم هذه إذا صدرت عنكم هفوةً على سبيل الخطأ والنسيان، سواء كان قبل ورود النهي أو بعده ﴿وَلَكِن﴾ تؤاخذون في ﴿مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ وصدرت عنكم هذا قصدًا؛ إذ قصدكم به يؤدي إلى الافتراء، وتضييع حقوق المؤمنين ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا﴾ في حق من أخطأ ونسي ثمَّ ذكر فتاب ﴿رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: 5] عليه يقبل توبته، ويغفر زلته.

ثمَّ أشار سبحانه إلى تأديب كل من الأمم مع نبيه المؤيَّد من عنده سبحانه بأنواع التأييدات، والمعجزات الخارقة للعادات، المبعوث إليهم؛ لإرشادهم وتكميلهم، وأمرهم بحسن الأدب معهم والمحافظة على خدمتهم وحرمتهم.

وكيف لا يحسنون الأدب مع الأنبياء والرسل - صلوات الله عليهم - إذ كل نبي بالنسبة إلى أمته كالأب المشفق العطوف معهم، بل هو خير آبائهم يرشدهم إلى ما هو أصلح لهم في دينهم الذي هو حياتهم الحقيقية، فلهم أن يكونوا معه في مقام التذلل والانكسار التام، والانخفاض المفرط بأضعاف ما وجب عليهم من حقوق الوالد النسبي؛ إذ آثار تربية الأنبياء مؤيدة مخلدة، وآثار تربية هؤلاء الآباء متناهية منقطعة، وإن ترتب على تأديبهم وانخفاضهم معه من المثوبة الأخروية، فإنما هي راجعة إلى تربية نبيهم.

ولاشك أن نبينا ﷺ أفضل الأنبياء، وأكملهم في التربية والإرشاد، فيكون أبوته

أيضًا أكمل، وإشفاقه ومرحمته لأمته التي هي أفضل الأمم أتم وأوفر؛ لذلك قال سبحانه: ﴿النَّبِيُّ﴾ أي: هذا النبي المؤيَّد المبعوث إلى كافة الأمم، المتمم لمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، المكمل لمعالم الدين ومراسم المعرفة واليقين ﴿أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ وأحق لهم أن يرجحوا جانبه على نفوسهم، ويختاروا غبطته ﴿مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾[1] إذ نسبة تربيته إلى أجسادهم كنسبة تربية الأب المشفق المحافظ ابنه عن جميع ما لا يعنيه، المراقب له في جميع أحواله؛ ليوصله إلى الحياة الأبدية، والبقاء الأزلية السرمدية.

---

(1) قال سيدي محمد البيطار: قال الله تعالى: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب:6]، فالمؤمنون هم لا هم بل هم هو؛ لأن الإيمان نقلهم منهم إليه، فقرارهم لا منهم بل إليه فيهم؛ لأنه عينهم التي يشربون بها منها فهم ﴿يُفَجِّرُونَهَا﴾ بهذا الإيمان من أنفسهم ﴿تَفْجِيرًا﴾، فلولا هذا الإيمان بهذا النص القرآني لم تتفجر منهم الحقيقة المحمدية، فقد استحقوا حينئذ أن يصلي عليهم هو وملائكته كما صلى هو وملائكته على نبيهم؛ لأنه عينهم بمقتضى قوله تعالى: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب:6]، فلهذا قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال:24]، فاستجبنا لله إذ دعانا بقوله: ﴿فَفِرُّوٓا إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الذاريات:50]، واستجبنا للرسول إذ قال: ﴿إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الذاريات:50] فلما سلّمنا إليه نفوسنا تسليمًا، وأجبنا الداعي الذي من كونه مؤمنًا أحبَّ لنا ما يحب لنفسه. أخبرنا بقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [الأحزاب:43]، فعاد الأمر من الله إلى محمد ﷺ ومن محمد ﷺ إلينا، فقلنا أولاً: «التحيات المباركات الصلوات الطيبات لله» ثم عدنا إليه ﷺ فقلنا: «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين» فلما تكاثر الأمر وخفنا أن يلهينا التكاثر عن التوحيد قلنا: «أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبده» أي: مجلي هوية ذاته ورسول جميع أسمائه وصفاته، فلما استجبنا لله ولرسول الله وعرفنا الأحدية المطلقة قال تعالى: ﴿فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً﴾ [النور:61] فعادت التحيات التي هي لله لنا لما أجبنا الداعي.

ومن هذا المقام قال ﷺ: «لو كنت بدل يوسف لأجبت الداعي» لأنه يراه الداعي في كل داعي، وفي الحديث: «من دعي فليجب»، وقد دعانا الرسول إليه، وأخبرنا أننا له لا لنا، فكان اسمه منطبقًا علينا فقلنا: «اللهم صلي على محمد» لما قال لنا: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة:128]، فعدنا إليه منّا فقال: ﴿هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ [يوسف:65] فافهم، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

ونسبة تربية نفوسهم المدبرة لأبدانهم، وإن كانت هي أيضًا بتوفيق الله وإقداره إنما هي مقصورة إلى حفظ أجسامهم؛ لئلا تنهدم وتنخرم، ولا تزول عنها الحياة المستعارة، وشتان ما بين النسبتين ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ أي: وبعدما ثبت أن تربيته ﷺ شاملة، وأبوته كاملة صارت أزواجه اللاتي في حجوره ﷺ وحضانته أمهات المؤمنين في الدين، وحرمتهن أعظم وأولى من حرمة أمهاتهم النسبية؛ إذ هن أتباع له ﷺ وأهل بيته فيسري الأدب معه إليهن، وهن أيضًا في أنفسهن من الكاملات اللائقة لأنواع الحرمات والكرامات، ومن جملتها: لياقتهن بشرف صحبة النبي ﷺ.

فعليكم أيها المؤمنون ألَّا تنكحوا أزواجه أبدًا؛ إذ هن أمهاتكم ﴿وَ﴾ بعدما سمعتم أيها السامعون المؤمنون أن النبي خير آبائكم في الدين، وأزواجه فُضليات أمهاتكم أيضًا فيه، وسائر المؤمنات والمؤمنين إخوانكم وأخواتكم في الدين، لا تظنوا أن حكم أبوته ﷺ وأمومتهن - رضي الله عنهن - وأخوّة المؤمنين تسري في أحكام الميراث والعصوبة أيضًا، بل ﴿وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ﴾ والأقارب المنتمين إليكم بالقرابة النسبية على تفاوت طبقاتهم ذكورًا كانوا أو إناثًا ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلَى﴾ وأحق شرعًا ﴿بِبَعْضٍ﴾ أي: بأخذ الميراث من بعض؛ يعني: هم أصحاب الفروض والعصبات يأخذون متروكات المتوفى عنهم، ويحرزونها؛ لقرابتهم النسبية على مقتضى سهامهم المقدرة ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ المنزل عليكم، الموافق لما في حضرة علمه ولوح قضائه من النبي وأزواجه.

وأجانب ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ﴾ وإن كانوا إخوانًا في الدين لا يأخذون من أموالهم شيئًا بلا قرابة نسبية ﴿إِلَّا أَن تَفْعَلُوا﴾ أي: المؤمنون منكم، وتخرجون من أموالهم على الوجه المشروع المستحسن ﴿إِلَى أَوْلِيَائِكُم﴾ في الدين مع كونهم أجانب لكم ﴿مَّعْرُوفًا﴾ أي: وصية مشروعة مستحسنة عقلاً وشرعًا، غير مؤدية إلى إحراز التركة وتحريم الورثة، وهي التي لا تكون أزيد من ثلث المال ﴿كَانَ ذَلِكَ﴾ أي: إخراج الوصية على الوجه المعروف ﴿فِي الْكِتَابِ﴾ الذي يُتلى عليكم، وفيما قبله من الكتب المتلوة على الأمم الماضين ﴿مَسْطُورًا﴾ [الأحزاب: 6] مثبتًا، فللموصي له أن يأخذها على مقتضى ما ثبت في حكم الله وكتابه.

﴿وَ﴾ كيف لم يحسنوا الأدب أولئك المؤمنون الماضون مع أنبيائهم، وهؤلاء معك، مع أنَّا ما بعثنا الأنبياء والرسل؛ إلا لإرشاد المؤمنين، وهدايتهم إلى توحيدنا، وإيصالهم إلى زلال تفريدنا، وعلى ذلك أخذنا العهود والمواثيق المؤكدة من الأنبياء

تأكيدًا وإلزامًا، اذكر يا أكمل الرسل لمن تبعك من المؤمنين؛ ليحافظوا على ما أُمروا ﴿إِذْ أَخَذْنَا مِنَ﴾ عموم ﴿النَّبِيِّينَ﴾ المبعوثين إلى الأمم الماضين ﴿مِيثَاقَهُمْ﴾ أي: عهودهم الوثيقة المؤكدة ﴿وَ﴾ خصوصًا ﴿مِنكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿وَمِن نُّوحٍ﴾ النجي ﴿وَإِبْرَاهِيمَ﴾ الخليل ﴿وَمُوسَى﴾ الكليم ﴿وَعِيسَى﴾ الصفي الخالص عن كدر الناسوت من قبل الأب؛ لأنه ﴿ابْنِ مَرْيَمَ﴾ لم يمسها ذكر من بني نوعها، بل إنما ولدته بلا أب إرهاصًا لها، ومعجزةً لابنها.

خصّ هؤلاء سبحانه بالذكر اهتمامًا بشأنهم - صلوات الله عليهم - ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم﴾ كرره تأكيدًا ومبالغةً؛ أي: كل واحد منهم، وممن لم نذكر أساميهم من ذوي العزائم الخالصة ﴿مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: 7] أي: عهدًا وثيقًا مؤكدًا على ألّا تتهاونوا، ولا تتكاسلوا في إرشاد العباد وإبعادهم عن الجور والفساد، وإيصالهم إلى ما أعددنا لهم من المراتب العليّة والدرجات السنيّة.

وأنزلنا عليهم الكتب والصحف المشتملة على الأوامر والأحكام المقربة لتوحيدنا، والعبر والنواهي المبعدة عن الكفر والضلال، وأمرناهم أيضًا بتبيين الأوامر والنواهي إلى أممهم وتنبيهها عليهم؛ ليتفطنوا على فطرتهم التي جُبلوا عليها في عالم الغيب؛ وليتميز عندهم الحق الحقيق بالاتباع من الباطل الزاهق الزائل.

كل ذلك ﴿لِيَسْأَلَ﴾ سبحانه في النشأة الأخرى عن أنبيائه ورسله - صلوات الله عليهم - عن أحوال العباد ﴿الصَّادِقِينَ﴾ الممتثلين بأوامر الله، المجتنبين عن نواهيه ﴿عَن صِدْقِهِمْ﴾ وإخلاصهم في أعمالهم ونيّاتهم فيها، وأحوالهم ومواجيدهم واعتقاداتهم، وتلقيهم لقبول الحق والمحافظة عليه؛ ليشهد الأنبياء لهم فيفوزوا إلى ما أعد لهم من المراتب والمقامات، وأنواع السعادات والكرامات، مع أن علمه سبحانه بحالهم يغني عن شهادتهم؛ ليسأل أيضًا سبحانه عن عناد العباد المصرين على الجور والفساد، المجترئين على الله بالخروج عن حدوده وعن مقتضيات أحكامه؛ ليشهدوا - صلوات الله عليهم - فيساقوا صاغرين مهانين إلى ما أعد الله لهم من الدركات الهوية الجهنمية ﴿وَ﴾ اعلموا أن الله سبحانه ﴿أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ﴾ الجاحدين لأوامر الله ونواهيه المنزلة في كتبه على رسله ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الأحزاب: 8] لا عذاب أشد إيلامًا منه.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ

مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾ [الأحزاب: 9-12].

ثمّ نادى سبحانه المؤمنين الموحدين، المواظبين على الطاعات بارتكاب الأوامر واجتناب المنهيات؛ كي يصلوا إلى ما أعد لهم ربهم من المثوبات والمكرمات فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مقتضى إيمانكم: تعداد نعم الله عليكم، وإحصاء فواضله المتوالية المتتالية المتسقة ﴿اذْكُرُوا﴾ في عموم أوقاتكم وأحوالكم ﴿نِعْمَةَ اللَّهِ﴾ الفائضة ﴿عَلَيْكُمْ﴾[1] على تعاقب الأزمان، وتلاحق الآناء والأحيان، سيما نعمة إنجائكم من أعدائكم ونصركم عليهم، مع كونكم آيسين منه، اذكروا يا أهل يثرب ﴿إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾ متعددة وأحزاب متعاقبة متلاصقة قاصدين لمقتكم واستئصالكم، وهم قريش

---

(1) قال في التأويلات: يشير إلى أنواع نعمه الظاهرة والباطنة.

أولها: نعمة الإيجاد من كتم العدم، وثانيها: إذ أخرجكم من العدم جعلكم أرواحًا مطهرة إنسانية ﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين:4] لا حيوانًا أو نباتًا أو جمادًا، وثالثها: يوم الميثاق شرفكم بخطاب ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:172] ثم وفقكم لاستماع خطابه ثم دلكم إلى إصابة جوابه، ورابعها: أنعم عليكم بالنفخة الخامسة عند بعثك إلى القالب الإنساني؛ لئلا ينزلوا المنزل من المنازل السماوية والكوكبية والجنية والشيطانية والنارية والهوائية والمائية والأرضية والنباتية والحيوانية وغيرها من المنازل إلى أن أنزلكم في المقام الإنسانية،، خامسها: عجن طينة قالبكم بيده أربعين صباحًا ثم صوركم في الأرحام سواكم ثم نفخ فيه من روحه، وسادسها: شرف روحكم بتشريف إضافته إلى نفسه بقوله: ﴿مِن رُّوحِي﴾ [ص:72] وما أعطى هذا التشريف لروح من أرواح الملائكة المقربين، وسابعها: ﴿أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [النحل:78] ثم بالإلهامات الربانية علمكم ما يحتاجون إليه من أسباب المعاش، وثامنها: ألهمكم فجوركم وتقواكم؛ لتهتدوا إلى سبيل الرشاد للرجوع إلى المعاد، وتاسعها: أرسل إليكم الأنبياء والرسل ليخرجوكم من الظلمات الخلقية إلى نور الخالقية، وعاشرها: أنعم عليكم بالإيمان ثم بالإيقان ثم بالإحسان ثم بالعرفان ثم بالعيان ثم بالعين ثم أتاكم من كل ما سألتموه ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم:34] وذكر نعمة استعمالها في عبودية إذا شكر نعمة، وشكر النعمة رؤية النعمة أن يرى نعمة توفيقه لأداء شكره إلى أن نعجز عن أداء شكره، فإن نعمه غير متناهية وشكرك متناه، فرؤية العجز عن أداء الشكر حقيقة الشكر، ومن الشكر بذكر ما سلف من الذي دفع عنده وأنت بصدده من أنواع البلاء والمحن والمصائب والمكائد.

وغطفان، ويهود بني قريظة وبني النضير، وكانوا زهاءِ اثني عشر ألفًا، وأنتم قليلون فحفرتم الخندق على المدينة، ثمّ خرجتم تجاه الأعداء ثلاثة آلاف، والخندق بينكم وبينهم فقعدتم متقابلين، ومضى عليها قريب شهر لا حرب بينكم إلّا بالترامي بالنبل والحجارة فاضطررتم واضطربتم، فأوجستم في نفوسكم خيفة، وصرتم متذبذبين متزلزلين لا إلى القرار ولا إلى الفرار.

وبعدما أبصرناكم كذلك فاجأنا بإرسال الريح والملائكة إمدادًا لكم، وتأييدًا ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾ أي: الصبا، فهبت عليهم إلى حيث تقلع أوتادهم، وتسقط الخيام عليهم، وتطفئ نيرانهم، وتكفي قدورهم، وتجيل خيولهم، وكانت في ليلة شاتية باردة في غاية البرودة ﴿وَ﴾ أرسلنا عليهم أيضًا ﴿جُنُودًا﴾ من الملائكة ظهرت جوانب معسكرهم، بحيث ﴿لَّمْ تَرَوْهَا﴾ في تلك الليلة المظلمة، بل لم تروها جنودًا مثلها أصلاً، فقال حينئذٍ صناديدهم وكبراؤهم: النجاء النجاء، فإن محمدًا قد بدأ بالسحر فانهزموا من غير قتال، فنجوتم سالمين عنايةً من الله، وإنجازًا لوعده، ومعجزةً لرسوله ﷺ ﴿وَكَانَ اللَّهُ﴾ المطلع لأحوال عباده ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من حفر الخندق، والتزلزل والتذبذب، والرعب الخفي، وبما يعملون من التحزب والتوافق على استئصالكم ﴿بَصِيرًا﴾ [الأحزاب: 9] رائيًا عليمًا منكم أمارات التذبذب والتزلزل.

وكيف لا يتزلزلون ﴿إِذْ جَاءُوكُم﴾ وهم غطفان ﴿مِّن فَوْقِكُمْ﴾ أي: من أعلى الوادي من قبل المشرق ﴿وَ﴾ جاءوكم قريش ﴿مِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ أي: من أسفل الوادي من قبل المغرب، وأحصرتم حينئذٍ؛ إذ ليس معكم ما يقابل أحد الجانبين، فكيف بكليهما ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ﴾ حينئذٍ منكم، ومالت عن مستوى نظرها، وتقلقلت حيرةً وشخوصًا ﴿وَ﴾ اضطربتم في تلك الحالة إلى حيث ﴿بَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ من غاية الرعب؛ لأن رئتكم قد انتفخت من الرعب المفرط فارتفع القلب بارتفاعها إلى رأس الحنجرة، وهي منتهى الحلقوم الذي هو مدخل الطعام والشراب.

﴿وَ﴾ حينئذٍ ﴿تَظُنُّونَ﴾ أيها الظانون المرعوبون ﴿بِاللَّهِ﴾ الذي وعدكم الغلبة على الأعداء، وإظهار دينكم وإعلاءه على الأديان كلها ﴿الظُّنُونَا﴾ [الأحزاب: 10] أي: أنواعًا من الظنون، بعضها صالح وبعضها فاسد، على تفاوت طبقاتكم في الإخلاص وعدمه، فمنكم من يظن أن الله منجز وعده الذي وعده لرسوله من إعلاء دينه ونصره على الأعداء؛ إذ لا خلف لوعده سبحانه، ومنكم من يتردد ويتحير بين الأمرين إلى

حيث لا يرجح أحدهما؛ لذلك يخاف من ضعف الثقة بالله، وعدم رسوخه في الإيمان.

وبالجملة: ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ وجرِّبوا واختُبروا؛ كي يتميز المخلص منهم من المنافق، والثابت الراسخ من المتردد المتزلزل ﴿وَ﴾ لذلك ﴿زُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: 11] من شدة الفزع والهول المفرط إلى حيث كاد أن يخرج أرواحهم من أجسادهم.

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ﴾ حينئذٍ ﴿وَ﴾ المؤمنون ﴿الَّذِينَ﴾ بقي ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ من أمارات الشقاق، ولم يصفوا بعد؛ لحداثة عهدهم حتى يتمكنوا على الوفاق، ويتمرنوا بالاتفاق ﴿مَّا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ﴾ من الظفر على الأعداء، وانتشار هذا الدين في الأقطار والأنحاء ﴿إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: 12] قولاً باطلاً، وزورًا زاهقًا زائلاً، وبالغوا في ذلك حيث قال متعب بن قشير: يعدنا محمد بفتح فارس والروم، وأحدنا لا يقدر أن يتبرز للقتال مع هؤلاء الفرق، فظهر أن وعده ما هو إلا غرور باطل.

﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ﴾ [الأحزاب: 13-17].

﴿وَ﴾ اذكر لهم يا أكمل الرسل ﴿إِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ أي: من منافقي المدينة، والذين في قلوبهم مرض وضعف اعتقاد ويقين من المؤمنين: ﴿يَا أَهْلَ يَثْرِبَ﴾ أي: أصحاب المدينة ﴿لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾ أي: لا يحسن إقامتكم الآن ومقاومتكم في مقابلة هذه الأحزاب؛ إذ هم ذوو عَدد وعُدد كثيرة، وأنتم شرذمة قليلون بالنسبة إليهم ﴿فَارْجِعُوا﴾ عن دين محمد، وتشتتوا عن حوله؛ حتى تسلموا من يد الأعادي ﴿وَ﴾ بعدما سمعوا قول أولئك المنافقين آمرين بالرجوع والارتداد صاروا مترددين متزلزلين في دينهم؛ حتى ﴿يَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ﴾ معتذرين معللين للرجوع والذب عن حول

النبي: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ غير حصينة، خالية عن المحافظ، فأذن لنا حتى نرجع إلى بيوتنا ونستحفظها ﴿وَ﴾ الحال أن بيوتهم ﴿مَا هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾ بل هي حصينة محفوظة لا خلل فيها، بل ﴿إِن يُرِيدُونَ﴾ أي: ما يريدون ويقصدون من هذا القول ﴿إِلَّا فِرَارًا﴾ [الأحزاب: 13] عن الزحف، وإعراضًا عن الدين.

﴿وَ﴾ من كمال ضعفهم في الدين، وعدم تثبتهم ورسوخهم في الاعتقاد واليقين: ﴿لَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾ وحصنت جميع جوانبها، بحيث لا يمكن الظفر عليها إلا لهؤلاء الأحزاب ولا لغيرهم من عساكر الأعداء ﴿ثُمَّ﴾ بعدما تحصنت عليهم بيوتهم كذلك صاروا آمنين من ظفر العدو مطلقًا ﴿سُئِلُوا الْفِتْنَةَ﴾ أي: الارتداد عن الإيمان والإسلام، والنصر على المؤمنين ﴿لَآتَوْهَا﴾ وأعطوها ألبتة هؤلاء الجهلة الضعفة، المتمائلين إلى الكفر ومؤاخاة الكفرة عن صميم فؤادهم، ولجاءوا بالردة عن الدين والقتال مع المسلمين على الفور ﴿وَمَا تَلَبَّثُوا﴾ وتوقفوا ﴿بِهَا﴾ أي: بإعطاء الفتنة والردة بعدما سئلوا عنها ﴿إِلَّا يَسِيرًا﴾ [الأحزاب: 14] أي: آنًا واحدًا إلَّا زمانًا مقدار ما يفهمون سؤال السائل واقتراحه.

﴿وَ﴾ كيف لا يعطونها وهم ﴿لَقَدْ كَانُوا﴾ أي: بنو حارثة وبنو سلمة ﴿عَاهَدُوا اللَّهَ﴾ أي: عهدوا العهد الوثيق مع الله ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: قبل حفر الخندق، وذلك في يوم أحد حين أرادوا أن يُفشلوا عن رسول الله ﷺ أو تخلفوا عنه يوم بدر، فلما رأوا ما أعطى الأحديون والبدريون من الكرامة العظيمة آجلاً وعاجلاً قالوا معاهدين: لئن أشهدنا الله قتالاً فلنقاتلن، وحلفوا ﴿لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ﴾[1] أصلاً، فالآن قد تذبذبوا

(1) عن المحاربة مع الشيطان وعند الجهاد مع النفس، فلما شرعوا في الحرب والجهاد مع أحزاب النفس والشيطان، وقد حمل كل حزب منهم أسلحتهم وأخذوا خدعات الحرب ومكائده، وهم الشجعان والأقوياء والأبطال المجربون وعساكر طلاب القلوب المرضى، وهم بعد إغمار غير مجربي الحروب والقتال وإن كان لهم الأسلحة ولكنهم بمعزل عن استعمالهم لضعفهم وعدم العلم بكيفية الاستعمال، فإذا قام الحرب ودام الضرب، غلب الأقوياء على الضعفاء وانهزم المرضى عن الأصحاء، فلم يشد أزرهم الصدق ولم يعاونهم العشق ولم يذكروا حقيقة قوله: ﴿وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾ [الأحزاب:15]، ولا يتفكروا في قوله: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ﴾ [الأحزاب:16] أيها الطالبون: إن فررتم وإن تفروا إلى الله لينفعكم، فإن الفرار من الموت أو القتل أو موت النفس وقتلها بالمجاهدة لا ينفع عند نزول الآجال، وإن لم تأتهم الآجال فهي من غاية الشقاوة، وإذا لا تمتعون كالبهائم والأنعام في رياض الدنيا إلا قليلاً ولا نهاية لتلك

وتضعضعوا، وكادوا أن يولوا ﴿وَ﴾ لم يعلموا أنه ﴿كَانَ عَهْدُ اللهِ﴾ الذي عاهدوا معه سبحانه من قبل ﴿مَسْئُولاً﴾ [الأحزاب: 15] عنه وعن نقضه ووفائه، وهم مجزيون بمقتضى ما ظهر منهم من النقض والوفاء؟!.

﴿قُل﴾ لهم يا أكمل الرسل بعدما تحقق عندك قصد فرارهم وذبهم عنك: ﴿لَّن يَنفَعَكُمُ الفِرَارُ﴾ أبدًا، بل ﴿إِن فَرَرْتُم﴾ من ضعف يقينكم، ووهن اعتقادكم ﴿مِّنَ المَوْتِ﴾ حتف الأنف، كما يفر الناس من الطاعون والوباء والزلزلة وغير ذلك ﴿أَوِ القَتْلِ﴾ في يوم الوغاء ﴿وَإِذًا﴾ أي: بعدما تفرون حينئذٍ ﴿لَا تُمَتَّعُونَ﴾ تمتيعًا كثيرًا مؤبدًا، بل ما تمتعون ﴿إِلَّا قَلِيلاً﴾ [الأحزاب: 16] في زمان قليل؛ إذ لكل منكم أجل، ولكل أجل قضاء وانقضاء، ولا دوام إلا لمن هو متعال عن الأجل والقضاء والانقضاء، منزه عن الابتداء والانتهاء، وعن الإعادة والإبداء، مقدس عن تعديد الأزمنة وتحديد الأمكنة مطلقًا.

وإن جادلوا معك يا أكمل الرسل، وعاندوا بالفرار والتحصن ننجي من العدو وإهلاكه بحيث لا تبقى لهم يد علينا ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل على سبيل التبكيت والإلزام: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم﴾ ويحفظكم ويحرزكم ﴿مِّنَ﴾ قهر ﴿اللهِ﴾ وعذابه ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا﴾ أي: إصابة بلاء وشدة ومحنة ﴿أَوْ﴾ من ذا الذي يمنع عنكم لطفه سبحانه إن ﴿أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ عطفًا ومحبةً؟! ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿لَا يَجِدُونَ﴾ أولئك المتذبذبون المتضعضعون ﴿لَهُم﴾ أي: لأنفسهم ﴿مِّن دُونِ اللهِ﴾ المراقب عليهم في جميع أحوالهم ﴿وَلِيًّا﴾ يولي أمور تحصنهم وتحفظهم ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب: 17] ينصرهم على أعدائهم، وبالجملة: جميع أعمال العباد وأفعالهم مفوضة إلى الله أولاً وبالذات، مقهورة تحت قدرته الكاملة، فلهم أن يفوضوها إليه؛ ليسلموا من غوائل العناد والإصرار.

﴿ ۞ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ

الشقاوة. [التأويلات النجمية].

ٱلْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾﴾ [الأحزاب: 18-20].

وإن اعتذروا بك، وتبرءوا عما كانوا وصاروا عليه، قل لهم: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ﴾ بعلمه الحضوري ﴿الْمُعَوِّقِينَ﴾ المثبطين ﴿مِنكُمْ﴾ عن رسول الله ﷺ، المتخلفين عنه في الحروب والمعارك، وهم المنافقون ﴿وَ﴾ يعلم أيضًا ﴿الْقَائِلِينَ﴾ منكم أيها المنافقون من أهل المدينة ﴿لِإِخْوَانِهِمْ﴾ ممن في قلوبهم مرض من المؤمنين: ﴿هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ أي: قربوا أنفسكم نحونا؛ لتنجو عن المخاوف والمهالك ﴿وَ﴾ بعدما سمعوا منكم إخوانكم قولكم هذا ﴿لَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ﴾ أي: الحراب والقتال ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: 18] أي: إتيانًا قليلاً، بل يثبطون ويسرفون، ويعتذرون بالأعذار الكاذبة.

ويعدما أتوا ما أتوا إلا ﴿أَشِحَّةً﴾ أي: بخلاء ﴿عَلَيْكُمْ﴾ أيها المؤمنون المخلصون لما معكم من المعاونة والنفقة في سبيل الله، أو خوف الظفر وفوت الغنيمة، أو من خوف العاقبة، وإنما فعلوا ذلك قبل القتال ﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ﴾ وظهرت أمارات القتال والحراب ﴿رَأَيْتَهُمْ﴾ أيها الرائي حين ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ من شدة خوفهم وخشيتهم ﴿تَدُورُ﴾ أي: تتحرك وتضطرب ﴿أَعْيُنُهُمْ﴾ أي: آماقهم في أحداقهم ﴿كَالَّذِي يُغْشَى﴾ أي: يحل ويدور ﴿عَلَيْهِ مِنَ﴾ أمارات ﴿الْمَوْتِ﴾ ولاح عليه علامات السكرات ﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ﴾ وزال الرعب والخشية، وانهزم العدو، واجتمعت الغنائم ﴿سَلَقُوكُم﴾ أي: جاءوكم متسلقين متسلطين عليكم ﴿بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ ذربة قاطعة، باسطين أيديهم إلى الغنائم وقت قسمتكم، صائحين عليكم: لستم أولى منّا وأحق بهذه الغنائم؛ لأنّا شهدنا القتال معكم، بل نحن لا نقصّر وأنتم قاصرون، فبم ترجحون أنتم علينا، وإنما سلقوكم بها حال كونهم ﴿أَشِحَّةً﴾ بخلاء ﴿عَلَى الْخَيْرِ﴾ الذي وصل إليكم من الغنائم العظام؟!.

وبالجملة: ﴿أُولَئِكَ﴾ البعداء الهالكون في تيه النفاق والشقاق ﴿لَمْ يُؤْمِنُوا﴾ بتوحيد الله، ولم يخلصوا الإيمان به وبرسوله وكتابه، بل إنما آمنوا واعترفوا باللسان؛ لحقن الدماء والأموال خداعًا ومكرًا؛ ولذلك مكر الله المطلع على نيّاتهم بهم ﴿فَأَحْبَطَ

الله ﴿أَعْمَالَهُمْ﴾ الصالحة، وأبطلها عليهم بلا ترتيب الجزاء والمثوبات، كما لأعمال المخلصين من المؤمنين ﴿وَكَانَ ذَلِكَ﴾ الإحباط والإبطال ﴿عَلَى اللهِ﴾ القادر لجميع ما ثبت في لوح قضائه ﴿يَسِيرًا﴾ [الأحزاب: 19] سهلاً غير عسير عنده.

وإن استعسرتم أيها المحجوبون بالحجب الظلمانية الكثيفة، ومن كمال غيّهم وضلالهم، ونهاية جبنهم ورعبهم من الأحزاب ﴿يَحْسَبُونَ الأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا﴾ ولم ينهزموا، مع أنهم ذهبوا منهزمين إلى حيث لم يبق منهم أحد ﴿وَ﴾ هم من كمال محبتهم ومودتهم مع الأحزاب ﴿إِن يَأْتِ الأَحْزَابُ﴾ ويكروا بعد الفرار ﴿يَوَدُّوا﴾ هؤلاء المنافقون إتيانهم إلى حيث تمنوا ﴿لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ﴾ ظاهرون ﴿فِي﴾ البدو ﴿الأَعْرَابِ﴾ أي: فيما بينهم، خارجون عن أظهر المسلمين، لاحقون بالكفرة، معدودون من عدادهم حتى ﴿يَسْأَلُونَ﴾ كل قادم من قبلكم ﴿عَنْ أَنبَائِكُمْ﴾ وأخباركم، وما جرى عليكم أيها المؤمنون من الوقائع الهائلة والمصيبات المهولة ﴿وَ﴾ من كمال ودادتهم مع الكفرة: ﴿لَوْ﴾ فُرض أنهم ﴿كَانُوا فِيكُم﴾ وقت كر الكفرة عليكم ﴿مَّا قَاتَلُوا﴾ من المنافقين من قبلكم مع أعدائكم ﴿إِلَّا قَلِيلاً﴾ [الأحزاب: 20] منهم، وهو أيضًا على سبيل الرياء والسمعة، ومقتضى ما زعموا من جلب النفع أو دفع الضر، لا لرضاء الله وإعلاء دينه ونصرة نبيه.

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا (٢١) وَلَمَّا رَءَا الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا (٢٢) مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا (٢٣) لِّيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (٢٤) ﴾ [الأحزاب: 21-24].

ثمّ قال سبحانه تحريكًا لحمية المؤمنين: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ﴾ أيها المؤمنون المخلصون، الطالبون التخلق بأخلاق الله، الهاربون عن أخلاق أعدائه ﴿فِي رَسُولِ اللهِ﴾ المبعوث؛ لإرشادكم وإهدائكم ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[1] أي: خصلة حميدة بديعة يجب

---

(1) قال الشيخ نجم الدين: أي: فقد أحسنته، وذلك بأن أول شيء تعلقت به القدرة للإيجاد كان روح رسول الله ﷺ لقوله: «أول ما خلق الله روحي» والأسوة الحسنة عبارة عن تعلق القدرة بأرواح

التأسي والاتصاف بها ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ﴾ أي: لقاءه ومطالعة وَجهه الكريم ﴿وَ﴾ يرجو أيضًا ﴿الْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ الموعود فيه هذه الكرامة العظيمة، وبواسطة هذا الرجاء وغلبة هذه الأمنية العظيمة في خاطره ﴿وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: 21] في عموم الأعيان والأحياز؛ لتلذذه بذكره سبحانه؛ حتى ينال ما وعد من الفوز بشرف اللقاء، ومَن كان كذلك، وهمه ذلك فهو مؤتيس بالرسول ﷺ في تلك الخصلة المحمودة، والديدنة المسعودة المقبولة عند الله التي هي الرضا بجميع ما جرى عليه من القضاء.

ومن علامات الثبات على العزيمة، وتحمل الشدائد، ومقاساة الأحزان، وارتكاب المتاعب والمشاق في إعلاء دين الله وكلمة توحيده، والتوكل نحوه في الضراء والسراء، وكظم الغيظ عند هجوم الغضب، والعفو عند القدرة وغير ذلك من الخصائل الحميدة والأخلاق الجميلة المرضية ﴿وَ﴾ من شدة تأثير هذه الخصائل الجميلة في قلوب المؤمنين ﴿لَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ﴾ المخلصون ﴿الْأَحْزَابَ﴾ حواليهم ﴿قَالُوا﴾ متذكرين

هذه الأمة لإخراجهم من العدم إلى الوجود عقيب إخراج روح رسول الله ﷺ من العدم إلى الوجود، فمن أكرم بهذه الكرامة يكون لها أثر في عالم الأرواح قبل تعلقه بعالم الأشباح، فأما أثره في عالم الأرواح فتقدمه على الأرواح بالخروج إلى عالم الأرواح وترجيعه في الصف الأول بقرب روح رسول الله ﷺ أو في الصف الذي يليه، وبتقدمه في قبول الفيض الإلهي وبتقدمه عند استخراج ذرات الذريات من صلب آدم في استخراج ذريته بإحضارها في الحضرة وبتقدمه في استماع خطاب ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:172] وبتقدمه في إجابة الرب تعالى بقوله: ﴿قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف:172] وبتقدمه في المعاهدة مع الله وبتأخره في الرجوع إلى صلب آدم وبتأخره في الخروج عن أصلاب الآباء إلى أرحام الأمهات، وفي الخروج عن الرحم وبتأخر تعلق روحه بجسمه، فإن لله الذي هو المقدم والمؤخر في هذه التقدمات والتأخرات حكم بالغة، ولها تأثيرات عجيبة يطول شرحها، وأما أثره في عالم الأشباح فاعلم أنه بحسب هذه المراتب في ظهور أثر الأسوة يظهر أثرها في عالم الأشباح عند تعلق نظر الروح بالنطفة في الرحم أولاً إلى أن تربي النطفة بنظره في الأطوار المختلفة، وتصير قالبًا مستوي الروح مستعدًا للقبول تعلق الروح به فمثل القالب المستوي مع الروح كمثل الشمعة مع نقش الخاتم إذا وضع عليها تقبل جميع نقوش الخاتم، فالروح المكرم إذا تعلق بالقالب المستوي يودع فيه جميع خواصه التي استفاد من تلك التقدمات والتأخرات الأسوية، فكل ما يجري على الإنسان من بداية ولادته إلى نهاية عمره من الأفعال والأقوال والأحوال كلها من آثار خواص أودعها الله في الروح فبحسب قرب كل روح الرسول ﷺ وبعده عنه له أعمال ونيات تناسب حاله في الأسوة، فأما حال أهل القرب منهم بأن يكون علمهم على وفق السنة خالصًا لوجه الله.

لوعد الله، متثبتين على دينه، متشمرين لإعلاء كلمة توحيده: ﴿هَذَا﴾ الوقت وقت إنجاز ﴿مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ﴾ من النصر والغلبة على الأعداء، والفوز بأنواع الغنائم والعطاء عاجلاً وآجلاً بقوله سبحانه: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم...﴾ [البقرة: 214]، وقوله ﷺ: «سيشتد الأمر باجتماع الأحزاب عليكم والعاقبة لكم عليهم»[1]، وقوله ﷺ: «إنهم سائرون إليكم بعد تسع أو عشر»[2].

﴿وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ﴾ في جميع ما جاءنا من قِبَل الله ورسوله من الوعد والوعيد، وأنواع النعم والعطاء، والمحن والبلاء ﴿وَ﴾ من كمال تثبتهم وتفويضهم على الله، وتوكلهم نحوه: ﴿مَا زَادَهُمْ﴾ إلمام الخطوب وحدوث الوقائع، ونزول المحن والبليات ﴿إِلَّا إِيمَانًا﴾ بالله وكمال قدرته وعلمه وإرادته، وسائر صفات الذاتية والفعلية ﴿وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: 22] لعموم ما جرى عليهم من صولجان قضائه بلا تلعثم وتذبذب في إيمانهم واعتقادهم.

ومن غاية خلوصهم في إيمانهم وتسليمهم ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ المشمرين لإعلاء دين الله ونصرة رسوله على العزيمة الكاملة الصادقة ﴿رِجَالٌ﴾ أبطال كاملون في الإخلاص والشجاعة والوفاء ﴿صَدَقُوا﴾ في جميع ﴿مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ﴾ أي: نجزوا مواثيقهم، ووفوا عموم عهودهم التي عهدوا مع الله ورسوله من الثبات على العزيمة، والتصبر في المعركة، وعدم التزلزل من المحل الذي عين لهم الرسول ﷺ في صف القتال، ولم يجبنوا ولم يضعفوا أصلاً.

﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ﴾ ووفى نذره بأن قاتل مع أعداء الله على مقتضى ما عاهد ونذر حتى استشهد ووصل إلى مرامه ومبتغاه، كحمزة ومصعب بن عمير وأنس بن النضر - رضوان الله عليهم أجمعين - ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ الشهادة، كعثمان وطلحة فقاتلوا مع الأعداء وقتلوهم، ونجوا منهم سالمين منتظرين إلى قتال آخر؛ ليستشهدوا فيه ﴿وَ﴾ من كمال تثبتهم وتمكنهم في تعيينهم، وإخلاصهم في إيمانهم: ﴿مَا بَدَّلُوا﴾ من النذور والعهود التي أتوا بها عازمين عليها جازمين، ولا أضمروا في أنفسهم، كالمنافقين ﴿تَبْدِيلاً﴾ [الأحزاب: 23] شيئًا حقيرًا من التبديل والنقص، فكيف

---

(1) ذكره حقي في «تفسيره» (24/11).

(2) ذكره البيضاوي في «تفسيره» (9/5).

بالعظيم الكثير؟! بل زادوها وأكدوها.

كل ذلك ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ﴾ المجازي لأعمال عباده ﴿الصَّادِقِينَ﴾ المخلصين منهم ﴿بِصِدْقِهِمْ﴾ أي: جزاءً حسنًا يناسب صدقهم وإخلاصهم، أو بواسطة صدقهم وإخلاصهم ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ﴾ منهم، وليجازيهم بمقتضى كفرهم ونفاقهم تعذيبًا مخلدًا مؤبدًا ﴿إِن شَاءَ﴾ وتعلق إرادته ومشيئته بتخليدهم في العذاب ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ ويوفقهم على الإيمان والإخلاص، إن تعلق إرادته بإيمانهم وإنقاذهم من العذاب الأبدي ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ القادر المقتدر على جميع ما أحاط تحت قدرته ﴿كَانَ غَفُورًا﴾ ساترًا لذنوب من وفقهم على التوبة من عصاة عباده ﴿رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: 24] يقبل توبتهم، ويرحم عليهم بعدما أخلصوا فيها.

﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا (٢٥) وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا (٢٦) وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (٢٧)﴾ [الأحزاب: 25-27].

﴿وَ﴾ من كمال لطف الله على المؤمنين، ووفور رحمته وإحسانه عليهم ﴿رَدَّ اللَّهُ﴾ عنهم كيد أعدائهم ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني: الأحزاب المزدحمين حواليهم، المتفقين على مقتهم ﴿بِغَيْظِهِمْ﴾ أي: مع كمال غيظهم في مقت المؤمنين، ووفور تهورهم وجرأتهم عليك؛ لذلك طردهم سبحانه خائبين خاسرين، بحيث ﴿لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا﴾ مما أملوا في نفوسهم من الظفر على المؤمنين واستئصالهم ﴿وَ﴾ من كمال رأفته سبحانه على المؤمنين: ﴿كَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ أي: مؤنة قتال الأحزاب بريح الصبا وجنود الملائكة، بحيث لم يقدم أحد من المؤمنين لقتالهم فانهزموا إلى حيث لم يلتفت أحد منهم خلفه، ولم يعاون أخاه ﴿وَ﴾ ليس ببدع من الله أمثال هذه الكرامات لأنبيائه وأوليائه؛ إذ ﴿كَانَ اللَّهُ﴾ المراقب لأحوال عباده ﴿قَوِيًّا﴾ قديرًا في نفسه يقوي أولياءه ﴿عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: 25] غالبًا ينصرهم ويغلبهم على أعدائهم فضلاً لهم وكرامةً عليهم.

﴿وَ﴾ بعدما كفى الله المؤمنين مؤنة الأحزاب أراد أن يكفيهم مؤنة معاونيهم؛ لذلك ﴿أَنزَلَ﴾ سبحانه ﴿الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم﴾ وعاونوهم؛ أي: الأحزاب ﴿مِّنْ أَهْلِ

الكِتَابِ﴾[1] يعني: يهود قريظة والنضير ﴿مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ أي: حصونهم وقلاعهم، جمع صيصية، وهي ما يتحصن به من الجبل وغيره، وذلك أنه بعدما انهزم الأحزاب، ورجعوا خائبين خاسرين إلى بلادهم، ورجع ﷺ إلى المدينة مع أصحابه، وشرع يغسل رأسه، والأصحاب قد انتزعوا عن أسلحتهم، فجاءه جبريل معتجرًا بعمامة من إستبرق، والنقع على ثناياه وعلى فرسه الذي اسمه حيزوم، وقال: وضعتم السلاح، إن الملائكة لم تضع أسلحتها منذ أربعين ليلة، إن الله يأمرك بالمسير إلى قريظة، وإني مزلزل حصونها، وكان ﷺ قد غسل نصف رأسه فعصبه وأذن بالرحيل، فقال: «**من كان سامعًا ومطيعًا فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة**»[2].

وأعطى رايته عليًا - كرم الله وجهه - فسار بالناس حتى دنا من الحصن فحاصرهم ﷺ إحدى وعشرين، أو خمسًا وعشرين ليلة، وأجهدهم الحصار وضعفوا ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ أي: الخوف مع كونهم متحصنين، فأرسل ﷺ فقال لهم: أتنزلون بحكمي فأبوا، فقال: على حكم سعد بن معاذ، فرضوا بحكمه فنزلوا، فحكم بقتل مقاتليهم وسبي ذراريهم ونسائهم، فكبَّر النبي ﷺ فقال: «**لقد حكمت بحكم الله يا سعد من فوق سبعة أرقعة**»[3] فقتل منهم ستمائة وأكثر، وأسر منهم سبعمائة، كما قال سبحانه: ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ [الأحزاب: 26].

﴿وَ﴾ بعدما استأصلوا بالأسر والقتل ﴿أَوْرَثَكُمْ﴾ الله سبحانه إليكم أيها المؤمنون ﴿أَرْضَهُمْ﴾ أي: مزارعهم ﴿وَدِيَارَهُمْ﴾ التي تسكنون فيها مع ما فيها من الأمتعة والرخوة ﴿وَأَمْوَالَهُمْ﴾ أي: مواشيهم ونقودهم وتجارتهم تفضلاً عليكم، وامتنانًا ﴿وَ﴾ كذا تفضل سبحانه عليكم، وأورثكم ﴿أَرْضًا لَّمْ تَطَؤُوهَا﴾ أي: لم تتحركوا عليها، بل لم تبصروها ولم تسيروا إليها أصلاً، وهي خيبر أو مكة، أو فارس أو الروم، أو كل أرض

---

(1) وهم العلماء المداهنون بفنون الرخص لا ريب الطلب ويغرونهم عن التجريد والمجاهدة وترك الدنيا والعزلة والانقطاع، ويقولون هذه رهبانية وليست عن ديننا ويتمسكون بآيات وأخبار لها ظاهر وباطن، فيأخذون بظاهرها ويبطلون ويضيعون باطنها، ولا يعلمون أن القرآن يفسر بعضه بعضًا فيؤمنون ببعض هو على وفق طباعهم ويكفرون ببعض، هو على خلاف طباعهم، أولئك أعوان النفوس والشياطين. [التأويلات].

(2) رواه البخاري (321/1، رقم 904)، ومسلم (1391/3، رقم 1770)، وابن حبان (320/4، رقم 1462).

(3) ذكره حقي في «تفسيره» (32/11).

يفتح الله إلى يوم القيامة ﴿وَ﴾ لا تتعجبوا من كمال فضل الله وسعة جوده أمثال هذه الكرامات؛ إذ ﴿كَانَ اللهُ﴾ المتفرد بالقدرة الكاملة، والقوة التامة الشاملة ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من مقدوراته ومراداته ﴿قَدِيرًا﴾ [الأحزاب: 27] لا يعسر عنده مقدور دون مقدور، بل الكل في جنب قدرته على السواء، ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ﴾ [الملك: 3] في مقدور حكيم قدير ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: 4].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ ﴾ [الأحزاب: 28-31].

ثمّ لمّا اشتكت أزواج النبي ﷺ من العسرة في المأكل والمشرب والملبس، وسألن منه ثياب الزينة والزيادة في النفقة، والسعة في المعيشة، وليس معه ﷺ من حطام الدنيا ما يكفي مؤنتهن على هذا الوجه اغتم رسول الله ﷺ، وتحزن حزنًا شديدًا، فقال تعالى مناديًا له: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ المباهي بالفقر والعسرة ﴿قُل لِّأَزْوَاجِكَ﴾ حين يسألن عنك أسباب التنعم والترفه، وسعة العيش على سبيل التخيير: ﴿إِن كُنتُنَّ﴾ أيتها الحرائر العفائف ﴿تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ يعني: مطاعمها الشهية، وملابسها البهية ﴿فَتَعَالَيْنَ﴾ وتراضين ﴿أُمَتِّعْكُنَّ﴾ أي: أعطيكن المتعة حسب ما ترضين ﴿وَأُسَرِّحْكُنَّ﴾ أي: أطلقكن بعد إعطائها ﴿سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ [الأحزاب: 28] طلاقًا بيّنًا لا بدعيًا بلا ضرر ولا إضرار.

﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: رضاء الله ورضاء رسوله ﴿وَ﴾ تطلبن ﴿الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾ أي: المثوبات المعدة فيها، والجنان الموعودة عليها فعليكن أن تصبرن على ملاذ الدنيا ومشتهياتها، وسعة مطعوماتها ولين ملبوساتها؛ حتى تكنَّ من زمرة المحسنات اللاتي تحسنَّ في توجههن نحو الحق واللذة الأخروية، مائلات من أمتعة

الدنيا ولذاتها وشهواتها، منصرفات عنها وعن أمتعتها وألبستها، سوى سدّ جوعة وستر عورة ﴿فَإِنَّ اللهَ﴾ المطلع لضمائر عباده ﴿أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ﴾ المرجحات جانب الله وجانب رسوله على مقتضى نفوسهن، واللذات الأخروية على الدنيا وما فيها ﴿مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: 29] يُستحقر دونها الدنيا وما فيها من اللذات الفانية، والشهوات الغير باقية.

ثمّ لمّا نبه سبحانه عليهن طريق الإحسان، وعلمهن سبيل الفوز إلى درجات الجنان أراد أن يجنبهن ويبعدهن عن دركات النيران، فقال مناديًا عليهن؛ ليقبلن إلى قبول ما يبتلى عليهن: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ﴾ - أضافهن سبحانه إياه ﷺ؛ للتعظيم والتوقير - من شأنكن التحصن والتحفظ عن الفحشاء، والتحرز عن المكروهات مطلقًا ﴿مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ﴾ وفعلة قبيحة، وخصلة ذميمة عقلاً وشرعًا ﴿مُّبَيِّنَةٍ﴾ أي: بينة ظاهرة فحشها بنفسها، أو ظاهرة واضحة قبحها شرعًا وعرفًا - على كلتا القراءتين - ﴿يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾[1] يعني: عذابكن ضعف عذاب سائر الحرائر لا أزيد منها؛ حتى لا يؤدي إلى الظلم المنافي للعدالة الإلهية، كما يضاعف عذاب سائر الحرائر بالنسبة إلى الإماء ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾ التضعيف ﴿عَلَى اللهِ يَسِيرًا﴾ [الأحزاب: 30] يعذبكن أن تأتي إحداكن بها.

﴿وَمَن يَقْنُتْ﴾ ويطع على سبيل الخضوع ﴿مِنكُنَّ لِلهِ وَرَسُولِهِ﴾ ويداوم على إطاعتهما وانقيادهما بإتيان الواجبات، وترك المحظورات والمكروهات ﴿وَتَعْمَلْ صَالِحًا﴾ من النوافل والمندوبات ﴿نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا﴾ أي: جزاء أعمالها وطاعاتها في يوم الجزاء ﴿مَرَّتَيْنِ﴾ مرة على مقابلة الأعمال المأتية ومقتضى الطاعات المرضية، ومرة

---

(1) قال في التأويلات: يشير إلى أن الثواب والعقاب بقدر نفاسة النفس وخستها تزيد وتنقص، وأن زيادة العقوبة على الجرم من أمارات الفضيلة كحد الحر والعبد، وتقليل ذلك من أمارات النقص وذلك لأن أهل السعادة صنفين: صنف منهم السعيد والآخر الأسعد، فالسعيد: من أهل الجنة، والأسعد: من أهل الله، فإذا صدر من السعيد طاعة فأعطى أجرًا واحدًا من الجنة، وإن صدر معصية فأعطى بها عذابا واحدًا من الجحيم، وإذا صدر من أهل الأسعد طاعة فأعطى أجره مرتين وذلك بأن له درجة في الجنة ومرتين في القربة، وإن صدر منه معصية يضاعف له العذاب ضعفين نقص في درجته من الجنة ونقص في مرتبته من القربة أو عذاب من ألم مس النار، وعذاب من ألم مس البعد ذلك الحجاب ومن هنا كان دعاء السّري السَّقطي- قدس سره-: اللهم إن كنت معذبي بشيء فلا تعذبني بذل الحجاب.

على ترجيحها رضا الله ورضا رسوله على مشتهيات نفسها ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ تفضلاً ﴿لَهَا﴾ وامتنانًا عليها وراء ما استحقت بالأعمال والطاعات ﴿رِزْقًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب: 31] صوريًا في الجنة مما تشتهي نفسها وتلذ عينها، ومعنويًا من الحالات الطارئة عليها عند استغراقها بمطالعة جمال الله وجلاله.

﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ٣٢ وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ٣٣ وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ٣٤ ﴾ [الأحزاب: 32-34].

ثمّ ناداهن سبحانه تعظيمًا لهن، وتنبيهًا عليهن فقال: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ﴾ الأفضل الأكمل من بين الأنبياء والرسل، كما أن ﷺ ليس في الكرامة والنجابة كآحاد الناس، بل ليس كآحاد الأنبياء والرسل، كذلك ﴿لَسْتُنَّ﴾ أيضًا؛ لنسبتكنّ إليه ﷺ ﴿كَأَحَدٍ﴾ أي: كواحدة ﴿مِنَ النِّسَاءِ﴾ لأن فضيلته ﷺ تسري إليكن، فعليكن ألّا تغفلن عنها، ولا تذهلن عن مقتضاها ورعاية حقوقها، بل من شأنكن التحصن والتقوي، والتحرز عن ملهيات الهوى مطلقًا، فلكن ﴿إِنِ اتَّقَيْتُنَّ﴾ يعني: إن أردتن أن تتصفن بالتقوى عن محارم الله ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ﴾ أي: لا تُلن وتلطفن ﴿بِالْقَوْلِ﴾ وقت احتياجكن إلى التكلم مع آحاد الرجال من الأجانب، ولا تجبن عن سؤالهم هينات لينات مريبات، مثل تكلم النساء المريدات لأنواع الفسادات مع المفسدين من الرجال ﴿فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ وميل إلى الفجور إليكن بعدما سمع منكن تليينكن في قولكن ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿قُلْنَ﴾ بعدما تحتجن إلى التكلم معهم ضرورة ﴿قَوْلاً مَعْرُوفًا﴾ [الأحزاب: 32] مستحسنًا عقلاً وشرعًا، بعيدًا عن الريبة المثيرة للطمع، خاليًا عن وصمة الملاينة المحركة للشهوات.

﴿وَقَرْنَ﴾ أي: اسكن ﴿فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ يعني: يا نساء النبي من شأنكن التقرر والتخلي في البيوت بلا تبرز إلى الملأ بلا ضرورة رعايةً لمرتبتكن التي هي أعلى مرتبة عموم النساء ﴿وَ﴾ إن احتجتن إلى التبرز والخروج أحيانًا ﴿لَا تَبَرَّجْنَ﴾ ولا تبخترن في

مشيتكن مظهرات زينتكن، مهيجات لشهوات الناظرين ﴿تَبَرُّجَ الجَاهِلِيَّةِ الأُولَى﴾ أي: كتبختر النساء المثيرات لشهوات الرجال في الجاهلية القديمة التي هي جاهلية الكفر، والجاهلية الأخرى جاهلية الفسوق في الإسلام.

خصَّ سبحانه الأولى بالذكر، وإن كانت كلتاهما مذمومتان محظورتان شرعًا؛ لأنها أفحش وأقبح وأظهر فسادًا؛ لأن النساء فيها يتزينَّ بأنواع الزينة، ويظهرن على الرجال بلا تستر واستحياء، بل بملاينة تامة وملاطفة كاملة على سبيل الغنج والدلال، وأنواع الحركات المطمعة للرجال ﴿وَ﴾ من حقكن يا نساء النبي الاجتناب عن مطلق المنكرات، والاشتغال بالطاعات والأعمال الصالحات، سيما المواظبة على الصلوات النوافل والمفروضات ﴿أَقِمْنَ الصَّلاةَ﴾ المقربة لكُنَّ إلى الله على الوجه الذي علمتن من النبي ﷺ ﴿وَآتِينَ الزَّكَاةَ﴾ المطهرة لنفوسكن عن الشح، وأنواع المرض المتولدة من حب الدنيا وأمانيها إن بلغ أموالكن النصاب المقدر في الشرع.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿أَطِعْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ إطاعة مقارنة بكمال الخشوع والخضوع، والتذلل التام بالعزيمة الصحيحة الخالصة، الخالية عن شوب الرياء والرعونات مطلقًا في جميع ما أُمرتن بها، ونهيتن عنها ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ﴾ المصلح لأحوال عباده الخلَّص بإتيان هذه المواعيظ والتذكيرات البليغة، والتنبيهات العجيبة البديعة ﴿لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ﴾[1] أي: يزيل القذر المستقبح المستهجن عقلاً وشرعًا بالمرة يا ﴿أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ المجبولين على الكرامة والنجابة ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ﴾ عن أدناس الطبيعة، وأكدار الهيولي المانعة عن الصفاء الجبلي الذاتي ﴿تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: 33] بليغًا، بحيث لا تبقى فيكم شائبة شين، ووصمة عيب أصلاً، ذكر الضمير؛ لأن النبي وعليًا وابنيه ﷺ فيهم فغلب هؤلاء الذكور له على فاطمة وأزواج النبي، رضوان الله عليهم.

﴿وَ﴾ بعدما سمعتن يا نساء النبي ما يليق وينبغي بشأنكن ﴿اذْكُرْنَ مَا يُتْلَى﴾ لإصلاح أحوالكن وتكميلكن في الدين ﴿فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ غير مخرجات لطلبه؛ إذ بيوتكن مهبط الوحي الإلهي، ومحل نزول الآيات المنزلة، فلكُنَّ أن تلازمن خدمة النبي ﷺ، وتشاهدن عليه من برحاء الوحي الموجب لقوة الإيمان وكمال اليقين والعرفان، فليس

(1) الرجس: هاهنا حيث ما دون الله في صحبة رسول ﷺ، فهن مخصوصات بالصديقية من الله سبحانه، وهن مقدسات حيث قدس الله أرواحهن وأشباحهن بنظر الاصطفائية إليهن في إنشائهن. قال أبو بكر الوراق: الرجس الأهواء والبدع والضلالات.

لكُنّ أن تخرجن من بيوتكن، وتتعبن أنفسكن في طلب ما يُتلى ﴿مِنْ آيَاتِ اللهِ﴾ الدالة على توحيد ذاته، وكمال أسمائه وصفاته ﴿وَالْحِكْمَةِ﴾ المتقنة الدالة على متانة فعله ووثاقة تدبيره ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المطلع للسرائر والخفايا ﴿كَانَ لَطِيفًا﴾ يعلم دقائق ما في ضمائر عباده ورقائقه ﴿خَبِيرًا﴾ [الأحزاب: 34] ذو خبرة كاملة على سوانح صدورهم، وخواطر قلوبهم، فعليهم أن يخلصوا الله في جميع ما أتوا به، واجتنبوا من الأوامر والنواهي وانقادوا له، ويسلموا إليه مفوضين أمورهم كلها.

﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ [الأحزاب: 35-36].

﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ﴾ المسلِّمين المخلصين، المفوضين أمورهم كلها إليه سبحانه ﴿وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ المفوضات المخلصات ﴿وَالْمُؤْمِنِينَ﴾ الموقنين الموحدين ﴿وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ الموقنات الموحدات ﴿وَالْقَانِتِينَ﴾ الخاضعين، المتذللين مع الله في جميع الطاعات والعبادات، بل في جميع الحالات ﴿وَالْقَانِتَاتِ﴾ الخاضعات الخاشعات ﴿وَالصَّادِقِينَ﴾ في جميع الأقوال، المخلصين في جميع الأحوال والأعمال ﴿وَالصَّادِقَاتِ﴾ أيضًا كذلك ﴿وَالصَّابِرِينَ﴾ في البأساء والضراء لجميع ما جرى عليهم من القضاء ﴿وَالصَّابِرَاتِ﴾ أيضًا كذلك ﴿وَالْخَاشِعِينَ﴾ المتواضعين، المتضرعين نحو الحق بجوانحهم وجوارحهم ﴿وَالْخَاشِعَاتِ﴾ أيضًا كذلك ﴿وَالْمُتَصَدِّقِينَ﴾ بما عندهم من فواضل الصدقات طلبًا لمرضات الله، وهربًا من سخطه ﴿وَالْمُتَصَدِّقَاتِ﴾ أيضًا كذلك.

﴿وَالصَّائِمِينَ﴾ الممسكين نفوسهم مطلقًا عما لا يرضى عنه سبحانه ﴿وَالصَّائِمَاتِ﴾ الممسكات أنفسهن كذلك ﴿وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ﴾ عن أمارات الزنا، ومقدمات السفاح مطلقًا ﴿وَالْحَافِظَاتِ﴾ أيضًا ﴿وَالذَّاكِرِينَ﴾ المشتغلين بذكر الله

باللسان والجنان والأركان ﴿اللَّهَ﴾ باسمه الجامع الشامل لجميع الأسماء والصفات لا على سبيل التعديد والإحصاء، ولا في حين دون حين، بل ﴿كَثِيرًا﴾ مستوعبًا لجميع الأعيان والأزمان، والأوقات والحالات ﴿وَالذَّاكِرَاتِ﴾[1] أيضًا كذلك ﴿أَعَدَّ اللَّهُ﴾ المصلح لأحوالهم، المطلع لما جرى في ظهورهم وبواطنهم من الإخلاص على وجه التذلل والانكسار ﴿لَهُم﴾ أي: لهؤلاء المتصفين بالصفات المرضية، والأخلاق المحمودة المقبولة عند الله ﴿مَّغْفِرَةً﴾ سترًا وعفوًا لما صدر عنهم من الصغائر هفوةً، ومن الكبائر أيضًا بعدما تابوا عنها، وأخلصوا في التوبة والإنابة على وجه الندامة ﴿وَأَجْرًا﴾ جزيلاً جميلاً لصالحات أعمالهم ﴿عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: 35] بأضعاف ما استحقوا بحسناتهم تفضلاً عليهم وامتنانًا.

ثمَّ لمَّا أراد رسول الله ﷺ أن يزوج بنت عمته التي هي أميمة بنت عبد المطلب، المسماة زينب بنت جحش لزيد بن الحارثة الذي هو مولى رسول الله ﷺ وعتيقه، فأبت

(1) الذاكرين في البداية بنور الأفعال، ثم الذاكرين بالأسماء، ثم الذاكرين بالنعوت، ثم الذاكرين بالصفات بنعت رؤية أنوارها، وإدراك أسرارها، وفي النهاية الذاكرين الذات في الحالين ذاكرين الذات قبل مشاهدة الذات صرفًا وعيانًا، وذلك ضمن ظهور أنواره في قلوبهم، الذاكرين ذاته في عيانه كفاحًا؛ لأن الذات لا يتناهى، فهم في أول الكشف مرهونون بما بدا لهم من جلال ذاته ويفنون، فإذا فنوا استغاثوا منه إليه أن يعينهم بالقوة الأزلية حتى يدخلوا بهممهم في بحار الأولية التي لا ساحل لها، فيبقون في الذكر أبدًا؛ لأنهم لا يتلقون إلا ما يليق بأحوالهم من الكشوفات والقربات، وهؤلاء المذكورون من أول المقام إلى مقام الذكر عشرة أقوام، بعضهم أهل البداية في الإسلام، وبعضهم أهل الإيقان في الإيمان، وبعضهم أهل العبودية الجامعة لجميع المعاملات، وبعضهم أهل الصدق في المحبة وترك ما دون الله والوفاء في الحقيقة، وبعضهم أهل مقام الرضا والتوكل، وبعضهم أهل التواضع في المشاهدة، وبعضهم أهل السخاء والكرم، وبعضهم المتصفون بالصمدانية، وبعضهم أهل الغيبة في الغيب الذين لا يكشفون أسرارهم عند الخلق والمنتهى منهم المستغرق في ذكر الذات والصفات كما وصفنا، والجميع مأجورون من الحق بقدر منازلهم في مقاماتهم بأن يغفر قصورهم في بذل المهج له، ويكاشفهم أستار الغيرة عن جمال المشاهدة.

و اعلم أن الكثرة هنا عبارة عن: الاستيعاب والإحاطة بجميع الأوقات والحالات، كما أن القلة في قوله تعالى في حق المنافقين: ﴿وَلاَ يَذْكُرُونَ اللهَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [النساء:142] عبارة عن العدم: أي لا يذكرون الله تعالى إلا ذكرًا هو ليس بذكر عنده تعالى؛ لأنهم إنما يذكرون باللسان فقط، والذكر اللساني المجرّد عن اعتقاد الجنان وإخلاصه قليل معدوم بالنسبة إلى الذكر القلبي؛ لأن المقصود عمارة الباطن لا عمارة الظاهر، فظهر أن الخلوص بمنزلة الإكسير الخالص في القلب.

هي وأمها أميمة، وأخوها عبد الله بن جحش، فأعرضوا عن تزويجها إليه، ولم يختاروا؛ لئلا يلحق العار عليهم من تزويج الشريفة بالمولى، فنزلت: ﴿وَمَا كَانَ﴾ يعني: ما صحّ وجاز ﴿لِمُؤْمِنٍ﴾ أي: لواحد من المؤمنين ﴿وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ واحدة من المؤمنات بعدما أخلصوا الإيمان بالله ورسوله أن يتخلفوا عن حكمهما أصلاً، سيما ﴿إِذَا قَضَى اللهُ﴾ الحكيم المتقن في أفعاله.

﴿وَ﴾ نفذ ﴿رَسُولُهُ أَمْرًا﴾ من الأمور المقضية، وحكمًا من الأحكام المبرمة ﴿أَن يَكُونَ﴾ ويبقى ﴿لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ أي: الاختيار والترجيح بأن يختاروا ﴿مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ المحكوم به، والمقضي عليه شيئًا يخالف الحكم الواقع منهما أو يوافقه، بل لهم، أي: يطيعوا وينقادوا لحكم رسول الله ﷺ الذي هو حكم الله حقيقة ﴿وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ بتغيير ما حكم به رسول الله ﷺ، وادعاء الاختيار في المأمور به ﴿فَقَدْ ضَلَّ﴾ عن طريق الهداية ﴿ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: 36] وانحرف عن منهج الصواب والرشاد انحرافًا عظيمًا، وبعدما نزلت الآية رضيت زينب وأمها وأخوها، فخطبها رسول الله ﷺ وأنكحها على زيد.

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ ﴾ [الأحزاب: 37-39].

﴿وَ﴾ بعدما سمعت يا أكمل الرسل من زيد ما سمعت اذكر ﴿إِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ﴾ بأن يوفقه للإيمان وقبول الإسلام، وشرفه بشرف خدمتك وصحبتك ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ بأن أعتقته ودعوته ابنًا ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ بعدما لم يريك منها شيئًا ﴿وَاتَّقِ اللهَ﴾ المنتقم الغيور، واحذر عن بطشه بطلاق العفيفة، والمفارقة منها بلا وصمة عيب ظهرت عنها، وسمة نقص لاحت منها ﴿وَ﴾ أنت يا أكمل الرسل حينئذٍ ﴿تُخْفِي فِي نَفْسِكَ﴾ حين قولك لزيد هذا ﴿مَا اللهُ﴾ المظهر لما في الصدور ﴿مُبْدِيهِ﴾

مظهره ومعلنه من ميلك إلى زينب ونكاحها، وإرادتك لطلاق زيد وافتراقه عنها ﴿وَ﴾ سبب إخفائك هذا، وإظهارك ضد مطلوبك أنك ﴿تَخْشَى النَّاسَ﴾ من أن يعيروك بمناكحة زوجة عتيقك ودعيتك، ويرموك بما لا يليق بشأنك، مع أنك بريء عنه ﴿وَاللَّهُ﴾ المطلع على جميع ما ظهر وبطن ﴿أَحَقُّ﴾ وأولى من ﴿أَن تَخْشَاهُ﴾[1] وتستحي منه؛ إذ هو سبحانه غيور ينتقم عمن يشاء، ويأخذه على من يشاء.

وهذا عتاب شديد وتأديب بليغ، قالت عائشة - رضي الله عنها -: لو كتم النبي شيئًا مما أنزل إليه لكتم هذه الآية، فطلقها زيد ومضى عليها العدة، قال ﷺ: اذهب فاذكرها عليّ فذهب، فقال: يا زينب إن نبي الله أرسلني إليك بذكرك، فقالت: ما أنا بصانعة شيئًا حتى أؤمر من ربي، وقامت إلى الصلاة، فنزلت: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا﴾ أي: من زينب ﴿وَطَرًا﴾ أي: حاجة، وطلقها ومضت عدتها ﴿زَوَّجْنَاكَهَا﴾ يعني: زوجناك يا أكمل الرسل زينب بلا نصب ولي من الجانبين على الرسم المعهود في الشرع، بل أبحنا لك الدخول عليها بلا عقد، وجعلناها زوجتك بلا مهر؛ لذلك كانت تباهي على سائر نسائه ﷺ قائلة: إن الله تولى نكاحي، وأنتن زوجكن أولياؤكن.

فدخل ﷺ عليها بلا إذن، ولا عقد نكاح، ولا صداق، ولا شهود، وأطعم الناس خبزًا ولحمًا، ثمّ قال سبحانه: ﴿لِكَيْ لَا﴾ يعني: فعلنا ذلك؛ لكيلا ﴿يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ﴾ ضيق وإثم ﴿فِي﴾ تزوج ﴿أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ﴾ الذين تبنوهم ﴿إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ يعني: بعدما طلقوهن وسرحوهن سراحًا جميلاً ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ وحكمه المبرم، المثبت في لوح قضائه ﴿مَفْعُولاً﴾ [الأحزاب: 37] مقضيًا نافذًا كائنًا على تعاقب الأحيان والأزمان.

ثمّ قال سبحانه تسليةً لنبيه، وحطًا عنه العار في أمثال هذه الأفعال الكائنة في قضاء الله، المقضية في حضرة علمه: ﴿مَا كَانَ﴾ أي: ما لحق وعرض ﴿عَلَى النَّبِيِّ﴾ المؤيد من عند الله بأنواع التأييدات المنتظرة على الوحي والإلهام في جميع أفعاله وأعماله ﴿مِنْ حَرَجٍ﴾ ضيق وإثم سآمة، ووخامة عاقبة ﴿فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ﴾ ﷺ؛ أي: في جميع ما قدر الله له، وكتب لأجله في لوح قضائه من الحوادث الكائنة الجارية عليه ﷺ

(1) أي: وحده ولا تجمع خشية الناس مع خشيته في أن تؤخر شيئاً أخبرك به لشيء يشق عليك حتى يفرق لك فيه أمر، قالت عائشة رضي الله عنها: لو كتم النبي ﷺ شيئًا مما أوحي إليه لكتم هذه الآية، نظم الدرر (430/6).

على تعاقب الأزمان والأوقات، ومن جملتها: هذا النكاح، وليس أمثال هذا ببدع منّا مخصوص بهذا النبي ﷺ، بل ﴿سُنَّةَ اللهِ﴾ الحكيم العليم، المتقن في أفعاله المستمرة القديمة التي سنها سبحانه ﴿فِي الَّذِينَ خَلَوْا﴾ ومضوا ﴿مِن قَبْلُ﴾ من الأنبياء والرسل ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللهِ﴾ المثبت في لوح قضائه، وحكمه المبرم في حضرة علمه ﴿قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: 38] حتمًا مقضيًا، مبرمًا محكومًا به ألبتة.

وكيف لا يقضي ولا يحكم بالسنن المقدرة للأنبياء والرسل، وهم ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللهِ﴾ المحمولة عليهم إلى من أُرسلوا إليهم من الأمم بلا تبديل ولا تغيير ﴿وَيَخْشَوْنَهُ﴾ ويخافون عنه سبحانه في جميع أحواله ﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللهَ﴾ يعني: من ديدنة الأنبياء والرسل، وخصلتهم الحميدة: ألَّا يخافوا من الناس ولا يستحيوا منهم، لا من لوم لائم، ولا من تعييره وتهديده بالقتل والضرب وغير ذلك، بل ما يخافون إلا الله الغيور المنتقم، المقتدر على أنواع العذاب والعقاب ﴿وَكَفَى بِاللهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب: 39] ظهيرًا ومعينًا يكفي مؤنة أعدائهم، ويدفع عنهم شرورهم، وجميع ما قصدوا عليهم من المقت والمكر، وأنواع الأذى والضرر.

﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ ﴾ [الأحزاب: 40-44].

ثمّ لمّا عيَّر الناس رسول الله ﷺ بأنه تزوج زوجة ابنه ودعيه، وهو زيد ردَّ الله عليهم تعييرهم هذا وتشنيعهم فقال: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ أيها الأجانب من المؤمنين على الحقيقة سواء كان زيدًا أو غيره؛ حتى تسري حكم الحرمة في ترويج زوجته بعدما قضى الوطر عنها ﴿وَلَكِن﴾ كان ﷺ ﴿رَّسُولَ اللهِ﴾ الهادي لعباده أرسله إليكم؛ ليهديكم إلى طريق الرشاد على مقتضى سنته المستمرة في الأمم السابقة ﴿وَ﴾ لكن من شأنه أنه صار ﴿خَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ وختم المرسلين؛ إذ ببعثته ﷺ كملت دائرة

النبوة وتمت جريدة الرسالة، كما قال: «بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[1]، وقال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: 3] أي: ببعثته ﷺ.

والسر فيه والله أعلم: إنه ﷺ بُعث على التوحيد الذاتي، وسائر الأنبياء إنما بعثوا على التوحيد الوصفي والفعلي، وبعدما بُعث ﷺ على توحيد الذات خُتم به أمر البعثة والرسالة، وكمُل أمر الدين؛ إذ ليس وراء الذات مرمى ومنتهى ﴿وَكَانَ اللهُ﴾ المطلع على جميع ما ظهر وبطن ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ جرى أو يجري في ملكه ﴿عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: 40] يعلم بعلمه الحضوري جميع ما لمع عليه نور وجوده، حكيمًا في بعثة الرسل في تنبيه من وفقه وجبله في سابق قضائه على فطرة التوحيد والإيمان، مختارًا في ختم البعثة وتكميل الدين بعدما وصل غاية كماله وظهوره.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله، وعرفوه حق معرفته وتوحيده، وكمال أسمائه وصفاته مقتضى إيمانكم وعرفانكم: المداومة على ذكره ﴿اذْكُرُوا اللهَ﴾ الواحد الأحد، الفرد الصمد، المتصف بجميع أوصاف الكمال، المستجمع لجميع الأسماء الحسنى التي لا تُعد ولا تُحصى ﴿ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: 41] مستوعبًا لجميع أوقاتكم وحالاتكم، وبالغوا في ذكره؛ كي تصلوا من اليقين العلمي إلى العيني.

﴿وَسَبِّحُوهُ﴾ أي: نزهوه عن جميع ما لا يليق بشأنه من لوازم الحدوث وأوصاف الإمكان ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ [الأحزاب: 42] أي: في جميع آناء أيامكم ولياليكم، طالبين الترقي من اليقين العيني إلى اليقين الحقي.

وكيف لا تذكرون الله، ولا تسبحون له أيها المؤمنون، مع أن شكر المنعم المفضل واجب عقلاً وشرعًا؟! ﴿هُوَ الَّذِي﴾ سبحانه ﴿يُصَلِّي﴾ ويرحم ﴿عَلَيْكُمْ﴾ أيها المؤمنون بذاته، وبمقتضيات أسمائه وصفاته ﴿وَمَلائِكَتُهُ﴾ يستغفرون لكم بإذنه، وإنما يفعل بكم سبحانه هذه الكرامة العظيمة ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ﴾[2] ظلمة العدم الأصلي، وظلمة الطبيعة والهيولي، وظلمة الحجبة التعينية ﴿إِلَى النُّورِ﴾ أي: نور

---

(1) رواه البيهقي في «السنن» (472/2).

(2) قال في التأويلات: وما قال: «لتخرجكم» لمعنيين: أحدهما: لئلا يكون للملائكة منة عليكم بإخراجكم من الظلمات إلى النور، والثاني: لأنهم لا يقدرون على ذلك لأن الله هو الهادي من الضلالة إلى الإيمان؛ بل هو الذي يخرجكم من ظلمات البشرية وصفاتها إلى نور الروحانية وصفاتها ومن ظلمات الخلقية الروحانية إلى نور الربوبية بجذبات تجلي ذاته وصفاته.

الوجود البحت، الخالص عن ظلمات التعينات والكثرات مطلقًا ﴿وَكَانَ﴾ سبحانه ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ الموفقين على التوحيد الذاتي ﴿رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: 43] يوفقهم إلى الإيمان بمقتضى رحمته الواسعة، ثمّ يوصلهم إلى مرتبة التوحيد والعرفان، مترقيًا من مضيق الإمكان إلى سعة فضاء الوجوب عنايةً لهم وتفضلاً عليهم، ثمّ يشرفهم بشرف لقائه بلا كيف، ولا أين بعدما انخلعوا عن جلباب الناسوت، وتشرفوا بخلعة اللاهوت.

لذلك ﴿تَحِيَّتُهُمْ﴾ وترحيبهم من قِبَل الحق ﴿يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ﴾ سبحانه: ﴿سَلَامٌ﴾ أي: تسليم وتطهير عن رذائل التعينات، ونقائص الأنانيات والهويات المستتبعة لأنواع الضلالات والجهالات ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ﴾ سبحانه نُزلاً عليهم ﴿أَجْرًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب: 44] وجزاءً عظيمًا مما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (45) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا (46) وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا (47) وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (48) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (49) ﴾ [الأحزاب: 45-49].

ثمّ قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ المؤيّد، المخصوص بأنواع الفضائل والكرامات ﴿إِنَّا﴾ من مقام عظيم جودنا ولطفنا ﴿أَرْسَلْنَاكَ﴾ إلى كافة البرايا وعامة العباد ﴿شَاهِدًا﴾[1] تشهد لهم الحقائق، وتحضرهم المعارف، وتوصلهم بالتنبيهات الواضحة

(1) قال الورتجبي: إنا شرفناك برسالتنا، وتخبر عنا خبر صدقٍ، فنهدي بك قلوبًا عمياء، أرسلناك شاهدًا لنا لا تشهد معنا سوانا، جعلنا الخلق كلهم يشهدونك، ويشهدوننا فيك، ولا يشهدك إلا من أثر فيه بركة نظرك، فيشهدك ويشهد فيك، ومن لم يجعلك الدليل علينا عمي وضل؛ فإنك البشير تبشر من أقبلنا عليه بالرضوان، وتنذر من أعرضنا عنه بالخذلان، وأنت محل مشاهدة الخلق إيانا بك أخذناك عنهم، فلا تشهد شهودهم، وغيبناك عنهم فلا يشهدون منك إلا ظاهرك، وأنت لا تشهد سوانا بحال. قال الواسطي: شاهدًا بالحق للحق إلى الحق مع الحق ليوم لا يقبل فيه الحق إلا الحق. وقال جعفر: داعيًا إلى الله لا إلى نفسه افتخر بالعبودية، ولم يفتخر بالنبوة ليصح له بذلك الدعاء إلى سيده، فمن أجاب دعوته صارت الدعوة له سراجًا منيرًا يدله على سبيل الرشد، ويبصره عيوب النفس وغيها.

إلى مرتبة الكشف والشهود؛ لكون أصل فطرتهم وجبلتهم مجبولة عليها ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ تبشرهم بالتوحيد المسقط للإضافات المستتبعة لأنواع الكثرات المشوشة لنفوسهم ﴿وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب: 45] تنذرهم عن مقتضيات القوى البهيمية من الشهوية والغضبية الجالبة لأنواع الخذلان والحرمان.

﴿وَدَاعِيًا﴾ دعوهم ﴿إِلَى﴾ توحيد ﴿اللهِ﴾ المنزه عن التعديد والتجديد دعوة مسبوقة ﴿بِإِذْنِهِ﴾ سبحانه؛ أي: بوحيه وإلهامه ﴿وَ﴾ بالجملة: أرسلناك إلى عموم العباد ﴿سِرَاجًا مُنِيرًا﴾ [الأحزاب: 46] تضيء لهم، ويستضيئون منك في ظلمات الضلالات والجهالات المتراكمة من الحجب الظلمانية والكثافات الهيولانية، المتولدة من الكدورات الطبيعية، الباقية من ظلمة العدم.

﴿وَ﴾ بعدما سمعت يا أكمل الرسل سبب بعثتك وسره ﴿بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الموقنين بتوحيد الله، المترقين من اليقين العلمي إلى العيني، الطالبين الوصول إلى اليقين الحقي ﴿بِأَنَّ لَهُم﴾ أي: حق وثبت لهم عنده سبحانه ﴿مِّنَ﴾ عناية ﴿اللهِ﴾ معهم ﴿فَضْلاً كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: 47] لا فضل أكبر منه، وهو الرضا والفوز بشرف اللقاء.

﴿وَ﴾ بعدما سمعت وظيفتك يا أكمل الرسل مع المؤمنين المسترشدين منك الطالبين هدايتك وشرف صحبتك ﴿لَا تُطِعِ الكَافِرِينَ﴾ المصرين على الكفر والعناد المجاهرين به ﴿وَالْمُنَافِقِينَ﴾ الذين يخفون كفرهم وضلالهم عنك لمصلحة دنيوية ويظهرون عندك خلاف ما في نفوسهم، ولا تجلس معهم ولا تصاحبهم أصلاً ﴿وَ﴾ إن آذوك في مرورك عنهم وملاقاتك معهم بغتة ﴿دَعْ أَذَاهُمْ﴾ أي: اتركهم وأذاهم ولا تلتفت إلى الانتقام عنهم، واصبر على مضضهم، فإن صبرك يقتلهم عن الغيظ، ويطفئ لهب غضبهم ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ﴾ في دفع شرورهم، وثق إليه ﴿وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً﴾ [الأحزاب: 48] حسيبًا كافيًا يكفي عنك مؤنة أعدائك، ويكفي عنك أذاهم عناية لك واهتمامًا بشأنك.

ثمّ لمّا أشار سبحانه إلى ما أباح على نبيه ﷺ بلا حرج أراد أن يشير إلى ما أباح أيضًا على عموم المؤمنين بلا حرج لهم فيه وضيق، وقال سبحانه مناديًا لهم على وجه العموم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله، وصدقوا بجميع أوامره ونواهيه المنزلة من عنده، مقتضى إيمانكم ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ﴾ وعقدتم ﴿الْمُؤْمِنَاتِ﴾ اللاتي هن أحقاء بنكاحكم من المسلمات والكتابيات ﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ أي تطئوهن وتجامعوهن

﴿فَمَا لَكُمْ﴾ أي: ما لزم ووجب لكم فيما يتلى عليكم ﴿عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾ وتحصونها، كما للمدخولات بهن والمتوفات عنهن من المدة المقدرة في الشرع، وبعدما لم تلزم عليكم العدة أيها المطلقون ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ أي: أعطوهن المتعة المستحسنة عقلاً وشرعًا إن لم يكن صدقاتهن مقدرة؛ وإن كانت مقدرة فأعطونهن نصف ما قدر من المهر بلا تنقيص ومماطلة ﴿وَ﴾ بعد أن أعطيتموهن المتعة أو النصف من المهر المقدر ﴿سَرِّحُوهُنَّ﴾ وأخرجوهن من منازلكم ﴿سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ [الأحزاب: 49] إخراجًا هينًا لينًا، بلا ضرر وإضرار، وتنقيص مما استحققن عليه.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِيٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾ ﴾ [الأحزاب: 50].

ثم أشار سبحانه إلى تعداد ما أحل لحبيبه ﷺ من الأزواج، فقال مناديًا له تبجيلاً وتعظيمًا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ المفضل المكرم من لدنا على سائر الأنبياء والرسل بالعنايات العلية والكرامات السنية ﴿إِنَّا﴾ من مقام عظيم جودنا ﴿أَحْلَلْنَا﴾ وأبحنا ﴿لَكَ﴾ في شرعك ودينك ﴿أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ﴾ وأعطيت ﴿أُجُورَهُنَّ﴾ أي: مهورهن معجلاً ﴿وَ﴾ أبحنا لك أيضًا ﴿مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ من الإماء المردودة إليك ﴿مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ﴾ المنعم المفضل ﴿عَلَيْكَ﴾ ورده سبحانه من خيار المسبيات وصفيات المغنم إليك، وصفية - رضي الله عنها - منهن ﴿وَ﴾ أحللنا لك أيضًا في دينك ﴿بَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ من مكة حبًا لك، وطلبًا لمرضاة ربك، وما أبحنا لك ممن لم تهاجر معك.

﴿وَ﴾ أبحنا لك أيضًا خاصة ﴿امْرَأَةً مُؤْمِنَةً﴾ قيد بها؛ لأن الكافرة لا تليق بفراشه ﷺ ﴿إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ تبرعًا بلا جعلٍ ومهرٍ، فعليه الخيار ﴿إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا﴾ أي: يطلب أن يدخل عليها ويقبلها للفراش أحللناها ﴿خَالِصَةً﴾ خاصة ﴿لَكَ﴾ يا أكمل الرسل؛ تكريمًا لك وتعظيمًا لشأنك ﴿مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: لم نبحها لغيرك من أمتك، بل هي من جملة الأمور التي اختصصت بها، كالتزوج فوق

الأربعة وغيرها، وإنما نخص أمثال هذا لك يا أكمل الرسل ولم نعممها من أمتك؛ لأنّا من وفور حكمتنا ﴿قَدْ عَلِمْنَا﴾ بعلمنا الحضوري من ظواهر أحوال المؤمنين وبواطنهم استعدادهم على ﴿مَا فَرَضْنَا﴾ وقدرنا ﴿عَلَيْهِمْ﴾ حتمًا ﴿فِي﴾ حقوق ﴿أَزْوَاجِهِمْ﴾ من المهر والولي والشهود، وجميع متممات النكاح ومكملاته.

﴿وَ﴾ علمنا أيضًا منهم سبب ما قدرنا عليهم في حق ﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ من المسببات الزائدة، ألّا يدخلوا عليهن إلا أن يتملكوا بوجه آخر، لكن أنزلنا عندك يا أكمل الرسل بعض ما أوحينا عليهم، وخصصناك بها دونهم ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾ ضيق في تحميلها، مع أنا نعلم من ظواهرك وبواطنك أنك لا تهمل شيئًا من حقوق الله ولا حقوق عباده، ولا يقع منك ظلم على أحدٍ من خلق الله؛ لذلك لم نضيق عليك أمر النكاح وضيقنا على المؤمنين ﴿وَكَانَ اللهُ﴾ المراقب لأحوال عباده، المصلح لمفاسدهم ﴿غَفُورًا﴾ يستر ويعفو عنهم بعض ما يعسر عليهم التحرز في رعاية حقوق المؤمنين والمؤمنات ﴿رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: 50] يرحمهم ويعين عليهم في حفظها ورعايتها.

﴿ ۞ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾ ﴾ [الأحزاب: 51-52].

ثمّ لمّا وسّعنا يا أكمل الرسل أمر نكاحك، وأبحنا لك ما لم يبح لغيرك، فلك الخيار في أزواجك ﴿تُرْجِي﴾ أي: تؤخر وتترك مضاجعة ﴿مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي﴾ أي: تلصق وتضم ﴿ إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ﴾ منهن بلا حرج وضيق، بل ﴿وَمَنِ ابْتَغَيْتَ﴾ وطلبت نكاحها ﴿مِمَّنْ عَزَلْتَ﴾ وطلقت تطليقًا ثلاثًا أو أقل ﴿فَلَا جُنَاحَ﴾ ولا إثم ﴿عَلَيْكَ﴾ أن تعيدها إلى نكاحها بلا تحليل وتزويج للغير؛ إذ من جملة خواصك: تحريم مدخولتك على الغير مطلقًا ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: تفويض أمورهن إليك ﴿أَدْنَىٰ﴾ وأقرب ﴿أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ﴾ إذ نسبتك إليهن حينئذٍ على السواء، بلا ميل منكر وترجيح.

﴿وَ﴾ المناسب لهن أن ﴿لَا يَحْزَنَّ﴾ بعد التفويض، بل ﴿وَ﴾ لهن أن ﴿يَرْضَيْنَ بِمَا

﴿آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾ إذ لا تتفاوت نسبتك إليهن أصلاً؛ لأنك مجبول على العدل القويم والصراط المستقيم، سيما بين أزواجك المنتسبين إليك كلهن بنسبة واحدة ﴿وَاللَّهُ﴾ المطلع لضمائر عباده ﴿يَعْلَمُ مَا﴾ يجري ﴿فِي قُلُوبِكُمْ﴾ وضمائركم أيها المؤمنون من الميل إلى بعض النساء دون بعض، ونبينا ﷺ منزه عن هذا الميل وأمثاله ﴿وَكَانَ اللَّهُ﴾ المراقب لأحوالكم ﴿عَلِيمًا﴾ بما جرى عنه في صدوركم من الميل إلى الهوى ﴿حَلِيمًا﴾ [الأحزاب: 51] ينتقم عليه ولكن لا يعجل.

ثمَّ لمَّا خيَّر سبحانه حبيبه ﷺ في أمر نسائه، وفوض أمورهن كلها إليه ﷺ، ورضين كلهن بحكمه بلا إباء ومنع، أراد سبحانه أن يمنع وينهي حبيبه ﷺ عن تطليقهن وتبديلهن والزيادة عليهم بعدما بلغن التسعة، فقال: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿النِّسَاءُ﴾ أي: تزويجهن ﴿مِنْ بَعْدُ﴾ أي: بعد أن يتفقن أولئك التسعة على حكمك وأمرك، وفوَّضن أمورهن إليك ﴿وَلَا﴾ يحل لك أيضًا ﴿أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ﴾ أي: تطلق بعضهن وتبدل بدلهن ﴿مِنْ أَزْوَاجٍ﴾ أخر من الأجنبيات ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾[1] أي: حسن الأجنبيات، لا يحل لك تزوجهن كما حل لك فيما مضى ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ من الإماء، فلا حرج عليك بدخولها ﴿وَكَانَ اللَّهُ﴾ المطلع على مقادير أفعال عباده ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ مما جرى في ملكه وملكوته ﴿رَقِيبًا﴾ [الأحزاب: 52] يراقبه ويحافظه إلى أن يكمل، ثمَّ يمنع عنه على مقتضى حكمته البالغة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا

---

(1) قال نجم الدين: لأن حلاوته تزيد في الحرارة التي يتولد منها عين القلوب لتسكين الحرارة ورفع الصفراء ولاعتدال المزاج القلبي والنفسي، ومنها: ما يتعلق بتربية نفوس أزواجه، وذلك أن الله تعالى لما ضيق الأمر عليهن في باب الصبر على ما أحله للنبي ﷺ وتوسع أمر النكاح عليه وخيره في الإرجاء والإيواء إليه كان أحمض في مذاقهن وأبرد شيء لمزاج قلوبهن فغذاهن بحلاوة ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ﴾ من العدم وسكن بها برودة مزاج قلوبهن حفظًا لسلامة قلوبهن وجبرًا لانكسارها، ومنها: ما يتعلق بمواعظ نفوس رجال الأمة ونسائها ليتعظوا بأحوال النبي ﷺ وأحوال أزواجه أمته ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا﴾ [الأحزاب:52] يراقب مصالحهم.

فَسْئَلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾﴾ [الأحزاب: 53-54].

ثمّ أشار سبحانه إلى آداب المؤمنين مع النبي ﷺ في استئذانهم منه، ودخولهم عليه وتناولهم الطعام عنده وبين يديه، وتكلمهم مع أزواجه ﷺ، إلى غير ذلك من الأدب، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله ورسوله، مقتضى إيمانكم رعاية الأدب مع رسولكم ﷺ، سيما من قبل بيوته ومحارمه ومساكنه ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ﴾ بغتةً بلا استئذانٍ منكم، بل بيوت سائر المسلمين أيضًا ﴿إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ دعوةً ﴿إِلَى طَعَامٍ﴾ حاضر عنده حال كونكم ﴿غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ﴾ أي: منتظرين لوقته ﴿وَ﴾ عليكم ألّا تدخلوا بلا دعوةٍ ﴿لَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا﴾ واطعموا ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا﴾ واخرجوا على الفور وتفرقوا.

﴿وَلَا﴾ تتمكنوا بعد الطعام عنده ﴿مُسْتَئْنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ يتحدث بعضهم مع بعض، أو تسمعونه منه ﷺ أو من أهل بيته، أو لمهمٍ آخر من مهماتكم ﴿إِنَّ ذَلِكُمْ﴾ أي: اللبث على أيّ وجه ﴿كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي﴾ ﷺ ﴿مِنكُمْ﴾ أن يخرجكم حسب مقتضى حميته البشرية؛ لأنه ﷺ حييّ حليم، يصبر على أذاكم ولا يخرجكم عنوة ﴿وَاللهُ﴾ المصلح لأحوال عباده، المنبه لهم مصالحهم ﴿لَا يَسْتَحْيِي مِنَ﴾ إظهار كلمة ﴿الْحَقِّ﴾ التي يجب إيصاله إلى المؤمنين؛ ليترسخ في قلوبهم ويتمرنوا عليه ويتصفوا به ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ﴾ أي: أزواجه ﷺ ﴿مَتَاعًا﴾ وحوائج ﴿فَاسْأَلُوهُنَّ﴾ متسترين ﴿مِن وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ بحيث لا يقع نظركم إليهن ﴿ذَلِكُمْ﴾ أي: الستر والتحجب من أزواج النبي ﴿أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ﴾ من أمارات الإثم ومخائل المعصية وسوء الأدب ﴿وَقُلُوبِهِنَّ﴾ أيضًا ترغيمًا للشيطان، وتطهيرًا لنفوسكم من غوائله وتلبيساته.

﴿وَ﴾ بالجملة: اعلموا أيها المؤمنون ﴿مَا كَانَ﴾ أي: ما صح وجاز ﴿لَكُمْ﴾ في حال من الأحوال ﴿أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ﴾ بشيء يكرهه ويستنزه عنه مطلقًا ﴿وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ﴾ المدخولة عليها ﴿مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا﴾ سواء كنّ حرائر أم إماء ﴿إِنَّ ذَلِكُمْ﴾ أي: إيذاءه ﷺ ونكاح نسائه بعده ﴿كَانَ عِندَ اللهِ﴾ المنتقم الغيور، المقتدر على أنواع الانتقام ﴿عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: 53] مستجلبًا لأليم العذاب وعظيم العقاب.

واعلموا أيها المؤمنون ﴿إِن تُبْدُوا﴾ وتظهروا ﴿شَيْئًا﴾ حقيرًا مما يتعلق بإيذائه ﷺ من قِبَل أزواجه في حياته ﷺ وبعد مماته ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ في أنفسكم غير مجاهرين به ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾ المطلع على مكنونات صدوركم ﴿كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ ظهر على ألسنتكم أو خطر ببالكم ﴿عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: 54] لا يعزب عن علمه شيء من الدقائق والرقائق.

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ ۗ وَاتَّقِينَ اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا (55) إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ۚ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (56) إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا (57) وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا (58)﴾ [الأحزاب: 55-58].

ثم لمّا نزلت آية التستر والحجاب قيل: يا رسول الله، الأبناء والآباء والأقارب والعشائر أيضًا يتكلمون معهن من وراء الحجاب؟ نزلت: ﴿لَا جُنَاحَ﴾ أي: لا إثم ولا ضيق ﴿عَلَيْهِنَّ﴾ أي: على أزواجه ﷺ ﴿فِي﴾ اختلاط ﴿آبَائِهِنَّ﴾ والتكلم معهن بلا سترة وحجاب ﴿وَلَا أَبْنَائِهِنَّ﴾ أيضًا ﴿وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ﴾ إذ الكل بعيد عن التهمة، مصون عن الريبة ﴿وَلَا نِسَائِهِنَّ﴾ يعني: النساء المؤمنات لا الكتابيات ﴿وَلَا﴾ جناح أيضًا في ﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ من العبيد والإماء، وقيل: من الإماء خاصة دون العبيد، كما مر في سورة «النور».

﴿وَ﴾ بالجملة: يا نساء النبي المحفوظ، المصون عن أدناس الطبيعة مطلقًا ﴿اتَّقِينَ اللَّهَ﴾ الغيور المنتقم، واحذرن عن محارمه ومنهياته مطلقًا، وامتثلن بأوامره حتى تشاركن معه ﷺ في أخص أوصافه ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المطلع لضمائركن ﴿كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ خلج في خواطركن من الإثم واللمم ﴿شَهِيدًا﴾ [الأحزاب: 55] حاضرًا عنده، غير مغيب عنه إلى حيث لا يخفى عليه سبحانه خافية وإن دق ولطف.

ثم أشار سبحانه إلى تعظيم النبي ﷺ وتوقيره، والاعتناء بشأنه وعلو منزلته ومكانه، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المتعزز برداء العظمة والكبرياء ﴿وَمَلَائِكَتَهُ﴾ المهيمين عنده، الوالهين بمطالعة جماله، المستغرقين بشرف لقائه ﴿يُصَلُّونَ﴾ يعتنون ويهتمون بإظهار

فضله؛ تبجيلاً وتعظيمًا ﴿عَلَى النَّبِيِّ﴾ الحقيق لأنواع التوقير والتمجيد، المستحق لأصناف الكرامة والتحميد ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله بوسيلة نبيه ﷺ، وتحققوا بتوحيده سبحانه بإرشاده ﷺ أنتم أولى وأحق بتعظيمه وتصليته وتسليمه ﴿صَلُّوا عَلَيْهِ﴾ مهما سمعتم اسمه وذكرتم بأنفسكم، وقولوا: اللهم صل على محمد ﴿وَسَلِّمُوا﴾ له ﴿تَسْلِيمًا﴾[1] [الأحزاب: 56] قائلين: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، والآية تدل على وجوب الصلاة عليه ﷺ للمؤمنين كلما جرى ذكره في أي حال من الأحوال والأحيان اللائقة للدعاء.

ثم لما أشار سبحانه إلى علو شأن نبيه ﷺ وسمو برهانه، وأوجب على المؤمنين تعظيمه وتوقيره والانقياد إليه في جميع أوامره ونواهيه، أراد أن يشير إلى أن من قصد إيذاءه وأساء الأدب معه، يستحق اللعن والطرد، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ حيث يأتون بالأفعال الذميمة القبيحة، المستكرهة عقلاً وشرعًا عنده ﷺ فيؤذونه بها، ذكر سبحانه نفسه؛ تعظيمًا لشأن حبيبه ﷺ وإلا فهو منزه عن التأذي والتأثر، أو لأن إيذاءه ﷺ مستلزم لإيذائه سبحانه ﴿لَعَنَهُمُ اللهُ﴾ المنتقم عنهم، وطردهم عن سعة رحمته ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ على ألسنة خلّص عباده، وأبعدهم عن مجالسهم ومحافلهم ﴿وَالآخِرَةِ﴾ عن عز حضوره وسعة رحمته وجنته ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ﴾ في النار ﴿عَذَابًا مُهِينًا﴾ [الأحزاب: 57] مؤلمًا مزعجًا، لا عذاب أسوأ منه وأشد.

ثم أردف سبحانه إيذاءه ﷺ بإيذاء المؤمنين فقال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ بذمائم الأفعال والأقوال، وقبائح الحركات ﴿بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا﴾ أي: بغير جريمة صدرت عنهم واستحقوا الجناية عليها ﴿فَقَدِ احْتَمَلُوا﴾ وتحملوا هؤلاء المؤذين المفترين ﴿بُهْتَانًا﴾ جالبًا لأنواع العقوبات ﴿وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: 58] ظاهرًا عظيمًا

---

(1) صلوات الله على النبي أن بلّغه إلى المقام المحمود، فالمقام المحمود صلواته عليه وهو الشفاعة لأمته، وصلوات الملائكة عليه دعاؤهم له بزيادة مرتبته بحبهم إياه واستغفارهم لأمته، وصلوات الأمة عليه متابعتهم له ومحبتهم إياه والثناء عليه بالذكر الجميل. قال ابن عطاء: الصلاة من الله وصلة، ومن الملائكة رفعة، ومن الأمة متابعة ومحبة.

قال الواسطي: صل عليه بالوقار، ولا تجعل له في قلبك مقدار. قال الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي: سألت عبد الواحد الساري عن هذه اللفظة، وكأني استفتحه. فقال: لا تجعل بصلواتك عليه في قلبك مقدارًا تظن أنك تقضي به من حقه شيئًا بصلواتك عليه، فإنك تقضي به حق نفسك؛ إذ حقه أجل من أن يقضيه أمته أجمع؛ إذ هو في صلاة الله تبارك وتعالى.

مستعقبًا، مستتبعًا لأسوأ الجزاء وأشد العقاب والنكال؛ إذ رمي المحصنات من أفحش الجنايات.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾ ۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ [الأحزاب: 59-62].

ثم أشار سبحانه إلى آداب النساء، وصيانتهن عن الرجال واستحيائهن منهم؛ ليسلمن عن افتراء المفترين ورمي الرامين، فقال مناديًا لحبيبه ﷺ ليبلّغ إلى أمته وأزواجه وأزواجهم أيضًا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ المؤيد من عندنا، المبعوث إلى إرشاد البرايا ذكورهم وإناثهم ﴿قُل لأَزوَاجِكَ﴾ أولاً على سبيل الشفقة والنصيحة ﴿وَبَنَاتِكَ﴾ أيضًا ﴿وَ﴾ عموم ﴿نِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ إذا برزن لحوائجهن أحيانًا ﴿يُدْنِينَ﴾ ويغطين ﴿عَلَيْهِنَّ﴾ أي: على أيديهن وأرجلهن وجميع معاطفهن ﴿مِن﴾ فواضل ﴿جَلابِيبِهِنَّ﴾ وملاحفهن، بحيث لا يبدو من أعضائهن شيء سوى العينين، بل عين واحدة؛ ليتميزن بها عن الإماء والبغيات المريبات، المطمعات لأهل الفجور والفسوق ﴿ذَلِكَ﴾ التستر والتغطي على الوجه الأتم الأبلغ ﴿أَدْنَى﴾ وأقرب ﴿أَن يُعْرَفْنَ﴾ ويُميزن أولئك الحرائر العفائف عن الإماء والمريبات، وبعدما عرفن ﴿فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ ولا يفترين بهتانًا ﴿وَكَانَ اللَّهُ﴾ المطلع لما اختلج في جوانحهن ﴿غَفُورًا﴾ لهن بعدما تُبن إلى الله وأَنَبْنَ ﴿رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: 59] يقبل توبتهن ويرحم عليهن إن أخلصن فيها.

ثم قال سبحانه مقسمًا مبالغًا: والله ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ﴾ ولم يتزجر ﴿الْمُنَافِقُونَ﴾ المفترون الرامون عن إيذاء المؤمنات الحرائر، المصونات المحفوظات، والسرايا العفائف بعدما تحفظن وتسترن على الوجه المذكور ﴿وَ﴾ لم يكف عنها المتعرضون ﴿الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ وضعف إيمان، واعتقاد وميل إلى الفسق والفجور ﴿وَ﴾ خصوصًا ﴿الْمُرْجِفُونَ﴾ المجاهرون المترددون ﴿فِي الْمَدِينَةِ﴾ بالأراجيف والأخبار الكاذبة والمفتريات الباطلة الغليظة، ويذيعونها فيها عنادًا أو فسادًا ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ ولنأمرنك بقتالهم وإجلائهم، ولنسلطنك عليهم بإقامة الحدود الشديدة والتعزيرات

البليغة إلى حيث لا يمكنهم التمكن والإقامة فيها، فيضطروا إلى الجلاء ﴿ثُمَّ﴾ أي: بعدما وضعنا الحدود وأمرناك بإقامتها ﴿لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا﴾ أي: لا يستطيعون ولا يقدرون بمجاورتك في المدينة ﴿إِلَّا﴾ زمانًا ﴿قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: 60] يستعدون فيه للبعد والجلاء والهرب من بين المسلمين والفرار عنهم.

وإلى أن يفروا ويهربوا أولئك المبعدون المطرودون حتى لا يؤاخذون ولا يؤسرون؛ إذ هم كانوا بين المؤمنين ﴿مَلْعُونِينَ﴾ مطرودين، مبعدين عن روح الله وكنف جوار رسوله وجوار المؤمنين؛ لكونهم مؤذين متعرضين لعورات المسلمين، الباهتين المفترين إياهن ببهتان عظيم، والموصوفين بهذه الصفات المذمومة ﴿أَيْنَمَا ثُقِفُوا﴾ ووجدوا ﴿أُخِذُوا﴾ وأسروا ﴿وَ﴾ إن لم يمكن أسرهم ﴿قُتِّلُوا تَقْتِيلًا﴾ [الأحزاب: 61] شديدًا إلى حيث استؤصلوا بالمرة.

واستئصال أمثال هذه الغواة المطرودين المردودين ليس ببدع، بل ﴿سُنَّةَ اللَّهِ﴾ القدير الحكيم، القديمة المستمرة، التي سنها سبحانه ﴿فِي﴾ حق المؤذين المفترين ﴿الَّذِينَ خَلَوْا﴾ ومضوا ﴿مِن قَبْلُ﴾ يا أكمل الرسل ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ﴾ المستمرة الجارية على مقتضى حكمته المتقنة ﴿تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: 62] إذ لا يبدل حكمه، ولا يغير حكمته، بل له أن يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾ [الأحزاب: 63-68].

ثم نبه سبحانه على حبيبه ﷺ بما سيسأل عنه الكافرون تهكمًا واستهزاءً، وأشار إلى جواب سؤالهم؛ تعليمًا له ﷺ وإرشادًا، فقال: ﴿يَسْأَلُكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿النَّاسُ﴾ الناسون عهودهم التي عهدوا مع الله في مبدأ فطرتهم ﴿عَنِ السَّاعَةِ﴾ التي جئت بها من عند ربك، وأخبرت بقيامها بوحي الله وإلهامه، كما أخبر بها سائر الرسل والأنبياء السالفة - صلوات الله عليهم - مستهزئين معك، سائلين عن تعيين وقتها وقيامها،

أقريب هو أم بعيد؟ ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل بعدما اقترحوا عليك عنها: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا﴾ أي: علم قيامها وتعيين وقتها ﴿عِندَ اللهِ﴾ العليم الحكيم، لا يطلع عليها أحدًا من خلقه، بل هي من جملة الغيوب التي استأثر الله بها في غيبه، بل أخبر سبحانه بوقوعها حتمًا، وأبهم تعيين وقتها، فمجرد تحقق وقوعها يكفي في الخوف من أهوالها ﴿وَ﴾ بعدما أخبر سبحانه بوقوعها وأبهم في تعيين وقتها ﴿مَا يُدْرِيكَ﴾ ويطلعك أيها المخاطب تعيينها، ومن أنى لك أن تبعدها أو تنكر وقوعها ﴿لَعَلَّ السَّاعَةَ﴾ الموعودة ﴿تكُونُ﴾ شيئًا ﴿قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: 63] تقع عن قريب، فأنى لم تتزود لها، ولم تتهيأ أسبابها أيها المغرور في الدنيا الدنية وأمتعتها الفانية ولذاتها المتناهية؟!.

﴿إِنَّ اللهَ﴾ المنتقم من عصاة عباده ﴿لَعَنَ﴾ رد وطرد عن ساحة عز قبوله ﴿الكَافِرِينَ﴾ المصرين على إنكار يوم الجزاء والأمور الواقعة فيه ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ﴾ قهرًا عليهم وزجرًا ﴿سَعِيرًا﴾ [الأحزاب: 64] مصعرًا مملوءًا من النار.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ لا يتحولون عنها أصلاً لا بأنفسهم ولا بواسطة غيرهم من شفعائهم ﴿لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا﴾ يولي أمرهم وينقذهم منها ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب: 65] ينصرهم ويعين عليهم لإخراجهم عنها.

اذكر لهم يا أكمل الرسل ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ﴾ وتصرف ﴿وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ أي: من جهة إلى جهة؛ تشديدًا للعذاب عليهم ﴿يَقُولُونَ﴾ حينئذ متمنين متحسرين: ﴿يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللهَ﴾ كما أخبر علينا الرسل والأنبياء ﴿وَأَطَعْنَا الرَّسُولاْ﴾ [الأحزاب: 66] المبعوث إلينا، المنذر عن هذه العقوبات التي تلحق بنا اليوم، فلن نُبتلى ونصيب بهذا العذاب المؤبد المخلد.

﴿وَقَالُوا﴾ أيضًا، متضرعين إلى الله على سبيل التمني والتناجي: ﴿رَبَّنَا﴾ يا من ربانا بأنواع الكرامات وأحسن تربيتنا بإرسال الرسل وإنزال الكتب، فكذبنا الكتب والرسل وأنكرنا عليهما عنادًا ﴿إِنَّا أَطَعْنَا﴾ يا ربنا في إنكار كتبك وتكذيب رسلك ﴿سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا﴾ الذين هم أصحاب الثروة والرئاسة بيننا، فحلُّ جميع أمورنا وعقدها بأيدي أولئك الرؤساء البعداء الضالين ﴿فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاْ﴾ [الأحزاب: 67] السوي المستقيم الموصل الى توحيدك وتصديق رسلك وكتبك، وأنت أعلم منا يا ربنا بأنّا ما ضللنا إلا بإضلال أولئك الطغاة الضالين المضلين.

﴿رَبَّنَا آتِهِمْ﴾ جزاء لإضلالهم وانتقامًا عنهم ﴿ضِعْفَيْنِ مِنَ العَذَابِ﴾ يعني: آتهم

ضعف عذابنا، ضعفًا لضلالهم وضعفًا لإضلالهم إيّانا ﴿وَالْعَنْهُمْ﴾ واطردهم ربنا وأبعدهم عن سعة رحمتك الواسعة ﴿لَعْنًا كَبِيرًا﴾[1] [الأحزاب: 68] طردًا عظيمًا وتبعيدًا بعيدًا حيث لا يُرجى نجاتهم، طردًا كثيرًا متواليًا متتاليًا مستمرًا على التعاقب والترادف.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾ [الأحزاب: 69-71].

ثم وصى سبحانه عموم المؤمنين بألّا يكونوا مع نبيهم ﷺ مثل بني إسرائيل مع موسى - صلوات الرحمن عليه وسلامه - ولا يقصدوا أذاه ﷺ كما قصدوا، ولا يرموه بشيء لا يليق بشأنه كما رموا به موسى عليه السلام؛ لأن معاشر الأنبياء كلهم معصومون عن الكبائر مطلقًا، بل عن الصغائر أيضًا، فلا بدَّ لمن آمن لهم ألّا يرموهم بمكروه، ولا يليق بشأنهم مع أنه سبحانه أظهر براءتهم وطهارة ذيلهم، فبقي إثم الافتراء والمراء على المفترين، فينتقم سبحانه عنهم منها ويأخذهم بها.

فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بمحمد ﷺ مقتضى إيمانكم به أن ﴿لَا تَكُونُوا﴾ قاصدين أذاه ﷺ بنسبة المكروه المنكر إليه، وبتعييره وتشنيعه بأمر صدر عنه ولم تفهموا سره ﴿كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى﴾ صلوات الله وسلامه عليه، فاغتم منها وتحزن حزنًا شديدًا ﴿فَبَرَّأَهُ اللَّهُ﴾ المطلع على نجابة طينته وطهارة ذيله وأظهر طهارته ﴿مِمَّا قَالُوا﴾ أي: من مقولهم؛ يعني: مؤداه ومضمونه.

وذلك أن قارون استأجر بغية بجعل كثير على أن ترمي موسى عليه السلام بنفسها، فرموه بها، ثم أحضروها في المجلس؛ لتفضحه عليه السلام على رءوس الملأ، فأقرت

---

(1) يشير إلى تهديد المنافقين ومن بصددهم من منافقي أهل الطلب من المتصوفة والمتعرفة الذين يلبسون في الظاهر ثيابهم ويلبسون في الباطن ما يخالف مقرهم وسرائرهم، وأنهم لو لم يمتنعوا عن أفعالهم لم يتغيروا عن أحوالهم لأجرى معهم سنته في التدبير والتغيير على من سلف من نظرائهم ونزل بكبرائهم، ثم ذكر مسألة القوم عن قيام الساعة وتكذيبهم ذلك واستهزائهم بالمؤمنين بها، ثم استعجالهم إتيانها من غير استعداد لها، ثم أخبر عن صعوبة العقوبة التي علم أنه يعذبهم بها وما يقع عليهم من الندامة على ما فرطوا فلا تنفعهم الندامة، ولا يكون سوى الغرامة والملامة. [التأويلات].

لعصمته ﷺ وأظهرت ما أعطوها من الجعل، فدعا موسى عليه، ففعل بهم وبما معهم سبحانه ما فعل من الخسف على ما مر في سورة «القصص» أو قذفوه بعيب في بدنه من برص أو أدرة، فبرأه الله سبحانه بأن تذهب الحجر بثيابه بين الملأ وهو يمشي على عقب ثيابه عريانًا يظهر، حتى يظهر براءته من العيب لهم ﴿وَ﴾ كيف لا يبرؤه سبحانه، ولا يظهر طهارته؛ إذ ﴿كَانَ﴾ موسى ﷺ ﴿عِندَ اللهِ﴾ الذي اصطفاه للنبوة والرسالة والتكلم معه ﴿وَجِيهًا﴾ [الأحزاب: 69] في كمال الوجاهة والقربة؛ لذلك اختاره بسمع كلامه بلا واسطة.

وبعدما سمعتم حكاية ما جرى على أولئك البغاة الغواة المؤذين المفترين ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله ورسوله ﴿اتَّقُوا اللهَ﴾ المنتقم الغيور، ولا تؤذوا رسوله ﷺ ﴿وَقُولُوا﴾ له بعدما تكلمتم معه في شأنه ﴿قَوْلاً سَدِيدًا﴾ [الأحزاب: 70] صحيحًا سالمًا، بعيدًا عن وصمة الأذى والتهمة والافتراء؛ حتى لا يلحقكم ما لحق على قوم موسى.

ولكم الإخلاص بالله ورسوله، وأخلصوا واستقيموا في الأفعال والأقوال وأطيعوا ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ﴾ سبحانه ﴿أَعْمَالَكُمْ﴾ لتثمر لكم الثمرات العجيبة والدرجات الرفيعة عنده سبحانه ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ التي صدرت عنكم ﴿وَمَن يُطِعِ اللهَ﴾ حق إطاعته ويخلص في أعماله ﴿وَ﴾ يطع ﴿رَسُولَهُ﴾ إطاعة خالية عن وصمة الأذى والرعونات المؤدية إلى أنواع المكروهات والمنكرات ﴿فَقَدْ فَازَ﴾ ونال ﴿فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: 71] هو الدخول بدار الخلود، والفوز بلقاء الخلاق الودود.

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾ ﴾ [الأحزاب: 72-73].

ثم لما أراد سبحانه بمقتضى تجلياته الحبيبة اللطفية أن يطالع ذاته الكاملة المتصفة بصفات الكمال في مرآة مجلوة تصير نائبة عنها، خليفة لها، يتراءى فيها جميع أوصافه وأسمائه الذاتية على ما أشار إليه الحديث القدسي، عرض سبحانه أمانة الخلافة والنيابة على استعدادات المظاهر وقابليات المصنوعات، فامتنع الكل عن

حملها، وأبى عن قبولها كما قال سبحانه: ﴿إِنَّا﴾ بمقتضى تجلياتنا الجمالية المنبعثة عن الشئون الحِبيّة والتطورات اللطفية ﴿عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ﴾ أي: أمانة الخلافة والنيابة، وأردنا أن نحمّل أعباء العبودية المشتملة على التخلق بالأخلاق الإلهية والتكليفات الشاقة، القالعة للأوصاف البهيمية والأدناس الإسكانية الراسخة في القوى الطبيعية؛ لتحصل التصفية والتزكية عن أكدار الهيولي المانعة عن الوصول إلى الملأ الأعلى ﴿عَلَى﴾ استعدادات ﴿السَّمَاوَاتِ﴾ العلا ﴿وَ﴾ قابليات ﴿الْأَرْضِ﴾ السفلى ﴿وَالْجِبَالِ﴾ الأسنى، وعلى استعدادات ما بينهما من المركبات العظمى والمؤلفات الكبرى ﴿فَأَبَيْنَ﴾ وامتنعن؛ أي: كل منهن ﴿أَن يَحْمِلْنَهَا﴾[1] إذ ما أودع سبحانه في استعداداتهم وقابلياتهم ما يسع لحمل هذه الأمانة العظيمة والكرامة الكريمة.

﴿وَ﴾ لذلك ﴿أَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ أي: خفن وخشين من حملها ألّا يفين حقها ﴿وَ﴾ بعدما امتنعن وخفن جميعًا عن حملها ﴿حَمَلَهَا الْإِنسَانُ﴾ المجبول على صورة الرحمن، المنتخب من بين الأكوان بالقوة القدسية المودعة فيه، المقتضية لحملها

---

(1) قال في التأويلات: أي: عليها وعلى أهاليها يشير إلى أن حقيقة الأمانة وهي التي عبر عنها بالفوز العظيم، وقد فسرنا الفوز العظيم بالفناء في الله والبقاء بالله وهو عبارة عن قبول الفيض الإلهي بلا واسطة فالحاصل أن حقيقة الأمانة هي الفيض الإلهي بلا واسطة ولهذا سمى بالأمانة؛ لأنه من صفات الحق تعالى فلا يتملكه أحد وقد اختص الإنسان بقبول هذا الفيض وحمله من سائر المخلوقات لاختصاصه بإصابة رشاش النور الإلهي لقوله ﷺ: «إن الله خلق الخلق في ظلمة ثم رش عليهم من نوره فمن أصابه ذلك النور فقد اهتدى» فكل روح أصابه رشاش نور الله صار مستعدًا لقبول الفيض الإلهي بلا واسطة فكان عرض الفيض الإلهي على المخلوقات وحمل الفيض خاصًا للإنسان؛ لأن نسبة الإنسان مع المخلوقات كنسبة القلب مع الشخص، فالعالم شخص وقلبه الإنسان فكما أن عرض فيض الروح عام على الشخص الإنساني وقبوله وحمله مخصوص بالقلب بلا واسطة، ثم من القلب بواسطة العروق والشريانات وعروق ممتدة تصل عكس فيض الروح إلى جميع الأعضاء فيكون متحركًا به كذلك عرض الفيض الإلهي عام لاحتياج الموجودات به وقبوله وحمله خاص للإنسان ومنه يصل عكس الفيض إلى سائر المخلوقات ملكها وملكوتها، فأما في ملكها: وهو ظاهر الكون أعني الدنيا فيصل الفيض إليه بواسطة صورة للإنسان من بصنائعه الشريفة وحرفه اللطيفة التي به العالم معمور ومزين، وأما إلى ملكوتها: وهو باطن الكون أعني الآخرة فيصل الفيض إليها بواسطة روح الإنسان هو أول شيء تعلقت بالقدرة فيعلق الفيض الإلهي من أمر كن أولا بالروح الإنساني، ثم يفيض منه إلى عالم الملكوت فظاهر العالم وباطنه معمور بظاهر الإنسان وباطنه هذا هو سر الخلافة المخصوصة بالإنسان.

﴿إِنَّهُ﴾ حينئذ من كمال شوقه ووفور تحننه وذوقه ﴿كَانَ ظَلُومًا﴾ على نفسه بارتكاب هذه التحميلات البليغة والتكليفات الشديدة الثقيلة من قطع المألوفات الطبيعية، والمشتهيات البهيمية واللذات الحسية ﴿جَهُولاً﴾ [الأحزاب: 72] ذهولاً عن مقتضيات ناسوته وملائماتها بحسب القوى البشرية لغلبة القوى الروحانية الجالبة للسعادة الأزلية الأبدية على القوى الجسمانية المستتبعة للشقاوة السرمدية، فأين هذا من ذلك؟!

رزقنا الله المنعم المفضل ألَّا نظلم على نفوسنا، ونمنعها عن مقتضياتها وأمانيها، بمنِّه وجوده.

ومن جملة الأمانات المحمولة على الإنسان: حفظ السرائر ورعاية الآداب والحقوق الجارية بين ذوي الألباب من الرجال والنساء، وإنما حمّلها سبحانه عليهم ابتلاءً لهم واختبارًا ﴿لِيُعَذِّبَ اللهُ﴾ الحكيم المتقن في أفعاله ﴿الْمُنَافِقِينَ﴾ المخفين، الساترين كفرهم وشركهم والخيانات الصادرة عنهم لمصلحة دنيوية ﴿وَالْمُنَافِقَاتِ﴾ منهم كذلك ﴿وَالْمُشْرِكِينَ﴾ المصرين المجاهرين بكفرهم وشركهم وخياناتهم ﴿وَالْمُشْرِكَاتِ﴾[1] أيضًا كذلك تعذيبًا شديدًا؛ لعدم وفائهن على الأمانات المحمولة

---

(1) قال في التأويلات: هذه اللام لأمر الصيرورة والعاقبة يشير إلى أن الحكمة في عرض الأمانة أن يكون الخليفة في أمرها على ثلاث طبقات:
طبقة منها: تكون للملائكة وغيرهم ممن لم يحملها فلا يكون في ذلك لهم ثواب ولا عذاب، وطبقة منها: من يحملها ولم يؤد حقها وقد خان فيها، فهم المنافقون والمنافقات والمشركون والمشركات الذين حملوها بالظلومية على أنفسهم وضيقوها بجهولية قدرها فما رعوها حق رعايتها حاصل فهم أمرهم العذاب المؤبد، وطبقة منها: من يحملها ويؤد حقها ولم يخن فيها ولكن لثقل الحمل وضعف الإنسان يتلعثم في بعض الأوقات فيرجع إلى الحضرة بالتضرع والابتهال مقرئًا بالذنوب وهم المؤمنون والمؤمنات ليتوب الله عليهم لقوله: ﴿وَيَتُوبَ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [الأحزاب:73] والحكمة في ذلك فتكون كل طبقة من الطبقات الثلاث مرآة يظهر فيها جمال صفة من صفاتها.
فالطبقة الأولى: إذ لم تحمل الأمانة وتركوا نفعها لضرها فهم مرآة جمال صفة عدله، والطبقة الثانية: إذا حملوها طمعًا في نفعها ولم يؤدوا حقها وقد خانوا فيها بأن باعوها بعرض من الدنيا الفانية، ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة: 16] فهم مرآة فيها جمال صفة قهره، والطبقة الثالثة: إذ حملوها بالطوع والرغبة والشوق والمحبة وأدوها حقها بقدر وسعهم ولكن كما قيل لكل جواد كبوة ووقع في بعض الأوقات قدم صدقهم عند ربهم في حجر بلاء وابتلاء بغير اختيارهم، ثم اجتابهم ربهم فتاب عليهم، وهداهم بجذبات العناية إلى الحضرة فهم مرآة يظهر فيها جمال فضله ولطفه وذلك قوله: ﴿وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَّحِيماً﴾ [الأحزاب:73] للمؤمنين

عليهم ﴿وَيَتُوبَ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي: يوفقهم على التوبة والإنابة بعدما صدر عنهم شيء من الخيانة وعدم الوفاء بالأمانة التي ائتمنوا بها من حقوق الله وحقوق العباد، وبعدما تابوا وأنابوا على وجه الإخلاص والندامة، فقد أدوا حق الأمانة ووفوا بها على وجهها ﴿وَكَانَ اللهُ﴾ المطلع لإخلاصهم ﴿غَفُورًا﴾ لما صدر عنهم من الخيانة قبل التوبة ﴿رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: 73] يقبل توبتهم ويرحم عليهم بعدما تابوا وأخلصوا.

رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين.

خاتمة السورة

عليك أيها الطالب لمرتبة الخلافة والنيابة، القاصد لحمل الأمانة الإلهية، المتحمل لأعباء العبودية بالقوة الذاتية القدسية والقابلية الفطرية، يسّر الله عليك الأداء والوفاء بجميع حقوقه وعهوده وأماناته، وحقوق جميع عباده ورعاية لوازم الإخاء والمصاحبة معهم، وأطاقك سبحانه على حمل التكاليف من المفترضات والنوافل والمسنونات، وأعانك على التخلق بأخلاقه، أن تتوجه بوجه قلبك إلى ربك وتتخذه وكيلاً في أمرك الذي هو التخلق بأخلاقه سبحانه؛ ليتيسر لك مرتبة الخلافة ويتم عليك أمر النيابة.

فلك أن تعرف أولاً شياطينك التي هي أمانيك النفسانية، المتولدة من القوى البهيمية، المانعة عن الوصول إلى الدرجات العلية، وتفصلها على وجه لا يشذ عنك منها شيء، وتلازم على زجرها ومنعها إلى أن تصير الكل منزجرة مقهورة للقوى الروحانية، بحيث لا يبقى لها قوة مقاومة ومقابلة مع الروحانيات أصلاً.

ثم لك أن تنفي وتفني أوصافك وأخلاقك في أوصاف الحق وأخلاقه إلى أن تضمحل وتتلاشى أوصافك وأخلاقك في صفاته وأخلاقه سبحانه، ويرتفع اسمك ورسمك عن البين، ويتصفى العين من الغين، والشأن عن الشين، ولم يبق البون والبين، واتصل العين بالعين، وحينئذ صرت ما صرت، وفزت بما فزت، وتمكنت في مقعد صدق الخلافة والنيابة عند مليك مقتدر.

رزقنا الله التقرر والتمكن في مقعد الصدق بلا تلوين وتبديل.

والمؤمنات بفضله، فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

سورة سبأ

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة سورة سبأ

لا يخفى على من انكشف بسعة حضرة العلم الإلهي إجمالاً، واعتقد إحاطتها وشمولها واستيعابها لجميع ما ظهر وبطن في الأولى والأخرى، وفيما لا سبيل للعباد إليها لا تعقلاً ولا تخيلاً وتوهمًا تفصيلاً، أن معلوماته سبحانه أجلّ من أن يحيط بها عقول مصنوعاته وخيالاتهم وأوهامهم، ومن تحقق من السالكين المجاهدين في سبيل الله المشمرين نحوه بكمال وسعهم وطاقتهم سعة قلب الإنسان وكمال إحاطته ووسعة قضائه، فقد انكشف هو بالجملة بسعة حضرة علمه سبحانه، وكثرة معلوماته فوجب له الإتيان بالحمد والثناء على الوجه الذي انكشف له واستتر عنه أيضًا.

لذلك حمد سبحانه نفسه، وأثنى على ذاته تعليمًا لعباده وإرشادًا لهم على سبيل شكر نعمه وأداء حقوق كرمه، بعدما تيمن باسمه الأعظم الجامع لجميع الأسماء والصفات فقال: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ المتجلي على جميع ما ظهر وبطن من مظاهره ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ على عموم مصنوعاته بإفاضة رشحات وجوده عليهم ﴿الرَّحِيمِ﴾ على خواص عباده بإفاضة العقل المنشعب من حضرة علمه إليهم؛ ليدركوا به أحوال مبدئهم ومعادهم.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١) يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ (٢) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٣) لِّيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤)﴾ [سبأ: 1-4].

﴿الْحَمْدُ﴾ المحيط، المستوعب لجميع المحامد الناشئة من ألسنة عموم ما لمع عليه برق الوجود، ثابت ﴿لِلَّهِ﴾ المستجمع لجميع الأوصاف والأسماء المربية لعموم

الأشياء الكائنة غيبًا وشهادةً ﴿الَّذِي﴾ ثبت ﴿لَهُ﴾ ملكًا وتصرفًا وإظهارًا وإعدامًا وإعادةً جميع ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ﴾ أي: علويات عالم الأسماء والصفات والأعيان الثابتة في الأزل ﴿وَمَا فِي الأَرْضِ﴾[1] أي: سفليات عالم الطبيعة المنعكسة من العلويات وما بينهما من الكوائن والفواسد التي برزت بنور الوجود على مقتضى الوجود، من مكمن العدم إلى فضاء الظهور ﴿وَ﴾ بعدما ثبت أن الكل منه بدأ وإليه يعود في الانتهاء، ثبت ﴿لَهُ الحَمْدُ﴾ والثناء الصادر من عموم ألسنة المظاهر، المتوجه نحو المظهر الموجد طوعًا لا غيره من الوسائل والأسباب العادية؛ إذ منتهى الكل إليه ﴿فِي الآخِرَةِ﴾ كما أن مبدأه منه في الأولى، فله الحمد في الأولى والأخرى ﴿وَ﴾ كيف لا ﴿هُوَ الحَكِيمُ﴾ المتقن في أفعاله بالاستقلال بلا شريك وظهير ﴿الخَبِيرُ﴾ [سبأ: 1] عن كيفية اتحاد المظاهر وإعدامها، أولاً وآخرًا، أزلاً وأبدًا.

إذ هو سبحانه بمقتضى علمه الحضوري ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ﴾ أي: ظلمة الطبيعة القابلة لفيضان الاستعدادات، الفائضة من المبدأ الفياض ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ من المعارف والحقائق الكامنة المختفية فيها على مقتضى تربية مربيها ومظهرها ﴿وَ﴾ كذا يعلم بعلمة الحضوري ﴿مَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي: عالم الأسماء إلى أرض المظاهر والمسميات من الفيوضات والفتوحات، الشاملة لأنواع الكمالات ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ متصاعدة من المكاشفات والمشاهدات الحاصلة من تلك الفتوحات الهابطة ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿هُوَ الرَّحِيمُ﴾ لعباده بإفاضة أنواع الكرامات بمقتضى رحمته الواسعة ﴿الغَفُورُ﴾ [سبأ: 2] لذنوب أنانياتهم وتعيناتهم الباطلة بعدما رجعوا إليه وتوجهوا نحوه تائبين آيبين مخلصين.

رزقنا الله الوصول إلى محل القبول.

﴿وَ﴾ بعدما أخبر سبحانه بقيام الساعة في كتبه وعلى ألسنة رسله، سيما في كتابك يا أكمل الرسل وعلى لسانك ﴿قَالَ﴾ الجاحدون المنكرون ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾

---

(1) قال في التأويلات: يشير إلى الثناء على نفسه والمدح لذاته إخبارًا عن كمال جلاله واستحقاقه لنعوت عزه وجماله، فهو في الأزل حامد لنفسه محمود وأحمد موجود وفي الآزال معبود وبالظلمات مقصود الذي له ما في السموات وما في الأرض ملكًا وملكًا لا شركة لأحد فيهما فلا ملك ولا مالك إلا هو وإن جرى هذان الاسمان على مخلوقه، فإن ذلك المخلوق داخل في ملكه وملكه وأنه الزنجي لا يتغير عن لونه، وإن سمي كافورًا.

بالحق، وستروه بالباطل وكذبوا الرسل وعاندوا معهم يا أكمل الرسل، مستهزئين: ﴿لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ﴾ الموعودة على لسانك أيها المدعي مع أنك ادعيت الصدق في جميع أخبارك وأقوالك، فكيف لا تأتي الساعة التي ادعيت إتيانها، وأخبرت بها؟! لعلك كذبت وافتريت إلى ربك ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل بعدما استهزءوا معك، ونسبوك إلى الكذب والافتراء، وأنكروا بإتيان الساعة: ﴿بَلَى﴾ تأتي الساعة الموعودة عليَّ وعلى جميع الرسل والأنبياء، لاشك في إتيانها وقيامها ﴿وَ﴾ حق ﴿رَبِّي﴾ القادر المقتدر على إنجاز جميع ما وعد بلا خلف ﴿لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ الساعة الموعودة من عنده؛ إذ وعده سبحانه مقضي حتمًا جزمًا، بلا شائبة شك وطريان غفلة عليه وسهو عنه، وكيف يطرأ عليه سبحانه سهو وذهول، وهو ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ﴾ بالعلم الحضوري، فالمغيبات حاضرة عنده غير مغيبة عنه؛ إذ ﴿لَا يَعْزُبُ﴾ ولا يغيب ﴿عَنْهُ﴾ سبحانه وعن حيطة حضرة علمه ﴿مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾ ومقدار خردلة لا من الكوائن ﴿فِي السَّمَوَاتِ﴾ أي: العلويات ﴿وَلَا﴾ من الكوائن ﴿فِي الأَرْضِ﴾ أي: السفليات، ولا من المكونات الحادثة بينهما ﴿وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ﴾ المقدار ﴿وَلَا أَكْبَرُ﴾ منه ﴿إِلَّا﴾ وهو مثبت ﴿فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: 3] هو حضرة علمه ولوح قضائه.

إنما أثبت وأحضر الكل في لوح قضائه ﴿لِّيَجْزِيَ﴾ سبحانه المؤمنين ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بتوحيده، واعترفوا بتصديق رسله ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ المقربة إليه سبحانه، المقبولة عنده، خير الجزاء ويعطيهم أحسن المواهب والعطاء ﴿أُوْلَئِكَ﴾ السعداء المقبولون عنده المستحقون لأنواع الكرامات ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ لما تقدم من ذنوبهم تفضلاً عليهم ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [سبأ: 4] صوري في الجنة، ومعنوي عند وصولهم إلى شرف لقائه، بلا كيف وأين ووجهة وجهة ومكان وزمان.

﴿ وَالَّذِينَ سَعَوْ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ۝٥ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝٦ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝٧ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ۝٨ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ

﴿بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾﴾ [سبأ: 5-9].

﴿وَ﴾ ليجزي سبحانه أيضًا أسوأ الجزاء وأشد العذاب والنكال الكافرين ﴿الَّذِينَ سَعَوْا﴾ واجتهدوا ﴿فِي﴾ إبطال ﴿آيَاتِنَا﴾ الدالة على توحيد ذاتنا وكمال أسمائنا وصفاتنا حال كونهم ﴿مُعَاجِزِينَ﴾ قاصدين عجزنا عن إتيان الآيات البينات، منكرين لإيجادنا وإنزالنا إياها، مكذبين رسلنا الحاملين لوحينا، صارفين الناس عن تصديقهم وعن الإيمان بنا وبهم، وملتهم ﴿أُوْلَئِكَ﴾ الأشقياء المردودون، المبعدون عن روح الله وسعة رحمته، المنهمكون في الغي والضلال ﴿لَهُمْ عَذَابٌ﴾ عظيم، أشد وأسوأ ﴿مِّن﴾ كل ﴿رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ [سبأ: 5] وعقوبة مؤلمة؛ لعظم جرمهم وسعيهم في إبطال آياتنا الناشئة عن كمال قدرتنا ووفور حكمتنا، وإنما سعوا واجتهدوا في إبطال آياتنا؛ لجهلهم بنا وبها وبما فيها من الهداية العظمى والسعادة الكبرى، وعدم تأملهم وتدبرهم في مرموزاتها ومكنوناتها؛ لذلك أنكروا بها واجتهدوا في إبطالها وتكذيبها جهلاً وعنادًا.

﴿وَيَرَى﴾ يا أكمل الرسل العلماء العرفاء ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ من قبلنا فضلاً منا إياهم المتعلق بأن الكتاب ﴿الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ تأييدًا لشأنك وترويجًا لأمرك ﴿هُوَ الْحَقَّ﴾ المطابق للواقع، الحقيق بالمتابعة والإطاعة، الثابت المثبت نزوله عندنا بلا ريب وتردد ﴿وَ﴾ كيف لا يكون حقًا ﴿يَهْدِي﴾ بأوامره ونواهيه أو تذكيراته الضالين المنصرفين عن جادة العدالة ﴿إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ﴾ الغالب، القادر المقتدر على انتقام المنحرفين عن منهج الرشاد ﴿الْحَمِيدِ﴾ [سبأ: 6] المستحق في ذاته لجميع المحامد والكرامات، لولا تحميد الناس له وتمجيدهم إياه، وصراطه هو التوحيد الذاتي المستلزم لتوحيد الصفات والأفعال، المنبئ عن إسقاط عموم الإضافات.

﴿وَ﴾ بعدما سمع المشركون عن رسول الله ﷺ من أحوال الحشر والنشر والمعاد الجسماني، وأهوال الفزع الأكبر ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: بعض لبعض على سبيل الاستهزاء والتهكم مع رسول الله ﷺ مستفهمين مستنكرين، متعجبين من قوله: ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ﴾ يعنون الرسول ﷺ، وإنما أنكروه لاستبعادهم قوله وإنكارهم على مقوله، وإنما يتحدثون به بينهم؛ لغرابته ﴿يُنَبِّئُكُمْ﴾ بالمحال العجيب ويخبركم بالممتنع الغريب معتقدًا إمكانه، بل جازمًا بوقوعه ووجوده، وهو أنكم ﴿إِذَا مُزِّقْتُمْ﴾ وفرقتم ﴿كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ أي: تفريقًا بليغًا وتشتيتًا شديدًا، إلى حيث صرتم هباء تذهب به الرياح

﴿إِنَّكُمْ﴾ بعدما صرتم كذلك ﴿لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾[1] [سبأ: 7] على النحو الذي كنتم عليها في حياتكم قبل موتكم بلا تفاوت، كما يتجدد الأعراض بأمثالها.

بعدما سمعتم قوله هذا، كيف تتفكرون في شأن هذا الرجل الذي يدعي النبوة والوحي والرسالة من عند الحكيم العليم، مع أنه صدر عنه أمثال هذه المستحيلات، أي شيء تظنون في أمره هذا؟!.

﴿أَفْتَرَى﴾ وكذب عن عمد ونسبه ﴿عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ تغريرًا وتلبيسًا على ضعفاء الأنام؛ ليقبلوا منه أمثال هذه الخرافات، ويعتقدوه رسولاً مخبرًا عن المغيبات وعجائب الأمور وغرائبه ﴿أَم بِهِ جِنَّةٌ﴾ خبط واختلال يعرض في دماغه، فيتكلم بأمثال هذه الهذيانات هفوة بلا قصد وشعور بها، كما يتكلم بأمثاله سائر المجانين، وسماه وحيًا وإلهامًا؟!.

ثم لما بالغ المشركون في قدحه ﷺ وتجهيله، رد الله عليهم بأنه لا افتراء في كلامه ﷺ وإخباره، ولا خبط في عقله؛ إذ هو ﷺ من أعقل الناس وأبعدهم عن الافتراء والمراء وأسلمهم عن الكذب وجميع الكدورات الطبيعية مطلقًا ﴿بَلِ﴾ الكافرون الضالون ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ والأمور التي أخبر الله بوقوعها فيها، ولا يصدقون أيضًا بما نطق به الكتب والرسل، مخلدون في النشأة الأخرى ﴿فِي الْعَذَابِ﴾ المؤبد المخلد ﴿وَ﴾ متوغلون في ﴿الضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾ [سبأ: 8] عن الهداية أبد الآباد، لا نجاة لهم منها، ومن شدة غيهم وضلالهم تكلموا بأمثال هذه الهذيانات الباطلة بالنسبة إلى من هو منزه عن أمثالها مطلقًا.

ثم أشار سبحانه إلى كمال قدرته واقتداره على انتقام المكذبين ليوم الحشر والجزاء والمفترين على رسوله ﷺ على سبيل الجزاء من الخبط والجنون، وغير ذلك من الأمور التي لا يليق بشأنه ﷺ، فقال مستفهمًا على سبيل التقريع والتوبيخ: ﴿أَ﴾ عموا وفقدوا أبصارهم أولئك المعاندون ﴿فَلَمْ يَرَوْا﴾ ولم ينظروا ويبصروا ﴿إِلَى مَا بَيْنَ

(1) قال في التأويلات: يشير إلى أن تراكم الغفلة على القلوب وظلمات الشهوات النفسانية وغلبات الصفات الذميمة الحيوانية إذا استولى أرخيت حجبها بين الروح والقلب، فيحرم القلب من الاستفادة بنور الروح ويسود بظلمات صفات النفس ويقسو حتى ينسى الله وينسى عالم الأرواح الذي هو الآخرة كالطفل الصغير يسير إلى بعض البلاد فينسى وطنه الأصلي بحيث لو ذكر به لم يتذكر كذلك نفس الإنسان القاسي قلبه إن ذكر الآخرة، وهي وطنه الأصلي لم يتذكر ويكفر به.

أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ﴾ المحيط بهم خلفًا ووراء ﴿وَالْأَرْضِ﴾ الممهدة لهم بين أيديهم، يتمكنون عليها ويتنعمون بمستخرجاتها وبما نزل عليها من السماء، ولم تتفكروا وتتأملوا أن إحياء الموتى أهون من خلق السموات العلا على إيجادهما أكمل من القدرة على إعادة المعدوم، فينكروا قدرتنا عليها مع أنهم يرون منا أمثال هذه المقدورات، ولم يخافوا من بطشنا وانتقامنا، ولم يعلموا أنَّا من مقام قهرنا وجودنا وجلالنا ﴿إِن نَّشَأْ﴾ إهلاكهم واستئصالهم ﴿نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ﴾ كما خسفنا على قارون وأمثاله ﴿أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا﴾ بالتحريك والتسكين على القراءتين؛ أي: قطعًا ﴿مِّنَ السَّمَاءِ﴾ فنهلكهم بها ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ البيان على وجه التقريع والتعيير ﴿لَآيَةً﴾ دالة على قدرتنا وقهرنا على انتقام من خرج عن ربقة عبوديتنا ﴿لِّكُلِّ عَبْدٍ﴾ تحقق بمقام العبودية وفوض أموره كلها إلينا ﴿مُّنِيبٍ﴾ [سبأ: 9] رجع إلينا وهرب عن مقتضيات قهرنا وجلالنا، بعدما عرف أن الكل منا بدأ، وبحولنا وقوتنا ظهر وعاد أيضًا كما بدأ؛ إذ منا المبدأ وإلينا المنتهى، وليس وراءنا مقصد ومرمى.

﴿۞ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (10) أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ۖ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (11) وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ ۖ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ (12) يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ ۚ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ (13) فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ (14)﴾ [سبأ: 10-14].

﴿وَ﴾ من كمال قدرتنا ووفور حكمتنا ﴿لَقَدْ آتَيْنَا﴾ عبدنا ﴿دَاوُودَ﴾ المتحقق بمقام الخلافة والحكومة التامة ﴿مِنَّا فَضْلًا﴾ له، وامتنانًا عليه مما لم نقض بأمثاله إلى سائر الأنبياء وهو أنَّا أمرنا الجمادات والحيوانات بإطاعته وانقياده إلى أن قلنا مناديًا لها: ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي﴾[1] أي: ارجعي ﴿مَعَهُ﴾ التسبيح، وسيري معه حيث سار، ولا

(1) قوله: «أَوِّبِي» العامة على فتح الهمزة، وتشديد الواو، أمراً من التأويب وهو الترجيع، وقيل:

تخرجي عن حِكمه، فانقادت له الجبال إلى حيث متى سبح، سُمع منها التسبيح والتذكير؛ وإلى حيث سار، سارت معه ﴿وَ﴾ كذا سخرنا له ﴿الطَّيْرَ﴾ وصارت تنقاد لحكمه وأمره كسائر العقلاء، فيحكم عليها ويأمرها، فامتثلت بأمره وأطاعت بحكمه بلا منع وإباء ﴿وَ﴾ من جملة فضلنا إياه: إنَّا ﴿أَلَنَّا لَهُ الحَدِيدَ﴾ [سبأ: 10] بلا نار ومطرقة، حيث جعلناه لينًا في يده كالشمعة، يبدله كيف يشاء بلا تعب ومشقة.

وبعدما ألنا له الحديد أمرناه ﴿أَنِ اعْمَلْ﴾ يا داوود بإرشادنا وتعليمنا ﴿سَابِغَاتٍ﴾ دروعًا واسعات ﴿وَقَدِّرْ﴾ أي ضيق وكثف ﴿فِي السَّرْدِ﴾ والنسج بقدر الحاجة، لا يمكن مرور السهام عنها أصلاً ﴿وَ﴾ بعدما آتيناه وأتباعه الملك والولاية التامة والنبوة العامة فضلاً وامتنانًا له أصالةً ولأصحابه تبعًا، قلنا لهم تعليمًا: ﴿اعْمَلُوا﴾ يا آل داوود ﴿صَالِحًا﴾ من الأعمال والأخلاق مقبولاً عندي، مرضيًا لدي ﴿إِنِّي﴾ بمقتضى علمي وإطلاعي ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من عموم الأعمال ﴿بَصِيرٌ﴾ [سبأ: 11] أنقد كلاً منها، أقبل صالحها وأرد فاسدها.

﴿وَ﴾ أيضًا من مقام فضلنا وجودنا سخرنا ﴿لِسُلَيْمَانَ﴾ بن داوود، عليهما السلام ﴿الرِّيحَ﴾ العاصفة، وجعلناها مسخرة تحت حكمه وتصرفه، بحيث تحمل كرسي سليمان وجنوده عليها وتسير إلى حيث أشار وشاء ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ﴾ أي جريها في الغداة مسيرة شهر ﴿وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ أيضًا كذلك ﴿وَ﴾ أيضًا من كمال جودنا إياه ﴿أَسَلْنَا﴾ وأذبنا ﴿لَهُ عَيْنَ القِطْرِ﴾ أي: النحاس، فذاب في معدنه، ونبع منه نبوع العيون الجارية في كل شهر ثلاثة أيام، قيل: أكثر ما في الناس من النحاس من ذلك.

﴿وَ﴾ سخرنا له أيضًا؛ عناية منا معه ﴿مِنَ الجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ مقهورًا تحت حكمه وتصرفه ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ أمرهم سبحانه بإطاعته وانقياده بحيث لا ينصرفون ولا يستنكفون عن حكمه أصلاً ﴿وَ﴾ شرط معهم سبحانه تأكيدًا لإطاعتهم إياه، أنه

التسبيح بلغة الحَبَشَة، وقال القُتَيبِيُّ: أصله من التأويل في السير وهو أن يسير النهار كله، وينزل ليلاً كأنه قال: أذأبي النَّهار كُلَّهُ بالتسبيح معه، وقال وهب: نوحي معه، وقيل: سيري معه، وقيل: سيري معه، والتضعيف يُحتمل أن يكون للتكثير، واختار أبو حيان أن يكون للتعدي قال: لأنهم فَسَّروه برجع مع التسبيح، ولا دليل فيه لأنه دليل معنى.

وقرأ ابنُ عباس والحَسَنُ وقتادةُ وابنُ أبي إسحاق: أُوبِي بضم الهمزة أمرًا من آبَ يَؤُوبُ أي ارجع معه بالتسبيح.

﴿وَمَن يَزِغْ﴾ أي: يعدل ويمل ﴿مِنْهُمْ﴾ أي: من الجن ﴿عَنْ أَمْرِنَا﴾ المبرم المحكم إياهم، وهو إطاعتهم نبينا سليمان ﷺ ﴿نُذِقْهُ﴾ في هذه النشأة ﴿مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [سبأ: 12] لأنه قد وكَّل سبحان على الجن ملكًا بيده سوط من نار، فمن مال منهم عن حكم سليمان ضربه به، فأحرقه ولا يراه الجني.

لذلك صاروا مقهورين تحت حكمه، أمرهم ما يشاء حيث ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ﴾ أي: مساجد لطيفة وحصون حصينة وأماكن منيعة، إنما سمي بها، يحارب عليها ويلتجأ إليها في الشدة ولدى الحاجة، ومن جملة ما عملوا له من المساجد الحصينة العجيبة: بيت المقدس، في غاية الحسن والبهاء وكمال المنعة، ولم يزل على عمارته ﷺ إلى أن خربه بختنصر ﴿وَتَمَاثِيلَ﴾[1] هي الصور من الزجاج ورخام ونحاس وصفر وشبهه، فكانوا يعملون صور الملائكة والأنبياء والصالحين في البقاع الشريفة والمساجد والمعابد؛ ترغيبًا للناس في دخولها والعبادة فيها وتنشيطًا، وقد عملوا له في أسفل كرسيه أسدين، وفي فوقه نسرين، فإذا أراد الصعود عليه بسط له الأسدان ذراعيهما فارتقى، وإذا تمكن عليه أظله النسران بجناحيهما، وحرمة التصاوير شرع مجدد ﴿وَجِفَانٍ﴾ أي: صحاف عظيمة وقصاع كبيرة وسيعة ﴿كَالْجَوَابِ﴾ أي: كالحياض الكبار، ومن غاية كبرها يقعد على كل جفنة عند الأكل ألف رجل ﴿وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ﴾ ثابتات على أثافيهن بحيث لا تنزل عنها؛ لثقلها وكبرها، وقيل: أثافيها متصلة بها، وكانت يُرتقى إليها بالسلالم.

وبعدما أعطى آل داوود من الجاه والثروة والعظمة ما لم يعط أحدًا من العالمين، قيل لهم من قبل الحق؛ تنبيهًا عليهم وحثًا لهم إلى مواظبة الشرك ومداومة الرجوع نحو المفضل الكريم: ﴿اعْمَلُوا﴾ يا ﴿آلَ دَاوُودَ﴾ عملاً صالحًا مرضيًا عند الله، ولاسيما اشكروا ﴿شُكْرًا﴾[2] مستوعبًا لجميع جوارحكم وجوانحكم وأوقاتكم وحالاتكم بحيث

---

(1) أي: مما يتوجه به إلى الله فإن الله تعالى اختص للشيطان بهذه الصفة من بين سائر المخلوقات أعني التوجه إلى الله والسجود له والإباء والاستكبار عن سجدة غيره، وهذا أخلص عبودية لله وأخص وصف وأشرفه في الموجودات إذا كان بإذن الله وأردى خصلة وأخس وصف وأخبثه إذا كان بالطبيعة وخلاف أمر الله وموجبًا للطرد واللعن. [التأويلات].

(2) يشير به إلى شكر داود الروح وسليمان القلب، ومن آله السر والخفي والنفس والبدن، فإن هؤلاء كلهم من متولدات الروح، فشكر البدن: استعمال الشريعة لجميع أعضائه وحول رجيه ومحال الحواس الخمس، ولهذا قال: ﴿وَاعْمَلُوا﴾، وشكر النفس: بإقامة شرائط التقوى والورع وشكر

لا يشذ عنكم وقت لم يصدر عنكم فيها شكر ﴿وَ﴾ اعلموا أنكم وإن بالغتم في أداء شكر نعم الله وبالغتم بمقتضى المرتبة القصوى منه، ما أديتم حق شكره؛ إذ ﴿قَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: 13] لأنه وإن استوفى واستوفر في أدائه إلى حيث يستوعب جميع أركانه وجوارحه وجوانحه وجميع خواطره وهواجس نفوسه وسره ونجواه، ومع ذلك لا يوفي حقه؛ لأن توفيقه وإقداره سبحانه عليه أيضًا نعمة مستحقة للشكر، مستدعية له لا إلى نهاية، ولذا قيل: الشكور من يرى نفسه عاجزًا عن الشكر؛ إذ لا يمكن الإتيان به على وجه لا يترتب عليه نعمة أخرى مستلزمة لشكر آخر.

ثم لما كان داوود ﷺ أسس بيت المقدس في موضع فسطاط موسى ﷺ، فمات قبل تمامه، فوصى بإتمامه إلى سليمان ﷺ، فاستعمل الجن فيه، فلم يتم أيضًا، إذا أخبر من قِبل الحق بأجله، فتغمم غمًا شديدًا بعدم إتمام البيت، فأراد أن يعمّي ويستر على الجن موته ليتموه، فأمرهم أن يعملوا له صرحًا من قوارير له باب، فعملوا له صرحًا كذلك.

فدخل عليه على مقتضى عادته المستمرة من التحنث والتخلي للعبادة شهرًا وشهرين وسنة وسنتين، فاشتغل بالصلاة متكئًا على عصاه، فقبض وهو متكئ عليها، فبقي كذلك إلى أن أكلت الأرضة عصاه، فخرَّ، ثم فتحوا عنه وأرادوا أن يعرفوا وقت موته، فوضعوا الأرضة على العصا، فأكلت يومًا وليلةً مقدارًا منها، فقاسوا على ذلك، فعلموا أنه قد مات منذ سنة، وكان عمره حينئذٍ ثلاثًا وخمسين سنة، وملك وهو ابن ثلاث عشرة سنة، وابتدأ لعمارة البيت لأربع مضين عن ملكه.

أخبر سبحانه في كتابه هذا، وحكاه على الوجه الذي مضى، وأوجزه فقال: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ﴾ أي: على سليمان ﴿الْمَوْتَ﴾ فأخبرنا له بموته، فدعا نحونا بأن نعمّي على الجن أمر موته؛ حتى يتموا عمارة البيت، فأعميناهم وسترنا عليهم موته إلى أن تم عمارة البيت، وبعدما تم ﴿مَا دَلَّهُمْ﴾ وما هداهم ﴿عَلَى مَوْتِهِ﴾ وما أخبرهم عنه ﴿إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ﴾ أي: الأرضة ﴿تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ﴾ أي: عصاه، وهو متكئ عليها ﴿فَلَمَّا﴾ أكلتها.

القلب لمحبة الله وخلوه عن محبة ما سواه، وشكر السر: مراقبة عن التفاته بغير الله، وشكر يبذل وجوده على نار المحبة كالفراش على شعلة الشمعة، وشكر الخفي قبول الفيض بلا واسطة في مقام الوحدة مختفيًا بنور الوحدة عن نفسه. [التأويلات].

انكسرت عصاه ﴿خَرَّ﴾ وسقط عليه السلام على الأرض، فحينئذ ﴿تَبَيَّنَتِ الجِنُّ﴾ أي: ظهر لهم وانكشفت عندهم أمر موته، وعلموا بعدما التبس الأمر عليهم موته بخروره وسقوطه، فظهر حينئذٍ للإنس أن الجن لم يكونوا مطلعين على الغيوب على ما زعموا في حقهم؛ لأنهم لو كانوا من المطلعين لعلموا موته أول مرة، ولم يعلموا مع ﴿أَن﴾ أي: أنهم؛ أي: الحق ﴿لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الغَيْبَ﴾ مطلقًا، لعلموا أمر موته حين وقع، ولو علموا ﴿مَا لَبِثُوا﴾ واستقروا ﴿فِي العَذَابِ المُهِينِ﴾ [سبأ: 14] الذي هو عذاب العمل المتضمن لأنواع المتاعب والمشاق، مع أنهم لم يرضوا به، لكنهم لبثوا وعملوا سنة بعد موته، فظهر أنهم ما كانوا عالمين بالغيوب.

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِى بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾﴾ [سبأ: 15-18].

وبعدما ذكر سبحانه قصة آل داوود وسليمان، ومواظبتهم على شكر نعم الله وأداء حقوق كرمه، أردف سبحانه بكفران أهل سبأ على نعمه سبحانه، وإنكارهم على حقوق كرمه، فقال: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ﴾ أي: لأولاد سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ﴿فِي مَسْكَنِهِمْ﴾ أي: مواضع سكناهم، وهي باليمن، يقال لها: مأرب، بقرب صنعاء، مسيرة ثلاث مراحل ﴿آيَةٌ﴾ عظيمة ونعمة جسيمة دالة على كمال معطيها وموجدها، وعلى اتصافه بالأوصاف الكاملة والأسماء الحسنى، وهي ﴿جَنَّتَانِ﴾[1] حافتان محيطتان ﴿عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ أي: جنة عجيبة عن يمين بلدهم، وأخرى عن يسارها.

---

(1) قال في التأويلات: أي: جنة الروح عن يمين السر وجنة القلب عن شمال السر، وذلك لأن السر لطيفة خلقت من بين الروح والقلب فما يرد من فيض الروح وداود الحق تعالى يصل إلى السر، ومنه يرد إلى القلب وما يصدر من القلب من أنوار الذكر والطاعات أو ظلمة أوصاف النفوس في معاملاتها يصعد إلى السر، ومن السر يصعد إلى الروح فالسر بين هاتين جنتين في رغد من العيش وسلامة من الحال، فأمر بالصبر على العاقبة والشكر على النعمة.

وبعدما أعطيناهم هاتين الجنتين المشتملتين على غرائب صنيعنا وبدائع مخترعاتنا، قلنا لهم على طريق الإلهام: ﴿كُلُوا﴾ أيها المتنعمون المتفضلون من عندنا ﴿مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ﴾ الذي رباكم بأنواع الكرامات ﴿وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ نعمه، وواظبوا على أداء حقوق كرمه مع أن بلدتكم التي تسكنون فيها ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ ماء وهواء، بريئة عن المؤذيات مطلقًا ﴿وَ﴾ ربكم الذي رباكم فيها بأنواع الكرم ﴿رَبٌّ غَفُورٌ﴾ [سبأ: 15] ساتر عليكم فرطاتكم بعدما أخلصتم في شكر نعمه وأداء حقوق كرمه.

وبعدما نبهنا عليهم بشكر النعم والمداومة عليها، لم ينتبهوا ولم يتفطنوا، بل ﴿فَأَعْرَضُوا﴾ عن الشكر، واشتغلوا بأنواع الكفران والطغيان والإنكار على المفضل المنان، المكرم الديان، وبعدما انصرفوا عنا وعن شكر نعمنا ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ وهي الحجارة المركومة بالجص والنورة، وأنواع التدبيرات المحكمة للأبنية والأساس.

وذلك أنه كان لهم سد قد بنته بلقيس بين الجبلين، وجعلت لها ثلاث كوات بعضها فوق بعض، وبنت دونها بركة عظيمة، فإذا جاء المطر اجتمع عليها مياه أوديتهم، فاحتبس السيل من وراء السد، فيفتح الكوة العليا عند الاحتياج، ثم الثانية، ثم الثالثة السفلى، فلا ينفد ماؤها إلى السنة القابلة.

فلما طغوا وكفروا لنعم الله بعدما أُمروا بالشكر على ألسنة الرسل، قيل: أرسل الله عليهم ثلاثة عشر نبيًا، فكذبوا الكل وأنكروا لهم، سلط الله على سدهم الجُرذ - قيل: هي نوع من الفأرة - فنقّبت في أسفل السد بإلهام الله إياها، فسال الماء، فغرقت جنتهم ودفنت بيوتهم في الرمل، وكان ذلك من غضب الله عليهم على كفران نعمه.

﴿وَ﴾ بعدما أعرضوا عن شركنا، وأرسلنا عليهم من السيل ما أرسلنا ﴿بَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ﴾ المذكورتين، المشابهتين للجنة الأخروية ﴿جَنَّتَيْنِ﴾ أخريين، سماهما سبحانه على سبيل التهكم والاستهزاء: ﴿ذَوَاتَيْ أُكُلٍ﴾ وثمر ﴿خَمْطٍ﴾ بشع سمج كزقوم أهل النار ﴿وَ﴾ ذواتي ﴿أَثْلٍ﴾ طرفاء لا ثمر لها ﴿وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ﴾ نبق ﴿قَلِيلٍ﴾ [سبأ: 16] أي: قليل النفع؛ إذ لا يسمن ولا يغني من جوع.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الجزاء الذي ﴿جَزَيْنَاهُم﴾ من تبديل النعمة والجنة جحيمًا، واللذة ألمًا ﴿بِمَا كَفَرُوا﴾ لنعمنا، وأنكروا لحقوق كرمنا؛ أي: بشؤم كفرانهم وطغيانهم، وكما غيروا الشكر بالكفران، بدلنا عليهم الجنان بالحرمان والخذلان، وبما كفروا لرسلنا وكذبوهم

بلا مبالاة لهم وبدعوتهم، وبجميع ما جاءوا به من عندنا إياهم ﴿وَهَلْ نُجَازِي﴾ بضم النون وكسر الزاي، بأمثال هذا الجزاء ﴿إِلَّا الْكَفُورَ﴾ [سبأ: 17] المعرض عن شكر نعمنا، الجاحد على حقوق لطفنا وكرمنا، والمبالغ في ستر الحق، المصر على الباطل الزاهق الزائل.

﴿وَ﴾ من كمال لطفنا وجودنا إياهم ﴿جَعَلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ أي: بين بلاد أهل سبأ ﴿وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ وكثرنا الخير على ساكنيها بتوسعة الأرزاق والفواكه والمتاجر، وهي: أرض الشام ﴿قُرًى ظَاهِرَةً﴾ متواصلة متظاهرة، يُرى كل من الأخرى مترادفة على متن الطريق؛ تسهيلاً لهم، ليتجروا بلا كلفة وتعب ﴿وَقَدَّرْنَا﴾ لهم ﴿فِيهَا السَّيْرَ﴾ أي: في تلك القرى المترادفة على قدر مقيلهم ومبيتهم غاديًا ورائحًا، بحيث لا يحتاجون إلى حمل زاد وماء؛ لقرب المنازل والخصب والسعة، وبعدما أعطيناهم هذه الكرامات، قلنا لهم على ألسنة الرسل المبعوثين إليهم أو إلهامًا لهم بلسان الحال: ﴿سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا﴾ على التعاقب والتوالي حيث شئتم لحوائجكم ومتاجركم ﴿آمِنِينَ﴾ [سبأ: 18] عن جميع المؤذيات، مصونين عن كيد الأعداء، شاكرين لنعمنا، غير كافرين عليها.

﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ۚ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا الْحَقَّ ۖ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾ [سبأ: 19-23].

وبعد توجه الفقراء إلى ديارهم، وازدحموا لكمال الخصب والرفاهية والمعيشة الوسيعة وسهولة الطريق ﴿فَقَالُوا﴾ مشتكين إلى الله من مزاحمة الفقراء وإلمامهم عليهم، كافرين لنعمة التوسعة والسهولة: ﴿رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ﴾ منازل ﴿أَسْفَارِنَا﴾ حتى نحتاج إلى حمل الزاد وشد الرواحل؛ ليشق الأمر على الفقراء، فيتنحوا عنا ولم

يزدحموا علينا ﴿وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ بطلب هذا التعب، فأجاب الله دعاءهم، وخرب القرى التي بينهم وبين الشام، وانصرف الفقراء عنهم، وانقطع دعاؤهم لهم، فاشتد الأمر عليهم، وتشتتوا في البلاد، ولم يبق عليهم شيء من التوسعة والرفاهية، بل صاروا متفرقين مشتتين ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ﴾ أي: قصة أمنهم ورفاهيتهم وجمعيتهم، بعدما عكسنا الأمر عليهم ﴿أَحَادِيثَ﴾ لمن بعدهم، يتحدثون بينهم، متعجبين قائلين على سبيل التحسر في أمثالهم: «تفرق أيدي سبأ».

﴿وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ أي: فرقناهم في البلاد تفريقًا كليًا إلى حيث لحق غسان منهم بـ «الشام»، وأنمار بـ «يثرب»، وجذام بـ «تهامة»، والأزد بـ «عمان» ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ التبديل والتشتيت، وأنواع المحن والنقم بعد النعم ﴿لَآيَاتٍ﴾ دلائل واضحات على قدرة القدير الحكيم العليم، المقتدر على الإنعام والانتقام ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ على المتاعب والمشاق الواردة عليه بمقتضى ما ثبت له في لوح القضاء، ومضى على الرضا بمقتضيات الحكيم العليم ﴿شَكُورٍ﴾ [سبأ: 19] لنعم الله الفائضة عليه، مواظب أداء حقوقه.

ثم قال سبحانه مقسمًا: ﴿وَ﴾ الله ﴿لَقَدْ صَدَّقَ﴾ - بالتشديد والتخفيف - ﴿عَلَيْهِمْ﴾ أي: على هؤلاء الهالكين في تيه الخسران والكفران ﴿إِبْلِيسُ﴾ العدو لهم، المصر المستمر على عداوتهم من مبدأ فطرتهم ﴿ظَنَّهُ﴾ الذي ظن بهم حين قال لأبيهم آدم: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: 62] وقوله: ﴿لَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: 17] وقوله: ﴿لَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ [النساء: 119] إلى غير ذلك، وبعدما أضلهم عن طريق الشكر والإيمان ﴿فَاتَّبَعُوهُ﴾ كفروا النعم والمنعم جميعًا ﴿إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ: 20] الموقنين بتوحيد الله، المصدقين لرسله، المتذكرين لعداوته المستمرة، فانصرفوا عنه وعن إضلاله، فبقوا سالمين عن غوائله.

﴿وَ﴾ العجب كل العجب أنهم اتبعوا له وقبلوا إغواءه وإغراءه وتغريره، مع أنه ﴿مَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ﴾ حجة قاهرة غالبة ملجئة لهم إلى متابعته وقبول وسوسته من قبله، بل من قبلنا أيضًا، وما ابتلينا وأغرينا هؤلاء البغاة بمتابعته - لعنه الله - ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ ونميز ونظهر التفرقة بين ﴿مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ﴾ وبجميع المعتقدات التي أخبرها الله بها ﴿مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا﴾ أي: من النشأة الآخرة، والأمور الكائنة فيها ﴿فِي شَكٍّ﴾ تردد وارتياب، ولهذه التفرقة والتمييز، أتبعناهم إليه ﴿وَ﴾ لا تستبعد يا أكمل

الرسل أمثال هذه الابتلاءات والاختبارات من الله؛ إذ ﴿رَبُّكَ﴾ الذي رباك على الهداية العامة ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من مقدوراته ومراداته الكائنة والتي ستكون، والجارية على سرائر عباده وضمائرهم، والتي ستجري ﴿حَفِيظٌ﴾ [سبأ: 21] شهيد، لا يغيب عنه إيمان مؤمنٍ، وكفر كافر، وشكر شاكر، وشك شاك، وإخلاص مخلص.

وبعدما أثبت المشركون المصرون على كفران نعم الله أمثال هؤلاء الغواة المذكورين آلهة سوى الله سبحانه، وسموهم شفعاء وعبدوا لهم مثل عبادته سبحانه ﴿قُلِ﴾ لهم يا أكمل الرسل إلزامًا وتبكيتًا: ﴿ادْعُوا﴾ أيها الضالون المشركون الآلهة ﴿الَّذِينَ زَعَمْتُم﴾ وأثبتم ﴿مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ ليستجيبوا لكم في مهماتكم، ويستجلبوا لكم المنافع، ويدفعوا عنكم المضار، كما هو شأن الألوهية والربوبية، وكيف تدعونهم لأمثال هذه المهام مع أنهم ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ لأنفسهم ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ من الخير والشر والنفع والضر، لا ﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ لا استقلالاً؛ إذ هم ليسوا قابلين للألوهية ﴿وَ﴾ لا مشاركة؛ إذ ﴿مَا لَهُمْ فِيهِمَا﴾ أي: في خلقهما وإيجادهما ﴿مِن شِرْكٍ﴾ مشاركة مع الله في ألوهيتهم؛ لأنهم من جملة مخلوقاته، بل من أدناها، ولا شركة للمخلوق مع خالقه ﴿وَ﴾ لا مظاهرة؛ إذ ﴿مَا لَهُ﴾ سبحانه ﴿مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ [سبأ: 22] ولا من غيرهم أيضًا، معاون له في ألوهيته وربوبيته؛ إذ هو سبحانه منزه عن المعاونة والمظاهرة مطلقًا.

﴿وَ﴾ كذلك ليس لهم عنده سبحانه شفاعة مقبولة حتى يشفعوا لهم ويخلصوهم من عذاب الله بعدما نزل عليهم؛ إذ ﴿لَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ﴾ سبحانه من أحد من عباده ﴿إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ بالشفاعة لغيره؛ لاتصافه بالكمال، أو بشفاعة الغير من الشرفاء له؛ لاستحقاقه بالكرامة وإن كان منغمسًا بالرذالة، وبعدما وقعت الشفاعة وأذن بها من عنده سبحانه، ينتظر الشافعون المشفعون بعد وقوعها وجلين، خائفين مهابة من سطوة سلطنة جلاله سبحانه ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ﴾ وكشف الفزع، وأزيل الخوف والوجل ﴿عَن قُلُوبِهِمْ﴾ أي: قلوب الشافعين والمشفوعين ﴿قَالُوا﴾ أي: بعضهم لبعض، أو المشفوعون للشافعين: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ في جواب شفاعتكم، أيقبلها أم يردها؟ ﴿قَالُوا﴾ أي: الشفعاء: القول ﴿الْحَقَّ﴾ الثابت عنده، المرضي دونه، وهو سبحانه يقبل شفاعتنا في حقكم، وأزال عنكم عذابه ﴿وَ﴾ كيف لا يخافون من الله ولا يهابون - أي: الشفعاء - عن ساحة عز حضوره؛ إذ ﴿هُوَ﴾ سبحانه ﴿الْعَلِيُّ﴾ ذاته وشأنه، المقصور المنحصر

على العلو، لا أعلى إلا هو ﴿الْكَبِيرُ﴾ [سبأ: 23] بحسب أوصافه وأسمائه؛ إذ الكبرياء رداءه، لا يسع لأحد أن يتردى به سواه.

﴿ ۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ قُلِ اللَّهُ ۖ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [سبأ: 24-30].

﴿قُلْ﴾ لهم أيضًا على سبيل التبكيت والإلزام، مقرعًا إياهم: ﴿مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَوَاتِ﴾ أي: عالم الأسباب ﴿وَالْأَرْضِ﴾ أي: عالم المسببات، فيبهتون عن سؤالك ﴿قُلِ﴾ يا أكمل الرسل بعدما بهتوا: ﴿اللَّهُ﴾ إذ هو متعين للجواب وإن سكتوا عنه وتلعثموا مخافة الإلزام، أضمروا في قلوبهم هذا؛ إذ لا جواب لهم سواه، ولا رازق إلا هو ولا معطي غيره ﴿وَ﴾ بعدما بهتوا وانحسروا، واستولى الحيرة والقلق عليهم، قل لهم على سبيل المجاراة والمداراة: ﴿إِنَّا﴾ يعني: فرق الموحدين ﴿أَوْ إِيَّاكُمْ﴾ يعني: فرق المشركين؛ أي: كل منا ومنكم ﴿لَعَلَى هُدًى﴾ أي: على الحق المطابق للواقع ﴿أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ [سبأ: 24] ظاهر انحرافه، موصل إلى الباطل الزاهق الزائل، المضاد للحق الحقيق بالمتابعة والانقياد.

﴿قُلْ﴾ لهم أيضًا على سبيل المجاراة والمبالغة في المداراة معهم، بحيث تسند الجرم إلى أنفسكم والعمل إليهم؛ مبالغة في الإسكات والتبكيت: ﴿لَا تُسْأَلُونَ﴾ أنتم ﴿عَمَّا أَجْرَمْنَا﴾ وجئنا به من الآثام ﴿وَلَا نُسْأَلُ﴾ نحن أيضًا ﴿عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [سبأ: 25] من الأعمال، بل كل منا ومنكم رهين ما اكتسبنا من العمل، فعليكم ما حملتم، وعلينا ما حملنا.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل أيضًا على طريق الملاينة والملاطفة في الإلزام والتبكيت: ﴿يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾ وبينكم ﴿رَبُّنَا﴾ يوم نحشر إليه ونعرض عليه ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ﴾ أي: يحكم

ويفصل ﴿بَيْنَنَا﴾ ويرفع نزاعنا ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي: العدل السوي بلا حيف وميل، فيساق المحقون نحو الجنة والمبطلون نحو النار ﴿وَ﴾ كيف لا يحكم ويفصل سبحانه ﴿هُوَ الْفَتَّاحُ﴾ لمعضلات الأمور، الحاكم لمعلقات القضايا ﴿الْعَلِيمُ﴾ [سبأ: 26] الذي يكتنه عنده كل معلوم، ولا يشتبه عليه شيء منها.

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل بعدما أشبعت الكلام على إسكاتهم وإلزامهم: ﴿أَرُونِيَ﴾ وأخبروني أيها المشركون ﴿الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ﴾ أي: بالله سبحانه، وادعيتموه ﴿شُرَكَاءَ﴾ معه، مستحقين للعبادة مثله، وأخبروني عن أخص أوصافهم التي بها يستحقون الألوهية والمعبودية، لا تأمل أيضًا في شأنهم والتدبر في حقهم، ثم رد عليهم سبحانه؛ ردعًا لهم وزجرًا عما هم عليه، وإرشادًا لهم إلى ما هو الحق الحقيق بالاتباع، فقال: ﴿كَلَّا﴾ أي: ارتدعوا أيها المشركون، المسرفون عن دعوى الشركة مع الله الواحد الأحد الصمد، الفرد الوتر، الذي ليس له شريك ولا نظير ولا وزير ولا ظهير ﴿بَلْ هُوَ اللَّهُ﴾ الواحد الأحد، المستقل بالألوهية والربوبية، بل هو في الوجود والتحقق ﴿الْعَزِيزُ﴾ الغالب القادر الظاهر على من دونه من الأظلال الهالكة المضمحلة، المتلاشية في شمس ذاته، المتشعشعة المتجلية حسب أسمائه وصفاته ﴿الْحَكِيمُ﴾ [سبأ: 27] المتقن في أفعاله المترتبة على علمه وإرادته وقدرته، يفعل ما يشاء إرادة واختيارًا، ويحكم ما يريد استقلالاً، ليس لأحد أن يتصرف في ملكه وملكوته.

﴿وَ﴾ بعدما ثبت ألَّا معبود في الوجود سوانا، ولا مستحق للعبادة غيرنا، فاعلموا أنَّا ﴿مَا أَرْسَلْنَاكَ﴾ يا أكمل الرسل بعدما انتخبناك من بين البرايا واصطفيناك منهم ﴿إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾ أي: رسالة عامة، شاملة لقاطبة الأنام؛ لتكفهم عن جميع الآثام، وتمنعهم عن مقتضيات نفوسهم ومشتهيات قلوبهم مما يعوقهم عن سبل السلامة وطرق الاستقامة، وبعدما أرسلناك إليهم، صيرناك عليهم ﴿بَشِيرًا﴾ تبشرهم إلى درجات الجنان، والفوز بلقاء الرحمن ﴿وَنَذِيرًا﴾[1] تنذرهم وتبعدهم عن دركات النيران وأنواع

(1) قال في التأويلات: يشير إلى أن إرسال ماهية وجودك التي عبرت عنها مرة بنورك وتارة بروحي من كتم العدم إلى عالم الوجود لم يكن منا إلا ليكون بشيرًا ونذيرًا للناس كافة من أهل الأولين والآخرين والأنبياء والمرسلين، وإن لم يخلقوا بعد لاحتياجهم بك من بدأ الوجود في هذا الشأن وغيره إلى الأبد، كما قال ﷺ: «الناس يحتاجون إلى شفاعتي حتى إبراهيم» فأما في بدأ وجودهم فالأرواح لما حصلت في عالم الأرواح بإشارة كن، تابعين لروحك احتاجت إلى أن

العذاب والحرمان ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ المجبولين على الكفران والنسيان ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ: 28] حكمة الإرسال والإرشاد والهداية إلى سبيل الصواب والسداد، لذلك عاندوا معك وكذبوك وأنكروا بكتابك، وبجميع ما جئت به من عندنا عنادًا ومكابرة.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ لك منكرين متهكمين، بعدما وعدتهم بقيام الساعة وبعث الموتى من قبورهم، وحشر الأموات من الأجداث: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ الذي وعدتنا به، عيّنوا لنا وقت وقوع الموعود ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [سبأ: 29] في وعدكم ودعواكم، هذا يعنون بالخطاب رسول الله ﷺ والمؤمنين جميعًا.

﴿قُل﴾ يا أكمل الرسل في جوابهم بعدما اقترحوا على سبيل الإنكار: يناجي ﴿لَّكُم﴾ أيها المنكرون للبعث بغتة ﴿مِّيعَادُ يَوْمٍ﴾ أي: وعده أو زمانه بحيث ﴿لَّا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ [سبأ: 30] أي: لا يسع لكم متى فاجأكم أن تطلبوا التأخر عنه آنًا أو التقدم عليه طرفةً.

يكون لها بشيرًا ونذيرًا؛ لتعلقها بالأجسام لأنها علوية بالطبع لطيفة روحانية، والأجسام سفلية بالطبع كثيفة ظلمانية لا يتعلق بها، ولا يميل إليها لفسادة بينهما، فيحتاج إلى بشيرها يبشرها بحصول كمال لها عند الأتقال بها لترغب إليها وتحتاج إلى نذير تنذرها بأنها إن لم تتعلق بالأجسام يحرم عن كمالها، وتبقى ناقصة غير كاملة مثل حبة فيها شجرة مركوزة بالقوة، وإن تزرع وتربي بالماء تخرج الشجرة من القول إلى الفعل إلى أن تبلغ كمالها بشجرة مثمرة، فالروح بمثابة البذر، والقالب بمثابة الأرض، والشخص الإنساني بمثابة الشجرة، والتوحيد والمعرفة ثمرتها الشريفة بمثابة الماء لتربيتها والبشير والنذير بمثابة المربي، فبعد تعلق الروح بالقالب واطمئنانه إليه واتصافه بصفة يحتاج إلى بشير بحسب مقامه يبشره بنعيم الجنة وملك لا يبلى، ثم يبشره بقرب الحق تعالى ويشوقه إلى جماله ويعده بوصاله وبنذير ينذره أولاً بنار جهنم يوعده بالبعد عن الحق، ثم بالقطيعة والهجران، وإذا أمعنت النظر وجدت شجرة الموجودات منبتة من بذر روحه ﷺ وهو ثمرة هذه الشجرة مع جميع الأنبياء والمرسلين، وأنهم وإن كانوا ثمرة هذه الشجرة أيضًا ولكن وجدوا هذه المرتبة بتبعية كماله لا من بذر واحد يظهر على الشجرة ثمار كثيرة بتبعية ذلك البذر الواحد فيجد كل بشير ونذير فرعًا لأصل بشريته ونذيريته، والذي يدل على هذا التحقيق قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء:107] دخلت شجرة الموجودات كلها تحت الخطاب وبقوله: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم:6] يشير إلى أن أكثر الناس الذين هم أجزاء وجود الشجرة، وما وصلوا إلى رتبة الثمرية لا يعلمون حقيقة ما قدرنا؛ لأن أحوال الثمرة ليست معلومة للشجرة إلا لثمرة مثلها ووصفها ليكون واقفًا بحالها.

وبالجملة: قيام الساعة إذا حل عليكم، لا يمكنكم هذا، ولذا قيل: الموت هو القيامة الصغرى، وقال ﷺ: «من مات فقد قامت قيامته»[1].

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [سبأ: 31-33].

﴿وَ﴾ من كمال غيظ المشركين معك يا أكمل الرسل وشدة إنكارهم على كتابك؛ بسبب اشتماله على الأوامر والنواهي الشاقة والتكاليف الشديدة، وبما أخبر فيه من قيام الساعة وأهوال الفزع الأكبر والطامة الكبرى ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: ستروا الحق وأعرضوا عن مقتضاه: ﴿لَن نُّؤْمِنَ﴾ ونصدق أبدًا ﴿بِهَٰذَا الْقُرْآنِ﴾ وبما فيه من الإنذارات والتخويفات، سيما حشر الأجساد وإعادة المعدوم بعينه ﴿وَلَا﴾ نصدق أيضًا ﴿بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب السالفة المشتملة على ذكر القيامة.

وذلك أنهم فتشوا عن أخبار اليهود والنصارى، وجميع من أنزل إليهم الكتب، فسمعوا منهم أنه ذكر في كتابهم نعت محمد ﷺ ووصف كتابه، وذكر الحشر والنشر، وجميع المعتقدات الأخروية؛ لذلك بالغوا في تكذيب الكتب رأسًا، وصرفوا الناس أيضًا عن تصديقها والإيمان بها وبمن أنزل إليهم، سيما بالقرآن وبمحمد ﷺ ﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾ أيها الرائي لرأيت أمرًا فظيعًا فجيعًا ﴿إِذِ الظَّالِمُونَ﴾ الخارجون عن ربقة العبودية بتكذيب الرسل وإنكار الكتب وما فيها من أحوال النشأة الأخرى، سيما بالقرآن وبمحمد ﷺ ﴿مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ محبوسون يوم العرض للحساب ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ﴾ أي: يتجاورون فيما بينهم ويتراجعون في الأقوال، ويتلاومون

(1) رواه البخاري (2387/5).

ويتلاعنون فيها، حيث ﴿يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا﴾ من الأتباع المتسمين بذل التبعية ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ من المتبوعين المتعززين بعز الرئاسة: ﴿لَوْلَا أَنتُمْ﴾ موجودون مقتدون بيننا ﴿لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ: 31] موقنين بتوحيد الله، مصدقين لرسله وكتبه، وبجميع ما جرى على ألسنة الرسل والكتب.

ثم ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ أي: المتبوعون المتعظمون بعز الرئاسة والثروة والسيادة ﴿لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا﴾ أي: الأتباع السفلة: ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ﴾ أي: لم نكن صادّين، صارفين لكم عن الإيمان بالرسل والكتب ﴿بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم﴾ الرسل بالكتب المشتملة على الهدى والبينات، ودعوكم إلى الإيمان، ونحن ما صددنا إلا نفوسنا بلا تغرير وتضعيف منا إياكم ﴿بَلْ كُنتُم﴾ حينئذ ﴿مُّجْرِمِينَ﴾ [سبأ: 32] تاركين الإيمان والهداية تقليدًا علينا بلا صد منّا.

﴿وَقَالَ﴾ الضعفاء ﴿الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾: لم يكن إضلالكم إيّانا وتغريركم علينا منحصرًا في الصد والذب باللسان والأركان ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أي: مكركم وحيلتكم في تضليلنا دائمًا مستوعبًا للأيام والليالي، ليس مخصوصًا بوقت دون وقت؛ لأنكم رؤساء بيننا، أصحاب الثروة فينا، فتخدعون بنا قولاً وفعلاً، وتميل قلوبنا إلى ما أنتم عليه ﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ﴾ وتوحيده وننكر رسله وكتبه ﴿وَنَجْعَلَ لَهُ﴾ أي: نثبت ونعتقد لله الواحد الأحد، المنزه عن الشريك ﴿أَندَادًا﴾ شركاء معه في استحقاق العبادة والإطاعة والتوجه والرجوع في مطلق المهام.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿أَسَرُّوا﴾ أي: أظهروا وأخفوا ﴿النَّدَامَةَ﴾ على ما فات عنهم ﴿لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ النازل عليهم بما صدر عنهم في النشأة الأخرى، أظهروا الندامة؛ تحسرًا وتحزنًا، أو أخفوها؛ مخافة التعيير والتقريع ﴿وَ﴾ بعدما أردنا تعذيبهم ﴿جَعَلْنَا الْأَغْلَالَ﴾ الممثلة لهم من تعديهم وظلمهم بالخروج عن مقتضى الحدود الإلهية ﴿فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بتوحيد الله، وأثبتوا له أندادًا، وأنكروا لكتبه ورسله تابعًا ومتبوعًا، ضالاً ومضلاً، وقلنا لهم توبيخًا وتعييرًا: ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ﴾ هؤلاء البعداء عن ساحة عز القبول ﴿إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سبأ: 33] أي: ما يجازون إلا بمقتضى أعمالهم وأفعالهم، وعلى طبقها على مقتضى العدل الإلهي.

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٤﴾

وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [سبأ: 34-39].

﴿وَ﴾ كيف لا نأخذهم بشؤم أعمالهم وأفعالهم؛ إذ ﴿مَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ﴾ من القرى الهالكة ﴿مِّن نَّذِيرٍ﴾ من النذر المبعوثين لإصلاح مفاسدهم ﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا﴾ أي: متنعموها، للرسل من فرط عتوهم وعنادهم، اتكاءً على ما عندهم من الجاه والثروة على سبيل التأكيد والمبالغة: ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ﴾ أي: بجميع ما أرسلتم أيها المدعون للرسالة والهداية والدعوة العامة، وإقامة الحدود بين الأنام ﴿كَافِرُونَ﴾ [سبأ: 34] جاحدون منكرون، لا نقبل منكم أمثال هذه الخرافات.

﴿وَقَالُوا﴾ مفتخرين بما عندهم من الجاه والثروة: نحن أولى بما ادعيتم من النبوة والرسالة؛ إذ ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلادًا﴾ إذ بالأموال تنال كل مطلوب، وبالأولاد يظاهر على كل ملمة ومكروه ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: 35] لا في الدنيا لما سمعت من كرامة الأموال والأولاد، ولا في الآخرة أيضًا إن فرض وقوعها؛ لأنّا قوم أكرمنا الله بها في الدنيا، فكذا يكرمنا في الآخرة.

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل بعدما بالغوا في الافتخار والمباهاة بما عندهم من حطام الدنيا ومتاعها: ﴿إِنَّ رَبِّي﴾ القادر المقتدر على الإنعام والانتقام ﴿يَبْسُطُ﴾ ويكثر ﴿الرِّزْقَ﴾ الصوري الدنيوي ﴿لِمَن يَشَاءُ﴾ من عباده؛ اختبارًا لهم وابتلاءً ﴿وَيَقْدِرُ﴾ أي: يقل ويقبضه على من يشاء؛ تيسيرًا له وتسهيلاً عليه حسابه ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ المجبولين على السهو والنسيان ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ: 36] حكمة قبضه وبسطه؛ لذلك يفرحون بوجوده ويحزنون بعدمه، ولم يتفطنوا أن وجوده يورث حزنًا طويلاً وعذابًا أليمًا، وعدمه يوجب أنواع الكرامات ونيل المثوبات.

ثم قال سبحانه تقريعًا على المفتخرين بالأموال والأولاد: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا

أَوْلَادُكُم﴾ أيها المغرورون بهما، المحرومون عن اللذات الأخروية بسببهما، إلا وسيلة وواسطة ﴿بِالَّتِي﴾ أي: بالخصلة الحسنة التي ﴿تُقَرِّبُكُمْ﴾ أيها المأمورون بالتقرب إلينا بالأعمال المقبولة ﴿عِندَنَا زُلْفَى﴾ أي: تقريبًا مطلوبًا لكم، مصلحًا لأحوالكم وأعمالكم ومواجيدكم ﴿إِلَّا مَنْ آمَنَ﴾ منكم أيها المتمولون المتكثرون للأولاد، وأيقن بتوحيده سبحانه وصدق رسله وكتبه ﴿وَعَمِلَ﴾ عملاً ﴿صَالِحًا﴾ مقبولاً عند الله، متقربًا إليه سبحانه، بأن أنفق ماله في سبيل الله طلبًا لمرضاته، وعلّم أولاده علم التوحيد والأحكام والعقائد المتعلقة بدين الإسلام ﴿فَأُوْلَئِكَ﴾ السعداء المقبولون عند الله، المبسوطون من عنده بالرزق الصوري في هذه النشأة ﴿لَهُمْ﴾ في النشأة الأخرى ﴿جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا﴾ أي: جزاؤهم من الرزق المعنوي أضعاف ما استحقوا بأعمالهم إلى العشرة، بل إلى ما شاء الله من الكثرة، بل ﴿وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ﴾ المعدة لأهل الجنة في الجنة ﴿آمِنُونَ﴾ [سبأ: 37] مصونون عن جميع المؤذيات والمكروهات.

ثم قال سبحانه: ﴿وَ﴾ الكافرون المنكرون المكذبون رسلنا وكتبنا ﴿الَّذِينَ يَسْعَوْنَ﴾ ويجتهدون ﴿فِي﴾ قدح ﴿آيَاتِنَا﴾ الدالة على عظمة ذاتنا، وكمال أسمائنا وصفاتنا، وعلى الأحكام الجارية بين عبادنا، المتعلقة لأحوالهم في النشأتين حال كونهم ﴿مُعَاجِزِينَ﴾ قاصدين عجزنا عن إقامة الحدود بين العباد، واتخاذ العهود منهم، ووضع التكاليف والأحكام والآداب بينهم ﴿أُوْلَئِكَ﴾ البعداء، الطاعنون لآياتنا الكبرى، الغافلون عن فوائدها العظمى ﴿فِي الْعَذَابِ﴾ المؤبد المخلد ﴿مُحْضَرُونَ﴾ [سبأ: 38] لا يتحولون عنها ولا يغيبون.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل للمسرفين المنحرفين عن جادة العدالة الإلهية، متكئين بما عندهم من الأموال والأولاد الفانية الزائلة، مفتخرين بها تفوقًا وتبجحًا: ﴿إِنَّ رَبِّي﴾ العليم، المطلع على جميع استعدادات العباد، الحكيم في إفاضة ما يليق لهم ﴿يَبْسُطُ﴾ يزيد ويفيض ﴿الرِّزْقَ﴾ الصوري ﴿لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ تارة على مقتضى مشيئته ومراده ﴿وَيَقْدِرُ لَهُ﴾ أي: ينقص ويقبض الرزق عنه مرة أخرى إرادةً واختيارًا على مقتضى حكمته ومصلحته التي استأثر الله بها في غيبه وحضرة علمه ﴿وَ﴾ بعدما سمعتم هذا اعلموا أيها المبسوطون المنعمون ﴿مَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ﴾ استخلفكم الله سبحانه عليه من الرزق، وأمركم بإنفاقه على فقرائه ﴿فَهُوَ﴾ سبحانه ﴿يُخْلِفُهُ﴾ ويعوض عنه بأضعافه وآلافه، إن صدر عنكم الإنفاق بالاعتدال بلا تبذير وتقتير ﴿وَ﴾ كيف لا

يخلف سبحانه الرزق الصوري لخلّص عباده مع أنه ﴿هُوَ﴾ سبحانه ﴿خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سبأ: 39] بالرزق الصوري والمعنوي، المخلص لهم عن مقتضيات بشريتهم ومشتهيات أهويتهم البهيمية.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾﴾ [سبأ: 40-43].

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل لمن عبد الملائكة واتخذوهم أربابًا من دون الله مستحقين للعبادة والرجوع في الملمات مثله سبحانه، وسموهم شفعاء ﴿يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ في المحشر ﴿جَمِيعًا﴾ العابدون والمعبودون ﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ﴾ على رءوس الأشهاد، وتفضيحًا للعابدين، وتقريعًا لهم: ﴿أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾[1] [سبأ: 40] يعني: أهؤلاء المسرفون المشركون يعبدون إياكم كعبادتي، بل يخصونكم بالعبادة ويهتمون بشأنكم، هل تستعبدونهم وتسترضون عبادتهم وتوالون معهم، أم يعبدونكم من تلقاء نفوسهم؟!.

﴿قَالُوا﴾ أي: الملائكة خائفين من بطشه سبحانه، مستحيين، متضرعين نحو

---

(1) يبشرون الملائكة منهم وينزهون الله ويقولون سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن كذلك من يعبد الله بقول الوالدين والأستاذين أو أهل بلده أو بالتعصب والهوى كما يعبدون اليهود والنصارى والصابئون والمجوس وأهل البدع والأهواء يتبرأ منه ويقول: أنا منزه من أن أعبد، يقول: من يعبدني بالهوى أو أعبد بالهوى فإن من عبدني بالهوى فقد عبد الهوى ومن عبدني بإعانة أهل الهوى إياه على تعبدي فقد عبد أهل الهوى لأنه ما عبدني مخلصًا كما أمرته ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة:5] ولهذا المعنى أمرنا الله ﷻ أن نقول في عبادته في الصلاة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة:5] أي: لم نعبد غيرك ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:5] على عبادتك لنعبدك بإعانتك لا بإعانة غيرك. [التأويلات].

جنابه: ﴿سُبْحَانَكَ﴾ ننزهك يا مولانا عما لا يليق بشأنك ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ وأنت المراقب علينا، المطلع على سرائرنا وضمائرنا، المتولي لجميع ما صدر عنا، وأنت تعلم يا مولانا ألّا موالاة بيننا وبينهم؛ إذ لا يخفى عليك خافية، ومن أين يسع لنا ويتأتى منا الرضا بأمثال هذه الجرأة والجرائم العظيمة، وأنت أعلم يا مولانا بمعبوداتهم التي اتخذوها هؤلاء الغواة الطغاة، الهالكون في تيه الجهل والغفلة؛ لعلو شأنك وشأن ألوهيتك وربوبيتك ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾ أي: الشياطين الداعين لهم إلى عبادتهم، الراضين بها؛ لأنهم يتمثلون بصور الملائكة، ويدعون الألوهية والربوبية لأنفسهم، ويأمرونهم بالعبادة لأنفسهم، بل ﴿أَكْثَرُهُم﴾ أي: كل المشركين، وجملة المتخذين أندادًا لله ﴿بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: 41] أي: بالشياطين، عابدون لهم، متوجهون نحوهم في عموم مهامهم.

﴿فَالْيَوْمَ﴾ تبلى السرائر، وظهر ما في الضمائر، ولاح سلطان الوحدة الذاتية، وانقهر الأظلال الأغيار، وظهر أن الأمور كلها مفوضة إليه سبحانه، وإن كان قبل ذلك أيضًا، كذلك ﴿لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ﴾ أيها الأظلال المستهلكة في شمس الذات ﴿لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ لا جلبًا ولا دفعًا، ولا لطفًا ولا قهرًا ﴿وَ﴾ بعدما انقطع عنهم التصرف مطلقًا، لا معنى ولا صورة، ولا مجازًا ولا حقيقة ﴿نَقُولُ﴾ على مقتضى قهرنا وجلالنا ﴿لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وخرجوا عن ربقة عبوديتنا ومقتضيات حدودنا الموضوعة لإصلاح أحوال عبادنا: ﴿ذُوقُوا﴾ أيها الضالون المنهمكون في بحر العدوان والطغيان ﴿عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [سبأ: 42] في نشأتكم الأولى بعدما أُخبرتم على ألسنة الرسل والكتب.

﴿وَ﴾ كيف لا نقول لهم ما نقول؛ إذ هم كانوا من غاية عدوانهم وظلمهم على الله وعلى رسله وكتبه ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾ الدالة على إصلاح أحوالهم المتعلقة بالنشأتين مع كونها ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ واضحات في الدلالة على أهم مقاصدهم ومطالبهم ﴿قَالُوا﴾ من شدة شكيمتهم وغيظهم على رسول الله: ﴿مَا هَٰذَا﴾ المدعي للرسالة والنبوة - يعنون الرسول ﷺ - ﴿إِلَّا رَجُلٌ﴾ حقير مستبد برأيه، مستبدع أمرًا من تلقاء نفسه ﴿يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ﴾ ويصرفكم ﴿عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ﴾ ويستتبعكم؛ أي: يجعلكم تابعين له، بل يستعبدكم بأمثال هذا التلبيس والتقرير ﴿وَقَالُوا﴾ أيضًا في حق القرآن: ﴿مَا هَٰذَا﴾ الذي جاء به ﴿إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾ أي: كذب مختلق غير مطابق للواقع، افتراه

على الله؛ تلبيسًا وتقريرًا على ضعفاء الأنام ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ﴾ الصريح، وستروه بالباطل عدوانًا وعنادًا ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ أي: حين عاينوا به وعلموا أنه من الخوارق العجيبة، واضطروا خائبين حائرين عن جميع طرق الرد والمنع، غير أنهم نسبوه إلى السحر وقالوا: ﴿إِنْ هَذَا﴾ أي: ما هذا الذي سماه قرآنًا ﴿إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [سبأ: 43] ظاهر سحريته، عظيم إعجازه.

﴿ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ ﴾ [سبأ: 44-48].

ثم أشار سبحانه إلى غاية تجهيل المشركين ونهاية تسفيههم، فقال: ﴿وَمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ وأنزلنا عليهم ﴿مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا﴾ وفيها دليل الإشراك وإثبات الآلهة، بل كل الكتب منزلة على التوحيد وبيان طريقه ﴿وَ﴾ كذلك ﴿مَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿مِنْ نَذِيرٍ﴾ [سبأ: 44] ينذرهم عن التوحيد، ويدعوهم إلى الشرك، بل كل من أرسل من الرسل، فإنما هو على إرشاد التوحيد والإنذار عن الشرك المنافي له.

ثم أشار سبحانه إلى تسلية رسول الله ﷺ وتهديدهم بالأخذ والبطش، فقال: ﴿وَ﴾ كما كذب هؤلاء المكذبون بك يا أكمل الرسل وبكتابك ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم رسلهم والكتب المنزلة عليهم ﴿وَ﴾ هم؛ أي: هؤلاء الغواة المكذبون لك يا أكمل الرسل ﴿مَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ﴾ أي: عشر ما أعطينا لأولئك المكذبين الماضين من الجاه والثروة والأمتعة الدنيوية وطول العمر، ومع ذلك ﴿فَكَذَّبُوا رُسُلِي﴾ فأخذناهم مع كمال قوتهم وشوكتهم ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [سبأ: 45] أي: إنكاري وانتقامي إياهم بالتدمير والهلاك، مع إنكارهم على رسلي وكتبي بالتكذيب والاستخفاف.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل بعدما بلغ إلزامهم وتهديدهم غايته: ﴿إِنَّمَا أَعِظُكُم

بِوَاحِدَةٍ﴾ أي: ما أذكر لكم وأنبه عليكم إلا بخصلة واحدة كريمة، وهي: ﴿أَن تَقُومُوا لِلَّهِ﴾ وحده، وتوحدوه عن وصمة الكثرة مطلقًا، وتواظبوا على أداء الأعمال الصالحة المقربة إليه، المقبولة عنده سبحانه، وتخلصوها لوجهه الكريم بلا شوب شركة ولوث كثرة وخباثة. رياء ورعونة، سمعة وعجب، واسترشدوا من رسول الله ﷺ ﴿مَثْنَى﴾ أي: اثنين اثنين ﴿وَفُرَادَى﴾ أي: واحد واحد؛ يعني: متفرقين بلا زحام مشوش للخاطر، مخلط للأقوال، حتى يظهر لكم شأنه ﷺ ويتبين دونكم برهانه ﴿ثُمَّ﴾ بعدما ترددتم عليه ﷺ على وجه التعاقب والتفريق ﴿تَتَفَكَّرُوا﴾ فيما لاح عنكم منه ﷺ، وتأملوا فيه حق التأمل والتدبر على وجه الإنصاف، معرضين عن الجدل والاعتساف؛ لينكشف لكم أنه ﴿مَا بِصَاحِبِكُم﴾ يعني: محمد ﷺ ﴿مِّن جِنَّةٍ﴾ أي: جنون وخبط يعرضه ويحمله على ادعاء الرسالة بلا برهان واضح يتضح له وينكشف دونه، كما زعم في حقه ﷺ مشركوا مكة - لعنهم الله - كي يفتضح على رءوس الأشهاد، كما نشاهد من متشيخة زماننا - خذلهم الله - أمثال هذه الخرافات بلا سند صحيح.

وبعدما لم يساعدهم البرهان والكرامة افتُضحوا، وهو ﷺ مع كمال عقله ورزانة رأيه ومتانة حكمته، كيف يختار ما هو سبب الشنعة والافتضاح؟! تعالى شأنه ﷺ عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا.

والمعنى: ثم بعدما جلستم عنده ﷺ على الوجه المذكور، تكلمتم معه على طريق الإنصاف، تتفكرون وتتأملون، هل تجدونه ﷺ معروضًا للخبط والجنون، أم للأمر السماوي الباعث له ﷺ على أمثال هذه الحكم والأحكام والعبر والأمثال التي عجزت دونها فحول العقلاء وجماهير الفصحاء والبلغاء، البالغون أقصى نهاية الإدراك، مع وفور دعاويهم، وبمعارضتها والتحدي معها؟! بل ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي: ما هذا الرسول المرسل إليكم المؤيد بالبراهين الواضحة والمعجزات اللائحة المثبتة لرسالته ﴿إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم﴾ من قبل الحق ﴿بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: 46] أي: قبيل الساعة، وقدام يوم القيامة المعدة لأنواع العذاب والنكال على عصاة العباد.

وإن اتهموك يا أكمل الرسل بأخذ الأجر والجعل على أداء الرسالة وتبليغ الأحكام، بل حصروا ادعاءك الرسالة ودعوتك على هذا فقط ﴿قُلْ﴾ لهم على طريق الإسكات والإلزام: ما سألت منكم شيئًا من الجعل أصلاً، وإن فرض أني سألت منكم شيئًا، فاعلموا أن ﴿مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾ على إرشادكم وتكميلكم ﴿فَهُوَ لَكُمْ﴾ أي: هبة

لكم، مردود عليكم ﴿إِنْ أَجْرِيَ﴾ أي: ما أجري وجعلي على تحمل هذه المشاق والمتاعب الواردة في تبليغ الرسالة وإظهار الدعوة ﴿إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ الذي أرسلني بالحق، وبعثني بالصدق، وهو المراقب المطلع على جميع أحوالي، الحكيم بإفاضة ما ينبغي ويليق بي وبشأني ﴿وَ﴾ كيف لا يطلع سبحانه على أحوال عباده؛ إذ ﴿هُوَ﴾ بذاته ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ ظهر من الموجودات ولاح عليه لمعة الوجود ﴿شَهِيدٌ﴾ [سبأ: 47] حاضر دونه، غير بعيد عنه ومغيب عليه.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل بعدما تمادى مراء أهل الضلال وتطاول جدالهم: لا أبالي باستهدائكم واسترشادكم، ولا أبالغ في تكميلكم، بل ﴿إِنَّ رَبِّي﴾ العليم باستعدادات عباده، الحكيم بإفاضة الإيمان والعرفان على من أراد هدايته وإرشاده ﴿يَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾ أي: يلقيه وينزله على قلوب عباده الذين جبلهم على فطرة الإسلام واستعدادات التوحيد والعرفان، إذ هو سبحانه ﴿عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾(1) [سبأ: 48] يعرف استعدادات عباده وقابلياتهم على قبول الحق، ويميزهم عن أهل الزيغ والضلال، المجبولين على الغواية الفطرية، والجهل الجبلي.

﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ (49) قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ (50) وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ (51) وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ (52) وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ (53) وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ (54)﴾ [سبأ: 49-54].

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل بعدما بينت لهم طريق الحق كلامًا ناشئًا عن محض

---

(1) على أفعال أهل الخلاف فيضمحل اجتراؤهم ويحيق بهم شؤم معاصيهم ويقذف بالحق إذا حضر أصحاب المعاني على ظلمات أصحاب الدعاوى فيحمل ما أنذرهم ويفتضحون في الحال ويفضح عوارهم، وذلك لأنه تعالى ﴿عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾، وإنما ذكر الغيوب بلفظ الجمع؛ لأنه عالم بغيب كل واحد، وما في ضمير كل واحد، وأنه تعالى عالم بما يكون في ضمير أولاد كل أحد إلى يوم القيامة، وإنما قال علام بلفظ المبالغة ليتناول علمه معلومات الغيوب في الحالات المختلفة كما هي بلا تغير في العلم عند تغير المعلومات من حال إلى حال بحيث لا يشغله شأن حال عن حال. [التأويلات].

الحكمة، خاليًا عن وصمة الكذب مطلقًا: ﴿جَاءَ الحَقُّ﴾ الحقيق بالاتباع، وظهر الإسلام الجدير بالإطاعة والاستسلام، فلكم أن تغتنموا الفرصة وتنقادوا له مخلصين ﴿وَ﴾ نبههم يا أكمل الرسل أيضًا أنه بعدما ظهر نور الإسلام، وعلا قدره، وارتفع شأنه ﴿مَا يُبْدِئُ﴾ ويحدث ﴿البَاطِلُ﴾ الذي زهق واضمحل ظلمته بنور الإسلام، وغار مناره في مهاوي الجهل وأغوار الخذلان ﴿وَ﴾ صار إلى حيث ﴿مَا يُعِيدُ﴾ [سبأ: 49] أصلاً في حين من الأحيان.

سبحان من أظهر أنوار الإسلام ورفع أعلامه، وقمع الكفر وأخفض أصنامه.

ثم لما طعن المشركون على رسول الله ﷺ، وعيَّروه بأنك تركت دين آبائك واخترعت دينًا من تلقاء نفسك، فقد ضللت باختيارك هذا، بتركك ذاك عن منهج الرشاد، رد الله سبحانه عليهم قولهم هذا وتعييرهم، آمرًا لنبيه على وجه الامتنان: ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل بعدما عيروك وطعنوا في شأنك ودينك: ﴿إِن ضَلَلْتُ﴾ وانحرفت عن سبيل السلامة وجادة الاستقامة ﴿فَإِنَّمَا أَضِلُّ﴾ وأنحرف ﴿عَلَى نَفْسِي﴾ وبمقتضى أهويتها ومشتهياتها، وشؤم لذاتها وشهواتها ﴿وَإِنِ اهْتَدَيْتُ﴾ إلى التوحيد والعرفان، ونلت إلى أسباب درجات الجنان ﴿فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي﴾ أي: بسبب وحيه وإلهامه إليّ، وامتنانه عليّ بالهداية إلى أنواع الكرامات وأصناف اللذات الروحانية ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه ﴿سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ [سبأ: 50] يسمع مناجاتي، ويقضي جميع حاجاتي على وجهها إن تعلق إرادته ومشيئته بها بعدما جرى وثبت في حضرة علمه، ومضى عليها قضاؤه في لوحه بحيث لا يفوته شيء.

﴿وَ﴾ من كمال قرب الله سبحانه لعباده ﴿لَوْ تَرَى﴾ أيها الرائي وقت ﴿إِذْ فَزِعُوا﴾ أي: الكفرة والمشركون وقت حلول الأجل ونزول العذاب عليهم في يوم الساعة، لرأيت أمرًا فظيعًا ﴿فَلَا فَوْتَ﴾ أي: حين لا فوت لهم عن الله، لا منهم ولا من أعمالهم وأحوالهم شيء ﴿وَ﴾ إن تحصنوا بالحصون الحصينة والقلاع المنيعة والبروج المشيدة، بل ﴿أُخِذُوا﴾ حيثما كانوا ﴿مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ [سبأ: 51] من الله، ولو كانوا في قعر الأرض، أو قلل الجبال، أو في قلب الصخرة، أو فوق السماء، أو في أي مكان من الأماكن المخفية، وبالجملة: أُخذوا من مكان قريب بالنسبة إليه سبحانه؛ إذ هو سبحانه منزه عن الأمكنة، شهيد حاضر في جميعها، غير مغيب عنها.

﴿وَ﴾ بعدما اضطروا إلى الهلاك أو العذاب في يوم الجزاء ﴿قَالُوا﴾ بعدما

انقرض وقت الإيمان ومضى أوانه: ﴿آمَنَّا بِهِ﴾ أي: بمحمد ﷺ ﴿وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ﴾[1] أي: من أين يتأتى ويحصل لهم تناول الإيمان وتلافيه ﴿مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [سبأ: 52] بمراحل عن الإيمان؛ إذ قد انقرض مدة التكليف والاختبار.

وحين كانوا قريبين، قادرين على تناوله وتعاطيه، لم يختاروه ولم يتصفوا به، بل ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ﴾ ﷺ وأنكروا عليه وعلى كتابه ودينه ﴿مِن قَبْلُ﴾ في النشأة الأولى، أو في زمان الصحة؛ أي: قبل ما عاينوا بالعذاب والهلاك ﴿وَ﴾ هم قد كانوا في زمان الإيمان به ﷺ وبكتابه ﴿يَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ﴾ أي: يرمونه ويرجمونه رجمًا بالغيب، ويقولون في حقه على سبيل التخمين والحسبان عدوانًا وظلمًا: إنه كاهن، شاعر، مجنون، وكتابه أساطير الأولين، بل كلام المجانين، مع أن أمثال هذه الخرافات بالنسبة إليه ﷺ وعلى كتابه ﴿مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [سبأ: 53] بمراحل عن شأنه العلي العظيم، وكتابه الجلي الكريم، وإيمانهم في حالة اضطرارهم أبعد عن محل القبول بمراحل أيضًا.

﴿وَ﴾ بعدما آيسوا عن قبول الإيمان وقت الاضطرار ﴿حِيلَ﴾ وحجب ﴿بَيْنَهُمْ بَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ من الإيمان والنجاة المترتبة عليه، ففعل بهم حينئذ ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم﴾ وأشباههم ﴿مِّن قَبْلُ﴾ من الكفرة الماضين الهالكين، الملتجئين إلى الإيمان وقت اضطرارهم وهجوم العذاب عليهم، كفرعون وقارون وغيرهما ﴿إِنَّهُمْ﴾ قد ﴿كَانُوا﴾ أمثال هؤلاء الغواة المنهمكين ﴿فِي شَكٍّ﴾ أي: غفلة وتردد ﴿مُّرِيبٍ﴾ [سبأ: 54] موقع أصحابه في ريب عظيم، وكفر شديد، وإنكار غليظ.

أعاذنا الله وجميع عباده عن أمثاله بمنّه وجوده.

خاتمة السورة

عليك أيها السالك، المتدرج في درجات اليقين من العلم إلى العين إلى الحق - وفقك الله إلى أعلى مطالبك، وأعانك في إنجاحه - أن تتمكن في مقعد الصدق الذي

---

(1) قال في التأويلات: إذا تابوا وقد أغلقت الأبواب وندموا وقد تقطعت الأسباب فليس إلا الخسران والندم، ولات حين ندامة، كذلك من استهان بتفاصيل فترته، ولم يَسْتَفِقْ من غَفْلَتِه يَتَجَاوَزُ عنه مرةً، ويَغْفَى عنه كَرَّةً، فإذا استمكنت منه القسوةُ وتَجَاوَزَ سوءُ الأدبِ حَدَّ الغفلة، وزاد على مقدار الكثرة؛ يحصل له من الحقِّ رَدٌّ، ويستقبله حِجاب، وبعد ذلك لا يُسْمَعُ له دعاء، ولا يُرْحَمُ له بكاء.

هو مرتبة الرضا، معرضًا عن الشك والتردد في مقتضيات القضاء، ومبرمات الأحكام المثبتة في حضرة العلم الإلهي، وأن تتوجه نحوه سبحانه في جميع حالاتك بذيل كرم نبيه المؤيد من عنده الذي أرشدك إلى توحيده، مسترشدًا من آيات كتاب الله المنزل على رسوله، المبين لسلوك طريق التوحيد واليقين، وأحاديث النبي الموضح لمغلقات الكتاب، المشير إلى رموزه وإشاراته.

فلك في كل الأحوال التبتل إلى الله، والتوكل نحوه، والتفويض إليه، فاتخذه سبحانه وكيلك في جميع حوائجك، وحسيبك في جميع مهماتك، يكفيك معينًا، ويكف عنك شرور أعدائك مطلقًا.

وإياك إياك أن تختلط مع أصحاب الغفلة وأرباب الثروة، المفتخرين بما عندهم من المال والجاه، والنسب العلي والحسب الذي يباهي صاحبه ويتفوق على أقرانه ويطلب الرئاسة والسيادة بسببه.

وإن أردت أن تجلس مع بني نوعك وتصاحب معهم، فاختر منهم من انقطع عن الدنيا وأمانيها، وتزهد عنها وما فيها، سوى سد جوعة وستر عورة وكنّ يحفظه عن البرد والحر، وصاحب معه مصاحبة الحائر التائه في بيداء، لا يدري أين طرفاها، متفكرين متدبرين للخروج منها، والنجاة عن أهوالها وأغوالها.

فلك أن تتذكر في عموم أوقاتك قوله ﷺ، واجعله نصب عينيك في جميع حالاتك وهو: «كن في الدنيا كأنك غريب أو كعابر سبيل، وعد نفسك من أصحاب القبور»[1].

جعلنا الله ممن امتثل به، وتذكر وعمل بمقتضاه، ووجد في نفسه حلاوة معناه بفضله ولطفه.

---

(1) رواه البخاري (267/21).

سورة فاطر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة فاطر

لا يخفى على من تحقق بسعة قدرة الله وإحاطة علمه وإرادته، وشمول عموم أوصافه وأسمائه الذاتية والفعلية، أن مظاهر الحق ومجاليه حسب شئونه وتطوراته لا تكاد تنحصر وتحصى؛ إذ لا يكتنه ذاته ووصفه واسمه؛ إذ لا يشغله شأن عن شأن، بل كل آن في شأن.

وبعدما كان شأنه سبحانه كذلك، كيف يعد مظاهره المترتبة على شئونه وتجلياته الغير محصورة، إلّا أنه سبحانه حمل لنفسه باعتبار معظم مظاهره ومصنوعاته بالنسبة إلى هؤلاء الأرضين؛ تعليمًا لهم وإرشادًا؛ ليواظبوا على أداء حقوق كرمه بقدر وسعهم وطاقتهم، فقال سبحانه لنفسه بعدما تيمن باسمه العلي الأعلى: ﴿بِسْمِ اللهِ﴾ الذي تجلى على ما تجلى باعتبار أوصافه الكاملة وأسمائه الشاملة ﴿الرَّحْمَنِ﴾ لعموم مظاهره ومصنوعاته بإفاضة نور الوجود عليهم على مقتضى الفضل والجود ﴿الرَّحِيمِ﴾ لخواص عباده بإطلاعهم على منشأ الوجود ومنبع خزائن الفيض والجود.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢) يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٣) وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٤)﴾ [فاطر: 1-4].

﴿الْحَمْدُ﴾ المحيط المشتمل على جميع ما صدر عن ألسنة عموم المظاهر حالاً ومقالاً ثابت ﴿لِلهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ﴾ أي: الذي فطر؛ أي: أظهر وأبدع الأجرام العلوية من كتم العدم بعدما شق وفلق ظلمته بأشعة نور الوجود، المنعكسة من الصفات الأسنى والأسماء الحسنى الإلهية ﴿وَالأَرْضِ﴾ أي: الأجسام السفلية أيضًا كذلك؛ ليتحقق

الفاعل والقابل ويتكون منهما من الكوائن والفواسد ما شاء الله بحوله وقوته ﴿جَاعِلِ المَلائِكَةِ﴾ أي: الذي جعل الملائكة الذين هم سدنة سدته العلية وخدمة عتبته السنية ﴿رُسُلاً﴾ أي: وسائل ووسائط بينه سبحانه وبين خواص عباده من الأنبياء والرسل والأولياء المؤيدين من عنده سبحانه بالرتبة العلية والدرجة الرفيعة، يبلغون إليهم من قِبَل الحق ما تفضل بهم سبحانه من الوحي المتعلق بخير الدارين ونفع النشأتين؛ ولذلك صيرهم سبحانه ﴿أُوْلِي أَجْنِحَةٍ﴾ متعددة متفاوتة يسرعون بها نحو مصلحة بعثهم الله إليها وأمرهم بتبليغها ﴿مَّثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ﴾[1] أي: لبعضهم أجنحة اثنين اثنين، ولبعضهم ثلاثة ثلاثة، ولبعضهم أربعة أربعة إلى ما شاء الله، بلا انحصار في عدد دون عدد، بل ﴿يَزِيدُ﴾ سبحانه ﴿فِي الخَلْقِ﴾ أي: في جميع مخلوقاته ﴿مَا يَشَاءُ﴾ بلا حد وحصر؛ إذ لا ينتهي قدرته دون مقدور، بل له أن يتصرف فيه إلى ما لا يتناهى، كما روي: «أنه ﷺ رأى جبريل عليه السلام ليلة المعراج وله ستمائة جناح»[2].

وهذا دليل على أن ذكر العدد ليس للحصر، فالآية تدل على أن له سبحانه أن يتصرف في ملكه وملكوته كما شاء وكيف شاء ومتى شاء، فيجوز أن يخلق أنواعًا لم يخلقها قبل من أي جنس كان، ويخلق أيضًا في فرد نوع أمورًا عجيبة من الملاحة والصباحة وحسن الصوت والصورة، وكمال العقل ورزانة الرأي، وخواص غريبة لم يخلقها قبل لأفراد أخر من هذا النوع.

ولهذا يتفاوت أشخاص الإنسان في المعارف والحقائق وجميع الأمور المتعلقة بالعقل المتفرعة على الإدراك بحسب الأدوار والأعصار، بل في زمان واحد أيضًا؛ إذ

---

(1) قال البقلي: وللأرواح القدسية أجنحة، منها جناح المعرفة، ومنها جناح التوحيد، ومنها جناح المحبة، ومنها جناح الشوق، فبجناح المعرفة تطير إلى عالم الصفات، وبجناح التوحيد تطير إلى عالم الذات، وبجناح المحبة تطير إلى المشاهدة، وبجناح الشوق تطير إلى الوصال.
قال جعفر: أجنحة المؤمنين أربعة: أجنحة التوحيد، وأجنحة الإيمان، وأجنحة المعرفة، وأجنحة الإسلام، والموحد يطير بأجنحة التوحيد إلى الجبروت، والمؤمن يطير بأجنحة الإيمان إلى المشاهدة، والعارف يطير بأجنحة المعرفة إلى الملكوت، والمسلم يطير بأجنحة الإسلام إلى الجنان. قيل: الأجنحة أربعة: أجنحة التعظيم، وأجنحة التفريد، وأجنحة الحياة، وأجنحة الحياء، فأجنحة التعظيم للمقرّبين، وأجنحة التفريد للروحانيين، وأجنحة الحياة للوالهين، وأجنحة الحياء للواصلين.

(2) رواه الترمذي (107/12).

بعضهم في نهاية البلادة، وبعضهم في كمال الجلادة، وبعضهم في كمال الحسن واللطافة، وبعضهم في نهاية الكثافة والقباحة.

وبالجملة: له سبحانه التصرف في ملكه وملكوته بالاستقلال والاختيار بلا فترة وفتور في علمه وقدرته وإرادته، إذ هو سبحانه منزه عن السآمة والملال، وأوصافه بريئة عن وسمة الفترة والكلال ﴿إِنَّ اللهَ﴾ القادر المقتدر بالقدرة التامة ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ تعلق به إرادته ومشيئته ﴿قَدِيرٌ﴾ [فاطر: 1] لا بدَّ أن يتكون باختياره بلا تخلف كل ما لمع عليه برق إرادته.

ومن كمال قدرته سبحانه أنه ﴿مَا يَفْتَحِ اللهُ﴾ المدبر لأحوال عباده ﴿لِلنَّاسِ﴾ الناسين حقوق تربيته وتدبيره سبحانه ﴿مِن رَّحْمَةٍ﴾ فائضة لهم بمقتضى جوده تفضلاً عليهم من النبوة والرسالة والولاية والكرامة والعلم والمعرفة والرشد والهداية، وغير ذلك من الكمالات الفائضة من عنده سبحانه ﴿فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ أي: لا مانع لها يمنعها عنهم ﴿وَمَا يُمْسِكْ﴾ ويمنع سبحانه من أمر بمقتضى قهره وجلاله ﴿فَلَا مُرْسِلَ لَهُ﴾ يرسله إليهم ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي: بعد منعه سبحانه ﴿وَ﴾ كيف يسع لأحد ما يمنعه؛ إذ ﴿هُوَ الْعَزِيزُ﴾ المقصود، المنحصر ذاته على العزة والغلبة، لا عزيز دونه ﴿الْحَكِيمُ﴾ [فاطر: 2] المستقل في المنع والإرسال إرادةً، لا يُسأل عن فعله، ولا مبدل لقوله، ولا معقب لحكمه.

ثم نادى سبحانه أهل النعمة وخاطبهم؛ ليقبلوا عليه ويواظبوا على شكر نعمه فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ المجبولون على الغفلة والنسيان ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ﴾ الفائضة ﴿عَلَيْكُمْ﴾ واشكروا له؛ أداء لحقوق كرمه، وتفكروا في آلائه ونعمائه ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللهِ﴾ المتوحد بوجوب الوجود ودوام البقاء ﴿يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: من امتزاج العلويات بالسفليات، واختلاط الفواعل والأسباب مع القوابل والمسببات المسخرة تحت قدرة العليم الحكيم؛ لينكشف لكم ويتبين أنه ﴿لَا إِلَهَ﴾ يعبد بالحق ويتوجه إليه، ويُسند الحوادث إلى حكمه والنعم الفائضة إلى فضله وجوده ﴿إِلَّا هُوَ﴾ الله الحق الحقيق بالإطاعة والرجوع، لا مرجع سواه ولا مقصد إلا هو ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ [فاطر: 3] وكيف تُصرفون عن توحيده، وتُردون عن بابه أيها الآفكون المجرمون.

﴿وَ﴾ بعدما بعثت يا أكمل الرسل لإرشاد أهل الضلال وتبليغ الرسالة إليهم، فلك أن تتصبر على المتاعب والمشاق الواردة في حملها ﴿إِن يُكَذِّبُوكَ﴾ هؤلاء

الضالون بعدما دعوتهم إلى الحق، فتأسَّ بإخوانك الرسل واصبر على أذى تكذيبهم ﴿فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ﴾ عظام كثير ﴿مِّن قَبْلِكَ﴾ أمثالك، فصبروا على ما كُذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ﴿وَ﴾ هم قد علموا أنه ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ الواحد الأحد، القادر المقتدر على الإنعام والانتقام، لا إلى الوسائل والأسباب العادية ﴿تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [فاطر: 4] الكائنة من التصديق والتكذيب والصبر والأذى، وغير ذلك من الحوادث؛ إذ كلها مستندة إلى الله أولاً وبالذات، حاضرة في حضرة علمه، ثابتة في لوح قضائه، يجازي كلاً من المحقين والمبطلين، المصدقين والمكذبين على مقتضى علمه وخبرته.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٦﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [فاطر: 5-8].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ المنهمكون في بحر الغفلة والنسيان، التائهون في تيه الغرور والخسران ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ الذي وعده في النشأة الأخرى لعموم عباده شقيهم وسعيدهم، مطيعهم وكافرهم ﴿حَقٌّ﴾ ثابت، لازم إنجازه على الله بلا خلف، فلكم أن تتزودوا لأخراكم وتهيئوا أمر عقباكم؛ كي تصلوا إلى ما أعد لكم مولاكم ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ﴾ وتعوقنكم ﴿الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ ولذاتها الفانية وشهواتها الزائلة عن الحياة السرمدية، والبقاء الأبدي واللذات الأزلية ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [فاطر: 5] يعني: لا يلبِّس عليكم الشيطان المكار الغرار الغدار بأن يوقع في قلوبكم أن رحمة الله واسعة وفضله كثير ولطفه عام، وأن الله سبحانه مستغن عن طاعتكم وعبادتكم، وأن فعل الإيلام لا يتصور من الحكيم العلام، إلى غير ذلك من الحيل العائقة لكم عن التقوى والتزود للنشأة الأخرى.

﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ﴾ يا بني آدم ﴿عَدُوٌّ﴾[1] قديم، مستمر عداوته من زمان أبيكم

(1) أي: إنه عدونا؛ لأنه من عالم القهر خلق، ونحن من عالم اللطف خلقنا، والطبعان مخالفان أبدًا؛ لأن القهر واللطف تسابقا في الأزل فسبق اللطف القهر؛ فعداوته من جهة الطبع الأول والجهل

﴿فَاتَّخِذُوهُ﴾ أي: الشيطان، أنتم أيضًا ﴿عَدُوًّا﴾ لأنفسكم عداوة مستمرة بحيث لا تصغوا إليه ولا تقبلوا منه قوله، ولا تلتفتوا إلى تغريره وتلبيسه أصلاً، فإنه يواسيكم ويغريكم إلى مشتهيات نفوسكم، ويوقعكم في فتنة عظيمة، كما أوقع أباكم آدم ﷺ فعليكم أن تجتنبوا عن غوائله، حتى لا تكونوا من حزبه ﴿إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ﴾ على الغواية والضلال ﴿لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: 6] المعد لأصحاب الشقاوة الأزلية مثل الشيطان وأحزابه وأتباعه.

نجنا بفضلك من سخطك، وأعذنا بلطفك من تغرير عدونا وعدوك.

ثم قال سبحانه كلامًا جمليًا، شاملاً لعموم العباد؛ تذكيرًا وعظة، مشتملاً على الوعد والوعيد بكلا الفريقين: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: ستروا الحق وأعرضوا عنه في النشأة الأولى عنادًا ومكابرة ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ أي: إحراق بالنار في النشأة الأخرى؛ جزاء لما اقترفوا في النشأة الأولى؛ إذ لا عذاب أشد من الإحراق ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ بتوحيد الله، وصدقوا رسله المؤيدين من عنده بالصحف والكتب المنزلة إليهم، المبينة

بالعصمة وأنوار التأييد والنصرة، ومن لا يعرفه بما وصفنا كيف يتخذه عدوًا وهو لا يعرف مكائده ولا يعرف مكائده إلا ولي أو صديق.

قال الواسطي: ﴿فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ بما نصركم عليه، واحذروا ألا يغلبنكم؛ فإنه إنما يدعو حزبه، وحزبه هم الراكنون إلى الدنيا والمحبون لها والمفتخرون بها.

وقال جعفر الصادق: من سمع هذا النداء من الله تعالى وجب عليه بهذا النداء نصب آلة العداوة بينه وبين عدوه، ولا ينفكُّ من محاربته طرفة عين كلما عارضه بشيء قابله بغيره إن عارضه بزينة الدنيا قابله بسرعة الفناء، وإن عارضه بطول الأمل قابله بقرب الأجل، فهو دائمٌ منتبهٌ مستعدٌ لمحاربته؛ لما يعلم أن الشيطان لا يغفل عنه، وأنه يراهم من حيث لا يرونه.

قال سهل في قوله: ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ﴾: أهل البدع والضلالات والأهواء الفاسدة والسامعين ذلك من قائلها.

قال الواسطي: حذر حزبه ومتابعته، وأمر بطرده بضياء المبادرة في العهود وحفظ الحدود ورعاية الود بطرد الوساوس، كما أن بضياء النهار طرد الكلاب من المحابس .. وما فهمت من هذه الآية أن الله سبحانه أراد أن يعرف عباده من محاربة الشيطان معالم قهرياته وحفظ الأوقات والأنفاس من خطراته؛ لأن الشيطان يغوي المصطفين بالولاية، ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ﴾ من أصحاب الضلالات الذين طردهم الله عن بابه وهو يعرفهم، وإنما هو يدعوه لا أن الضلالة بيده كما لا تعلق الهداية بالأنبياء. [عرائس البيان].

لسلوك طريق التوحيد والعرفان ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ المأمورة لهم في تلك الكتب والصحف ﴿لَهُم﴾ في النشأة الأخرى ﴿مُغْفِرَةٌ﴾ ستر وعفو لما صدر عنهم من الذنوب قبل الإيمان والتصديق ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [فاطر: 7] وجزاء عظيم على ما عملوا بعده بمقتضى الأمر الإلهي المبين في الكتب المنزلة من عنده.

﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ يعني: أيزعم أن من زين وحسن له الشيطان عمله السوء القبيح في الواقع فخيله حسنًا بحسب زعمه الفاسد واعتقاده الباطل، كمن كان عمله حسنًا في الواقع حقًا في نفس الأمر واعتقده أيضًا كذلك، حتى يكونا متساويين في استحقاق الأمر الجزيل والجزاء الجميل؟! كلا وحاشا ﴿فَإِنَّ اللهَ﴾ المتعزز برداء العظمة والكبرياء، المقتدر على جميع ما يشاء ﴿يُضِلُّ﴾ عن صراط توحيده بمقتضى قهره وجلاله ﴿مَن يَشَاءُ﴾ من عصاة عباده ﴿وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ منهم بمقتضى لطفه وجماله إلى مقر توحيده وفضاء بقائه، ومتى سمعت يا أكمل الرسل أن الإضلال والضلال، والإرشاد والهداية إنما هي مستمدة أولاً وبالذات إلى مشيئة الله وإرادته، لا مدخل لأحد من خلقه فيها أصلاً ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ﴾ أي: لا تتعب ولا تهلك نفسك ﴿عَلَيْهِمْ﴾ أي: على غواية من أردت أو أحببت هدايته ﴿حَسَرَاتٍ﴾ أي: حال كونك متحسرًا ومتأسفًا تحسرًا فوق تحسر، وتحزنًا فوق تحزن على ضلالهم وعدم قبولهم الهداية، والمعنى: أفمن زين له سوء عمله، فحسنه على نفسه واعتقده حقًا جهلاً مع أنه باطل في نفسه، وبذلك ضل عن طريق الحق وانحرف عن سوء السبيل، وبعُد بمراحل عن الهداية، وأنت يا أكمل الرسل أذهبت وأهلكت نفسك حسرة عليهم وضجرة لما لم يهتدوا ولم يؤمنوا، فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات، وبالجملة: ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المراقب على جميع حالاتهم ﴿عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر: 8] يجازيهم على مقتضى علمه بسوء صنيعهم، ولا تتعب نفسك عليهم بما يفوتون على نفوسهم من الرشد والهداية.

﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ۝٩ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًاۚ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَمَكۡرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ۝١٠ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ جَعَلَكُمۡ أَزۡوَٰجٗاۚ وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ

﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [فاطر: 9-11].

﴿وَ﴾ كيف لا يعلم سبحانه ضمائر عباده واستعداداتهم مع أنه ﴿اللهُ﴾ المدبر لعموم أفعالهم وأحوالهم وحوائجهم، هو ﴿الَّذِي أَرْسَلَ﴾ بلطفه ومقتضى جوده ﴿الرِّيَاحَ﴾ العاصفة ﴿فَتُثِيرُ﴾ وتهيج ﴿سَحَابًا﴾ هامرة، مركبة من الأبخرة والأدخنة المتصاعدة، القابلة لأن تتكون منها مياهًا بمجاورة الهواء البارد الرطب ﴿فَسُقْنَاهُ﴾ بعدما تم تركيبه عناية منا ﴿إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ يابس في غاية اليبس بحيث لا اخضرار له أصلاً ﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ﴾ أي: بالمطر الحاصل من السحاب ﴿الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي: جفافها ويبسها ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: مثل إحيائنا الأرض اليابسة بعد يبسها وجمودها ﴿النُّشُورُ﴾ [فاطر: 9] أي: إحياؤنا الأموات الجامدة ونشرهم من قبورهم؛ بإعادة الروح المنفصل منهم إلى أبدانهم التي تفتت أجزاؤها، بإرسال نفحات نسمات لطفنا ورحمتنا لتثير سحاب العناية الماطرة قطرات ماء الحياة المسوقة إلى أراضي الأبدان اليابسة الجامدة بالموت الطبيعي، إنما أحييناهم وأخرجناهم من الأجداث؛ إظهارًا لقدرتنا، وتتميمًا لحكمتنا واستقلالنا في آثار تصرفنا في ملكنا وملكوتنا، وتعززنا وكبريائنا في ذاتنا.

وبالجملة: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ﴾ الكاملة، التي لا يعقبها ذل أصلاً، فله أن يسترجع إلى الله ويتوجه نحو توحيده ﴿فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ﴾ والغلبة والسلطنة الكاملة والبسطة الشاملة ﴿جَمِيعًا﴾ ومن أراد أن يتعزز بعزة الله، فله في أوائل سلوكه إلى الله أن يتذكر سبحانه بأسمائه الحسنى وصفاته العليا إلى أن ينتهي تذكره إلى التفكر الذي هو آخر العمل وصار متفكرًا في ذاته، مستكشفًا عن أستار جبروته سبحانه، إلى أن صار مستحضرًا له، مكاشفًا إياه، مشاهدًا آثار أوصافه وأسمائه على صفائح الأكوان بلا مزاحمة الأغيار، وبالجملة: فله أن يشتغل بالتذكر في أوائل الحال؛ إذ ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ من الأسماء الحسنى والصفات العظمى الناشئة من ألسنة المخلصين المتفكرين في آلاء الله ونعمائه.

﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ﴾ المقرون بالإخلاص والتبتل ﴿يَرْفَعُهُ﴾ أي: يرفع العمل المنبئ عن الإخلاص، والكلم الطيب إلى درجات القرب من الله، فمن كان إخلاصه في عمله أكمل، كان درجات كلماته المرفوعة نحوه سبحانه أرفع وأعلى عند الله ﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ﴾ مع الله المنكرات ﴿السَّيِّئَاتِ﴾ يعني به سبحانه: المكر السيئ الذي

مكر به المشركون - خذلهم الله - مع حبيبه ﷺ ﴿لَهُمْ﴾ في النشأة الأخرى ﴿عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ جزاءً لما مكروا به ﴿وَ﴾ إن كان ﴿مَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الماكرين ﴿هُوَ﴾ أي: مكرهم في نفسه ﴿يَبُورُ﴾ [فاطر: 10] يفسد ويبطل، ويعود وباله ونكاله عليهم بلا أثر لمكرهم بالممكور به ﷺ.

﴿وَ﴾ كيف لا يعود ضرر مكرهم إليكم أيها المشركون؛ إذ ﴿اللَّهُ﴾ الذي قصدتم المكر معه ومع من اختاره واصطفاه ﴿خَلَقَكُم﴾ وقدر وجودكم ﴿مِّن تُرَابٍ﴾[1] جامد، لا حسن لها ولا شعور ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ مهينة، مستحدثة من أجزاء النبات المتكون من الأرض ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ﴾ وصيّركم حيوانًا ﴿أَزْوَاجًا﴾ ذكورًا وإناثًا؛ لتتوالدوا وتكثروا ﴿وَ﴾ يربيكم على الوجه الأحسن الأصلح؛ إذ هو عليم بجميع ما يعنيكم وما لا يعنيكم وبكل ما جرى عليكم إلى حيث ﴿مَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ﴾ حمله ﴿إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ وإذنه سبحانه، وهو معلوم له لا يغيب عنه ﴿وَ﴾ بعد وضع الحمل ﴿مَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ﴾ يبلغ عمر نهايته ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ﴾ بأن لم يصل إليها ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ أي:

---

(1) في قوله: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ أي ابتداء خلقكم من التراب في ضمن خلق آدم منه؛ لتكونوا متواضعين؛ كالتراب ساكتين تحت الأقدار. ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ أي: ثم خلقكم من نطفة خلقًا تفصيليًا؛ لتكونوا قابلين لكل كمال؛ كالماء الذي هو سرُّ الحياة، ومبدأ العناصر الأربعة، ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أصنافًا أحمر وأبيض وأسود، وذكرانًا وإناثًا، ﴿تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ﴾ هو فاعل تحمل، ومن مزيدة لاستغراق النفي وتأكيده، ﴿وَلاَ تَضَعُ﴾ كون تلك الحامل والواضع ملتبسة بعلمه، تابعة لمشيئته، ﴿إِلاَّ بِعِلْمِهِ﴾ حال من الحامل دون المحمول؛ لأن العلم بالحامل والواضع يتضمّن العلم بالمحمول والموضوع، فيعلم تعالى مكان الحمل، ووضعه، وأيامه، وساعاته، وأحواله، وأحواله من النقصان والتمام، والذُّكورة والأنوثة، وغير ذلك. وقوله: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ﴾ ما نافية، والتعمير عُمر، وهو مدة عمارة البدن بالحياة، والمعمّر مَن أطيل عمره، (مِن مُّعَمَّرٍ): أي من أحد، ومن زائدة لتأكيد النفي، وسُمِّي معمّرًا باعتبار مصيره؛ فهو من باب، تسمية الشيء بما يؤل إليه؛ والمعنى وما يُمدُّ في عمر أحد. ﴿وَلاَ يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ﴾ من النقص؛ وهو متعدٍ؛ بمعنى: كم، والضمير للمعمّر على الاستخدام، فيراد بضميره ما؛ مَن شأنه أن يُعمّر: أي ولا ينقص من عمر أحد؛ ومعنى، (لا ينقص من عمره) بعد كونه زائدًا؛ إذ العمر لا يزيد، ولا ينقص؛ بل على معنى لا يجعل من الابتداء ناقصًا. وقوله تعالى: ﴿إِلاَّ فِي كِتَابٍ﴾ أي اللوح، أو علم الله، أو صحيفة كل إنسان؛ لأن الملك يكتب والمولود في بطن أمه سعادته وشقاوته، وأجله ورزقه، فلا يتغيّر ذلك؛ لأن بطن الأم لوح العلم، ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ لاستغنائه عن الأسباب؛ فكذا البعث، فمَن آمن به على هذا الوجه؛ سلم من الاعتراض، والإنكار، واتّبع الهدى والحكمة في كل الأفعال والآثار.

مثبت مسطور في حضرة العلم الإلهي ولوح القضاء ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ أي: حفظه وثبته ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ العليم الحكيم ﴿يَسِيرٌ﴾ [فاطر: 11] وإن كان عندكم عسير، بل متعذر ممتنع؛ إذ لا يسع لكم استحضار آنكم ولحظتكم، فكيف أحوال يومكم وشهركم وحولكم؟! فكيف أحوال طفوليتكم وكونكم جنينًا؟!.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ [فاطر: 12-14].

ثم مثَّل سبحانه كلا الفريقين المؤمن والكافر بالبحرين العذب والمالح، فقال: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ﴾ في النفع والفائدة الحاصلة منهما؛ إذ ﴿هَذَا﴾ أي: المؤمن المصدق لبحر الإيمان والعرفان، المترشح من بحر الوحدة الذاتية ﴿عَذْبٌ﴾ حلو في كمال الحلاوة ﴿فُرَاتٌ﴾ يكسر غليل أكباد المتعطشين في سراب الدنيا ببرد اليقين ﴿سَائِغٌ شَرَابُهُ﴾ أي: سهل انحداره للمجبولين على فطرة التوحيد.

﴿وَهَذَا﴾ أي: الكافر المتوغل في بحر الغفلة ﴿مِلْحٌ﴾ لا مصلح يصلح من يذوق منه، بل ﴿أُجَاجٌ﴾ مر مفسد للمزاج، من ذاق منه هلك هلاكًا أبديًا بحيث لا نجاة له، بل ﴿وَ﴾ البحر الأجاج له نفع، ولا نفع للكفر والضلال أصلاً؛ إذ ﴿مِن كُلٍّ﴾ من البحرين ﴿تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ مثل السمك وغيرها ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ﴾ منهما ﴿حِلْيَةً﴾ أي: أنواعًا من التزيينات اللاتي ﴿تَلْبَسُونَهَا﴾ وإنما أباح لكم سبحانه أيها المكلفون منافع بره وبحره ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [فاطر: 12] أي: رجاء أن تشكروا نعمه، وتزيدوا على أنفسكم مزيد كرمه.

ومن كمال فضل الله عليكم ورحمته أنه ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ﴾ أي: يدخل ظلمته ﴿فِي﴾ نور ﴿النَّهَارِ﴾ فيطول أجزاء النهار بإيلاج أجزاء الليل في الصيف؛ تتميمًا لمصالح

معيش عباده ﴿وَ﴾ كذا في الشتاء ﴿يُولِجُ النَّهَارَ﴾ أي: أجزاء منه ﴿فِي اللَّيْلِ﴾ فيطوله بأجزائه؛ تسكينًا للقوى النامية، وتمكينًا لها؛ ليجددها للخدمة المفوضة إليها ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ أيضًا؛ تتميمًا لمصالح عباده إلى حيث ﴿كُلٌّ﴾ منهما ﴿يَجْرِي﴾ ويدور بإذن الله وإلهامه ﴿لأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ هي من مبدأ دوره إلى منتهاه، أو إلى انقراض نشأة الدنيا ﴿ذَلِكُمُ﴾ المتصرف بالاستقلال والاختيار، المدبر بكمال العلم والخبرة ووفور الحكمة والدرية، هو ﴿اللهُ رَبُّكُمْ﴾ الذي أظهركم من كتم العدم، ورباكم بأنواع النعم والكرم، وكيف لا يربيكم سبحانه بعدما أبدعكم؛ إذ لا متصرف في الكائنات إلا هو ﴿لَهُ الْمُلْكُ﴾ لا مالك له سواه ولا مدبر غيره.

﴿وَ﴾ المحجوبون ﴿الَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ وتدعون ﴿مِن دُونِهِ﴾ من التماثيل الباطلة والأظلال الهالكة العاطلة تعنتًا وعنادًا، مع أن ما يسمون أولئك الجاهلون آلهة سواه سبحانه، ويسندون الأمور إليهم مكابرة ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر: 13] أي: ليس لهم أن يتصرفوا في قشرة رقيقة ملتفة على ظهر النواة، وهذه مثل في القلة عند العرب فكيف في غيرها؛ إذ الألوهية مسبوقة بوجوب الوجود بالصفات الكاملة الذاتية والأسماء الحسنى التي لا تعد ولا تحصى.

وليس لهؤلاء الأظلال الهالكة وجود في أنفسها، ومن أين يتأتى منهم الألوهية؟! بل هم من أدنى الممكنات وأدون المكونات؛ لكونهم جمادات لا شعور لهم أصلاً إلى حيث ﴿إِن تَدْعُوهُمْ﴾ وتلتجئوا نحوهم ﴿لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ﴾ إذ ليس لهم قابلية السماع والاستماع ﴿وَلَوْ سَمِعُوا﴾ يعني: لو فُرض أنه سمعوا على سبيل الفرض المحال ﴿مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ إذ ليس لهم القدرة والإرادة والأوصاف الكاملة اللازمة للألوهية والربوبية ﴿وَ﴾ مع عدم نفعهم إياكم أنتم أيها الجاهلون ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ﴾ ويؤاخذون ﴿بِشِرْكِكُمْ﴾ وإشراككم؛ أي: اتخاذكم إياهم شركاء مع الله، وهم يتبرءون عنكم وأنتم عنهم ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ﴾ ويخبرك أيها المخاطب النبيه الفطن أحوال النشأة الأخرى، وما سيجري بينك وبين شركائك من البراءة والملاعنة ﴿مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: 14] وهو الله العليم الحكيم، الذي لا يعزب عن إحاطة حضرة علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، لا في الأولى ولا في الأخرى، وعنده مفاتح الغيب ومقاليد الأمور لا يعلمها إلا هو.

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأۡ

يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾ [فاطر: 15-18].

ثم نادى سبحانه عموم عباده على سبيل الاستغناء عنهم وعن أعمالهم وعن محامدهم وأثنيتهم الجارية على ألسنتهم، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ الناسون عهود الله ومواثيقه التي واثقكم بها ربكم مع أنكم تنسون نعمه، وتذهلون عن حقوق كرمه ﴿أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾[1] المحتاجون بالذات المقصورون على الافتقار ﴿إِلَى اللهِ﴾ الذي أظهركم من كتم العدم ولم تكونوا شيئًا مذكورًا، ورباكم بأنواع النعم، سيما العقل المفاض، الذي هو مذكركم عن مبدئكم ومنشئكم، فلم تشكروا نعمة مبدعكم ومربيكم أيها الغافلون الجاهلون مع أنكم محتاجون إليه.

﴿وَاللهُ﴾ المنزه بذاته عن شكر الشاكرين وكفر الكافرين ﴿هُوَ الْغَنِيُّ﴾ المنحصر على الغنى الذاتي، بحيث لا احتياج له ولا استكمال أصلاً؛ إذ كمالاته سبحانه كلها بالفعل بحيث لا ترقب في شئونه مطلقًا ﴿الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: 15] المحمود في نفسه

---

(1) قال في التأويلات: يشير أن الاحتياج الحقيقي إلى ذات الله وصفاته مختص بالإنسان من بين سائر المخلوقات وإن كانت المخلوقات محتاجة إلى الله بأجمعها ولكنه تعالى ما شرف شيئًا من المخلوقات بتشريف خطاب ﴿أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ والله خلق الملائكة المقربين لأن الفقر على ثلاثة أوجه: فقر خِلقة: وهو للعوام، وفقر صفة: وهو للخواص، وفقر كرم: وهو لأخص الخواص.

ففقر الخلق: عام لكل أحد ولكن حادث فقر من محدثه فالمخلوق مفتقر إلى خالقه في أول حاجة وجوده ليبديه وينشئه في الثاني مَن حال بقائه ليديمه ويقيمه ويحضر، وأما فقر الصفة: فهو خاص وهو التجرد عن الدنيا وما فيها والتجرد عن الآخرة وما فيها متوجهًا إلى الله بكل وجوده فهو فقير عن صفاته المفتقرة إلى الكونين لفنائه بالله عن الكونين، وافتقار إلى الله بدلاً عن الكونين لافتقاره إلى الكونين ولكن يمكر بهما، وأما فقر الكرم: فهو للأخص وهو التفرد عن الوجود بالجود واجب الوجود والتوحد به فهو الفقر الحقيقي عن عينه والفناء الحقيقي بالله بعينه فكان افتقار المخلوقات إلى أفعال الله وافتقار الإنسان إلى ذات الله وصفاته كمثل سلطان يكون له رعية وهو صاحب الجمال فيكون افتقار جميع رعاياه إلى خزائنه وممالكه ويكون افتقار عشاقه إلى ذاته وصفاته فيكون غني كل مفتقر بما يفتقر إليه فقر الرعية يكون بالمال والملك وغنى العاشق يكون بمعشوقه.

على الوجه الذي يليق بشأنه؛ إذ لا يتأتى عن مصنوعاته الحمد الحقيقي بذاته، وإنما أظهركم أيها الأظلال الهالكة بمقتضى جماله ولطفه؛ لتواظبوا على عبادته وعرفانه، كي تصلوا إلى توحيده صاعدين من حضيض الإمكان إلى أوج الوجوب الذاتي علمًا وعينًا وحقًا، فأنتم تتكاسلون وتتمايلون إلى أهوية نفوسكم البهيمية ومشتهيات قواكم البشرية، أمَا تخافون وتتأملون أيها المغرورون؟!.

﴿إِن يَشَأْ﴾ سبحانه ﴿يُذْهِبْكُمْ﴾ عن فضاء البروز بالمرة إلى كمون العدم ﴿وَيَأْتِ﴾ بدلكم ﴿بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [فاطر: 16] أي: بمخلوق سواكم؛ تتميمًا لحكمة العبادة والمعرفة.

﴿وَ﴾ اعلموا أيها الهالكون في تيه الغفلة أنه ﴿مَا ذَٰلِكَ﴾ التبديل والإتيان ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ القادر المقتدر على إظهار جميع ما لاح عليه برق علمه وإرادته ﴿بِعَزِيزٍ﴾ [فاطر: 17] غير متعذر، بل عنده وبجنب سرعة نفوذ قضائه سهل يسير.

﴿وَ﴾ بعدما عرفتم قدرة الله وسمعتم كمال استغنائه، فلكل منكم الإتيان بمأموراته والاجتناب عن منهياته؛ إذ ﴿لَا تَزِرُ﴾ تحمل نفس ﴿وَازِرَةٌ﴾ آثمة عاصية ﴿وِزْرَ﴾ نفس عاصية ﴿أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ﴾ وتطلب نفس ﴿مُثْقَلَةٌ﴾ بالأوزار والمعاصي ﴿إِلَىٰ حِمْلِهَا﴾ أي: حمل بعض من الأوزار المحمول عليها ﴿لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ﴾ أي: لا يحمل أحد شيئًا من أوزاره، وإن رضي بحملها على مقتضى العدل الإلهي ﴿وَلَوْ كَانَ﴾ المدعو للحمل ﴿ذَا قُرْبَىٰ﴾ أي: من قرابة الداعي، بل كل واحد من النفوس يومئذ رهينة ما اقترفت من المعاصي، ما حملت إلا عليها وما حوسبت بها إلا هي.

ثم قال سبحانه مخاطبًا لحبيبه ﷺ في شأن عباده: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ يعني: ما تفيد إنذاراتك التي تلوت يا أكمل الرسل على هؤلاء الغفلة إلا القوم الذين يخافون من الله، ومن عذابه وعقابه حال كونهم غائبين عنه، سامعين له، خاشعين من نزوله، خائفين من حلوله بغتة ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿أَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ المأمورة، المقربة لهم إلى جناب قدسه، المخلصين فيها، المطهرين نفوسهم عن الميل إلى ما سوى الحق ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ﴾ وطهر نفسه عن الميل إلى البدع والأهواء ﴿فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ﴾ إذ نفع تزكيته عائد إليه، مفيد له في أولاه وأخراه ﴿وَ﴾ بعد تزكيته عن لوازم بشريته ومقتضيات بهيميته العائقة عن الوصول إلى مبدأ فطرته ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ المنزه عن مطلق النقائص، المبرء عن جملة الرذائل ﴿الْمَصِيرُ﴾ [فاطر: 18] أي: المنقلب والمآب؛

يعني: مرجع الكل إليه، ومقصده دونه سبحانه.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ ۖ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾ [فاطر: 19-26].

﴿وَ﴾ لكن ﴿مَا يَسْتَوِي﴾ في القرب والرتبة بالنسبة إليه سبحانه ﴿الْأَعْمَى﴾ الغافل الجاهل عن كيفية الرجوع والتوجه ﴿وَالْبَصِيرُ﴾ [فاطر: 19] العارف العالم بأمارات الصعود والعروج.

﴿وَلَا الظُّلُمَاتُ﴾ المتراكمة المتكاثفة بعضها فوق بعض، وهي: ظلمة الطبيعة وظلمة الهيولي وظلمة التعينات، والهويات الممتزجة المتكاثفة إلى حيث يصير حجابًا غليظًا وغشاء كثيفًا يعمي أبصار المجبولين على الإبصار، والاعتبار على مقتضى الشئون القهرية الجلالية ﴿وَلَا النُّورُ﴾ [فاطر: 20] المتشعشع المتجلي من وحدة الذات حسب شئونه اللطفية الجمالية.

﴿وَلَا الظِّلُّ﴾ الإلهي، المروح لأرواح أرباب المحبة والولاء بنفحات نسائم أنواع الفتوحات والكرامات ﴿وَلَا الْحَرُورُ﴾ [فاطر: 21] أي: السموم المهلكة المنشأة من فوحان الأماني الإمكانية، الممتزجة بيحموم الطبيعة المتصاعدة من أبخرة الأهوية ونيران الشهوات.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَا يَسْتَوِي﴾ عند الله العليم الحكيم ﴿الْأَحْيَاءُ﴾ بحياة المعرفة والإيمان واليقين والعرفان، حياة أزلية أبدية سرمدية، لا أمر لها حتى تنقضي ولا حدوث لها حتى تنعدم ﴿وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾ بموت الجهل والضلال، وأنواع الغفلة والنسيان، الهالكين في هوية الإمكان، الخالدين في زاوية نيران الخمول والحرمان ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ العليم الحكيم المتقن في أفعاله ﴿يُسْمِعُ﴾ ويهدي ﴿مَن يَشَاءُ﴾ من عباده؛ عناية لهم وامتنانًا عليهم إلى صراط توحيده ﴿وَمَا أَنتَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿بِمُسْمِعٍ﴾ هاد مرشد ﴿مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ [فاطر: 22] أي: من كان راسخًا متمكنًا في هاوية الجهل

المركب، وجحيم الإمكان وأحداث الغفلة والنسيان؛ إذ هم مجبولون على الغواية الفطرية والجهالة والجبلية لا يتأتى لك إهداؤهم وإرشادهم أصلاً.

بل ﴿إِنْ أَنتَ﴾ أي: ما أنت أيها المختار لتبليغ الرسالة ﴿إِلَّا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: 23] لهم من قبلنا، فلك أن تبلغ الإنذارات والوعيدات الهائلة النازلة منا إياهم، ولا تجتهد في هدايتهم وقبولهم؛ إذ ما عليك إلا البلاغ وعلينا الحساب.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ﴾من كمال لطفنا معك ملتبسًا ﴿بِالْحَقِّ﴾ الصدق المطابق للواقع، داعيًا لعموم عبادنا إلى توحيدنا ﴿بَشِيرًا﴾ بما أعددنا لهم من المراتب العلية والمقامات السنية ﴿وَنَذِيرًا﴾ لهم أيضًا بما أعتدنا من دركات النيران الموجبة لزفرات القلوب وحسرات الجنان ﴿وَ﴾ إرسالنا إياك ليس ببدع منا، بل ﴿إِن مِّنْ أُمَّةٍ﴾ أي: ما من أمة من الأمم الماضية ﴿إِلَّا خَلَا﴾ ومضى ﴿فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: 24] ينذرهم عما لا يعنيهم.

﴿وَ﴾ بعدما سمعت يا أكمل الرسل ما سمعت ﴿إِن يُكَذِّبُوكَ﴾ أولئك الكفرة المصرون على الشرك والعناد، وأنكروا بك وبكتابك، لا تبال بهم وبإنكارهم ﴿فَقَدْ كَذَّبَ﴾ الكفرة ﴿الَّذِينَ﴾ مضوا ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: قبل هؤلاء المشركين رسلهم مع أنه ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم﴾ المبعوثون إليهم حال كونهم مؤيدين ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: الدلائل الواضحات من المعجزات المثبتة لنبوتهم ورسالاتهم ﴿وَبِالزُّبُرِ﴾ والصحف المنزلة إليهم، المشتملة على أصول أديانهم وبيان طرقهم ﴿وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ [فاطر: 25] المظهر لسرائر التوحيد بحججه وبراهينه القاطعة وحكمه وأحكامه الساطعة آثارها.

﴿ثُمَّ﴾ بعدما كذبوا رسلهم وأنكروا الكتب التي جاءوا بها من عندنا على مقتضى وحينا، وأصروا على كفرهم وشركهم ﴿أَخَذْتُ﴾ بمقتضى عزتي وقدرتي ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: أعرضوا عن الحق مستكبرين، مصرين على الباطل ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [فاطر: 26] أي: إنكاري بالنسبة إلى إنكار أولئك الهلكى، العاجزين في تيه الغفلة والضلال، وإهلاكي إياهم بحيث لم يبق منهم أحد يخلفهم، ويحيي اسمهم ورسمهم.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ۚ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً

يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٞ شَكُورٞ ﴿٣٠﴾﴾ [فاطر: 27-30]

﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ أيها الرائي المعتبر ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ المقتدر بالقدرة الكاملة كيف ﴿أَنزَلَ﴾ وأفاض ﴿مِنَ﴾ جانب ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: سماء الأسماء والصفات الذاتية ﴿مَآءٗ﴾ محييًا لأموات الأراضي المائتة الجامدة، الباقية على صرافة العدم ﴿فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ﴾ أي: بالماء المفاض، المترشح من بحر الذات على أرض الطبيعة ﴿ثَمَرَٰتٖ﴾ فواكه متنوعة من المعارف والحقائق والخواطف والواردات المختطفة على قلوب أرباب المحبة والولاء حسب حالاتهم ومقاماتهم ﴿مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهَاۚ﴾ وكيفياتها علمًا وعينًا وحقًا ﴿وَمِنَ ٱلۡجِبَالِ﴾ التي هي الأوتاد والأقطاب القابلة لفيضان تلك الكرامات والفتوحات ﴿جُدَدُۢ﴾ أي: ذوو طرق وسبل إلى كعبة الذات، وعرفات الأسماء والصفات ﴿بِيضٞ﴾ مصفى في غاية الصفا، بلا خلط ومزج لها بألوان التعينات والهويات أصلاً ﴿وَ﴾ بعضها ﴿حُمۡرٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهَا﴾ باختلاف مراتب قربهم وبعدهم عن المرتبة الأولى ﴿وَ﴾ بعضها ﴿غَرَابِيبُ سُودٞ﴾ [فاطر: 27] أي: متناه في السواد والظلمة، بحيث لا يبقى فيها شائبة شبه بالمرتبة الأولى، بل هي مباين لها، مناقض إياها بحيث لا يبقى المناسبة بينهما أصلاً.

قيل: يشير سبحانه بالجدد البيض إلى طائفة الصوفية الذين هم صفّوا بواطنهم عما سوى الحق من الأمور المنصبغة بصبغ الأكوان وألوان الإمكان، وبالحمر المختلف الألوان إلى طائفة المتكلمين الذين بحثوا عن ذات الله وصفاته، متشبثين بالدلائل العقلية والنقلية الغير المؤيدة بالكشف والشهود، المفيدة للظن والتخمين إلا نادرًا، وبالغرابيب السود إلى طائفة الفقهاء الذين كثفت حجبهم وغلظت أغشيتهم وأغطيتهم إلى حيث لم يبق فيٓ فضاء قلوبهم موضع يليق لقبول انعكاس أشعة أنوار الحق، بل سوّدوها وصبغوها إلى حيث أخرجوها عن فطرة الله التي فطر الناس عليها.

﴿وَ﴾ أخرجنا به أيضًا؛ أي: من الآثار تربية الماء وإحيائها أموات الأراضي ﴿مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ المنهمكين في الغفلة والنسيان ﴿وَٱلدَّوَآبِّ﴾ المنسلخة عن رتبة الإدراك والشعور المتعلق بالمبدأ والمعاد ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ المشغوفة بتوفير اللذات الجسمانية والمشتهيات النفسية ﴿مُخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَۗ﴾ أي: أجناسه وأنواعه وأصنافه وأشكاله وهيئاته، وبالجملة: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ﴾ ويخاف من بطشه ﴿مِنۡ عِبَادِهِ﴾ الذين أبدعهم

وأظهرهم من كتم العدم بإفاضة رشاشات رشحات بحر وجوده بمقتضى جوده ﴿الْعُلَمَاءُ﴾[1] العرفاء بالله وبأوصافه الكامنة الفائضة عليهم، وأسمائه الحسنى الشاملة، المتحققون بمرتبة التوحيد، المنكشفون بسر سريان الوحدة الذاتية على عموم المظاهر؛ إذ أخشى الناس من الله أعرفهم بشأنه؛ لذا قال ﷺ: «**إني أخشاكم لله وأتقاكم له**»[2]، وكيف لا يخشى العارفون منه سبحانه ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المتردي برداء العظمة والكبرياء ﴿عَزِيزٌ﴾ غالب على انتقام من أراد انتقامه من عباده ﴿غَفُورٌ﴾ [فاطر: 28] ذنوب من تاب إلى الله ورجع نحوه عن ظهر القلب.

ثم أشار سبحانه إلى خواص عباده، ونبههم على ما هو المقبول منهم عنده سبحانه من أعمالهم، وحثهم عليها امتنانًا لهم، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ﴾ المنزل على رسوله ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ المفروضة، المكتوبة في الأوقات المحفوظة، المأمورة إياهم في كتاب الله ﴿وَأَنفَقُوا﴾ طلبًا لمرضاتنا ﴿مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ وسقنا إليهم من الرزق الصوري والمعنوي ﴿سِرًّا﴾ خفية من الناس؛ اتقاءً عن وصمة الرياء والسمعة، ومن الفقراء المستحقين أيضًا؛ صونًا لهم عن أن يتأذوا حين أخذوا ﴿وَعَلَانِيَةً﴾ أيضًا بعدما اقتضى المحل إعلامه، ولم يتأت منه الإخفاء ﴿يَرْجُونَ﴾ من الله بالأفعال المذكورة ﴿تِجَارَةً﴾ من الأحوال والمقامات ﴿لَّن تَبُورَ﴾ [فاطر: 29] أي: لن تهلك وتفسد وتفنى أصلاً.

وإنما فعلوا ذلك ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ﴾ ويوفر عليهم سبحانه ﴿أُجُورَهُمْ﴾ التي يستحقون بأعمالهم بها ﴿وَيَزِيدَهُم﴾ عليها ﴿مِّن فَضْلِهِ﴾ ما لا يعد ولا يحصى من الكرامات؛ امتنانًا لهم، وكيف لا يوفيهم ويزيدهم سبحانه ﴿إِنَّهُ﴾ عز شأنه وجل برهانه ﴿غَفُورٌ﴾ في ذاته لفرطات عباده، يغفر لهم ذنوبهم ﴿شَكُورٌ﴾ [فاطر: 30] يقبل منهم يسير

---

(1) قال في التأويلات: بحسب اختلافهم في العلم فمنهم من هو عالم بأحكام الله من أوامره ونواهيه فيكون خوفه من فوت الجنان وعذاب النيران، ومنهم من هو عالم بصفات الله من صفات اللطف والقهر فيكون خوفه من الحرمان عن مقامات القرب والخذلان إلى دركات البعد، ومنهم من هو عالم بالله بنور الله فخوفه يكون هيبة من ذاته تعالى. كما قال: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران:28] فبقدر مراتب العلم تكون مراتب الخوف كما قال ﷺ: «**أنا أعلمكم بالله وأخشاكم منه**».

(2) رواه أحمد في «مسنده» (253/56).

طاعاتهم التي أتوا بها مخلصين، فكيف بعسيرها؟!.

﴿وَالَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ ٣١ ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ٣٢ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ٣٣ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ ٣٤ ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ مِن فَضۡلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٞ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ ٣٥﴾ [فاطر: 31-35].

﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿مِنَ الْكِتَابِ﴾ الجامع لما في الكتب السالفة، الحاوي لمعظمات أصول الدين ﴿هُوَ الْحَقُّ﴾ المنزل من عندنا، المثبت في حضرة علمنا ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ وما يقدم عليه من الكتب والصحف المنزَّلة من عندنا، المبيّنة لحكمنا وأحكامنا ﴿إِنَّ اللهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ﴾ أي: مطلع لجميع أحوالهم الظاهرة والباطنة حتى استعداداتهم وقابلياتهم ﴿بَصِيرٌ﴾ [فاطر: 31] بما جرى وسيجري عليهم في أولاهم وأخراهم.

﴿ثُمَّ﴾ بعدما اصطفيناك يا أكمل الرسل بالرسالة العامة، وأيدنا أمرك بإنزال القرآن المعجز، الموجز، المشتمل لجميع فوائد الكتب السماوية مع زيادات خلت عنها الكل ﴿أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ﴾ المنزل إليك، وأبقيناه بعدك بين القوم ﴿الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾[1] واخترناهم بإرسالك إليهم وبعثتك بينهم، فجعلناهم في اقتباس نور الهداية

(1) قال في التأويلات: يشير إلى إيراثهم الكتاب حيث علمهم القرآن بلا واسطة كما قال: ﴿الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ [الرحمن:1- 2] وذلك قبل خلقهم؛ لأنه قال: ﴿الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ﴾ [الرحمن:1-3] أي: علمهم القرآن وهم بلا هم وهذا علم القرآن لسان الطيور ثم خلقهم؛ لأنه قال وعلمهم البيان قال ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن:3- 4] وهذا النوع من الإيراد مخصوص بهذه الأمة لأنه كما جاء في الخبر لما نزلت هذه الآية قال ﷺ: «أمتي ورب الكعبة ثلاث مرات»(1) وإنما ذكر بلفظ الميراث لأن الميراث يقتضي صحة النسب أو صحة السبب على وجه مخصوص، فمن لا سبب له ولا نسب ولا ميراث له فالسبب هاهنا طاعة العبد

والتوحيد من مشكاة النبوة، والرسالة الختمية المحمدية، الحاوية لمراتب جميع الرسل الذين مضوا قبله ﷺ أصنافًا ثلاثة: ﴿فَمِنْهُمْ﴾ من كمال شوقه إلى مبدئهم الأصلي وغاية تحننهم نحو الفطرية الجبلية التي فطر الناس عليها في بدء الأمر ﴿ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ البشرية؛ بحيث يمنع عنها جميع حظوظها النفسانية ومقتضيات قواها الجسمانية إلى حيث اتصل بعضهم من كمال احتماء نفسه عن مقتضياتها البهيمية بالملأ الأعلى قبل انقراض النشأة الأولى، وهم شطار الأولياء الذين صرفوا هممهم بالوصول إلى مبدئهم الأصلي ومنزلهم الحقيقي.

﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ معتدل، مائل عن كلا طرفي الإفراط والتفريط، بحيث لا يمنع نفسه عن ضرورياتها والمقومة لها ولا يكثرها عليها، بل يمنعها عن الزيادة على الضروري في عموم الحوائج، وبالجملة: يقتصد في الأعمال والأفعال والأقوال وجميع الأحوال، وهم الأبرار من الأولياء ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ مواظب على الطاعات، مشمر دائمًا بالأعمال الصالحات وفواضل الصدقات، والإنفاق على طلب المرضاة للفقراء والمهاجرين في سبيل الله، المنصرفين عن الدنيا وما فيها ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وعلى مقتضى ما ثبت في كتابه ونطق به لسان رسوله، وهم الأخيار المحسنون من الأولياء ﴿ذَٰلِكَ﴾ الإيراث والتوريث والإعطاء والاصطفاء ﴿هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [فاطر: 32] من الله إياهم في أولاهم، والفوز العظيم، والنوال الكريم لهم في أخراهم.

والنسب فضل الرب فأهل الطاعة هم أهل الجنة، كما قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۝ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ﴾ [المؤمنون:10- 11] فهم ورثوا الجنة بسبب الطاعة وأصل وارثهم بالسببية المبايعة التي جرت بينهم وبين الله بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ [التوبة:111] فهؤلاء أطاعوا الله بأنفسهم وأموالهم فأدخلهم الله الجنة جزاء بما كانوا يعملون وأهل الفضل هم أهل الله وفضله معهم بأن أورثهم المحبة والمعرفة والقربة، كما قال ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة:54] إلى قوله: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ [المائدة:54] فمن لا سبب له ولا نسب فلا ميراث له ولما كانت الوراثة بالنسب والسبب، وكان السبب جنسًا واحدًا كالزوجية وهي صاحب الفرض وكان النسب من جنسين الأصول والفرع الأصول كالآباء والأمهات، والفرع كما يتولد من الأصول كالأولاد والإخوة والأخوات وأولادهم والأعمام وأولادهم وهم صاحب فرض وعصبة فصار مجموع الورثة ثلاثة أصناف صنف صاحب الفرض بالسبب وصنف صاحب الفرض بالنسب وصنف صاحب الباقي وهم العصبة كذلك الورثة هاهنا ثلاثة أصناف.

جعلنا الله من خدامهم ومحبيهم، ومقتفي أثرهم.

ومن جملة فضل الله إياهم في أخراهم: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ معدة لهم نزلاً ومنزلاً من عند الله ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ فرحين مسرورين آمنين فائزين فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا﴾ تزيينًا وتفضلاً ﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾ جزاء ما اقترفوا بأيديهم من الحسنات ﴿مِن ذَهَبٍ﴾ خالص مقابلة إخلاصهم في أعمالهم ﴿وَلُؤْلُؤًا﴾ أي: يحلون أيضًا من أنواع اللآلئ بدل ما يتقون نفوسهم من الميل إليها في نشأتهم الأولى ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [فاطر: 33] بدل ما يلبسون من الخشن في طريق المجاهدة والسلوك نحو الحق في النشأة الأولى.

﴿وَ﴾ بعدما وصلوا إلى مقام القرب، بل اتصلوا برفع أنانيتهم وهوياتهم الباطلة عن البين إلى ما انقلبوا ﴿قَالُوا﴾ بألسنة استعداداتهم موافقًا لقلوبهم: ﴿الْحَمْدُ﴾ أي: جنس الحمد والثناء الشامل لجميع محامد جميع الحامدين قولاً وفعلاً وحالاً ومقالاً، مختص ﴿لِلَّهِ﴾ المستحق بالاستحقاق الذاتي والوصفي ﴿الَّذِي أَذْهَبَ﴾ وأزال ﴿عَنَّا الْحَزَنَ﴾[1] المورث لنا من لوازم تعيناتنا وإمكاننا ﴿إِنَّ رَبَّنَا﴾ الذي ربانا بأنواع الكرامة، ونجانا عن مضيق الإمكان المورث لأنواع الخذلان والخسران ﴿لَغَفُورٌ﴾ لذنوب أنانياتنا ﴿شَكُورٌ﴾ [فاطر: 34] يقبل منا، يقربنا إلى فضاء توحيده بتوفيقه وتأييده.

إذ هو ﴿الَّذِي أَحَلَّنَا﴾ وأقامنا بفضله ولطفه ﴿دَارَ الْمُقَامَةِ﴾ أي: منزل الإقامة والخلود ﴿مِن فَضْلِهِ﴾ بنا ولطفه معنا؛ إذ لا موجب منا يوجبها لنا، ولا يجب عليه سبحانه إيصالنا إليها آمنين مترفهين بحيث ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ﴾ تعب وعناء مثل ما مسنا في الابتلاء ﴿وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [فاطر: 35] أي: فترة وكلال تعقب النصب.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ

(1) قال روزبهان: أهل المعرفة إذا دخلوا جنان المشاهدة، وأدركوا أنوار المكاشفة، وجلسوا على بساط القربة، وشربوا شراب الزلفة، وفازوا من آلام الفرقة في حجال الوصلة هيجهم حالهم إلى حمد خالقهم، والثناء عليه بما أولاهم من لطيف كراماته وسنا مشاهداته حين فازوا من هجوم الأحزان في قلوبهم من خوف أليم الفراق وطريان النفاق بعد حقيقة الاشتياق، وأقروا بأن ذلك من لطفه الخاص بلا امتحان.

صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾﴾ [فاطر: 36-38].

نفى سبحانه بعد نفي الملزوم؛ مبالغةً وتأكيدًا، ثم أردف سبحانه وعد المؤمنين بوعيد الكافرين على مقتضى سنته المستمرة في كتابه، فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله وأعرضوا عن كتبه ورسله، وأنكروا بالبعث والحشر وإعادة المعدوم ﴿لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ أي: معدة مسعرة لهم؛ ليعذبوا بها في النشأة الأخرى تعذيبًا شديدًا إلى حيث ﴿لَا يُقْضَى﴾ ولا يحكم ﴿عَلَيْهِمْ﴾ بالموت من عنده سبحانه ﴿فَيَمُوتُوا﴾ كي يستريحوا، بل كلما أشرفوا على الهلاك يعادوا ويعذبوا ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ أبدًا، ولا يمهلون ساعة حتى يتنفسوا، بل صاروا معذبين على التعاقب والتوالي أبدًا بلا فرجة أصلاً، كأبناء الدنيا المعذبين في دار الحرمان بنيران الإمكان إلى حيث تستوعب جميع أوقاتهم وأزمانهم، بحيث لا يسع لهم التنفس والتفرج أصلاً ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ما نجازي أولئك المصرين على الكفر والعناد ﴿نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ [فاطر: 36] لحقوق نعمنا، منكر لمقتضيات جودنا وكرمنا.

﴿وَهُمْ﴾ من شدة فزعهم وهولهم ﴿يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾ ويستغيثون من الله، صارخين، متحسرين، قائلين من كمال الضجرة والحسرة: ﴿رَبَّنَا﴾ يا من ربانا بأنواع اللطف والكرم، فكفرناك وأعرضنا عنك وعن كتبك ورسلك ﴿أَخْرِجْنَا﴾ وأعدنا منها إلى الدنيا كرة أخرى ﴿نَعْمَلْ صَالِحًا﴾ مقبولاً عندك، مرضيًا لك ﴿غَيْرَ﴾ العمل ﴿الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ عنادًا ومكابرة، فالآن ظهر لنا الحق وبطلان ما كنا نعمل من الأعمال الفاسدة الغير المطابقة لكتبك ودين رسلك، فلو أخرجتنا وأعدتنا لآمنا بك وبكتبك ورسلك، وبجميع ما جاءوا به من عندك.

وبعدما تمادوا وتطالوا في بث الشكوى، قيل لهم من قبل الحق على سبيل التوبيخ والتقريع: ﴿أَ﴾ تطلبون المهلة منا وتستمهلون عنا ﴿وَلَمْ نُعَمِّرْكُم﴾ ونمهلكم أيها المسرفون المفرطون في الدنيا طويلاً إلى حيث يسع فيه جميع ﴿مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ أي: وقت وسيع، يتذكر فيه من كان بصدد التذكر والتنبه، وهو من وقت البلوغ إلى ستين سنة غالبًا، ولم تتذكروا في تلك المدة لا من تلقاء أنفسكم مع أنكم مجبولون

على فطرة التذكر ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿جَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ المذكر، المنذر لكم عن أمثال ما أنتم عليه الآن، فأنكرتم له ولم تتذكروا أيضًا بقوله، حتى ظهر عليكم أمارات الشيب المذكر المخبر لكم للرحيل إلى السفر الطويل، ومع ذلك لم تتزودوا لها، فالآن قد انقضى وقت التذكر والتدبر، ومضى أوان التدارك والتلاقي، تطلبون العود والخروج؟! هيهات هيهات، إن وقت التفقد قد فات ﴿فَذُوقُوا﴾ العذاب المخلد بدل تلك اللذات، فاعلموا الآن ﴿فَمَا لِلظَّالِمِينَ﴾ الخارجين عن مقتضى حدود الله ﴿مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: 37] ينصرهم في رفع العذاب، أو يشفع لهم عند الله لتخفيفه عنهم، بل هم خالدون في النار أبد الآباد، لا سبيل لنجاتهم أصلاً.

ربنا بعدنا عن سخطك وغضبك، وأحينا وأمتنا على مقتضى إرادتك ورضاك وارزقنا في النشأة الأخرى لقياك، إنك على ما تشاء قدير.

وكيف يسع لأحد من المخلوقات أن يشفع عنده سبحانه لعصاة عباده أو ينصرهم في الإنقاذ عن عذابه بعدما ثبت جرائمهم في حضرة علمه وتعلق إرادته بأخذهم على ظلمهم؟!.

﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المطلع على جميع ما لاح عليه برق الوجود ﴿عَالِمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ﴾ أي: بواطن ما في العلويات ﴿وَالْأَرْضِ﴾ أي: بواطن ما في السفليات أيضًا، وكيف يخفى عليه سبحانه ما في سرائر عباده وضمائرهم ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه ﴿عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [فاطر: 38] أي: جميع مكنونات الصدور ومضمراتها، ومقتضيات استعداداتهم وقابلياتهم مطلقًا؛ لأنه المراقب لهم في جميع حالاتهم.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ الظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ ۞ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾ [فاطر: 39-41].

فكيف تغفلون عنه سبحانه وتذهلون عن تذكره أيها الغافلون، مع أنه سبحانه

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ﴾[1] عن ذاته وأظهركم على صورته وأعطاكم التصرف ﴿فِي الأَرْضِ﴾ وسلطكم على عموم ما عليها، وسخر لكم جميع ما فيها من المواليد؛ تتميمًا لخلافتكم وتكريمًا لكم على سائر مخلوقاته، وبعدما فعل بكم سبحانه من الكرامة والإفضال وحسن الفعال ما فعل ﴿فَمَن كَفَرَ﴾ وأعرض عن الإيمان به سبحانه وبكتبه ورسله وبما جرى في لوح قضائه وحضرة علمه ﴿فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ أي: يحمل عليه وبال كفره وإعراضه، وينتقم عنه على مقتضاه بلا لحوق شين وعيب عليه سبحانه؛ إذ هو في ذاته منزه عن إيمان عباده وكفرهم، بل ﴿وَلَا يَزِيدُ الكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ﴾ أي: إصرارهم على الشرك واستنكافهم عن الإيمان بالله والكتب والرسل ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ المطلع على سرائرهم وضمائرهم ﴿إِلَّا مَقْتًا﴾ أي: غضبًا وبغضًا شديدًا منه سبحانه إياهم، وطردًا لهم عن ساحة عز قبوله ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿لَا يَزِيدُ الكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ﴾ وشركهم في النشأة الأولى ﴿إِلَّا خَسَارًا﴾ [فاطر: 39] نقصانًا وحرمانًا في النشأة الأخرى عما أعد للمؤمنين من أنواع الكرامات والمقامات العلية، لا خسران أعظم منه.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل للمشركين؛ تقريعًا لهم وتبكيتًا بعدما سجلنا عليهم المقت والطرد وأنواع الخسران والخذلان: ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ وأبصرتم أيها المجبولون على الغواية والعناد ﴿شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ وتدعون آلهة ﴿مِن دُونِ اللهِ﴾ مشاركين له سبحانه في الألوهية والربوبية ﴿أَرُونِي﴾ وأخبروني أيها المكابرون المعاندون ﴿مَاذَا خَلَقُوا﴾ وأوجدوا ﴿مِنَ الأَرْضِ﴾ أي: أي شيء خلقوا في الأرض بالاستقلال والاختيار حتى يتصفوا بالألوهية؟ ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ﴾ أي: أروني هل لهم مشاركة مع الله ﴿فِي السَّمَوَاتِ﴾ أي: خلقها وإبداعها ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا﴾ أي: أروني هل أنزلنا عليهم كتابًا دالاً على مشاركتهم معنا في الألوهية والربوبية؟ ﴿فَهُمْ﴾ أي: أولئك المدعون المكابرون مطلعون، فائزون ﴿عَلَى بَيِّنَةٍ مِّنْهُ﴾ أي: حجج ودلائل واضحة من الكتاب دالة على

(1) قال في التأويلات: يشير إلى أن كل واحد من الأفاضل والأراذل خليفة من خلفائه في أرض الدنيا والأفاضل يظهرون جمال صفاته في مرآة أخلاقهم الربانية وهو سبحانه يتجلى بذاته وجميع صفاته بمرآة قلوب الصادقين منهم؛ لتكون مرآة قلوبهم لجمال صفاته وجلال ذاته مظهره، والأراذل يظهرون جمال صنائعه وكمال بدائعه في مرآة حرفهم وصنعة أيديهم ومن خلافتهم أن الله تعالى استخلفهم في خلق كثير من الأشياء كالخبز، فإنه تعالى يخلق الحنطة بالاستقلال، والإنسان بخلافته يطحنها ويخبزها، وكالثوب فإنه تعالى يخلق القطن والإنسان يغزله وينسج منه الثوب بالخلافة.

شركة أولئك التماثيل العاطلة مع العليم القدير الحكيم، فظاهر أنه ما أنزل إليهم كتابًا كذلك ﴿بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ﴾ أي: ليس الباعث لهم على ادعاء الشرك أمثال هذه المذكورات من الدلائل العقلية والنقلية، بل لا باعث لهم سوى الوعد الكاذب الذي يعد بعضهم بعضًا، وبالجملة: ما يعد الظالمون الخارجون عن مقتضى الحدود الإلهية ﴿بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ [فاطر: 40] وتغريرًا من الشرفاء بالأراذل منهم، والرؤساء بالضعفاء، وتلبيسًا من أصحاب الثروة على ذوي الأحلام السخيفة منهم؛ حفظًا لجاههم وسيادتهم، والله المطلع بجميع حالات عباده يعلم تغريرهم وتلبيسهم ويمهلهم، ولا يعاجل بالانتقام لكمال حلمه.

﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المتعزز برداء العظمة والكبرياء ﴿يُمْسِكُ﴾ ويضبط ﴿السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ ويمنعهما من ﴿أَن تَزُولَا﴾ بشرك المشركين، وافترائهم على الله بإثبات الشركاء له، وبشؤم عصيانهم وفسقهم فيما بينهم ﴿وَلَئِن زَالَتَا﴾ ولم يمسكهما سبحانه ﴿إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ﴾ أي: ما أمسكهما عن الزوال من أحد بعد الله سبحانه، لكنه سبحانه أمسكهما، ولم يعاجل بانتقام عصاة عباده ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه ﴿كَانَ﴾ في ذاته ﴿حَلِيمًا﴾ لا يعاجل بالانتقام عند ظهور الجرائم ﴿غَفُورًا﴾ [فاطر: 41] لمن تاب عنهما، وأناب إلى الله مخلصًا.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا (42) اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا (43)﴾ [فاطر: 42-43].

﴿وَ﴾ من كمال حلم الله وإمهاله على المستوجبين لأنواع المقت والانتقام بعدما عهدوا مع الله ونقضوا عهودهم، وإن كفار قريش خذلهم الله ﴿أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ أي: اجتهدوا في تأكيدها، وبالغوا في تغليظها قبل بعثة النبي ﷺ حين سمعوا أن من أهل الكتاب قوم كذبوا رسلهم، فأنكروا عليهم ولم يقبلوا من الرسل قولهم، فأنكروا عليهم مقسمين: والله ﴿لَئِن جَاءَهُمْ﴾ يعني: قريشًا ﴿نَذِيرٌ﴾ مرسل من عند الله، ينذرهم عما لا يعنيهم ويرشدهم إلى ما يعنيهم ﴿لَّيَكُونُنَّ﴾ في الإطاعة والانقياد للنبي النذير البشير ﴿أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ﴾ أي: كل واحد وأحد منا أهدى من كل واحد

واحد من النصارى واليهود وغيرهم من الأمم، فواثقوا عهودهم مع الله على ذلك ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ أي: نذير وبشير هو أكمل من سائر المرسلين المبشرين المنذرين، وأفضل منهم؛ يعني: محمدًا ﷺ ﴿مَا زَادَهُمْ﴾ مجيئه وبعثه ﴿إِلَّا نُفُورًا﴾ [فاطر: 42] أي: نفرة عن الحق وإعراضًا عن أهله، وتباعدًا عن قبول قوله ودينه.

وإنما أنكروا له وأعرضوا عنه وعن دينه ﷺ ﴿اسْتِكْبَارًا﴾ أي: طلبوا كبرًا وخيلاء ﴿فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ﴾ أي: طلبوا أيضًا أن مكروا المكر السيئ، وأصل التركيب هذا، فعدل إلى صورة المضاف إلى السيئ اتساعًا؛ تأكيدًا ومبالغة، والمكر السيئ: كل عمل قبيح صدر عنهم أو الشرك أو إرادة قتله ﷺ.

قال ﷺ: «لا تمكروا وتعينوا ماكرًا فإن الله يقول: ﴿وَلَا يَحِيقُ﴾ - أي: يحل ويحيط - ﴿الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾»[1] وهو الماكر، فلحق وبال الشرك للمشركين وكذا وبال كل قبيح ومكروه عائد إلى فاعله ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ﴾ أي: ما يمهلون وينتظرون أولئك المشركون؛ يعني: أهل مكة ﴿إِلَّا سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: سنة الله فيهم بأن عذب سبحانه مكذبيهم ومصريهم على الإنكار والتكذيب، وبعدما ثبت في علم الله ولوح قضائه تعذيبهم فلا بدَّ أن يقع حتمًا ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ﴾ وهي: نزول العذاب على المكذبين ﴿تَبْدِيلًا﴾ إن تعلق مشيئته به وثبت في لوح قضائه؛ إذ لا يبدل الحكم دونه سبحانه ﴿وَ﴾ أيضًا ﴿لَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: 43] بأن ينتقل عذاب المكذبين العاصين إلى المصدقين المطيعين البريئين من العصيان والطغيان.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴿٤٥﴾﴾ [فاطر: 44-45].

﴿أَ﴾ ينكرون سنة الله في الأمم الماضية الهالكة بتعذيب الله إياهم بسبب تكذيب الرسل والإنكار عليهم ﴿وَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا﴾ بنظرة العبرة ﴿كَيْفَ كَانَ

(1) ذكره حقي في «تفسيره» (11/303).

عَاقِبَةُ﴾ القوم ﴿الَّذِينَ﴾ مضوا ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ مكذبين لرسله ﴿وَ﴾ الحال أنهم قد ﴿كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ﴾ أي: من هؤلاء المكذبين لك يا أكمل الرسل ﴿قُوَّةً﴾ وقدرة، وأكثر شوكة وأموالاً وأولادًا ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿مَا كَانَ اللهُ﴾ المتعزز برداء العز والعلاء على جميع ما جرى في ملكه من الأشياء ﴿لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ﴾ بأن يفوت عنه شيء حقير ويعزب عن حضرة علمه ذرة يسيرة لا ﴿فِي السَّمَوَاتِ﴾ أي: العلويات ﴿وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: السفليات، وكيف يفوت عن خبرته سبحانه شيء ﴿إِنَّهُ﴾ في ذاته ﴿كَانَ عَلِيمًا﴾ لا يعزب عن حضرة علمه شيء ﴿قَدِيرًا﴾ [فاطر: 44] على إظهار ما في خزانة علمه بلا فترة وفتور، وفطور وقصور.

﴿وَ﴾ من كمال حلم الله على عباده، ونهاية رأفته ورحمته منهم أنه ﴿لَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ﴾ المطلع لجميع ما جرى في ملكه من الجرائم الموجبة للأخذ والانتقام ﴿النَّاسَ﴾ الذين كلفوا من عنده سبحانه بترك الجرائم والآثام المانعة من الوصول إلى المبدئ الحقيقي ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾ أي: شؤم ما اكتسبوا لأنفسهم من المعاصي التي منعوا عنها ﴿مَا تَرَكَ﴾ سبحانه ﴿عَلَى ظَهْرِهَا﴾ أي: على ظهر الأرض ﴿مِن دَابَّةٍ﴾ أي: متحركة من المكلفين غير مأخوذة بجرم، بل بجرائم كثيرة عظيمة؛ إذ قلما يخلو إنسان عن طغيان ونسيان ﴿وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ﴾ أي: يؤخر أخذهم سبحانه ويمهلهم ﴿إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ معين مقدر للأخذ والانتقام، وهو يوم القيامة ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ﴾ الموعود المعين عند الله، المعلوم له سبحانه فقط، بلا إفشاء وإطلاع منه لأحد من أنبيائه ورسله، أُخذوا حينئذ بما اقترفوا من الجرائم والمعاصي بلا فوت شيء منها ﴿فَإِنَّ اللهَ﴾ المراقب، المحافظ على جميع ما جرى في ملكه وملكوته ﴿كَانَ بِعِبَادِهِ﴾ في جميع أوقات وجودهم، بل باستعداداتهم وقابلياتهم، وما جرى عليهم فيها ﴿بَصِيرًا﴾ [فاطر: 45] شهيدًا مطلعًا يجازيهم على مقتضى إطلاعه وخبرته بأعمالهم ونياتهم فيها.

ربنا أصلح لنا عواقب أمورنا ويسر علينا كل عسير.

خاتمة السورة

عليك أيها السالك، المتشمر لإعداد زاد يوم الميعاد، وفقك الله على إتمامه أن تلف شملك وتجمع همك للركون إلى الآخرة التي هي دار الخلود والقرار، وتجتهد في رفع الموانع والشواغل العائقة عن هذا الميل، فلك أن تنقطع عن مألوفاتك ومشتهياتك التي هي أسباب الأخذ والبطش الإلهي، وتنخلع عن لوازم تعيناتك

المشتملة على أنواع الفتن والمحن حسب ما يسّر الله عليك، معرضًا عن الدنيا الدنية ومستلذاتها البهية ومشتهياتها الشهية؛ إذ لا قرار لها ولا مدار لما يترتب عليها، بل كلها زائل فانٍ، مورث لأنواع الحسرات في النشأة الأولى، ولأشد العذاب والزفرات في النشأة الأخرى.

والمؤيد من عند الله بالعقل المفاض المميز بين الصلاح والفساد، وبين الفاني والباقي، والمرشد والهادي إلى فضاء التوحيد، المتذكر له، كيف يختار الفاني على الباقي واللذات الجسمانية الزائلة سريعًا، الجالبة للأحزان الطويلة على اللذات الروحانية القارة المستتبعة للحالات العلية، والمقامات السنية التي لا يعرضها انقراض ولا انقضاء ولا نفوذ ولا انتهاء؟!.

ربِّ اختم بفضلك عواقب أمورنا بالخير والحسنى، إنك على ما تشاء قدير وبرجاء الراجين جدير.

سورة يس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة يس

لا يخفى على من ترقى من حضيض الجهل وأودية الضلال إلى أوج المعرفة وفضاء الوصال، ومن مهاوي الإمكان وأغوار التعينات المقتضية لأنواع الانحرافات والضلالات إلى استقامة الحالات، وارتفاع المقامات وعلو الدرجات في سبيل السعادات ونيل المرادات، ومن دركات التلون وظلمات التقليد إلى درجات اليقين ونور التوحيد ومقر التمكين، والتقرر فيه بلا تذبذب وتزلزل، أن الوصول والنيل إلى مقعد الصدق الذي هو مقصد أرباب المحبة الخالصة والمودة الصادقة، إنما هو بالاستقامة والاعتدال في عموم الأوصاف والأفعال، مائلاً عن كلا طرفي الإفراط والتفريط المذمومين عقلاً وشرعًا بحيث لا يبقى له انحراف عن صراط الله الأقوم الأعدل؛ ليتيسر له التحقيق في مرتبة التخلق بأخلاقه، واللياقة برتبة النيابة وأخلافه.

وأكمل المتخلفين وأليقهم للخلافة نبينا ﷺ؛ لذلك ختم بعثته ﷺ أمر الرسالة والنبوة، وتم به ﷺ مكارم الأخلاق، ولم تُبقِ بعثته ﷺ شائبة شبهة في توحيد الذات وسقوط عموم الإضافات، ولهذا قد اضمحل دون ظهور شرعه ﷺ جميع الرسوم والعادات.

لذلك أشار سبحانه إلى كمال مرتبته الجامعة بجميع المراتب، وخاطبه خطاب تعظيم وتكريم بعدما تيمن باسمه الجامع لجميع الأسماء والصفات، فقال: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي تجلي على حبيبه ﷺ باسمه الجامع ﴿الرَّحْمَنِ﴾ على عموم عباده بإرساله ﷺ إليهم وبعثه عليهم ﴿الرَّحِيمِ﴾ عليه ﷺ حيث جعله مستويًا على صراط مستقيم هو صراط توحيده الذاتي.

﴿يس ﴿١﴾ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ﴿٨﴾

﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩﴾ [يس: 1-9].

﴿يس﴾[1] [يس: 1] يا من تحقق بينبوع بحر اليقين، وسبح فيه سالمًا عن الانحراف والتلوين

﴿وَ﴾ حق ﴿الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ [يس: 2] المحكم نظمه وأسلوبه، المتقن معناه وفحواه.

﴿إِنَّكَ﴾ يا أكمل الرسل وخاتم الأنبياء، المبعوث إلى كافة البرايا ﴿لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [يس: 3] المتمكنين

﴿عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [يس: 4] موصل إلى التوحيد الذاتي، بلا عوج وانحراف.

وكيف لا يكون القرآن العظيم حكيمًا مع أنه ﴿تَنزِيلَ﴾ أي: منزل من عند ﴿الْعَزِيزِ﴾ الغالب، القادر على جميع المقدورات على الوجه الأحكم الأبلغ ﴿الرَّحِيمِ﴾ [يس: 5] في إنزاله على الأنام؛ ليوقظهم عن نوم الغفلة ونعاس النسيان.

إنما أنزل الحكيم المنان عليك يا أكمل الرسل هذا القرآن ﴿لِتُنذِرَ﴾ أنت ﴿قَوْمًا﴾ لم يبعث فيهم نذير من قبلك ﴿مَا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ﴾ الأقربون أيضًا؛ إذ هم ليسوا من أهل الكتاب وتابعي الملة؛ لتمادي مدة فترة الرسل بعد عيسى - صلوات الله عليه وسلامه - أو المعنى ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا﴾ [يس: 6] بالذي أنذر به آباؤهم الأبعدون.

وبعدما قد تطاول أيام الفترة، انقطع عنهم أثر الإنذار، وصار كأن لم يكن شيئًا مذكورًا، وبالجملة ﴿فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ [يس: 6] أي: القوم الذين قد أرسلت إليهم يا أكمل الرسل، ذاهلون عن الإنذار والمنذر، بل عن مطلق الرشد والهداية؛ إذ هم متولدون في زمان فترة الرسل.

وكيف لا ينذرهم سبحانه ولا سيرسل إليهم من يصلح أحوالهم ﴿لَقَدْ حَقَّ

(1) قال البقلي: افهم أن حروف يس كحروف الطواسين وحروف الحواميم وغيرها من حروف التهجي، الياء إشارة إلى يد القدرة الأزلية، والسين إلى سنا الربوبية، أقسم سبحانه بثلاث صفات: بالقدرة، وسنا الربوبية، والكلام الأزلي، [العرائس].

﴿الْقَوْلُ﴾ وسبق الحكم من الله، ومضى القضاء منه سبحانه ﴿عَلَى أَكْثَرِهِمْ﴾ أي: أكثر أهل مكة بالكفر والعذاب، وعدم الوصول إلى خير المنقلب والمآب، وبعدما قد ثبت في حضرة علمه سبحانه كفرهم وضلالهم ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يس: 7] بالله، ولا يصدقون برسوله وكتابه.

وكيف يؤمنون أولئك المصرون على الكفر والعناد، المقضيون من عندنا بالشقاوة الأزلية ﴿إِنَّا﴾ بمقتضى قهرنا وجلالنا ﴿جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ التي هي سبب التفاتهم وتمايلهم نحو الحق وآلة انعطافهم للإطاعة والانقياد بالدين القويم ﴿أَغْلَالًا﴾ وصيرناهم مغلولين من الأيدي إلى الأعناق، بحيث لا يمكنهم الطأطأة والانخفاض أصلاً، ولا بدَّ للتدين والانقياد من التذلل والخضوع، وكيف يمكنهم هذا ﴿فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ﴾ أي: أغلالهم منتهية إلى لحيتهم ﴿فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ [يس: 8] رافعون رءوسهم، مضطرون برفعها بسبب تلك الأغلال الضيقة، بحيث لا يسع لهم التفات يمنة ويسرة، وفوقًا وتحتًا.

بل ﴿وَجَعَلْنَا﴾ لهم من كمال غضبنا إياهم ﴿مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: قدامهم ﴿سَدًّا﴾ حجابًا كثيفًا ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أيضًا ﴿سَدًّا﴾ غطاء غليظًا كذلك، فصاروا محفوفين بين الحجب الكثيفة المانعة عن إبصار نور الهداية والتوحيد، وبالجملة: ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ﴾ أي: أعمينا عيون بصائرهم التي هي سبب رؤية الآيات ودرك الدلائل القاطعة والبراهين الساطعة ﴿فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: 9] الشواهد الظاهرة والآيات الباهرة حتى يرشدهم إلى الهداية والإيمان، فحرموا عن قبول الحق، وانصرفوا عن صراطه، فهلكوا في تيه الغواية والضلال، أعاذنا الله وعموم عباده عن ذلك.

﴿ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾ [يس: 10-12].

﴿وَ﴾ بعدما سجلنا عليهم الكفر وحكمنا شقاوتهم حكمًا مبرمًا، لا يفيدهم إنذارك يا أكمل الرسل وإرشادك إياهم، بل ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يس: 10] إذ ختمنا على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة

غليظة مانعة عن قبول الحق والتذكر به وإبصار علاماته، وبالجملة: هم مقضيون في سابق علمنا ولوح قضائنا بالعذاب الأليم والضلال البعيد، فلا تتعب نفسك يا أكمل الرسل في هدايتهم وإرشادهم، إنك لا تهدي من أحببت من قرابتك وأرحامك، ولكن الله يهدي من يشاء، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات، إن الله عليم بما يصنعون من الكفر والإصرار.

بل ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ﴾ ويقبل منك الإنذار المصلح والإرشاد المفيد ﴿مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾ أي: سمع القرآن سمع قبول، وامتثل بأوامره ونواهيه عن تدرب تام وتأمل صادق، واتعظ بتذكيراته، واعتبر عن عبره وأمثاله ﴿وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ﴾ أي: خاف عن قهره وانتقامه واجتنب عن سخطه وغضبه ملتبسًا ﴿بِالْغَيْبِ﴾ أي: قبل نزول العذاب وحلوله، معتقدًا أنه سبحانه قادر على جميع أنواع الانتقامات ﴿فَبَشِّرْهُ﴾ يا أكمل الرسل بعدما سمع بالآيات سمع قبول ورضًا، وامتثل بما فيها مخلصًا، خائفًا، راجيًا ﴿بِمَغْفِرَةٍ﴾ لفرطاته المتقدمة ﴿وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ [يس: 11] لأعماله الصالحة الخالصة بلا فوت شيء منها، بل بأضعافها وآلافها عناية منا إياه وتفضلاً عليه.

وكيف يفوت عن إحاطة علمنا شيء من حقوق عبادنا ﴿إِنَّا﴾ من مقام عظيم جودنا وكمال قدرتنا ﴿نَحْنُ نُحْيِي﴾ ونهدي حسب اقتضاء تجلياتنا اللطفية والجمالية ﴿الْمَوْتَى﴾ الهالكين بموت الجهل والضلال، التائهين في بيداء الوهم والخيال حيارى سكارى، مدهوشين، محبوسين، مسجونين في مضيق الإمكان بحياة العلم والإيمان والتوحيد والعرفان ﴿وَنَكْتُبُ﴾ في لوح قضائنا وحضرة علمنا جميع ﴿مَا قَدَّمُوا﴾ وأسلفوا لأنفسهم من خير وشر، وحسنة وسيئة، بحيث لا يشذ منها شيء لنجازيهم بها على مقتضاها ﴿وَ﴾ نكتب أيضًا ﴿آثَارَهُمْ﴾ من السنن المستحسنة والأخلاق المحمودة والآداب المرضية المقبولة، وكذا أيضًا ما سنوا ووضعوا من أسوأ العادات والأخلاق وأخسها ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ صدر ويصدر من عبادنا ﴿أَحْصَيْنَاهُ﴾ وفصلناه بحيث لا يشذ عن حيطة إحصائنا وتفصيلنا شيء من نقير وقطمير، بل الكل مكتوب مثبت ﴿فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ [يس: 12] هو لوح قضائنا وحضرة علمنا.

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا

﴿أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ [يس: 13-19].

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا﴾ أي: مثل يا أكمل الرسل للمشركين المصرين على الشرك والطغيان مثلاً من الذين خلوا من قبلهم، مصرين على الضلال والعناد أمثالهم، بحيث لا ينفعهم إنذار منذر وإرشاد مرشد؛ يعني: ﴿أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ﴾ المصرين على الشرك والعناد، المنهمكين في بحر الغفلة والغرور، والقرية: هي «أنطاكية» والمبشر المنذر هو عيسى - صلوات الرحمن عليه وسلامه - اذكر يا أكمل الرسل وقت ﴿إِذْ جَاءَهَا﴾ أي: القرية ﴿الْمُرْسَلُونَ﴾ [يس: 13] تترى من قبل عيسى عليه السلام؛ ليرشدوا أهلها إلى الإيمان والتوحيد.

﴿إِذْ أَرْسَلْنَا﴾ وأمرنا لنبينا عيسى عليه السلام أولاً بالإرسال ﴿إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ﴾ هما يونس ويحيى، وقيل: غيرهما، فلما جاءا إليهم وأظهرا دعوتهم، وكانوا من عبدة الأوثان ﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾ أي: فاجئوا في تكذيبهما بلا تراخ ومهلة وتأمل وتدبر، وبعدما كذبوهما لم يقبلوا منهما دعواتهما، بل ضربوهما وحبسوهما، واستهزءوا بقولهما ودعوتهما ﴿فَعَزَّزْنَا﴾ أي: قويناهما وأيدنا أمرهما ﴿بِثَالِثٍ﴾ أي: برسول ثالث، وهو: شمعون ﴿فَقَالُوا﴾ أي: الرسل بعدما صاروا جماعة: ﴿إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾ [يس: 14] من قبل عيسى، المرسل من قبل الحق، ينذركم عما أنتم عليه من الباطل الفاسد، وهو عبادة الأوثان، وندعوكم إلى دعوة الحق الحقيق بالألوهية والربوبية، المستحق للعبودية، نرشدكم ونهديكم إلى دينه المنزل من قبل ربه.

وبعدما سمع المشركون منهم ما سمعوا ﴿قَالُوا﴾ في جوابهم مستبعدين منكرين: ﴿مَا أَنتُمْ﴾ أيها المدعون لرسالة الواحد الأحد الصمد، الفرد الوتر، الذي ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: 4،3] ﴿إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ لا مناسبة لكم مع مرسلكم الذي ليس هو من جنس البشر، فلا بدَّ من المناسبة بين المرسل والرسل ﴿وَ﴾ دعواكم الإنزال والإرشاد من عند الإله المنزه عن المكان والجهة ما هي إلا غرور وتلبيس ﴿مَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ﴾ المستغني عن الزمان والمكان، المنزه ذاته عن سمات

الحدوث والإمكان ﴿مِن شَيْءٍ﴾ إذ أمثال هذه الأفعال إنما هي من لوازم الأجسام وأوصاف الإمكان، وهو سبحانه على الوجه الذي وصفتم شأنه مقدس عن أمثاله ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ [يس: 15] يعني: ظهر من دعواكم واستنادكم أمثال هذه الأفعال إلى ربكم أنه ما أنتم في دعواكم هذه إلا كاذبون، مفترون على ربكم ما هو منزه عنه.

وبعدما تفطن الرسل منهم الإنكار والإصرار المؤكد ﴿قَالُوا﴾ في جوابهم أيضًا على سبيل المبالغة والتأكيد؛ تتميمًا لأمر التبليغ والرسالة: ﴿رَبُّنَا﴾ الذي أرسلنا إليكم بوحيه وإلهامه ﴿يَعْلَمُ﴾ بعلمه الحضوري ﴿إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ [يس: 16] من عنده على مقتضى إرادته واختياره؛ إذ لا يجري في ملكه إلا ما يشاء، ولا يقع إلا ما يريد.

﴿وَ﴾ ما لنا شغل بإيمانكم وقبولكم، ولا بكفركم وشرككم، بل ﴿مَا عَلَيْنَا﴾ على مقتضى وحي الله إلينا ﴿إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [يس: 17] أي: التبليغ الصريح الظاهر والبيان الواضح الموضح لرسالته إياكم، بلا فوت شيء منها وتقصير وتهاون بها، وإهداؤكم وإيمانكم مفوض إليه سبحانه في مشيئته، لا علم لنا به.

وبعدما سمعوا منهم المبالغة والتأكيد، انصرفوا عن المقاومة والمكالمة نحو التهديد بالقتل والرجم، حيث ﴿قَالُوا﴾ متطيرين متشائمين من نزولهم ومجيئهم، مستبعدين دعوتهم، منكرين لها: ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ أي: تشاءمنا منا بقدومكم؛ إذ منذ قدمتم ما نزل القطر علينا، اخرجوا من بيننا وارجعوا إلى أوطانكم سالمين، وانتهوا عن دعوتكم هذه ولا تتفوهوا بها بعد، والله ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا﴾ عن هذياناتكم ومفترياتكم ﴿لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾ بالحجارة ألبتة ﴿وَ﴾ بالجملة: لو لم تنتهوا ولم تكفوا ﴿لَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1] [يس: 18].

وبعدما سمعتم أيها الغرباء كلامنا هذا، فلكم الإصغاء والقبول والعمل بمقتضاه، وإلا فقد لحق بكم ما لحق.

﴿قَالُوا﴾ أي: الرسل، بعدما سمعوا منهم ما سمعوا وتفرسوا بغلظتهم وتشددهم في الإنكار والجحود: ﴿طَائِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ أي: سبب شؤمكم إنما هو من أنفسكم وبسوء صنيعكم وأعمالكم ﴿أَ﴾ لم ينتبهوا ولم يتفطنوا أنكم ﴿إِن ذُكِّرْتُم﴾ وقبلتم قولنا،

(1) وذلك أن الإلهام والجذبة يقويان القلب وصفاته ويذيبان النفس وصفاتها ويمنعان النفس عن استيفاء شهواتها والبلد بلدتنا الدنيا فلهذا أنشأ النفس وصفاتها بهؤلاء المرسلين. [التأويلات].

واتصفتم بما ذكرنا من الإيمان والتوحيد، لم يلحقكم شيء من المكروه، ومتى لم تتعظوا ولم تتصفوا لحقكم ما لحقكم بشؤم أنفسكم، فتتطيرون بنا عدوانًا وظلمًا ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾ [يس: 19] مجاوزون في الإلحاد والعناد عن سبيل الهداية والرشاد، ومن كمال إسرافكم وإفراطكم تطيرتم بدين الله ودعوة رسله إليه.

﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَـٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَـٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَـٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [يس: 20-27]

﴿وَ﴾ بعدما سمعوا من الرسل ما سمعوا، صمموا العزم إلى قتلهم واجتمعوا ليرجموهم، وانتشر الخبر بين أظهر المدينة، وسعى من يسمع نحوهم حتى ﴿جَاءَ﴾ حينئذ ﴿مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ﴾ من السامعين، وهو حبيب النجار، وكان مؤمنًا موحدًا، يعبد الله، وكان قد لقي الرسولين الأولين حين دخلا المدينة أولاً، فسلم عليهما وتكلم معهما، فقال لهما: من أنتما؟ قالا: رسولا عيسى النبي ﷺ، إنما أرسلنا لندعوكم إلى طريق الحق وننقذكم من عبادة الأوثان، فقال: أمعكما آية؟ قالا: ونبرئ الأكمه والأبرص، فجاء بابنه المريض منذ سنين فمسحاه، فقام الابن سالمًا، نشفي المريض، فآمن لهما وصدقهما وانفصل عنهما مؤمنًا، واشتغل بعبادة الله.

فدخلا البلد، وأظهرا الدعوة لأهلها وأنكروا عليهما، واتفقوا بقتلهما، فأُخبر الحبيب بذلك، فجاء على الفور حال كونه ﴿يَسْعَى﴾ ويذهب سريعًا، فلما وصل المجمع ورآهم مجتمعين عليهما، فسألهما على رءوس الملأ: من أنتما؟ قالا: رسولا عيسى النبي ﷺ ندعوكم إلى توحيد الحق، قال: هل تسألان الأجر والجعل لرسالتكما؟ قالا: لا، ما أجرنا إلا على ربنا، ثم التفت نحو القوم ﴿قَالَ يَا قَوْمِ﴾ ناداهم وأضافهم على نفسه؛ ليقبلوا منه كلامه، وكان مشهورًا بينهم بالورع واعتدال الأخلاق: ﴿اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ [يس: 20] المبعوثين إليكم بالحق؛ ليرشدوكم إلى طريق الحق

وتوحيده، إنما جمع المرسلين مع أنهما اثنان؛ لأن الحبيب منهم حقيقة.

﴿اتَّبِعُوا مَن لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا﴾ أي: اتبعوا هاديًا بالحق على الحق إلى الحق، خالصًا لوجه الحق بلا غرض نفساني من جعل وغيره، كالمتشيخة المزورين الذين يجمعون بتلبيساتهم وتغريراتهم أموالاً كثيرة من الحمقى المتمائلين نحو أباطيلهم وتزويراتهم ﴿وَ﴾ كيف لا تتبعون أيها العقلاء الطالبون للهداية والصواب ﴿هُم مُّهْتَدُونَ﴾ [يس: 21] مصيبون، متصفون بالرشد والهداية قولاً وفعلاً.

ثم لما سمع القوم من الحبيب ما سمعوا، عيروه وشنعوا عليه، وقالوا له: لست أنت أيضًا على ديننا ودين آبائنا، بل ما أنت إلا على دين هؤلاء المدعين ﴿وَ﴾ بعدما تفرس الحبيب منهم الإنكار عليه أيضًا، قال كلامًا ناشئًا عن محض الحكمة والفطنة على وجه العظة والتذكر لنفسه؛ ليتعظوا به على سبيل الالتزام؛ إذ هو أسلم الطرق في العظة والتذكير، وأدخل في النصيحة والتنبيه: ﴿مَا لِيَ﴾ أي: أيّ شيء عرض عليّ ولحق بي ﴿لَا أَعْبُدُ﴾ وأتوجه على وجه التذلل والانكسار للمعبود ﴿الَّذِي فَطَرَنِي﴾ على فطرة العبودية؛ أي: أبدعني وأظهرني من كتم العدم ولم أك شيئًا مذكورًا، ورباني بأنواع اللطف والكرم وأفاض عليّ من موائد لطفه وإحسانه، سيما العقل المفاض المرشد إلى المبدأ والمعاد ﴿وَ﴾ كيف لا أعبد وأتوجه نحوه؛ إذ ﴿إِلَيْهِ﴾ سبحانه الموصوف بالأسماء الحسنى ونعوت الجلال والجمال، لا إلى غيره من الأوثان والأصنام الحادثة، الهالكة في ذواتها، العاطلة عن الأوصاف الكاملة، المنحطة عن رتبة الألوهية والربوبية ﴿تُرْجَعُونَ﴾ [يس: 22] أنتم أيها الأظلال الهالكون، التائهون في بيداء ظهوره، حيارى هائمين رجوع الأضواء إلى شمس الذات، والأمواج إلى بحر الوحدة الذاتية.

﴿أَ﴾ أنكروا المعبود على الحق، المظهر لما في الوجود ﴿أَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً﴾ باطلة من الأوثان، عاطلة عن التصرفات مطلقًا، منحطة عن رتبة العبودية، فكيف عن الربوبية والألوهية؟! وسميتهم شفعاء مغيثين لدى الحاجة مع أنه ﴿إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ﴾ القادر المقتدر على أصناف الإنعام والانتقام ﴿بِضُرٍّ﴾ أي: مصيبة وسوء يتعلق مشيئته على إنزاله إليّ ﴿لَّا تُغْنِ﴾ ولا تدفع ﴿عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا﴾ من بأس الله وعذابه، بل لا تنفعني شفاعتهم أصلاً ﴿وَلَا يُنقِذُونِ﴾ [يس: 23] بالمعاونة والمظاهرة عن عذابه سبحانه أيضًا.

وبالجملة: ﴿إِنِّي﴾ بواسطة اتخاذهم شركاء لله، شفعاء عنده ﴿إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: 24] وغواية عظيمة ظاهرة؛ إذ اختيار ما لا ينفع ولا يضر على الضار النافع المعطي المانع، أو ادعاء مشاركتهم معه وشفاعتهم عنده سبحانه من أشد الضلالات وأردأ الجهالات.

﴿إِنِّي﴾ بعدما تفطنت بوحدة الحق واستقلاله في الوجود والآثار ﴿آمَنتُ بِرَبِّكُمْ﴾ الذي هو ربي ورب جميع ما في حيطة الوجود وتحت ظله من الأكوان غيبًا وشهادة، واعترفت بتوحيده واستقلاله بالتصرف في ملكه وملكوته بعدما كوشفت بوحدة ذاته ﴿فَاسْمَعُونِ﴾ [يس: 25] أيها العقلاء السامعون، المدركون مضمون قولي، واتصفوا بما فيه، وتذكروا به إن كنتم تعلمون.

فلما سمعوا منه توصيته وتذكيره، أخذوا في قتله وهلاكه، فوطئوه بأرجلهم إلى حيث يخرج أمعاءه من دبره، وهو في تلك الحالة زاد انكشافه بربه، واستولى عليه سلطان الوحدة وجذبته العناية الإلهية، وأدركته الكرامة القدسية حيث ﴿قِيلَ﴾ له من قبل الحق حينئذ: اخرج من هويتك وانخلع من أنانيتك ﴿ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾ أي: فضاء الوحدة التي لا فيها وصب ولا نصب، ولا عناء ولا تعب، فخرج وانخلع، فدخل على الفور واتصل، ثم بعدما وصل إلى ما وصل ﴿قَالَ﴾ متمنيًا، متحسرًا لقومه بعدما لحق بفضاء الوصال: ﴿يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ [يس: 26].

﴿بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي﴾ وانكشف علي وجذبني نحوه بعدما ستر عني أنانيتي ومحا مني هويتي ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ [يس: 27] المكرمين: الآمنين الفائزين المستبشرين الذين ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: 62].

﴿۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [يس: 28-35].

﴿وَ﴾ بعدما قتلوه ورفعناه عناية منا إياه، وأدخلناه في جنة وحدتنا مغفورًا مسرورًا، وكشفنا عنه غطاءه، أخذنا في انتقام قومه عنه، فأهلكناهم بصيحة واحدة صاح بها جبريل ﷺ عليهم بأمرنا إياه ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ﴾ أي: قوم الحبيب، وهم: أهل أنطاكية ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي: بعد قتله؛ لننتقم عنهم لأجله ﴿مِن جُندٍ مِّنَ﴾ جنود ﴿السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ [يس: 28] أي: وما ثبت منا، وما جرى في لوح قضائنا إنزال الملائكة لإهلاكهم كما جرت سنتنا لإهلاك سائر الأمم الهالكة.

بل ﴿إِن كَانَتْ﴾ أي: ما كانت علة هلاكهم ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ أي: ما وقعت وصدرت منا لإهلاكهم إلا صيحة واحدة - على القراءتين بالرفع والنصب - وذلك أنا بمقتضى قهرنا وجلالنا أمرنا جبريل ﷺ بأن يأخذ بعضادة باب مدينتهم، فأخذ وصاح عليهم مرة واحدة ﴿فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ [يس: 29] أي: فاجئوا جميعًا على الخمود والجمود بعدما سمعوا الصيحة الهائلة؛ يعني: صاروا كالرماد بعدما كانوا أحياء كالنار المشتعلة الساطعة.

ثم قال سبحانه من قبل عصاة عباده، المأخوذين بشؤم ما اقترفوا من المعاصي والآثام: ﴿يَا حَسْرَةً﴾ وندامة وكآبة عظيمة وحزنًا شديدًا ﴿عَلَى الْعِبَادِ﴾ المصرين على العناد بعدما عاينوا العذاب الدنيوي أو الأخروي النازل عليهم حتمًا بسبب إنكارهم على الرسل والمرسل جميعًا، وتكذيبهم بجميع ما جاءوا به من عند ربهم، وليس لهم حينئذ قوة المقاومة والمدافعة؛ لذلك صاروا حيارى، سكارى، هائمين، متحسرين بلا ناصر ومعين وشفيع حميم من نبي ورسول كريم؛ إذ ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ﴾ في نشأتهم الأولى يصلح أحوالهم وأعمالهم لئلا يترتب عليهم الوبال والنكال الموعود في النشأة الأخرى ﴿إِلَّا كَانُوا﴾ من غاية كبرهم وخيلائهم ﴿بِهِ﴾ أي: بالرسول المصلح المرشد لهم ﴿يَسْتَهْزِئُونَ﴾[1] [يس: 30] ويستحقرونه ويستنكفون عن قبول دينه

(1) قال في التأويلات: يشير إلى أن للعباد موضع التحسر إن لم يتحسروا اليوم وذلك لانخراطهم كلهم في سلك واحد من التكذيب ومخالفة الرسل والاستهزاء بهم ومنافاة أولياء الله سبحانه، كما غلبت هذه الخصال الرديئة على أهل زماننا هذا الذين يسمعون القول من المحققين فيتبعون أقبحه ويقعون في أولياء الله ويستهزءون بهم ويكلماتهم المستحسنة إلا من شاء الله به خيرًا من أهل النظر وأدب بأدب الإرادة وقليل ما هم فهددهم الله ﷻ بقوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ [يس:31] يعني: هؤلاء الغفلة الجهلة.

ودعوته، وينكرون عليه كهؤلاء المسرفين المشركين معك يا أكمل الرسل.

﴿أَ﴾ يستهزئون معك - يعني: أهل مكة - وينكرون بدينك وكتابك ﴿لَمْ يَرَوْا﴾ ولم يخبروا ولم يعلموا ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ أي: كثرة إهلاكنا واستئصالنا ﴿قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ﴾ الماضية، ولم يعتبروا مما جرى عليهم بشؤم تكذيبهم وإنكارهم على رسلهم مع ﴿أَنَّهُمْ﴾ أي: الأمم الهالكة السالفة ﴿إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [يس: 31] أي: لا يرجعون إلى هؤلاء المفسدين، المسرفين في تكذيبك وإنكارك يا أكمل الرسل في نشأتهم هذه، بل مضوا وانقرضوا إلى حيث لم يعودوا إلى ما كانوا، وهؤلاء أيضًا سينقرضون إثرهم، ولِمَ لم يتنبهوا ولم يعتبروا مما جرى عليهم مع أنهم إن أُخذوا صاروا كأن لم يكونوا شيئًا مذكورًا أمثالهم؟!.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿إِن كُلٌّ﴾ أي: ما كل من الفرق والأحزاب المنقرضة عن الدنيا عن التعاقب والترادف مردودون إليها، مجتمعة في وقت من الأوقات، بل ﴿لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: 32] يعني: لا يجتمعون إلا عندنا ولا يحضرون جميعًا إلا لدنيا في يوم العرض والجزاء، وفي حضرة علمنا ولوح قضائنا.

وبالجملة: لا اجتماع لهم بعد انقراضهم ماداموا مسجونين في سجن الإمكان، مقيدين بسلاسل التعينات وأغلال الهويات والأنانيات، بل متى خلصوا عن مضيق الطبيعة وانخلعوا عن لوازمها، حضروا واجتمعوا، بل وصلوا واتصلوا، وحينئذ لم يبق الفرق، وصاروا ما صاروا.

لا إله إلا هو ولا موجود سواه، هذا على قراءة «لمّا» بالتشديد، وأما على قراءة من قرأ بالتخفيف كان «إن» حينئذ مخففة من الثقيلة، و«ما» في «لما» مزيدة للتأكيد، واللام للفرق بين المخففة والنافية، والمعنى: أنه - أي: الشأن - كل من الأمم الهالكة السالفة مجموعون ألبتة لدينا، محضرون عندنا يوم الجزاء، أو في حضرة لاهوتنا بعد انخلاعهم عن لوازم ناسوتهم.

﴿وَآيَةٌ﴾ عظيمة منا، دالة على كمال قدرتنا على جمعهم وإحضارهم يوم الجزاء ﴿لَّهُمُ﴾ أن يستدلوا بها على صدقها ﴿الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ﴾ اليابسة الجامدة، التي ﴿أَحْيَيْنَاهَا﴾ وأحضرناها في وقت الربيع بإنزال قطرات الماء المترشحة من بحر الحياة عليها ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا﴾ أي: جنسًا من الحبوبات التي يقتاتون بها ﴿فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ [يس: 33] وبه يعيشون وينعمون، كذلك في النشور أحيينا الأبدان المائتة الجامدة البالية،

المتلاشية في أراضي الأجداث بإنزال الرشحات الفائضة من بحر حياة الوجود بمقتضى الجود، فأعدناهم أحياء كما أبدعناهم أولاً من العدم.

﴿وَ﴾ أيضًا من جملة الآيات التي تدل على كمال قدرتنا: إنَّا ﴿جَعَلْنَا فِيهَا﴾ أي: في الأرض ﴿جَنَّاتٍ﴾ بساتين ومتنزهات مملوءة ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ ومن سائر ما يتفكهون به؛ تتميمًا لتنعمهم وترفههم ﴿وَفَجَّرْنَا﴾ أي: أخرجنا وأجرينا ﴿فِيهَا﴾ أي: في خلال البساتين ﴿مِنَ الْعُيُونِ﴾ [يس: 34] والينابيع الجارية التي لا صنع لهم في إجرائها وإخراجها؛ عنايةً منا إياهم، إبقاء لنضارتها ونزاهتها.

كل ذلك ﴿لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ﴾ أي: من ثمر ما ذكر وقوته، ويقوِّموا أمزجتهم بأنواع ما وهبنا عليهم من النعم حتى يقوموا ويواظبوا على شكرها؛ أداء لحقوقنا إياهم ﴿وَ﴾ كذا علمناهم وأقدرناهم على عموم ﴿مَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ من العقارات والمزارع والبساتين وإجراء الأنهار والقنوات وحفر الآبار ﴿أَ﴾ ينكرون على كمال قدرتنا ووفور حولنا وقوتنا ﴿فَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس: 35] نعمنا الفائضة إياهم على التعاقب والتوالي ولا ينسبونها إلينا، بل ينسبونها إلى الوسائل والأسباب العادية جهلاً وعنادًا، وطغيانًا وكفرًا.

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ (36) وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ (37) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (38) وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (39) لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (40) ﴾ [يس: 36-40].

﴿سُبْحَانَ﴾ القادر المقتدر القيوم المطلق المنزه عن الشبيه والنظير، المتبرئ عن الشريك والوزير، المستقل في التصرف والتدبير ﴿الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ﴾ وقدر الأصناف المتوالدة المتزايدة ﴿كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ﴾ من الشجر والنبات بأجناسهما وأنواعهما وأصنافهما ﴿وَمِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ ذكورهم وإناثهم أنواعًا وأصنافًا وأشخاصًا، وكذا من جميع ما يعلمون من أجناس الحيوانات وأصنافها وأنواعها ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس: 36] من المخلوقات التي لا اطلاع لهم عليها؛ إذ ما من مخلوق إلا وقد خلق شفعًا؛ لأن الفردية والوترية والصمدية كوجوب الوجود، والقيومية المطلقة من أخص أوصاف الربوبية والألوهية، لا شركة فيها للمصنوع أصلاً؛ إذ لا يتوهم التعدد والكثرة في الوجود الذي هو الواجب قطعًا.

﴿وَ﴾ أيضًا ﴿آيَةٌ﴾ عظيمة منا إياهم ﴿لَّهُمُ﴾ أن يتأملوا فيها ويستدلوا بها على كمال قدرتنا وأحكامنا وعلمنا وإرادتنا ﴿اللَّيْلُ﴾ المظلم؛ أي: العدم الأصلي، حين ﴿نَسْلَخُ﴾ ننزع ونظهر ﴿مِنْهُ﴾ أي: من الليل المظلم ﴿النَّهَارَ﴾ المضيء؛ أي: نور الوجود الفائض منا إياهم حسب امتداد أظلال أسمائنا وصفاتنا عليهم ﴿فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾[1] [يس: 37] مستقرون في ظلمة العدم لولا إفاضة الوجود عليهم.

---

(1) قال العارف بالله البيطار فيما أمده الله من الأنوار: اعلم - رحمك الله - أنك إذا جعلت المعنى: ﴿نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ﴾ أي: نبرز منه النهار ونوجده ونظهره، لا يناسب حينئذ قوله: ﴿فَإِذَآ هُم مُّظْلِمُونَ﴾ [يس:37]، بل المناسب: فإذا هم منيرون أو مضيئون أو مشرقون، وما شاكل ذلك، مع أن المقصود خلاف ذلك وهو أن الأمر بين الليل والنهار دوري ما بين الحقائق الأربع المنسحب معناها على كل شيء في الوجود، وهي الأمهات التي هي: ﴿ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد:3].

فهذه الحقائق هي أم كتاب الوجود الإلهي والكوني وبيان كشف المعنى، حينئذ أن جميع المعاني المختلفة عين الحقيقة المؤتلفة فكل معنى من المعاني إن كان أولاً، فآخره ما يقابل معناه، وهذا الآخر هو عينه؛ لأن آخر الدائرة ليس إلا المبتدأ، فالأول عين الآخر، وهما مظهر وظاهر، فإن ظهر الشيء كان ضده هو باطنه، فهو مظهر له، فإن ظهر ما كان باطنًا بطن فيه ما كان ظاهرًا وهو هو، وإلى ذلك الإشارة في قوله تعالى: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء:33] فهي تقرأ طردًا وعكسًا.

فعلى حسب ما قررناه أن النهار إذا تجلى، فالليل هو مظهره المتجلي فيه، فإذا انسلخ فيه النهار من جهة الاسم الظاهر بطن فيه، فكان الليل هو الظاهر والنهار هو الباطن، فلذا قال تعالى: ﴿نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ﴾ [يس:37] أي: نقلب الأمر ونجعل الليل ظاهرًا والنهار باطنًا، ﴿فَإِذَآ هُم مُّظْلِمُونَ﴾ [يس:37]، وبهذا التمهيد الذي بيناه اتضح المعنى غاية الوضوح كما لم يخف على كل نبيه منصف.

ويتفرع على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [يس:38]، أفاد تعالى أن شمس الحقيقة الوجودية الذاتية العينية جريانها مستمر ظهورًا وباطنها هو المستقر الذي منه بدت نورًا، وهاهنا علم من وراء الأفهام اقتضاه الاسم: ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ [يس:38]، الموصوف بأنه: ﴿ٱلْعَلِيمِ﴾ [يس:38].

فمن حقيقة العزة بدا هذا العلم إذ على ما قررناه أولاً أن الدور ما بين الأسماء المختلفة في الأولية والآخرية والظاهرية والباطنية يفيدك حينئذ أنه إن ظهر الحق فالخلق باطنه، وإن ظهر الخلق فالحق باطنه، وإلى ذلك الإشارة بقوله ﷺ: «مولى القوم من أنفسهم» وبقوله ﷺ: «سلمان

منّا أهل البيت») الإشارة بـ سلمان للوجود الإلهي السالم من العدم فهو منّا أهل البيت الإلهي، إذ ليس أهل الظاهر إلا المظاهر.
ألا ترى أن الظاهر لا يظهر منه إلا الصورة، والصورة هي عين الخلق، فالحق باطننا، إنه ظهرنا ونحن باطنه إن ظهر، وعلى هذا يترتب حكم الأول والآخر، فنحن أهل البيت الإلهي الذي دائمًا يريد الله أن يذهب عنّا الرجس؛ رجس العدم؛ لأنا مظاهر أسمائه التي هي شئون ذاته ويطهرنا من السوي تطهيرًا، فقد عاد توحيدنا علينا، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَـٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء:10]، قال: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات:21].
وهذه الطهارة هي غاية الطهارة، إذ لا أطهر من الله جلّ وعلا، فاندفع رجس الشقاء وشره، ولذا نبّه الله تعالى على ذلك بقوله: ﴿طه﴾ [طه:1] أي: يا طاهر من السوى، ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [طه:2] أي: قرآن ذاتنا ﴿لِتَشْقَىٰٓ﴾ [طه:2]، بل لتظهر بحقيقتك النورانية التي هي عين ذاتنا، ثم نبّه بقوله: ﴿إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ [طه:3] أي: يخشى رجس السوى من مظاهر حقيقتك، فبهذا التذكير نريد أن نذهب عنه الرجس وهو ذاهب في نفس الأمر، ولكن لمّا سافر إلى بلده الخليقة نسي المواطن الحقيّة، فذكرنا الله بهذا التذكير، وهذا التذكير هو عين التطهير.
ومما قررناه يبدو لك علم الانقلاب فكما أن محمد ﷺ يقول: «أنا من الله العالم مني» كذلك الحق يقول: «أنا من محمد والعالم مني»فكل منهما لباس للآخر ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة:187].

ولما انكشف لي هذا الأمر أجبت الحق بقوله: «الصوم لي» كما ورد في الحديث: «خلقت الفطر لي فأنا باطنك في صيامك، إذ لولا الاسم المفطر لم يكن الاسم الصائم بل أنا الصائم فأنت لي وصومك لي فبطن أنت وظهر أنا كما كنت أنت الظاهر وأنا الباطن». وبذلك يتحقق أني أنا معنى اسم رمضان فقد قال ﷺ: «إن رمضان اسم من أسماء الله تعالى» والاسم الإلهي (رمضان) يندرج فيه الاسم (المفطر) و(الصائم)، ولذلك ورد: «للصائم فرحتان: فرحة عند فطره، وفرحة عند لقاء ربه» فعادل الإفطار لقاء الرب، وعادل الصيام تنزيه الرب، فمن أفطر فقد شبه من حقيقة: «جعت فلم تطعمني»، ومن صام فقد نزّه، ولذلك ورد في الحديث: «الصوم لا مثل له» فهو من حضرة:﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:11]. وأما اسم رمضان فهو يجمع التنزيه والتشبيه، ولذلك كان نوم صائمه عبادة، فلمّا صُمت وكنت مظهر هذا الاسم الإلهي، وصدق عليّ اسم الله الصائم فتحت أبواب جنان ذاتي الجمالية، وغلقت أبواب نيران شهواتي الجلالية؛ لأن الصوم من المكاره ومظاهرها الجنان والشهوات الطبيعية من الجماليات الظاهرة، وهي في الحقيقة نيران.
ولمّا صُمت سلسلت وقيدت شياطين جوارحي وظهرت ملائكتها، فقيّد شيطان لساني عن الكذب والغيبة، وظهرت منه ملائكة ذكر الله والصلاة والسلام على رسول الله، فمن قرأ القرآن فقد استعاذ بالله من الشيطان الرجيم، وقبل القراءة لا استعاذة إلا تلفظًا ودعاء، والدعاء إجابته

﴿وَ﴾ أيضًا من جملة آياتنا العظام: ﴿الشَّمْسُ﴾ المضيئة، المشرقة على صفائح الكائنات كإشراق نور الوجود المطلق، الفائض على هياكل الموجودات حسب التجليات الإلهية ﴿تَجْرِي﴾ وتسري بلا قرار وثبات بمقتضى أمرنا وحكمنا ﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ قدرناه إياها منتهى ومنزلاً بمقتضى حكمتنا المتقنة المترتبة على تجلياتنا الحِبِّية، المتنشئة من ذاتنا المتصفة بالأوصاف اللطفية الجمالية ﴿ذَٰلِكَ﴾ الجري والسراية على هذا النظام الأبلغ الأبدع ﴿تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ﴾ القادر الغالب المقتدر على عموم المقادير ﴿الْعَلِيمِ﴾ [يس: 38] باستعداداتها وقابلياتها.

﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ﴾ أي: عيّنا حسب قدرتنا الغالبة وحكمتنا البالغة لمرآة القمر الخالية عن النور الذاتي، القابلة لأن يكتسبه من قرص الشمس حسب المقابلة والمحاذاة بينهما، كذلك جعلنا له ﴿مَنَازِلَ﴾[1] متفاوتة في الوضع، فعند تمام المقابلة والمحاذاة يبدو بدرًا كاملاً بلا نقصان في قرصه أصلاً، ثم ينقص شيئًا فشيئًا، يومًا فيومًا ﴿حَتَّىٰ عَادَ﴾ القمر في آخر المنازل الثمانية والعشرين التي وضعت له في علم التنجيم

على حسب ما يريد الله بخلاف من قرأ القرآن، أي: تحقق به، فإنه على بصيرة من أمره، ولذلك قال الله تعالى للسيد الأعظم ﷺ: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل:98]، فكذلك من صام فقد قيدت شياطينه بالنسبة لصومه، وإلا فالشياطين في رمضان منتشرون في سائر البلدان، فلا ينجو منهم إلا من قرأ القرآن، أي: إلا من كان مظهرًا له متمثلاً لأوامره مجتنبًا لزواجره، وهذا الوارد من بركات صوم رمضان المبارك، أقرّ الله به دائمًا عيون أمة محمد ﷺ ونفعهم به، آمين.

(1) الإشارة منه أن العبد في أوان الطلب رقيق الحال ضعيف اليقين مختصر الفهم، فيتفكر حتى تزداد بصيرته ويكمل حاله، ثم يصير كاملاً، ثم يتناقص، ويدنو من الشمس قليلاً قليلاً، وكلما ازداد من الشمس دنوًا ازداد في نفسه نقصانًا إلى أن يتلاشى ويخفى ولا يُرىَ، ثم يبعد عن الشمس، لا يزال يتباعد حتى يعود بدرًا من الذي يصرفه على ذلك إلا أنه تقدير العزيز العليم، فشبه الشمس عارف أبدًا في ضياء معرفته صاحب تمكين غير متلون يشرق بروج من سعادته دائمًا، لا يأخذه كسوف، ولا يستره سحاب، وشبه القمر عبد يكون أحواله في التنقل، صاحب تلوين له من البسط ما يرقيه إلى حد الوصال، ثم يردُّ إلى الفترة، ويقع في النقص بما كان به من صفاء الحال، فيتناقص ويرجع إلى نقصان أمره إلى أن يرفع قلبه عن وقته، ثم يجود عليه الحق سبحانه، فيوفقه لرجوعه عن فرقه وإفاقته عن سكرته، فلا تزال تصفو حاله إلى أن يقرب من الوصال، ويرزق صفة الكمال، ثم بعد ذلك يأخذ في النقص والزوال، كذلك حاله إلى أن يحق له بالمقسوم ارتحاله.

والتقويم لاستفادته النور من الشمس ﴿كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ [يس: 39] أي: كعذق النخل العتيق الذي عليه الشماريخ المعوجة المصفرة من طول المدى.

وكذا عيَّنا بمقتضى قدرتنا وحكمتنا لسير كل واحد منهما حسب الفصول الأربعة مقدارًا من الزمان، بحيث لا يتخلف سيرهم عنه؛ لينتظم أمر المعاش؛ لذلك ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا﴾ أي: لا يصح ويتيسر لها ﴿أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾ أي: تسرع في سيرها إلى أن تدرك القمر، بل هي بطيئة السير، تقطع البروج الاثني عشر في سنة والقمر سريع السير يقطعها في كل شهر ﴿وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ أي: لا يسع ويتيسر له أن يسبق ويدخل في النهار، بل لكل منهما مدة مخصوصة مقدرة من عند الحكيم العليم، لا يسع لهما التجاوز عنها ﴿وَ﴾ لذلك ﴿كُلٌّ﴾ أي: كل واحد من الشمس والقمر وسائر السيارات ﴿فِي فَلَكٍ﴾ مخصوص معين من الأفلاك السبعة المتسعة ﴿يَسْبَحُونَ﴾ [يس: 40] ويسيرون فيه ويدورون فيه على الانبساط والاستقلال، بلا توهم السبق والإدراك.

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [يس: 41-46].

﴿وَ﴾ أيضًا ﴿آيَةٌ﴾ عظيمة منا إياهم ﴿لَّهُمْ﴾ أي: يستدلون بها أيضًا على كمال قدرتنا، ويواظبون على شكر نعمتنا، وتلك الآية ﴿أَنَّا﴾ من كمال تربيتنا وتدبيرنا إياهم ﴿حَمَلْنَا﴾ أولاً عند طوفان نوح عليه السلام ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أي: آباءهم وأسلافهم، فإن اسم الذرية كما يطلق على الأبناء يطلق على الآباء أيضًا باعتبار أنهم كانوا أبناء لآباء أخر ﴿فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾[1] [يس: 41] المملوء منهم ومن سائر الحيوانات التي لا تعيش في الماء عناية منا إياهم وإبقاء لنسلهم.

---

(1) يشير إلى حمل عباده في سفينة الشريعة خواصهم في بحر الحقيقة، دعواتهم في بحر الدنيا، فإن من نجا من تلاطم أمواج الهوى في بحر الدنيا، إنما نجا بحمله العناية في سفينة الشريعة، وكذلك من تلاطم أمواج الشبهات في بحر الحقيقة بحمله عواطف إحسان ربه في سفينة الشريعة، بملاحية أرباب الطريقة. [التأويلات].

﴿وَخَلَقْنَا لَهُم﴾ أي: قدرنا وجعلنا لهم اليوم بتعليم منا إياهم ﴿مِّن مِّثْلِهِ﴾ أي: سفنا من جنسه، وهو ﴿مَا يَرْكَبُونَ﴾ [يس: 42] في متاجرهم وأسفارهم في البحر.

﴿وَإِن نَّشَأْ﴾ إفناءهم واستئصال نوعهم بالمرة ﴿نُغْرِقْهُمْ﴾ بالطوفان ﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾ أي: لا مغيث لهم حينئذ ينصرهم وينجيهم من الغرق ﴿وَلَا هُمْ﴾ بأنفسهم ﴿يُنقَذُونَ﴾ [يس: 43] وينجون من تلك المهلكة.

﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا﴾ أدركتهم وأنجتهم من الغرق ﴿وَ﴾ أمهلناهم أيضًا بعد إنجائنا إياهم ﴿مَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يس: 44] أي: تمتيعًا لهم ولأخلافهم وذرياتهم إلى قيام الساعة كي نختبرهم، هل يصلون إلى ما جبلوا لأجله من المعرفة والتوحيد والهداية والإيمان مع أنا أرسلنا إليهم الرسل والأنبياء مبشرين ومنذرين؟!.

﴿وَ﴾ هم - أي: أسلافهم - مثل هؤلاء الضالين ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾ إصلاحًا لأحوالهم: ﴿اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾ مما جرى على أسلافكم من الوقائع الهائلة والنوائب الشديدة السالفة، الواصلة إليهم بشؤم مفاسدهم وطغيانهم على الله وعلى أنبيائه ورسله بالخروج عن إطاعتهما وانقيادهما ﴿وَ﴾ احذروا عن ﴿مَا خَلْفَكُمْ﴾ من العذاب الموعود لعصاة العباد، المتمردين على ربقة العبودية وصراط التوحيد، الضالين عن جادة السلامة بترك مقتضيات الحدود الإلهية ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [يس: 45] من عند الله بتقواكم عن محارمه ومحظوراته.

﴿وَ﴾ هم أيضًا أمثالكم أيها المفرطون في الإعراض عن الحق في سبيله، بل ﴿مَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ﴾ مشيرة لهم إلى ما يعينهم ويليق بحالهم، رادعة عما لا يعنيهم ﴿مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ الصادرة عن محض الحكمة والعدالة ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾[1] [يس: 46] مكذبين لها، مستهزئين بمن جاء بها أمثالكم.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا

(1) قال في التأويلات: هذا حال المسبئين في أودية الخذلان الموسومين بسمة الحرمان، فلا يأتيهم منه آية من آيات الله؛ لينجيهم من بحر الغفلة ويريحهم من تيه الحيرة إلا قابلوه بإعراضهم ونازعوه باعتراضهم.

يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [يس: 47-50].

﴿وَ﴾ هم أيضًا من كمال قسوتهم وبغيهم أمثالكم ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ إمحاضًا للنصح وتنبيهًا لهم على محض الخير: ﴿أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ من فواضل نعمكم إلى الفقراء الفاقدين لها؛ لتتصفوا بالكرم وتفوزوا بمرتبة الإيثار ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وكذبوا منهم بآيات الله بعدما سمعوا الأمر الإلهي الوارد على الإنفاق من ألسن المؤمنين ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ إلى المصدقين الممتثلين بأوامر الله ونواهيه إيمانًا واحتسابًا على سبيل الإنكار والاستبعاد: ﴿أَنُطْعِمُ﴾ أي: تأمروننا أيها الجاهلون الضالون أن نعطي ونطعم ﴿مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ﴾ القادر المقتدر على إطعام عباده جملة ﴿أَطْعَمَهُ﴾ وبعدما لم يشأ مع قدرته لم يطعمهم، فأنتم من تلقاء أنفسكم تأمروننا بالإطعام، وبالجملة: ﴿إِنْ أَنتُمْ﴾ أي: ما أنتم بدينكم وأمركم بما لا يشاء ولا يرضى منه سبحانه ﴿إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: 47] وغواية عظيمة ظاهرة، ادعيتم الإيمان بالله، وأمرتم بخلاف مشيئته وإرادته.

﴿وَ﴾ مهما سمعوا من المؤمنين أمثال هذه الأوامر الجالبة لروح الله ورحمته في اليوم الموعود ﴿يَقُولُونَ﴾ على سبيل الاستهزاء والتهكم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ﴾ الذي أوعدنا به، عينوا لنا وقته ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يس: 48] في دعواكم، يعنون بها ﷺ وأصحابه.

ثم قال سبحانه في جواب هؤلاء الضالين المبطلين: ﴿مَا يَنظُرُونَ﴾ وينتظرون هؤلاء المنكرون المعاندون ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ هائلة ﴿تَأْخُذُهُمْ﴾ بغتة ﴿وَهُمْ﴾ حين وقوعها ﴿يَخِصِّمُونَ﴾ [يس: 49] أي: يختصمون ويتخاصمون بعضهم مع بعض في العقود والمعاملات.

ومتى فاجأتهم الصيحة الفظيعة الفجيعة ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ولا يقدرون ﴿تَوْصِيَةً﴾ وإيصاءً كما هو المعروف بين الناس في حال النزع؛ أي: لا يمهلهم الفزع المهلك مقدار أن يأتوا بالوصية ﴿وَلَا﴾ يمهلهم أيضًا ﴿إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ [يس: 50] أي: ينقلبون إلى بيوتهم، ويتكلمون مع أهليهم.

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن

بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [يس: 51-54].

وبالجملة: متى سمعوا الصيحة الأولى ماتوا فجأة بلا إمهال لهم ساعة ﴿وَ﴾ بعدما ماتوا بالصيحة الأولى، وصاروا كسائر الأموات ﴿نُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ مرة أخرى بعد الصيحة الأولى ﴿فَإِذَا هُم﴾ أي: جميع الأموات، صاروا أحياء قائمين هائمين، خارجين ﴿مِّنَ الْأَجْدَاثِ﴾ أي: القبور ﴿إِلَى رَبِّهِمْ﴾ الذي يناديهم للعرض والجزاء ﴿يَنسِلُونَ﴾ [يس: 51] يذهبون ويسرعون طوعًا وكرهًا؛ إذ لا مرجع لهم سواه، ولا ملجأ إلا هو.

ثم لما أفاقوا من ولههم وحيرتهم ورأوا مقدمات العذاب والنكال ﴿قَالُوا﴾ أي: بعضهم لبعض متحيرين متحسرين: ﴿يَا وَيْلَنَا﴾ وهلكنا، تعال فهذا أوانك ﴿مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ أي: قبرنا الذي كنا فيه مستودعين؛ أي: كل منا مستودع على صاحبه، وإن كان هنالك عذاب أيضًا، لكن لا تفضيح، أو المعنى: من أيقظنا عن نومنا الذي كنا عليه قبل النفخة الثانية المجيئة، وبعد النفخة الأولى المهيئة، إنما قالوا ما قالوا تحسرًا وتحزنًا.

ثم قيل لهم حينئذ من قبل الحق: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ﴾ أي: يومكم هذا هو اليوم الموعود الذي وعده الرحمن، وأخبره على ألسنة رسله وكتبه؛ لينقذكم من عذابه بمقتضى سعة رحمته ﴿وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ [يس: 52] في جميع ما جاءوا من قِبل ربهم من الأمور المتعلقة بالنشأة الأخرى، وأنتم من كمال بغيكم وبغضكم على الله ورسوله في النشأة الأولى أنكرتم الرحمن وكذبتم الرسل الكرام، فاليوم يلقاكم ما كذبتم به.

ثم قال سبحانه تقريعًا وتوبيخًا على المشركين المنكرين لقدرته وكمال عزته وسطوته واستقلاله في تصرفات ملكه وملكوته، وإظهارًا لعلو شأنه وسمو برهانه بأن أمثال هذه المقدورات في جنب قدرتنا الكاملة في غاية اليسر والسهولة؛ لذلك ﴿إِن كَانَتْ﴾ أي: ما كانت الفعلة منا في أمر البعث وقيام الساعة وحشر الأموات ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ صادرة بأمرنا فجأة، وهي الصيحة الثانية، أو ما وقعت الفعلة منا وبأمرنا إلا صيحة واحدة ﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ﴾ أي: كل الأموات مجموعون ﴿لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾

[يس: 53] عندنا، مع أنه صدر عنا في إحضارهم وجمعهم إلا صيحة واحدة دفعية.

﴿فَالْيَوْمَ﴾ أي: بعدما حضر الكل لدينا واجتمع عندنا للعرض والحساب وتنقيد الأعمال، وجزاء الأفعال الصادرة عنهم في دار الاختبار ﴿لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ ولا تنقص من أجور أعمالها الصالحة ﴿وَ﴾ لا تزاد أيضًا على فاسدها على مقتضى عدلنا، بل ﴿لَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يس: 54] أي: بمقتضى عملهم، إن كان خيرًا فخير وإن شرًا فشر.

﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يس: 55-62].

ثم فصل سبحانه أحوال الأنام في النشأة الأخرى، فقال: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ وهم الواصلون إلى مقر التوحيد والمعرفة علمًا وعينًا وحقًا ﴿الْيَوْمَ﴾ أي: يوم القيامة المعد للجزاء ﴿فِي شُغُلٍ﴾ عظيم من أنواع المعارف والحقائق والمكاشفات والمشاهدات القالعة لعرق التقليدات، والتخمينات التي هي من لوازم الإمكان الذي هو من أسفل دركات النيران ﴿فَاكِهُونَ﴾[1] [يس: 55] فرحون، متلذذون أبدًا بلا انقراض

(1) قال في التأويلات: فيها إشارات:

منها: إنه لما كان الغالب عليهم طلب الجنة والأخذ بمجامع قلبهم، أمْرُها: أضيفوا إليها، قيل لهم: إن أصحاب الجنة كما أنه من الغالب عليه طلب الدنيا، وهو في أَسْرِها أضيف إليها، وقيل له: صاحب الدنيا.

ومنها: إنه لما كانت هممهم مقصورة على طلب الجنة شغلهم الله بالفاكهة مع أزواجهم عن طلب الله دون المعاشقة عند المشاهدة والمعاينة، وهو قوله: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الأَرَائِكِ مُتَكِئُونَ﴾ [يس:56] أي: يكونوا متكئين على هذه الحالة وهذه الأحوال، وإن جلت عنهم بالنسبة إلى أصحاب الجحيم، ولكنها بالإضافة إلى أحوال السادة والأكابر من الملوك والسلاطين، الذين هم أهل الله وخاصته يتقامرون، وعلى هذا يدل قوله ﷺ: «إن أكثر أهل الجنة البله»، عن بعض أرباب النظر أنه كان واقفًا على باب الجامع يوم الجمعة، والخلق قد فرغوا من

الصلاة وهم يخرجون عن الجامع، قال: «هؤلاء حشر الجنة»، وللمجالسة أقوام آخرون، ومن كان في الدنيا عن الدنيا حُرًا فلا يبعد أن يكون في الجنة عن الجنة حرًا، ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة:15]، ولعل يكون هذا الخطاب لأقوام فارغين عن الالتفات إلى الكونين مراقبين للمشاهدات، الذين قال الله فيهم: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ﴾ يعني: عن تعلقات الكونين ﴿فَانصَبْ﴾ [الشرح:7]؛ أي: اطلب الحق تعالى، ﴿وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ [الشرح:8]، فيقول لهم: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ﴾ [يس:55] ﴿وَأَزْوَاجُهُمْ﴾ [يس:56] أي: أشكالهم، فارغبوا أنتم إليّ واشتغلوا بي، وتنعموا بنعيم وصالي، وتلذذوا لمشاهدة جمالي، وتصدروا بطالعة جلالي، وقيل: قرئ عند الشبلي قوله: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ...﴾ [يس:55] الآية، فشهق شهقة وغاب فلما أفاق قال: فإنهم مساكين لو علموا أنهم عما شغلوا لهلكوا.

ومنها: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾، يعني: في الدنيا ﴿فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ﴾ بأنواع الطاعات والعبادات عن طلب الحق والشوق إلى لقائه كانوا يطلبون منه، وما كانوا يطلبون كما روي عن يحيى بن معاذ أنه قال: رأيتُ ربَّ العزة في منامي، فقال لي: يا معاذ كل الناس يطلبون مني إلا أبا يزيد، فإنه يطلبني، وروي عن أبي يزيد أنه قال: رأيت ربي في المنام، فقال لي: يا أبا يزيد أنا بدك اللازم فالزم بدك، فاعلم أن كل مطلوب يوجد في الآخرة أنه ثمرة بذر طلبه في الدنيا، كما قال ﷺ: «يموت الناس على ما عاش فيه ويحشر على ما مات عليه».

ومنها: يجود كمال كرمه أنه تعالى يخاطب بهذا الأقوام من عصاة الموحدين، وهم في العرصات بعد لم يدخلوا الجنة، فيقول الحق تعالى لهم: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللهِ﴾ [الزمر:53] إن كان أهل النار لا يتفرغون إليكم لأهوالهم، وما هم فيه من صعوبة أحوالهم، وأهل الجنة وأصحابها اليوم في شغل عنكم في لذاتهم، وما وجدوا من أفضالهم مع أهاليهم وأشكالهم، فليس لكم اليوم إلا أنا من فرط كرمي ورحمتي، فيدعون منه السلامة عن النار برحمته، ودخول الجنة بكرمه، فيعطي سؤلهم ويبذل مأمولهم، وذلك تحقيق قوله: ﴿لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ * سَلامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس:57، 58].

ومنها: إن لله عبادًا استخصّهم للتخلق بأخلاقه في سر قوله: «كنت له سمعًا وبصرًا فبي يسمع وبي يبصر»، فلا يشغلهم شأن اشتغالهم بأبدانهم مع أهلهم عن شأن شهود مولاهم في الجنة، كما أنهم اليوم مستديمون لمعرفته بأي حال من حالاتهم، ولا يقدح اشتغالهم باستيفاء حظوظهم من معارفهم، ويقول: ﴿سَلامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس:58]، يشير إلى أن سلامه تبارك وتعالى كان قولاً منه بلا واسطة وأكّده بقوله: ﴿مِّن رَّبٍّ﴾ ليعلم أنه ليس سلام على لسان سفيره، وقوله: «من رحيم» فالرحمة في تلك الحالة أنه يرزقهم الرؤية في حال ما تسلم عليهم؛ ليكمل لهم النعمة.

وإشارة أخرى أن السلام من الرب الرحيم لو لم يكن صادرًا عند تجليه ﷻ لأهل الجنة لتلاشت من سطوة جلاله الجنة وما فيها، كما كان حال النبي ﷺ ليلة المعراج على بساط قرب أو أدنى في

وانقضاء أصلاً.

بل ﴿هُمْ﴾ في شهودهم ﴿وَأَزْوَاجُهُمْ﴾ التي هي نتائج أعمالهم الصالحة ﴿فِي ظِلَالٍ﴾ أي: ظلال الأسماء والصفات الإلهية ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ أي: المعارج العليّة والدرجات السنيّة ﴿مُتَّكِئُونَ﴾ [يس: 56] متمكنون راسخون، لا يتحولون منها ولا ينقلبون.

بل ﴿لَهُمْ فِيهَا﴾ عناية منا إياهم ﴿فَاكِهَةٌ﴾ كثيرة من تجددات المعارف والحقائق وتلذذات المكشوفات والشهودات على مقتضى التجليات الإلهية ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿لَهُم﴾ فيها ﴿مَّا يَدَّعُونَ﴾ [يس: 57] ويتمنون من مقتضيات التجليات المتشعشعة حسب الشئون والتطورات الإلهية التي لا نهاية لها، بلا تناه وتكرر.

وقيل لهم من قبل الحق حينئذ: ﴿سَلَامٌ﴾ أي: تسليم وترحيب لهم وتكريم ﴿قَوْلًا﴾ ناشئًا ﴿مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس: 58] أي: مرب مشفق لهم، يربيهم بمقتضى سعة رحمته على فطرة التوحيد، ويوصلهم إلى مقر الوحدة الذاتية بعدما رفعوا الشواغل المانعة عن التوجه إليها، ورفضوا العلائق العائقة عن التمكن دونها والتحلي بها.

﴿وَ﴾ قيل حينئذ للمشركين المصرين على الشرك والعناد: ﴿امْتَازُوا﴾ وتميزوا ﴿الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ [يس: 59] المفرطون المسرفون في الإعراض عن الله بمتابعة الشيطان المضل المغوي عن طريق توحيدهم.

ثم قرّعهم سبحانه وعاتبهم؛ زجرًا لهم وطردًا على وجه العموم؛ لئلا يأمن المؤمنون مع اطمئنانهم على الإيمان ورسوخهم في العرفان ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي

خلوة «لي مع الله وقت لا يسعني فيه ملك مقرب ولا نبي مرسل»، بتجلي ذاته وصفاته سبحانه وتعالى على وجه لم يتخصص به أحد من العالمين قبله ولا بعده، ما أثبته إلا قوله تعالى: «السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته»، ما سلم من تلك السطوة إلا في حفاوة سلامه كما سلم إبراهيم ﷺ من البرد حين قال: ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء:69]، وبقوله:﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ [يس:59] يشير إلى امتياز المؤمن والكافر في المحشر والمنشر بابيضاض وجه المؤمن، واسوداد وجه الكافر، وبإيتاء كتاب المؤمن بيمينه، وبإيتاء كتاب الكافر بشماله، ويثقل الميزان بالنور ويخففه بالظلمة، وثبات القدم على الصراط وزلة القدم.... وغير ذلك.

آدَمَ﴾ ولم آخذ منكم موثقًا وثيقًا في مبدأ فطرتكم وبألسنة استعداداتكم وقابلياتكم ﴿أَن لَا تَعْبُدُوا﴾ أي: بألَّا تعبدوا ﴿الشَّيْطَانَ﴾ ولا تطيعوا منه ولا تقبلوا منه قوله ووساوسه المبعدة المحرفة لكم عن طريق توحيدي، إنما أحذركم يا ابن آدم عن إطاعته وانقياده ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يس: 60] ظاهر العداوة يريد أن يصدكم عمَّا جبلتم عليه بإغرائه وإغوائه.

﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي﴾ ووحدوني، واعتقدوا كمال أسمائي وأوصافي واستقلالي في عموم تدبيراتي وتصرفاتي في ملكي وملكوتي، وامتثلوا أمري ولا تشركوا معي في الوجود شيئًا من مظاهري ومصنوعاتي ﴿هَذَا﴾ المعهود الموثوق ﴿صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [يس: 61] موصل إلى توحيدي، فاتخذوه سبيلاً، ولا تركنوا إلى الذين ضلوا عن طريقي وظلموا أنفسهم بالخروج عن مقتضى حدودي وأوامري وأحكامي وحكمي وتذكيراتي.

﴿وَ﴾ كيف تعبدون الشيطان وتتبعون أثره وتنقادون أمره أيها العقلاء المجبولون على فطرة الهداية والرشاد؛ إذ ﴿لَقَدْ أَضَلَّ﴾ وأغوى هذا الغاوي المغوي ﴿مِنكُمْ﴾ يا بني آدم ﴿جِبِلاً كَثِيرًا﴾ وجماعة متعددة من بني نوعكم، فانحرفوا بإضلاله عن سواء السبيل ونقضوا بإغوائه وإغرائه المواثيق والعهود، فحرموا بذلك عن الجنة الموعودة لهم، فاستحقوا جهنم البعد ونيران الخذلان ﴿أَ﴾ تعبدون الشيطان وتقتفون أثره ﴿فَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ [يس: 62] أي: لم تستعملوا عقولكم في فظاعة أمره وشدة عداوته ووخامة عاقبة متابعته، وفيما يترتب على إضلاله من العذاب المخلد والنكال المؤبد، فتختارون متابعته وتقبلون منه تغريره، وتتركون طريق التوحيد، أفلا تعقلون أيها المسرفون المفرطون؟!.

﴿ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾[يس: 63-68].

وقيل لهم حينئذ مشيرًا إلى منقلبهم ومثواهم: ﴿هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ﴾ أيه
الضالون، الغاوون، المغرورون ﴿تُوعَدُونَ﴾ [يس: 63] في النشأة الأولى بألسنة الرسل
والكتب.

﴿اصْلَوْهَا﴾ وادخلوها ﴿الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [يس: 64] أي: بشؤم ما
تنكرون بذات الله وكمال أسمائه وصفاته، وبما تكذبون كتبه ورسله، وتعرضون عنهم
وعن دعوتهم ظلمًا وعدوانًا.

وبعدما عاينوا العذاب وأنواع النكال، وعلموا أن أسبابها ما هي إلا أفعالهم
الصادرة عنهم في دار الاختبار عزموا على الإنكار، وقصدوا أن يقولوا معتذرين: والله
ما كنا يا ربنا مشركين لك، مكذبين كتبك ورسلك، فيقول الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ
أَفْوَاهِهِمْ﴾ ونمنعها عن الكلام؛ حتى لا تتفوهوا بالأعذار الكاذبة ﴿وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ﴾
ليتكلمن بما صدر عنهن ظلمًا وعدوانًا ﴿وَتَشْهَدُ﴾ أيضًا ﴿أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا
يَكْسِبُونَ﴾[1] [يس: 65] بها من المعاصي والسعي في طلب المنهيات والمحرمات.

وبالجملة: أنطق الله القدير العليم الخبير الحكيم جميع جوارحهم وأركانهم،
فاعترف كل منها بما اقترف به صاحبه.

وفي الحديث - صلوات الله وسلامه على قائله -: **«يقال للعبد: كفى بنفسك اليوم
عليك شهيدًا وبالكرام الكاتبين شهودًا، ثم قال: فيختم على فيه، فيقال لأركانه: انطقي،
فتنطق كل بأعماله، ثم يُخلَّى بينه وبين الكلام، فيقول للجوارح بعدما أقرت واعترفت:
بُعدًا لَكُنَّ وسُحقًا، فعنكُنَّ كنت أناضل»**[2] انتهى الحديث.

والسر في إنطاق الله سبحانه الأعضاء والجوارح بما صدر عنها هو الإشارة إلى

---

(1) قال في التأويلات: فيشير إلى أن الغالب على الأفواه الكذب، كما قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [آل عمران:167]، والغالب على الأعضاء الصدق، ويوم القيامة يسأل الصادقون عن صدقهم، فلا يسأل الأفواه فإنها كثيرة الكذب، ويسأل الأعضاء فإنها كثيرة الصدق، تشهد بالحق، أما الكفار فشهادة أعضائهم عليهم مبيدة لهم، وأما العصاة من المؤمنين الموحدين فقد تشهد عليهم أعضاؤهم بالعصيان، ولكن تشهد لهم بعض أعضائهم أيضًا لهم بالإحسان، فكما قيل: بيني وبينك يا ظلوم الموقف والحاكم العدل الجواد المثقف، وفي بعض الأخبار المروية المسندة: أن عبدًا يشهد عليه أعضاؤه بالزلة فتتطاير شعرة جفن عين عبدي واحتجي عن عبدي، فتشهد له بالبكاء من خوفه فيغفر له، وينادي منادٍ هذا عتيق الله بشعرة.

(2) رواه مسلم (15/19).

أن الالتفات إلى السوى والأغيار مطلقًا مضر لذوي الألباب والاعتبار، وسبب تفضيح وتخذيل لدى الملك الجبار الغيور القهار، فلا تذهب إلَّا إلى الله، ولا تصحب إلَّا مع الله، ولا تعتمد إلَّا بالله، ولا تتوكل إلَّا على الله، فاتخذه سبحانه وكيلاً، وكفاك سبحانه حسيبًا وكفيلاً.

رزقك الله وإيَّانا حلاوة صحبته، وجنبك وإيَّانا عن الالتفات إلى غيره بمنِّه وجوده.

ثم قال سبحانه إظهارًا لكمال قدرته واختباره: ﴿وَ﴾ كما ختمنا على أفواههم حينئذ وطبعنا على قلوبهم قبل ذلك حينما قبلوا دعوة الرسل ﴿لَوْ نَشَاءُ﴾ أن نعميهم ونذهب بأبصارهم ﴿لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ﴾ وصيرناها مطموسة ممسوحة كسائر أعضائهم، بحيث لا يبدو لها جفن ولا شق ﴿فَاسْتَبَقُوا﴾ وبادروا ﴿الصِّرَاطَ﴾ والطريق المعهود لهم، وهم قد مروا عليها مرارًا كثيرة ﴿فَأَنَّى يُبْصِرُونَ﴾ [يس: 66] فكيف يبصرون بعدما صاروا مطموسين.

بل ﴿وَلَوْ نَشَاءُ﴾ أي: نسقطهم عن ربقة التكليف ودرجة الاعتبار ﴿لَمَسَخْنَاهُمْ﴾ وأخرجناهم عن رتبة الإنسانية إلى الحيوانية، بل عن الحيوانية إلى الجمادية أيضًا، إلى أن صاروا جامدين خامدين ﴿عَلَى مَكَانَتِهِمْ﴾ كالجمادات الأخر بحيث لا يسع أن يتحولوا عنها أصلاً ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ [يس: 67] يعني: لو نشاء مسخناهم وأخرجناهم عن رتبة الخلافة والنيابة وفطرة التكليف والتوحيد، لصيرناهم جمادات لا قدرة لهم على الذهاب والإياب أصلاً.

وبالجملة: هم بسبب أعمالهم الفاسدة وأفعالهم القبيحة وأوصافهم الذميمة وأخلاقهم الغير مرضية أحقاء أن يُفعل لهم ما ذكرنا، لكن سبقت رحمتنا واقتضت حكمتنا أن نمهلهم زمانًا إلى أن يتنبهوا أو يتولد منهم من يتنبه ويتفطن.

﴿وَ﴾ كيف لا نقدر على الطمس والمسخ مع أنَّا بمقتضى قدرتنا وقوتنا ﴿مَن نُّعَمِّرْهُ﴾ منهم، ونطيل عمره في الدنيا ﴿نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ﴾ ونضعفه بالآخر إلى أن نرده إلى أرذل العمر؛ لكيلا يعلم بعد علم شيئًا، ثم نميت الكل ونصيرهم ترابًا وعظامًا، ولاشك أن من قدر على الإحياء والإماتة والتطويل والتنكيس، قادر على المسخ والتطميس، فمن أين يتأتى لهم أن ينكروا قدرتنا واختيارنا في أفعالنا، واستقلالنا في تصرفات ملكنا وملكوتنا؟! ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ [يس: 68] ويتأملون آثار قدرتنا الكاملة

الظاهرة على الآفاق والأنفس أولئك العقلاء المتأملون حتى يتفطنوا ويتيقنوا بها.

﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [يس: 69-76].

ثم لما قال كفار مكة خذلهم الله: إن محمدًا شاعر، وما جاء به مفترى إلى ربه من جملة الأشعار والقياسات المخيلة المشتملة على الترغيبات والتنفيرات والمواعيد والوعيدات، وادِّعاء النبوة والوحي والمعجزة ما هو إلا قول باطل وزور ظاهر.

رد الله عليهم قولهم هذا على وجه المبالغة والتأكيد فقال: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ﴾ أي: ما جعلنا فطرته الأصلية واستعداده الجبلي قابلة على القياسات الشعرية المبنية على محض الكذب والخيال المرغب أو المنفر، بل ما جعلناها إلا منزهة عنها، بريئة عن أمثالها، طاهرة عن أدناس الطبيعة مطلقًا، خالصة عن شوائب الإمكان ولوث الجهل والتقليد، متحلية باليقين والبرهان المنتهي إلى الكشف والعيان، ثم إلى الحق الذي هو منتهى الأمر في باب العرفان، بل ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ ويليق بشأنه وبشأن كتابه أن ينسب هو وهو إلى الشعر والشعراء اللذين هما أبعد بمراحل عن ساحة جلالهما، بل ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي: ما الكلام المنزل على خير الأنام ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ عظة وتذكير ناشئ عن العلم والحكمة المتقنة الإلهية مشير إلى التوحيد الذاتي، منبه عليه ﴿وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ [يس: 69] مشتمل على أحكام ظاهرة وآيات واضحة وبينات لائحة، محتوية على الأوامر والنواهي الإلهية، والحدود والقوانين الموضوعة بالوضع الإلهي بين عباده، ليوصلهم إلى طريق توحيده، منزلة على رسوله المستعد لحمله وقبوله.

﴿لِيُنْذِرَ﴾ أنت يا أكمل الرسل بالتبليغ، إن قرئ على صيغة الخطاب، أو القرآن إن قرئ على الغيبة ﴿مَنْ كَانَ حَيًّا﴾ بحياة الإيمان، موفقًا من عندنا باليقين والعرفان، معدودًا عن عداد السعداء في حضرة علمنا ولوح قضائنا ﴿وَ﴾ ألا ﴿يَحِقَّ الْقَوْلُ﴾

ويجب الحكم منا بلحوق العذاب ﴿عَلَى الكَافِرِينَ﴾ [يس: 70] المصرين على الكفر والعناد المائتين بموت الجهل والإنكار.

﴿أَ﴾ ينكرون أولئك المنكرون المشركون توحيدنا، ويكفرون نعمنا الفائضة عليهم على التعاقب والتوالي ﴿وَ لَمْ يَرَوْا﴾ ولم يعلموا ﴿أَنَّا﴾ بمقتضى جودنا ﴿خَلَقْنَا لَهُمْ﴾ بمحض قدرتنا وحكمتنا ﴿مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا﴾ بلا صنع لهم وتسبب ومظاهرة ﴿أَنْعَامًا﴾ أجناسًا وأنواعًا وأصنافًا ﴿فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾[1] [يس: 71] متصرفون فيها، ضابطون لها، قاهرون عليها.

﴿وَ﴾ كيف لا يملكون ولا يتصرفون فيها بأنواع التصرفات مع أنَّا قد ﴿ذَلَّلْنَاهَا﴾ وسخرناها؛ أي: أجناس الأنواع مع كمال قوتها وقدرتها ﴿لَهُمْ﴾ ولم نجعلها آبية وحشية عنهم، بل مقهورة لهم مذللة لحكمهم؛ لذلك ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾ أي: مراكبهم التي يركبون عليها كالإبل والخيل ﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ [يس: 72] من لحومها وشحومها.

﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿لَهُمْ فِيهَا﴾ أي: في الأنعام ﴿مَنَافِعُ﴾ كثيرة من أصوافها وأوبارها وأشعارها ونتائجها ﴿وَمَشَارِبُ﴾ من ألبانها ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس: 73] نعم الله الفائضة عليهم، المهمة لهم، المقوِّية لأمزجتهم.

﴿وَ﴾ من علامة كفرانهم بنعم الله، ونسيانهم حقوق كرمه أنهم ﴿اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللهِ﴾ الواحد الأحد الصمد، المستقل بالألوهية والربوبية أولياء وسموهم ﴿آلِهَةً﴾ مستحقة للعبادة والرجوع في المهمات وكشف الملمات ﴿لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ [يس: 74] بهم ويشفاعتهم عن بأس الله وبطشه مع أنهم لكونهم جمادات ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ولا يقدرون ﴿نَصْرَهُمْ﴾ أي: نصر عابديهم، بل ﴿وَهُمْ﴾ أي: العابدون ﴿لَهُمْ﴾ أي: للمعبودين ﴿جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ [يس: 75] حولهم، حافظون لهم، مزينون إياهم بأنواع التزيينات، وبالجملة: هم منسلخون عن مقتضى العقل بعبادتهم إياهم واتخاذهم أولياء

---

(1) قال في التأويلات: يشير إلى أنه تعالى خلق للإنسان جميع ما خلق بالوسائط وغير الوسائط، ومما خلق بغير الوسائط خلق لهم أنعامًا، ذكَر عظيم منته عليهم وجميل نعمته لديهم بما خلق لهم المخلوقات، وبما سخر لهم من الأنعام التي ينتفعون بها بوجوه من الانتفاع فهم لها مالكون؛ لينتفعوا بركوبها وأكل لحومها وشحومها ويشرب ألبانها، وما يحمل عليها بالتقرب بها في قطع المسافة البعيدة إلى الزيارات والمواضع الشريفة والمزارات المتبركة، ثم بأصوافها وأدبارها وشعورها.

شفعاء، وتسميتهم آلهة دون الله.

وبعدما سمعت يا أكمل الرسل حالهم وحال معبوداتهم ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ بأنك شاعر أو مجنون، وبأن كتابك شعر، ومن أساطير الأولين، وبأنك كاذب في دعوى الرسالة والنبوة، وبأن إخبارك بالبعث زور باطل ﴿إِنَّا نَعْلَمُ﴾ بمقتضى حضرة علمنا الحضوري ﴿مَا يُسِرُّونَ﴾ في ضمائرهم من الكفر والإنكار بتوحيدنا واستقلالنا بالتصرف في ملكنا وملكوتنا ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [يس: 76] من الفسوق والعصيان، والخروج عن مقتضى حدودنا ظلمًا وعدوانًا، فنجازيهم على مقتضى علمنا بهم وبأعمالهم.

﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [يس: 77-83].

ثم لما بالغ الكفرة المنكرون المصرون في إنكار البعث وتكذيبه، وجادلوا مع رسول الله ﷺ على وجه العناد والمكابرة، حتى أتى أبي بن خلف، أتى بعظم بال، وفته عند النبي ﷺ فقال متعجبًا على سبيل الإنكار مستبعدًا: ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا﴾ [المؤمنون: 82] كذلك إنا مخرجون مبعوثون ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾ [المؤمنون: 36].

رد الله سبحانه لمن أنكر قدرته على البعث فقال: ﴿أَ﴾ ينكر المنكر قدرتنا على إعادة الروح إلى الجمادات ﴿وَ لَمْ يَرَ الْإِنسَانُ﴾ المجبول على الدراية والشعور، ولم يتذكر ولم يعلم ﴿أَنَّا خَلَقْنَاهُ﴾ وقدرنا وجوده أولاً ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ مهينة، وهي أرذل من التراب ﴿فَإِذَا هُوَ﴾ اليوم بعدما سويناه رجلاً كاملاً في العقل والرشد ﴿خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [يس: 77] ومجادل زعيم، ظاهر المراء والمجادلة معنا، منكرًا لقدرتنا، مع أنه كان جمادًا أرذل في غاية الرذالة والحقارة.

﴿وَ﴾ ما يستحي منا ومن قدرتنا حتى ﴿ضَرَبَ لَنَا مَثَلاً﴾ موضحًا لنفي قدرتنا ﴿وَ﴾ قد ﴿نَسِيَ خَلْقَهُ﴾ أي: خلقنا إياه، ومن كمال نسيانه وضلاله ﴿قَالَ﴾ متعجبًا على سبيل الإنكار: ﴿مَن يُحْيِي العِظَامَ﴾ البالية ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿هِيَ رَمِيمٌ﴾[1] [يس: 78] بالية في غاية البلى إلى حيث تفتت أجزاؤها وتطيرت بالرياح.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل في جوابهم بعدما بالغوا في الإنكار والاستبعاد: ﴿يُحْيِيهَا﴾ أي: العظام، ويعيد الروح إليها ﴿الَّذِي أَنشَأَهَا﴾ أي: المحيي، القادر المقتدر على خلقها وإبرائها ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ من كتم العدم إنشاءً إبداعيًا بلا سبق مادة ومدة ﴿وَ﴾ إن استبعدوا واستحالوا جميع الأجزاء المنبثة المفتتة، الممتزجة بعضها مع بعض إلى حيث يستحيل امتيازها وافتراقها أصلاً، قل: ﴿هُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ﴾ ومخلوق من نقير وقطمير ﴿عَلِيمٌ﴾ [يس: 79] بعلمه الحضوري، لا يغيب عن حيطة علمه ذرة، ولا يشتبه عليه شيء من معلوماته، فله سبحانه أن يميز أجزاء كل شخص شخص، ويركبها على الوجه الذي كان عليه في النشأة الأولى، ثم يعيد الروح عليه، فصار حيًا كما كان، وما ذلك على الله بعزيز.

وكيف لا يقدر العليم الحكيم على امتياز أجزاء الأنام والتئامها وإعادة الروح إليها هو ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم﴾ بمقتضى علمه وقدرته ﴿مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ﴾ الرطب الذي يتقاطر منه الماء ﴿نَارًا﴾ مع أن بين النار والماء من التضاد، وكيف تنكرون إخراج النار من الشجر الرطب ﴿فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ [يس: 80] حينًا كثيرًا.

قال ابن عباس – رضي الله عنهما ـ: شجرتان معروفتان يقال لأحدهما: المرخ، وللآخر: العفار، فمن أراد منهما النار، قطع منهما غصنين مثل السواكين، وهما خضراوان يقطر منهما الماء، فيسحق المرخ على العفار، فيخرج منهما النار بإذن الله تعالى.

---

(1) قال شيخ المصنف روزبهان: إن في خلق الإنسان ووجوه الحسان من علامات قدرته أكثر مما يكون في الكون؛ لأن الكونين والعالمين في الإنسان معجون وفيه عمله معلوم، ولو عرف نفسه فقد عرف ربه؛ لأن الخليقة مرآة الخليقة تجلت في الخليقة لأهل المعرفة، ورُبَّ قلبٍ ميتٍ يحيا بجماله بعد موت جهالته، وإحياؤه بمعرفته. قال الواسطي: ضرب الأمثال في القرآن إعلامًا لصحة الطرق للموحدين على حدة، وللعالمين على حدة؛ ليعلموا أن قليلاً من روائح نفحاته خيرٌ من كثير توحيدهم ومعاملاتهم.

ولهذا قال الحكماء: لكل شجر نار إلّا العناب.

ثم أشار سبحانه أيضًا إلى كمال قدرته واختياره فقال: ﴿أَ﴾ ينكر المنكرون قدرتنا على البعث وحشر الموتى ﴿وَلَيْسَ﴾ القادر المقتدر ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾ وأوجد ﴿السَّمَوَاتِ﴾ أي: العلويات وما فيها ﴿وَالْأَرْضَ﴾ أي: السفليات وما عليها ﴿بِقَادِرٍ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ ويعيدهم أحياء كما كانوا ﴿بَلَى﴾ من قدر على خلق السموات العلا والأرضين السفلى، قادر على بعث الموتى وحشرهم في النشأة الأخرى ﴿وَ﴾ كيف لا يقدر ﴿هُوَ الْخَلَّاقُ﴾ المبالغ في تكثير الخلق والإيجاد، إبداء وإعادة ﴿الْعَلِيمُ﴾[1] [يس: 81] بجميع المعلومات، أزلاً وأبدًا على التفصيل بحيث لا يخرج عن حيطة حضوره ذرة من ذرائرها ما كان ويكون، بل الكل عنده ممتاز محفوظ.

ولا تستبعدوا أيها الجاهلون بالله وبعلمه، وقدرته وسائر أوصافه الكاملة وأسمائه الشاملة أمثال هذا، بل هي بالنسبة إليه سبحانه سهل ويسير.

وكيف لا يسهل عليه سبحانه أمثال هذا ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ﴾ وشأنه ﴿إِذَا أَرَادَ شَيْئًا﴾ أي: تعلق إرادته بتكوين شيء من معلوماته ومقدوراته ﴿أَن يَقُولَ لَهُ﴾ بعد تعلق إرادته: ﴿كُن﴾ المؤدي لأمره وحكمه ﴿فَيَكُونُ﴾ [يس: 82] المأمور المحكوم بلا تراخ ومهلة، والتعقيب إنما نشأ من العبارة وإلا فلا تأخير ولا تعقيب في سرعة نفوذ قضائه سبحانه.

إياك ومحتملات الألفاظ، فإنها بمعزل عن أداء كيفية أمر الله وشأن حكمه وقضائه على وجهه، ومتى سمعت ما سمعت من كمال قدرة الله ومتانة حكمته وحيطة علمه وإرادته ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ وله التصرف بالاستقلال والاختيار في ملكه وملكوته؛ يعني: تنزه ذات من بيده مقاليد الملك والملكوت من أن يعجز عن إعادة الأموات أحياء بعدما أبدعهم عن العدم كذلك، ولم يكونوا حينئذ شيئًا مذكورًا، تعالى شأنه عما يقولون في حقه علوًا كبيرًا ﴿وَ﴾ كيف لا يقدر سبحانه على

(1) قال في التأويلات: بهذه الإشارات مهد سبيل الرشاد إلى الاستدلال، وقال: إن الإعادة في الابتداء، فإذا أقررتم بالابتداء فأي إشكال بقي في جواز الإعادة في الانتهاء؟ ثم قال: الذي قدر على خلق النار في الأغصان الرطبة من المرخ والعفار قادر على خلق الحياة في الرمة البالية، ثم زاد في البيان بأن قال: إن القدرة على مثل الشيء كالقدرة عليه لاستوائها بكل وجه، وإنه يحيي النفوس بعد موتها في العرصة، كما يحيي الإنسان من النطفة، والطير من البيضة، ويحيي القلب بالعرفان لأهل الإيمان كما يحيي نفوس أهل الكفر بالهوى والطغيان.

البعث والإحياء؛ إذ ﴿إِلَيْهِ﴾ لا إلى غيره؛ إذ لا غير معه في الوجود، ولا إله سواه موجود ومشهود ﴿تُرْجَعُونَ﴾ [يس: 83] رجوع الأمواج إلى الماء، والأضواء إلى الذكاء؛ سبحان من لا يجري في ملكه إلا ما يشاء.

خاتمة السورة

عليك أيها السالك المتدبر المتأمل في كيفية رجوع الكائنات إلى الوحدة الذاتية وإيناط المظاهر والمصنوعات إلى المبدأ الحقيقي والمنشأ الأصلي - أزال الله عن بصر بصيرتك سبل الحول، وأعانك على رفع الحجب وكشف العلل - أن تصفِّي باطنك عن الميل إلى الغير مطلقًا، بحيث يصير باطنك مملوءًا بمحبة الله، فتترسخ تلك المحبة فيه وتتمرن إلى أن خفي عليك خواطرك وهواجس نفسك، ثم تسري من باطنك إلى ظاهرك، فيشغلك عن جميع مشتهياتك ومستلذاتك، ومقتضيات قواك وجوارحك، فيمتلئ منها ظاهرك وباطنك، فحينئذ لم يبق لك التفات إلى الغير مطلقًا، فصرت حيرانًا، مدهوشًا، مستغرقًا بمطالعة وجهه الكريم، وبعدما صرت كذلك، جذبك الحق عنك وسترك عليك إلى أن غبت فيه وفنيت، فحينئذ حق لك أن تقول بلسان استعدادك بعدما فنيت آثار رسومك في الله: إنا لله وإنا إليه راجعون ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: 83].

سورة الصافات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة الصافات

لا يُخفى على أرباب الصفوة من المنجذبين نحو الحق المنكشفين بانبساط وحدته الذاتية، حسب شئونه وتطوراته المتنشئة من أسمائه وصفاته الذاتية على صفائح المظاهر، والمجالي الغير المحصورة والعكوس والظلال الغير المتناهية، أن الوحدة الحقيقة الحقية لما أرادت أن تتجلى بالتجلي الحبي لإظهار الكمالات المندمجة في ذاتها، المقتضية للظهور والجلاء، تنزلت مرتبة الأزلية الأحدية والعمى، فظهرت المراتب والكثرات.

فأول كثرة ظهرت منها هي الأسماء الحسنى، والصفات العليا غير المنحصرة، الموسومة عند أرباب الأذواق بالملائكة، المهيمين الوالهين بمطالعة وجهه الكريم، الصافين حول عرشه العظيم، ثم ظهرت من تلك الأسماء والصفات كثرة الآثار والأظلال المنعكسة، ثم تترتب على تلك العكوس والأظلال من اللوازم والعوارض الفانية للحصر.

وبعدما بلغت الكثرة نهايتها تكونت الطبائع والهيولي، والجواهر والأعراض، وحدثت الفتن والأمراض، واختلفت المذاهب والأغراض، وتشبعت الطرق والأحزاب، وتكثرت الملل والنحل، وتزاحمت الأفكار والآراء، وتعارضت الأماني والأهواء.

فحينئذ اقتضت الحكمة الإلهية وضع الحدود والقوانين، وتحميل التكاليف الشاقة على العباد، وتشريع الطاعات عليهم، وإرسال الرسل والأنبياء المؤيدين من عنده سبحانه بالكتب المنزلة الفارقة بين الحق والباطل من السبل، والأحكام المبينة للأمم براهين التوحيد وحجج اليقين؛ ليتميز المحق من المبطل، والموحد من الملحد، والمؤمن العارف من الكافر الجاهل.

ولهذا المطلب العلي والمقصد السني الذي هو التوحيد، أقسم سبحانه بأعظم مخلوقاته وأقربها إلى الذات، وهم الملائكة الصافون حول الذات الأحدية، المهيمون

عند سرادقات العز والجلال، المستغرقون بمطالعة الجمال.

فقال تبارك وتعالى مفتتحاً بعدما تيمن باسمه العلي الأعلى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي تجلى على ملائكته الحافين بذاته، الصافين حول عرشه العظيم ﴿الرَّحْمَنِ﴾ عليهم بعموم فيضه وشمول رحمته ﴿الرَّحِيمِ﴾ لهم يأمرهم بعكوف في بابه، وبقرهم عند خبابه.

﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا (١) فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا (٢) فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا (٣) إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ (٤) رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ (٥) إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ (٦) وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ (٧) لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ (٨) دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ (٩) إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ (١٠)﴾ [الصافات: 1-10].

﴿وَالصَّافَّاتِ﴾ أي: وحق الأسماء والصفات الإلهية الصافين حول الذات الأحدية، المنتظرين لشئونه وتجلياته؛ إذ هو سبحانه في كل آن في شأن، ولا يشغله شأن عن شأن ﴿صَفًّا﴾ [الصافات: 1] لا يتحولون منه أصلاً، بل هائمون دائمون والهون مستغرقون، منتظرون بماذا يأمرهم ربهم من التدابير المخزونة في حضرة علمه ولوح قضاءه.

ومتى تعلقت إرادته بمقدور من مقدوراته ومراداته المأمورة إياهم وحينئذ زاجرات ﴿فَالزَّاجِرَاتِ﴾ المدبرات على الفور لما يأمرهم الحق من التدبيرات المتعلقة بنظام الكائنات غيبًا وشهادةً ﴿زَجْرًا﴾ [الصافات: 2] أي: تدبيرًا تامًا كاملاً، حسب المأمور والمقدور بلا فتور وقصور.

ويعدما صدر أمره سبحانه، وجرى قضاءه بقوله: ﴿كُن﴾ [غافر: 68] فهم حينئذ التابعون لامتثال المأمور المقضي، بلا فترة وتسويف ﴿فَالتَّالِيَاتِ﴾التابعات لإنفاذ قضائه سبحانه القارئات المبلِّغات ﴿ذِكْرًا﴾ [الصافات: 3][1] منه، ووحيًا من لدنه سبحانه لمن

(1) أقسم بطوائف الملائكة، الصافِّين أقدامهم في مراتب العبادة، كل على ما أمر به، فالزاجرات السحاب سوقًا إلى ما أراد الله، أو: عن المعاصي بإلهام الخير. أو: الشياطين عن التعرُّض لهم. البحر المديد (224/5).

أمرهم الحق بتبليغه إياهم؛ وهم الأنبياء والرسل المؤيدون بالوحي والإلهام، المصطفون من بين البرايا بالخلافة والنيابة عن الله، المتحملون لأعباء النبوة والرسالة.

يعني: وبحق هؤلاء الملائكة الذين هم من سدنة حضرة اللاهوت، وخَدَمَة عتبة جناب الرحموت، المنتظرون لما صدر عنه سبحانه من الأمور المتعلقه بالملك والملكوت ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ﴾ الذي أظهركم وأبدعكم من كتم العدم، ولم تكونوا أيها العكوس المستهلكة في شمس الذات شيئًا مذكورًا، لا حسًا ولا عقلاً ولا وهمًا ﴿لَوَاحِدٌ﴾ [الصافات: 4] أحد صمد فرد وتر، ليس له شريك في الوجود ولا نظير في الظهور والشهود.

فهو وحده بوحده ذاته وكمال أسمائه وصفاته ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ﴾ العلا ﴿وَالْأَرْضِ﴾ السفلى ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من الكوائن والفواسد الممتزجة منهما إلى ما لا يتناهى، ولا مربي للمذكورات سواه، ولا مظهر للكائنات إلا هو ﴿وَ﴾ هو سبحانه ﴿رَبُّ الْمَشَارِقِ﴾ [الصافات: 5] أي: الاستعدادات القابلة لشروق شمس ذاته المتأثرة من أشعة أسمائه وصفاته.

وبعدما ثبت استقلالنا وتوحيدنا في تصرفات ملكنا وملكوتنا ولاهوتنا وجبروتنا ﴿إِنَّا﴾ من مقام عظيم جودنا وكمال قدرتنا ﴿زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا﴾ أي: القربى لكم أيها المكلفون، حيث ترون ما فيها ﴿بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ﴾ [الصافات: 6][1] أي: بزينة هي الكواكب، أو البدل على كلا القراءتين بتنوين وبلا تنوين، تزيينًا تبتهجون بها حين تنظرون إليها، وتتأثرون سعدًا ونحسًا إقبالاً وإدبارًا.

﴿وَ﴾ جعلناها ﴿وَحِفْظًا﴾ أي: بعدما زينا السماء بها صيرناها صائنةً حفظًا لها ﴿مِّن﴾ وصول ﴿كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ﴾ [الصافات: 7] خارج عن إطاعة الله، مائل عن توحيده إياها.

كي ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ﴾ أي: مردة الشياطين ولا يصغون ﴿إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ﴾ أي: إلى الأذكار والاستغفار وسائر الأسرار الجارية على ألسن الملائكة، إذ هم؛ أي:

(1) قال قتادة: إنما خلقت هذه النجوم لثلاث خصال: خلقها الله زينة للسماء، ورجوما للشياطين، وعلامات يهتدى بها، فمن تأول فيها غير ذلك فقد قال برأيه وأخطأ حظه، وأضاع نصيبه، وتكلف ما لا علم له به. رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم. «تفسير ابن كثير» (177/8).

الشياطين والجن أشبه المخلوقات إلى الملائكة، وإنما منعهم سبحانه عن الإصغاء إليهم؛ لأنهم من كمال عداوتهم مع بني آدم يعكسون عليهم ما يسمعون، فيضلونهم به عن الصراط امستقيم، أو يدَّعون الألوهية والربوبية لأنفسهم، ويحتجون بما يسمعون من الملائكة ترويجًا وتغريرًا، ويلبِّسون الأمر على ضعفة الأنام، فيحرِّفونهم عن جادة التوحيد والإسلام ﴿وَ﴾ لذلك ﴿يُقْذَفُونَ﴾ ويُطردون أولئك الماردون ﴿مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾ [الصافات: 8] من جوانب السماوات وآفاقها.

﴿دُحُورًا﴾ طردًا بليغًا وزجرًا شديدًا ﴿وَ﴾ مع ذلك الطرد والزجر ﴿لَهُمْ﴾ أي: للشياطين ﴿عَذَابٌ﴾ في النشأة الأخرى ﴿وَاصِبٌ﴾ [الصافات: 9] مؤبَّد دائم، لا ينفك عنهم في حين من الأحيان.

﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الخَطْفَةَ﴾ أي: يُطرد الماردون، ولا يسمعون إلا من اختطف واختلس من الملائكة الخطفة على سبيل المسارقة ﴿فَأَتْبَعَهُ﴾ أي: تبعه ولحقه على الفور حين اختطافه واختلاسه ﴿شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: 10] أي: كوكب مضيء كجذوة النار، يثقب الجني فيقتله، أو يحرقه، أو يخبله.

والقول بأن الشهب من الأمور الكائنة في الجو من الكواكب قول تخميني ابتدعه الفلاسفة من تلقاء نفوسهم، لا يعضده عقل، ولا يوافقه نقل.

وأما قولهم في ضبط الحركات الفلكية والأجرام العلوية، وتقويم الكواكب والبروج، وتقدير الأشكال والصور إلى غيرذلك من الأمور المؤدية إلى الحس ربما يؤدي إلى اليقين، أمّا في طبائع المكونات وحقائق الموجودات، وكيفية تراكيب الماهيات وغير ذلك من الأمورالحقيقية التي لا مجال للحس فيها ولا لعقل، ما هو إلا تخمين زائل وزور باطل؛ إذ لا يعرف كنه الأشياء إلا خالقها ومظهرها، لا يسع لأحد أن يتفوه عنها، وعن كيفيتها وكميتها وكمية التئامها على ما هي عليها والتركيبات الحقيقية.

وهم؛ أي: مردة الشياطين بمجرد تلك الخطفة المختلسة يضلون كثيرًا من الناس إلى حيث يستعبدونهم، ويأمرونهم بالإطاعة والانقياد إلى أنفسهم، والعبادة إياهم باتخاذهم أولياء آلهة من دوننا جهلاً وعنادًا.

﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾ بَلْ

عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الصافات: 11-21].

﴿فَاسْتَفْتِهِمْ﴾ أي: المشركين المتخذين الشياطين أولياء آلهة من دوننا، واستخبرهم يا أكمل الرسل على سبب التبكيت والتعبير تنصيصًا على غيهم، وتصريحًا بكفرهم واستحقاقهم العذاب المؤبد والنكال المخلد ﴿أَهُمْ﴾ أي: آلهتهم وشياطينهم ﴿أَشَدُّ خَلْقًا﴾أي: إيجادًا وتأثيرًا ﴿أَم مَّنْ خَلَقْنَا﴾ وأظهرنا بمقتضى قدرتنا الكاملة من المخلوقات المذكورة التي هي الملائكة الصافات، والسماوات المطبقات، والكواكب المتفاوتة في التأثيرات فيها، والأرض وما عليها من المركبات والمواليد، وبينهما من الممتزجات وغير ذلك من الاستعدادات القابلة لشروق شمس الذات، سيما ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُم﴾ وقدرنا وجود هؤلاء المتخذين لغيرنا أربابًا أولاً ﴿مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ [الصافات: 11] لاصق منتن مهين لازم النتن والهوان، ثم ربيناهم بأنواع التربية إلى أن سويناهم رجالاً عقلاء؛ ليعترفوا بتوحيدنا وبألوهيتنا وربوبيتنا، ويواظبوا على شكر نعمتنا، فعكسوا الأمر واتخذوا أولياء من دوننا، واعتقدوهم آلهة سوانا، وبالجملة: انقلبوا خاسرين.

أو المعنى: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ﴾ وسلهم؛ أي: المشركين ﴿أَهُمْ﴾ في أنفسهم ﴿أَشَدُّ خَلْقًا﴾ وأعظم مخلوقًا ﴿أَم مَّنْ خَلَقْنَا﴾ من المخلوقات المذكورة سابقًا مع أنهم لم يتخذوا إلهًا سوانا، ولم يعبدوا غيرنا، هؤلاء الحمقى كيف اتخذوا من دوننا أولياء، ويسمونهم آلهة شفعاء، مع أنهم أضعف بالنسبة إليهم، مخلوقون من أدون الأشياء وأرذلها؟! ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُم﴾ وقدرنا وجودهم ﴿مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ [الصافات: 11] مسترذل منتن تستكرهه الطبائع.

ومهما سمعت يا أكمل الرسل قولهم وإنكارهم للتوحيد وإشراكهم بالله أدون الأشياء مع ضعف خلقهم، وتأملت حالهم استبعدت منهم هذا ﴿بَلْ عَجِبْتَ﴾ أنت - أو «عجبت» أنا على القراءتين - منهم أمثال هذا، مع أنهم مجبولون على فطرة الدراية والشعور، مرهون لهم العقل المفاض المشير لهم إلى التوحيد وتصديق البعث والحشر

وجميع الأمور الأخروية ﴿وَ﴾ هم ﴿يَسْخَرُونَ﴾ [الصافات: 12] [1] بك متى سمعوا

---

(1) ﴿بَلْ عَجِبْتَ﴾ خطاب للرسول ﷺ وجوز أن يكون لكل من يقبله . ﴿وبل﴾ للاضراب إما عن مقدر يشعر به ﴿فاستفتهم﴾ [الصافات: 11] إلخ؛ أي: هم لا يقرون ولا يجيبون بما هو الحق بل مثلك ممن يذعن ويتعجب من تلك الدلائل أو عن الأمر بالاستفتاء أي لا تستفتهم فإنهم معاندون لا ينفع فيهم الاستفتاء ولا يتعجبون من تلك الدلائل بل مثلك ممن يتعجب منها ﴿وَيَسْخُرُونَ﴾ أي وهم يسخرون منك ومن تعجبك ومما تريهم من الآيات، وجوز أن يكون المعنى بل عجبت من إنكارهم البعث مع هذه الآيات وهم يسخرون من أمر البعث، واختير أن يكون المعنى بل عجبت من قدرة الله تعالى على هذه الخلائق العظيمة وإنكارهم البعث وهم يسخرون من تعجبك وتقريرك للبعث، وزعم بعضهم أن المراد بمن خلقنا الأمم الماضية وليس بشيء إذ لم يسبق لهذه الأمم ذكر وإنما سبق الذكر للملائكة عليهم السلام وللسموات والأرض وما سمعت مع أن حرف التعقيب مما يدل على خلافه، ومن قال كصاحب الفرائد عليه جمهور المفسرين سوى الإمام ووجهه بأنه لما احتج عليهم بما هم مقرون به من كونه رب السموات والأرض ورب المشارق وألزمهم بذلك وقابلوه بالعناد قيل لهم: فانتظروا الإهلاك كمن قبلكم لأنهكم لستم أشد خلقًا منهم فوضع موضعه ﴿فاستفتهم أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً﴾ [الصافات: 11] وقوله تعالى: ﴿إِنَّا خلقناهم﴾ [الصافات:11] تعليل لأنهم ليسوا أشد خلقًا أو دليل لاستكبارهم المنتج للعناد . وأيده بدلالة الإضراب واستبعاد البعث بعده لدلالته على أنه غير متعلق بما قبل الاضراب فقد ذهب عليه أن اللفظ خفي الدلالة على ما ذكر من العناد واستحقاق الاهلاك كسالف الأمم؛ وتعليل نفي الأشدية بما علل ليس بشيء لوضوح أن السابقين أشد في ذلك، وكم من ذلك في الكتاب العزيز، وأما الاضراب فعن الاستفتاء إلى أن مثلك ممن يذعن ويتعجب من تلك الدلائل ولذا عطف عليه ﴿وَيَسْخَرُونَ﴾ وجعل ما أنكروه من البعث من بعض مساخرهم قاله صاحب الكشف فلا تغفل . وقرأ حمزة . والكسائي . وابن سعدان . وابن مقسم ﴿عَجِبْتُ﴾ بتاء المتكلم ورويت عن علي كرم الله تعالى وجهه . وابن عباس . وابن مسعود . والنخعي . وابن وثاب . وطلحة وشقيق . والأعمش، وأنكر شريح القاضي هذه القراءة وقال: إن الله تعالى لا يعجب من شيء وإنما يعجب من لا يعلم، وانكار هذا القاضي مما أفتى بعدم قبوله لأنه في مقابل بينة متواترة، وقد جاء أيضًا في الخبر عجب ربكم من الكم وقنوطكم، وأولت القراءة بأن ذلك من باب الفرض أي لو كان العجب مما يجوز عليّ لعجبت من هذه الحال أو التخييل فيجعل تعالى كأنه لانكاره لحالهم يعدها أمرًا غريبًا ثم يثبت له سبحانه العجب منها، فعلى الأول تكون الاستعارة تخييلية تمثيلية كما في قولهم: قال الحائط للوتد لم تشقني فقال سل من يدقني، وعلى الثاني تكون مكنية وتخييلية كما في نحن لسان الحال ناطق بكذا والمشهور في أمثاله الحمل على اللازم فيكون مجازًا مرسلًا فيحمل العجب على الاستعظام وهو رؤية الشيء عظيمًا أي بالغا الغاية في الحسن أو القبح، والمراد هنا رؤية ما هم عليه بالغا الغاية في القبح، وليس استعظام الشيء مسبوقًا بانفعال يحصل في الروع عن مشاهدة أمر غريب كما توهم ليقال: إن التأويل المذكور لا يحسم مادة الاشكال . «تفسير الألوسي» (75/17).

منك الأخبار والآيات الواردة في أمر البعث والحشر.

بل ﴿وَ﴾ هم من شدة قسوتهم وعمههم في سكرتهم ﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا﴾ ووعظوا بالإنذارات والتخويفات الشديدة المتعلقة للآخرة ﴿لَا يَذْكُرُونَ﴾ [الصافات: 13] أي: لا يتأثرون ولا يتعظون.

﴿وَ﴾ لا يقتصرون على عدم القبول والتذكر بل ﴿وَإِذَا رَأَوْا﴾ أي: علموا وسمعوا ﴿آيَةً﴾ معجزة نازلة في شأن البعث والنشور ﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾ [الصافات: 14] بها، ويستهزئون بك يا أكمل الرسل عنادًا واستكبارًا.

﴿وَقَالُوا﴾ من شدة بغضهم وضغينتهم معك يا أكمل الرسل ومع كتابك: ﴿إِنْ هَذَا﴾ أي: ما هذا الذي جاء مفتريًا إلى ربه ﴿إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [الصافات: 15] أي: سحرية ما جاء به ظاهر، وهو في نفسه ساحر ماهر، لكن مضمون كلامه زور باطل.

﴿أَ﴾ نبعث ونحيى ﴿إِذَا مِتْنَا﴾ وانفصل عنّا روحنا، سيما ﴿وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا﴾ بالية رميمة ﴿أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [الصافات: 16] بعدما صرنا كذلك.

﴿أَوَ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾ [الصافات: 17] الأقدمون يبعثون ويحشرون ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ * إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [المؤمنون: 36-37].

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل بعدما بالغوا في إنكار البعث، واستحالة نشأة النشور: ﴿نَعَمْ﴾ تبعوثون أيها الضالون المنكرون، وإلى ربكم تحشرون، وعن أعمالكم تسألون، وعليها تحاسبون، وإلى جهنم تساقون ﴿وَأَنْتُمْ﴾ حينئذ ﴿دَاخِرُونَ﴾ [الصافات: 18] صاغرون ذليلون مهانون.

وكيف تنكرون قدرتنا على البعث وقيام الساعة؟! ﴿فَإِنَّمَا هِيَ﴾ أي: الساعة والبعث بعدما تعلقت مشيتنا ﴿زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ أي: صيحة واحدة منشرة لهم عن قبورهم، زاجرة لهم نحو المحشر زجر الراعي الصائح للغنم، وبعدما سمع الأموات الصيحة؛ أي: النفخة الثانية في الصور ﴿فَإِذَا هُمْ﴾ قيام ﴿يَنْظُرُونَ﴾ [الصافات: 19] حيارى سكارى تائهين والهين.

﴿وَقَالُوا﴾ بعدما قاموا كذلك متحسرين متمنين الهلاك والويل: ﴿يَا وَيْلَنَا﴾ وهلاكنا أدرك:ا ﴿هَذَا﴾ اليوم ﴿يَوْمُ الدِّينِ﴾ [الصافات: 20] والجزاء الذي وعدنا الله به

على ألسنة رسله وكتبه في النشأة الأولى، فنحن قد كنا ننكره ونكذبه ونستهزئ بمن جاء به وأخبر عنه عنادًا ومكابرة، فالآن نُبتلى به، يا حسرتنا على ما فرطنا في ترك الإيمان به وتصديق مخبره.

وبعدما قالوا ما قالوا، قيل لهم من قبل الحق على سبيل التقريع والتعبير إظهارًا لكمال القدرة: ﴿هَٰذَا يَوْمُ الفَصْلِ﴾ والقضاء بالعدل ﴿الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [الصافات: 21] أيها الضالون المنكرون المصرون على التعنت والعناد.

﴿ ۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ ۖ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ ۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الصافات: 22-33].

ثم أمر سبحانه للملائكة المترصدين لأمره القائمين لحكمه: ﴿احْشُرُوا﴾ وسوقوا ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بالخروج عن مقتضى الحدود الإلهية، واجمعوهم للحشر ﴿وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ أي: أشباههم وأمثالهم وقرناءهم الذين اقتدوا واقتفوا أثرهم معهم ﴿وَ﴾ أحضروا له أيضًا معهم ﴿مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ [الصافات: 22] ﴿مِن دُونِ اللهِ﴾ ظلمًا وعدوانًا؛ أي: معبوداتهم الباطلة تتميمًا لإلزامهم ﴿فَاهْدُوهُمْ﴾ أي: قدموهم ودلوهم جميعًا ﴿إِلَى صِرَاطِ الجَحِيمِ﴾ [الصافات: 23].

وبالجملة: سوقوهم بأجمعهم عابدًا ومعبودًا إلى نيران الطرد وجحيم الخذلان ﴿وَقِفُوهُمْ﴾ واحبسوهم في الموقف ساعة ﴿إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾ [الصافات: 24] عن أعمالهم التي جاءوا بها في نشأتهم الأولى محاسبون عليها.

وبعدما سئلوا وحوسبوا جوزوا بمقتضاها ثم سوقوا إلى النار، والسر في السؤال والله أعلم: تسجيل العذاب عليهم؛ لئلا ينسب سبحانه إلى الظلم والعوان ظاهرًا، ولئلا يجادلون معه سبحانه؛ إذ كان الإنسان أكثر شيء جدلاً.

ثم قيل لهم من قبل الحق توبيخًا وتقريعًا: ﴿مَا لَكُمْ﴾ أي: ما شأنكم، وأي شيء

عرض عليكم أيها الضالون المضلون ﴿لَا تَنَاصَرُونَ﴾ [الصافات: 25] أي: لا ينصر بعضكم بعضًا؛ أي: معبوداتكم لا تنصر بتخليص عابديهم مع أنكم اتخذتموهم أولياء واعتقدتموهم آلهة شفعاء، فلم لا ينصرونكم ولا ينقذونكم من عذابنا؟ ولم لا تمكرون ولا تحيلون أنواع الحيل والخداع؟ ولم لا تعتذرون بالأعذار الكاذبة؛ لإنقاذكم من عذابنا كما تزعمون في النشأة الأولى؟!.

وهم حينئذ من شدة الهول هائمون حائرون ﴿بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ [الصافات: 26] منقادون خاضعون، ومن خوف اشتداد العذاب عليهم خائفون خاشعون ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ حين يساقون نحو النار ﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾ [الصافات: 27] أي: يتخاصمون ويتلاومون.

﴿قَالُوا﴾ أي: الضعفاء السفلة منهم لرؤسائهم: ﴿إِنَّكُمْ﴾ أيها الضالون المضلون كنتم من شدة شغفكم، وحرصكم على تضليلنا، ومنعنا عن تصديق الرسل وقبول دعوتهم ﴿كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾ [الصافات: 28] [1] أي: عن أقوى جوانبنا، أو عن أقوى الطرق الموصلة إلى مطلوبكم منا، وهو المال وحطام الدنيا، فتعطوننا منها، وتحرفوننا عن سبل السلامة وطرق الاستقامة.

﴿قَالُوا﴾ أي: الرؤساء في جواب الضعفاء: ما قولكم هذا إلا افتراء منكم إيانا ومراء، كيف نؤثر نحن في قلوبكم بحيلنا ومكرنا، أو بعطائنا المال إليكم والإحسان عليكم لو كنتم مؤمنين، والإيمان من أفعال القلوب ﴿بَل لَّمْ تَكُونُوا﴾ في أنفسكم

---

(1) ﴿قَالُوا﴾ يعني: السفلة للرؤساء ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ اليمين﴾ يعني: من قبل الحق أي: الدين فزينتم لنا ضلالتنا . وروي عن الفراء أنه قال: ﴿اليمين﴾ في اللغة القوة والقدرة . ومعناه ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا﴾ بأقوى الحيل، وكنتم تزينون علينا أعمالنا . وقال الضحاك: تقول السفلة للقادة:إنكم قادرون وظاهرون علينا . ونحن ضعفاء أذلاء في أيديكم . روى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال: ﴿تَأْتُونَنَا عَنِ اليمين﴾ عن الحق . يعني: الكفار يقولون: للشيطان . وقال القتبي: إنما يقول هذا: المشركون لقرنائهم من الشياطين ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ اليمين﴾ يعني: عن أيماننا لأن إبليس قال: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أيمانهم وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شاكرين﴾ [الأعراف: 17] وقال المفسرون: من أتاه الشيطان من قبل اليمين، أتاه من قبل الدين، ولبس عليه الحق . ومن أتاه من قبل الشمال، أتاه من قبل الشهوات، ومن أتاه من بين يديه، أتاه من قبل التكذيب بالقيامة، ومن أتاه من خلفه خوفه الفقر على نفسه، وعلى من يخلف بعده، فلم يصل رحمًا، ولم يؤد زكاة . «بحر العلوم» للسمرقندي (487/3).

﴿مُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات: 29] مصدقين، فتميلون على ما كنا عليه طبعًا وهوى، فتفترون اليوم علينا مراء.

﴿وَ﴾ إن ادعيتم إكراهنا إياكم حينئذ فقد كذبتم؛ إذ ﴿مَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ﴾ وغلبة إلى حد تخافون عن قهرنا وإهلاكنا، لو لم تكفروا ﴿بَلْ كُنتُمْ﴾ في أنفسكم كما كنا ﴿قَوْمًا طَاغِينَ﴾ [الصافات: 30] طغيتم وبغيتم على الله كما طغينا وبغينا.

وبالجملة: إنا وإياكم لفي ضلال مبين ﴿فَحَقَّ﴾ أي: لزم وثبت وجرى ﴿عَلَيْنَا﴾ وعليكم ﴿قَوْلُ رَبِّنَا﴾ وحكمه المبرم المثبت في لوح قضائه وحضرة علمه، بأنا وأنتم من الأشقياء المردودين المستحقين لأنواع العذاب والنكال ﴿إِنَّا لَذَائِقُونَ﴾ [الصافات: 31] بأجمعنا اليوم ما كتب لنا ربنا من العذاب.

وبالجملة: سلمنا أنا أضللناكم عن الهدى بمكرنا وخداعنا ﴿أَغْوَيْنَاكُمْ﴾ عن التوحيد والإيمان ﴿إِنَّا كُنَّا﴾ أيضًا ﴿غَاوِينَ﴾ [الصافات: 32] أمثالكم، فلحق بنا ما لحق بكم، إلى متى تعييروننا وتخاصموننا ؟!.

وبعدما تطاول وتمادى جدالهم وتخاصمهم، قيل لهم من قبل الحق: ﴿فَإِنَّهُمْ﴾ بأجمعهم ضالاً ومضلاً، تابعًا ومتبوعًا ﴿يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ﴾ المؤبد المخلد ﴿مُشْتَرِكُونَ﴾ [الصافات: 33] كما كانوا مشتركين في أسبابه وموجباته في النشأة الأولى.

﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الصافات: 34-39].

﴿إِنَّا﴾ من كمال قهرنا وجلالنا ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: مثل ذلك الفعل الهائل الذي هو سوقهم جميعًا إلى النار ﴿نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ [الصافات: 34] المتخذين لنا شركاء من دوننا، الخارجين عن ربقة عبوديتنا بالالتفات والتوجه إلى غيرنا.

وكيف لا نفعل به مع المجرمين المشركين كذلك؟! ﴿إِنَّهُمْ﴾ من غاية عتوهم وعنادهم ﴿كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ تذكيرًا وتنبيهًا: ﴿لَا إِلَهَ﴾ في الوجود يعتد به ويرجع إليه

في الخطوب ﴿إِلَّا اللهُ﴾ الواحد الأحد الأحد الصمد الفرد، الذي ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: 3-4] هم حينئذ ﴿يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصافات: 35] ويعرضون عن كلمة التوحيد ومقتضاها، ويمتنعون عنها وعن معناها.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ حينئذ من غاية تعنتهم، وإصرارهم على الشرك على سبيل الإنكار والاستبعاد: ﴿أَئِنَّا﴾ مع كمال عقلنا ورشدنا ﴿لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا﴾ الذين كنا نحن وآباؤنا وأسلافنا لها عابدين عاكفين ﴿لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ [الصافات: 36] يتكلم بكلام المجانين، وقد جاء بأباطيل من تلقاء نفسه، مشتملةعلى أساطير الأولين؛ يعنون الرسول ﷺ.

ثم لما تمادوا في طعنه وطغيانه ﷺ، وبالغوا في قدح القرآن وإنكاره، رد الله عليهم على أبلغ وجه وأوضح بيان، فقال سبحانه إضرابًا عن قولهم: ﴿بَلْ جَاءَ﴾ محمد ﷺ ملتبسًا ﴿بِالْحَقِّ﴾ داعيًا على الحق إلى الحق ﴿وَ﴾ علامة حقيته وصدقه أنه ﴿صَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: 37] المنزلين من عندنا على الحق اليقين.

﴿إِنَّكُمْ﴾ أيها الضالون المكذبون به ﷺ، وبكتابنا المنزل عليه من عندنا ﴿لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ﴾ [الصافات: 38] المعد لكم وأمثالكم في قعر الجحيم.

﴿وَ﴾ اعلموا أنكم ﴿مَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: 39] أي: مثلما عملتم وبمقتضاه، بلا زيادة عليه ونقصان، عدلاً منا وقهرًا على من انحرف عن جادة توحيدنا.

﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الصافات: 40-49].

﴿إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الصافات: 40] الموفقين على الإيمان والأعمال الصالحة، خالصًا لوجه الله الكريم.

﴿أُوْلَئِكَ﴾ السعداء المقبولون عند الله، المرضيون لديه سبحانه ﴿لَهُمْ﴾ من فضل الله إياهم ولطفه معهم ﴿رِزْقٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصافات: 41] معد، معين عنده سبحانه صوريًا ومعنويًا، عينيًا وعلميًا، كشفيًا وشهوديًا على ما عملوا من صالحات الأعمال

والأخلاق والحالات.

بل لهم تفضلاً عليهم ومزيدًا لتكريمهم ﴿فَوَاكِهُ﴾ كثيرة يتلذذون بها حسب ما يشتهون ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿هُم مُّكْرَمُونَ﴾ [الصافات: 42] عند ربهم، متنعمون ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [الصافات: 43] المشتملة على الرزق الصوري والمعنوي، متكئين ﴿عَلَى سُرُرٍ﴾ رفيعة حسب رفعة درجاتهم في الإيقان والعرفان والكشف والعيان ﴿مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الصافات: 44] متواجهين مع قرنائهم.

﴿يُطَافُ عَلَيْهِم﴾ تشريفًا لهم وتجديدًا لذوقهم وحضورهم ﴿بِكَأْسٍ﴾ مملوء ﴿مِّن﴾ ماء ﴿مَّعِينٍ﴾ [الصافات: 45] هو خمر الجنة، سمي به؛ لأنه عان ونبع من بحر اللاهوت، وترشح من عين الحياة المنتشئة من حضرة الرحموت.

﴿بَيْضَاءَ﴾ لا لون له يدركها النظر ويخبر عن كيفيتها الخبر ﴿لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ﴾ [الصافات: 46] أي: لذيذة للعارفين المتعطشين بزلال التوحيد وبرد اليقين، لا يدرك كيفيتها إلا من يذوقها، ومن يذوقها لا يظمأ منها أبدًا، ولا تخرج نشوتها عنه أمدًا، بل يطلب دائمًا مزيدًا.

إذ ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ أي: غائلة خمار وصداع يترتب عليها كما يترتب على خمور الدنيا ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ [الصافات: 47] يسكرون إلى حيث يذهب عقولهم ويفسد أمزجتهم ويختل خواطرهم، وينسون مطالبهم ويضلون عن مقاصدهم كما في خمر الدنيا، بل يزيد منها شوقهم وذوقهم ويتكامل طلبهم.

﴿وَعِندَهُمْ﴾ من الأرواح المزدوجة معهم، المقبولة عندهم ﴿قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾ عليهم، ولا يلتفتن إلى غيرهم ﴿عِينٌ﴾ [الصافات: 48] أي: حسان العين والحواجب والأجفان والآماق.

﴿كَأَنَّهُنَّ﴾ في صفاء البدن وبياضه ﴿بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ [الصافات: 49] مصون محفوظ عن الغبار، مخلوط بأدنى صفرة كلون الفضة، وهو أحسن ألوان جسد الإنسان.

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٥٠) قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (٥١) يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (٥٢) أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ (٥٣) قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ (٥٤) فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٥٥) قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ (٥٦) وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ

ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الصافات: 50-61].

وبعدما يشربون من المعين وشملهم كيفيتها، أخذوا يتحدثون ﴿فَأَقْبَلَ﴾ والتفت ﴿بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ [الصافات: 50] ويتقاولون مما جرى عليهم في نشأة الدنيا، وما ادخروا فيها للنشأة الأخرى من المعارف والحقائق والأعمال والأحوال والمواجيد، والأخلاق والعبر والأمثال.

﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ﴾ على سبيل التذكر والتحاكي عن إنكار المنكرين يوم البعث والنشور ﴿إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ [الصافات: 51] [1] في دار الدنيا، منكر لهذه النشأة، وأنا معتقد لها، منتظر لقيامها.

﴿يَقُولُ﴾ يومًا على سبيل النصح والإنكار والاستبعاد: ﴿أَئِنَّكَ﴾ أيها المجبول على الدارية والشعور ﴿لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ﴾ [الصافات: 52] والمعتقدين الموقنين .

---

(1) قال ابن الجوزي في زاد المسير (5 /210): ﴿قال قائل منهم إنّي كان لي قَرِينٌ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: أنه الصاحب في الدنيا . والثاني: أنه الشريك رويا عن ابن عباس. والثالث: أنه الشيطان، قاله مجاهد. والرابع: أنه الأخ؛ قال مقاتل: وهما الأخوان المذكوران في سورة [الكهف: 32] في قوله: ﴿واضرب لهم مَثَلًا رَجُلَينِ﴾ والمعنى: كان لي صاحب أو أخ يُنكِر البعث ﴿يقول أئنّكَ لَمِنَ المُصَدِّقِينَ﴾ قال الزجاج: هي مخففة الصاد، من صدَّق يصدِّق فهو مصدِّق، ولا يجوز هاهنا تشديد الصاد . قال المفسرون: والمعنى: أئنك لَمِن المُصَدِّقين بالبعث؟ وقرأ بكر بن عبد الرحمن القاضي عن حمزة ﴿المُصَّدِّقِينَ﴾ بتشديد الصاد . قوله تعالى: ﴿أئنا لَمَدِينُونَ﴾ أي: مجزِيُّون بأعمالنا؛ يقال: دِنْتُهُ بما صنع، أي: جازيته، فأحَبَّ المؤمنُ أن يَرى قرينَه الكافر، فقال لأهل الجنّة، ﴿هل أنتم مُطَّلِعُونَ﴾ أي: هل تحبُّون الاطِّلاع إلى النّار لتَعْلَمُوا أين منزلتُكم من منزلة أهلها؟ وقرأ ابن عباس، والضحاك، وأبو عمران، وابن يعمر: ﴿هل أنتم مُطْلِعُونَ﴾ بإسكان الطاء وتخفيفها ﴿فأُطْلِعَ﴾ بهمزة مرفوعة وسكون الطاء. وقرأ أبو رزين، وابن أبي عبلة: ﴿مُطلِعونِ﴾ بكسر النون. قال ابن مسعود: اطَّلع ثم التفت إلى أصحابه فقال: لقد رأيتُ جماجم القوم تغلي؛ قال ابن عباس: وذلك أن في الجنة كُوىً ينظُر منها أهلُها إلى النار، قوله تعالى: ﴿فرآه﴾ يعني قرينة الكافر ﴿في سَواءِ الجحيم﴾ أي: في وسَطها . وقيل: إنما سمي الوسَط سَواءً، لاستواء المسافة منه إلى الجوانب . قال خُليد العَصَري: واللهِ لولا أنَّ الله عرَّفه إيّاه، ما عرفه، لقد تغيَّر حَبْرُه وسِبْرُه . فعند ذلك ﴿قال تالله إنْ كِدتَ لَتُرْدِينِ﴾ قال المفسرون: معناه: واللهِ ما كِدتَ إلاّ تُهلِكني؛ يقال: أرديتُ فلانًا أي: أهلكته ﴿ولولا نِعْمةُ ربِّي﴾ أي: إنعامه عليَّ بالإسلام ﴿لَكُنْتُ مِنَ المُحْضَرِينَ﴾ معك في النّار.

﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَ﴾ تعتقد أنت وتصدق ﴿إِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ [الصافات: 53] أي: مجزيون بأعمالنا التي كنا نعمل، مسئولون عنها، محاسبون عليها ؟!.

كلا وحشا، ما هي إلا حياتنا في الدنيا وما نحن مبعوثين، ثم ﴿قَالَ﴾ لقرنائه في الجنة، مستفهمًا عن حال قرينه المنكر للبعث: ﴿هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾ [الصافات: 54] يعني: هل أنتم تريدون وتطلبون أيها المسرورون في الجنة أن تطلعوا عن ذلك القرين في النار، قالوا له: أنت أحق بإطلاع حاله؛ إذ هو مصاحبك وقرينك.

﴿فَاطَّلَعَ﴾ بعدما نظر من الكوى المفتوحة في الجنة نحو النار ﴿فَرَآهُ﴾ أي: قرينه المنكر ﴿فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: 55] أي: وسطه معذبًا بأنواع العذاب.

﴿قَالَ﴾ له بعد ما رآه في النار مقسم على سبيل التأكيد والمبالغة: ﴿تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾ [الصافات: 56] يعني: والله إنك أيها الجاهل المفرد، قد قاربت من إهلاكي بإغرائك وإغوائك ونصحك إليّ، وتذكيرك على ما يدل على إنكار البعث واستدلالك على استحالته.

﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي﴾ وتوفيقه إياي بالعصمة والثبات على عزيمة الإيمان والتوحيد ﴿لَكُنتُ﴾ مثلك ﴿مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ [الصافات: 57] معك في وسط الجحيم؛ يعني: أنا أيضًا من جملة أهل النار مثلك.

ثم أخذ يباهي على قرينه بالنعيم المقيم واللذة المستمرة، بلا تريان موت وعذاب، فقال مستفهمًا: ﴿أَ﴾ تعلم أنّا في الجنة مخلدون منعمون ﴿فَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ﴾ [الصافات: 58] أي: مائتين متحولين عنها، بل لا موت لنا ﴿إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى﴾ التي متنا عن الدنيا ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [الصافات: 59][1] أيضًا أمثالكم.

---

(1) قوله تعالى: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه إذا ذُبح الموت، قال أهل الجنة: ﴿أفَمَا نحن بميّتين، إلاّ مَوْتَتَنا الأُولى﴾ التي كانت في الدنيا ﴿وما نحن بمعذَّبِينَ﴾ ؟ فيقال لهم: لا؛ فعند ذلك قالوا: ﴿إنَّ هذا لَهُوَ الفَوْزُ العظيمُ﴾، فيقول الله تعالى ﴿لِمِثْلِ هذا فَلْيَعْمَلِ العامِلونَ﴾، قاله ابن السائب. وقيل: يقول ذلك للملائكة. والثاني: أنه قول المؤمن لأصحابه، فقالوا له: إنك لا تموت، فقال: ﴿إنَّ هذا لَهُوَ الفَوْزُ العظيمُ﴾، قاله مقاتل. وقال أبو سفيان الدمشقي: إِنما خاطب المؤمنُ أهلَ الجنة بهذا على طريق الفرح بدوام النَّعيم، لا على طريق الاستفهام، لأنه قد عَلِمَ أنّهم ليسوا بميّتين، ولكن أعاد الكلام ليزداد بتكراره على سمعه سرورًا. والثالث: أنه قول المؤمن لقرينه الكافر على جهة التوبيخ بما كان يُنكِره، ذكره الثعلبي. قوله

﴿إِنَّ هَذَا﴾ الخلود والتنعم والسرور بلا طريان ضد عليه ﴿لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [الصافات: 60] والكرم الجسيم من الله العليم الحكيم إيانا.

ثم قيل من قبل الحق؛ ترغيبًا للمؤمنين على الطاعات وحثًا لهم إلى الإتيان بالأعمال الصالحات، وتطييبًا لقلوبهم بترتب أمثال هذه الحسنات على أعمالهم وأخلاقهم ومواجيدهم وحالاتهم، وبالجملة: ﴿لِمِثْلِ هَذَا﴾ الفوز العظيم والنول الكريم ﴿فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ [الصافات: 61] في النشأة الأولى، لا للحظوظ الفانية واللذات الزائلة الدنيوية، المقتضية لأنواع الآلام والحسرات.

﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [الصافات: 62-74].

ثم قال سبحانه: ﴿أَذَٰلِكَ﴾ المذكور من الرزق المعلوم واللذة المستمرة والنشر الدائم بلا صداع ولا خمار، والحياة الأبدية والمسرة السرمدية ﴿خَيْرٌ نُّزُلًا﴾ لأهل الجنة ﴿أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴾ [الصافات: 62] لأهل النار، وهي ثمرة شجرة مرة كريهة الرائحة والطعم، يستكرهه طباع أهل النار، إلا أنهم يتناولون منها للضرورة.

ثم لما عبر سبحانه عن نزل أهل الجحيم بالزقوم، فسمعها كفار أهل مكة، قالوا: كيف يكون في النار شجرة، ومن شأنها إحراق ما يجاورها؟!.

فاستهزءوا برسول الله ﷺ، وقال ابن الزبعرى لصناديد قريش: إن محمدًا يخوفنا بالزقوم، والزقوم بلسان بربر: الزبد والتمر، فأدخلهم أبو جهل في بيته، فقال يا جارية

تعالى: ﴿لِمِثل هذا﴾ يعنى النعيم الذي ذَكَره في قوله ﴿أولئك لهم رزق معلوم﴾ [الصافات: 41] ﴿فَلْيَعْمَلِ العامِلُونَ﴾، وهذا ترغيب في طلب ثواب الله ﷻ بطاعته .

زقمينا، فأتهم بالزبد والتمر، فقال: تزمقوا، فهذا ما يوعدكم به محمد ﷺ.

رد الله سبحانه قولهم واستهزاءهم بقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا﴾ أي: الشجرة المذكورة ﴿فِتْنَةً﴾ وابتلاء ﴿لِّلظَّالِمِينَ﴾ [الصافات: 63] وسببًا لازدياد العذاب وتشديد النكال عليهم؛ إذ هم يتقاولون فيهم ويحملونها إلى لغة أخرى، ويتخذون لها محملاً جيدًا، ويستهزئون بسببها بالنبي ﷺ، فيستحقون أسوأ العذاب والعقاب، ويطعمون منها حين دخولهم في النار.

﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ﴾ وتنبت ﴿فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: 64] أي: منبتها في قعرها وأغصانها في دركاتها.

﴿طَلْعُهَا﴾ أي: ثمرتها التي تطلع منها أو تحصل ﴿كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ [الصافات: 65] في القبح والهجنة، هذا من قبيل التشبيه المحسوس بالمتخيل، كتشبيه الطيور الحسنه بالملائكة؛ يعني: يستكره من رؤيتها الطباع استكراهها من رءوس المردة من الجن المصورة على أقبح الصور وأهولها.

﴿فَإِنَّهُمْ﴾ أي: أولئك المنكرون المستهزئون، وجميع من في النار من الكافرون ﴿لَآكِلُونَ مِنْهَا﴾ إذ لا مأكول لهم فيها سواها ﴿فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ [الصافات: 66] أي: يملئون بطونهم منها؛ لشدة الجوع، أو يجبرون لأكلها؛ زجرًا عليهم وتشديدًا لعذابهم؛ إذ هي أحر من النار وأبرد من الزمهرير.

﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ﴾ بعد ما ملئوا بطونهم منها مع كمال حرارتها واشتداد العطش عليهم ﴿عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾ [الصافات: 67] أي: لخلطًا ومزاجًا من ماء حار في غاية الحرارة بعد أن يخرجهم الخزنة من الجحيم، ويوردهم إليها ورود البهائم في الماء، يشربون منها فيقطع أمعاءهم.

﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ﴾ بعد ما أصدرهم، فأخرجهم الخرنة من الماء ﴿لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: 68] ألبتة؛ إذ لا مرجع لهم سواها، وإنما ابتلوا من العذاب المؤبد والعقاب المخلد.

﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا﴾ أي: صادفوا ووجدوا ﴿آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ﴾ [الصافات: 69] منحرفين عن سبيل السلامة وجادة الاستقامة التي هي التوحيد والإسلام.

﴿فَهُمْ﴾ أي: هؤلاء الأخلاف بعدما وجدوا أسلافهم كذلك ﴿عَلَىٰ آثَارِهِمْ

﴿يُهْرَعُونَ﴾ [الصافات: 70] ويسرعون على الفور، ويعملون مثل عملهم؛ تقليدًا لهم بلا تدبر وتأمل.

﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ﴾ أي: قبل قومك يا أكمل الرسل ﴿أَكْثَرُ الأَوَّلِينَ﴾ [الصافات: 71] من الأمم السالفة.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم﴾ أي: في الأولين الماضين ﴿مُنذِرِينَ﴾ [الصافات: 72] مثل ما أرسلناك إليهم بالإنذارات البليغة، فلم يفدهم إنذار أولئك المرسلين كما لم يفد إنذارك إلى هؤلاء المسرفين، فأخذناهم بغتة واستأصلناهم مرة.

﴿فَانظُرْ﴾ أيها المعتبر الخبير ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ﴾ [الصافات: 73] بعدما لم ينذروا بالإنذارات البليغة الواصلة إليهم من قبل الرسل، ولم يتنبهوا منها إلى الطريق المستبين، انقلبوا ضالين خاسرين صاغرين.

﴿إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الصافات: 74] الذين تنبهوا منها إلى الصراط المستقيم، بل تفطنوا إلى الحق اليقين، فانصرفوا عن العذاب الأليم إلى النعيم المقيم؛ لذلك انقلبوا بنعمة من الله وفضل عظيم.

﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٨٢﴾﴾ [الصافات: 75-82].

ثم أخذ سبحانه في تعداد أهل الضلال الجاحدين على الرسل المنذرين بعدما أجمل فقال: ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ﴾ حين أردنا إهلاك قومه بالطوفان نداء مؤمل ضريع لاستخلاصه واستخلاص من آمن معه من قومه، فأجبناه ﴿فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ [الصافات: 75] نحن لأوليائنا المخلصين.

﴿وَ﴾ لهذا ﴿نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ﴾ أي: من آمن معه ﴿مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ [الصافات: 76] أي: من الغم الذي لحقه دائمًا من أذى قومه وضربهم عليه، ومن أنواع زجرهم وشتمهم، أو من كرب الطوفان.

﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ﴾ أي: من تناسل منه ومن أبنائه ﴿هُمُ الْبَاقِينَ﴾ [الصافات: 77]

إلى قيام الساعة.

روي أنه مات من بعدما نزل من السفينة من كان معه من المؤمنين، ولم يبق إلا هو وبنوه وأزواجهم، فتناسلوا إلى انقراض الدنيا، كما قال سبحانه: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ﴾ أي: أبقينا عليه ذكرًا جميلاً، وثناء جزيلاً ﴿فِي الْآخِرِينَ﴾ [الصافات: 78] أي: في الأمم المتخلفة منهم، يذكرونه بالخير، ويقولون تكريمًا له وترحيبًا: ﴿سَلَامٌ﴾ أي: تسليم وتكريم من الله ومن خواص عباده ﴿عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات: 79] [1] أي: في النشأة الأولى والأخرى.

﴿إِنَّا﴾ بمقتضى لطفنا وجودنا لخلص عبادنا ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: مثل ما جزينا نوحًا على إحسانه وإخلاصه ﴿نَجْزِي﴾ جميع ﴿الْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات: 80] من عبادنا، لو أنابوا إلينا، وتوجهوا نحونا على وجه الإخلاص.

وكيف لا نبقي له ذكرًا جميلاً ولا نجزيه جزاء جزيلاً؟! ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات: 81] الموقنين بتوحيدنا، المتوكلين علينا، المفوضين أمورهم إلينا، المخلصين فيما جاءوا به من الأعمال والأفعال.

﴿ثُمَّ﴾ إنَّا بمقتضى لطفنا فعلنا معه ما فعلنا من الإنعام والإحسان، ونجيناه من كرب الطوفان ﴿أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾ [الصافات: 82] أي: كفار قومه بها، واستأصلناهم

(1) لما ذكر تعالى عن أكثر الأولين أنهم ضلوا عن سبيل النجاة، شرع يبين ذلك مفصلا فذكر نوحا، عليه السلام، وما لقى من قومه من التكذيب، وأنه لم يؤمن منهم إلا القليل مع طول المدة، [فإنه] لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما، فلما طال عليه ذلك واشتد عليه تكذيبهم، وكلما دعاهم ازدادوا نفرة، فدعى ربه أني مغلوب فانتصر، فغضب الله لغضبه عليهم؛ ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ أي: فلنعم المجيبون له. ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾، وهو التكذيب والأذى، ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس يقول: لم تبق إلا ذرية نوح، ﷺ وقال سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ قال: الناس كلهم من ذرية نوح ﷺ، وقد روى الترمذي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، من حديث سعيد بن بشير، عن قتادة، عن الحسن، عن سمرة، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ قال: «سام، وحام ويافث». وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الوهاب، عن سعيد، عن قتادة، عن الحسن، عن سمرة؛ أن نبي الله ﷺ قال: «سام أبو العرب، وحام أبو الحبش، ويافث أبو الروم» ورواه الترمذي عن بشر بن معاذ العقدي، عن يزيد بن زريع، عن سعيد وهو ابن أبي عروبة. «تفسير ابن كثير» (22/7).

إلى حيث لم يبق منهم أحد على وجه الأرض، سوى أصحاب السفينة وأشياعه المؤمنين معه، ومن تشعب وتناسل منهم.

﴿ ۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾ [الصافات: 83-98].

﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ﴾ أي: من جملة من شايعه في التوحيد والإيمان، بل من أجلة من تابعه على أصول الدين ومعالم اليقين ﴿لَإِبْرَاهِيمَ﴾ [الصافات: 83] المتصف بكمال العلم والحلم والمعرفة واليقين وإن طال الزمان بينهما.

قيل: كان بين نوح وإبراهيم - عليهما السلام - ألفان وستمائة وأربعون سنة.

اذكر يا أكمل الرسل وقت ﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الصافات: 84] سالم عن جميع الميول الباطلة والآراء الفاسدة.

﴿إِذْ قَالَ﴾ جدك إبراهيم الخليل، صلوات الرحمن عليه وسلامه ﴿لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ﴾ حين انكشف بالتوحيد الإلهي، وتمكن في مرتبة الشهود العيني والحقي، مستفهمًا على سبيل الإنكار والتوبيخ؛ غيرة على الله وإظهارًا لمقتضى الخلة: ﴿مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ [الصافات: 85] أي: لأي شيء تعبدون هذه الأصنام الباطلة العاطلة عن لوازم الألوهية والربوبية، أيها الجاهلون بتوحيد الله وبكمال أوصافه وأسمائه.

﴿أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللهِ تُرِيدُونَ﴾ [الصافات: 86] أي: أتريدون أيها المعاندون أن تثبتوا آلهة متعددة سوى الله الواحد الأحد، الصمد القيوم المطلق، المستحق للألوهية والربوبية استحقاقًا ذاتيًا ووصفيًا على سبيل الإفك والمراء والكذب والافتراء؟!.

﴿فَمَا ظَنُّكُم﴾ أيها الجاهلون المكابرون ﴿بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات: 87] أتظنون أن له شريكًا في الوجود، أو له نظيرًا في الشهود وسواه موجود؟! والله ما ظنكم هذا إلا خيال باطل وزيغ زائل.

وبعدما سمعوا منه ما سمعوا، انصرفوا عنه وأنكروا عليه وعلى ربه، فأراد ﷺ أن يكايدهم في أصنامهم، ويخادع في كسرها، وقد قرب حينئذ يوم عيدهم.

وكان من عادتهم الإتيان بالقرابين والهدايا عند أصنامهم ومعابدهم، فيتقربون بها، ويتخذون منها أنواعًا من الأطعمة، فيطبخونها عنده في ليلة العيد، ثم يخرجون صبح العيد إلى الصحراء، فيتعيدون فيها بأجمعهم، ثم ينصرفون منها، فينزلون في معابدهم وعند أصنامهم، ويمهدون موائد كثيرة من الأطعمة المهيأة، فيأكلون منها ويتبركون بها، وكان عادتهم كذلك.

ثم لما اجتمعوا على المعبد عند الأصنام، قالوا له: أخرج أنت أيضًا معنا غدًا يا إبراهيم إلى الصحراء، نعيد فيها ونرجع ﴿فَنَظَرَ﴾ إبراهيم ﷺ حينئذ ﴿نَظْرَةً فِي﴾ دفتر ﴿النُّجُومِ﴾ [الصافات: 88] وهم كانوا يعملون بالأحكام النجومية معتقدون لها، وهو ﷺ مشهور بضبطها.

﴿فَقَالَ إِنِّي﴾ اليوم ﴿سَقِيمٌ﴾ [الصافات: 89] الآن، أو سأسقم عن قريب بالطاعون، وهم قد يفرون من المطعون فرارهم من الأسد.

﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ﴾ وانصرفوا من عنده بعدما سمعوا منه القول الموحش ﴿مُدْبِرِينَ﴾ [الصافات: 90] رهبًا ورعبًا، فخرجوا من الغداة إلى الصحراء، ولم يخرج ﷺ معهم.

ثم لما بقي الأصنام خاليًا عن الخدام، وقد طبخ عندها أنواع من الطعام ﴿فَرَاغَ﴾ أي: مال وانصرف ﷺ ﴿إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ﴾ أولاً على سبيل التهكم والاستهزاء: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ [الصافات: 91] أيها المعبودون من هذه الأطعمة المطبوخة المهيأة.

ثم قال: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ﴾ [الصافات: 92] أي: ما عرض ولحق لكم، لا تتكلمون معي أيتها الآلهة المستحقون للعبادة والرجوع في المهمات ؟!.

وبعدما استهزأ مع هؤلاء الأصنام الصم البكم الجامدين بما استهزأ ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: ضربهم ﴿ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ [الصافات: 93] أي: بكمال القوة والغلظة، فكسّرها تكسيرًا، وفتت أجزاءها تفتيتًا.

ثم لما أخبروا بانكسار أصنامهم وانفتاتها حين كانوا في الصحراء في معيدهم، ظنوا بأجمعهم، بل جزموا أنه ما فعل هذا بآلهتهم إلا إبراهيم ﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ﴾ عازمين جازمين على انتقامه ومقته ﴿يَزِفُّونَ﴾ [الصافات: 94] أي: يسرعون ويعدون

ويتحيرون ويتبخترون.

ثم لما وصلوا إليه حصروا عن التكلم معه من غاية غيظهم ونهاية زفرتهم؛ لسبقهم ﷺ بالتكلم حيث ﴿قَالَ﴾ مقرعًا عليهم: ﴿أَتَعْبُدُونَ﴾ أيها الجاهلون الضالون ﴿مَا تَنْحِتُونَ﴾ [الصافات: 95] وتصنعون بأيدكم، وتعتقدونه إلهًا خالقًا موجدًا، مظهرًا لكم من كتم العدم، وتعبدونه ظلمًا وزورًا، فمن أين يتأتى لهؤلاء الجمادات العاطلة لوازم الخلق والإيجاد والإظهار، أفلا تعقلون.

بل ﴿وَاللَّهُ﴾ الواحد الأحد الصمد، المستقل بالألوهية والربوبية ﴿خَلَقَكُمْ﴾ بالإرادة والاختيار ﴿وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: 96] أي: جميع أعمالكم وأفعالكم التي صدرت عنكم، ومن جملتها: صنعكم ونحتكم للأصنام والأوثان.

ومن هذا ظهر أن جميع أفعال العباد مثل ذواتهم مستندة إلى الله أولاً وبالذات ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: 37].

ثم لما سمعوا منه ﷺ ما سمعوا، انصرفوا عن مقاولته ومكالمته، وهموا العزم إلى قتله.

﴿قَالُوا﴾ أي: بعضهم حين كانوا متشاورين في كيفية قتله بعدما أقر رأيهم عليه: ﴿ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: 97] أي: في النار المسعرة؛ حتى تنتقموا عن آلهتكم، فبنوا حائطًا من الحجر سمكه ثلاثون ذراعًا وعرضه عشرون، وملؤوه من الحطب، وأوقدوا فيه نارًا، فنفخوا فيها بالمنافخ حتى تسعرت، ثم طرحوه بالمنجنيق فيها.

وبالجملة: ﴿فَأَرَادُوا بِهِ﴾ وقصدوا له ﴿كَيْدًا﴾ لينتقموا عنه مستعلين عليه ﴿فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾ [الصافات: 98] المقهورين، الخاسرين، الخائبين عما فعلوا معه عناية منًا إياه وفضلاً وامتنانًا عليه، حيث جعلناها له بردًا وسلامًا وروحًا وريحانًا، فانقلبوا بعدما رأوا حاله في النار على هذا الوجه صاغرين محزونين، فجعلناهم الأسفلين.

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾

﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٠٥ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ١٠٦ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ ١٠٧ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ١٠٨ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ١٠٩ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١١٠﴾ [الصافات: 99-110].

وبعد ما خرج الخليل - صلوات الرحمن عليه وسلامه - منها اختار الجلاء والخروج من بينهم بوحي الله إياه وإلهامه ﴿وَ﴾ لهذا ﴿قَالَ﴾ حين خروجه: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي﴾ وإلى كنف حفظه وجواره وسعة رحمته ﴿سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات: 99] بلطفه إلى منزل يمكنني التوجه فيه إليه ويطمئن فيه قلبي، فذهب إلى الشام بإلهام الله إياه، وتوطن في الأرض المقدسة.

وبعدما توطن فيها ناجى مع الله، فطلب منه سبحانه الولد المحيي لاسمه، فقال: ﴿رَبِّ﴾ يا من رباني على أنواع النعم والكرامات ﴿هَبْ لِي﴾ ولدًا صالحًا مرضيًا لك مقبولاً عندك، معدودًا ﴿مِنَ﴾ عبادك ﴿الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات: 100] الموفقين من عندك على الصلاح والفوز بالفلاح.

وبعدما تضرع نحونا راجيًا من رحمتنا ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ﴾هو إسماعيل ﷺ ﴿حَلِيمٍ﴾ [الصافات: 101] ذو حلم كامل، وتصبر تام على متاعب العبودية وشدائد الاختبارات الإلهية.

ثم لما ولد له إسماعيل ﷺ، ورباه إلى أن ترقى من الطفولية، وظهر منه الرشد الفطري والفطنة الجبلية، إلى أن بلغ سبع سنين أو ثلاث عشرة، هي أول الحلم وعنفوان الشباب.

وبالجملة: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾ للحوائج والمهمات المتعلقة لأمور المعاش، وصار يذهب ويجيء مع أبيه إلى الاحتطاب وسائر الأشغال، وكان أبوه ينتصر به في الأمور ويستظهر، وكان مشفقًا له، رحيمًا عليه بحيث لا يفارقه أصلاً من كمال عطفه وتحننه.

ثم لما بلغ ﷺ في عطف ولده وارتباط قلبه به مع أنه متمكن في مقام الخلة مع ربه، غار عليه سبحانه فاختبر خلته، حتى رأى في المنام بإلقاء الله في متخيلته أن الله يأمره بذبح ولده إظهارًا لكمال خلته، واصطبار ولده على البلاء، وإظهار حلمه عند المصيبة، فانتبه عن منامه هولاً من الواقعة الهائلة، فخيلها من أضغاث الأحلام،

فاستغفر ربه وتعوذ من الشيطان، ثم نام فرأى أيضًا كذلك، ثم استيقظ كذلك خائفًا مرعوبًا، ثم استغفر ونام، فرأى ثالثًا مثل ما رأى، فتفطن بنور النبوة أنه من الاختبارات الإلهية.

فأخذ بامتثال المأمور خائفًا من غيرة الله وكمال حميته وجلاله، كيف يطيق أحد أن يتخذ سواه محبوبًا، سيما من اختار الله لخلته واصطفاه لمحبته، فأمر ابنه بأن يأخذ الحبل والسكين؛ ليذهب إلى شعب الجبل للاحتطاب كما هو عادتاهما، فذهبا وقد اشتعل في صدره نار المحبة والخلة الإلهية، فشرع يظهر رؤياه لابنه ليختبره كيف هو.

﴿قَالَ يَا بُنَيَّ﴾ ناداه وصغّره تحننًا وعطفًا: ﴿إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾ بأمر الله إياي، تقربًا مني إليه سبحانه، وهديًا نحوه ﴿فَانظُرْ﴾ يا بني وتأمل ﴿مَاذَا تَرَى﴾[1]

---

(1) لما استوى الولد خلة أبيه وكل حقائقه صار أهلًا لقربان الحق، وفداء كشف جماله، وذلك أيضًا محل امتحان الخليل به؛ فإنه لما وجده أهل الحق استأنس به، فغار به الحق، وأراد أن يتجرد سره من الغير حتى لا يبقى بين الخليلين شيء من الحدثان، قال ابن عطاء: لما سعى في الطاعة سعيه وقام بحقوق الله حسب ما رضي به الخليل وقرت عينه بقيامه بحقوق مولاه أنس الخليل به، وفرح بمكانه، فقيل له اذبحه فإنه لا يصلح للخليل أن يفرح إلى شيء دون خليله، ولا يفرح بسواه، فابتُلي بذبحه، ثم لما سلّم وقام مقام الاستقامة واتّبع الأمر فداه بذبح عظيم، وقال البغوي: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾ قال ابن عباس وقتادة: يعني المشي معه إلى الجبل. وقال مجاهد عن ابن عباس: لما شب حتى بلغ سعيه سعي إبراهيم والمعنى: بلغ أن يتصرف معه ويعينه في عمله. قال الكلبي: يعني العمل لله تعالى، وهو قول الحسن ومقاتل بن حيان وابن زيد، قالوا: هو العبادة لله تعالى، واختلفوا في سنه، قيل: كان ابن ثلاث عشرة سنة. وقيل: كان ابن سبع سنين ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾ واختلف العلماء من المسلمين في هذا الغلام الذي أمر إبراهيم بذبحه بعد اتفاق أهل الكتابين على أنه إسحاق، فقال قوم: هو إسحاق وإليه ذهب من الصحابة: عمر، وعلي، وابن مسعود، وابن عباس، ومن التابعين وأتباعهم: كعب الأحبار، وسعيد بن جبير، وقتادة، ومسروق، وعكرمة، وعطاء، ومقاتل، والزهري، والسدي، وهي رواية عكرمة وسعيد بن جبير عن ابن عباس، وقالوا: كانت هذه القصة بالشام، وروي عن سعيد بن جبير قال: أري إبراهيم ذبح إسحاق في المنام، فسار به مسيرة شهر في غداة واحدة حتى أتى به المنحر بمنى، فلما أمره الله تعالى بذبح الكبش، ذبحه وسار به مسيرة شهر في روحة واحدة وطويت له الأودية والجبال، وقال آخرون: هو إسماعيل، وإليه ذهب عبد الله بن عمر، وهو قول سعيد بن المسيب، والشعبي، والحسن البصري، ومجاهد، والربيع بن أنس، ومحمد بن كعب القرظي، والكلبي، وهي رواية عطاء بن أبي رباح، ويوسف بن ماهك عن ابن عباس، قال: المفدى إسماعيل، وكلا القولين يروى عن رسول الله ﷺ، ومن ذهب إلى أن الذبيح إسحاق احتج من القرآن بقوله: ﴿فبشرناه بغلام حليم فلما بلغ معه

أي: أي أمر تفكر وتفتي في هذه الواقعة الهائلة أتصبر على بلاء الله أم لا؟.

وبعدما سمع ابنه ما سمع من الرؤيا ﴿قَالَ﴾ معتصمًا بحبل التوفيق، راضيًا بما

السعي﴾ (الصافات-101) أمره بذبح من بشره به، وليس في القرآن أنه بشر بولد سوى إسحاق، كما قال في سورة هود: ﴿فبشرناها بإسحاق﴾ (هود-71) ومن ذهب إلى أنه إسماعيل احتج بأن الله تعالى ذكر البشارة بإسحاق بعد الفراغ من قصة المذبوح فقال: ﴿وبشرناه بإسحاق نبيًا من الصالحين﴾ (الصافات-112) دل على أن المذبوح غيره، وأيضًا قال الله تعالى في سورة هود: ﴿فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب﴾ (هود-71) فكما بشره بإسحاق بشره بابنه يعقوب، فكيف يأمره بذبح إسحاق وقد وعده بنافلة منه، قال القرظي: سأل عمر بن عبد العزيز رجلا كان من علماء اليهود أسلم وحسن إسلامه: أي ابني إبراهيم أمر بذبحه؟ فقال: إسماعيل، ثم قال: يا أمير المؤمنين إن اليهود لتعلم ذلك، ولكنهم يحسدونكم معشر العرب على أن يكون أباكم الذي كان من أمر الله تعالى بذبحه، ويزعمون أنه إسحاق، ومن الدليل عليه: أن قرني الكبش كانا منوطين بالكعبة في أيدي بني إسماعيل إلى أن احترق البيت واحترق القرنان في أيام ابن الزبير والحجاج، قال الشعبي: رأيت قرني الكبش منوطين بالكعبة، وعن ابن عباس قال: والذي نفسي بيده لقد كان أول الإسلام وأن رأس الكبش لمعلق بقرنيه في ميزاب الكعبة، قد وحش، يعني يبس، قال الأصمعي: سألت أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح إسحاق كان أو إسماعيل؟ فقال: يا صميع أين ذهب عقلك متى كان إسحاق بمكة؟ إنما كان إسماعيل بمكة، وهو الذي بنى البيت مع أبيه، وأما قصة الذبح قال السدي: لما دعا إبراهيم فقال: رب هب لي من الصالحين، وبشر به، قال: هو إذًا لله ذبيح، فلما ولد وبلغ معه السعي قيل له: أوف بنذرك، هذا هو السبب في أمر الله تعالى إياه بذبح ابنه، فقال عند ذلك، لإسحاق: انطلق فقرب قربانًا لله تعالى فأخذ سكينًا وحبلا وانطلق معه حتى ذهب به بين الجبال، فقال له الغلام: يا أبت أين قربانك؟ فقال: ﴿يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر﴾ وقال محمد بن إسحاق: كان إبراهيم إذا زار هاجر وإسماعيل حمل على البراق فيغدو من الشام فيقيل بمكة، ويروح من مكة فيبيت عند أهله بالشام، حتى إذا بلغ إسماعيل معه السعي، وأخذ بنفسه ورجاه لما كان يأمل فيه من عبادة ربه وتعظيم حرماته، أمر في المنام أن يذبحه، وذلك أنه رأى ليلة التروية كأن قائلا يقول له: إن الله يأمرك بذبح ابنك هذا، فلما أصبح روي في نفسه أي: فكر من الصباح إلى الرواح، أمن الله هذا الحلم أم من الشيطان؟ فمن ثم سمي يوم التروية فلما أمسى رأى في المنام ثانيًا، فلما أصبح عرف أن ذلك من الله عز وجل، فمن ثم سمي يوم عرفة، قال مقاتل: رأى ذلك إبراهيم ثلاث ليال متواليات، فلما تيقن ذلك أخبر به ابنه، فقال: ﴿يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى﴾ قرأ حمزة والكسائي: ﴿ترى﴾ بضم التاء وكسر الراء -ماذا تشير، وإنما أمره ليعلم صبره على أمر الله تعالى، وعزيمته على طاعته، وقرأ العامة بفتح التاء والراء إلا أبا عمرو فإنه يميل الراء. «تفسير البغوي» (7/46. 48).

جرى عليه من قضاء الله مسلمًا نحوه، مستقبلاً مناديًا لأبيه لينبئ عن كمال إطاعته له وانقياده لحكم ربه: ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ من قبل الحق، فاذبحني في سبيل الله تقربًا منك نحوه، وطلبًا لمرضاته، ولا تلتفت إلى لوازم الأبوة والبنوة، وكن أنت صابرًا لبلاء الله بذبح ولدك بيدك بإذنه وفي سبيله ﴿سَتَجِدُنِي﴾ أيضًا ﴿إِن شَاءَ اللَّهُ﴾ وتعلق إرادته بأن اصبر على بلائه الذي هو قتل أبي إياي بيده ﴿مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصافات: 102][1] المتمكنين على تحمل الشدائد والمصيبات الآتية من قبل الحق.

وبعدما تشاورا وتقاولا، فوَّضا الأمر إليه سبحانه، وانقادا لحكمه، ورضيا بقضائه طوعًا ورغبة ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا﴾ أي: سلَّما واستسلما؛ أي: كل منهما أمره إلى ربه ووصلا الموقف والمنحر، توجه الخليل نحو الحق ناويًا التقرب إليه سبحانه ﴿وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ [الصافات: 103][2] أي: صرع ابنه على شقه الأيمن امتثالاً لأمر ربه مثل صرع البهائم

---

(1) قال له ابنه: ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ وقال ابن إسحاق وغيره: فلما أمر إبراهيم بذلك قال لابنه: يا بني خذ الحبل والمدية ننطلق إلى هذا الشعب نحتطب، فلما خلا إبراهيم بابنه في شعب ثبير أخبره بما أمر، ﴿قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ . «تفسير البغوي» (48/7).

(2) ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا﴾ انقادا وخضعا لأمر الله تعالى، قال قتادة: أسلم إبراهيم ابنه وأسلم الابن نفسه، ﴿وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ أي: صرعه على الأرض. قال ابن عباس: اضجعه على جبينه على الأرض والجبهة بين الجبينين، قالوا: فقال له ابنه الذي أراد ذبحه: يا أبت اشدد رباطي حتى لا اضطرب، واكفف عني ثيابك حتى لا ينتضح عليها من دمي شيء فينقص أجري وتراه أمي فتحزن، واشحذ شفرتك، وأسرع مر السكين على حلقي ليكون أهون عليّ فإن الموت شديد، وإذا أتيت أمي فاقرأ عليها السلام مني، وإن رأيت أن ترد قميصي على أمي فافعل، فإنه عسى أن يكون أسلى لها عني، فقال له إبراهيم عليه السلام: نعم العون أنت يا بني على أمر الله، ففعل إبراهيم ما أمر به ابنه، ثم أقبل عليه فقبله وقد ربطه وهو يبكي والابن أيضًا يبكي ثم إنه وضع السكين على حلقه فلم تحك السكين، ويروى أنه كان يجر الشفرة في حلقه فلا تقطع، فشحذها مرتين أو ثلاثة بالحجر، كل ذلك لا تستطيع، قال السدي: ضرب الله تعالى صفحة من نحاس على حلقه قالوا: فقال الابن عند ذلك: يا أبت كبني لوجهي على جبيني فإنك إذا نظرت في وجهي رحمتني وأدركتك رقة تحول بينك وبين أمر الله تعالى، وإني لا أنظر إلى الشفرة فأجزع، ففعل ذلك إبراهيم ثم وضع الشفرة على قفاه فانقلبت السكين ونودي: أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا، وروى أبو هريرة عن كعب الأحبار وابن إسحاق عن رجاله قال: لما رأى إبراهيم ذبح ابنه قال الشيطان: لئن لم أفتن عند هذا آل إبراهيم لا أفتن منهم أحدًا أبدًا، فتمثل له الشيطان رجلا وأتى أم الغلام، فقال لها: هل تدرين أين ذهب إبراهيم بابنك؟ قالت: ذهب به =

حال الذبح، بعدما شدَّ بالحبل يده ورجله، فأخذ الشفرة فأمرَّها على حلقه، فلم تمضِ ولم تعمل، فأخذ حجرًا المحدّ فأحدها، ثم أمرَّها، ولم تمضِ أيضًا، وهكذا فعل مرارًا لم تعمل شيئًا فتحير في أمره، قال له ابنه حينئذ: يا أبت أكبني على وجهي فاذبحني من القفا؛ لئلا يمنعك من ذبحي رؤيتك وجهي ففعل كذلك فلم تمضِ.

﴿وَ﴾ بعدما جربناهما ووجدناهما على كمال التصبر والرضا بما جرى عليهما من القضاء ﴿نَادَيْنَاهُ﴾ من مقام عظيم جودنا إياه ولطفنا ﴿أَنْ﴾ أي: بأن قلنا له مناديًا: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ [الصافات: 104] المختص بخلتنا الراضي بمصيبتنا، قد صدَّقت الرؤيا وامتثلت بالمأمور، ورضيت بذبح ولدك لرضانا، واختبرناك به فوجدناك متمكنًا على مرتبة الخلة والتوحيد، فقد أتيت مخلصًا ما طلبنا منك، كان لك من الفضل والعطاء منّا جزاء لفعلك ما لم يكن لأحد من بني نوعك؛ لإخلاصك في أمرك وصحة عزيمتك وخلوص طويتك في نيتك.

ثم قال سبحانه على سبيل العظة والتذكير لعباده بمقتضى عظيم جودنا: ﴿قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ﴾ أي: مثل ما جزينا إبراهيم ونجيناه من الكرب العظيم ﴿نَجْزِي﴾ جميع ﴿الْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات: 105] المخلصين في حسناتهم ونياتهم، في

يحتطبان من هذا الشعب، قال: لا والله ما ذهب به إلا ليذبحه، قالت: كلا هو أرحم به وأشد حبا له من ذلك، قال: إنه يزعم أن الله قد أمره بذلك، قالت: فإن كان ربه أمره بذلك فقد أحسن أن يطيع ربه، فخرج الشيطان من عندها حتى أدرك الابن وهو يمشي على إثر أبيه، فقال له: يا غلام هل تدري أين يذهب بك أبوك؟ قال: نحتطب لأهلنا من هذا الشعب، قال: والله ما يريد إلا أن يذبحك، قال: ولم؟ قال: زعم أن ربه أمره بذلك، قال: فليفعل ما أمره به ربه فسمعًا وطاعة، فلما امتنع منه الغلام أقبل على إبراهيم عليه السلام فقال له: أين تريد أيها الشيخ؟ قال: أريد هذا الشعب لحاجة لي فيه، قال: والله إني لا أرى الشيطان قد جاءك في منامك فأمرك بذبح ابنك هذا، فعرفه إبراهيم ﷺ فقال: إليك عني يا عدو الله فوالله لأمضين لأمر ربي، فرجع إبليس بغيظه لم يصب من إبراهيم وآله شيئًا مما أراد، قد امتنعوا منه بعون الله تعالى، وروى أبو الطفيل عن ابن عباس: أن إبراهيم لما أمر بذبح ابنه عرض له الشيطان بهذا المشعر فسابقه فسبقه إبراهيم، ثم ذهب إلى جمرة العقبة فعرض له الشيطان فرماه بسبع حصيات حتى ذهب، ثم عرض له عند الجمرة الوسطى فرماه بسبع حصيات حتى ذهب، ثم أدركه عند الجمرة الكبرى فرماه بسبع حصيات حتى ذهب، ثم مضى إبراهيم لأمر الله ﷺ قال الله ﷻ: ﴿فلما أسلما وتله للجبين﴾. «تفسير البغوي» (7/48 – 49).

جميع أعمالهم وحالاتهم.

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّ هَذَا﴾ المأمور لإبراهيم الأوّاه الحليم من ذبح ولده في طريق الخلة مع ربه ﴿لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ﴾ [الصافات: 106] الظاهر صعوبته وشدته على عموم المكلفين.

وبعدما عزم عليه بالعزيمة الخالصة الصحيحة، وأقدم على امتثاله عن محض الاعتقاد وصميم الفؤاد إلى حيث لو لم نمنع مضاء شفرته، مع أنه بالغ في إمرارها بقوة تامة، وأحدَّها مرارًا لذبحه ألبتة، فمنعناها بعدما ظهر إخلاصه لدينا.

﴿وَ﴾ بعدما منعنا مضاء شفرته ﴿فَدَيْنَاهُ﴾ أي: الذبيح الذي هو ابنه ﴿بِذِبْحٍ﴾ أي: بما يذبح فيه فيتم تقربه إلينا، وينال من لدنَّا ما نعدّ له من الثواب والجزاء ﴿عَظِيمٍ﴾ [الصافات: 107] [1] أي: عظيم القدر؛ إذ ما يفديه الحق لنبيه أعظم مما يَفديه العباد.

قيل: لما سمع إبراهيم نداء الهاتف، التفت فإذا هو جبريل عليه السلام، ومعه كبش أملح أقرن، فقال له: هذا فداء ابنك بعثه الله إليك، فاذبحه دونه، وهذا قد رعى في الجنة أربعين خريفًا لتلك المصلحة، فأخذ إبراهيم الكبش، فأتى به المنحر من مِنى فذبحه عنده، وفاز بمبتغاه من الله ما فاز عاجلاً وآجلاً، مما لا مجال للعبارة والإشارة إليه

(1) ﴿وَنَادَيْنَاهُ﴾ الواو في ﴿وناديناه﴾ مقحمة صلة، مجازه: ناديناه كقوله: ﴿وأجمعوا أن يجعلوه في غيابت الجب وأوحينا إليه﴾ (يوسف-15) أي: أوحينا إليه، فنودي من الجبل: ﴿أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾ تم الكلام هاهنا ثم ابتدأ فقال: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ والمعنى: إنا كما عفونا إبراهيم عن ذبح ولده نجزي من أحسن في طاعتنا، قال مقاتل: جزاه الله بإحسانه في طاعته العفو عن ذبح ابنه. ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ﴾ الاختيار الظاهر حيث اختبره بذبح ابنه. وقال مقاتل: البلاء هاهنا: النعمة، وهي أن فدي ابنه بالكبش، فإن قيل: كيف قال: صدقت الرؤيا، وكان قد رأى الذبح ولم يذبح؟ قيل: اجعله مصدقًا لأنه قد أتى بما أمكنه، والمطلوب إسلامهما لأمر الله تعالى وقد فعلا. وقيل: [كان قد] رأى في النوم معاجلة الذبح ولم ير إراقة الدم، وقد فعل في اليقظة ما رأى في النوم، فلذلك قال له: ﴿قد صدقت الرؤيا﴾. ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ فنظر إبراهيم فإذا هو بجبريل ومعه كبش أملح أقرن، فقال: هذا فداء لابنك فاذبحه دونه، فكبر جبريل، وكبر الكبش، وكبر ابنه، فأخذ إبراهيم الكبش فأتى به المنحر من منى فذبحه، قال أكثر المفسرين: كان ذلك الكبش رعى في الجنة أربعين خريفًا، وروي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: الكبش الذي ذبحه إبراهيم هو الذي قربه ابن آدم هابيل، قال سعيد بن جبير: حق له أن يكون عظيمًا. قال مجاهد: سماه عظيمًا لأنه متقبل، وقال الحسين بن الفضل: لأنه كان من عند الله. وقيل: عظيم في الشخص. وقيل: في الثواب. «تفسير البغوي» (7/50).

سبيلاً.

﴿وَ﴾ من جملة ما جزينا إبراهيم عاجلاً: إن من كمال خلتنا معه ﴿تَرَكْنَا عَلَيْهِ﴾ وأبقينا له في الآخرين؛ أي: في الأمم الذين يلون ويأتون بعده إلى قيام الساعة ثناءً حسنًا وذكرًا جميلاً، حيث يقولون دائمًا ﴿فِي الْآخِرِينَ * سَلَامٌ﴾ [الصافات: 108-109] وترحيب منا وبركات من الله، ورحمة نازلة دائمًا مستمرة ﴿عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ [الصافات: 109].

ثم قال سبحانه حثًا للمؤمنين: ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: مثل ما جزينا إبراهيم بأحسن الجزاء في الدنيا والآخرة ﴿نَجْزِي﴾ عموم ﴿الْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات: 110] إن أحسنوا وأخلصوا في نياتهم وحسناتهم.

﴿ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [الصافات: 111-122].

وكيف لا نجزى خليلنا؟! ﴿إِنَّهُ مِنْ﴾ خُلّص ﴿عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات: 111] الموحدين الموقنين بذاتنا وصفاتنا وأفعالنا وأسمائنا، واستقلالنا في ملكنا وملكوتنا.

وبعدما ابتليناه أولاً بذبح الولد، وفديناه عن ولده عناية منا إياه وإلى ولده ﴿وَبَشَّرْنَاهُ﴾ بولد آخر مسمى ﴿بِإِسْحَاقَ﴾ وجعلناه ﴿نَبِيًّا﴾ من الأنبياء، معدودًا ﴿مِنَ﴾ زمرة ﴿الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات: 112] لمرتبة الكشف واليقين.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿بَارَكْنَا عَلَيْهِ﴾ أي: كثرنا الخير والبركة على إبراهيم ﴿وَ﴾ كذا ﴿عَلَى﴾ ابنه ﴿إِسْحَاقَ وَ﴾ كثرنا نسلهما إلى أن جعلنا ﴿مِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ﴾ في الأعمال والأخلاق والأحوال، ذو نفع كثير على عباد الله وفقراء سبيله ﴿وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ أي: تارك لحظوظ نفسه من الدنيا ﴿مُبِينٌ﴾ [الصافات: 113] ظاهر في الترك، مبالغ فيه

إلى حيث يمنع عنها ضروريتها أيضًا، منجذبًا نحو عالم اللاهوت، منخلعًا عن لوازم الناسوت، مائلاً نحو الحق بجميع قوَاه وجوارحه، طالبًا الفناء فيه والبقاء ببقائه، ومنهم النبي ﷺ والوصيّ - كرم الله وجهه - وابناه وأولادهما بطنًا بعد بطن سلام الله عليهم أجمعين؛ حيث لا يلتفتون إلى حطام الدنيا ومزخرفاتها، إلا مقدار سدّ جوعة ولبس خرقة خشن.

﴿وَ﴾ من ذريتهما المكرمين المؤيدين من عندنا: موسى وهارون ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا﴾ أيضًا ﴿عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ﴾ [الصافات: 114] أخيه منّة عظيمة.

﴿وَ﴾ ذلك أنَّا ﴿نَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا﴾ أي: مَن آمن لهما من بني إسرائيل ﴿مِنَ الكَرْبِ العَظِيمِ﴾ [الصافات: 115] الذي هو غلبة فرعون وغرق اليم.

﴿وَنَصَرْنَاهُمْ﴾ أي: هما وقومهما على فرعون وملئه ﴿فَكَانُوا هُمُ الغَالِبِينَ﴾ [الصافات: 116] عليهم بعدما صاروا مغلوبين منهم.

﴿وَ﴾ بعدما صيرناهم غالبين ﴿آتَيْنَاهُمَا﴾ أي: موسى وهارون ﴿الكِتَابَ المُسْتَبِينَ﴾ [الصافات: 117] وهو: التوراة الذي هو أبيَن الكتب وأوضحها في ضبط الأحكام الإلهية المتعلقة بنظام الظاهر، ﴿وَهَدَيْنَاهُمَا﴾ أيضًا ﴿الصِّرَاطَ المُسْتَقِيمَ﴾ [الصافات: 118] الموصل إلى الحق اليقين في مراتب التوحيد.

﴿وَ﴾ من كمال تكريمنا إياهما ﴿تَرَكْنَا عَلَيْهِمَا﴾ أي: أبقينا ذكرهما بالخير ﴿فِي الآخِرِينَ﴾ [الصافات: 119] اللاحقين لهما من الأمم؛ حيث يقولون في حقهما عند ذكرهما: ﴿سَلامٌ﴾ من الله وتحية منّا ﴿عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ﴾ [الصافات: 120] وذلك من جملة امتناننا عليهما وتكريمنا إياهما إنَّا من كمال جودنا ولطفنا ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي المُحْسِنِينَ﴾ [الصافات: 121] المحسنين في حسناتهم وجميع حالاتهم.

وكيف لا نجزيهما خير الجزاء وأحسنه؟! ﴿إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا المُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات: 122] الموقنين بتوحيدنا، المصدقين لاستقلالنا في ملكنا وملكوتنا.

﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٢٥﴾ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى الْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ

﴿١٣٠ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ١٣١ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ١٣٢﴾ [الصافات: 123-132].

﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ﴾ ابن ياسين من أولاد هارون أخي موسى ﴿لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: 123] من عندنا المؤيدين بوحينا وإلهامنا.

اذكر يا أكمل الرسل ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ حين انحرفوا عن سبل السلامة وطرق الاستقامة بالظلم على عباد الله والخروج عن حدوده ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الصافات: 124] وتحذرون عن بطش الله أيها المفسدون المفرطون في الإشراك بالله والدعوة إلى غير الله.

﴿أَتَدْعُونَ﴾ أيها الجاهلون ﴿بَعْلاً﴾ أي: صنمًا مسمى به في المهمات والملمات ﴿وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الخَالِقِينَ﴾ [الصافات: 125] أي: تتركون الدعوة والرجوع إلى الحق الحقيق بالإطاعة والانقياد، المستحق للعبودية والرجوع إليه في الخطوب.

﴿اللهَ﴾ بالرفع على الاستئناف، والنصب على البدل، وكذلك ﴿رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ﴾ [الصافات: 126] برفع البائين ونصبهما على الخبر والبدل على القراءتين؛ أي: مربيكم ومظهركم في كتم العدم وأسلافكم أيضًا، فتعدلون عن عبادته، وتعبدون ما لا ينفعكم ولا يضركم ظلمًا وزورًا.

وبعدما سمعوا منه دعوته إلى التوحيد، ورفض عبادة آلهتهم، وقدحه إياها ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ تكذيبًا، ولم يلتفتوا إلى قوله ودعوته بل طردوه، وعزموا أن يقتلوه ﴿فَإِنَّهُمْ﴾ بشؤم تكذيبهم رسول الله، وإبائهم عن دعوته إلى التوحيد، واتخاذهم الأصنام والأوثان آلهة دون الله، شركاء معه في استحقاق العبادة والرجوع إليه في الوقائع ﴿لَمُحْضَرُونَ﴾ [الصافات: 127] في العذاب الأليم، مؤبدون في نار الجحيم أبد الآباد.

﴿إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الصافات: 128] منهم، المبادرين إلى الإيمان بعدما سمعوا دعوة الرسل بلا ميل منهم إلى الإنكار والتكذيب.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ﴾ أي: على إلياس أيضًا ذكرًا جميلاً ﴿فِي الآخِرِينَ﴾ [الصافات: 129] حيث يقولون حين ثنائهم عليه وتكريمهم إياه: ﴿سَلامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ﴾ [الصافات: 130] وهو لغة في إلياس؛ كجبريل في جبرائيل، وسينين في سيناء.

﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات: 131] المستحفظين على أحكامنا

ومقتضيات أوامرنا ونواهينا.

وكيف لا نجزيه أحسن الجزاء؟! ﴿إِنَّهُ مِنْ﴾ جملة ﴿عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات: 132] المتمكنين في مقر التوحيد واليقين، الفائزين بمقام الكشف والشهود.

﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ [الصافات: 133-144].

﴿وَإِنَّ لُوطًا﴾ أيضًا ﴿لَمِنَ﴾ جملة ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: 133] الفائزين بمرتبة الحق اليقين.

اذكر يا أكمل الرسل للمعتبرين المؤمنين وقت ﴿إِذْ نَجَّيْنَاهُ﴾ أي: لوطًا ﴿وَأَهْلَهُ﴾ أي: أولاده وأهل بيته ﴿أَجْمَعِينَ * إِلَّا عَجُوزًا﴾ [الصافات: 134-135] وهي: امرأته بقيت ﴿فِي الْغَابِرِينَ﴾ [الصافات: 135] الهالكين بالعذاب المنزل عليهم بشؤم فعلتهم الشنيعة، المتناهية في القباحة والشناعة.

﴿ثُمَّ﴾ بعدما نجيناه وأهله ﴿دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ﴾ [الصافات: 136] من قومه وأهلكناهم أجمعين.

﴿وَإِنَّكُمْ﴾ يا أهل مكة ﴿لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم﴾ أي: على أطلالهم ومنازلهم المنقلبة بشؤم فعلتهم وقت ترحالكم إلى الشام، وهي على متن الدرب ﴿مُّصْبِحِينَ﴾ [الصافات: 137] إن كنتم سائرين في أسفاركم في الليالي، ﴿وَبِاللَّيْلِ﴾ إن كنتم سائرين في أيامكم؛ يعني: إن سرتم ليلاً تصبحون عندها، وإن سرتم نهارًا تمسون دونها.

وبالجملة: هي على طريقكم أيها المجبولون على العبرة والعظة ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات: 138] وتتفكرون فيما جرى عليهم بشؤم تكذيبهم وإنكارهم على رسل الله؛ ليعتبروا منهم ومن أطلالهم ورسومهم المندرسة المنكوسة، ولا تفعلوا مثل أفعالهم.

﴿وَإِنَّ يُونُسَ﴾[1] ابن متّى أيضًا ﴿لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: 139] من عندنا،

---

(1) قوله تعالى: ﴿وإن يونس لمن المرسلين إذ أبق الى الفلك المشحون فساهم فكان من المدحضين فالتقمه الحوت وهو مليم فلولا أنه كان من المسبحين للبث في بطنه الى يوم يبعثون﴾ فيه مسائل: الأولى: قوله تعالى: ﴿وإن يونس لمن المرسلين﴾ يونس هو ذو النون، وهو ابن متى، وهو ابن العجوز التي نزل عليها إلياس فاستخفى عندها من قومه ستة أشهر ويونس صبي يرضع، وكانت أم يونس تخدمه بنفسها وتؤانسه، ولا تدخر عنه كرامة تقدر عليها، ثم إن إلياس سئم ضيق البيوت فلحق بالجبال، ومات ابن المرأة يونس، فخرجت في أثر إلياس تطوف وراءه في الجبال حتى وجدته، فسألته أن يدعو الله لها لعله يحيي لها ولدها، فجاء إلياس إلى الصبي بعد أربعة عشر يوما من موته، فتوضأ وصلى ودعا الله فأحيا الله يونس بن متى بدعوة إلياس ﷺ، وأرسل الله يونس إلى أهل نينوى من أرض الموصل وكانوا يعبدون الأصنام ثم تابوا، حسب ما تقدم بيانه في سورة " يونس " ومضى في " الأنبياء " قصة يونس في خروجه مغاضبا، واختلف في رسالته هل كانت قبل التقام الحوت إياه أو بعده، قال الطبري عن شهر بن حوشب: إن جبريل ﷺ أتي يونس فقال: انطلق إلى أهل نينوى فأنذرهم أن العذاب قد حضرهم، قال: ألتمس دابة، قال: الأمر أعجل من ذلك، قال: ألتمس حذاء، قال: الأمر أعجل من ذلك، قال: فغضب فانطلق إلى السفينة فركب، فلما ركب السفينة احتبست السفينة لا تتقدم ولا تتأخر، قال: فتساهموا، قال: فسهم، فجاء الحوت يبصبص بذنبه، فنودي الحوت: أيا حوت! إنا لم نجعل لك يونس رزقا، إنما جعلناك له حرزا ومسجدا، قال: فالتقمه الحوت من ذلك المكان حتى مر به إلى الأبلة، ثم انطلق به حتى مر به على دجلة، ثم انطلق حتى ألقاه في نينوى، حدثنا الحرث قال حدثنا الحسن قال حدثنا أبو هلال قال حدثنا شهر بن حوشب عن ابن عباس قال: إنما كانت رسالة يونس بعد ما نبذه الحوت، واستدل هؤلاء بأن الرسول لا يخرج مغاضبا لربه، فكان ما جرى منه قبل النبوة، وقال آخرون: كان ذلك منه بعد دعائه من أرسل إليهم إلى ما أمره الله بدعائهم إليه، وتبليغه إياهم رسالة ربه، ولكنه وعدهم نزول ما كان حذرهم من بأس الله في وقت وقته لهم ففارقهم إذ لم يتوبوا ولم يراجعوا طاعة الله، فلما أظل القوم العذاب وغشيهم - كما قال الله تعالى في تنزيله - تابوا إلى الله، فرفع الله العذاب عنهم، وبلغ يونس سلامتهم وارتفاع العذاب الذي كان وعدهموه فغضب من ذلك وقال: وعدتهم وعدا فكذب وعدي، فذهب مغاضبا ربه وكره الرجوع إليهم، وقد جربوا عليه الكذب، روا سعيد بن جبير عن ابن عباس، وقد مضى هذا في ﴿الأنبياء﴾ وهو الصحيح على ما يأتي عند قول تعالى: ﴿وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون﴾ [الصافات: 147] ولم ينصف يونس، لأنه اسم أعجمي ولو كان عربيا لانصرف وإن كانت في أول الياء، لأنه ليس في الأفعال يفعل كما أنك إذا سميت بيعفر صرفته، وإن سميت بيعفر لم تصرفه. الثانية - قوله تعالى: ﴿إذا أبق﴾ قال المبرد: أصل أبق تباعد، ومنه غلام آبق.

وقال غيره: إنما قيل ليونس أبق، لأنه خرج بغير أمر الله ﷻ مستترا من الناس. ﴿إلى الفلك المشحون﴾ أي المملوء. ﴿ والفلك﴾ يذكر ويؤنث ويكون واحدا وجمعا وقد تقدم. قال

الترمذي الحكيم: سماه آبقا لأنه أبق عن العبودية، وإنما العبودية ترك الهوى وبذل النفس عند أمور الله، فلما لم يبذل النفس عندما اشتدت عليه العزمة من الملك حسب ما تقدم بيانه في [الأنبياء]، وآثر هواه لزمه اسم الآبق، وكانت عزمة الملك في أمر الله لا في أمر نفسه، وبحظ حق الله لا بحظ نفسه، فتحرى يونس فلم يصب الصواب الذي عند الله فسماه آبقا ومليما. الثالثة: قوله تعالى: ﴿فساهم﴾ قل المبرد: فقارع قال: وأصله من السهام التى تجال. ﴿فكان من المدحضين﴾ قال: من المغلوبين، قال القراء: دحضت حجته وأدحضها الله، وأصله من الزلق، الرابعة: قوله تعالى: ﴿فألتقمه الحوت وهو مليم﴾ أي أتى بما يلام عليه، فأما الملوم فهو الذي يلام، استحق ذلك أو لم يستحق، وقيل: المليم المعيب، يقال لام الرجل إذا عمل شيئا فصار معيبا بذلك العمل ﴿فلولا أنه كان من المسبحين﴾ قال الكسائي: لم تكسر ﴿أن﴾ لدخول اللام، لأن اللام ليست لها. النحاس: والأمر كما قال، إنما اللام في جواب لولا. ﴿فلولا أنه كان من المسبحين﴾ أي من المصلين للبث ف بطنه إلى يوم يبعثون " أي عقوبة له، أي يكون بطن الحوت قبرا له إلى يوم القيامة، واختلف كم أقام في بطن الحوت، فقال السدي والكلبي ومقاتل بن سليمان: أربعين يوما، الضحال: عشرين يوما، عطاء: سبعة أيام، مقاتل بن حيان: ثلاثة أيام، وقيل: ساعة واحدة، والله أعلم. الخامسة: روى الطبري من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لما أراد الله تعالى ذكره - حبس يونس في بطن الحوت أوحى الله إلى الحوت أن خذه ولا تخدش لحما ولا تكسر عظما فأخذه ثم هوى به إلى مسكنه من البحر، فلما أنتهى به إلى أسفل البحر سمع يونس حسا فقال في نفسه ما هذا ؟ فأوحى الله تبارك وتعالى إليه وهو في بطن الحوت: إن هذا تسبيح دواب البحر قال: فسبح وهو في بطن الحوت قال: فسمعت الملائكة تسبيحه فقالوا: يا ربنا إنا نسمع صوتا ضعيفا بأرض غريبة قال: ذلك عبدي يونس عصاني فحبسته في بطن الحوت في البحر قالوا العبد الصالح الذي كان يصعد إليك منه في كل يوم وليلة عمل صالح ؟ قال نعم، فشفعوا له عند ذلك فأمر الحوت بقذفه في الساحل كما قال تعالى: ﴿وهو سقيم﴾ وكان سقمه الذي وصفه به الله - تعالى ذكره أنه ألقاه الحوت على الساحل كالصبى المنفوس قد نشر اللحم والعظم، وقد روي: أن الحوت سار مع السفينة رافعا رأسه يتنفس فيه يونس ويسبح، ولم يفار قهم حتى انتهوا إلى البر، فلفظه سالما لم يغير منه شئ فأسلموا، ذكره الزمخشري في تفسيره، وقال ابن العربي: أخبرني غير واحد من أصحابنا عن إمام الحرمين أبي المعالي عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجويني: أنه سئل عن الباري في جهة ؟ فقال: لا، هو يتعالى عن ذلك، قيل له: ما الدليل عليه ؟ قال: الدليل عليه قول النبي ﷺ: لا تفضلوني على يونس بن متى فقيل له: ما وجه الدليل في هذا الخبر ؟ فقال: لا أقوله حتى يأخذ ضيفي هذا ألف دينار يقضي بها دينا، فقام رجلان فقالا: هي علينا، فقال لا يتبع بها اثنين، لأنه يشق عليه، فقال واحد: هي علي، فقال: إن يونس بن متى رمى بنفسه في البحر فالتقمه الحوت، فصار في قعر البحر في ظلمات ثلاث، ونادى ﴿لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين﴾ [الأنبياء: 87] كما أخبر الله عنه، ولم يكن محمد ﷺ حين جلس على الرفرف الأخضر وارتقى به صعدا، حتى انتهى به إلى موضع يسمع فيه صريف الأقلام، ومنا جاه ربه بما ناجاه به، وأوحى

المتحملين لأعباء رسالتنا.

اذكر يا أكمل الرسل وقت ﴿إِذْ أَبَقَ﴾ وهرب من نزول العذاب الموعود على قومه حين دعاهم إلى الإيمان والتوبة، فلم يجيبوا له ولم يقبلوا منه دعوته، فدعا عليهم، وبعدما قرب حلول العذاب عليهم، خرج من بينهم هاربًا، حتى لا يلحقه ما

إليه ما أوحى بأقرب إلى الله تعالى من يونس في، بطن الحوت في ظلمة البحر. السادسة: ذكر الطبري: أن يونس ﷺ لما ركب في السفينة أصاب أهلها عاصف من الريح، فقالوا: هذه بخطيئة أحدكم، فقال يونس وعرف أنه هو صاحب الذنب: هذه خطيئتي فألقوني في البحر، وأنهم أبوا عليه حتى أفاضوا بسهامهم ﴿فساهم فكان من المدحضين﴾ فقال لهم: قد أخبرتكم أن هذا الأمر بذنبي وأنهم أبوا عليه حتى أفاضوا بسهامهم الثانية فكان من المدحضين، وأنهم أبوا أن يلقوه في البحر حتى أعادوا سهامهم الثالثة فكان من المدحضين، فلما رأى ذلك ألقى نفسه في البحد، وذلك تحت الليل فابتلعه الحوت، وروى أنه لما ركب في السفينة بقنع ورقد، فساروا غير بعيد إذ جاءتهم ريح كادت السفينة أن تغرق، فاجتمع أهل السفينة فدعوا فقالوا: أيقظوا الرجل النائم يدعو معنا، فدعا الله معهم فرفع الله عنهم تلك الريح، ثم انطلق يونس إلى مكانه فرقد، فجاءت ريح كادت السفينة أن تغرق، فأيقظوه ودعوا الله فارتفعت الريح، قال: فبينماهم كذلك إذ رفع حوت عظيم رأسه إليهم أراد أن يبتلع السفينة، فقال لهم يونس: يا قوم ! هذا من أجلى فلو طرحتموني في البحر لسرتم ولذهب الريح عنكم والروع، قالوا: لا نطرحك حتى نتساهم فمن وقعت عليه رميناه في البحر، قال: فتساهموا فوقع على يونس، فقال لهم: يا قون الطرحونى فمن أجلى أوتيتم، فقالوا لا نفعل حتى نتساهم مرة أخرى، ففعلوا فوقع: على يونس، فقال لهم: يا قون الطرحونى فمن أجلى أوتيتم، فذلك قول الله عزوجل: ﴿فساهم فكان من المدحضين﴾ أي وقع السهم عليه، فانطلقوا به الى صدر السفينة ليلقوه في البحر، فإذا الحوت فاتح فاه، ثم جاءوا به الى جانب السفينة، فإذا بالحوت، ثم رجعوا به الى الجانب الاخر بالحوت فاتح فاه، فلما رأى ذلك ألقى بيفسه فالبقمه الحوت، فأوحى الله تعالى الى الحوت: إنى لم أجعله لك رزقا ولكن جعلت بطنك له وعاء، فمكث في بطن الحوت أربهيم ليلة ﴿فنادى في الظلمات أن لا اله الا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين* فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين﴾ وقد تقدم ويأتى، ففى هذا من الفقة أن القرعة كانت معمولاً بها في شرع من قبلنا، وجاءت في شرعنا على ما تقدم في آل عمران، قال ابن العربي: وقد وردت القرعة في الشرع في ثلاثة مواطن: الأول: كان النبي ﷺ إذا أراد سفرا أقرع بين نسائه، فأيتهم خرج سهمها خرج بها معه، الثاني: أن النبي ﷺ رفع إليه أن رجلا أعتق ستة أعبد لا مال له فأقرع بينهم، فاعتق اثنين وأرق أربعة. الثالث: أن رجلين اختصما إليه في مواريث قد درست فقال: «اذهبا وتوخيا الحق واستهما وليحلل كل واحد منكما صاحبه». فهذه ثلاثة مواطن، وهى القسم في النكاح والعتق والقسمة، وجريان القرعة فيها لرفع الإشكال. تفسير القرطبي - (121/15 - 125).

يلحقهم، فلما وصل البحر ركب ﴿إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ [الصافات: 140] المملوء من الناس والأحمال والأثقال، فاحتبست السفينة على أهلها فاضطربوا، فقال البحارون: إن في السفينة عبدًا آبقًا، فبادروا إلى القرعة على ما هو عادتهم في أمثاله، وبعد خروج القرعة باسم واحد من أهلها، طرحوه في الماء فأخذت في الجري والذهاب.

﴿فَسَاهَمَ﴾ أي: قارع حينئذ أهلها، فخرجت القرعة باسم يونس ﴿فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ [الصافات: 141] المغلوبين المغرقين بمقتضى القرعة.

وبعدما خرجت القرعة باسمه، تفطن أنه من الاختبارات الإلهية، فقال: أنا العبد الآبق، فرمى نفسه في الماء خوفًا من غضب الله وكمال غيرته وحميته، وتوطينًا على مقتضى قضاء الله، مفوضًا أمره إليه سبحانه.

وبعدما وصل إلى جوف الماء ﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ﴾ بإلهام الله إياه على الفور، وابتلعه ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [الصافات: 142] نفسه، نادم على فعله الذي فعله بلا نزول وحي من ربه؛ لذلك أخذ حينئذ سبح له سبحانه عما لا يليق بشأنه.

وبالجملة: ﴿فَلَوْلاَ أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ [الصافات: 143] المنكشفين بوحدة الحق، وتنزهه عن سمات الكثرة مطلقًا.

﴿لَلَبِثَ﴾ واستقر ﴿فِي بَطْنِهِ﴾ أي: بطن الحوت ﴿إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات: 144] وصار له بطنه كالقبر لسائر الأموات، وبالجملة: لا ينجو منه أبدًا.

﴿ ۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ ﴾ [الصافات: 145-156].

ولما كان من أهل التسبيح والتقديس، المنكشفين بوحدتنا واستقلالنا في شئوننا وتطوراتنا ﴿فَنَبَذْنَاهُ﴾ أي: طرحنا يونس ﴿بِالْعَرَاءِ﴾ أي: الساحل الخالي عن شيء يغطيه ويظله من شجر وغيرها عناية منّا إياه ونجاة له.

وذلك بأن ألهمنا الحوت أولاً حين سقوطه في البحر بالتقامه، فالتقمه بلا لحوق ضرر له من الماء، ثم ألهمناه أن يخرج رأسه من الماء حتى يتنفس في بطنه، إلى أن بلغ الساحل.

قيل: كان في بطنه يومًا أو بعض يوم، وقيل: ثلاثة أيام، أو سبعة وعشرين، أو أربعين.

فلما بلغ الساحل أخرجه من بطنه، ولفظه الموج إلى الساحل العاري عن الظل، والشمس في غاية الحرارة ﴿وَهُوَ﴾ حينئذ ﴿سَقِيمٌ﴾ [الصافات: 145] ضعيف، صار بدنه كبدن الطفل حين ولد.

﴿وَ﴾ بعدما لم يكن له متعهد، وليس هناك مظلة ولا شيء يحفظه من الذباب ﴿أَنْبَتْنَا عَلَيْهِ﴾ في الحال من كمال رحمتنا وعطفنا معه ﴿شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾ [الصافات: 146] وهي: شجرة تنبسط على وجه الأرض، ولها أوراق عظام بلا ساق تقوم عليه - قيل: هي الدباء - فغطيناه بأوراقها وربيناه بظلها؛ إذ ظلها من أكرم الأظلال وأحسنها هواء، وألهمنا أيضًا إلى وعلة - وهي المعز الوحشي - حتى جاءت عنده صباحًا ومساءً، وهو يشرب لبنها، إلى أن قوي وقوّم مزاجه على الوجه الذي كان.

﴿وَ﴾ بعدما ربيناه كذلك ﴿أَرْسَلْنَاهُ﴾ مرة أخرى ﴿إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات: 147] أي: الناظرون في بادئ النظر؛ يعني: حكم الناظر عليهم على التخمين والظن، فيقول: إنهم مائة ألف أو أكثر، وهؤلاء هم الذين قد هرب منهم أولاً، وهم أصحاب «نينوى» هي قرية من قرى الموصل.

﴿فَآمَنُوا له﴾ وقبلوا منه دعوته بعدما أُرسل إليهم ثانيًا ﴿فَمَتَّعْنَاهُمْ﴾ مؤمنين مصدقين موحدين ﴿إِلَى حِينٍ﴾ [الصافات: 148] أي: إلى انقضاء آجالهم.

ثم لما أثبت مشركو مكة - خذلهم الله - لله المنزه عن الأنداد والأشباه ولدًا، بل أوضع الأولاد وأدناها، وهي الأنثى، ونسبوا الملائكة الذين هم من أشرف المخلوقات المنزهون عن لوازم الأجسام مطلقًا إلى الأنوثة، التي هي بمراحل عنها، حيث قالوا: إن الملائكة بنات الله، ولم يكن له ابن، وتمادوا على هذا إلى حيث اتخذوها مذهبًا، وبالغوا في ترويجه.

ردَّ الله عليهم على أبلغ وجه وآكده، حيث أمر حبيبه ﷺ بالاستفتاء والاستفسار عن قولهم هذا، ونسبتهم هذه فقال: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ﴾ وسلهم؛ أي: كفار مكة يا أكمل الرسل، واستخبرهم على سبيل التوبيخ والتقريع ﴿أَلِرَبِّكَ﴾ أي: أيثبتون لربك الواحد

الأحد الصمد، الذي ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: 3-4] ﴿الْبَنَاتُ﴾ أي: أوضع الأولاد وأردأها ﴿وَلَهُمُ﴾ أي: لأنفسهم ﴿الْبَنُونَ﴾ [الصافات: 149] تعالى سبحانه عما يقولون.

﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ﴾ أي: أتظنون وتعتقدون أنّا خلقنا الملائكة الذين هم من سدنة سدتنا السنية، وخدمة عتبتنا العلية ﴿إِنَاثًا وَهُمْ﴾ حين خلقنا إياهم ﴿شَاهِدُونَ﴾ [الصافات: 150] حاضرون، يشهدون أنوثتهم ويبصرونها، مع أنها لا مجال للعقل إلى الاطلاع بأنوثتهم، ولم ينقل منّا أحد من الرسل والأنبياء، مع أنه لا سبيل للحواس الأخر إلى دركها سوى البصر، ومن أين يتأتى لهم الحضور حينئذ؟!.

ثم قال سبحانه على وجه التنبيه والاستبعاد: ﴿أَلَا﴾ أي: تنبهوا أيها المؤمنون الموقنون بوحدة الله، ووجوب وجوده، وتقدسه عن لوازم الإمكان مطلقًا ﴿إِنَّهُم﴾ أي: أولئك الضالون المغمورون في الجهل والطغيان ﴿مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ اللَّهُ﴾ [الصافات: 151-152] الواحد الأحد المستغني لذاته عن الأهل والولد، قولاً باطلاً ظلمًا وزورًا ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الصافات: 152] فيما يقولون، مقصورون على الكذب المحض بلا مستند عقلي أو نقلي.

﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتِ﴾ أي: أتعتقدون أيها الجاهلون بقدر الله ووحدة ذاته المستغنية عنه مطلق المظاهر والمحال، فكيف عن لوازم الحدوث والإمكان الذي هو أمارات الاستكمال والنقصان، إنه سبحانه مع كمال تعاليه وتقدسه، اصطفى واختار لنفسه البنات المسترذلة الدنية ﴿عَلَى الْبَنِينَ﴾ [الصافات: 153] الذين هم أشرف بالنسبة إليهن، وأكمل خَلقًا وخُلقًا، وكمالاً وعلمًا، ورشدًا ويقينًا؟!.

﴿مَا لَكُمْ﴾ وما شأنكم ولحق بكم أيها المفسدون المفرطون ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [الصافات: 154] على الله ما لا يرتضيه العقل، ولا يقتضيه النقل؟!.

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الصافات: 155] ولا تتذكرون أن ذاته سبحانه منزه عن أشرف الأولاد فكيف عن أردئها؟!.

﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ﴾ حجة وبرهان نقلي ﴿مُّبِينٌ﴾ [الصافات: 156] واضح في الدلالة على مدّعاكم هذا؟!.

﴿ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَا

أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [الصافات: 157-170].

﴿فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ﴾ النازل عليكم من قبل الحق المثبت لدعواكم ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الصافات: 157].

﴿وَ﴾ من إفراطهم في حق الله، وجعلهم بكمال ذاته وصفاته وأسمائه ﴿جَعَلُوا﴾ وأثبتوا ﴿بَيْنَهُ﴾ سبحانه ﴿وَبَيْنَ الجِنَّةِ﴾ الذين هم مخلوقون من النار ﴿نَسَبًا﴾ أي: نسبة بالمصاهرة، ويزعمون - العياذ بالله - أنه سبحانه تزوج منهم امرأة، فحصلت منها الملائكة ﴿وَ﴾ الله ﴿لَقَدْ عَلِمَتِ الجِنَّةُ إِنَّهُمْ﴾ أي: أولئك المفترين على الله بأمثال هذه المفتريات البعيدة عن جنابه مراء ﴿لَمُحْضَرُونَ﴾ [الصافات: 158] في العذاب المخلد، والنكال المؤبد بقولهم هذا، ونسبتهم هذه.

﴿سُبْحَانَ اللهِ﴾ وتقدس ذاته ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: 159] به هؤلاء المعاندون الجاهلون.

﴿إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الصافات: 160] منهم، وهم الذين ينكشفون بقدر الله، ووحدة ذاته، واستقلاله في وجوب الوجود ولوازم الألوهية والربوبية، بلا شائبة شركة وتوهم مظاهرة ولوث إمكان وشين نقصان.

وبعدما ثبت تنزهه سبحانه من مضمون ما تنسبون بذاته أيها المفترون المفرطون ﴿فَإِنَّكُمْ﴾ أيها المعزولون عن مقتضى العقل الفطري والرشد الجبلي ﴿وَ﴾ أيضًا ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الصافات: 161] من دون الله من الأصنام والأوثان.

﴿مَا أَنتُمْ﴾ وآلهتكم ﴿عَلَيْهِ﴾ أي: على الله ﴿بِفَاتِنِينَ﴾ [الصافات: 162] أي: مفسدين معرضين، صارفين عموم الناس عن عبادته وإطاعته سبحانه بإغوائكم وإغرائكم ضعفة الأنام، وتغريركم إيّاهم بعبادة الأصنام.

﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الجَحِيمِ﴾ [الصافات: 163] أي: الذين حقَّ عليهم القول وجرى عليه حكمه سبحانه، ومضى قضاؤه بأنهم من أصحاب النار وأهل الجحيم، لا بدَّ لهم أن يصلوها ويدخلوها بلا تردد وتخلف؛ يعني: ما يفيد إضلالكم وإغراؤكم إلا لهؤلاء المحكومين بالنار في أزل الآزال دون المجبولين على فطرة الإسلام والتوحيد.

ثم لما اتخذ بعض المشركين الملائكة آلهة، واعتقدوهم بنات الله، وعبدوا لهم

كعبادته سبحانه، ردَّ الله عليهم حاكيًا عن اعتراف الملائكة بالعبودية، فقال سبحانه من قبل الملائكة: ﴿وَ﴾ كيف يليق بنا أن نرضى بما افترى المشركون علينا من استحقاق العبادة والشركة في الألوهية؛ إذ ﴿مَا مِنَّا﴾ أحد ﴿إِلَّا لَهُ مَقَامٌ﴾ في العبودية والتوجه نحو الحق ﴿مَّعْلُومٌ﴾ [الصافات: 164] [1] معين مقدر من عنده سبحانه، لا يسع له أن يتجاوز عنه بلا إذن منه سبحانه، بل يلازم كل منا مقامه لمقدر له من ربه، متوجهًا إليه سبحانه، منتظرًا لأمره وحكمه بلا غفلة وفترة.

﴿وَإِنَّا﴾ معشر الملائكة ﴿لَنَحْنُ الصَّافُّونَ﴾ [الصافات: 165] على الاستقامة حول عرش الرحمن كصفوف الناس في المساجد، لا يسع لأحد منَّا أن يتعدى من مكانه مستقبلاً أو مستدبرًا ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ [الصافات: 166] المتزهون المقدسون لله الواحد الأحد الصمد عن توهم الكثرة والشركة مطلقًا، الراسخون المتمكنون في مرتبة التنزيه والتقديس، فكيف يتأتى منَّا أن نرضى بمفتريات أهل الزيغ والضلال بنا؟! عصمنا الله وعموم عباده عن زيغ الزائغين وضلالهم.

﴿وَإِن كَانُوا﴾ أي: قد كان أولئك الضالون المنهمكون في بحر الغفلة والضلال يعني: كفار قريش خذلهم الله ﴿لَيَقُولُونَ﴾ [الصافات: 167] على سبيل التمني والتحسر تشنيعًا وتعييرًا على من مضى من الأمم السالفة: ﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا﴾ ونزل علينا ﴿ذِكْرًا﴾ كتابًا ﴿مِّنَ الْأَوَّلِينَ﴾ [الصافات: 168] أي: من جنس كتبهم كتابًا سماويًا منزلاً من الله مثل كتبهم.

﴿لَكُنَّا﴾ حينئذ ﴿عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الصافات: 169] أخلصنا العبادة له، ولا

---

(1) أهل البدايات في مقام الطاعات والأوساط في المقامات، مثل التوكل والرضا والتسليم، والمحبون في مقام الحالات والمواجيد، وأهل المعرفة في مقام المعارف ينقلون في المشاهدة من مقام إلى مقام، ولا يبقى المقام للموحدين؛ فإنهم مستغرقون في بحار الذات والصفات، وليس لهم مقامٌ معلومٌ؛ لأن هناك لم يكن لهم وقوف؛ حيث أفناهم قهر الجلال والجمال والعظمة والكبرياء عن كل ما وجدوا من الحق، فبقوا في الفناء إلى الأبد. قال ابن عطاء: لك مقام المشاهدة، ولهم مقام الخدمة. وقال جعفر: الخلق مع الله على مقامات شتى؛ من تجاوز حده هلك، فللأنبياء مقام المشاهدة، وللرسل مقام العيان، وللملائكة مقام الهيبة، وللمؤمنين مقام الدنو والخدمة، وللعصاة مقام التوبة، وللكفار مقام الطرد والغفلة واللعنة. قال الحسين: المريدون في المقامات يجولون من مقام، والمرادون جازوا المقامات إلى رب المقامات. وقال الجنيد: المقامات معلومة كما ذكره الله تعالى، وأرباب الحقائق يأنفون من المعلومات والمرسومات؛ لأنهم في قبضة الحق وأمره.

نتجاوز عن مقتضى ما جاءنا من عنده في كتابه، ولا نتعدى عن حكمه وحدوده وأحكامه، ولا نهمل عن عظته وتذكيراته، ونعتبر من قصصه وأمثاله، وبالجملة: نتعامل معه أحسن المعاملة لا كمعاملة سائر أصحاب الكتب.

ثم لما نزل عليهم ما هو أفضل الكتب تربية، وأكملها رشدًا، وأشملها حكمًا، وأتمها وأبلغها حكمة وبرهانًا، وأوضحها بيانًا وتبيانًا، فكفروا به، وأنكروا نزوله، وأعرضوا عنه وعن أحكامه، واستهزءوا بمن أنزل إليه وكذبوا رسالته ﴿فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الصافات: 170] آجلاً وعاجلاً جزاء ما يفعلون ويستهزئون، ويذوقون وبال ما ينكرون ويعرضون، ألا أنهم هم المفسدون لأنفسهم ولكن لا يشعرون، فسيعلمون أي منقلب ينقلبون.

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ (١٧٤) وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٥) أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (١٧٦) فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ (١٧٧) وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ (١٧٨) وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٩) سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٢)﴾ [الصافات: 171-182].

﴿وَ﴾ كيف لا يعلمون ولا يذوقون العذاب أولئك المسرفون ﴿لَقَدْ سَبَقَتْ﴾ أي: حقت وثبتت منّا ﴿كَلِمَتُنَا﴾ المشتملة على الوعد والنصر ﴿لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: 171][1] وهي قوله سبحانه: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: 21].

---

(1) قال البقلي: سبقت لهم كلمة الحسنى باصطفائية الله في الأزل بالولاية والنبوة والرسالة بغير علة الاكتساب ونقائص الحدوثية، أخبر عن محض منته الأزلية عليهم، ونفى عنهم الانقطاع عنه من جهة تغاير الامتحان أنهم مؤيدون بوصف الظفر بالبقية على مزادهم بكل ما أرادوا له، أنزل عليهم جنود أنوار تجلي ظهور جلاله في قلوبهم، تقدست سرائرهم عن كل غالب من الشهوات وعلل النفسيات. قال سهل: جنوده ترد على الأسرار، وترد على الظواهر، وجنده في السرائر صحة عقد الإيمان في القلب وشرحه به، وما يتولد فيه من صحة إيمانه والتوكل وما يريد فيه بتوكله ومحبة الله تعالى، فإذا نزلت المحبة في القلب وسكنت فيه طهّرها من كل ما سواه؛ فإن المحبة لا يسكن معها ما يضادها، وجنوده في الظواهر هو أن يوفقه بالقيام إلى العبادات والأوامر على حدود السنن والتبرؤ من الحول والقوة لما يتقن من حسن قيام الله لعبده بالكفاية في كل أسبابه، ثم أنه سبحانه لما وصف صنائع لطفه بأنبيائه وأوليائه نزّه نفسه أن يلحق به وبتنزيه جلاله علل كل حادث ووصف كل واصف وحمد كل حامد؛ حيث قام حمده وتنزيهه

وقوله أيضًا: ﴿إِنَّهُمْ﴾ أي: الرسل والأنبياء ﴿لَهُمُ الْمَنصُورُونَ﴾ [الصافات: 172
المقصورون على النصر والغلبة على الأعداء، القاهرون القادرون على من غلب
وظلمهم واستهزأ معهم عنادًا ومكابرة.

وكيف لا يغلبون أولئك الأولياء على الأعداء، إنهم من جندنا وحزبنا ﴿وَإِ
جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: 173] القاهرون على جنود الأعداء وأحزابه
المسلطون عليهم.

وبعدما سمعت يا أكمل الرسل مضمون وعدنا على عموم الأولياء من الرس
والأنبياء ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي: كفار قريش، واعرض عن محاربتهم ومخاصمتهم ﴿حَتَّ
حِينٍ﴾ [الصافات: 174] أي: إلى حين حلول العذاب الموعود المعهود من لدنا.

﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾ العذاب إذا نزل عليهم عاجلاً، وهو عذاب يوم بدر ﴿فَسَوْفَ
يُبْصِرُونَ﴾ [الصافات: 175] أجله في يوم الجزاء بأضعاف ما لحقهم عاجلاً وآلافه.

﴿أَ﴾ ينكرون قدرتنا على العذاب الآجل مع نزول العذاب العاجل عليهم يوم
بدر ﴿فَبِعَذَابِنَا﴾ الآجل في الجزاء ﴿يَسْتَعْجِلُونَ﴾ [الصافات: 176] ويقولون: متى هذا؟
بعدما سمعوا فسوف يبصروه آجله زيادة في الجزاء بأضعاف ما لحقهم، أمّا يستحيون
من الله، فيستعجلون عذابه، ولم يتفطنوا مما جرى عليهم عاجلاً، ولا يخافون من نزوله
وحلوله بغتة.

﴿فَإِذَا نَزَلَ﴾ العذاب الموعود لهم آجلاً ﴿بِسَاحَتِهِمْ﴾ أي: بفناء دارهم، وهذا
كناية عن قربه وإلمامه بغتة ﴿فَسَاءَ﴾ وبئس حينئذ ﴿صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ﴾ [الصافات: 177]
إذ أصبحوا مفاجئين على أنواع العذاب والنكال، فلمَ يستعجلون بها أولئك الجاهلون
الهالكون في تيه الضلال والطغيان؟!.

﴿وَ﴾ بعدما تمادوا في الغفلة والطغيان، وبالغوا في العتو والعصيان ﴿تَوَلَّ
عَنْهُمْ﴾ يا أكمل الرسل ﴿حَتَّى حِينٍ﴾ [الصافات: 178] أي: حين إلمام العذاب
الموعود.

﴿وَأَبْصِرْ﴾ إياهم بعدما ألمّ ونزل ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ [الصافات: 179] أي: أي

مقام أداء حقوق ربوبيته على أهل العبودية.

شيء يترتب على إنكارهم، وتكذيبهم يوم الجزاء أولئك الضالون.

وإنما كرره سبحانه ما كرره تأكيدًا ومبالغة في التهديد والتوعيد، تسلية لحبيبه ﷺ فقال: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ﴾ يا أكمل الرسل، وتنزهت ذاته عن معتقدات أهل التشبيه مطلقًا، وما نسبوا إليه سبحانه من أمارات الإمكان وعلامات النقصان، وكيف ينسبون إلى ﴿رَبِّ العِزَّةِ﴾ والقدرة والغلبة والكبرياء والاستقلال التام والاستيلاء العام، المنزهة ذاته عن الإحاطة، وصفته عن العدِّ والإحصاء، تعالى شأنه عن التحديد والتوصيف ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: 180] به أولئك المسرفون المفرطون من إثبات الولد له والإيلاد والاستيلاد.

﴿وَسَلامٌ﴾ من الله وبركاته ﴿عَلَى﴾ عباده ﴿المُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: 181] من عنده؛ لتبيين توحيده وتقديسه وتعاليه عن إحاطة مطلق المدارك والعقول.

﴿وَالْحَمْدُ﴾ من ألسنة جميع من يتأتى منه الحمد والثناء حالاً ومقالاً ﴿لِلَّهِ﴾ الواحد الأحد الصمد، المنزه عن اتخاذ الأهل والولد ﴿رَبِّ العَالَمِينَ﴾ [الصافات: 182] الذين ظهروا من شئونه وتطوراته حسب أسمائه وصفاته، ورباهم أيضًا على حسبها إظهارًا لكمال قدرته وعموم إحاطته.

وعن المرتضى الأكبر المتحقق بمقام التسليم والرضا - كرم الله وجهه - أنه قال: من أحب أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة، فليكن آخر كلامه من مجلسه: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ العِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلامٌ عَلَى المُرْسَلِينَ * وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ﴾ [الصافات: 180-182].

خاتمة السورة

عليك أيها السالك المتحقق بجلال الحق، وكمال كبريائه، واستغنائه عن عموم مظاهره ومصنوعاته، واستيلائه على جميع ما ظهر وبطن من الأمور الكائنة المنعكسة من بروق تجلياته حسب أسمائه وصفاته المندرجة في شمس ذاته، أن تلاحظ شئون الحق على هياكل الموجودات، وتطالع ظهورها على صحائف الكائنات التي هي بالحقيقة كالمرايا لظهور آثار الأسماء والصفات الإلهية، وتتفكر في خلق السفليات والعلويات، وتتأمل في كيفية ارتباطاتها ورجوعها إلى الوحدة الحقيقية الحقية، وكيفية سريان الوحدة الذاتية عليها بلا حلول واتحاد واتصال وانفصال وحصول وامتثال، وكذا

عن كيفية انبساط أظلال الوجود الإلهي على ذرائر الأكوان، وامتداداتها على مرايا الإعدام على سبيل التجدد والتقضي بلا طريان ضد وحلول فترة وانقطاع أصلاً.

ومن تأمل ظهور الحق على الآفاق والأنفس على الوجه الذي تلا، فقد تحقق بعزة الله، وانكشف له وحدته المحتوية على عموم الكثرات بلا توهم كثرة في ذاته المستغني عن التعدد مطلقًا، فحينئذ ارتفع عن بصر شهوده غير الحق وشئونه، ولا يرى في فضاء وجوده سوى الله موجودًا ومشهودًا، فتمكن حينئذ في مقام التوحيد، وأخذ في التنزيه والتقديس والتسليم والتكبير والتحميد، قائلاً بلسان استعداده: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ العِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلامٌ عَلَى المُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: 180-181] المنبهين على مرتبة التوحيد، ﴿وَالْحَمْدُ لِلهِ رَبِّ العَالَمِينَ﴾ [الصافات: 182] آمين.

سورة ص

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة سورة ص

لا يخفى على من تحقق بوحدة الحق، وإحاطته وشموله على عموم ما لاح عليه بروق شئونه ولوامع تجلياته الغير المحصورة، أن الحقيقة الحقية المنزهة عن لوث التعينات وشوب الإضافات مطلقًا، لما أراد أن يتجلى لذته بذاته، ويطالع أسماءه الحسنى وصفاته العليا التي اتصف بها ذاته على التفصيل، حتى ينقلب حضوره شهودًا وعلمه عينًا، تنزل من مرتبة الأحدية المستهلكة دونها الكثرات مطلقًا المتلاشية عنده الإشارات والإضافات رأسًا.

فالتفت نحو العدم بعدما أفاض عليه خلعة الاستعداد والقبول، فانعكس فيه من شئون الحق وأشعة أنوار شمس ذاته، ما لا يتناهى أبد الآباد من الصور والآثار الغير المتكررة، فيتراءى؛ أي: هذا النظام المشاهد المحسوس من تلك الآثار والأظلال المنعكسة من شمس الذات، فانبسط عليها بالاستقلال والاستيلاء التام بلا مشاركة ومظاهرة، فيوجد الكل به وله وفيه، ويرجع الكل إليه رجوع الأضواء إلى الشمس والأمواج إلى الماء.

فمن خرج عن ربقة عبوديته بعدما سمع كيفية ظهوره، فقد لحق بالأخسرين أعمالاً ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا * ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾ [الكهف: 104-106].

وما ذلك إلا بسبب جهلهم وضلالهم، وخروجهم عن مقتضى الحدود الإلهية الموضوعة بينهم بالوضع الإلهي، المنبه به على الأنبياء العظام والرسل الكرام إلّا من استكبارهم وتغررهم الحاصل لهم بتغرير شيطان أماراتهم عليهم، وتضليله إياهم وتلبيسه.

لذلك أقسم سبحانه بكتابه المجيد المنزل من عنده، المشتمل على فوائد الكتب السالفة المنزلة من لدنه بأن كفرهم وإنكارهم بتوحيد الله وتصديق رسله وكتبه، إنما نشأ

من استكبارهم في أنفسهم، واستعلائهم على عباد الله عدوانًا وظلمًا، ابتلاء من الله إياهم، وافتتانًا لهم على مقتضى أسمائه المقتضية للإذلال والإضلال، إظهارًا للقدرة الكاملة والحكمة الباعثة على وضع التكاليف المستلزمة للثواب والعقاب والإحسان والخذلان والإنعام والانتقام.

فقال مخاطبًا لحبيبه الذي اختاره لرسالته إلى كافة البرايا بالدعوة العامة والتشريع التام الكامل المكمل، المتمم لمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم المتعلقة لسلوك طريق التوحيد، بعدما تيمن باسمه العظيم الجامع لجميع الأسماء والصفات: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي تجلى لحبيبه ﷺ بمقتضى عموم أسمائه وصفاته، فأرسله إلى عموم البرايا وكافة الأمم، وختم ببعثه أمر التشريع والتكميل ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ عليهم بجعله وإرساله رحمة للعالمين ﴿الرَّحِيمِ﴾ عليه ﷺ بخلقه وإيجاده على الخلق العظيم.

﴿ صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ۝٣ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ۝٤ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥ ﴾ [ص: 1-5].

﴿ص﴾[1] أيها الصفي، الصافي مشربه عن الأمور المنافية لتوحيد الحق وإيجاده

(1) هذا الحرف من كنوز إشارات الحق إلى حبيبه عليه الصلاة والسلام؛ حيث صادف بنعت الوصال الذي يفنى عنه بصولة صدمات الأزلية عند كشوف قهر القدم صفات الحدثية، حتى صار صدق جواهر أسرار الربوبية في بحار الذات والصفات، واصطاده الحق بزمام محبته من صحاري البريات، وصفّاه بصفاء عن كدورات الكون، فكان صفوًا من بحر النبوة، صاحبًا في مشاهدة البقاء بنعت صدق العشق في رؤية أنوار الكبرياء، ما صدق عن مشاهدة جمال الحق إلى الأكوان حين عارضه صواعق الامتحان، فخرج منها بوصف الصدق في المحبة، وصفو الصحو في المعرفة، حين أسكر الحق صفوة أرواح الصادقين بشربات بحر وصله ووصفه، أخبر بحرف صاد من صفاوة قلوب العارفين، وصدق حقائق محبة المحبين، وتلهب نيران صدور العاشقين، وصبابة أسرار الوالهين، وصفوف أهل الاستقامة في مقام مشاهدة القدم، حين وازنوا بنعت الفناء جلال البقاء، وإشارة التوحيد فيه أنه كان بجلاله وعظمته في قدم القدم، وأزل الأزل بحار الصمدية صافية عن غبار الحدثان، فأشار به عنه، وبان كل مصدر كل الكل، صدر منه الوجود؛ إذ كان وجوده منزهًا عن الاجتماع والاقتران والعلل والانقسام أي: أظهرت لك يا صادق ما كان وما سيكون، وجعلتك بصيرًا ببصري؛ حتى تطلع على غيبوبة جلال وصالي، فكنت مصورًا بصورة روح الأول التي صدرت مني ببعثي، ثم قال: شطح من مقام السكر رمز حقيقة الاتحاد

وصرافة وحدته الذاتية، والصدوق الصادق في ادعاء الرسالة والنبوة بمقتضى الوحي الإلهي وإلهامه، والصبور الصابر على متاعب الدعوة والتبليغ وحمل أعباء الرسالة.

﴿وَ﴾ حق ﴿الْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ [ص: 1] والبيان وأنواع الدلائل والبرهان، المنزل من عندنا عليك يا أكمل الرسل؛ لتبيين أحكام دين الإسلام، وتحقيق شعائر الإيمان، والتنبيه على مرتبة التوحيد والعرفان المنتهي إلى الكشف والعيان، ما الكفار المنكرون بك وبكتابك ودينك مطلعون بعيب ونقصان في دينك وكتابك يتشبثون به.

﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وأعرضوا عنَّا وعنك وعن كتابك لا سند لهم أصلاً لا عقلاً ولا نقلاً، بل هم ﴿فِي عِزَّةٍ﴾ كبر وخيلاء عند نفوسهم ﴿وَشِقَاقٍ﴾ [ص: 2] خلاف لنا ولك بعيد عن توحيدنا وتصديقك.

وبعدما سمعت حالهم لا تبالِ بهم وبخلافهم ومرائهم وكبرهم وخيلائهم، اذكر ﴿كَمْ﴾ أي: كثير ﴿أَهْلَكْنَا﴾ أمثالهم ﴿مِن قَبْلِهِم مِّن﴾ أهل ﴿قَرْنٍ﴾ مغمورين في الكبر والخيلاء، متمكنين في الخلاف والشقاق أمثالهم ﴿فَنَادَوْا﴾ واستغاثوا متضرعين إلينا، راجين منَّا عفونا إياهم حين أخذناهم بظلمهم بغتة ﴿وَ لَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ [ص: 3] أي: ليس حينئذ وقت تأخير ونجاة لهم وخلاص، فلم نجبهم لذلك؛ لمضي وقت الاختبار والاعتبار، بل أهلكناهم واستأصلناهم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُوْلِي الأَبْصَارِ﴾ [النور: 44].

﴿وَ﴾ من شدة شقاقهم وخلافهم ﴿عَجِبُوا﴾ وتعجبوا؛ أي: أهل مكة ﴿أَن جَاءَهُم﴾ وأرسل عليهم ﴿مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ أي: من جنسهم وبني نوعهم؛ يعني: محمدًا ﷺ ﴿وَقَالَ الكَافِرُونَ﴾ من كمال تعجبهم وشدة إنكارهم واستبعادهم، وضع الظاهر موضع الضمير تنصيصًا بأنه ما حملهم على هذا القول إلا كفرهم وإنكارهم: ﴿هَذَا﴾ أي: محمد ﷺ فيما أظهره في صورة المعجزة الخارقة للعادة ﴿سَاحِرٌ﴾ يسميه معجزة تغريرًا وتلبيسًا، وفيما نسبه إلى الوحي والإنزال ﴿كَذَّابٌ﴾ [ص: 4] مبالغ في الكذب

سيد أهل الصحو ﷺ بقوله: «مَنْ رآني فقد رأى الحقَّ» ثم أراد أن يبين للعالمين بحرف الصاد وصف الربوبية، وحقيقة محبة حبيبه ومنازله الرفيعة في مقام وصاله، فأقسم بصفاته التي هي مفاتيح كنوز ذاته التي أخبر عنها بحرف الصاد.

مستغرق فيه.

ثم لما أسلم عمر بن الخطاب ﷺ، فشق ذلك على قريش، وفرح المؤمنون، فازدحم صناديدهم عند أبي طالب، وقالوا له: أنت شيخنا وسيدنا، وقد علمت ما فعل هؤلاء، فأتيناك لتقضي بيننا وبين ابن أخيك، فأرسل أبو طالب إلى النبي ﷺ، فأحضره معهم، فقال: يا ابن أخي، هؤلاء قومك يسألونك السُؤل، فلا تمل كل الميل على قومك.

فقال ﷺ: «وماذا يسألون؟».

قالوا له: ارفض ذكر آلهتنا وندعك وإلهك، وعلى هذا نعاهد معك عند عمك.

فقال ﷺ: «أتعطونني كلمة واحدة، وتملكون بها العرب وتدين بها العجم؟».

فقال أبو جهل: لنعطينكها وعشر أمثالها.

فقال رسول الله ﷺ: «قولوا لا إله إلا الله»[1].

فنفروا من ذلك، وقاموا قائلين على سبيل الإنكار والاستبعاد: ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ فمن أنّى يسع الإله الواحد للخلق الكثير؟ ﴿إِنَّ هَذَا﴾ الذي يطلب هذا المدعي ﴿لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: 5] أي: عجيب بديع ابتدعه من تلقاء نفسه.

﴿وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ (٦) مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ (٧) أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ (٨) أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ (٩) أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ (١٠) جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ (١١)﴾ [ص: 6-11].

﴿وَ﴾ بعدما تنفروا من قوله، وتعجبوا من طلبه ﴿انطَلَقَ المَلأُ مِنْهُمْ﴾ أي: أشرافهم قائلين: ﴿أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا﴾ أي: اثبتوا ﴿عَلَى﴾ عبادة ﴿آلِهَتِكُمْ﴾ ولا تصالحوا معه ﴿إِنَّ هَذَا﴾ الذي حدث بيننا وابتدع فينا ﴿لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ [ص: 6] بنا من شؤم الزمان وريبه.

وما لنا إلا الصبر والثبات إلى أن تتجلى الغياهب وترتفع النوائب، مع أنّا ﴿مَا

(1) رواه أبو داوود في «السنن» (14/437).

﴿سَمِعْنَا بِهَذَا﴾ أي: بالتوحيد الذي يقوله هذا الداعي ﴿فِي المِلَّةِ الآخِرَةِ﴾ التي هي النصرانية؛ إذ النصارى يقولون بالأقانيم[1] الثلاثة، ولم ينقل منهم توحيد الإله، ولا من الذين مضوا قبلهم من أرباب الملل السالفة، وبالجملة: ﴿إِنْ هَذَا﴾ أي: ما هذا التوحيد الذي ظهر به ﴿إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾ [ص: 7] أي: كذب اخترعه من تلقاء نفسه، ونسبه إلى الوحي افتراءً ومراءً، قاصدًا به التغرير والتلبيس على ضعفة الأنام.

﴿أَ﴾ تعتقدون أيها العقلاء المتدربون أنه ﴿أُنزِلَ عَلَيْهِ﴾ أي: على يتيم أبي طالب ﴿الذِّكْرُ﴾ أي: الوحي والقرآن ﴿مِنْ بَيْنِنَا﴾ مع أنه مثلنا ومن بني نوعنا، بل أدون منّا، ونحن أشرف منه، وأكبر سنًا، وأكثر أموالاً وأولادًا، وأكرم جاهًا وثروة، وأعلى سيادة ورئاسة، إنما يقولون هذا على سبيل الإنكار والاستبعاد لا أنهم معتقدون على الوحي والإنزال ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ﴾ وريب عظيم ﴿مِنْ ذِكْرِي﴾ ووحيي إليه، بل إلى جميع المرسلين ﴿بَل لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾ [ص: 8] أي: إنما قالوا هذا، وشكوا في الوحي وارتابوا؛ لأنهم لم يذوقوا عذابي، ولو أنهم ذاقوه لما قالوا، فمن أين يقولون هذا ويحكمون أن الوحي لو نزل لنزل على رؤسائنا وسادتنا.

أهم يعلمون الغيب ﴿أَمْ عِندَهُمْ﴾ أي: عند أولئك البعداء المنهمكين في بحر الغفلة والضلال ﴿خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ﴾ يا أكمل الرسل ومقاليد نعمه ومفاتيح كرمه؛ ليكون لهم الخيرة في أمره سبحانه، فيعطونها على من يشاء، ويمنعونها عمَّن يشاء، فكيف يحكمون على ﴿العَزِيزِ﴾ الغالب على أمره في تصرفات ملكه وملكوته بالاستقلال والاختبار ﴿الوَهَّابِ﴾ [ص: 9] على من شاء وأراد بلا مشاورة ومظاهرة.

﴿أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: يدعون أن لهم التصرف في العلويات والسفليات والممتزجات، وإن ادعوا ذلك لأنفسهم ﴿فَلْيَرْتَقُوا﴾ وليصعدوا ﴿فِي الأَسْبَابِ﴾ [ص: 10] التي هي معارج الوصول إلى منشأ الوحي والإلهام، ومنبع النزول والإنزال، فليأتوا بالوحي إلى من أرادوا واختاروا.

وبالجملة: من أين يتأتى لأولئك الكفرة العجزة المقهورين الصاغرين الخيرة في أمره سبحانه وحكمه بمقتضى قضائه، حتى يتفوهوا عنه وعن أفعاله وأحكامه؛ إذ لا يسع لأحد من أقوياء عباده أن يسأل عن فعله مع أن أولئك الحمقى ﴿جُندٌ مَّا﴾ أي:

(1) الأقانيم: الأصول، واحِدها: أُقْنُومٌ. مختار الصحاح (1/263).

شرذمة قليلة في غاية القلة ﴿هُنَالِكَ﴾ أي: وضعوا ونصبوا أنفسهم بمعاداتك في أبعد الأمكنة وأعلى المرتبة، مع أنهم ﴿مَهْزُومٌ﴾ مغلوب ﴿مِّنَ﴾ جميع ﴿الأَحْزَابِ﴾ [ص: 11] الذين تحزبوا على رسل الله وأنبيائه، مع كمال شدتهم وقوتهم ووفور شوكتهم وصولتهم، فانهزموا واستؤصلوا إلى حيث لم يبق منهم أحد على وجه الأرض.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ (١٢) وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لْئَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ (١٣) إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ (١٤) وَمَا يَنظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ (١٥) وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ (١٦) اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (١٧) إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ (١٨) وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ (١٩) وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ (٢٠)﴾ [ص: 12-20].

إذ ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ مع كمال قوتهم وقدرتهم نوحًا، فأغرقناهم أجمعين بالطوفان ﴿وَعَادٌ﴾ مع نهاية عتوهم وعنادهم هودًا، وأهلكناهم بالريح العاصفة ﴿وَفِرْعَوْنُ ذُو الأَوْتَادِ﴾ [ص: 12] أي: صاحب الدولة الثابتة التي ادعى بسببها الألوهية لنفسه موسى، فأغرقناه وجنودهم في اليم.

﴿وَثَمُودُ﴾ المتناهي في القوة والشدة صالحًا، فأهلكناهم بالصيحة ﴿وَقَوْمُ لُوطٍ﴾ المتبالغ في الجحود والإنكار على الله وحدوده لوطًا، فقلبنا عليهم ديارهم، وأمطرنا عليهم الحجارة فأهلكناهم بها ﴿وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ﴾ شعيبًا، فاستأصلناهم كذلك ﴿أُوْلَئِكَ﴾ البعداء المنحرفون عن صوب السداد والصواب هم ﴿الأَحْزَابُ﴾ [ص: 13] الذين كذبوا الرسل، وتحزبوا عليهم، وقاتلوا معهم مع كونهم أشداء أقوياء، فانهزموا عنهم بنصرنا إياهم، فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين.

وبالجملة: ﴿إِن كُلٌّ﴾ أي: ما كل من الأمم السالفة المذكورة ﴿إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ﴾ المذكورين ﴿فَحَقَّ﴾ أي: لذلك لزم ولحق عليهم ﴿عِقَابِ﴾ [ص: 14] أي: أنواع عذابي ونكالي عاجلاً وآجلاً.

﴿وَمَا يَنظُرُ﴾ وينتظر ﴿هَؤُلاءِ﴾ المعاندون معك، المنكرون لدينك، المكذبون لرسالتك وكتابك ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ ينفخها إسرافيل في الصور بإذن منّا فيسمع

هؤلاء الضالون، فيموتون على الفور بلا توقف؛ إذ ﴿مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ [ص: 15] قرار ووقوف مقدار خروج النفس ورجوعه.

وهذا كناية عن سرعة نفوذ قضاء الله، حين حلول عذابه عليهم إلى حيث لا يسع فيه تمييز التقدم والتأخر أصلاً، بل ينزل بغتة.

﴿وَ﴾ بعدما سمع كفار مكة أوصاف أهوال يوم الجزاء، وافتراق الناس فيها فرقًا وأحزابًا، بعضهم أصحاب يمين، وبعضهم أصحاب شمال، فيُعطى لكل فرد كتابًا كُتب فيه أعمالهم الصالحة والفاسدة، فيُحاسب كل على أعماله، فيُجازى على وفقها ﴿قَالُوا﴾ مستهزئين متهكمين؛ يعني: أهل مكة بعدما سمعوا أهوال يوم الجزاء وأفزاعها: ﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ أي: صحيفة أعمالنا، وقسطنا من العذاب المترتب عليها ﴿قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [ص: 16] ونحن نرضى بها وبالعذاب المترتب عليها بلا حساب.

وبعدما قالوا كذلك، واستهزءوا مع الرسول، وضحكوا من قوله، ونسبوه إلى الخبط والجنون، أمر سبحانه حبيبه بالتصبر على مقاساة ما جاءوا به مما لا يليق بشأنه، فقال: ﴿اصْبِرْ﴾ يا أكمل الرسل ﴿عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ لك، وفي شأنك أولئك الجاهلون عنادًا أو مكابرة، ولا تلتفت إلى هذياناتهم، ولا تحزن من أباطيلهم المستهجنة، فعليك يا أكمل الرسل أن توطن نفسك على الصبر المأمور، ولا تتجاوز عن مقتضاه، ولا تتعب نفسك بالقلق والاضطراب والمجادلة معهم والمخاصمة إياهم إلى أن نكف عنك شرورهم، ولا تلتفت إلى هواجس نفسك، حتى لا تقع في محل الخطاب والعتاب ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ﴾ وما جرى عليه من العتاب الإلهي من عدم حفظه نفسه عن مقتضياتها ومشتهياتها حتى ابتلاه الله سبحانه بما ابتلي مع أنه ﴿ذَا الْأَيْدِ﴾ أي: صاحب القدرة والقوة في الحفظ وحفظ النفس عن محارم الله ومنهياته، وكيف لا يكون كذلك ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: 17] [1] رجّاع إلى الله وإلى مرضاته سبحانه في

---

(1) هذا التسخير وقوع نور الفعل معها، ومباشرة أنوار الصفات فيها بواسطة الفعل، فيظهر روح الفعل فيها، فتقبل فيض الصفة من الصفة، فصارت خاضعة متخشعة في نور عظمته تعالى، فلما وصل إليها ألحان داود من حيث روحه العاشقة ترنمت بألحان العشق من أغصان ورد الجمال والجلال، فتحركت من لذة سماع صوت داود وتسبيحه وتنزيهه، فوافقت داود في الذكر والتسبيح، وكذلك الطيور إذا سمعت أصوات الوصلة منه صفرت بصفير التنزيه وتقديس من وجدان حلاوة وجد داود وإدراك روح الملكوت؛ لأنهن مقدسات خلقن مستعدات لقبول أنوار

جميع حالاته.

ومن كمال رجوعه إلينا وحفظه لمرضتنا ﴿إِنَّا﴾ من مقام لطفنا وجودنا ﴿سَخَّرْنَا الْجِبَالَ﴾ له، وجعلناها تحت حكمه إلى حيث سارت ﴿مَعَهُ﴾ حيث شاء ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ بمشايعته وموافقته حين يسبح ﴿بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ [ص: 18] أي: بالليل والنهار، يعني: ما دام يميل ويتوجه إلى ربه، مالت الجبال معه ازديادًا لثوابه وتكثيرًا لفضائله.

﴿وَ﴾ كذا سخرنا له ﴿الطَّيْرَ﴾ أي: جنس الطيور يستمعن قوله ﴿مَحْشُورَةً﴾ على فنائه مسخرة لحكمه - على قراءة النصب - «والطيرُ محشورةٌ» عنده محكومة لأمره يسبحن بمشايعته بالغدو والآصال كتسبيح الجبال على قراءة الرفع، وبالجملة: ﴿كُلٌّ﴾ أي: كل واحد من داوود والجبال والطيور ﴿لَهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: 19] أي: رجّاع إلى الله، مسبح له سبحانه، مقدس عما لا يليق بجنابه على الدوام والاستمرار.

﴿وَ﴾ من كمال جودنا ولطفنا معه ﴿شَدَدْنَا﴾ له ﴿مُلْكَهُ﴾ الظاهر، أي: قوينا استيلاءه وتسليطه على الأنام، وألقينا هيبته على قلوبهم إلى حيث لم يخرجوا عن الحدود الموضوعة في شرعه خوفًا من اطلاعه.

وسبب هيبته أن تحاكم عنده رجلان، فادعى أحدهما على الآخر بأنه غصب منه بقرة عدوانًا وظلمًا، فأنكر الآخر، ولم يكن للمدعي بينة، فأريناه في منامه أن يقتل المدعى عليه، ويحكم بالبقرة للمدعي، فلما استيقظ كذب نفسه واستغفر، فنام فأريناه مثل ذلك، واستيقظ فاستغفر ثانيًا، فنام فرأى ثالثًا مثل ذلك، فتقين أنه من الله، فهمّ أن يقتله تنفيذًا لما أُلهم إليه، فقال المدعى عليه: أتقتلني بلا بينة.

فقال ﵇: نعم والله لأنفذنّ حكم الله تعالى فيك، فلما تفطن الرجل منه الجزم في عزمه، اضطر إلى الاعتراف، حيث قال: لا تعجل يا نبي الله حتى أخبرك، والله ما أخذت بهذا الذنب ظلمًا وزورًا، ولكني قتلت والد هذا المدعي اغتيالاً وخداعًا.

فقتله ﵇، وعظمت هيبته في قلوب الناس، حتى انزجروا عن مطلق المحرمات والمنهيات خوفًا من اطلاعه، وقالوا: لا نعمل شيئًا إلا علمه، فيقضي علينا بمقتضى

فعل الخاص وأشكال الروحانيات، وفيهن خويصات لهن عشق ومعرفة كالهدهد والبلبل والعندليب والقمري والحمامة ومالك الحزين، وكان ﷺ يعرف أصواتهن وتسبيحهن من حيث المحبة والعشق، [العرائس].

علمه، هذا تأييدنا وتقويتنا إياه بحسب الظاهر والسلطنة الصورية.

﴿وَ﴾ أمَّا بحسب الباطن والحقيقة ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ﴾ المتقنة التي يتصرف بها في حقائق الأمور، ويطلع على سرائرها بنور النبوة والولاية الموروثة له من أسلافه الكرام، الموهوبة إياه من الحكيم العلام تأييدًا له وتقوية لشأنه ﴿وَ﴾ آتيناه أيضًا ﴿فَصْلَ الْخِطَابِ﴾ [ص: 20] أي: قطع الخصومات على التفصيل الذي وقع بين المتخاصمين بلا حيف وميل إلى جانب على ما هو مقتضى العدل الإلهي بالخطاب المفصول الموضح الواضح المقتصد بلا اقتصار مخل وإطناب ممل، وبالجملة: بلا إغلاق يشتبه مضمونه على المتخاصمين.

﴿ ۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ ﴾ [ص: 21-24].

﴿وَهَلْ أَتَاكَ﴾ وحصل عندك يا أكمل الرسل ﴿نَبَأُ الْخَصْمِ﴾ أي: خبر الملكين المكلفين المصورين بصورة الخصمين اللذين جاءا للحكومة عند أخيك داوود عليه السلام، حين اعتزل في محرابه للعبادة على ما هو عادته في تقسيم أيامه ثلاثة أقسام: يوم لعيش النساء، ويوم لقطع الخصومات بين الأنام، ويوم للتوجه نحو الحق والمناجاة معه سبحانه في محرابه.

وكان في محرابه والباب مغلق عليه، والحراس على الباب فجاءا - أي: الملكان - في صورة رجلين متخاصمين على الباب، فمنعهما البواب، فأخذا يستعليان المحراب.

اذكر نبأهما وقت ﴿إِذْ تَسَوَّرُوا﴾ أي: صعدوا على حائط ﴿الْمِحْرَابَ﴾ [ص: 21] واستعلوا على سوره بقصد الدخول عليه.

اذكر وقت ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ﴾ من غير الباب بأن شُق لهما الجدار، فدخلا

عليه ﴿فَفَزِعَ﴾ داوود ﴿مِنهُمْ﴾ واستوحش من دخولهم لا من الطريق المعهود، وبعدما تفرسوا منه الرعب والفزع ﴿قَالُوا﴾ له تسلية وتسكينًا: ﴿لَا تَخَفْ﴾ منّا، ولا تحزن من إلمامنا إياك؛ إذ نحن ﴿خَصْمَانِ﴾ تحاكمنا إليك حتى تقضي بيننا، وقد ﴿بَغَى﴾ أي: ظلم واستولى ﴿بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ﴾ أي: أحدنا على الآخر ﴿فَاحْكُم﴾ أيها الحاكم العدل العالم ﴿بَيْنَنَا بِالْحَقِّ﴾ أي: بالعدل السوي ﴿وَلَا تُشْطِطْ﴾ أي: لا تجر ولا تتجاوز عن مقتضى القسط الإلهي ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿اهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾ [ص: 22] أي: أعدل الطرق وأقوم السبل في سلوك طريق الحق.

ثم أخذوا في تقرير المسألة، فقال أحدهما: ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي﴾ في الدين ورفيقي في سلوك طريق التوحيد واليقين ﴿لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً﴾ وهي الأنثى من الضأن، كنى بها العرب عن المرأة ﴿وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ فقط، ﴿فَقَالَ﴾ لي عدوانًا وظلمًا: ﴿أَكْفِلْنِيهَا﴾ أي: اجعلني كافلاً لها، مالكًا إياها، حتى صارت نعاجي مائة، ولم تبقَ لك نعجة ﴿وَ﴾ لم يقتصر على مجرد القول، بل ﴿عَزَّنِي﴾ وغلب عليّ ﴿فِي﴾ مضمون ﴿الْخِطَابِ﴾ [ص: 23] المذكور بحجج لا أقدر على دفع، ولا أسمع المقاومة معه.

وبعدما سمع كلام المدعي وتأمل في تقريره، قال للمدعى عليه: هل تصدقه فيما ادعاه عليك؟ قال: بلى.

ثم التفت ﷺ نحو المدعي، متعجبًا مستبعدًا عما جرى عليه من الظلم والعدوان حيث ﴿قَالَ﴾: تالله ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ﴾ هذا الظالم ظلمًا صريحًا ﴿بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ﴾ ليأخذها منك ويضيفها ﴿إِلَى نِعَاجِهِ﴾ ليكثرها بها ويخلطها عليه حرصًا منه إلى تكميل مشتهاة نفسه الأمارة ﴿وَ﴾ لا تستبدع هذا الأمر، ولا تستبعد منه هذا، بل ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ﴾ الذين خلطوا أموالهم وتشاركوا فيها ﴿لَيَبْغِي﴾ أي: يظلم ويتعدى ﴿بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ ظلمًا وزورًا ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ من الخلطاء بالله، واستقاموا على صراطه الموضوع من عنده على العدالة والاستقامة ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ المرضية عنده سبحانه، سيما في الأمور المتعلقة لحقوق عباده، ولكن ﴿وَقَلِيلٌ مَا هُمْ﴾ أي: هم قليل في الدنيا في غاية القلة والندرة، و«ما» مزيدة لكمال القلة والإبهام.

ثم التفت ﷺ إلى المدعى عليه، فقال له بعدما سمع منه اعترافه: إن رمت هذا، ضربنا منك هذا، إشارة إلى طرف أنفه، فقال المدعى عليه: أنت أيها الحاكم أحق بذلك الضرب، فنظر ﷺ ولم يرَ أحدًا ﴿وَ﴾ حينئذ ﴿ظَنَّ﴾ بل تيقن ﴿دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ﴾

وابتليناه بالذنب ﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ﴾ عما جرى عليه من افتتان الله إياه ﴿وَخَرَّ﴾ ساجدًا من خشية الله، بعدما كان ﴿رَاكِعًا﴾ مكسور الظهر، منكوس الرأس عن ارتكاب الذنب ﴿وَأَنَابَ﴾ [ص: 24][1] إلينا على وجه الندم والخجل مستحييًا عنًّا، مستوحشًا عن

(1) القول في تأويل قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي﴾ وهذا مثل ضربه الخصم المتسوّرون على داود محرابه له، وذلك أن داود كانت له فيما قيل: تسع وتسعون امرأة، وكانت للرجل الذي أغزاه حتى قُتل امرأة واحدة؛ فلما قتل نكح فيما ذكر داود امرأته، فقال له أحدهما:(إِنَّ هَذَا أَخِي) يقول: أخي على ديني. كما حدثنا ابن حميد، قال: ثنا سلمة، عن ابن إسحاق، عن بعض أهل العلم، عن وهب بن منبه:(إِنَّ هَذَا أَخِي): أي على ديني(لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ). وذُكر أن ذلك في قراءة عبد الله:«إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً أُنْثَى» وذلك على سبيل توكيد العرب الكلمة، كقولهم: هذا رجل ذكر، ولا تفسير يكادون أن يفعلوا ذلك إلا في المؤنث والمذكر الذي تذكيره وتأنيثه في نفسه كالمرأة والرجل والناقة، ولا يكادون أن يقولوا هذه دار أنثى، وملحفة أنثى، لأن تأنيثها في اسمها لا في معناها. وقيل: عنى بقوله: أنثى: أنها حسنة، ذكر من قال ذلك: حُدثت عن المحاربي، عن جُوَيبر، عن الضحاك«إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً أُنْثَى» يعني بتأنيثها،حسنها وقوله(فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا) يقول: فقال لي: انزل عنها لي وضمها إليّ كما حدثني يونس، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد، في قوله(أَكْفِلْنِيهَا) قال: أعطنيها، طلّقها لي، أنكحها، وخلّ سبيلها. حدثنا ابن حميد، قال: ثنا سلمة، عن ابن إسحاق، عن بعض أهل العلم، عن وهب بن منبه، فقال:(أَكْفِلْنِيهَا) أي احملني عليها. وقوله(وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ) يقول: وصار أعز مني في مخاطبته إياي، لأنه إن تكلم فهو أبين مني، وإن بطش كان أشدّ مني فقهرني. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل، ذكر من قال ذلك: حدثنا ابن حميد، قال: ثنا جرير، عن الأعمش، عن أبي الضحى، عن مسروق، قال: قال عبد الله في قوله(وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ) قال: ما زاد داود على أن قال: انزل لي عنها، حدثنا ابن وكيع، قال: ثني أبي، عن المسعودي، عن المنهال، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال: ما زاد على أن قال: انزل لي عنها، وحدثني يحيى بن إبراهيم المسعودي، قال: ثني أبي، عن أبيه، عن جده، عن الأعمش، عن مسلم، عن مسروق، قال: قال عبد الله: ما زاد داود على أن قال:(أكفلنيها) حدثني محمد بن سعد، قال: ثني أبي، قال: ثني عمي، قال: ثني أبي، عن أبيه، عن ابن عباس،(وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ) قال: إن دعوت ودعا كان أكثر، وإن بطشت وبطش كان أشدّ مني، فذلك قوله(وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ) حدثنا بشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة(وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ) ؛ أي ظلمني وقهرني حدثني يونس، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد في قوله(وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ) قال: قهرني، وذلك العزّ؛ قال: والخطاب: الكلام، حدثنا ابن حميد، قال: ثنا سلمة، عن ابن إسحاق، عن بعض أهل العلم عن وهب بن منبه(وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ): أي قهرني في الخطاب، وكان أقوى مني، فحاز نعجتي إلى نعاجه، وتركني لا شيء لي، حُدثت عن الحسين، قال: سمعت أبا معاذ يقول: أخبرنا عبيد، قال: سمعت الضحاك يقول في قوله(وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ) قال: إن

سخطنا وغضبنا إياه.

﴿ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [ص: 25-29].

﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ﴾ الذنب بعدما أخلص في الإنابة والرجوع إلينا، بل جميع ذنوبه

تكلم كان أبين مني، وإن بطش كان أشدّ مني، وإن دعا كان أكثر مني. القول في تأويل قوله تعالى:﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴾ يقول تعالى ذكره: قال داود للخصم المتظلم من صاحبه: لقد ظلمك صاحبك بسؤاله نعجتك إلى نعاجه؛ وهذا مما حذفت منه الهاء فأضيف بسقوط الهاء منه إلى المفعول به، ومثله قوله عزّ وجلّ:(لا يَسْأَمُ الإنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ) والمعنى: من دعائه بالخير، فلما ألقيت الهاء من الدعاء أضيف إلى الخير، وألقي من الخير الباء؛ وإنما كنى بالنعجة ها هنا عن المرأة، والعرب تفعل ذلك؛ ومنه قول الأعشى: قَدْ كُنْتُ رَائِدَهَا وَشَاةِ مُحَاذِرٍ... حَذِرًا يُقِلُّ بعَيْنِهِ إغْفَالَهَا، يعني بالشاة: امرأة رجل يحذر الناس عليها؛ وإنما يعني: لقد ظلمت بسؤال امرأتك الواحدة إلى التسع والتسعين من نسائه، وقوله(وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ) يقول: وإن كثيرا من الشركاء ليتعدّى بعضهم على بعض(إِلا الَّذِينَ آمَنُوا) بالله(وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) يقول: وعملوا بطاعة الله، وانتهوا إلى أمره ونهيه، ولم يتجاوزوه(وَقَلِيلٌ مَا هُمْ) وفي«ما» التي في قوله(وَقَلِيلٌ مَا هُمْ) وجهان: أحدهما أن تكون صلة بمعنى: وقليل هم، فيكون إثباتها وإخراجها من الكلام لا يفسد معنى الكلام: والآخر أن تكون اسما، و«هم» صلة لها، بمعنى: وقليل ما تجدهم، كما يقال: قد كنت أحسبك أعقل مما أنت، فتكون أنت صلة لما، والمعنى: كنت أحسب عقلك أكثر مما هو، فتكون«ما» والاسم مصدرًا، ولو لم ترد المصدر لكان الكلام بمن، لأن من التي تكون للناس وأشباههم، ومحكي عن العرب: قد كنت أراك أعقل منك مثل ذلك، وقد كنت أرى أنه غير ما هو، بمعنى: كنت أراه على غير ما رأيت. «تفسير الطبري» (177/21-180).

التي صدرت عنه ﴿وَ﴾ كيف لا نغفر ﴿إِنَّ لَهُ﴾ أي: لداوود عليه السلام ﴿عِندَنَا﴾ وفي ساحة قربتنا وعزتنا ﴿لَزُلْفَى﴾ لقربة ومنزلة رفيعة ﴿وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ [ص: 25] أي: خير مرجع ومنقلب من مقامات القرب ودرجات الوصول.

وأسر في ابتلاء الله إياه أنه لما رأى في كتب التواريخ أوصاف أسلافه إبراهيم وإسحاق ويعقوب، أضمر في نفسه أن يؤتى له مثل ما أتى إياهم من الخير والحسنى، فأوحى إليه أنهم قد ابتلوا فصبروا، فأعطي لهم ما أعطي فقال داود عليه السلام: يا رب لو ابتليت لصبرت أيضًا مثلهم، فأوحى أنك تُبتلى في شهر كذا في يوم كذا فاستحفظ الأوقات.

فلما جاء الموعد دخل محرابه وأغلق الباب على نفسه، فجاءه الشيطان في صورة حمامة من ذهب في غاية الحسن والبهاء ووقعت بين رجليه، فأراد أخذها؛ ليُري بني إسرائيل عجائب صنع الله وبدائع قدرته، فطارت وجلست في كوة هناك فأراد أخذها فذهبت فنظر من الكوة فإذا هو بامرأة حسناء من أجمل النساء تغتسل فتعجب منها، فالتفت وأبصرت ظله فنفضت شعرها، فغطى جميع بدنها، فازداد داوود عجبًا فوق العجب.

وبالجملة: قد ابتلي عليه السلام بمحبة تلك المرأة، وكان عمره حينئذ سبعين سنة، فسأل عنها، فقيل: هي امرأة أوريا بن حنان، فأوجس في نفسه قتله ليتزوج امرأته، وكان أوريا حينئذ مع ابن أخت داود في جيش، فأرسل إلى ابن أخته أن يقدم أوريا قدام التابوت، وكان من عادته من يقدمه قدام التابوت لا يحل له الرجوع حتى يُفتح أو يُقتل، فقدمه ففتح، فأمره أن يقدمه إلى أخرى، فقدمه ففتح أيضًا، ثم أمر أن يقدمه ثالثًا، فقدمه إلى جيش عظيم فقتل.

وبعدما انقضت عدة امرأته تزوجها داود عليه السلام، وهي أم سليمان عليه السلام، فعاتبه سبحانه بما عاتبه، فاستغفر ربه وخرّ راكعًا وأناب، والعهدة على الراوي، وأنكر بعضهم هذه القصة؛ لأن الأنبياء معصومون عن أمثاله.

وعن علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه -: من تحدث بحديث داوود عليه السلام على ما يرويه القصاص جلدته مائة وستين جلدة، وهي حد الفرية على الأنبياء، والعلم عند الله.

ثم لما عاتب سبحانه داود عليه السلام بما عاتب، وقبل توبته بعدما استغفر وأناب، أراد

سبحانه من كمال خلوصه في توبته رجوعه نحو الحق عن صميم طويته أن يشرفه بخلعة الخلافة، فقال مناديًا له، إظهارًا لكمال اللطف والكرم معه: ﴿يَا دَاوُودُ﴾ المتأثر عن عتبنا، التائب إلينا، المنيب نحونا عن محض الندم والإخلاص ﴿إِنَّا﴾ بعدما طهرناك عن لوث بشريتك، وغفرنا لك ما طرأ عليك من لوازم هويتك ولواحق ناسوتك ﴿جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ﴾ التي هي محل الكون والفساد، وأنواع الفتن والعناد، فلك أن تستخلف عليها نيابة عنَّا.

﴿فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ﴾ المستحكمين لك، المتمردين إليك في الوقائع والخطوب ملتبسًا ﴿بِالْحَقِّ﴾ السوي بلا ميل إلى كلا طرفي الإفراط والتفريط على الوجه الذي وصل إليك في كتابنا صريحًا أو استنبط منه ضمنًا ﴿وَ﴾ عليك أن ﴿لَا تَتَّبِعِ الْهَوَى﴾ في حكوماتك وقطعك للخصومات بين الأنام؛ يعني: عليك أن ترجع في جميع الأحكام إلى كتابنا، ولا تميل في حال من الأحوال إلى ما تهواه نفسك ويقتضيه رأيك ويشتهيه قلبك، إن كان مخالفًا لما في الكتاب، وإن اتبعت إليه بعدما نهيناك ﴿فَيُضِلَّكَ﴾ اتباعكَ إياه ﴿عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الموصل إلى توحيده، المبني على القسط والاعتدال ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الواحد الأحد الصمد الذي استوى على عروش عموم ما لمع عليه بروق تجلياته بالقسط والاستقامة ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ يوم يرجعون إلى الله، ويحشرون إلى عرصات العرض ﴿بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: 26] أي: بسبب فطرتهم الأصلية، وعهدهم الذي عهدوا مع الله فيها، وإنكارهم على تنقية الحق أعمالهم في يوم البعث والجزاء، وضلالهم عن الإيمان به وبجميع ما فيه من الأمور الأخروية.

﴿وَ﴾ كيف لا نبعث الأموات، ولا نحاسب أعمالهم التي أتوا بها في دار الاختبار؛ إذ ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ﴾ وجميع ما فيها ومن فيها ﴿وَالأَرْضَ﴾ وجميع من عليها وما عليها ﴿وَ﴾ كذا ﴿مَا بَيْنَهُمَا﴾ من الممتزجات الكائنة فوق الأرض وتحت السماء ﴿بَاطِلاً﴾ عبثًا بلا طائل ومصلحة تقتضيها الحكمة الباعثة على إظهارها، مع أنَّا ما كنَّا من العابثين اللاعبين.

وما يليق بشأننا أن ينسب أفعالنا إلى البطلان، والخلو عن الحكمة ﴿ذَلِكَ﴾ أي: القول ببطلان أفعالنا، وخلائها عن الفائدة، وعرائها عن الحكمة والمصلحة ﴿ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالحق العليم الحكيم، وأعرضوا عن الإيمان وأنكروا توحيده فاستحقوا بذلك

الظن أسوأ العذاب وأشد النكال ﴿فَوَيْلٌ﴾ عظيم وعذاب أليم ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: 27] إذ هم في أوحش أمكنة جهنم وأهولها وأعمقها.

﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ﴾ أي: بل ظنوا وزعموا من شدة جهلهم وسخافة فطنتهم، أنَّا نسوي في الرتبة بين أرباب الهداية والإيمان وأصحاب الضلال والطغيان ﴿أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: 28] بل زعموا، واعتقدوا مساواة أهل المغفرة والتقوى مع أصحاب الغفلة والهوى، المنهمكين في أودية الضلالات بمتابعة اللذات والشهوات.

ثم قال سبحانه مخاطبًا لحبيبه ﷺ على سبيل العظة والتذكير: هذا ﴿كِتَابٌ﴾ جامع لفوائد الكتب السالفة، مشتمل على زوائد خلت عنها تلك الكتب ﴿أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ﴾ أيها الجامع لجميع مراتب الوجود من مقام عظيم جودنا معك، ومع من تبعك من المؤمنين ﴿مُبَارَكٌ﴾ كثير الخير والبركة على من امتثل بأوامره، واجتنب عن نواهيه، وانكشف بما فيه من الرموز والإشارات المنبهة إلى التوحيد وإسقاط الإضافات، والتخلق بصفات الحق وأخلاقه، والاتصاف بمقتضيات أسمائه الحسنى، وإنما أنزلناه ﴿لِيَدَّبَّرُوا﴾ أي: ليتدبر المتدبرون المتفكرون في أساليب ﴿آيَاتِهِ﴾ الكريمة، واتساق تراكيبه البديعة، وإفاضاتها المعاني العجيبة المنتشئة المترشحة من بحر الذات حسب شئون الأسماء والصفات الظاهرة آثارها على وفق التجليات الحبية، ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ﴾ ويتعظ بعدما تأمل وتدبر ﴿أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [ص: 29] المستكشفون عن حقائق الموجودات، ولباب الكائنات والفاسدات المعرضين عن قشورها.

﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٣٠) إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ (٣١) فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ (٣٢) رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ (٣٣) وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ (٣٤) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ (٣٥) فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (٣٦) وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ (٣٧) وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٣٨) هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٩) وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ (٤٠) ﴾ [ص: 30-40].

﴿وَ﴾ بعدما كرمناه بتشريف خلعة الخلافة ﴿وَهَبْنَا لِدَاوُودَ﴾ ولدًا خلفًا عنه، وارثًا لملكه وخلافته، محييًا اسمه ومراسم دينه ومعالم ملته؛ يعني: ﴿سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ﴾ سليمان؛ لأنه مقبول عندنا، مقرب في حضرتنا، مكرم لدينا، وكيف لا يكون كذلك ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: 30] رجّاع إلينا، ملتجئ نحونا في عموم الأوقات وشمول الحالات على وجه الخلوص والتفويض التام.

اذكر يا أكمل الرسل كمال رجوعه وإخلاصه فيه وقت ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ﴾ وهو مشمر إلى الغزو ومهيّئ لأسبابه، متمكن على كرسيه لضبط العسكر وآلات القتال بالعشي ﴿الصَّافِنَاتُ﴾ من الخيل، وهي التي تدور سريعًا كالرحى على طرف حافر من حوافره، إن أراد الركاب تدويره، وهي من أكمل أوصاف الخيل وأحمدها عند أصحاب القتال؛ لأن المبارز كثيرًا ما يحتاج إلى تدوير فرسه يوم الوغى ﴿الْجِيَادُ﴾ [ص: 31] سريعة الجري والعدو.

وذلك أنه جلس على كرسيه يومًا بعدما فرغ من ورده في الظهيرة؛ لإعداد أسباب الغزو والقتال الذي قصد أن يخرج إليه يومئذ، فأمر بعرض الخيول عليه، فأشغله الالتفات والتوجه نحو الخيول عن ورد عصره، فتذكر والشمس قد غربت، فاغتم غمًا شديدًا، وتحزّن تحزنًا بليغًا إلى حيث لم يطرأ عليه مثله.

﴿فَقَالَ﴾ من شدة أسفه وضجرته متأوهًا لائمًا على نفسه: ﴿إِنِّي أَحْبَبْتُ﴾ الخيل ﴿حُبَّ الْخَيْرِ﴾ أي: كحب الخير والتوجه المقرب إلى الله، لذلك ألهاني ﴿عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ﴾ الشمس ﴿بِالْحِجَابِ﴾ [ص: 32] وفات عني وردي الذي كان قبل الغروب.

وبعدما وقع ما وقع من الغفلة، تسارع إلى التدارك والتلافي، فأخذ يقطع عرق الباعث إلى الإلهاء والإغفال، فقال للشرطة: ﴿رُدُّوهَا﴾ أي: الصافنات ﴿عَلَيَّ﴾ وكرّوها إليّ، فأعادوها معرضين ثانيًا ﴿فَطَفِقَ﴾ سليمان، وأخذ السيف الصارم بيده، يمسح ويمضي ﴿مَسْحًا﴾ وإمضاء ملاصقًا ﴿بِالسُّوقِ﴾ وهي جمع: ساق ﴿وَالْأَعْنَاقِ﴾ [ص: 33] يعني: أخذ بقطع قوائمها ورءوسها، ليزول حبها عن قلبه، ويتصدق بها طلبًا لمرضاة ربه، وجبرًا لما انكسر من ورده.

وعن المرتضى المجتبى - كرم الله وجهه - : أن الضمير في ﴿رُدُّوهَا﴾ راجع إلى الشمس؛ يعني: أمر سليمان الموكلين على الشمس بإذن الله ووحيه إياه، أن يردوا

الشمس بعدما غربت؛ ليأتي سليمان بورده، فأتى بما أتى، وذلك من كمال كرم الله معه.

﴿وَ﴾ مع كونه مقبولاً عندنا ممدوحًا لدينا ﴿لَقَدْ فَتَنَّا﴾ وابتلينا ﴿سُلَيْمَانَ﴾ بفتنة عظيمة، وأخذنا منه ملكه بجريمة صدرت من أهل بيته بأدنى ملابسة له ورضا من جانبه.

وذلك أنه ﷺ غزا «صيدون» من الجزائر، فقتل ملكها فأصاب ابنته اسمها جرادة، وهي من أجمل النساء وأحسنها شكلاً، فأعجب سليمان بحسنها وخصها لنفسه، وهي أحب عليه من سائر نسائه، وكانت من شدة حزنها وكآبتها على أبيها لا يرقى دمعها، ولا يزال همها، فأمر ﷺ الشياطين فمثل لها صورة أبيها، فكانت تغدو إليها وتروح مع ولائدها يسجدون لها، على ما هي عادتها في حياته وملكه.

ومضى عليها أربعون يومًا، فاستشعر بها آصف بن برخيا فأخبره، فكسر الصورة وضرب المرأة والولائد، فخرج ﷺ إلى الصحراء باكيًا متألمًا مستحييًا من ربه، وكان من عادته ﷺ إذا دخل الخلاء أعطى خاتمه الذي فيه ملكه إلى أمة له اسمها أمينة، فأعطاها يومًا فتمثل بصورة سليمان شيطان اسمه صخر، فجاء فطلب الخاتم من أمينة فأخذه فتختم به، وجلس على كرسيه، واجتمع الخلق عليه، وقضى ما قضى ونفذ حكمه في كل شيء إلا في نسائه، وغيّر سليمان عن هيئته وسلطنته، فأتى أمينة بطلب الخاتم فطردته وأنكرت عليه، فعرف أن الفتنة قد أدركته.

فأخذ يدور حول البيوت يتكفف حتى مضى أربعون يومًا عدد ما عبد في بيته الصورة، وبعد انقضاء المدة المذكورة، طار الشيطان من كرسيه وقذف الخاتم في البحر، فابتلعته سمكة فوقعت في يد سليمان من قضاء الله ومزيد كرمه وعطائه عليه، فبقر بطنها فوجد الخاتم فتختم به، فعاد ملكه عليه، وخرّ ساجدًا وأناب إلى الله متضرعًا كما أخبر سبحانه.

وبعدما فتناه بفتنة عظيمة وهي عبادة غيرنا في بيته برضاء منه، وأخذناه عليها وأخرجناه من ملكه بفقد الخاتم عنه ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ﴾ وأجلسنا بدله عليها ﴿جَسَدًا﴾ تمثالاً وصورة لا حقيقة لها، ﴿ثُمَّ﴾ بعدما ابتليناه بما ابتليناه قد ﴿أَنَابَ﴾ [ص: 34] إلينا مخلصًا متضرعًا، فقبلنا توبته عناية منّا إياه؛ حيث ﴿قَالَ﴾ في مناجاته معنا، وعرض حاجاته إلينا: ﴿رَبِّ﴾ يا من رباني بمقتضى لطفك وجودك، وأعطيتني من مواهبك ما لم تعطِ أحدًا من خلقك ﴿اغْفِرْ لِي﴾ ذنبي، واعفُ زلتي بسعة رحمتك

وجودك ﴿وَ﴾ بعدما غفرتني ومحوت عني معصيتي ﴿هَبْ لِي مُلْكًا﴾ كما وهبتني قبل هذا، وخصصتني به بمقتضى جودك وإحسانك علي؛ إذ ﴿لَا يَنْبَغِي﴾ ويليق بشأنك وبمزيد لطفك وإحسانك أن تعطيه ﴿لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾ إذ لا راد لفضلك، ولا مانع لعطائك ﴿إِنَّكَ أَنْتَ﴾ المحسن ﴿الْوَهَّابُ﴾ [ص: 35][1] المقصور المنحصر على إعطاء المواهب والكرامات، بلا عوض ولا غرض؛ إذ لا معطي سواك ولا مفضل غيرك.

وبعدما توجه إلينا وتضرع نحونا على وجه الإنابة والخضوع والتذلل والخشوع، آتينا ملكه، وأجرينا حكمه كما كان ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ﴾ بعدما انتقمنا عنه، وجعلناها مقهورة له، محكومة بحكمه؛ حيث ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ﴾ منقادة بحكمه ﴿رُخَاءً﴾ لينة هينة، بلا تضعضع وتزعزع يتعب منه الراكب ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ [ص: 36] أي: يجري بأمره أي صوب أراد، وجانب قصد.

﴿وَ﴾ أيضًا سخرنا له ﴿الشَّيَاطِينَ﴾ وجعلناهم منقادين لحكمه ﴿كُلَّ بَنَّاءٍ﴾ منهم مبني له أبنية عجيبة، وقصورًا مشيدة منيعة، وحصونًا محكمة، لا يسع للإنس أن يعمل مثلها ﴿وَ﴾ كل ﴿غَوَّاصٍ﴾ [ص: 37] منهم يغوصون لأجله في لجج البحار، ويستخرجون لخزائنه من اللآلىء النفيسة ما لا يعد ولا يحصى.

﴿وَآخَرِينَ﴾ من الشياطين، وهم المردة الممتنعون عن الإطاعة والانقياد، جعلناهم ﴿مُقَرَّنِينَ﴾ مشدودين محبوسين ﴿فِي الْأَصْفَادِ﴾ [ص: 38] أي: القيود والأغلال المضيقة بمقتضى أمره وحكمه.

ثم قال سبحانه امتنانًا عليه، وتنبيهًا على تعظيمه وتكريمه: ﴿هَذَا﴾ المذكور من الحكومة والخلافة والتسخيرات السالفة ﴿عَطَاؤُنَا﴾ عليك يا من اصطفيناك لوراثة النبوة والخلافة ﴿فَامْنُنْ﴾ منه لمن شئت، واجعل حق المستحقين محفوظًا به ﴿أَوْ أَمْسِكْ﴾ لنفسك، ولا تعطِ أحدًا؛ يعني: لك الخيار في المنع والإعطاء ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [ص: 39]

---

(1) دلت هذه الآية على أنه يجب تقديم مُهِمّ الدين على مُهِمّ الدنيا لأن سليمان طلب المغفرة أولًا ثم طلب المملكة بعده، ثم دلت الآية أيضًا على أن طلب المغفرة من الله تعالى سبب لانفتاح أبواب الخيرات في الدنيا لأن سليمان طلب المغفرة أولًا، ثم توصل به إلى طلب المملكة. اللباب (13/ 369).

عليك، وسؤال عن فعلك، إذ أمره مفوض إليك.

﴿وَ﴾ كيف لا يفوض لأمر ما أعطيناه إياه إلينا ﴿إِنَّ لَهُ﴾ أي: لسليمان عليه السلام ﴿عِندَنَا﴾ وفي ساحة عز حضورنا ﴿لَزُلْفَى﴾ درجة قريبة من درجات الوصال ﴿وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ [ص: 40] أي: خير مرجع ومنقلب من مراتب التمكن في التوحيد. والتقرب في مقر القبول.

﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ ﴾ [ص: 41-48].

﴿وَاذْكُرْ﴾ يا أكمل الرسل ﴿عَبْدَنَا أَيُّوبَ﴾ هو ابن عيص بن اسحاق، وامرأته ليّا بنت يعقوب، أضافه سبحانه إلى نفسه لكمال رضاه منه ولطفه معه؛ حيث صبر على ما مضى عليه من بلائه وجرى عليه من قضائه، كما شكر على آلائه ونعمائه، ولم ينقص من إخلاصه حالتي السراء والضراء.

اذكر يا أكمل الرسل كمال تصبر أخيك أيوب، وإخلاصه في توجهه إلينا للمتذكرين المعتبرين من أمتك؛ كي يتذكروا من قصته، ويتخلقوا بشيء من تصبره وتمكنه في مقر التفويض والتسليم ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ﴾ الذي رباه بين الخوف والرجاء وأنواع العناء والعطاء؛ لكمال اصطباره ووقاره بما جرى عليه من مقتضيات ربه، قائلاً حين اضطراره إلى الالتجاء نحو ربه والتضرع إليه: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ [ص: 41] أي: نفخ فيَّ، وأحاط نفخه جميع أجزاء بدني؛ بحيث لم يبقَ فيَّ عضو لم يلحقه ضرر من شؤم نفخه، وعذاب شديد مؤلم مزعج، فاضطرني هجوم الأعداء والعناء ونزول أنواع المحن والبلاء إلى بث الشكوى نحوك يا مولاي، فأنا عبدك، وعلى عهدك ما استطعت، وما توفيقي إلا بك وثقتي إلا عليك، فارحمني بسعة رحمتك؛ إذ لا راحم سواك ولا مغيث غيرك.

وبعدما استغاث إلينا مخلصًا مضطرًا راجيًا من الإجابة والقبول، أدركته العناية، وشملته الرحمة والكرامة من لدنًا، حيث قلنا له ملهمين إياه، مستقبلين إجابته: ﴿ارْكُضْ﴾ واضرب ﴿بِرِجْلِكَ﴾ على الأرض، فركض امتثالاً للأمر الوجوبي فنبعت عين جارية، ثم قلنا له تعليمًا وتنبيهًا: ﴿هَٰذَا﴾ الماء ﴿مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ﴾ يبرد ويبرأ ظاهر جسدك من الحرارات العارضة لبدنك من شؤم نفس عدوك الذي خلق من عنصر النار ﴿وَشَرَابٌ﴾ [ص: 42] شافٍ لباطنك من الذي أعرض عليك من انحراف مزاجك بسبب خروج أخلاطك عن الاعتدال الفطري بشؤم نفخه.

وبعدما سمع أيوب ما سمع اغتسل منه، فشرب وبرأ من المرض ظاهرًا وباطنًا ﴿وَ﴾ بعدما حصل له الصحة والنظافة منًا إياه، سقط نحونا ساجدًا حامدًا شاكرًا، مناجيًا معنا، مخلصًا متضرعًا ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ﴾ تتميمًا لكمال لطفنا وعنايتنا معه ﴿أَهْلَهُ﴾ أي: جميع من مات من أولاده بسقوط السقف عليهم ﴿وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ أي: وهبنا له إحسانًا عليه وامتنانًا منًا إياه مثل أهله مع أهله، وإنما فعلنا معه ذلك بعدما ابتليناه واختبرناه؛ ليكون ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾ إياه ﴿وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [ص: 43] الذين يتذكرون بقصته، ويتخلقون بأخلاقه؛ ليفوزوا بما فاز.

وبعدما صححناه من الأسقام ووهبنا له أهله وماله، وزدنا عليه مثله تفضلاً منًا إياه، أمرناه ثانيًا تعليمًا له بأن يتدارك قسمه وحلفه الذي حلف في مرضه، حين ذهبت امرأته ليا أو رحمة بنت إفرائيم بن يوسف لحاجة، فأبطأت، فحلف: إن برئت عن مرضي لأضربنك مائة جلدة.

﴿وَ﴾ قلنا له تعليمًا: ﴿خُذْ بِيَدِكَ﴾ لحلفك ﴿ضِغْثًا﴾ حزمة مشتملة على مائة من أغصان صغار، فاضرب به - أي: بالضغث - امرأتك مرة، بحيث وصل أثر جميع ما في الحزمة من الأغصان إليها ﴿فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ﴾ حينئذ في حلفك، فحللنا يمينك بها، عناية منًا لك ولامرأتك، فصارت رخصة باقية في حدود الشرائع إلى الآن.

وكيف لا نزيل شكواه، ولا نحسن إليه، ولا نجزيه أحسن الجزاء؟ ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ﴾ عبدًا ﴿صَابِرًا﴾ لجميع ما هجم عليه من أنواع البلاء المتعلقة بماله وأولاده وبدنه ﴿نِّعْمَ الْعَبْدُ﴾ عبدنا أيوب الصبور المسلِّم المفوض بلا جزع وتزعزع، فكيف يجزع ويتزعزع ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: 44] رجّاع إلينا، متشمر نحونا في عموم أوقاته وحالاته، طالبًا للفناء فينا والبقاء ببقائنا.

روي أن أيوب ﷺ كان متمولاً منعمًا عظيمًا، وكان له جميع أنواع متاع الدنيا، ومع ذلك شاكرًا راضيًا منفقًا في سبيل الله لفقراء الله طلبًا لمرضاته، وبعدما بالغ في شكر نعم الله وأداء حقوق كرمه، حسد عليه إبليس فقال مناجيًا إلى الله: نظرت في عبدك أيوب فوجدته عبدًا أنعمت عليه فشكر لك، ولو ابتليته بالفاقة لم يكن كذلك، فقال سبحانه: «سلطتك يا ملعون على ماله» فقال إبليس لعفاريت: أيكم أشد وأقوى على إتلاف ماله؟ فقام أحدهم وتحول إعصارًا من نار فأحرق إبله، وجميع من كان معها من الراعي، وصاح أحد منهم على أغنامه ورعاتها فهلكوا بالمرة، وآخر جاء بريح عاصفة على حرثه فنسفت ولم يبقَ منهما شيء.

فتمثل إبليس بصورة راعٍ، وآخر من أعوانه بصورة حارث، وأتياه وهو يصلي وقالا: أقبلت نار فغشيت إبلك فأحرقتها ومن معها، وصاح على غنمك شيطان فهلكت بالمرة، وهبت على حرثك ريح فنسفت وصار كأن لم يكن، فقال أيوب: الحمد لله إنها مال الله أعارنيها وهو أولى بها، وقد كنت قدمًا قد وطنت نفسي ومالي على القضاء.

وبعدما آيس إبليس من هذا الطريق قال: إلهي إنك متعته بأولاد فشكر لك لأجلها، فهل أنت مسلطي على أولاده؛ إذ هي من أعظم المصيبات لا يصبر عليها أحد من الناس؟ قال: «نعم»، فأتاهم اللعين وهم مجتمعون في قصر عند معلم أديب، فلم يزل يزلزلها ويحركها حتى أسقطها عليهم فأهلكهم بالمرة، فتمثل اللعين بصورة معلمهم فأتاه وهو صريخ جزوع، فقال: لو رأيت بنيك كيف عذبوا، ونكسوا إلى حيث سال دمهم ودماغهم وشقت بطونهم وتناثرت أمعاؤهم، فقال أيوب ﷺ متأوهًا: ليت أمي لم تلدني، ثم أفاق واستغفر عن ضجرته سريعًا.

ورجع خاسئًا وقنط اللعين من هذا أيضًا، وقال: إلهي إنما صبر أيوب ﷺ على إهلاك أمواله وأولاده، ولازم توجهه بجوك؛ لأنك متعته بصحة البدن وسلامة الجسد، وهل أنت مسلطي على جسده؟ قال سبحانه: «سلطتك على غير لسانه وقلبه»، فأتاه فوجده ساجدًا، فنفخ في منخره نفخة اشتعل منها جسده، فخرج من قرنه إلى قدمه ثآليل مثل أليات الغنم، فوقعت فيه حكة فلم يزل يحكه حتى قرح جسده وأنتن لحمه، فأخرجه أهل القرية منها، ورفضوه من كان من أرحامه سوى امرأته «رحمة» فتمثل لها إبليس في صورة رجل، فقال لها: أين بعلك؟ هو ذلك يحك قروحه وتردد الديدان في جسده.

فلما سمعتها خيلت أنها كلمة جزع صدرت منه، فذكر لها تغريرًا ما كان فيه من

النعيم ثم أتى بسخلة[1]، فقال لها: ادفعيها إلى أيوب عليه السلام ليذبح لي حتى يبرأ من السقم فجاءت مع السخلة تصرخ يا أيوب إلى متى يعذبك ربك أين الأموال والأولاد والوجه الحسن؟! اذبح هذه واسترح، فقال أيوب: أتاك عدو الله فنفخ فيك، أرأيت ما تبكين عليه من المال والولد والصحة من أعطانيه؟ قالت: الله، قال: فكم متعنا به؟ قالت: ثمانين سنة، قال: فمنذ كم ابتلينا؟ قالت: سبع سنين وأشهرًا، قال: ويلك ما أنصفت لنصبرن في هذا البلاء ثمانين سنة كما لنا في الرخاء، أمَا تستحين من الله؟! أمرتني أن أذبح لعدو الله، لا أذوق شيئًا مما تأتيني به بعد اليوم، اعزلي عني ودعي معي ربي.

فلما ذهبت امرأته ورأى أيوب ليس عنده طعام ولا شراب ولا صديق، اضطر إلى بث الشكوى مع المولى فسقط ساجدًا، وقال مناجيًا صارخًا ضارعًا: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ [ص: 41] وسمع حينئذ من الهاتف: ارفع رأسك فقد استجبت لك، فرفع رأسه وأوحي إليه من قبل ربه ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ [ص: 42].

﴿وَاذْكُرْ﴾ يا أكمل الرسل ﴿عِبَادَنَا﴾ الذين هم أجدادك وأسلافك ﴿إِبْرَاهِيمَ وَ﴾ ابنه ﴿إِسْحَاقَ وَ﴾ سبطه ﴿يَعْقُوبَ﴾ واذكر من شمائلهم الجميلة وخصائلهم الحميدة؛ ليتعظ من سماعها ذوو الاعتبار من المؤمنين، ويقتدون بمآثرهم؛ لأنهم كانوا ﴿أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ [ص: 45] أي: ذوي القوة في الطاعة والبصيرة في مراسم الدين ومعالم اليقين، ولهم التمكن في مقر التوحيد، والوصول إلى درجات التجريد والتفريد.

ولا بدَّ للذين يلونهم أن يقتدوا بهم، ويسترشدوا من أخلاقهم وآثارهم، ويتصفوا بأوصافهم؛ كي يفوزوا بمعارفهم، وينكشفوا بمكاشفتهم ومشاهدتهم؛ لأنهم قدوة أصحاب التوحيد، وزبدة أرباب الشهود.

وكيف لا ﴿إِنَّا﴾ من مقام عظيم جودنا معهم ﴿أَخْلَصْنَاهُم﴾ وجعلناهم مخصوصين ﴿بِخَالِصَةٍ﴾ أي: بخصلة خالصة صافية عن كدر التعلقات الناسوتية، خالية عن شوب مقتضيات القوى الشهوية البشرية، العائقة عن التحقق بمرتبة اللاهوتية ألا وهي ﴿ذِكْرَى الدَّارِ﴾ [ص: 46] الدار الآخرة التي هي مقام التمكن في التوحيد

---

(1) يقال لأولاد الغنم ساعة تضعها من الضأن والمعز جميعًا ذكرًا كان أو أنثى: سَخْلة، وجمعها: سِخال. لسان العرب (56/12).

والانكشاف بسرائر الوحدة الذاتية، وسريانها في ملابس الأسماء والصفات المقتضية للتعدد والتكثر.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿إِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ﴾ المنتخبين لحمل أعباء الرسالة ﴿الْأَخْيَارِ﴾ [ص: 47] المنتخبين الصالحين للاتصاف بسرائر التوحيد واليقين؛ أي: أولئك الأنبياء العظام الساعين لطلب الخير في طريق الدين ومرتبة اليقين.

﴿وَاذْكُرْ﴾ يا أكمل الرسل جدك ﴿إِسْمَاعِيلَ﴾ ابن إبراهيم الخليل، وتذكر تصبره ورجوعه ورسوخه في مقام التفويض والتسليم، راضيًا بما جرى عليه من مقتضيات ربه، مع أنه لم يبلغ الحلم ﴿وَالْيَسَعَ﴾ هو ابن أخطوب، استخلفه إلياس النبي على بني إسرائيل، ثم استنبئ ﴿وَذَا الْكِفْلِ﴾ هو ابن عم اليسع المذكور، أو بشر بن أيوب، قيل: إنما لُقب به؛ لأنه فر إليه مائة من بني إسرائيل، فآواهم وكفلهم ﴿وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ﴾ [ص: 48] أي: كل واحد من الأنبياء المذكورين معدود من الأخيار الأبرار، مثبت في حضرة علمنا ولوح قضائنا من زمرتهم.

﴿ هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ (٤٩) جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ (٥٠) مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ (٥١) ۞ وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ (٥٢) هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ (٥٣) إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ (٥٤) ﴾ [ص: 49-54].

﴿هَٰذَا﴾ الذي يتلى عليكم من الأمر بتذكير أولئك الثقات الكرام ﴿ذِكْرٌ﴾ جميل وإثبات شريف وكمال لهم، إنما ذكرناهم وأمرناك بذكرهم تنبيهًا على جلال قدرهم وعظم شأنهم ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ﴾ المجتنبين عن محظوراتنا، المتصفين بمأموراتنا، الطالبين لمرضاتنا، الهاربين من سخطنا وانتقاماتنا ﴿لَحُسْنَ مَآبٍ﴾ [ص: 49] عندنا، وخير منقلب ومتاب في كنف جوارنا وساحة عز قبولنا.

﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ عطف بيان «لحسن مآب»، وهي عبارة عن درجات القرب إلى الوحدة الذاتية، وتجددات التجليات الشهودية على أرباب الكشف والعيان، ولكمال تحفظهم عن مقتضيات القوى ومشتهيات الهوى، وخلوصهم في التوجه نحو المولى، صارت الجنات ودرجات القرب والوصول ﴿مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ﴾ [ص: 50] أي: مفتوحة الطرق، واضحة السبل بالنسبة إليهم، يدخلون فيها من كل باب بلا منع

وحجاب.

وبعد دخولهم فيها، وتحققهم عندها صاروا ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا﴾ متمكنين على أرائك القبول وسرر الإخلاص، ولهم فيها ما تشتهي قلوبهم من المعارف المتجددة بتجدد التجليات الحبية المنبعثة من حضرة الرحموت؛ إذ ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ﴾ من أنواع ما يتفكهون ويتلذذون علمًا وعينًا وحقًا ﴿وَشَرَابٍ﴾ [ص: 51] يشربون من رحيق الحق ولا يروون.

﴿وَ﴾ يصور ﴿عِندَهُمْ﴾ أعمالهم المقبولة وأحوالهم المرضية ومقاماتهم العلية في سلوك طريق التوحيد أزواج أبكار ﴿قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾ عليهم، لا ينظرن إلى غيره ﴿أَتْرَابٌ﴾ [ص: 52] أحداث كلهن مستويات في السن، ليس فيهن صغر ولا كبر، بل كلهن على كمال اللطافة والعدالة؛ إذ كل ما فيها على كمال الاعتدال.

وبعدما تمكنوا فيها وترفهوا بنعيمها، قيل لهم من قبل الحق امتنانًا عليهم وتشويقًا: ﴿هَذَا﴾ الذي بين يديكم من النعيم المقيم واللذة الدائمة ﴿مَا تُوعَدُونَ﴾ بألسنة الكتب والرسل ﴿لِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [ص: 53] أي: لأجله أو فيه؛ إذ لا وصول إليها إلا بعد الحساب.

ثم قال سبحانه إظهارًا لكمال قدرته على الإنعام والانتقام: ﴿إِنَّ هَذَا﴾ المذكور ﴿لَرِزْقُنَا﴾ المعد لخواص عبادنا، المنجذبين إلينا بانخلاعهم عن لوازم هوياتهم الباطلة، وعن مقتضيات تعيناتهم العاطلة من المأكل والمشرب والمناكح الفانية، فنستبدل لهم بدلها ﴿مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ﴾ [ص: 54] أي: رزقًا معنويًا لا انقطاع له أصلاً.

﴿ هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾ ﴾ [ص: 55-64].

خذ ﴿هَذَا﴾ أيها المتشمر نحو الحق، والراغب إلى ما عنده من موائد الإنعام

والإفضال، وكما فضلنا على المطيعين بأنواع التعظيم والتنعيم، وكرمناهم بأنواع الكرامة والتكريم، انتقمنا عن العاصين الجاحدين ﴿وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ﴾ الذين طغوا علينا بخروجهم عن مقتضيات حدودنا الموضوعة فيهم، المنبهة إلى مبدئهم ومعادهم ﴿لَشَرَّ مَآبٍ﴾ [ص: 55] وأسوا منقلب ومثاب على عكس المطيعين المتقين.

يعني: ﴿جَهَنَّمَ﴾ البعد والخذلان وجحيم الطرد والحرمان ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ ويدخلون فيها بأنواع حسراتهم والزفرات بين أصناف العقارب والحيات، وأنواع الحشرات المصورة لهم من سيئات أعمالهم التي أتوا بها في دار الاختبار ونشأة الاعتبار، وبالجملة: ﴿فَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [ص: 56] والفراش مهد أصحاب الجحيم وفراشهم.

﴿هَذَا﴾ منقلبهم ومآبهم، ثم بعدما دخلوا في النار، قيل لهم من قبل الحق لخزنة جهنم: ﴿فَلْيَذُوقُوهُ﴾ أي: كل واحد منهم نزلاً لهم شرابًا، هو ﴿حَمِيمٌ﴾ وهو الماء الحار الذي يشوي وجوههم ويخرق أمعاءهم، يسخنه نيران شهواتهم التي أتوا بها على خلاف ما أمر الله وحكم عليه ﴿وَغَسَّاقٌ﴾ [ص: 57] الماء البارد الزمهريري الذي يتجمد في فيهم، وفي أجوافهم، يبرده كمال بلادتهم وجهلهم بالله الحكيم العليم، وبما وضع سبحانه من الحدود والأحكام الصادرة عن محض الحكمة المتقنة المتعلقة لإصلاح أحوالهم، ﴿وَآخَرُ﴾ أيضًا ﴿مِن شَكْلِهِ﴾ أو من جنس الشراب المذوق ومثله، أو «وأُخر» من أنواعه على القراءتين ﴿أَزْوَاجٌ﴾ [ص: 58] أصناف وأنواع، بعضها أسوأ من بعض؛ ليكون عذابًا فوق عذاب.

ثم لما اقتحم القادة من أصحاب النار، وأدخلوا أنفسهم عليها خوفًا من الموكلين الذين يسوقوهم نحوها بمقامع من حديد، وازدحم عقيبهم أتباعهم على الفور، فضيقوا على القادة مكانهم، وصرخوا على الخزنة من تضييقهم، قال الخزنة لهم بعدما سمعوا صيحتهم وصراخهم: ﴿هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ﴾ بعدكم، معقبين عليكم مضيقين عليكم، فالتفتوا أثرهم أهؤلاء أتباعنا ﴿مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ﴾ ولا يوسع عليهم ﴿إِنَّهُمْ﴾ أيضًا ﴿صَالُوا النَّارِ﴾ [ص: 59] أي: داخلوها أمثالنا.

ثم لما سمع الأتباع قول قادتهم هذا: ﴿قَالُوا﴾ على سبيل المعارضة والمخاصمة: ﴿بَلْ أَنتُمْ﴾ أيها الضالون المضلون حقًا أن يقال لكم: ﴿لَا مَرْحَبًا بِكُمْ﴾ إذ ﴿أَنتُمْ﴾ بشؤم إضلالكم وإغرائكم ﴿قَدَّمْتُمُوهُ﴾ أي: الكفر الذي هو سبب دخول النار، وابتدأتموه أولاً، ثم أغريتمونا بتغريركم وتضليلكم، حتى كفرنا بسعيكم، وابتلينا بها

أمثالكم ﴿لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ [ص: 60] أي: بئس مقرنا ومقركم جهنم الطرد والحرمان.

وبعدما بالغ الأتباع في تعيير القادة وتشنيعهم، تضرعوا نحونا داعين على رؤسائهم؛ حيث ﴿قَالُوا رَبَّنَا﴾ يا من ربانا على فطرة التوحيد، وأشركناك بشؤم هؤلاء المشركين المضلين، ونرجو من عدلك ﴿مَن قَدَّمَ لَنَا هَذَا﴾ ودلنا عليه بتغريره ﴿فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا﴾ أي: ضعف عذابنا ﴿فِي النَّارِ﴾ [ص: 61] إذ نحن ضالون، وهم ضالون مضلون.

﴿وَقَالُوا﴾ أي: الرؤساء القادة بعدما توغلوا في ألوان العذاب على سبيل التحسر والتقريع على أنفسهم: ﴿مَا لَنَا﴾ أي: أي شيء عرض لنا، ولحق بأبصارنا ﴿لَا نَرَى رِجَالًا﴾ فقراء أراذل بيننا، أحاطتهم أنواع الفاقة والعناء كذلك ﴿كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ﴾ [ص: 62] الأراذل الساقطين عن درجة الاعتبار، وبالغنا في طردهم.

حيث ﴿أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا﴾ واستهزأنا معهم تهكمًا وتقريعًا، لا نرى اليوم منهم أصلاً في النار، أهم ما يدخلون النار كما هو دعواهم ﴿أَمْ﴾ هم أيضًا داخلون، لكن ﴿زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ﴾ [ص: 63] أي: مالت عن رؤيتهم أبصارنا، واحتجبوا منّا؛ يعنون بهؤلاء الرجال: فقراء المسلمين الذين استرذلوهم واستهزءوا معهم.

ثم قال سبحانه على سبيل المبالغة والتأكيد: ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ الذي حكينا عن أهل النار ﴿لَحَقٌّ﴾ مطابق للواقع، لا بدّ أن يتكلموا به حين دخولهم فيها، وهو ﴿تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ [ص: 64] في النار على الوجه الذي ذُكر.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [ص: 65-74].

ثم لما بالغ سبحانه في حقية ما حكى عن أهل النار، أمر حبيبه ﷺ بأن بلغ للأنام التوحيد المبعد لهم عن النار والعذاب المؤبد فيها، فقال: ﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل

للمشركين المستحقين لعذاب النار إنقاذًا لهم عنها، إن قبلوا منك قولك: ﴿إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ﴾ لكم بإذن الله ووحيه عن أمثال ما ذكر من العذاب في النشأة الأخرى ﴿وَ﴾ اعلموا أنه ﴿مَا مِنْ إِلَٰهٍ﴾ يُعبد بالحق، ويُرجع إليه في الخطوب، ويُلتجأ نحوه في النوائب والمصائب ﴿إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ﴾ الأحد الصمد الحي القيوم الذي لا شريك له في الوجود، ولا شيء غيره في الشهود ﴿الْقَهَّارُ﴾ [ص: 65] للأغيار مطلقًا؛ إذ ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: 88] رجوع الأظلال إلى الشمس، والأمواج إلى البحر.

وهو بتوحيده واستقلاله ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: مظهر كل ما في العلو والسفل وما في حشوهما، والمحاط بهما؛ إذ الكل منه بدأ وإليه يعود، وكيف لا وهو ﴿الْعَزِيزُ﴾ الغالب على أمره في خلقه وحكمه، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد؛ إذ هو ﴿الْغَفَّارُ﴾ [ص: 66] الستَّار المحَّاء لهويات الأغيار، وهياكل الأظلال الغير القار.

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل بعدما بينت لهم توحيد الحق، واستقلاله في تصرفاته وتدابيره: ﴿هُوَ﴾ أي: الذي بلغت لكم بوحي الله من إحاطة الحق، وشموله لجميع ما لمع عليه بروق تجلياته ﴿نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ [ص: 67] وخبر خطير، يخبركم به الحق، وينبهكم عليه من كمال إعطافه وإشفاقه؛ لينقذكم به عن عذابه المترتب على كفركم وشرككم.

﴿أَنتُمْ﴾ من كمال توغلكم في الجهل والظلال ﴿عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ [ص: 68] مع أنه أنفع لكم وأصلح بحالكم، وهو سبحانه أعلم بشأنكم منكم، وبمقتضى علمه بحالكم، أنزل كتابه عليكم ليرشدكم إلى جهة معرفته ووجهة توحيده، ومالي إلا تبليغ ما أُوحي إلي كسائر الرسل.

إذ ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ﴾ أي: الملائكة السماويين ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [ص: 69] وقت خلافة آدم ونبوته ونيابته، فألهمني الله بوحيه ما جرى عليهم من الحجج والمعارض، وإفحامهم بعد جدالهم واصطفاء الله إياه، وأمرهم بسجوده تكريمًا وتعظيمًا.

وبالجملة: ﴿إِن يُوحَىٰ﴾ أي: ما يوحى ﴿إِلَيَّ﴾ من عند ربي ﴿إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [ص: 70] أي: إنما أنا منذر لكم عن أن يفتنكم الشيطان وجنوده المرتكزة في

هياكلكم، فيضلوكم عن سبل السلامة وطرق الاستقامة الموصلة إلى وحدة ذات الحق وكمال أسمائه وصفاته.

اذكر يا أكمل الرسل ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ الذي رباك على مقتضى الجمعية المنتهية إلى الوحدة الذاتية التي جئت لإظهارها وإيضاح منهجها ﴿لِلْمَلَائِكَةِ﴾ المهيمين بمطالعة وجهه الكريم على سبيل المشورة معه؛ ليظهر كرامة آدم وجلالة قدره: ﴿إِنِّي﴾ بمقتضى بدائع صنعتي وغرائب قدرتي ﴿خَالِقٌ﴾ أي: مظهر موجد ﴿بَشَرًا﴾ أي: جسدًا متخذًا ﴿مِّن طِينٍ﴾ [ص: 71] [1] ليكون مرآة يتراءى فيها عموم أوصافي وأسمائي.

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ﴾ وعدلت قالبه على الوجه الذي جرى في حضرة علمي ولوح قضائي ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ﴾ بعد تعديله ﴿مِن رُّوحِي﴾ أي: أفيض عليه من حياتي ومن مقتضيات أسمائي وصفاتي؛ ليستحق بخلافتي ونيابتي، ويظهر فيه ومنه آثار أسمائي وصفاتي ﴿فَقَعُوا لَهُ﴾ وخرُّوا عنده؛ لتعظيمه وتكريمه ﴿سَاجِدِينَ﴾ [ص: 72] [2] متذللين له، واضعين جباهكم على تراب المذلة دونه.

ثم لما سمع الملائكة منه سبحانه ما سمعوا ﴿فَسَجَدَ﴾ له ﴿الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ

---

(1) هذه أول معارضة ظهرت من إبليس في صنعة الجدال، فإنه جادل ربه وما أحسن في جداله؛ لأنه ما أعطي حقه إن الحق تعالى أراد بقوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ أي: يد تنزيه وتشبيه، وإن شئت قلت: يد وجوب وإمكان، أو يد بخلاف سائر العالم مُلكًا وفلكًا، فقد وقع في قياس النار والطين، ولم ير أنوار جمال الحق التي ظهرت من وجه آدم، وهكذا حال المدعين والسالوسيين والمرائين المداهنين في حق أوليائه، لا جرم كان مخاطبًا بالطرد والإبعاد إلى يوم الميعاد، حتى لا يذوق حلاوة برد الوصال، ولا يرى أنوار الجمال والجلال، ولا يدرك فضائل الأنبياء والأولياء إلى أبد الآباد، بل إذا يرى أثر سلطنة ولايتهم وعزة أحوالهم، يذوب كما يذوب الملح في الماء، ولا يبقى له حيل، ولا يطيق أن يمكر بهم، بل ينسى في رؤيتهم جميع مكرياته، ولا يطيق أن يرمي إليهم من أسهم وسوسته، سبل وسوسته تلحق بأهله لا بأهل الحق.

(2) بيّن الله سبحانه ههنا تفضيل آدم على الملائكة المقربين؛ فالخطاب لأكابرهم؛ إذ كان روحه خلقت قبل أرواحهم؛ إذ روحه تكونت من ظهور تجلي الحق بجميع الذات والصفات كاملة بخلعة كسوة الربوبية التي ألبسها الحق حتى صارت مرآة يتجلى منها للعالمين، وبقيت في أول الأول في مشادة أنوار الأزليات والأبديات، ولو كانت الملائكة بهذه المثابة لكانت معها في الكينونية من سنا برق تجلي الحق، وعرفتها بالأهلية، فإذا كانت الملائكة نازلة من درجاتها وصارت محجوبة عن رؤية ظهورها في العالم احتاجت إلى إعلام الحق بذلك، فلما علم الحق أنهم جهلوا حقائق وجود آدم لم يذكر ههنا ذكر روحه معهم، وقدم ذكر الصورة من قلة عرفانهم شرف روحه، فهو عين هذا النفس بفتح الفاء، فقبلته الصورة على حسب استعدادها، وقابليتها.

﴿أَجْمَعُونَ﴾ [ص: 73] امتثالاً للأمر الوجوبي ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ المعدود من عدادهم، المنخرط في سلوكهم ﴿اسْتَكْبَرَ﴾ عن سجوده وتعظيمه ﴿وَكَانَ مِنَ الكَافِرِينَ﴾ [ص: 74] بترك الانقياد للأمر الإلهي.

﴿ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ﴿٨١﴾ ﴾ [ص: 75-81].

ثم لما امتنع إبليس عن إطاعته وتعظيمه مع ورود الأمر الوجوبي من قبل الحق ﴿قَالَ﴾ معاتبًا عليه مناديًا له سائلاً عن سبب امتناعه: ﴿يَا إِبْلِيسُ﴾ المستكبر المتخلف عن أمرنا ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ﴾ أي: أي شيء منعك عن سجود التكريم ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ وصورته بقدرتي، وبمقتضى صورتي، وبكمال حولي وقوتي؛ ليكون مرآتي ويليق بخلتي وخلافتي ﴿أَسْتَكْبَرْتَ﴾ عن طاعة حكمنا وامتثال أمرنا ﴿أَمْ كُنتَ﴾ احتسبت نفسك ﴿مِنَ العَالِينَ﴾ [ص: 75] المتفوقين عليه، بحيث لا تجوّز لنفسك أن تتذلل عنده وتنقاد له؟.

وبعدما سمع اللعين منه سبحانه الخطاب المشتمل على أنواع العتاب ﴿قَالَ﴾ اللعين بعدما اختار الشق الثاني من الترديد: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ صورة ومادة؛ إذ ﴿خَلَقْتَنِي﴾ بكمال قدرتك ﴿مِن نَّارٍ﴾ هي أعلى العناصر وأرفعها قدرًا وإمكانًا ﴿وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [ص: 76] هي أسفل العناصر وأرذلها قدرًا وأدناها مكانًا، والأمر بسجود الأفضل الأعلى للأرذل الأدنى غير موافق ومطابق لحكمتك المتقنة.

ثم لما خرج إبليس عن ربقة الإطاعة التعبدية، وأتى بالحجة الإقناعية الجدلية ﴿قَالَ﴾ سبحانه مغاضبًا عليه من كمال غيرته وقهره: أنّى يطيق أحد من مظاهره ومصنوعاته أن يخالف أمره ويحتج عليه؟ ﴿فَاخْرُجْ مِنْهَا﴾ أي: من مرتبة الملكية وأعلى مرتبة العبودية ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ [ص: 77] مرجوم مطرود عن سعة رحمتنا، وشرف عز حضرتنا، ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي﴾ أي: طردي وتبعيدي عن ساحة عز قربتي، مستمرة عليك ﴿إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ [ص: 78] وبعد ذلك عذابك مؤبد أبدَ الآبدين.

ثم لما قنط إبليس عن روح الله وسعة رحمته ﴿قَالَ﴾ بعدما آيس مناجيًا: ﴿رَبِّ﴾ يا من رباني على فطرة الإطاعة، فعصيت أمرك بشؤم عُجبي ونخوتي ﴿فَأَنظِرْنِي﴾ وأمهل علي، بعدما بعدتني عن كنف قربك وجوارك، وطردتني عن محل كرامتك وجودك ﴿إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [ص: 79].

﴿قَالَ﴾ سبحانه: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ [ص: 80-81] وهو النفخة الأولى.

﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ (٨٤) لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٥) قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ (٨٦) إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (٨٧) وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ (٨٨)﴾ [ص: 82-88].

وبعدما أنظره سبحانه وأنجح مسئوله ﴿قَالَ﴾ إبليس مقسمًا مبالغًا في التهديد لبني آدم: ﴿فَبِعِزَّتِكَ﴾ وجلالك ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾ أي: لأضلنَّ بني آدم عن جادة التوحيد ﴿أَجْمَعِينَ﴾ [ص: 82] إذ لا يسع لهم أن يسدوا مداخلي فيهم، وطرق مخادعتي إياهم.

﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: 83] وهم الموقنون المخلصون، الذين أخلصوا في عموم أعمالهم وأحوالهم معك، واعتصموا بحبل توفيقك، راجين رحمتك ورضوانك، هاربين من سخطك بلا ميل لهم إلى ما يلهيهم عن ربهم.

﴿قَالَ﴾ سبحانه في جوابه إظهارًا لكمال الاستغناء والقدرة: ﴿فَالْحَقُّ﴾ ما قلت لك في هذه النشأة يا ملعون، من الطرد والتبعيد، وإنظارك فيما بينهم للاختبار والاعتبار ﴿وَالْحَقَّ أَقُولُ﴾ [ص: 84] أي: أقول الحق أيضًا فيما يترتب على إغوائك وإغرائك إياهم، واتباعهم لك، وما يترتب على متابعتهم في النشأة الأخرى.

وهو هذا: والله ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ المشتملة على الأودية السبعة، المملوءة من نار الخذلان والحرمان، المعدة لأصحاب الشقاوة الأزلية من المنحرفين عن جادة العدالة الإلهية، الضالين عن صراطه السوي ﴿مِنكَ﴾ أي: من جنسك الذي هم من الجن ﴿وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ أي: من جنس الإنس ﴿أَجْمَعِينَ﴾ [ص: 85] تابعًا ومتبوعًا، ضالاً ومضلاً.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل بعدما بلغت ما يوحى إليك من الحق الصريح على وجهه بلا خلط وخبط وزيادة ونقصان كلامًا ناشئًا عن محض الحكمة والعدالة: ﴿مَا

﴿أَسْأَلُكُمْ﴾ أيها المكلفون ﴿عَلَيْهِ﴾ أي: على تبليغي إياكم ما أُمرت بتبليغه ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ أي: جعل ومال على عادة أصحاب التلبيس من المتشيخين، اللذين هم من أعونة إبليس وأنصاره ﴿وَمَا أَنَا﴾-أيضًا ﴿مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: 86] المتصفين بخصائل ليست فيهم على سبيل التبليس والتدليس.

بل ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي: ما هذا القرآن المنزل علي ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ أي: عظة وتذكير ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ [ص: 87] من الثقلين المكلفين بالهداية والإيمان والتوحيد والعرفان.

﴿وَلَتَعْلَمُنَّ﴾ أيها المتذكرون بتذكيراته، والمعرضون عنها ﴿نَبَأَهُ﴾ أي: صدق إخباره ومواعيده ووعيداته، وما يترتب عليها وعلى قصصه وأحكامه، وما ينكشف من حكمه ورموزه وإشارته ﴿بَعْدَ حِينٍ﴾ [ص: 88] أي: بعد انخلاعكم عن لوازم ناسوتكم، واتصافكم بخلع اللاهوت في النشأة الأخرى، حين تُبلى السرائر، وتُكشف الضمائر، وترتفع الحجب والأستار، فاعتبروا الآن يا أولي الأبصار، وذوي الاعتبار ما فيه من السرائر والأسرار.

خاتمة السورة

عليك أيها السالك المتأمل في مرموزات القرآن، والمتدبر في درك إشاراته الخفية تحت أستار ألفاظه وأحكامه المتعلقة لتهذيب الظاهر والباطن، وتصفية السر عن التوجه نحو الغير مطلقًا، أن تعرف أولاً ما في نفسك من أعونة الشيطان وجنوده الأمارة بالسوء، المزعجة لك إلى قبول مأموراتها المقتضية للبعد عن جادة العدالة التوحيدية الإلهية، التي هي صراط الله الأقوم، وتجاهد معها مهما أمكنك وأعانك الحق ووفقك لتسخيرها إلى أن صارت مغلوبة لك مقهورة تحت قهرك، حسبما يسر الله ووفقك على غلبته.

ثم بعد ذلك نبع من صدرك ينابيع الحكمة المترشحة من بحر الوحدة الذاتية، وجرى على لسانك ما أراد الله جريه وشاء، بعدما أفناك عنك، وأبقاك ببقائه، وصار سبحانه قلبك وسمعك وبصرك وجميع قواك، وحينئذ اجتمع الفرق، وارتبق الفتق، واتحد الظهور والبطون، وانطوى الأزل والأبد، واتصل الأول والآخر والظاهر والباطن.

وبالجملة: هو بكل شيء عليم ليس كمثله شيء ولا معه حي، وهو الحي القيوم السميع العليم.

سورة الزمر

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة سورة الزمر

لا يخفى على الموحدين المحمديين المندرجين من سفل الإمكان وحضيض التقييد إلى أوج الوجوب وذروة الإطلاق، التي هي الوحدة الذاتية المنطوية دونها الكثرات مطلقًا، أن الوصول إلى هذا المطلب الأعلى والمقصد الأسنى إنما هو بتوفيق الحق على متابعة كتبه وإطاعة رسله المرسلين من عنده سبحانه؛ لتبيين ما في كتبه من الحكم والأحكام والمعارف والحقائق المرموزة فيها.

ولا شك أن أفضل الكتب وأكمل الرسل هو القرآن ونبينا محمد ﷺ، فمن تمثل بمقتضيات كتاب الله، وتمسك بسنن صدرت من معدن الرسالة وأحاديث شاعت واستفاضت من مشكاة النبوة والولاية، فقد أفاض عليه الحق من سجال لطفه وفضله، وفاز بما جبل لأجله.

لذلك أخبر سبحانه حبيبه ﷺ، وأوصاه بامتثال ما في كتابه المنزل عليه، وتبليغه إلى من وفق بمتابعته، وجبل من زمرته، وهُدي بإرشاده وهدايته، فقال بعدما تيمن باسمه الأعظم المشتمل على كل أسمائه الحسنى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي أنزل كتابه معربًا عما فصله في حضرة علمه ولوح قضائه ﴿الرَّحْمَنِ﴾ لعموم عباده بإنزال الكتاب إليهم؛ ليهديهم إلى درجات جنانه ﴿الرَّحِيمِ﴾ لخواصهم، يوصلهم إلى وحدة ذاته، بعدما أفناهم عن مقتضيات تعيناتهم المقتضية للكثرة.

﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ۚ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ سُبْحَانَهُ ۖ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٤﴾﴾ [الزمر: 1-4].

﴿تَنزِيلُ الكِتَابِ﴾ المبين لطريق التوحيد، المنبه على وحدة الحق وكمالات أسمائه الحسنى وأوصافه العظمى ﴿مِنَ اللهِ﴾ المدبر لجميع ما جرى في ملكه وملكوته؛ إذ لا منزل في الوجود سواه سبحانه ﴿العَزِيزِ﴾ الغالب في أمره بالاستقلال والاختيار ﴿الحَكِيمِ﴾ [الزمر: 1] [1] المتقن في فعله حسب علمه المحيط وقدرته الشاملة وإرادته الكاملة.

وبعدما بيَّن سبحانه أمر التنزيل عمومًا أشار إلى التنزيل المخصوص المتمم المكمل لأمر التنزيل والإنزال مطلقًا، فقال مشيرًا إلى عظم قدر المنزل إليه، وجلالة شأنه، ورفع رتبته ومكانه: ﴿إِنَّا﴾ من مقام عظيم جودنا ﴿أَنزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ يا أكمل الرسل تعظيمًا لشأنك وتأييدًا لأمرك ﴿الكِتَابَ﴾ الجامع لجميع ما في الكتب السالفة، مع زوائد خلت عنها كلها ملتبسًا ﴿بِالْحَقِّ﴾ المطابق للواقع بلا شوب شك وريب في نزوله منّا ﴿فَاعْبُدِ اللهَ﴾ الذي اصطفاك لرسالته وخصصك بكتابه، هذا حال كونك شاكرًا لنعمه، معترفًا بكرمه ﴿مُخْلِصًا﴾ في عبوديتك وعبادتك إياه، مجتنبًا عن مداخل الشرك ورعونات الرياء مطلقًا؛ إذ ﴿لَّهُ الدِّينَ﴾ [الزمر: 2] أي: لا مستحق للإطاعة الخالصة والانقياد الصافي سواه، ولا يعبد بالحق إلا إياه.

وبعدما أمر سبحانه بالعبادة والإخلاص في الإطاعة والانقياد، نبه على عموم عباده بالإخلاص في الطاعات، والخلوص في نيات العبادات، فقال: ﴿أَلَا للهِ الدِّينُ الخَالِصُ﴾ [2] أي: تنبهوا أيها المجبولون على فطرة التوحيد أن الدين الذي كلفكم

---

(1) قال الورتجبيي: أي: هذا تنزيل الكتاب، وهو القرآن، وهو وصفه القديم، بدا منه بنعت التجلي، وأنزل من عنده للأمر ولأحكام ظهوره بنعت الصفة للخصوص وبنعت النزول للعموم، هو العزيز من حيث لا تفارق صفته عن ذاته، وهو الحكيم من حيث منع عباده التمتع بكشفه وإنزاله رحمة للعموم والخصوص، قال الأستاذ: كتابٌ عزيزٌ نزل من ربٍّ عزيزٍ على عبدٍ عزيزٍ بلسان ملكٍ عزيز في شأن أمة، عزيز بأمر عزيز ورد الرسول عن الحبيب الأول بعد التلاقي بعد طول يزيل نزهة قلوب الأحباب بعد ذبول غصن سرورها في كتب الأحباب عند قراءة فصولها والعجب منها، كيف لا ترهق سرورًا بوصلها وارتياحًا بحصولها!

(2) قال الأستاذ: الدين الخالص ما تكون جملته لله؛ فما للعبد فيه نصيب فهو من الإخلاص بعيد، اللهم أن يكون بأمره؛ إذا أَمَرَ العبدَ أن يحتسب الأجرَ على طاعته فإطاعته لا تخرجه عن الإخلاص باحتسابه ما أمره به، ولولا هذا لَمَا صحَّ أنْ يكونَ في العَالَم مُخْلِص. «تفسير القشيري» (7/ 12).

الحق عليه، وأوجبه عليكم، هو الدين الخالص عن أمارات الشرك ومقتضيات الهوى، الصافي عن شوب العجب والسمعة وشين الرياء، وبعدما وضح أن الدين الخالص لله، ولا مستحق له سواه.

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ أي: والمشركون الذين ادعوا الولاية لغير الله، واستحقاق الإطاعة والانقياد لسواه، قالوا في تعليل اتخاذهم حين سئلوا عنه ونجوا عليه: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ﴾ أي: هؤلاء الغرانيق العلا التي هي الأصنام والأوثان، وجميع ما يعبد من دونه سبحانه ﴿إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى﴾ أي: تقريبًا كاملاً؛ لأنهم كملة مقبولون عنده، مكرمون لديه سبحانه، فنتوسل بهم؛ لنتصل إلى قرب الحق وجواره.

لا تبالوا أيها الموحدون المتمسكون بحبل التوفيق الإلهي بقولهم هذا، ولا تلتفتوا إلى أباطيلهم الزائغة ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المطلع لما في ضمائرهم من الشرك والعناد على سبيل الرشاد والثبات ﴿يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ وبينكم بمقتضى علمه وخبرته ﴿فِي مَا هُمْ فِيهِ﴾ من الشرك ﴿يَخْتَلِفُونَ﴾ معكم أيها الموحدون بأن يدخلهم في النار بأنواع المذلة والهوان، ويوصلكم إلى الجنة بالمغفرة والرضوان، وكيف لا يدخل سبحانه المشركين النيران بأنواع الخزي والهوان ﴿إِنَّ اللهَ﴾ الحكيم المتقن في أفعاله ﴿لَا يَهْدِي﴾ أي: لا يوفق على الهداية والرشاد ﴿مَنْ هُوَ كَاذِبٌ﴾ في حق الله ومقتضى ألوهيته وربوبيته، واستقلاله في ملكه وملكوته ﴿كَفَّارٌ﴾ [الزمر: 3] بنعمه الموهوبة له من فضله وكرمه.

حيث أثبت له سبحانه شريكًا وولدًا مع أنه ﴿لَوْ أَرَادَ اللهُ﴾ الواحد الأحد الصمد، المستقل في الألوهية والوجود، المنزه عن الأهل والولد ﴿أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ ويختار صاحبةً ﴿لَاصْطَفَى﴾ واختار ﴿مِمَّا يَخْلُقُ﴾ أي: من بين سائر مخلوقاته في جميع شئونه وحالاته ﴿مَا يَشَاءُ﴾ أولى وأنسب له، وأليق بشأنه من مريم وعيسى، فكيف من الأصنام والأوثان ﴿سُبْحَانَهُ﴾ أي: تعالى شأنه وتنزه ذاته الواحد الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد عن إيجاد الصاحبة والولد، بل ﴿هُوَ اللهُ الْوَاحِدُ﴾ من جميع الوجوه، المستقل بالألوهية والوجود ﴿الْقَهَّارُ﴾ [الزمر: 4] لعرق السوى والأغيار مطلقًا قطعًا لعرق الشركة عن أصله.

﴿خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ

﴿٥﴾ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾﴾ [الزمر: 5-6].

وبمقتضى توحيده سبحانه وقهره، وإظهار كمالاته المندمجة في وحدة ذاته باعتبار شئونه وتطوراته اللازمة للحي الأزلي الأبدي ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ أي: قدر وأعد الأسماء الذاتية الفعالة، المنعكسة من شئونه الذاتية والأوصاف القابلة المنفعلة من تلك الأسماء المظهرة لآثارها ملتبسًا ﴿بِالْحَقِّ﴾ المطابق للواقع، ولا ينبغي أن يرتاب فيه أحد بعدما انكشف بسرائر الوجود والتوحيد حسب الود الإلهي، وبمقتضى هذا الازدواج المعنوي الجاري بين الأوصاف والأسماء الإلهية ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ أي: يغشي ويغيب سبحانه على وجه التلفيف والتخليط أضواء الأسماء والصفات بظلام الهيولي والتعينات في النشأة الأولى، فكذلك يغطي ويغيب في النشأة الأخرى حجب الطبائع وأظلال الهويات بأشعة أنوار الذات المتشئة منها، بمقتضى الشئون والتطورات المثبتة للأسماء والصفات الإلهية.

﴿وَ﴾ بعدما كمل أمر الظهور والإظهار، وانبسط على عروش ما ظهر وبطن بالاستيلاء والاستقلال ﴿سَخَّرَ الشَّمْسَ﴾ أي: جذب وقبض نحوه سبحانه بمقتضى الجاذبة المعنوية الحبية الكاملة الوجود المطلق، الفائض على هياكل الموجودات المنعكسة من الأسماء والصفات الإلهية ﴿وَالْقَمَرَ﴾ أي: الهويات القابلة لانعكاس شمس الذات المستخلفة عنها، إظهارًا لكمال قدرته ومتانة حكمته؛ لذلك ﴿كُلٌّ﴾ من كل أهل العناية ﴿يَجْرِي﴾ يكون ويدوم في مكانه ومكانته من التعينات موقوف ﴿لأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ أي: إلى حلول أجل معين مقدر من عند ربه بمقتضى جذبه وعنايته، فإذا حل الأجل، انقطع الجري والسير وارتفع السلوك.

﴿أَلا﴾ أي: تنبهوا أيها الأظلال الهالكة في شمس الذات ﴿هُوَ﴾ أي: الموصوف بهذه الصفات الكاملة ﴿الْعَزِيزُ﴾ المنيع ساحة عز ذاته عن أن يحوم حول سرادقات عزه وجلاله بإدراك العقول المتحيرة والأوهام المدهوشة، لكنه ﴿الْغَفَّارُ﴾ [الزمر: 5] الستّار لغيوم تعيناتكم بإشراق شمس الذات، وانقهار جميع ما لمع عليه نور الوجود على مقتضى جلاله وتفرده في نعوت كماله.

﴿خَلَقَكُم﴾ أي: أظهركم وأوجدكم بالتجليات الجمالية ﴿مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ وهي طبيعة العدم القابلة لانعكاس أشعة نور الوجود ﴿ثُمَّ جَعَلَ﴾ وأظهر ﴿مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ إبقاءً للتناسل، وتتميمًا للازدواجات الغير المتناهية حسب الأسماء والصفات المتقابلة، الغير المتناهية الإلهية، إظهارًا لكمال القدرة.

﴿وَ﴾ بعدما أتم سبحانه أمر إيجادكم وإثباتكم ﴿أَنزَلَ لَكُم﴾ أي: قسّم وقضى لأجلكم تتميمًا لأمور معاشكم عناية منه وتكريمًا ﴿مِّنَ الْأَنْعَامِ﴾ المناسبة لتغذيتكم وتقوية أمزجتكم ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ ذكرًا وأنثى على مقتضى جبلتكم لتدوم بدوامكم، وهي الأصناف الثمانية المذكورة في سورة الأنعام ، هذا في ظهوركم وبروزكم في عالم الشهادة، وفي عالم الغيب والبطون ﴿يَخْلُقُكُمْ﴾ ويقدر موادكم ﴿فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ﴾ أي: تقديرًا بعد تقدير أعجب وأغرب من سابقه؛ بأن قدركم أولاً نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ثم سواك إنسانًا، ونفخ فيكم روحًا من روحه، وبالجملة: أظهركم بعدما أخفاكم مدة ﴿فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ هي أصلاب آبائكم وحجب تعيناتكم وبطون أمهاتكم.

﴿ذَٰلِكُمُ﴾ الذي فعل بكم هذه الأفعال الجميلة المتقنة ﴿اللَّهُ﴾ المستقل بالألوهية والتصرف في ملكه وملكوته ﴿رَبُّكُمْ﴾ الذي رباكم وأحسن تربيتكم لا مربي لكم سواه؛ إذ ﴿لَهُ الْمُلْكُ﴾ والملكوت خاصة لا يشارك في ملكه، ولا ينازع في سلطانه وشأنه، فظهر أنه ﴿لَا إِلَٰهَ﴾ يعبد له ويرجع إليه في الخطوب ﴿إِلَّا هُوَ﴾ الواحد الأحد الصمد الحقيق بالحقية، المستحق بالألوهية والربوبية ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [الزمر: 6] وتعدلون أيها المشركون المنحرفون عن جادة توحيده.

﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾ ۞ وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴿٨﴾﴾ [الزمر: 7-8].

مع أنكم أيها الأظلال المنهمكون في بحر الحيرة والضلال ﴿إِن تَكْفُرُوا﴾ بالله، وتنكروا ظهوره واستيلاءه على ما ظهر وبطن بالاستقلال ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾ المتعزز برداء

العظمة والكبرياء ﴿غَنِيٌّ عَنكُمْ﴾ وعن إيمانكم وإطاعتكم ﴿وَ﴾ غاية ما فيه أنه عزّ شأنه ﴿لَا يَرْضَىٰ﴾ ولا يحب ﴿لِعِبَادِهِ﴾ الذين ظهروا منه سبحانه بمقتضى أوصافه وأسمائه ﴿الْكُفْرَ﴾ والجحود بذاته سبحانه، عطفًا لهم وترحمًا عليهم؛ لأنهم جبلوا على فطرة الإيمان والعرفان، وإلا فهو سبحانه أعز وأعلى من أن يفتقر إلى إيمان أحد وإطاعته، أو يتضرر بكفره وإنكاره ﴿وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ أي: وكذا غني عنكم وعن شكركم نعمه الفائضة عليكم؛ إذ لا يعلل فعله سبحانه بالأغراض والأعواض، لكن يرضى عنكم لو شكرتم نعمه، ويزيد عليكم بأضعافها لإتيانكم بالمأمور وامتثالكم أمره، مع أن نفع شكركم عائد إليكم.

﴿وَ﴾ بالجملة: لا بدّ لكل واحد من المكلفين أن يمتثلوا بما أُمروا من عنده سبحانه، حتى يصلوا ما وعدوا من المثوبات والكرامات، واجتنبوا عما نهوا أيضًا عنه؛ ليخلصوا من المهالك والدركات؛ إذ ﴿لَا تَزِرُ﴾ تحمل نفس ﴿وَازِرَةٌ﴾ مرتكبة بحمل أثقال الأوزار والآثام ﴿وِزْرَ﴾ نفس ﴿أُخْرَىٰ﴾ كما لا تتصف بحسناتها ﴿ثُمَّ﴾ بعد انقضاء النشأة الأولى ﴿إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ﴾ كافة كما كان منشأكم ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾ ويخبركم سبحانه بعد رجوعكم إليه ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: بجميع ما جرى عليكم من سيئاتكم وحسناتكم، بلا فوت شيء منها، ويجازيكم على مقتضاها، وكيف لا يخبركم ويحاسبكم بأعمالكم ﴿إِنَّهُ﴾ بذاته ﴿عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الزمر: 7] أي: بجميع الأمور الكائنة المكنونة في صدور عباده؛ أي: بما خفي في ضمائرهم ونياتهم، فكيف بما صدر عن جوارحهم وآلاتهم.

وبعدما نبه سبحانه إلى أحوال عباده، شرع يعد مساوئهم وأخلاقهم الذميمة الناشئة من بشريتهم وبهيمتهم، فقال: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ﴾ أي: لحقه وأحاط به ﴿ضُرٌّ﴾ مؤلم مزعج ﴿دَعَا رَبَّهُ﴾ متضرعًا نحوه ﴿مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ إذ لا مرجع له سواه، ملحًا لكشفه وإزالته ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ﴾ سبحانه وأزال عنه كربه وضره، وأعطاه وأفاض عليه متعهدًا له، متفقدًا حاله ﴿نِعْمَةً﴾ موهوبة له ﴿مِّنْهُ﴾ أي: من لدنه سبحانه تفضلاً وتكريمًا إياه ﴿نَسِيَ﴾ ونبذ وراء ظهره ﴿مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾ عن شدة ضره، وسورة كربه.

﴿وَ﴾ مع ذلك لم يقتصر على النبذ والنسيان، بل ﴿جَعَلَ﴾ وأثبت ﴿لِلَّهِ﴾ الصمد المنزه عن الضد والند ﴿أَندَادًا﴾ وادعاهم شركاء له سبحانه، وإنما جعل وفعل كذلك ﴿لِّيُضِلَّ﴾ الناس الناسين عهود ربهم ﴿عَن سَبِيلِهِ﴾ ويحرفهم عن طريق توحيده، ساعيًا

في إغوائهم وإضلالهم، مجتهدًا فيه.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل نيابة عنّا مهددًا إياه: ﴿تَمَتَّعْ﴾ أيها الضال المضل ﴿بِكُفْرِكَ﴾ هذا في نشأتك هذه ﴿قَلِيلاً﴾ زمانًا قليلاً، ومدة يسيرة ﴿إِنَّكَ﴾ ألبتة في النشأة الأخرى ﴿مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ [الزمر: 8] أي: من ملازميها، ومن جملة ما فيها.

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأَخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ ﴾ [الزمر: 9-10].

ثم قال سبحانه: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ﴾ أي: يتعجب المشرك المثبت لنا شركاء وأندادًا من تهديدنا إياه بالنار وعذابها، فيظن أن من هو قائم على أداء العبادات، مواظب عليها ﴿آنَاءَ اللَّيْلِ﴾ أي: في خلاله وأطراف النهار ﴿سَاجِدًا﴾ متذللاً واضعًا جبهته على تراب المذلة من خشيتنا ﴿وَقَائِمًا﴾ على قدميه مدة متطاولة تعظيمًا لأمرنا، مع أنه ﴿يَحْذَرُ الْآخِرَةَ﴾ أي: العذاب الأحق فيها بمقتضى جلالنا وسخطنا ﴿وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ على مقتضى لطفه وجلاله وجماله كهؤلاء الكفرة بالله، الجهلة بشأنه، المتخذين له سبحانه أندادًا ظلمًا وزورًا، مع تعاليه عنه سبحانه.

وبعدما تفرست يا أكمل الرسل منهم هذا الظن والتسوية ﴿قُلْ﴾ لهم على سبيل التبكيت والإلزام، مستفهمًا إياهم على سبيل التوبيخ والتقريع: ﴿هَلْ يَسْتَوِي﴾ المكلفون ﴿الَّذِينَ يَعْلَمُونَ﴾ الحق بذاته وأسمائه وأوصافه، ويعبدون له سبحانه بمقتضى علمهم به، وبأوامره ونواهيه ﴿وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذاته ولا شيئًا من أوصافه وأسمائه، ولا يعبدون له أيضًا؟ كلا وحاشا، من أين تتأتى المساواة، فشتان ما بين العالم والجاهل، والعابد والعاصي، إلا أنه ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: 9] أي: ما يتذكر ويتعظ بأمثال هذه المواعظ والتذكيرات المنبهة على سرائر التوحيد، إلا أولو الألباب الناظرون إلى لُبِّ الأمور، المعرضون عن قشوره.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل نيابة عنّا مناديًا لخلص عبادنا: ﴿يَا عِبَادِ﴾ أضافهم إلى نفسه اختصاصًا وتكريمًا ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ منكم بوحدة ذاتي وظهوري حسب شئوني وتطوراتي بمقتضى أسمائي وصفاتي، مقتضى إيمانكم التقوى عن مقتضيات الهوى

﴿اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ واجتنبوا عن محارمه ومنهياته، واتصفوا بمأموراته، واعلموا أنه ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ الأدب مع الله ﴿فِي هَذِهِ الدُّنْيَا﴾ التي هي نشأة الاعتبار والاختبار ﴿حَسَنَةٌ﴾ وبأضعافها وآلافها أيضًا في الآخرة التي هي دار القرار، فاعتبروا يا أولي البصائر والأبصار.

فعليكم الإتيان بالإحسان في كل حين وأوان وزمان ومكان ﴿وَ﴾ لا تفتروا عنه، وعن المواظبة عليه بتفاقم الأحزان وتلاطم أمواج الفتن في الأوطان؛ إذ ﴿أَرْضُ اللَّهِ﴾ المعدة لأداء العبادات والاشتغال بالطاعات ﴿وَاسِعَةٌ﴾ فسيحة، فعليكم الجلاء لأجل الفراغ والخلاء، فتهاجروا إليها متحملين ما لحقكم من الشدائد والمتاعب في الانتقال، صابرين على مفارقة الأوطان والخلان، ومصادفة الكروب والأحزان، واعلموا ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ﴾ المتحملون لأنواع الشدائد والمشاق في طريق الإيمان ﴿أَجْرَهُم﴾ ويوفر عليهم الحسنات وأنواع المثوبات والكرامات ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: 10] إلى توفية وتوفير لا يمكن ضبطه بالعد والإحصاء تفضلاً عليهم وتكريمًا.

وفي الحديث صلوات الله على قائله: «تنصب الموازين يوم القيامة لأهل الصلاة والصدقة والحج، فيوفون بها أجورهم، ولا ينصب لأهل البلاء، بل يصب عليهم الأجر، حتى يتمنى أهل العافية في الدنيا أن أجسادهم تقرض بالمقاريض، مما يذهب به أهل البلاء من الفضل»[1].

﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي ﴿١٤﴾ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ ﴿١٦﴾﴾ [الزمر: 11-16].

ثم قال سبحانه آمرًا لحبيبه بالتوصية والتبليغ لعموم عباده كلامًا ناشئًا عن محض الحكمة، خاليًا عن رعونات الرياء، متمحضًا للنصح والتكميل: ﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل

(1) ذكره القرطبي في تفسيره (211/15).

﴿إِنِّي أُمِرْتُ﴾ من قبل ربي ﴿أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ﴾ حق عبادته، وأطيعه حق إطاعته ﴿مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾ [الزمر: 11] والانقياد الصادر مني، لأتسبب بإطاعتي وانقيادي على وجه الإخلاص كي أعرفه حق معرفته، ويفيض على قلبي زلال توحيده وكرامته.

﴿وَأُمِرْتُ﴾ أيضًا من عنده ﴿لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الزمر: 12] أي: أسبق المسلمين المفوضين أمورهم كلها إليه، منخلعين عن لوازم بشريتهم ومقتضيات أهوية هويتهم. ثم ﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل: ﴿إِنِّي﴾ مع كمال وثوقي بكرم الله وسعة رمته ووفور فضله وجوده علي ﴿أَخَافُ﴾ خوفًا شديدًا ﴿إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ وخرجت عن عروة إطاعته وانقياده ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الزمر: 13] فظيع؛ لعظم ما فيه من الجزاء المترتب على الجرائم العظام.

وبعدما بلغت ما بلغت ﴿قُلِ﴾ يا أكمل الرسل على وجه الحصر والتخصيص: ﴿اللَّهَ أَعْبُدُ﴾ لا غير؛ إذ لا غير معه ﴿مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي﴾ [الزمر: 14] حسب وسعي وطاقتي.

﴿فَاعْبُدُوا﴾ أيها المنهمكون في بحر الغي والضلال ﴿مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ﴾ سبحانه بمقتضى أهويتكم الفاسدة وآرائكم الكاسدة، واعلموا أنه ما يترتب على عبادة غير الله إلا الخيبة والخسران ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ بعبادة غير الله والانحراف عن جادة توحيده، ﴿وَ﴾ خسروا ﴿أَهْلِيهِمْ﴾ أيضًا بالإغواء والإضلال ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ المعدة لجزاء الأعمال ﴿أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الزمر: 15] والحرمان العظيم، نعوذ بك منه يا ذا القوة المتين.

وكيف لا يكون خسران المشركين مبينًا وحرمانهم عظيمًا؛ إذ ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ﴾ وأطباق ﴿مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ كذلك بالنسبة إلى من في الطبقة السفلى؛ لأن دركات النيران مثل دركات الإمكان متطابقة بعضها فوق بعض، فيكون سكانها أيضًا كذلك ﴿ذَٰلِكَ﴾ العذاب الذي سمعت وصفه ﴿يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ﴾ في دار الاختبار، ويحذرهم عنه، ثم ناداهم؛ ليقبلوا إليه ويعتبروا من تخويفه، فقال: ﴿يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾ [الزمر: 16] واحذروا من بطشي وتعذيبي.

﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾﴾

﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ ﴿١٩﴾ لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾﴾ [الزمر: 17-20].

﴿وَ﴾ المؤمنون الموحدون ﴿الَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ﴾ المبالغ في الطغيان العدوان، وهي الشيطان المضل المغوي، واستنكفوا ﴿أَن يَعْبُدُوهَا﴾ ويقبلوا منها سوستها، ويصغوا إلى إغوائها وتغريرها ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿أَنَابُوا﴾ ورجعوا ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ في النشأة الأولى على وجه الإخلاص والخضوع، نادمين عمّا صدر عنهم من الجراءة الجريمة ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى﴾ في النشأة الأخرى بالدرجة العليا والمثوبة العظمى.

﴿فَبَشِّرْ﴾ بها يا أكمل الرسل ﴿عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ﴾ [الزمر: 17-18] الحق الذي صدر منّا، ولا يمترون فيه، بل ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ ويمتثلون بما أمروا به، ويجتنبون عما نهوا عنه ﴿أُولَئِكَ﴾ السعداء الموفقون على استماع قول الحق والامتثال هم ﴿الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ﴾ إلى طريق توحيده، ووفقهم إلى الفناء فيه والبقاء ببقائه ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿أُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: 18] [1] الواصلون إلى لُبّ اللباب.

---

(1) ورد في التأويلات: عباد الله قد اجتنبوا طاغوت الهوى بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ﴾ [الزمر:17]، يشير إلى أن طاغوت كل أحد نفسه، وإنما يجتنب عبادة الطاغوت من خالف هوى نفسه، وعانق رضاء مولاه، ورجع إليه بالخروج عما سواه رجوعًا بالكلية، وبقوله: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِي * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [الزمر: 18] يشير إلى معانٍ كثيرة: منها: إن أهل البشارة من يكون مخصوصًا بخاصية العبدية التي هي فصاحة إلى الله؛ أي: يكون جسدًا عما سوى الله. ومنها: إنهم مبشرون بالوصول والوصال، كما قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ﴾ [الزمر: 18] إلى الحضرة. ومنها: إن الألف واللام في القول المعموم، فيقتضي أن لهم حسن الاستماع في كل قول من القرآن وغيره، ولهم أن يتبعوا أحسن من يحتمل كل قول إتباع درايته والعمل به، وأحسن كل قول ما كان من الله أو لله، أو يهدي إلى الله، وعلى هذا يكون استماع أتباع قول القوال من هذا القبيل. ومنها: إن القول يسمع الإنسان والشيطان والنفس والملك والإله ﷻ، فيسمع من الإنسان أن الحق والباطل، ومن الشيطان الباطل، فإنه يشير إلى المعاصي دعوة الشهوات مما لها فية نصيب، ومن الملك دعوة الطاعات، ومن الحق تعالى الخطاب في حقائق التوحيد والدعوة إلى الحضرة، كما قال تعالى: ﴿ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ﴾ [الفجر:28]، وقال: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ [المزمل:8]، فأحسن الأقوال قول الله، وأحسن الاستماع أن يستمعوا من الله، ومن عرف الله لا يسمع إلا بالله ومن الله، ومن أحسن

ثم قال سبحانه على وجه التنبيه والتأديب: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ﴾ أتسعى وتجتهد يا أكمل الرسل في تخليص من ثبت منّا في سابق قضائنا وحضرة علمنا الحكم بتعذيبه؛ يعني: أبا لهب وولده وأتباعه ﴿أَفَأَنْتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ﴾ [الزمر: 19] أي: أتظن وتعتقد في نفسك أنك تقدر على إنقاذ من هو مخلد في نار جهنم بمقتضى قهرنا وجلالنا، فلا تتعب نفسك فيما ليس في وسعك؛ إذ لا يبدل قولنا، ولا يغير حكمنا.

﴿لَكِنِ﴾ المؤمنين ﴿الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ﴾ في جميع شئونهم وحالاتهم، خائفين من قهره وغضبه، راجين رحمته ﴿لَهُمْ﴾ عند ربهم ﴿غُرَفٌ﴾ درجات علية ﴿مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ﴾ درجات أعلى منها، كأنها منازل ﴿مَّبْنِيَّةٌ﴾ على الأرض، بعضها فوق بعض على تفاوت طبقاتهم في مراتب القرب ﴿تَجْرِي﴾ على التعاقب والتوالي ﴿مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي: أنهار المعارف والحقائق المترشحة من بحر الذات على مقتضى الجود الإلهي، وما كان ذلك إلا ﴿وَعْدَ اللَّهِ﴾ الذي وعدها لخُلّص عباده الذين سلكوا في سبيله، متعطشين إلى زلال توحيده، فله أن ينجزه حتمًا؛ إذ ﴿لَا يُخْلِفُ اللَّهُ﴾ القادر المقتدر على جميع ما شاء وأراد ﴿الْمِيعَادَ﴾ [الزمر: 20] الذي وعده للعباد سيما لأهل العناية منهم.

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٢١﴾ أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الزمر: 21-22].

أتتعجب وتستبعد من الله إنجاز المواعيد الموعودة من عنده؟! ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أيها المعتبر الرائي ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ القادر المقتدر بالإرادة والاختيار ﴿أَنزَلَ﴾ وأفاض بمقتضى

أن يسمع من الله أحسن أن يسمع عباد الله، ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ﴾ [الزمر:18] بجذبات الطافه إلى أعطافه ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر:18] الذين عبروا عن قشرية الأشياء ووصلوا إلى ألباب حقائقها.

جوده المعهود ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي: عالم الأسماء والصفات ﴿مَاءً﴾ أي: حياة مترشحة من عين الوجود، وبحر الذات ﴿فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ﴾ أي: أدخله في ينابيع التعينات، والهويات المنعكسة من تلك السماء والصفات، وأجراه ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أي: الأرض الطبيعية القابلة لقبول الآثار الفائضة ﴿ثُمَّ﴾ بعد إخراجه عليها ﴿يُخْرِجُ بِهِ﴾ بمقتضى حكمته المتقنة ﴿زَرْعًا﴾ أي: هياكل أنواعًا، وأصنافًا مثمرة ثمر العقائد والمعارف والحقائق ﴿مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾ حسب اختلاف الاستعدادات الفائضة عليها من عنده.

﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ أي: بعدما ظهر منها ما ظهر، وترتب عليها ما ترتب، يجف وييبس إلى حيث يذهب نضارتها ورواؤها المترتب على الإمداد الإلهي ﴿فَتَرَاهُ﴾ حينئذ ﴿مُصْفَرًّا﴾ مشرفًا على الانهدام والانعدام ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ﴾ يقبض ما فيه من رشاشات الحياة ﴿حُطَامًا﴾ فتاتًا ورفاتًا، تذروه رياح الآجال، وتعيده إلى ما عليه من العدم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ المذكور ﴿لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: 21] أي: تذكيرًا بليغًا، وبرهانًا قاطعًا على وجوب وجود من هو منبع الجود، ومبدأ جميع الموجود، لا يطرؤه زوال، ولا يعرضه انتقال، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، إلا أنه يتذكر به، ولا يتنبه منه إلا أولو الألباب، الناظرون بنور الله على لُبِّ الأمور، المعرضون عن قشوره.

ثم قال سبحانه: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ﴾ يعني: أيستوي من وسع الله قلبه بنزول توحيده، ووفقه لقبل شرائع الإسلام ومعالم الدين المبين لدلائل التوحيد واليقين ﴿فَهُوَ﴾ بواسطة تشرح الله وتوفيقه إياه ﴿عَلَى نُورٍ﴾ انكشاف تام يقين كامل ﴿مِّن رَّبِّهِ﴾(1) بحيث يفنى فيه، ويبقى ببقائه، وينظر بنوره، ومن طبع الله على قلبه، وختم على سمعه وبصره، فأعماه عن إبصار آيات وجوب وجوده، وأصمته عن استماع دلائل توحيده؟! كلا وحاشا.

(1) بيّن الله سبحانه تفضيل شرائف الصديقين من أهل مشاهدته المنورين بأنوار قدسه، أوجد أرواحهم في فضاء ديموميته وميادين أزليته، فأبدى لها نور جماله وجلاله، فهم منورون بنوره؛ حيث ألبسهم قموص سنا عظمته وبهاء كبريائه، فهذا معنى شرح صدورهم، وبعد نشر نور تجليه في أرواحهم وعقولهم حتى وقع فيها نور العبودية وما بدا من نور اليقين والعرفان والإيمان والإسلام، فأول شرح صدورهم بدو أنوار صفاته فيها، وآخر انفساخها ظهور سناء ذاته فيها، فهم على نور منه، وبذلك النور يلبسون؛ فيرون الحق بنور الحق، ويرون ما دون الحق من العرش إلى الثرى بنوره، ثم وبخ أضدادهم بقساوة القلوب وتباعد النيات، واحتجابهم عن نور ذكره، بعد أن قهرهم بخذلانه، وحرمهم من نور إسلامه وإيمانه، وهددهم بعقوبته.

بل ﴿فَوَيْلٌ﴾ عظيم، وعذاب شديد معد ﴿لِلْقَاسِيَةِ﴾ المضيقة المكدرة ﴿قُلُوبُهُم مِّن﴾ سماع ﴿ذِكْرِ اللَّهِ﴾ واستماع ما نزل من عنده من الآيات العظام الدالة على وحدة ذاته ووجوب وجوده ﴿أُوْلَئِكَ﴾ الأشقياء المردودون عن ساحة عز القبول والحضور ﴿فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الزمر: 22] وجهل عظيم، وغفلة شديدة، وغشاوة غليظة، لا نجاة لهم منها.

وبالجملة: لا يرتفع عن عيون بصائرهم حجبهم الكثيفة أصلاً ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور: 40].

﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الزمر: 23-24].

فكيف يتيسر لأحد أن يعرض عن ذكر الله وعن استماع كلامه؟! مع أنه: ﴿اللَّهُ﴾ الذي دبر أمور عباده، وأرشدهم إلى طريق معاده؛ حيث ﴿نَزَّلَ﴾ تتميمًا لترتيبهم ﴿أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ وأبلغه في الإفادة والبيان ﴿كِتَابًا﴾ جامعًا لما في الكتب السالفة ﴿مُّتَشَابِهًا﴾ بعض آياتها ببعض في حسن النظم، واتساق المعنى ﴿مَّثَانِيَ﴾ أي: ثنى سبحانه، وكرر الأحكام فيه تأكيدًا ومبالغة، أمرًا ونهيًا، وعدًا ووعيدًا، وثوابًا وعقابًا، عبرًا وأمثالاً، قصصًا وتذكيرًا.

وجعله في كمال الإيجاز والإعجاز والتأثير؛ بحيث ﴿تَقْشَعِرُّ﴾ أي: تنقبض وتضطرب على الاستمرار ﴿مِنْهُ﴾ أي: من سماعه ﴿جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ﴾ مهابة ﴿رَبَّهُمْ﴾ في جميع حالاتهم، خوفًا من سلطة سلطنة جلاله ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَ﴾ تطمئن ﴿قُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ رجاء من سعة رحمته، بمقتضى لطفه وجماله.

وبالجملة: ﴿ذَلِكَ﴾ أي: الكتاب الرفيع الشأن، الواضح البرهان ﴿هُدَى اللَّهِ﴾ الهادي لعباده ﴿يَهْدِي بِهِ﴾ ويوفق على الهداية والرشاد بمقتضى ما فيه ﴿مَن يَشَاءُ﴾ من عباده، ويضل به وعن الاستفادة بما فيه من يشاء إرادة واختيارًا ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ﴾

بمقتضى قهره وجلاله ﴿فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: 23] [1] إذ لا يبدل قوله، لا ينازع

---

(1) أخبر عن خطابه وكتابه بقوله تعالى: ﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ﴾ [الزمر:23]، يشير إلى معانٍ: منها: إنه نزل على محمد ﷺ القرآن، أحسن حديث مما نزل على جميع الأنبياء والمرسلين. ومنها: إنه أحسن حديث؛ لأنه كلام الله وهو قديم، وكلام غيره مخلوق محدث. ومنها: إنه كتاب متشابه في اللفظ، مثاني في المعنى من وجهين: أحدهما لكل لفظ منه معاني مختلفة، بعضها يتعلق بلغة العرب وبعضها يتعلق بأحكام الشرع، وبعضها يتعلق بإشارات الحق تعالى، كمثل الصلاة فإن معناها في اللغة الدعاء، وفي أحكام الشرع؛ هي عبارة عن هيئات وأركان وشرائط وحركات مخصوصة بها، وفي إشارة الحق تعالى هي الرجوع إلى الله تعالى، كما جاء روحه من الحضرة بالنفخة الخاصة إلى الغالب، فإنه عبر على القيام الذي يتعلق بالسماوات، ثم على الركوع الذي يتعلق بالحيوانات، ثم على السجود الذي يتعلق بالنباتات، ثم على التشهد الذي يتعلق بالمعادن، فبالصلاة يشير الله تعالى إلى رجوع الروح إلى حضرة ربه على طريق جاء منها؛ ولهذا قال النبي ﷺ «الصلاة معراج المؤمنين» وليس هاهنا مقام شرح رجوع الروح إلى حضرة ربه بمعراج الصلاة، وقد شرحنا حقيقة هذا في كتابنا الموسوم بـ «منارات السائرين إلى حضرة الله ﷻ ومقامات والطائرين» ولكن المعاني والإشارات والأسرار والحقائق مثاني فيها إلى لا متناهي، وإلى هذا أشير بقوله: ﴿لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي...﴾ [الكهف:109]. ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ [الزمر:23]، إذا قرعت صفة الجلال أبواب قلوبهم من خشية الله وهيبته، ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ﴾ [الزمر:23] بتجلي صفات جماله ﴿إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر:23] بالشوق والطلب، ﴿ذَٰلِكَ﴾ [الزمر:23]؛ أي: ذلك التجلي ﴿هُدَى اللَّهِ﴾ [الزمر:23] ليس للإنسان إليه سبيل إلا بالطلب رد، والسبيل سد، ﴿يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ﴾ [الزمر:23] بأن يكله إلى نفسه وعقله ويحرمه عن الإيمان بالأنبياء ومتابعتهم، ﴿فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر:23] من براهين الفلاسفة والدلائل العقلية. وقال روزبهان: وصف الله سبحانه كلامه القديم حديثه الباقي الذي أحسن من كل حسن، إذ جميع الحسن منه بدا، وحسنه بأن يكون بحسن الأشياء، وأنه صفته الأزلية التي خارجة بنعوتها عن رسوم الأصوات وعلل الحروف ومصنوعات الكون، لا يشابهها كلام الخلق من فعله صدر، وكلامه تعالى من ذاته صدر، فكيف يكون مشابهًا لكلام الحدثان، ومعنى قوله: ﴿مُّتَشَٰبِهًا﴾ أنه خبَّر عن كلية الذات والصفات التي منبعها أصل القدم، وصفاته كذاته وذاته كصفاته، وكل صفة كصفة أخرى من حيث التنزية والقدس والتقديس، والكلام بنفسه متشابه المعاني، وكل معنى يتكرر في موضع غير موضعه بلغة أخرى، ووضعها مذكورة بحروفها، والمتشابه في القرآن خاصٌ، مذكورٌ مبينٌ لأهل الخصوص من أهل شهود وصفات الخاصة الأزلية الذين يشهدون الأرواح والأشباح في المراقد العبودية، يسمعون من الحق بأسماع القلوب، فإذا سمعوا خطاب الحق من الحق يستولى على أسرارهم أنوار التجلي، ثم تستولي من الأسرار على الأرواح، ثم تستولي من الأرواح على العقول، ثم من العقول على القلوب، ثم من القلوب على الصدور، ثم

حكمه، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد.

﴿أَفَمَن يَتَّقِي﴾ أي: يصل ويدخل ﴿بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: أشده وأسوأه؛ إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل في أيديهم، يسبحون إلى النار بحيث لا يصل منهم إليها أولاً إلا وجوههم، كمن آمن منه وسلم عن مطلق المكاره؟! كلا وحاشا ﴿وَقِيلَ﴾ حينئذ ﴿لِلظَّالِمِينَ﴾ الخارجين من مقتضى الحدود الإلهية ظلمًا وعدوانًا على سبيل التوبيخ والتقريع: ﴿ذُوقُوا﴾ أيها المنهمكون في بحر الغفلة والشهوات جزاء ﴿مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الزمر: 24] في دار الاختبار، بمقتضى أهويتكم الفاسدة وآرائكم الباطلة.

﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الزمر: 25-29].

وليس هذا التكذيب، والجزاء المترتب عليه مخصوصًا بهؤلاء الكفرة المكذبين

من الصدور على الجلود، فتقشعر منها جلودهم من حيث وقوف أسرارهم على مشاهدة العظمة بنعت الخشية والإجلال والعلم به، وإذا وصل نور الأنس بنور العظمة ونور الجمال بنور الجلال سهل على وجودهم سطوات الكبرياء، فتلين جلودهم وقلوبهم بنور البسط والأنس، فزاد شوقهم إلى سماع الكلام من العلام؛ لهيمانهم إلى رؤية جماله؛ ذلك قوله: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾، وخطابه سبحانه سراج يستضيء بنوره كل راشد في المعرفة، مرشد في التوحيد، راسخ في المحبة، قال سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ﴾ أي: من الأولياء والأصفياء والمقربين والمؤمنين الصادقين. قيل في قوله: ﴿تَقْشَعِرُّ﴾ و﴿تَلِينُ﴾ أي: تقشعر بالخوف، وتلين بالرجاء. وقيل: بالقبض والبسط. وقيل: بالهيبة والأنس. وقيل: بالتجلي والاستتار. وقال الأستاذ: بالوعد والوعيد. وقال النهرجوري: وصف الله بهذه الآية سماع المريدين وسماع العارفين. وقال: سماع المريدين بإظهار الحال عليهم، وسماع العارفين بالطمأنينة والسكون.

لك يا أكمل الرسل، بل كل من ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ﴾ مضوا ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ من المشركين رسلهم المبعوثين إليهم ﴿فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ﴾ فجأة ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الزمر: 25] مقدماته وأماراته أصلاً.

﴿فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ﴾ المنتقم منهم ﴿الْخِزْيَ﴾ أي: الذل والهوان، والخيبة والخسران ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ﴾ المعد لهم فيها ﴿أَكْبَرُ﴾ أي: أشد وأفزع ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: 26] شدته وفظاعته لما ارتكبوا ما يؤول إليه ويوقعهم فيه.

﴿وَ﴾ الله ﴿لَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ﴾ الناسين عهودنا ومواثيقنا ﴿فِي هَذَا الْقُرْآنِ﴾ المتكفل لإهداء عموم الضالين ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ ينبههم على معالم الدين ومراسم التوحيد واليقين ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الزمر: 27] رجاء أن يتعظوا بما فيه، ويتفطنوا بسرائره ومرموزاته.

مع أنا جعلناه ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ أوضح بيانًا، وأعظم شأنًا، وأجل تبيانًا وبرهانًا ﴿غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ أي: بلا اختلال واختلاف في معناه، موجب للتردد والالتباس والشك والارتياب ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الزمر: 28] عن محارمنا، ويحذرون عما نهيناهم عنه، ومع ذلك لم يتقوا، بل لم يتنبهوا ولم يتفطنوا أصلاً.

ولهذا ﴿ضَرَبَ اللَّهُ﴾ المطلع على جميع ما في استعدادات عباده وقابلياتهم ﴿مَثَلًا﴾ موضحًا لحال الموحد منهم والمشرك، وشبه كلتا الطائفتين برجلين مملوكين ﴿رَّجُلًا﴾ مملوكًا ﴿فِيهِ شُرَكَاءُ﴾ أي: له أرباب متشاركون فيه، كلهم ﴿مُتَشَاكِسُونَ﴾ أي: متشاخصون متخالفون في استخدامه، متنازعون في شأنه، يتجاذبونه على مقتضى أهويتهم وأمانيهم بكمال الاستيلاء والغلبة، هذا مثل المشركين بالنسبة إلى معبوداتهم الباطلة.

﴿وَرَجُلًا﴾ أي: مملوكًا آخر ﴿سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ أي: مسلمًا مخصوصًا لمالك فقط بلا شوب شركة فيه، ونزاع في أمره، هذا مثل الموحد بالنسبة إلى ربه الواحد الأحد الصمد، الذي لا تعدد فيه ولا كثرة أصلاً ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ﴾ ويتماثلان ﴿مَثَلًا﴾ هذان الرجلان المملوكان ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الذي لا شركة في ذاته وصفاته وأسمائه وأفعاله، بل ولا نزاع لأحد في حكمه، يفعل ما يشاء بالإرادة والاختيار، ويحكم ما يريد بالاستقلال

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: 29][1] وحدته واستقلاله في التصرفات الواردة، باعتبار شئونه وتطوراته، لذلك يشركون به غيره ظلمًا وجهلاً.

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ۝٣١ ۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ۝٣٢ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ۝٣٣ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ۝٣٤ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٣٥﴾ [الزمر: 30-35].

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾ يعني: كيف لا يستقل سبحانه بالوجوه والآثار المترتبة عليه، مع أنك يا أكمل الرسل وأشرف الكائنات وأفضلهم معطل في ذاتك وفي نشأتك هذه عن استناد ما ظهر منك إليك؛ إذ لا وجود لك من ذاتك ﴿وَإِنَّهُم﴾ أي: غيرك من أشخاص بالطريق الأولى ﴿مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: 30] معطلون عن آثار الوجود مطلقًا في هذه النشأة، بل كلكم أنتم وعموم العباد مسخرون تحت حكمه وأمره، ما عليكم إلا الامتثال والانقياد.

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ﴾ أيها الموحدون والمشركون جميعًا ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ المعدة للحساب والجزاء ﴿عِندَ رَبِّكُمْ﴾ المطلع على جميع ما جرى عليكم ﴿تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر: 31][2]

---

(1) قال البقلي: شبّه الله المتشتتين هومهم المائلين إلى غير الله بالرجل الذي يملكه الشركاء المتشاكسون المتخالفون، وشبّه المتفردين بنعت الإخلاص بالله ولله وفي الله بالرجل السالم لرجل الخالص له لا يملكه غيره بل عبدٌ قنٌّ له لا يدخل في صحة عبوديته خلل لأجل مدخل غيره، فالأول المحتجب بنفسه عن الحق، والثاني الشاهد بالحق على الحق، لا يحويه غبار العلل، ولا يدخل في قلبه قتام الخلل؛ إذ هو محفوظٌ برعايته القديمة وحراسته الأبدية، مثل هذا العبد لا يعرفه إلا عبدٌ مثله، ولذلك حمد الله نفسه حيث يجهله أكثر الخلق.

(2) يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: إنك يا محمد ميت عن قليل، وإن هؤلاء المكذبيك من قومك والمؤمنين منهم ميتون(ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ) يقول: ثم إن جميعكم المؤمنين والكافرين يوم القيامة عند ربكم تختصمون فيأخذ للمظلوم منكم من الظالم، ويفصل بين جميعكم بالحق، واختلف أهل التأويل في تأويل ذلك، فقال بعضهم: عنى به اختصام

بعضكم مع بعض فيما أنتم عليه في نشأتكم الأولى، ثم تحاسبون وتجازون بمقتضاه، فستعلمون حينئذ أي منقلب ينقلبون.

ثم قال سبحانه على سبيل الاستبعاد والتقريع: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ وأضل طريقًا ﴿مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللهِ﴾ وأنكر وجوده واستقلاله فيه، وفي الآثار المترتبة عليه ﴿وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ﴾ يعني: بالقرآن الذي جاء به محمد ﷺ مبينًا لتوحيد الحق، واستقلاله في الوجود ﴿أَلَيْسَ﴾ يبقى ﴿فِي جَهَنَّمَ﴾ البعد والحرمان ﴿مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: 32] الساترين بغيوم هوياتهم الباطلة شمس الحق الظاهرة في الآفاق بالاستقلال والاستحقاق، مع أنه معد لهؤلاء المردة المطرودين عن ساحة العز القبول.

﴿وَ﴾ الموحد ﴿الَّذِي﴾ من قبل ربه ﴿جَاءَ بِالصِّدْقِ﴾ بلا افتراء ومراء ﴿وَصَدَّقَ بِهِ﴾ إيمانًا واحتسابًا بلا شوب شك وتردد فيه ﴿أُوْلَئِكَ﴾ السعداء الصادقون المصدقون

المؤمنين والكافرين، واختصام المظلوم والظالم، فعن معاوية، عن عليّ، عن ابن عباس، في قوله: (ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ) يقول: يخاصم الصادق الكاذب، والمظلوم الظالم، والمهتدي الضال، والضعيف المستكبر، حدثني يونس، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد، في قوله:(ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ) قال: أهل الإسلام وأهل الكفر، وعن عبد الرحمن بن حاطب بن الزبير، قال: لما نزلت هذه الآية:(إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ) قال الزبير: يا رسول الله، أينكر علينا ما كان بيننا فى الدنيا مع خواصّ الذنوب ؟ فقال النبي ﷺ:«نَعَمْ حتى يُؤَدَّى إلى كُلِّ ذي حَقٍّ حَقُّهُ» وقال آخرون: بل عني بذلك اختصام أهل الإسلام، ذكر من قال ذلك: حدثنا ابن حميد، قال: ثنا يعقوب، عن جعفر، عن سعيد، عن ابن عمر، قال: نزلت علينا هذه الآية وما ندري ما تفسيرها حتى وقعت الفتنة، فقلنا: هذا الذي وعدنا ربُّنا أن نختصم في(ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ). وعن إبراهيم، قال: لما نزلت:(إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُم...) الآية، قالوا: ما خصومتنا بيننا ونحن إخوان، قال: فلما قُتل عثمان بن عفان، قالوا: هذه خصومتنا بيننا، حُدثت عن ابن أبي جعفر، عن أبيه، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، في قوله(ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ) قال: هم أهل القبلة، وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: عني بذلك: إنك يا محمد سيموت، وإنكم أيها الناس ستموتون، ثم إن جميعكم أيها الناس تختصمون عند ربكم، مؤمنكم وكافركم، ومحقوكم ومبطلوكم، وظالموكم ومظلوموكم، حتى يؤخذ لكلّ منكم ممن لصاحبه قبله حق حقُّه، وإنما قلنا هذا القول أولى بالصواب لأن الله عم بقوله:(ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ) خطاب جميع عباده، فلم يخصص بذلك منهم بعضا دون بعض، فذلك على عمومه على ما عمه الله به، وقد تنزل الآية في معنى، ثم يكون داخلا في حكمها كلّ ما كان في معنى ما نزلت به. «تفسير الطبري» (287/21).

﴿هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر: 33] الذين يحفظون عن الميل إلى ما لا يرضى منهم سبحانه.

وبسبب اتصافهم بالتقوى عن محارم الله ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ﴾ من اللذات الروحانية ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ الذي رباهم بأنواع الكرامة، ووفقهم للهداية إلى جنابه، والعكوف حول بابه تفضلاً عليهم وتكريمًا ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي سمعت من الكرامات ﴿جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الزمر: 34] الذين يحسنون الأدب مع الله بحسب ظواهرهم وبواطنهم، ويأخذون ما نزل من عنده من الأوامر والنواهي على وجه العزيمة الخالصة عن شوب الرياء والرعونات المنافية لإخلاص العبودية.

﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بسبب إخلاصهم في عزائمهم ﴿أَسْوَأَ﴾ العمل ﴿الَّذِي عَمِلُوا﴾ فكيف أسهله وأصغره ﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم﴾ أي: يعطيهم جزاء أعمالهم في الآخرة ﴿بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الزمر: 35] أي: أحسن من حسناتهم، وأوفر منها؛ لخلوصهم فيها.

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٦) وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ (٣٧) وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ۚ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ (٣٨)﴾ [الزمر: 36-38].

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ﴾ القدير العليم ﴿بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ المتوكل عليه، المفوض أمره إليه ليكفيه ما ينفعه، ويكف عنه ما يضره ﴿وَ﴾ هم من جهلهم بالله وكمال علمه وقدرته ﴿يُخَوِّفُونَكَ﴾ يا أكمل الرسل؛ يعني: قريشًا ﴿بِالَّذِينَ﴾ أي: بأصنامهم الذين يدعونهم آلهة ﴿مِن دُونِهِ﴾ سبحانه جهلاً وعنادًا، ويقولون لك على سبيل النصيحة: لا تذكرهم بسوء، فإنا نخاف عليك أن يخبلوك، ويفسدوا عقلك، وما ذلك إلا من نهاية جهلهم بالله، وغوايتهم عن طريق توحيده ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ﴾ بمقتضى قهره وجلاله ﴿فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: 36]

﴿وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ﴾ إذ هو فاعل على الإطلاق بالاختيار

والاستحقاق لا يجري في ملكه إلا ما يشاء ﴿أَلَيْسَ اللهُ﴾ العليم القدير ﴿بِعَزِيزٍ﴾ منيع غالب على أمره ﴿ذِي انتِقَامٍ﴾ [الزمر: 37] شديد على من أراد انتقامه من أعدائه.

ثم أشار سبحانه إلى توضيح دلائل توحيده تعريضًا على المشركين، وتسجيلاً على غوايتهم وغباوتهم، فقال مخاطبًا لحبيبه ﷺ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ يا أكمل الرسل؛ يعني: كفار قريش ﴿مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ أي: العلويات والسفليات، وما بينهما من الممتزجات، ومن أوجدها وأحدثها وأظهر ما فيها من العجائب والغرائب ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ ألبتة: ﴿اللهُ﴾ المتفرد بالخلق والإيجاد، المتوحد بالألوهية والربوبية؛ إذ لا يسع لهم العدول عنه لظهوره.

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل بعدما سمعت منهم قولهم هذا، إلزامًا لهم وتبكيتًا: ﴿أَفَرَأَيْتُم﴾ عيانًا أو سمعتم بيانًا من ﴿مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ﴾ من هؤلاء المعبودات الباطلة، وتدعونها آلهة شركاء مع الله قوة المقاومة وقدرة المخاصمة معه سبحانه مثلاً ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ اللهُ﴾ وجرى حكمه على أن يمسني ﴿بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ﴾ أي: آلهتكم ﴿كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ﴾ سبحانه عني على سبيل المعارضة ﴿أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ﴾ فائضة من عنده علي ﴿هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ﴾ يمنعونها عني، ويدفعون وصولها إلي؟!.

وبعدما بهتوا وسكتوا عند سماع هذه المقالة نادمين ﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل كلامًا ناشئًا عن محض التوحيد واليقين، خاليًا عن أمارات الريب واليقين والتخمين: ﴿حَسْبِيَ اللهُ﴾ الواحد الأحد الصمد الكافي لمهام عموم عباده، الرقيب عليهم في جميع حالاتهم؛ إذ ﴿عَلَيْهِ﴾ لا على غيره من الوسائل والأسباب العادية ﴿يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: 38] المفوضون أمورهم كلها إليه، حيث يتخذونه وكيلاً، ويعتقدونه كافيًا وحسيبًا.

﴿ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ

يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الزمر: 39-42].

﴿قُلْ﴾ لهم أيضًا على سبيل التوبيخ والتهديد: ﴿يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾ وحالكم ما شئتم من الأعمال ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ أيضًا على مكانتي وحالي ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: 39] مآل ما يعملون وغايته.

واعلموا أن ﴿مَن يَأْتِيهِ﴾ منّا ومنكم ﴿عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ ويرديه في الدنيا ﴿وَ﴾ هو دليل على أنه ﴿يَحِلُّ﴾ وينزل ﴿عَلَيْهِ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [الزمر: 40] دائم مؤبد، فتربصوا حتى يأتي الله بأمره، ونحن نتربص أيضًا.

ثم قال سبحانه على وجه التأديب لحبيبه: ﴿إِنَّا﴾ من مقام عظيم جودنا ﴿أَنزَلْنَا عَلَيْكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿الْكِتَابَ﴾ الجامع المشتمل على عموم مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم؛ لتكون هاديًا ﴿لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ مبلغًا إياهم جميع ما فيه من الوعد والوعيد ﴿فَمَنِ اهْتَدَى﴾ ووفق على قبول ما فيه من الأوامر والنواهي ﴿فَلِنَفْسِهِ﴾ أي: نفع هدايته واهتدائه عائد إلى نفسه ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ كذلك ﴿وَ﴾ بعدما وضح الأمر لديك، لا تتعب نفسك في إهدائهم؛ إذ ﴿مَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ [الزمر: 41] ضمين لإهدائهم وتكميلهم، بل ما عليك إلا البلاغ، وعلينا الحساب.

وكيف لا يكون حساب العباد على الله، ولا يكون في قبضة قدرته؛ إذ ﴿اللَّهُ﴾ المستوي على عروش ما ظهر وبطن بالاستيلاء التام والقدرة الكاملة الشاملة ﴿يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ﴾ ويقطع إمداده بالحياة عليها بمقتضى النفس الرحماني ﴿حِينَ مَوْتِهَا﴾ أي: حين تعلق إرادته سبحانه بقطع علقة عنها، وإرجاعها إلى ما كانت عليه من العدم ﴿وَ﴾ كذا تتوفى الأنفس ﴿الَّتِي لَمْ تَمُتْ﴾ أي: لم تحكم عليها بقطع العلقة والإمداد عنها ﴿فِي مَنَامِهَا﴾ أي: يفصل عنها ما هو مبدأ الآثار والأفعال، وما يترتب عليه التمييز والشعور، ويبقى رمق منه عنها ﴿فَيُمْسِكُ﴾ ويقبض سبحانه بعد الفصل والتوفي الأنفس ﴿الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ﴾ في لوح قضائه وحضرة علمه ﴿وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى﴾ أي: يعيدها إلى أبدانها، ويمهلها ﴿إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾[1] معين مقدر عنده؛ لقطع الإمداد

(1) قال البقلي: خلق الله الأرواح قبل الكون بين النور والسرور، وتجلى لها من حسنه وجماله، فارتاحت بروح ملكوته، واستبشرت بجمال جبروته، فلما أدخلها في الأجساد انقبضت من الاحتجاب بها عن تلك النسائم، فتشامت، واستنشقت نفحات معادنها في الأشباح، فيتلطف

والارتباط.

وعن المرتضى الأكبر كرم الله وجهه: يخرج الروح عند النوم ويبقى شعاعه في الجسد، فبذلك يرى الرؤيا، فإذا انتبه من النوم عاد الروح إلى جسده بأسرع من لحظة.

ولهذا قيل: إن أرواح الأحياء والأموات تلتقي في المنام، فتتعارف ما شاء الله، فإذا أرادت الرجوع إلى الأجساد، أمسك الله أرواح الأموات عنده، وأرسل أرواح الأحياء إلى أجسادها.

وبه ورد الحديث صلوات الله على قائله: «**إذا أوى أحدكم إلى فِراشه فَلْيَنفُض فِرَاشه بِدَاخِلَةِ إِزَارِهِ، فإنه لا يَدْري ما خَلفَه عليه، ثم يقول: باسمك ربي وَضَعْتُ جنبي، وبك أرفعُهُ، إنْ أمسكْتَ نَفْسي فارْحَمْها، وإنْ أرْسَلتَها فَاحْفَظْها بما تَحْفظُ به عبادَكَ الصالحينَ**»[1].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ التوفي والفصل، والإمساك والإرسال ﴿لَآيَاتٍ﴾ دلائل واضحات وشواهد لائحات على قدرة الصانع الحكيم القدير العليم ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر: 42] في مقدوراته سبحانه، ويشاهدون آثار قدرته عليها.

﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾﴾

عليها الحق سبحانه، فيخرجها كل ليلة من الأشباح، ويطيرها في بساتين ملكوته، ويلبسها سربال نوره، حتى تجلدت عليها لذائذ المحبات وحلاوات المشاهدات، وتزيد رغبتها في قرب مولاها وخدمته، فمن حان أجلها من خروجها من الدنيا إلى الحضرة يمسكها عند توفيها إما بالموت وإما بالنوم، ومن بقي لها بعض سيرها في عالم الامتحان يرسلها إلى محلها إلى وقت خروجها بالكلية إلى عند مولاها، وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «إنَّ أرواحَ المؤمنين تصعدُ كُلَّ ليلةٍ إلى تحتَ العرشِ، فمَنْ نامَ على طهارةٍ أُذِنَ لها بالسجود، ومن لم ينم على الطهارة لم يُؤذن» قال سهل: إن الله إذا توفى الأنفس أخرج الروح النوري من لطيف نفس الطبع الكثيفي، فالذي يُتوفّى في النوم من لطيف نفس الطبع، لا لطيف نفس الروح، والنائم يتنفس تنفسًا لطيفًا، وهو نفس الروح الذي إذا زال لم يكن للعبد حركة وكان ميتا. وقال: حياة نفس الطبيعي بنور لطيف، وحياة لطيف نفس الروح بذكر الله. وقال أيضًا: الروح يقوم بلطيفة في ذاتها بغير نفسي الطبع، ألا ترى أن الله خاطب الكل في الذر بنفس وروح وفهم وعقل وعلم لطيف بلا حضور طبع كثيف؟!

(1) رواه البخاري في «الصحيح» (21/108).

﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ عَٰلِمَ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحۡكُمُ بَيۡنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [الزمر: 43-46].

وبعدما سمع قريش كمال قدرة الله، واستقلاله بالتصرفات الواقعة في ملكه وملكوته حسب إرادته واختياره، ينبغي لهم أن يوحدوه سبحانه، ويتخذوه وكيلاً، ويجعلوه حسيبًا وكفيلاً، ومع ذلك لم يتخذوه ﴿أَمِ اتَّخَذُوا﴾ أي: بل اتخذوا من تلقاء أنفسهم ﴿مِن دُونِ اللهِ﴾ أولياء من الأصنام والأوثان، وسموهم ﴿شُفَعَاءَ﴾ عنده سبحانه، لذلك يعبدونهم كعبادته ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل إلزامًا وتبكيتًا: ﴿أَوَ لَوْ كَانُوا﴾ أي: أتتخذون الأصنام والأوثان شفعاء أيها الحمقى، وتستشفعون منهم، ولو كانوا ﴿لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا﴾ من جلب النفع ودفع الضر ﴿وَلاَ يَعْقِلُونَ﴾ [الزمر: 43] ويدركون مقاصدهم أصلاً؟! وما هو إلا وهم باطل، وخروج عن مقتضى العقل الفطري.

﴿قُل﴾ لهم يا أكمل الرسل بعدما لاح عندك غباوتهم وضلالهم على وجه العظة والتذكير؛ لعلهم يتنبهوا: ﴿للهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ أي: مطلق الشفاعة، مختصة لله، مستندة إليه أصالة، كائنة من عنده، لا يسع لأحد من أهل العناية أن يشفع لمجرم عنده سبحانه إلا بإذنه، وكيف لا يكون كذلك؛ إذ ﴿لَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي: ما ظهر من العلويات والسفليات، وما بينهما من الممتزجات، بلا تصرف فيها بالاستقلال والاختيار، بلا مزاحمة أنداد وأغيار ﴿ثُمَّ﴾ لو وقعت شفاعة من أحد ممن أذن له الرحمن، ورضي له قولاً، فإنما هي أيضًا آيل إليه سبحانه؛ إذ ﴿إِلَيْهِ﴾ لا إلى غيره من العكوس والأظلال ﴿تُرْجَعُونَ﴾ [الزمر: 44] رجوع الأضواء إلى الشمس.

﴿وَ﴾ من شدة قساوة المشركين وجهلهم بالله ﴿إِذَا ذُكِرَ اللهُ﴾ الواحد الأحد الصمد المستقل بالألوهية والربوبية ﴿وَحْدَهُ﴾ على ما كان بلا مشاركة أحد معه في الثبوت والوجود ﴿اشْمَأَزَّتْ﴾ أي: انقبضت وضاقت ﴿قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ﴾ بالانكشاف التام في النشأة الأخرى، المفني لأظلال السوى والعكوس مطلقًا ﴿وَإِذَا ذُكِرَ﴾ آلهتهم ﴿الَّذِينَ﴾ يدعونهم ﴿مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: 45] أي: فاجؤوا عند ذكر آلهتهم إلى البسط والاستبشار.

﴿قُل﴾ يا أكمل الرسل عند يأسك عنهم وعن إيمانهم وتنبههم، مسترجعًا إلى

ربك، مفوضًا أمور عباده إليه، سيما هؤلاء المعاندين: ﴿اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ ومظهرهما من كتم العدم بالإرادة والاختيار، يا ﴿عَالِمَ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ على التفصيل؛ بحيث لا يعزب عن حيطة علمك مثقال ذرة من ذرائر ما لمع عليه برق وجودك بمقتضى جودك ﴿أَنتَ﴾ بذاتك حسب شئونك وتطوراتك ﴿تَحْكُمُ﴾ وتقضي ﴿بَيْنَ عِبَادِكَ﴾ هؤلاء وبيني ﴿فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الزمر: 46] معي في أمور الدين القويم المنزل من عندك، والكتاب المبين طريق توحيدك.

﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ (٤٧) وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٤٨) فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٤٩) ﴾ [الزمر: 47-49].

ثم قال سبحانه تسجيلاً على عدم قابليتهم واستعدادهم لقبول الحق وفيضان أسرار التوحيد ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: بعدما جبلوا على فطرة الشقاوة من عند الله الحكيم لو حقّ وثبت لهم ملك ﴿مَا فِي الأَرْضِ﴾ من الزخارف الإمكانية ﴿جَمِيعًا وَمِثْلَهُ﴾ بل أضعافه وآلافه ﴿مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ﴾ في سبيل الله، راجين النجاة ﴿مِن سُوءِ العَذَابِ﴾ المعد لهم ﴿يَوْمَ القِيَامَةِ﴾ جزاءً لأعمالهم لما حصل لهم هذا، ولا نجاة لهم منه أصلاً؛ إذ لا يبدل قولنا ولا يغير حكمنا، بل ﴿وَبَدَا﴾ أي: لاح وظهر ﴿لَهُم مِّنَ اللهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: 47][1] من قبله؛ إذ هم عند الإتيان بفواسد الأعمال

(1) هذه الآية خبرٌ من الله للذين فرحوا بما وجدوا في أوائل البدايات مما يغترّ به المغترون، وقاموا به، وظنوا ألا مقام فوق مقامهم، فلما رأوا ما بخلاف ظنونهم لأهل معارفه وأحبائه وعشاقه من درجات المعرفة وحقائق التوحيد ولطائف المكاشفات وغرائب المشاهدات ماتوا حسرة، وأيضًا سكن قوم إلى الأنوار وظهور بدائع صنيع الحق، واطمأنوا إليها، وظنوا أنها هو، وهم أهل الغلطات، فلما بدا لهم من الله جلال عزته وعزائم قدرته علموا أنهم ليسوا على شيء من معرفة الله، وظاهر الآية يتعلق بأهل الرياء والسمعة الذي يعجبون قبول الخلق واستحسانهم ظواهرهم من الزيّ والعبادة، واغترّوا بمراعاتهم، وظنوا أنهم على شيء عند الله من ذلك، فإذا بدا لهم من الله بيانًا يوم القيامة أنهم مشركون بالرياء والسمعة افتضحوا هنالك عند العارفين والصديقين،
=

والعبادات على معبوداتهم، زاعمين جزاء ترتب جزاء الخير عليها، وقد انعكس الأمر عليهم.

﴿وَ﴾ حين ظهر عليهم عكس المطلوب ﴿بَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ أي: تحقق عندهم كون أعمالهم التي أتوا بها سيئات كلها ﴿وَ﴾ حينئذ ﴿حَاقَ﴾ وأحاط ﴿بِهِم﴾ خجالة ﴿مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الزمر: 48] من الأمور الدينية والمعتقدات الأخروية الجارية على ألسن الرسل والكتب في النشأة الأولى، ولم ينفعهم الندم والخجالة حينئذ؛ لانقضاء التدارك والتلافي.

ثم أشار سبحانه إلى تزلزل الإنسان، وعدم ثباته على العزيمة الخالصة نحو ربه فقال: ﴿فَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ﴾ منّا مؤلم مزعج إلى التوجه والتحنن إلينا ﴿دَعَانَا﴾ واستكشف عنّا الضر على سبيل الإلحاح والاقتراح ﴿ثُمَّ﴾ بعد كشفنا عنه ضره ﴿إِذَا خَوَّلْنَاهُ﴾ أي: أعطيناه ووسعنا عليه ﴿نِعْمَةً﴾ تفضلاً ﴿مِّنَّا﴾ وتكريمًا؛ لنختبر كيف يشكر على دفع الضر وحصول النعمة بعده ﴿قَالَ﴾ حينئذ على سبيل الكفران: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ﴾ من النعم ﴿عَلَى عِلْمٍ﴾ مني بوجوه كسبه وجمعه وأرباحه وأخذه.

أو المعنى: ما أوتيت وأعطيت بما أوتيت إلا بسبب علمي بوجوه جمعه وتحصيله، لا من حيث لا أحتسب، هكذا يقول من الهذيانات الدالة على الكفران والطغيان، مع أن نعمته ما هي نعمة في نفسها ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ ابتلاء منّا إياه، واختبار لننظر أيشكر أم يكفر؟ ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: 49] ولا يفهمون فتنتنا واختبارنا، لذلك ينهمكون في بحر الكفران والطغيان.

﴿قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ

- وافهم أيها الناظر في هذا الكتاب أن لنا من العلوم المجهولة ذوقًا، وذلك الذوق لا يليق بفهم أهل الطيلسان والطرق، ومن ذلك أن الكفر والإيمان طريقان من القهر واللطف إلى عرفان وحدانيته، فبلغ المؤمن إليه بطريق الإيمان واللطف، ويبلغ الكافر إلى رؤية قهرياته بالحقيقة عند المعاينات، فإذا عرف أنه هالكٌ فيها واقتحم في ظلماتها يبدو له في أحايين من الله سبحانه كشوف جلاله وجماله وعلومه الأزلية وألطافه الأبدية ما يضمحل فيها نيران جميع جهلهم، وهو لا يحتسب ذلك منه، ومن أنت من العبد، والرب قوله صدقٌ، ووعده حقٌّ، وإشارته حقيقةٌ، فأول الآية واضحةٌ، وآخر الآية إشارةٌ. [العرائس].

مَا كَسَبُواْ وَالَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ هَٰؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُواْ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر: 50-53].

وليس هذا مخصوصًا بهؤلاء الكفرة التائهين في تيه الغفلة والكفران، بل ﴿قَدْ قَالَهَا﴾ أي: الكلمة المخصوصة التي من جملة: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ [الزمر: 49] الكافرون المسرفون ﴿الَّذِينَ﴾ مضوا ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ مثل قارون وغيره ﴿فَمَا أَغْنَى﴾ أي: كفى ودفع ﴿عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الزمر: 50] من الزخارف شيئًا من عذاب الله حين أحاط بهم ونزل عليهم العذاب، فكذلك ما أغنى عن هؤلاء أمتعتهم شيئًا من العذاب حين حلوله.

﴿فَأَصَابَهُمْ﴾ أي: الكفرة الماضين في النشأة الأولى ﴿سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ مثل الخسف والكسف والغرق وغيرها ﴿وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ﴾ الكفرة المستخلفين منهم، القائلين بقولهم؛ يعني: قريشًا ﴿سَيُصِيبُهُمْ﴾ عن قريب ﴿سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ أمثال أولئك الهالكين ﴿وَمَا هُم﴾ أي: هؤلاء ﴿بِمُعْجِزِينَ﴾ [الزمر: 51] الله القادر المقتدر على أنواع التعذيب والانتقام، فقُتل صناديدهم يوم بدر، وقُحطوا سبع سنين، ثم وسع عليهم رزقهم؛ ليتنبهوا أن مقاليد الأمور بيده، وخزائن الرزق من عنده، ومع ذلك لم يعلموا.

﴿أَوَ لَمْ يَعْلَمُوا﴾ ولم يتنبهوا ﴿أَنَّ اللهَ﴾ المتكفل بأرزاق عباده ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ﴾ من عباده ﴿وَيَقْدِرُ﴾ أي: يقبض عمن يشاء منهم إرادة واختيارًا على مقتضى علمه بتفاوت استعداداتهم الفطرية وقابلياتهم الجبلية الفائضة عليهم من الحكيم الوهاب ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ القبض والبسط المستلزمين للدقائق والرقائق الغير المحصورة في الأمور الإلهية ﴿لَآيَاتٍ﴾ براهين واضحات على حكمة القدير العليم ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الزمر: 52] بذات الله، وكمال أوصافه وأسمائه.

وبعدما تنبهوا على حقية الحق وتفطنوا دلائل توحيده ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل نيابة عنًّا، مناديًا لهم على وجه الاختصاص، مضيفًا لهم إلينا عطفًا ولطفًا: ﴿يَا عِبَادِيَ

﴿الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ﴾ طول دهرهم قبل انكشاف الأغطية والسدل عن عيون بصائرهم: ﴿لَا تَقْنَطُوا﴾ ولا تيأسوا ﴿مِن﴾ فيضان ﴿رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ عليكم بعد انكشافها ورفعها ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المطلع على ضمائر عباده ونياتهم ﴿يَغْفِرُ﴾ ويستر ﴿الذُّنُوبَ﴾ التي صدرت عنكم حين غفلتكم ﴿جَمِيعًا﴾ وكيف لا يغفرها سبحانه ﴿إِنَّهُ﴾ بمقتضى ذاته وأوصافه وأسمائه ﴿هُوَ الْغَفُورُ﴾ المقصود على العفو والستر لعموم عباده، سيما على أهل التوحيد منهم ﴿الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: 53] لهم يوصلهم بعد رفع الحجب عنهم إلى مقر التجريد والتفريد.

﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الزمر: 54-58].

﴿وَ﴾ بعدما سمعتم سعة رحمة الحق وجميل عفوه ومغفرته ﴿أَنِيبُوا﴾ أي: تقربوا وتوجهوا أيها المجبولون على فطرة الإسلام ﴿إِلَى رَبِّكُمْ﴾ الذي رباكم لمصلحة المعرفة والتوحيد ﴿وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾ وانقادوا لأوامره، واجتنبوا عن نواهيه بالعزيمة الخالصة عن كدر الرعونات وشين الشهوات ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ﴾ الموعود في يوم الجزاء ﴿ثُمَّ﴾ بعد نزوله وإتيانه ﴿لَا تُنصَرُونَ﴾ [الزمر: 54] إذ حينئذ لا يسع لكم التدارك والتلافي؛ لانقضاء زمان التوبة والرجوع.

﴿وَ﴾ بالجملة: إن أردتم النجاة من العذاب ﴿اتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ أيها المكلفون على الدين المستبين، ألا وهو القرآن الكريم المنزل على خير الأنام وأفضل الرسل الكرام، وامتثلوا بجميع ما فيه من الأوامر والنواهي على وجه العزيمة ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً﴾ فجأة ﴿وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الزمر: 55] علاماته حتى تتداركوا وتحذروا منها.

وبالجملة: احذروا من يوم هائل مهول مخافة ﴿أَن تَقُولَ﴾ فيه ﴿نَفْسٌ﴾ وازرة منكم، مقصرة عن الإنابة والرجوع حين حلول العذاب عليها: ﴿يَا حَسْرَتَى﴾ ويا ندامتنا

﴿عَلَى مَا فَرَّطتُ وقصرت فِي جَنبِ اللهِ﴾ أي: في جانبه ورعاية حقه في إطاعته وانقياده ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾ [الزمر: 56] أي: فرطت في حقه سبحانه، والحال أني حينئذ من الساخرين بالأنبياء الهادين والعلماء الراشدين المنبهين علي، وبالجملة: فندمت حينئذ، وما ينفع الندم.

﴿أَوْ تَقُولَ﴾ متحسرًا على كرامة أهل العناية: ﴿لَوْ أَنَّ اللهَ هَدَانِي﴾ ووفقني على التوبة والإنابة نحوه كسائر أوليائه ﴿لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [الزمر: 57] المتحفظين نفوسهم عن الإفراط في حق الله ورعاية جانبه.

﴿أَوْ تَقُولَ﴾ متمنيًا مستبعدًا ﴿حِينَ تَرَى الْعَذَابَ﴾ يحل عليها، ويحيط بها: ﴿لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً﴾ أي: رجوعًا إلى الدنيا مرة أخرى ﴿فَأَكُونَ﴾ حينئذ ﴿مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الزمر: 58] الذين يحسنون الأدب مع الله، ويصدقون رسله وكتبه، وإنما تقول حينئذ ما تقول من كمال تحسرها على ما فات منها، وشدة هولها مما نزل عليها.

﴿ بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ [الزمر: 59-63].

ثم قيل لها من قِبل الحق ردًا لقولها: ﴿بَلَى﴾ هداك الله؛ إذ ﴿قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي﴾ لهدايتك وإرشادك عل ألسنة رسلي ﴿فَكَذَّبْتَ بِهَا﴾ وبهم ﴿وَاسْتَكْبَرْتَ﴾ عليها وعليهم ﴿وَكُنتَ﴾ حينئذ بتكذيبك واستكبارك ﴿مِنَ الكَافِرِينَ﴾ [الزمر: 59] الذين ستروا الحق الحقيق بالإطاعة والاتباع، وأظهروا الباطل الزائغ الزاهق الزائل، فاتخذوه معبودًا، وعبدوا له ظلمًا وزورًا، عنادًا واستكبارًا.

﴿وَ﴾ لا تبالوا أيها الموحدون بعتوهم واستكبارهم في هذه النشأة؛ إذ ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ التي تُبلى السرائر فيها ﴿تَرَى﴾ فيها أيها الرائي ﴿الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللهِ﴾ بإثبات الولد والشريك له، افتراء ومراء ﴿وَجُوهُهُم مُسْوَدَّةٌ﴾ أي: تراهم حال كونهم مسودة الوجوه؛ لأنهم حينئذ ملازموا النار وملاصقوها، تستبعد وتستغرب أيها المعتبر الرائي

حالتهم هذه ﴿أَلَيْسَ﴾ يبقى ﴿فِي جَهَنَّمَ﴾ البعد والخذلان، وجحيم الطرد والحرمان ﴿مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: 60] الذين يتكبرون على الله وعلى أوليائه بأنواع الفسق والعصيان والكذب والطغيان، مع أنه ما هي إلا معدة لهؤلاء البغاة الطغاة الهالكين في تيه الكبر والعناد.

﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ﴾ المفضل المحسن بمقتضى لطفه وجماله من أهوال يوم القيامة وأفزاعها ﴿الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ عن محارم الله ﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾ أي: بفوزهم وفلاحهم المورث لهم فتح أبواب السعادات وأنواع الخير والبركات ﴿لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ﴾ أي: ينجيهم، بحيث لا يعرضهم شيء يسؤهم في النشأة الأخرى ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الزمر: 61][1] فيها أصلاً.

وكيف لا ينجي سبحانه أولياءه؛ إذ ﴿اللَّهُ﴾ المحيط بجميع ما ظهر وبطن ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ومظهره من العدم بامتداد أظلال أسمائه وصفاته عليه ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من مظاهره ومصنوعاته ﴿وَكِيلٌ﴾ [الزمر: 62] يولي أمره، ويحفظه عما يضره.

إذ ﴿لَّهُ﴾ وفي قبضة قدرته ﴿مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: مفاتيح العلويات والسفليات، وما يتولى بينهما، ويتصرف فيهما بالإرادة والاختيار، ما شاء بلا منازع ومخاصم ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ وأنكروا دلائل توحيده واستقلاله في الآثار الصادرة منه سبحانه باختياره ﴿أُولَٰئِكَ﴾ الأشقياء الضالون عن طريق التوحيد، المنحرفون عن جادة العدالة ﴿هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الزمر: 63] المقصورون على الخسران والحرمان، لا يُرجى نجاتهم منه أصلاً.

﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ

(1) بفوزهم، مصدر ميمي، يقال: فاز بالمطلوب: ظفر به، والباء متعلقة بمحذوف، حال من الموصول، مفيدة لمقارنة نجاتهم من العذاب بنيل الثواب، أي: ينجيهم الله من مثوى المتكبرين ملتبسين بفوزهم بمطلوبهم أو: بسبب فوزهم بالإيمان والأعمال الحسنة في الدنيا، ولذا قرأ ابن عباس: (بمفازتهم بالأعمال الحسنة) «البحر المديد» (337/5).

﴿ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر: 64-67].

ثم إن أرادوا - يعني: قريشًا - أن يخدعوك ويلبسوا عليك الأمر، بأن أمروك باستلام بعض آلهتهم ليؤمنوا بإلهك ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل على سبيل التعيير والتوبيخ: ﴿أَفَغَيْرَ اللهِ﴾ الواحد الأحد الصمد الحقيق بالإطاعة والعبادة ﴿تَأْمُرُونِّي﴾ أي: تأمرونني ﴿أَعْبُدُ أَيُّهَا الجَاهِلُونَ﴾ [الزمر: 64] بالله وباستحقاقه للعبادة والانقياد، وبالأصالة والاستقلال.

ثم قال سبحانه مقسمًا على سبيل التأكيد والمبالغة في التأديب، تحريكًا لحمية ﷺ، وتثبيتًا على محبته ﴿وَ﴾ الله ﴿لَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿وَإِلَى﴾ الرسل ﴿الَّذِينَ﴾ مضوا ﴿مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ﴾ أنت مع كمال ودادتك وخلتك، وكل واحد منهم أيضًا مع كمال محبتهم وخلوصهم، وأتيت أنت وهم بشيء يلوح منه الإشراك المنافي للتوحيد ﴿لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ وعملهم؛ أي: ليضيعن ألبتة صالح عملك الذي جئت به ليفيدك ﴿وَلَتَكُونَنَّ﴾ حينئذ ﴿مِنَ الخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: 65] خسرانًا مبينًا.

فعليك ألَّا تصاحب مع المشركين، ولا تقبل منهم قولهم، ولا تمتثل أمرهم ﴿بَلِ اللهَ فَاعْبُدْ﴾ أي: بل إن أردت العبادة والإطاعة، فاعبد الله خاصة خالصة، ولا تلتفت إلى غيره ﴿وَكُن﴾ في شأنك هذا ﴿مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الزمر: 66] الصارفين لنعم الله إلى ما خلق لأجله؛ إذ هم جبلوا على فطرة العبادة والعرفان، بالنسبة إليه سبحانه حتى يتخذوه وكيلاً حسيبًا.

﴿وَ﴾ بالجملة: المشركون الذين اتخذوا أولياء من دونه سبحانه، وادعوا الوجود له وشركتهم معه سبحانه ﴿مَا قَدَرُوا اللهَ﴾ أي: ما وسعوا الحق باعتبار ظهوره بهذا الاسم المخصوص المستجمع لجميع الأسماء والصفات، المعبر به عن الذات الأحدية كاسمه العليم، لذلك لم يعرفوا ﴿حَقَّ قَدْرِهِ﴾[1] وقدر ظهوره وبطونه، ولو وسعوا له،

(1) القدر بمعنى التعظيم كما في القاموس فالمعنى ما عظموا الله حق تعظيمه حيث جعلوا له شريكا بما لا يليق بشأنه العظيم ويقال قدر الشيء قدره من التقدير كما في المختار. فالمعنى ما قدروا عظمته تعالى في أنفسهم حق عظمته، وقال الراغب في المفردات: ما عرفوا كنهه، يقول الفقير: هذا ليس في محله، فإن الله تعالى وإن كان لا يعرف حق المعرفة بحسب كنهه؛ ولكن تتعلق به

وعرفوا حق قدره، لما أثبتوا له شريكًا؛ إذ كل من تحقق بوحدة الحق وكيفية سريانه على هياكل الأظلال والعكوس المنعكسة، لم يبقَ عنده شائبة شك في ألَّا تعدد في ذاته سبحانه، ولا تكثر بل يتجلى ويتجدد في كل آن بشأن، ولا شك أن كل ما ظهر من الشئون فان ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: 27].

﴿وَ﴾ من جملة ما انعكس من بعض شئونه سبحانه ﴿الْأَرْضُ جَمِيعًا﴾ أي: جميع ما يتولد من الطبيعة والهيولي المنعكسة من التجليات الإلهية حسب اقتضاء أسمائه الحسنى وصفاته العليا، فيها ﴿قَبْضَتُهُ﴾ أي: مقبوضة في كفِّ قدرته ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ التي هي الطامة الكبرى التي انقهرت دونها أظلال السوى مطلقًا، مندكة في نفسها، معدومة في حد ذاتها، لا وجود لها ﴿وَ﴾ كذا ﴿السَّمَوَاتُ﴾ حينئذ ﴿مَطْوِيَّاتٌ﴾ معطلات عن مقتضياتها التي هي الأفعال والحركات، ساقطات في زاوية العدم على ما كانت عليها أزلاً وأبدًا؛ أي: تنزه ذاته وتقدست أسماؤه ﴿بِيَمِينِهِ﴾ وقدرته ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى﴾ شأنه ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: 67] له غيره ظلمًا وزورًا.

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الزمر: 68-70].

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل للمشركين يوم ﴿نُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ لرد الأمانات التي هي الوجودات المترشحة من بحر الذات على هياكل الهوايات ﴿فَصَعِقَ﴾ أي: خرَّ وسقط مغشيًا من فزعه ﴿مَن فِي السَّمَوَاتِ﴾ أي: جميع العلويات ﴿وَمَن فِي الْأَرْضِ﴾ أي: جميع السفليات خوفًا من انقطاع الأمور الإلهية بمقتضى النفس الرحماني ﴿إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ﴾ من المعتبرين الفانين في الله، الباقين ببقائه، فإنهم قد قامت قيامتهم ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى﴾ إيقاظًا لهم عن سنة الغفلة ونعاس النسيان ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ﴾ أي: فاجؤوا

تلك المعرفة بحسبنا فالمعنى ههنا ما عرفوا الله حق معرفته بحسبهم لا بحسب الله إذ لو عرفوه بحسبهم ما أضافوا إليه الشريك ونحوه فافهم. تفسير حقي (12/ 325).

على القيام، بعدما صاروا مغشيًا عليهم ﴿يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: 68] حينئذ حيارى سكارى مبهوتين هائمين، كأنهم صرعى مخبولين.

﴿وَ﴾ بعد ذلك ﴿أَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ أي: صارت الطبيعة والهيولي منورة بنور الله على ما كانت عليه قبل الفتح، وحينئذ عرضوا على الله ﴿وَوُضِعَ الكِتَابُ﴾ أي: مكتوب أعمال كل من النفوس الزكية والخبيثة بين أيديهم، وحُوسبوا بمقتضى ما فيه ﴿وَ﴾ بعدما تم حسابهم وتنقيد أعمالهم ﴿جِيءَ بِالنَّبِيِّينَ﴾ المبعوثين كل منهم إلى أمة من الأمم؛ ليشهدوا على أممهم بما كانوا عليه في النشأة الأولى ﴿وَالشُّهَدَاءِ﴾ أي: وجيء بالشهداء أيضًا؛ يعني: أنطق الله أركانهم وجوارحهم التي أتوا بها ما أتوا من خير وشر فيشهدون.

﴿وَ﴾ بعد انكشاف أحوالهم وضبط أعمالهم ﴿قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ﴾ على مقتضى العدالة الإلهية بلا حيف وميل ﴿وَهُمْ﴾ حينئذ ﴿لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الزمر: 69] بالزيادة والنقصان ثوابًا وعقابًا.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿وُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ﴾ جزاء ﴿مَّا عَمِلَتْ﴾ من خير وشر ﴿وَ﴾ كيف لا يوفى؛ إذ ﴿هُوَ﴾ سبحانه ﴿أَعْلَمُ﴾ وأحفظ منهم ﴿بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [الزمر: 70] أي: بجميع أفعالهم وأعمالهم الصادرة منهم، صالحها وفاسدها، نقيرها وقطميرها.

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [الزمر: 71-72].

﴿وَ﴾ بعد ذلك ﴿سِيقَ﴾ سوق البهائم إلى المسلخ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالإعراض عن الحق وأهله ﴿إِلَى جَهَنَّمَ﴾ الطرد والخذلان ﴿زُمَرًا﴾ فوجًا بعد فوج، وطائفة إثر طائفة ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا﴾ يعني: جهنم ﴿فُتِحَتْ﴾ لهم ﴿أَبْوَابُهَا﴾ أي: أبواب النيران المعدة لأهل الكفر والطغيان على تفاوت طبقاتهم فيه، ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾ حينئذ على سبيل التوبيخ والتقريع: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ أيها الضالون المستحقون لهذا الوبال والنكال ﴿رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ أي: من بني نوعكم مبعوثون إليكم من قبل الحق ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ

رَبِّكُمْ﴾ أي: دلائل توحيده، وكمال قدرته على أنواع الإنعام والانتقام ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ أي: يخوفونكم عن لقاء هذا اليوم الذي تدخلون فيه النار بأنواع الخيبة والخسران؟.

وبعدما سمعوا منهم ما سمعوا ﴿قَالُوا﴾ متحسرين متأوهين: ﴿بَلَىٰ﴾ قد جاءت إلينا رسل ربنا بالحق، وتلوا علينا آياته المشتملة على أنواع الإنذار والنذير ﴿وَلَٰكِنْ﴾ لم يفد بنا إنذارهم وتبشيرهم؛ إذ ﴿حَقَّتْ﴾ أي: صدرت وثبتت منه سبحانه في سابق قضائه وحضرة علمه حتمًا ﴿كَلِمَةُ الْعَذَابِ﴾ وهي قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: 119] ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: 71] المعرضين عن الحق وآياته، وعن من بلغها إليهم بإذنه، لذلك أعرضنا عنها وعنهم، فوجبت لنا النار.

وبالجملة: أتوا بالعذر وما ينفعهم بل ﴿قِيلَ﴾ لهم من قبل الحق: ﴿ادْخُلُوا﴾ أيها الضالون المجرمون ﴿أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ أي: كل فرقة منهم بباب يخصها في سابق القضاء، وكونوا ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ لا نجاة لكم منها ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: 72] أي: الكافرين المستكبرين وأهله جهنم الخذلان وجحيم الحرمان والخسران، أعاذنا الله وعموم المؤمنين منها بفضله العظيم.

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الزمر: 73-75].

﴿وَسِيقَ﴾ أيضًا سوق الحمام إلى المسرح ﴿الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ﴾ عن محارم الله بمقتضى أوامره ونواهيه الجارية على ألسنة رسله وكتبهم ﴿إِلَى الْجَنَّةِ﴾ المعدة لفيضان أنواع اللذات الروحانية على أهلها ﴿زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا﴾ فرحين مسرورين، وتحننوا نحوها ﴿وَ﴾ قد ﴿فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ عناية من الله إياهم ﴿وَقَالَ لَهُمْ﴾ حينئذ ﴿خَزَنَتُهَا﴾ ترحيبًا وتكريمًا: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ أيها المهديون المهتدون الذين ﴿طِبْتُمْ﴾ وطهرتم أنفسكم في دار الاختبار عن دنس الشهوات ورين المزخرفات ﴿فَادْخُلُوهَا﴾ أي: الجنة

المشتملة على أنواع الكرامات وأصناف السعادات الآن، وكونوا ﴿خَالِدِينَ﴾ [الزمر: 73] فيها أبد الآباد بلا نقل وتحويل، إلا إلى ما شاء الله لأهل العناية من الدرجات العلية التي لا تكتنه ولا توصف.

﴿وَ﴾ بعدما تمكنوا في مقر العز والحضور ﴿قَالُوا﴾ مسترجعين إلى الله، عادين موائد إنعامه وإفضاله على أنفسهم، قائمين لأداء حقوقها: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ والمنة لله ﴿الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾ أي: جميع ما وعدنا الله به في النشأة الأولى بوحيه النازل على ألسنة أنبيائه ورسله من المعتقدات الأخروية.

﴿وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ﴾ أي: المقر الموجود الذي بشرنا به الرسل الكرام، وهي الجنة الموروثة لأهل العناية من سوابق الإيمان والمعرفة والأعمال الصالحة الصادرة منهم في دار الاختبار، ومكننا فيه؛ بحيث ﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ﴾ وننزل ﴿حَيْثُ نَشَاءُ﴾ يعني: ينزل ويستريح كل منّا حيث شاء وأراد من المقامات البهية الدرجات العلية، بلا مضايقة وممانعة ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [الزمر: 74] المخلصين المخلِّصين نفوسهم عن أودية الجهالات والضلالات بنور الآيات البينات، الواصلين إلى روضة الرضا وجنة التسليم، اللهم ارزقنا بلطفك العميم، واجعلنا من ورثة جنة النعيم.

﴿وَ﴾ بعدما تقرر أهل النار في النار، وأهل الجنة في الجنة ﴿تَرَى﴾ أيها المعتبر المنكشف بكمال عظمة الله وجلاله ﴿الْمَلَائِكَةَ﴾ أي: الأسماء والصفات الإلهية، عبر عنها سبحانه بالملائكة المهيمين المستغرقين بمطالعة وجهه الكريم ﴿حَافِّينَ﴾ صافين محدقين محلقين ﴿مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ﴾ أي: حول عرشه العظيم المستغني عن عروش مطلق المظاهر، والحال الكائنة في عالمي الغيب والشهادة؛ إذ هو سبحانه غني بذاته عن مطلق التعينات الطارئة على شئونه وتطوراته، لذلك ﴿يُسَبِّحُونَ﴾ وينزهون أولئك المهيمون ذاته سبحانه عن سمات الحدوث والإمكان مطلقًا دائمًا، ويواظبون ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ على ما وهب لهم المعرفة بعلو شأنه وسمو برهانه، وباستغنائه في ذاته عن مظاهر أوصافه وأسمائه جميعًا ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ﴾ أي: هم يحمدونه ويثنون عليه سبحانه أيضًا على عموم قضائه وحكمه، وأحكامه الجارية بين عباده بمقتضى العدل القويم.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿قِيلَ﴾ من قبل كل من يتأتى منه الرجوع إليه سبحانه والتوجه نحوه طوعًا على الوجه الذي أمر به: ﴿الْحَمْدُ﴾ المطلق المستوعب لجمع الأثنية

والمحامد الصادرة من عموم المظاهر ثابت ﴿لِلَّهِ﴾ أي: للذات المستجمع لجميع أوصاف الكمال بالاستحقاق والاستقلال لكونه ﴿رَبِّ العَالَمِينَ﴾ [الزمر: 75] بمقتضى توحيده وانفراده، فيكون جميع محامدهم مختصة به سبحانه؛ إذ لا مربي لهم سواه.

حققنا بكرمك بحق قدرك وبقدر حقك يا ذا القوة المتين.

خاتمة السورة

عليك أيها المحمدي القاصد للتحقيق والإدراك بكمال عظمة الله وجلاله، أن تتأمل في أواخر هذه السورة، وتتعمق فيها وفي كشف سرائرها ومرموزاتها وإشاراتها الخفية وعباراتها المنبهة على وحدة الحق وحقيته؛ لينكشف لك أنه لا يشغله شأن عن شأن، ولا يقدر تحققه وقيوميته زمان ومكان، بل هو كائن على ما كان في كل آن وشأن بلا زمان ومكان.

سورة غافر

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة سورة غافر «المؤمن»

لا يُخفى على من ترقى من حضيض التقليد إلى ذروة التوحيد، ومن أودية الجهالات اللازمة للتعينات الإمكانية إلى أقصى درجات الإدراك وأعلاها، أن أجل المعلومات وأولاها وأدق المعارف وأخفاها هو الإطلاع على وحدة الحق وتوحيده في الذات الوجود، وبكثرة حسب الأسماء والصفات المقتضية للشئون والتطورات الغير المحصورة.

لذلك أوحى سبحانه حبيبه بما أوحى من دلائل التوحيد، وأوصاه بحفظ ما نزل من الآيات المنزلة المبينة لتلك الآيات الدلائل؛ ليكون على ذكر منها، فقال سبحانه مخاطبًا له بعدما تيمن باسمه الأعلى: ﴿بِسْمِ اللهِ﴾ المفصح المعرب عن الذات الأحدية باعتبار التسمية ونشأة العبارة ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ الدال على ثبوت عموم الأسماء والصفات لتلك الذات المؤثرة بها آثارًا لا تُعد ولا تحصى ﴿الرَّحِيمِ﴾ الدال على رجوع الكل إليها رجوع الأظلال إلى الأضواء.

﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾﴾ [غافر: 1-5].

﴿حم﴾ [غافر: 1] يا حامل الوحي وحاميه، ويا ماحي الغير والسوى عن لوح الضمير مطلقًا.

﴿تَنزِيلُ الكِتَابِ﴾ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ومن خلفه، إليك يا أكمل الرسل تأييدًا لك في أمرك وشأنك ﴿مِنَ اللهِ﴾ أي: من الذات المعبر بهذا الاسم الجامع

﴿العَزِيزِ﴾ المنيع الغالب ساحة عز حضوره عن أن يحوم حول وحيه شائبة الريب والتخمين ﴿العَلِيمِ﴾ [غافر: 2] الذي لا يعزب عن حيطة علمه شيء مما جرى عليه قضاؤه.

﴿غَافِرِ الذَّنبِ﴾ أي: ساتر ذنوب الأنانيات، والهويات الحاصلة من انصباغ التعينات العدمية بصبغ الأسماء والصفات ﴿وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ أي: التوبة والرجوع على وجه الإخلاص والندم من إثبات الوجود لغيره سبحانه ﴿شَدِيدِ العِقَابِ﴾ على من خرج عن ربقة عبوديته بإسناد الحوادث إلى نفسه، أو إلى مثله في الحدوث والمخلوقية ﴿ذِي الطَّوْلِ﴾ والغني عن توحيد الموحد وإلحاد المشرك الملحد؛ لأنه في ذاته ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ ولا موجود سواه يُعبد له ويُرجع إليه في الخطوب؛ إذ ﴿إِلَيْهِ المَصِيرُ﴾ [غافر: 3] أي: مرجع الكل إليه سواء وحدّه الموحدون، أو ألحد في شأنه الملحدون المشركون.

ثم قال سبحانه توضيحًا وتصريحًا لما عُلم ضمنًا: ﴿مَا يُجَادِلُ﴾ ويكابر ﴿فِي﴾ شأن ﴿آيَاتِ اللهِ﴾ ودلائل توحيده واستقلاله في الآثار المترتبة على شئونه وتجلياته ﴿إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وستروا ظهور شمس الذات، وتحققها في صفحات الكائنات بغيوم هوياتهم الباطلة وتعيناتهم العاطلة ﴿فَلاَ يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي البِلادِ﴾ [غافر: 4] أي: لا يغررك يا أكمل الرسل إمهالنا إياهم، يتقبلون في بلاد الإمكان وبقاع الهيولي عن إمهالنا وعدم انتقامنا منهم بالطرد إلى هاوية العدم وزاوية الخمول.

وإن كذبوك يا أكمل الرسل في دعوتك وشأنك وعاندوا معك، فاصبر على أذاهم وتذكر كيف ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ أخاك نوحًا، وكيف صبر هو حتى ظفر عليهم حين ظهر أمرنا، وجرى حكمنا بأخذهم واستئصالهم ﴿وَ﴾ كيف كذبت ﴿الأَحْزَابُ﴾ والأمم الكثيرة ﴿مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي: بعد قوم نوح رسلهم المبعوثين إليهم للهداية والإرشاد.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿هَمَّتْ﴾ وقصدت ﴿كُلُّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم الماضية ﴿بِرَسُولِهِمْ﴾ المرسل إليهم ﴿لِيَأْخُذُوهُ﴾ ويأسروه، بل ليقتلوه أو يستحقروه ويهينوه ﴿وَجَادَلُوا﴾ أولئك الهالكون المنهمكون في تيه الكبر والعناد معهم ﴿بِالْبَاطِلِ﴾ الزاهق الزائل في نفسه ﴿لِيُدْحِضُوا بِهِ﴾ ويزيلوا به ﴿الحَقَّ﴾ الحقيق بالإطاعة والاتباع ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾ واستأصلتهم بعدما أمهلتهم زمانًا، يعمهون في طغيانهم، ويترددون في بنيانهم ﴿فَكَيْفَ

كَانَ عِقَابِ﴾ [غافر: 5] إياهم حين حلَّ عليهم ما حلَّ من العذاب.

﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾﴾ [غافر: 6-9].

﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ﴾ وثبتت ﴿كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ يا أكمل الرسل في لوح قضائه وحضرة علمه ﴿عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بك وبدينك وكتابك ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ [غافر: 6] أي: ملازموها وملاصقوها أبد الآباد، لا نجاة لهم منها، فـ﴿لاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: 127].

ثم أشار سبحانه إلى حثِّ المؤمنين الموحدين على الإيمان، ومواظبة الشكر على إنعام الله إياهم باليقين، فقال: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ﴾ وهم الكروبيون الذين سبقوا بحمل العرش الإلهي، وحفظ ما انعكس فيهم من تجلياته الجمالية بدوام المراقبة والمطالعة بوجهه الكريم ﴿وَمَنْ حَوْلَهُ﴾ من الملائكة الذين يطوفون حول العرش، ويقتفون أثر أولئك الحملة السابقين كلهم ﴿يُسَبِّحُونَ﴾ وينزهون الحق عن سمات الحدوث والإمكان، ويقدسونه عن عروض السهو والنسيان؛ إذ كمال ما يدرك المدرك منه سبحانه إنما هو التسبيح والتقديس، وإلا فالأمر أعز وأعلى من أن يحيط به الآراء ويحوم حوله الأهواء، ويواظبون ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ على ما أولاهم نعمة التوجه إليه والتحنن نحوه.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ سبحانه، ويوحدونه، ويعتقدون أوصافه العليا وأسماءه الحسنى، وإن عجزوا عن كنه ذاته ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: يطلبون العفو والستر منه سبحانه لذنوب إخوانهم الذين آمنوا بوحدة الحق وكمالات أسمائه وصفاته، مثل إيمانهم سواء كانوا سماويين أو أرضيين، قائلين مناجين مع ربهم حين استغفارهم: ﴿رَبَّنَا﴾ يا من ربانا على فطرة تسبيحك وتقديسك، ومداومة حمدك

وثنائك، أنت بذاتك بمقتضى كرمك وجودك ﴿وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ أي: وسعت رحمتك، وأحاطت حضرة علمك على كل ما لمع عليه بروق تجلياتك وشروق شمس ذاتك ﴿فَاغْفِرْ﴾ لسعة رحمتك وجودك ﴿لِلَّذِينَ تَابُوا﴾ ورجعوا نحو بابك نادمين، وامحُ عن عيون بصائرهم سبل الغير والسوى في جنب بابك ﴿وَاتَّبَعُوا﴾ بالعزيمة الصادقة الخالصة ﴿سَبِيلَكَ﴾ الذي أرشدتهم إليه بوحيك على رسلك ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [غافر: 7] [1] أي: احفظهم عن عذاب الطرد والحرمان المعد لأصحاب الخسران في جميع حججهم الخذلان.

﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ﴾ بفضلك ولطفك ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ أي: متنزهات العلم والعين والحق ﴿الَّتِي وَعَدتَّهُمْ﴾ في كتابك لعموم أرباب العناية من عبادك ﴿وَ﴾ كذا أدخل ﴿مَن صَلَحَ﴾ عندك لفيضان جودك وإحسانك ﴿مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ الذين تناسلوا منهم على فطرة التوحيد، وحلية الإيمان والعرفان ﴿إِنَّكَ﴾ بذاتك وأسمائك وصفاتك ﴿أَنتَ الْعَزِيزُ﴾ المنيع ساحة عز حضوره عن أن يحوم حوله شائبة وهم أحد من مظاهرك ومصنوعاتك ﴿الْحَكِيمُ﴾ [غافر: 8] في جميع أفعالك الصادرة عنك على كمال الإحكام والإتقان.

﴿وَقِهِمُ﴾ بمقتضى حكمتك المتقنة ﴿السَّيِّئَاتِ﴾ أي: الجرائم والآثام المستتبعة لإدخالهم إلى دركات النيران، ﴿وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: من تحفظه أنت بمقتضى لطفك وتوفيقك عن المعاصي في النشأة الأولى ﴿فَقَدْ رَحِمْتَهُ﴾ ألبتة في النشأة الأخرى ﴿وَذَلِكَ﴾ أي: وقايتك وحفظك إياهم عن أسباب الخذلان والحرمان ﴿هُوَ الْفَوْزُ

(1) قال روزبهان: وصف الله عراف ملائكته الذين ألبسهم الله قوة جبروته، ونور ملكوته، وهم اللاهوتيون يحملون كنز الأعظم بعظمة الله وقوته، والسكر من شراب قربه ومحبته، وفيض مشاهدته، يطيرون في هواء هويته بالأجنحة القدوسية، والرفارف السبوحية، مع مرآة الوجود، وكنوز الجود حيث يشاء الحق سبحانه من الأماكن والمشاهد، يسبحون مما يجلون منه القدس والتنزيه، حمدًا لأفضاله، وبأنه منزه عن النظير والشبيه، يؤمنون به في كل لحظة بما يرون منه من كشوف صفات الأزليات، وأنوار حقائق الذات التي تطمس في كل لمحة مسالك رسوم العقليات، وهم يقرون كل لحظة بجهلهم عن معرفة وجوده. ثم بيّن أنهم أهل الرقة والرحمة والشفقة على أوليائه؛ لأنهم إخوانهم في نسب المعرفة والمحبة، يستغفرون لهم حين أقروا كلهم بأنه تعالى لا يدركه غوص الأوهام، ولا يحويه بطون الأفهام، سألوا غفرانهم لما جرى على قلوبهم من أنهم على شيء في معرفته.

﴿الْعَظِيمُ﴾ [غافر: 9] والكرم العميم واللطف الجسيم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا ۚ فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ [غافر: 10-14].

ثم أشار سبحانه إلى تفضيح من كفر بالله، وكذَّب بما نزل من عنده من الأوامر والنواهي الجارية بمقتضى وحيه على ألسنة رسله وكتبه في النشأة الأولى، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله، وأنكروا بوحدة ذاته وسريان وجوده الوحداني الذاتي على جميع مظاهر الكائنات حسب شئون الأسماء والصفات، بأن أشركوا فيه سبحانه، وأثبتوا وجودًا لغيره، وادعوا ترتب الآثار عليه ﴿يُنَادَوْنَ﴾ في الطامة الكبرى، والنشأة الأخرى حين ظهر الحق، واستقر على مقر العز والتمكين، وانقهر الباطل الزاهق الزائل، واضمحل التلون والتخمين ﴿لَمَقْتُ اللَّهِ﴾ أي: طرده وتحريمه لكم اليوم ﴿أَكْبَرُ﴾ وأفظع ﴿مِن مَّقْتِكُمْ﴾ وتحريمكم ﴿أَنفُسَكُمْ﴾ عن موائد لطفه وإحسانه سبحانه.

وذلك ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ﴾ أي: وقت دعوة الأنبياء والرسل إياكم بإذن الله ووحيه ﴿إِلَى الْإِيمَانِ﴾ به سبحانه وبتوحيده ﴿فَتَكْفُرُونَ﴾ [غافر: 10] حينئذ، وتسترون شروق شمس ذاته بغيوم هوياتكم الباطلة جهلاً وعنادًا، بل تشركون له غيره في الألوهية والوجود، وتعبدون له كعبادته سبحانه.

وبعدما سمعوا ما سمعوا من النداء الهائل المهول ﴿قَالُوا﴾ بلسان استعداداته متحسرين متضرعين: ﴿رَبَّنَا﴾ يا من رباناعلى فطرة معرفتك وتوحيدك، فكفرناك وأشركنا بك غيرك، قد ظهر لنا اليوم حقية ما ورد علينا من قبل بعدما ﴿أَمَتَّنَا﴾ وأفنيتنا في هوتك مرتين ﴿اثْنَتَيْنِ﴾ مرة في النشأة الأولى بانقضاء الأجل المقدر من عندك، ومرة في النشأة الأخرى بعد النفخة ﴿وَ﴾ كذا ﴿أَحْيَيْتَنَا﴾ وأبقيتنا ببقائك مرتين ﴿اثْنَتَيْنِ﴾ مرة عند حشرنا من أجداث طبائعنا، ومرة بعد النفخة الثانية للعرض والجزاء.

وبعدما لاح علينا من دلائل توحيدك وكمال قدرتك ما لاح ﴿فَاعْتَرَفْنَا﴾ الآن ﴿بِذُنُوبِنَا﴾ التي صدرت عنّا من غاية غفلتنا وجهلنا بك وبقدرتك، ووحدة ذاتك واستقلالك في آثارك الصادرة عنك ﴿فَهَلْ﴾ لنا اليوم مجال ﴿إِلَى خُرُوجٍ﴾ من عذابك الذي أعددت لنا بمقتضى عدلك حسب جرائمنا وآثامنا ﴿مِّن سَبِيلٍ﴾ [غافر: 11] إلى الخلاص والنجاة منه.

ثم بعدما تضرعوا من شدة هولهم وفظاعة أمرهم ما تضرعوا، نودوا من وراء سرادقات القهر والجلال: ﴿ذَلِكُم﴾ أي: العذاب الذي أنتم فيه ﴿بِأَنَّهُ﴾ أي: بسبب أنه ﴿إِذَا دُعِيَ﴾ وذكر ﴿اللهُ﴾ المتعزز برداء العظمة والكبرياء ﴿وَحْدَهُ﴾ أي: على صرافة وحدته، واستغنائه عن العالم وما فيه ﴿كَفَرْتُمْ﴾ وأنكرتم وجوده وكمال أوصافه وأسمائه، وكذبتم رسله المبعوثين إليكم للتبليغ والتبيين ﴿وَإِن يُشْرَكْ بِهِ﴾ ويثبت له شركاء ﴿تُؤْمِنُوا﴾ وتقروا بالشركاء، وتعتقدوا وجودها، وتصدقوا من تفوه بها ﴿فَالْحُكْمُ﴾ المحكم والقضاء الحتم المبرم الآن ﴿لِلَّهِ﴾ المنزه ذاته عن أن يتردد فيه أو يشرك ﴿الْعَلِيِّ﴾ الغني شأنه عن إيمان المؤمن وكفر الكافر ﴿الْكَبِيرِ﴾ [غافر: 12] المتعال وحدة ذاته عن أن يحوم حوله إقدام الإقرار والإنكار.

وكيف تنكرون له سبحانه، وتشركون فيه مع أنه سبحانه ﴿هُوَ﴾ الله الكامل في الألوهية والربوبية ﴿الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ الدالة على وحدة ذاته ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ﴾ أي: سماء الأسماء المربية لكم من لدنه ﴿رِزْقًا﴾ صوريًا ومعنويًا تتميمًا لتربيتكم وتكميلكم ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ﴾ ويتعظ منكم بآياته ﴿إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ [غافر: 13] إليه، ويرجع نحوه طالبًا الترقي من حضيض التقليد والتخمين إلى ذروة التحقيق واليقين.

وإذا سمعتم كمال تربيته وتكميله سبحانه ﴿فَادْعُوا اللهَ﴾ الواحد الأحد الصمد، وتوجهوا نحوه، واعبدوا حق عبادته أيها المكلفون بمعرفته وتوحيده حال كونكم ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي: الإطاعة والانقياد بلا رؤية الوسائل والأسباب العادية في البين ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر: 14] المكابرون إطاعتكم إياه، ورجوعكم إليه على وجه الإخلاص والاختصاص.

﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾

﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَـٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾﴾ [غافر: 15-20].

وكيف لا يدعون ويعبدون له سبحانه، مع أنه هو في ذاته ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ﴾ أي: درجات قربه ووصوله رفيعة، وساحة عز حضوره منيعة لا يسع لكل قاصد أن يحوم حولها، إلا بتوفيق منه سبحانه وجذب من جانبه ﴿ذُو الْعَرْشِ﴾ العظيم؛ إذ لا ينحصر مقر استيلائه وظهوره بمظهر دون مظهر ومجلى دون مجلى، بل له مجالي إلى ما شاء الله؛ إذ هو بمقتضى تجليه الجمالي ﴿يُلْقِي الرُّوحَ﴾ على وجه الأمانة ويمد الظل ﴿مِنْ عالم أَمْرِهِ﴾ بمقتضى حبه الذاتي ﴿عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أي: استعدادات مظاهرة المستظلين بظلال أسمائه وصفاته، وبعد إلقائه ومدِّه إياهم، كلفهم بما كلفهم من الأوامر والنواهي المصححة للعبودية اللازمة للألوهية والربوبية، وإنما كلفهم بما كلفهم ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ [غافر: 15] أي: يخوفهم عن زمان الوصول والرجوع في النشأة الأخرى، والطامة الكبرى التي ترد فيها الأمانات إلى أهلها على وجهها.

إذ هو ﴿يَوْمَ هُم بَارِزُونَ﴾ خارجون من أجداث أجسادهم، راجعون إلى الله جميعًا بأرواحهم، محشورون عنده معرضون عليه؛ بحيث ﴿لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ﴾ المحيط بهم ﴿مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ من أعيانهم وأعمالهم ونياتهم، وبعدما برزوا لله ورجعوا نحوه صائرين إليه، فانين فيه، قيل لهم من قِبل الحق بعد فناء الكل إظهارًا لكمال قدرته وجلاله: ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ أي: ملك الوجود والتحقق والثبوت، فأجيب أيضًا من قِبله؛ إذ لا موجود سواه، ولا شيء غيره: ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ﴾ من كل الوجوه ﴿الْقَهَّارِ﴾ [غافر: 16] لنقوش السوى والأغيار، وعكوس الأظلال والأمثال.

وبعدما استقروا استوى سبحانه على الملك المطلق بالإطاعة والاستحقاق على ما كان ويكون في أزال الآزال وأبد الآباد، أشار إلى سرائر ما ظهر منه في النشأة الأولى فقال: ﴿الْيَوْمَ﴾ أي: يوم الجزاء والنشأة الأخرى ﴿تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ أي: طبق ما كسبت واقترفت في النشأة الأولى، التي هي نشأة التكلف والاختبار بلا ازدياد وتنقيص عليه؛ إذ ﴿لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾ أي: يوم الجزاء؛ لأنه إنما وضع لظهور العدالة

الإلهية والقسط الحقيقي، بل تجزى فيه كل من النفوس بجميع ما صدرت عنها، خيرًا وشرًا نفعًا وضرًا ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المطلع على عموم ما ظهر وبطن من عباده ﴿سَرِيعُ الحِسَابِ﴾ [غافر: 17] عليهم بلا فترة وتلبيس؛ إذ لا يشغله شأن عن شأن، ولا يطرأ عليه سهو ونسيان.

﴿وَأَنذِرْهُمْ﴾ يا أكمل الرسل؛ أي: عموم المكلفين ﴿يَوْمَ الآزِفَةِ﴾ والمشارفة على العذاب الأبدي، حين أحضروا على شفير جهنم للطرح فيها ﴿إِذِ القُلُوبُ﴾ أي: قلوب أولئك المحضرين ترتفع حينئذ ﴿لَدَى الحَنَاجِرِ﴾ وتلتصق بحلاقيمهم من كمال هولهم واضطرابهم، وكانوا حينئذ ﴿كَاظِمِينَ﴾ ومملوئين من الغم والحزن وأنواع الكآبة والخذلان، وبالجملة: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ﴾ أي: لهؤلاء المسرفين المقصورين على الخيبة والخسران حينئذ ﴿مِنْ حَمِيمٍ﴾ قريب يدركهم، ويولي أمرهم، ويسعى في استخلاصهم ﴿وَلاَ شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: 18] أي: شفيع يشفع ويقبل الشفاعة منه لأجلهم.

مع أنه سبحانه ﴿يَعْلَمُ﴾ بعلمه الحضوري ﴿خَائِنَةَ الأَعْيُنِ﴾ أي: خيانتهم التي يتغامزن بعيونهم نحو محارم الله ﴿وَ﴾ يعلم أيضًا ﴿مَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: 19] (1)

---

(1) قال روزبهان: وصف الله خيانة العيون وخفايا الصدور، وقال: لا يخفى عليَّ منها شيء، وذلك أن العين باب من أبواب القلب، فإذا رأت العين شيئًا يكون حظ القلب منه، يعلم ذلك نفسه فيطلب الحظ منه، ومن القلب إلى العين باب يجري عليها حركة هواجس النفس تحثها على النظر إلى شيء فيه لها نصيب، فإذا تحققت ذلك علمت أن خيانة العين متعلقة بما تخفي الصدور، وإذا كان العارف عارفًا بنفسه ويروضها برياضات طويلة، ويقدسها بمجاهدات كثيرة، ويزمها بزمام الخوف، وآداب الشريعة، صارت صافية من حظوظها، فبقيت في سرها جلتها على الشهوات، ففي كل لحظة يجرى في سرها طلب حظوظها، ولكنها سترتها على العقل وأخفتها، عن الروح من خوفهما، فإذا وجدت الفرصة خرجت إلى روزنة العين، فتنظر إلى مرادها، وتسرق حظها من النظر إلى المحارم، وذلك النظر خفي، وتلك الشهوة خفية، وصفهما الله سبحانه في هذه الآية، واستعاذ منها النبي ﷺ حيث قال: «أعوذ بك من الشهوة الخفية». وقال أبو حفص النيسابوري: زنا العارف نظره بالشهوة، وافهم واسمع حقيقة ذلك أن الروح العاشقة إذا احتجبت عن مشاهدة جمال الأزل تنقبض وتطلب حظها، ولا تقدر أن تنظر إلى الحق فتطلب ذلك من صورة الإنسانية التي فيها آثار الروحانية، فتنظر من منظره إلى منظر العقل، ومن منظر العقل إلى منظر القلب، ومن منظر القلب إلى منظر النفس، ومن منظر النفس إلى منظر الصورة، وتنظر من العين إلى جمال المستحسنات، لينكشف لها ما يستر عنها من شواهد الحق، فتذهب النفس معه وتسرق تحته حظها من النظر بالشهوة، فذلك النظر منها غير مرضي في الشرع والطريقة. وفي سر الحقيقة نظر الروح إلى الحق بالوسائط أيضًا خيانة، وخيانته في الصدر ألا يصبر في مقام

أي: ما تخفي صدورهم من الميل إلى الشهوات المحرمة بلا مباشرة الآلات.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿اللَّهُ﴾ المطلع بظواهرهم وضمائرهم ﴿يَقْضِي﴾ ويحكم بهم، ويجازي عليهم بمقتضى علمه وخبرته منهم ﴿بِالْحَقِّ﴾ بلا حيف وميل إظهارًا لكمال عدالته ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾ سبحانه من الأوثان والأصنام ﴿لَا يَقْضُونَ﴾ ولا يحكمون لا لهم ولا عليهم ﴿بِشَيْءٍ﴾ من نفع وضر؛ إذ هم جمادات لا شعور لها ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ القادر المقتدر على أنواع الإنعام والانتقام ﴿هُوَ السَّمِيعُ﴾ لجميع ما صدر من ألسنة استعداداته ﴿الْبَصِيرُ﴾ [غافر: 20] بما ظهر على هياكل هوياتهم.

﴿ ۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ ۚ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٢﴾ ﴾ [غافر: 21-22].

ثم أشار سبحانه إلى تقريع أهل الزيغ والضلال، وتفضيح أصحاب العناد والجدال، فقال مستبعدًا مستنكرًا إياهم: ﴿أَ﴾ ينكرون قدرتنا عليهم وانتقامنا عنهم ﴿وَلَمْ يَسِيرُوا﴾ ويسافروا ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ الموروثة لهم من أسلافهم الذين أسرفوا على أنفسهم أمثالهم ﴿فَيَنظُرُوا﴾ بنظر التأمل والاعتبار؛ ليظهر عندهم ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ﴾ المسرفين ﴿الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ﴾ مستقرين عليها، متمكنين فيها، مترفهين أمثالهم، بل ﴿كَانُوا هُمْ﴾ أي: أسلافهم ﴿أَشَدَّ مِنْهُمْ﴾ أي: من هؤلاء الأخلاف ﴿قُوَّةً﴾ وقدرة وأكثر أموالاً ﴿وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: حصونًا وقلاعًا وقصورًا وأخاديد، وغير ذلك مما صدر من ذوي الأحلام السخيفة، ومع ذلك ما أغنى عنهم شيئًا من غضب الله وعذابه، بل ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ﴾ المنتقم منهم ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ التي صدرت عنهم على سبيل البطر والغفلة، فاستأصلهم بالمرة ﴿وَمَا كَانَ لَهُم﴾ حينئذ ﴿مِّنَ﴾ عذاب ﴿اللَّهِ﴾ وبطشه ﴿مِن

- القبض ليجري عليه أحكام الحقيقة، ثم ينكشف له عالم البسط، فنبهنا الله بهذه الآية أنه يعلم بعلمه القديم هذه الخفايا ولا يستحسن. قال أبو عثمان: خيانة العين هو ألا يغضها عن المحارم، ويرسلها إلى الهوى والشهوات.

وَاقٍ﴾ [غافر: 21] حفيظ لهم، يمنع عذاب الله عنهم.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾ أي: ما ذلك البطش والانتقام إلا بسبب أنهم من شدة عتوهم وعنادهم ﴿كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم﴾ من قِبل الحق مؤيدين ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الواضحة والبراهين القاطعة من أنواع الآيات والمعجزات ﴿فَكَفَرُوا﴾ بالله وبهم أمثال هؤلاء التائهين في بيداء الغفلة والغرور، وأنكروا على بيناتهم، ونسبوها إلى السحر والشعبذة، وظهروا على رسل الله بأنواع الخرافات والهذيانات ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ﴾ القدير الحليم بكفرهم وعتوهم؛ بعدما أمهلهم زمانًا، يترددون فيما يرومون ويقصدون فيه، وكيف لا يأخذهم سبحانه ﴿إِنَّهُ قَوِيٌّ﴾ مطلق، وقدير كامل على من ظهر عليه وخرج عن ربقة عبوديته ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [غافر: 22] صعب الانتقام على من كذب وتولى على الرسل الكرام.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾﴾ [غافر: 23-26].

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ من مقام جودنا أخاك ﴿مُوسَى﴾ الكليم ﴿بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على كمال قدرتنا ﴿وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ [غافر: 23] أي: حجة واضحة دالة على صدقه في رسالته ودعوته.

﴿إِلَى فِرْعَوْنَ﴾ الطاغي الذي بالغ في العتو والعناد، حيث تفوه بـ«أنا ربكم الأعلى» ﴿وَهَامَانَ﴾ المصدق لطغيانه، المعاون على عتوه وعدوانه ﴿وَقَارُونَ﴾ المباهي بالثروة والغنى، وبعدما بلغ إليهم الدعوة، وأظهر عليهم المعجزة ﴿فَقَالُوا﴾ بلا تردد وتأمل فيما سمعوا وشاهدوا منهم: ما هذا المدعي إلا ﴿سَاحِرٌ﴾ في بيته ﴿كَذَّابٌ﴾ [غافر: 24] في دعوته؛ أي: فاجؤوا على التكذيب والإنكار بلا مبالاة به وبشأنه، بمقتضى ما هم عليه من العتو والاستكبار.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُم﴾ موسى ملتبسًا ﴿بِالْحَقِّ﴾ مؤيدًا ﴿مِنْ عِندِنَا﴾ وآمن له بنو

إسرائيل حين عاينوا منه الآيات الكبرى والمعجزات العظمى ﴿قَالُوا﴾ يعني: فرعون أصالة، وملؤه تبعًا لأعوانهم وأتباعهم: ﴿اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ يعني: أعيدوا على بني إسرائيل الزجر الشنيع الذي أنتم تفعلون معهم من قبل ﴿وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ﴾ للزواج والوقاع، تعييرًا عليهم وتضعيفًا لهم؛ يعني: هم قصدوا المكر والمقت على أولئك المؤمنين بقولهم هذا ﴿وَ﴾ ما يظن أنهم ممكورون وممقوتون؛ إذ ﴿مَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ﴾ ومكرهم حيث كادوا ومكروا ﴿إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [غافر: 25] أي: هلاك وبوار على أهل الحق، لذلك لم ينالوا على ما قصدوا، بل عاد عليهم، ولحق بهم أضعاف ما قصدوا إياهم، ومكروا لأجلهم.

﴿وَ﴾ بعدما ظهر أمر موسى الكليم وعلا قدره، وانتشر بين الناس حجته وبرهانه ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ لملئه الذين قالوا له حين غلب موسى على السحرة، وقصد فرعون قتله فمنعه الملأ عن قتله، حتى لا يظهر بين الناس مغلوبيته من موسى، مع أنه ادعى الألوهية لنفسه: ﴿ذَرُونِي﴾ أي: اتركوني على حالي، أنا ﴿أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ أي: يمنعني عن قتله، أو يهلكني لأجله؛ يعني: لا أبالي به وبربه، بل ﴿إِنِّي أَخَافُ﴾ عليكم لو لم أقتله ﴿أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ وانقيادكم على سحره ﴿أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [غافر: 26] أي: النهب والغارة في أطراف المملكة وأكناف البلاد، وإن لم يقدر على تغيير دينكم وعقائدكم.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٩﴾﴾ [غافر: 27-29].

﴿وَ﴾ بعدما وصل إلى موسى ما قصد له العدو ﴿قَالَ مُوسَىٰ﴾ متوكلاً على الله مفوضًا أمره إليه: ﴿إِنِّي عُذْتُ﴾ والتجأت ﴿بِرَبِّي وَرَبِّكُم﴾ الواحد الأحد الصمد المراقب على حفظ عباده الخُلّص أيها المؤمنون ﴿مِّن﴾ شر ﴿كُلِّ مُتَكَبِّرٍ﴾ متناه في

الكبر والخيلاء بمقتضى أهويته الباطلة وإرادته الفاسدة؛ إذ ﴿لَا يُؤْمِنُ﴾ ويصدق ﴿بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [غافر: 27] حتى يرتدع عن أمثال هذه الجرأة على رسل الله، وخُلّص عباده، فإنه سبحانه يكفي عني مؤنة شره.

﴿وَ﴾ بعدما صمم فرعون عزمه لقتل موسى، وجزم لمقته وهلاكه ﴿قَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ﴾ موحد ما كان له اعتقاد بألوهية فرعون، وإن كان ﴿مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ لكن ﴿يَكْتُمُ إِيمَانَهُ﴾ منهم: ﴿أَتَقْتُلُونَ﴾ أيها المسرفون المتكبرون ﴿رَجُلًا﴾ موحدًا بمجرد ﴿أَن يَقُولَ﴾ حقًا: ﴿رَبِّيَ اللَّهُ﴾ الواحد الأحد الصمد، المنزه عن الشريك والنظير، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: 11][1] ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿قَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الواضحة والمعجزات اللائحة مِن قِبل ﴿رَّبِّكُمْ﴾ الذي أوجدكم من كتم العدم ﴿وَإِن يَكُ كَاذِبًا﴾ في دعواه ﴿فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ﴾ أي: وبال كذبه آيل إليه ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم﴾ ألبتة ﴿بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ بمقتضى وحي الله وإلهامه، وبالجملة: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ الهادي إلى سبيل الرشاد ﴿لَا يَهْدِي﴾ ويوفق على الهداية كل ﴿مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾ في فعله ﴿كَذَّابٌ﴾ [غافر: 28] في قوله، فلا حاجة إلى قتله ودفعه؛ إذ قد يرهق عن قريب إن كان كاذبًا.

ثم ناداهم وخاطبهم مضيفًا لهم إلى نفسه إمحاضًا للنصح، واشتراكًا معهم في الوبال النازل عليهم، فقال: ﴿يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ أي: ملك العمالقة مختص لكم

(1) قال سيدي علي وفا: اسمع: إن قيل لك المِثل بكسر الميم وسكون الثاء وبفتح الميم والثاء واحد، فكيف الجمع بين قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ وبين قوله: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: 60] وبين قوله: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ﴾ فقل: وما توفيقُ العبد إلا بالله سيده ومولاه: إن كانا واحدًا لغةً فالمثل قد أثبت للحقيقة التي هي الهوية بقوله: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ ، ولاسم الجلالة بقوله: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ ، ولنور الله بقوله: ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ ونُفي عن مثل الهوية بقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ وأثبت المثل للنور بقوله: ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ هذا المشكاة أمرٌ وهميٌ ليس غير؛ لأنه في الحس فراغ متوهم وخلاء، والخلاء ثابت وهمًا فقط، فهو في الحس والكون لا شيء، فلا يلزم من كونه كائنًا أن يكون ذلك الأمر شيئًا. وإنما قال: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ﴾ [النور: 35]؛ ليثبت أنه ليس له مثل حقيقي؛ إذ الظاهر منه في المظاهر هو بالحقيقة، ومثاله بالوهم ليس إلا كالذي تراه منك بواسطة المرايا الصقيلة، ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾ [النور: 35]: أي يبين الله الأمثال للناس، فافهم.

اليوم بلا منازع ومخاصم، حال كونكم ﴿ظَاهِرِينَ﴾ عالين غالبين ﴿فِي﴾ أقطار ﴿الأَرْضِ﴾ كلها، والحمد لله والمنَّة، فلا ترتكبوا فعلاً جالبًا لغضب الله عليكم، بل اتركوا قتله، وإلَّا ﴿فَمَن يَنصُرُنَا﴾ وينقذنا ﴿مِنْ بَأْسِ اللهِ﴾ المنتقم الغيور وعذابه ﴿إِن جَاءَنَا﴾ ونزل علينا بسبب قتل الصادق الصدوق في الدعوى، المرسل من عند الله تبارك وتعالى، لو نزل بما كيف ندفعه؟.

قيل: هذا القائل المؤمن هو ابن عم فرعون، وهو عنده من المقربين.

ثم لما سمع فرعون من كلامه المشتمل على محض النصح ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ معرضًا له مطرحًا إياه: ﴿مَا أُرِيكُمْ﴾ وأشير إليكم في رفع هذا المفسد المدعي ﴿إِلَّا مَا أَرَى﴾ واستصوب في رأيي، واستقر عليه فكري، وهو أن يقتله ليدفع شره ﴿وَ﴾ اعملوا أيها الملأ ﴿مَا أَهْدِيكُمْ﴾ بقولي هذا، وأمري بقتله ﴿إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: 29] الموصل إلى نجاتكم وخلاصكم من مفاسد هذا المدعي الساحر.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ﴿٣٣﴾﴾ [غافر: 30-33].

﴿وَ﴾ بعدما أكد فرعون أمر القتل، وبالغ في تصميم العزم ﴿قَالَ﴾ الرجل ﴿الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ﴾ ناداهم وأضافهم إلى نفسه إظهارًا لكمال الاختصاص والشفقة: ﴿إِنِّي﴾ بمقتضى عقلي ﴿أَخَافُ عَلَيْكُم﴾ يومًا هائلاً شديدًا ﴿مِّثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ﴾ [غافر: 30] الهالكين المستأصلين بحلول عذاب الله عليهم فيه؛ لأن دأبكم وديدنتكم في الخروج عن حدود الله ومقتضيات أوامره وأحكامه، والظهور على رسله وتكذيبهم إياهم.

﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَ﴾ مثل المكذبين المسرفين ﴿الَّذِينَ﴾ ظهروا على رسل الله وكفروا به سبحانه ﴿مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ فلحقهم من العذاب ما لحقهم، وكذلك يحل عليكم ما حل عليهم، لو تقتفون أثرهم بالخروج عن مقتضى الحدود الإلهية ﴿وَ﴾ إلا ﴿مَا اللهُ﴾ العليم الحكيم ﴿يُرِيدُ ظلمًا لِّلْعِبَادِ﴾ [غافر: 31] المتحرزين عن مطلق الجرائم والآثام المنافية للحدود الإلهية، فلا يعاقب من لا ذنب له، ولا يحل عليه عذابه.

ثم ناداهم القائل الموحد أيضًا على سبيل التأكيد والمبالغة تتميمًا لما يخفي في صدره من ترويج الحق وتقوية الرسول المرسل به، فقال: ﴿وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ﴾ [غافر: 32] أي: العذاب الموعود في يوم القيامة، سميت به؛ لتفرق الناس فيه وفرار كل منهم عن أبيه وأخيه وأمه وبنيه.

وأخاف أيضًا ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ﴾ وتنصرفون عن موقف العرض والحساب ﴿مُدْبِرِينَ﴾ قهقرى هاربين فارين من كثرة الآثام والجرائم الجالبة لأنواع العذاب، تخيلوا أيها المسرفون وتحروا في نفوسكم ﴿مَا لَكُم﴾ حينئذ ﴿مِّنَ﴾ غضب ﴿اللَّهِ﴾ ونزول عذابه عليكم ﴿مِنْ عَاصِمٍ﴾ يعصمكم ويدفع عنكم عذابه ﴿وَ﴾ بالجملة: اعلموا أن ﴿مَن يُضْلِلِ اللَّهُ﴾ المضل المغوي بمقتضى قهره وجلاله، ويحمله على ما لا ينبغي له ولا يرضى منه سبحانه، بل إنما ابتلاه وحمله عليه فتنة واختبارًا ﴿فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [غافر: 33] أي: إنه ماله هادٍ يهديه إلى ما يعينه ويليق بحاله ويرضى منه سبحانه.

﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾ [غافر: 34-35].

ثم قال القائل المذكور تسجيلاً على غيهم وضلالهم: ﴿وَ﴾ كيف تستبعدون نبوة هذا المدعي ورسالته من عند الله، مع أنه ليس ببدع منه، بل ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ﴾ أي: على آبائكم وأسلافكم ﴿يُوسُفُ﴾ ابن يعقوب رسولاً ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل هذا المدعي مؤيدًا من عنده سبحانه ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ المبينة الموضحة لدعواه ورسالته ﴿فَمَا زِلْتُمْ﴾ أي: كنتم دائمًا مستمرًا سلفًا وخلفًا ﴿فِي شَكٍّ﴾ وتردد ﴿مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ﴾ في أمر الدين وشأن التوحيد واليقين ﴿حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ﴾ أي: مات يوسف عليه السلام وانقرض زمانه ﴿قُلْتُمْ﴾ من كمال تعنتكم وعنادكم على سبيل الجزم، بلا دليل وبرهان نزل عليكم عقلاً ونقلاً: ﴿لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا﴾ مع أنكم شاكون في رسالته أيضًا، بل في مطلق الرسالة والإنزال من الله الواحد القهار.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ضلالكم هذا ﴿يُضِلُّ اللَّهُ﴾ المضل المغوي بمقتضى قهره

وجلاله جميع ﴿مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾ في الخروج عن مقتضى الحدود الموضوعة لحفظ القسط الإلهي والاعتدال الحقيقي ﴿مُرْتَابٌ﴾ [غافر: 34] شاك فيما يثبته البينات الواضحة والمعجزات اللائحة.

وبالجملة: المسرفون المكابرون ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ﴾ الدالة على توحيده، واستقلاله بالتصرفات الواقعة في ملكه وملكوته ﴿بِغَيْرِ سُلْطَانٍ﴾ أي: حجة قاطعة وبرهان واضح ﴿أَتَاهُمْ﴾ على سبيل الإلهام والوحي والبيان ﴿كَبُرَ﴾ وعظم حالهم وشأنهم هذا ﴿مَقْتًا﴾ أي: ليكون سببًا لمقتهم وهلاكهم ﴿عِندَ اللَّهِ﴾ أصالة ﴿وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله وكمال قدرته على أنواع الإنعام والانتقام تبعًا ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ما سمعت يا أكمل الرسل ﴿يَطْبَعُ﴾ ويختم ﴿اللَّهُ﴾ العليم الحكيم ﴿عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ﴾ مجبول على الشقاوة والضلال في أزل الآزال ﴿مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: 35] يمشي على الأرض خيلاء ويضر بأهلها، وإنما أمهله سبحانه هكذا؛ ليوفر عليه عذابه المعد لأجله، ويخلده في نار القطيعة والحرمان أبد الآباد.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾﴾ [غافر: 36-39].

﴿وَ﴾ بعدما ظهر أمر موسى وانتشر دينه بين الناس، ودعوته إلى الله الواحد الأحد الموجِد للسماوات العلا والأرضين السفلى، ومالت النفوس إليه لوضوح براهينه وسطوع معجزاته ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ مدبرًا في دفع موسى، متأملاً في شأنه، مشاورًا مع وزيره آمرًا له، مناديًا إياه: ﴿يَا هَامَانُ﴾ قد وقع ما نخاف منه من قبل ﴿ابْنِ لِي صَرْحًا﴾ بناء رفيعًا ظاهرًا عاليًا من جميع الأبنية والقصور ﴿لَّعَلِّي﴾ بالارتقاء والعروج إليه ﴿أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ﴾ [غافر: 36] المؤيدة لأمر موسى.

يعني: ﴿أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ﴾ أي: المؤثرات العلوية ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ وأسأل منه أمره: أهو صادق في دعواه أو كاذب؟ ﴿وَإِنِّي﴾ بمقتضى عقلي وفراستي

﴿لأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾ ساحرًا مفتريًا على الله ترويجًا لسحره، وتقريرًا لضعفاء الأنام.

قيل: أمر ببناء رصد؛ ليطلع على قوة طالع موسى وضعفه ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: مثلما سمعت ﴿زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ﴾ أي: حسن الله له تدبيره الذي تأمل في دفع موسى بأمثال هذه الأفكار الفاسدة ﴿وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ﴾ السوي الموصل إلى توحيد الحق ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ﴾ ومكره الذي دبره لدفع موسى ﴿إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ [غافر: 37] هلاك وخسار.

﴿وَ﴾ بعدما ألزمهم القائل بأنواع الإلزام، وأسكتهم بالدلائل القاطعة، اضطروا وتحيروا في شأن موسى ودفعه ﴿قَالَ﴾ القائل ﴿الَّذِي آمَنَ﴾ له وكتم إيمانه منهم: ﴿يَا قَوْمِ﴾ ناداهم ليقبلوا إليه بكمال الرغبة: ﴿اتَّبِعُونِ﴾ واستصوبوا رأيي واقبلوا قولي ﴿أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: 38] وطريق الصدق والصواب.

﴿يَا قَوْمِ﴾ ما شأنكم وأمركم في دار الفتنة والغرور ومنزل الغفلة والثبور ﴿إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ﴾ مستعار بلا مدار واعتبار ﴿وَإِنَّ الْآخِرَةَ﴾ المعدة لذوي البصائر وأولي الألباب ﴿هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ [غافر: 39].

﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ۞ وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴿٤٢﴾ ﴾ [غافر: 40-42].

واعلموا أيها المجبولون على فطرة التكليف أن ﴿مَنْ عَمِلَ﴾ في النشأة الأولى ﴿سَيِّئَةً﴾ جالبة لغضب الله، مستتبعة لعذابه ﴿فَلَا يُجْزَىٰ﴾ في النشأة الأخرى ﴿إِلَّا مِثْلَهَا﴾ بمقتضى العدل الإلهي ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا﴾ مستجلبًا لنعم الله وموائد كرمه، سواء كان ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَ﴾ الحال أنه ﴿هُوَ مُؤْمِنٌ﴾ موقن بتوحيد الله، مصدق برسله وكتبه ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ السعداء المقبولون عند الله ﴿يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾ في النشأة الأخرى ﴿يُرْزَقُونَ فِيهَا﴾ رزقًا صوريًا ومعنويًا رغدًا واسعًا ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [غافر: 40] بلا تقدير وموازنة مثل أرزاق الدنيا.

﴿وَ﴾ قال القائل المذكور أيضًا على سبيل الملاينة والمجاراة في صورة

المناصحة والمقابلة، إيقاظًا لهم عن سنة الغفلة، وتتميمًا للغرض المسوق له الكلام: ﴿يَا قَوْمِ مَا لِي﴾ أي: أي شيء عرض علي ولحق لي ﴿أَدْعُوكُمْ﴾ أنا من كمال عطفي ومرحمتي إياكم ﴿إِلَى النَّجَاةِ﴾ من عذاب الله وحلول غضبه، وإلى دخول الجنة المشتملة على أنواع اللذات الجسمانية والروحانية المعدة لأهل التوحيد والإيمان ﴿وَ﴾ أنتم ﴿تَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾ [غافر: 41] المعدة لأصحاب الخيبة والخذلان.

إذ ﴿تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بِاللهِ﴾ الواحد الأحد الصمد، المتفرد بالألوهية والربوبية، وأنكر وجوده ﴿وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ أي: أشرك به شيئًا لم يتعلق علمي بألوهيته وشركته مع الله لا يقينًا ولا ظنًا ووهمًا؛ إذ هو جماد ماله شعور ﴿وَأَنَا أَدْعُوكُمْ﴾ بمقتضى الوحي الإلهي المنزل على رسول الله المؤيد بالعقل الفطري المفاض لخواص عباده من لدنه سبحانه ﴿إِلَى الْعَزِيزِ﴾ القادر الغالب في أمره بلا فتور وقصور ﴿الْغَفَّارِ﴾ [غافر: 42] الستَّار لنفوس السوى والأغيار مطلقًا.

﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (٤٣) فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٤٤) فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (٤٥) النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (٤٦)﴾ [غافر: 43-46].

﴿لَا جَرَمَ﴾ أي: حق وثبت ﴿أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ وتمدونني نحوه ﴿لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ﴾ أي: لا يتأتى منه الدعوة والهداية والإرشاد، ولا ﴿فِي الدُّنْيَا وَلاَ فِي الآخِرَةِ﴾ إذ لا يتيسر للجمادات دعوة الإنسان وتكميله مطلقًا، ﴿وَ﴾ بعدما انقضى أمر آلهتكم وعدم لياقتهم بالألوهية والربوبية، ظهر ﴿أَنَّ مَرَدَّنَا﴾ ومرجعنا؛ يعني: أنا وأنتم وسائر العباد والمظاهر عمومًا ﴿إِلَى اللهِ﴾ الواحد الأحد الصمد الحقيق بالحقية، بلا توهم الشركة والنزاع رجوع الأظلال إلى الأضواء، والأمواج إلى الماء ﴿وَ﴾ ظهر أيضًا ﴿الْمُسْرِفِينَ﴾ الخائضين في توحيده سبحانه بالهذيانات التي تركبها أوهامهم وخيالاتهم، بلا تأييد من وحي إلهي وعقلي فطري ﴿هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ [غافر: 43] ملازموها وملاصقوها أبد الآباد.

﴿فَسَتَذْكُرُونَ﴾ أيها الممكورون الممقوتون حين تعاينون وتدخلون النار ﴿مَا أَقُولُ لَكُمْ﴾ على وجه النصح من شأن العذاب الموعود لكم في النشأة الأخرى، وبعدما سمعوا من الوعيدات الهائلة، أضمروا في نفوسهم عداوته والإنكار عليه، وقصدوا مقته ﴿وَ﴾ لما تفرس منهم السوء، قال مسترجعًا إلى الله متوكلا نحوه: ﴿أُفَوِّضُ أَمْرِي﴾ أي: حفظي وحصانتي عن شروركم ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ المراقب على محافظة عباده المتوكلين عليه، المتوجهين نحو جنابه، يكفي بلطفه مؤنة شروركم عني وإساءتكم عليّ ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ القادر العليم ﴿بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [غافر: 44] الخُلَّص، وما في ضمائرهم من الإخلاص والاختصاص.

قيل: فرّ منهم إلى جبل، فأرسل فرعون جماعته لطلبه، فلحقوه وهو في الصلاة والوحوش حوله صافين حافين، يحرسون عما يضره، فلم يظفروا عليه، فرجعوا خائبين فقتلهم.

وبالجملة: ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا﴾ أي: حفظه الله الرقيب عليه من شدائد مكرهم وإساءتهم عليه ﴿وَحَاقَ﴾ وأحاط ﴿بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ [غافر: 45] النازل إليهم من عند الله العزيز الغيور.

وهي: ﴿النَّارُ﴾ لتعذيب أصحاب الشقاوة الأزلية الأبدية، ولهذا ﴿يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ أي: فرعون وآله على النار حال كونهم في برزخ القبر ﴿غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ دائمًا في جميع الأزمان قبل انقراض النشأة الأولى ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ يحشرون من قبورهم صرعى مبهوتين، قيل لهم من قِبل الحق بلا كشف وتفتش عن حالهم: ﴿أَدْخِلُوا﴾ يا ﴿آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: 46] أي: أفزعه وأخلده، أو قيل للملائكة الموكلين عليهم لتعذيبهم: أدخلوا آل فرعون أشد العذاب وأسوأ النكال والوبال، وهو تخليدهم في نار القطيعة على القراءتين.

﴿ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم

بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾ [غافر: 47-52].

ثم قال سبحانه: ﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل للمعتبرين من المكلفين وقت ﴿إِذْ يَتَحَاجُّونَ﴾ ويتخاصمون؛ أي: أصحاب النار ﴿فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ﴾ منهم؛ أي: الأتباع والأرذال ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ أي: لدى رؤسائهم ومتبوعيهم المستكبرين عليهم، المستبعين لهم في النشأة الأولى: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ في دار الدنيا، بل أنتم أضللتمونا عن متابعة الرسل والهادين ﴿فَهَلْ أَنتُم﴾ اليوم ﴿مُّغْنُونَ﴾ دافعون مانعون ﴿عَنَّا نَصِيبًا﴾ جزءًا أو شيئًا، قد صار حظنا ﴿مِّنَ النَّارِ﴾ [غافر: 47] النازلة علينا بسبب اتباعنا إياكم، واقتفائنا أثركم، وتديننا بدينكم وخصلتكم.

﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ أي: الرؤساء المتبوعين ﴿إِنَّا﴾ نحن وأنتم ﴿كُلٌّ﴾ منَّا معذبون ﴿فِيهَا﴾ أي: في النار، لا يسع أحد منَّا ومنكم، ليدفع شيئًا منها ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المنتقم الغيور ﴿قَدْ حَكَمَ بَيْنَ﴾ عموم ﴿الْعِبَادِ﴾ [غافر: 48] بأن أدخل بعضًا منهم في الجنة بفضله، وبعضًا في النار بعدله، ولا معقب لحكمه، وهو شديد المحال.

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل لأصحاب العبرة ما ﴿قَالَ الَّذِينَ﴾ كفروا حال كونهم ﴿فِي النَّارِ﴾ محزونين متضرعين ﴿لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾ وهي أعمق أماكن النار وأغورها: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ﴾ أيها الخزنة حسبة لله، واستشفعوا منها سبحانه لأجلنا، وإن لم يغفر لنا، ولم يعف عن جرائمنا ﴿يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا﴾ أي: مقدار يوم واحد ﴿مِّنَ الْعَذَابِ﴾ [غافر: 49] الدائم المستمر حتى نتنفس فيه ونستريح.

﴿قَالُوا﴾ أي: الخزنة في جوابهم تهكمًا وتوبيخًا على سبيل التجاهل: ﴿أَوَ لَمْ تَكُ﴾ أيها الحمقى الهالكون في تيه البعد والضلال ﴿تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم﴾ المبعوثون إليكم ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الواضحة الدالة على قبول الإنذارات الصادرة من الله أصالة ومنهم تبعًا، وبعدما سمعوا من الخزنة ما سمعوا ﴿قَالُوا﴾ متأوهين متحسرين: ﴿بَلَى﴾ قد جاءنا نذير فكذبنا، وقلنا: ما نزل الله من شيء ﴿قَالُوا﴾ أي: الخزنة بعدما سمعوا منهم ما سمعوا: إن أنتم إلا في ضلال مبين ﴿فَادْعُوا﴾ على حالكم بلا استشفاع منَّا؛ إذ نحن لا نجترئ بالشفاعة عنده، والاستغفار منه سبحانه لأمثالكم؛ إذ لا يقبل الدعاء منَّا ومنكم في أمثال

هذه الجرائم الكبيرة.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَا دُعَاءُ الكَافِرِينَ﴾ المصرين على كفرهم في النشأة الأولى التي هي دار الاختبار؛ لاستخلاصهم في النشأة الأخرى التي هي دار القرار ﴿إِلَّا فِي ضَلالٍ﴾ [غافر: 50] ضياع وخسار، لا يسمع من أحد أمثال هذا الدعاء، ولا يُجاب له.

ثم قال سبحانه وعدًا للمؤمنين وحثًا لهم على تصديق رسل الله وكتبه: ﴿إِنَّا﴾ من مقام عظيم جودنا ولطفنا ﴿لَنَنصُرُ﴾ ونعاون ﴿رُسُلَنَا﴾ الذين هم حملة وحينا، وحفظة ديننا ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ لهم، واسترشدوا منهم طريق الهداية، واجتنبوا بسببهم عن الغي والضلال ﴿فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ التي هي نشأة الفتن والاختبارات الإلهية، بتوفيقهم على العمل الصالح، وردعهم عن المفاسد والمنكرات، وننصرهم أيضًا نصرة تامة ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾ [غافر: 51] أي: يوم القيامة التي تقوم فيها الشهود والعدول من الملائكة والنبيين والمؤمنين لنصرة المؤمنين ومقت الكافرين.

﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ﴾ الخارجين عن مقتضى الحدود الإلهية في نشأة الدنيا ﴿مَعْذِرَتُهُمْ﴾ التي آتوا بها يومئذ؛ إذ قد انقضى حينئذ وقت التلافي والتدارك، ومضى زمان الاختبار، بل ﴿وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ أي: الطرد والتبعيد عن ساحة عز الحضور ﴿وَلَهُمْ﴾ أيضًا ﴿سُوءُ الدَّارِ﴾ [غافر: 52] المعدّة لأصحاب الخسار والبوار، وهي جهنم البعد والخذلان، أعاذنا الله منها.

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ ﴾ [غافر: 53-56].

ثم قال سبحانه تسلية لحبيبه، وتوطينًا له على تحمل أعباء الرسالة الجالبة لأنواع المكروهات من النفوس المجبولة على الشقاوة والضلال والتبصر على أذياتهم: ﴿وَ﴾ الله ﴿لَقَدْ آتَيْنَا﴾ من كمال فضلنا وجودنا أخاك ﴿مُوسَى﴾ الكليم ﴿الهُدَى﴾ أي: الشرائع والمعجزات الدالة على كمال الهداية والإرشاد إلى سبيل الرشاد والسداد ﴿وَ﴾ بعد

انقراض موسى ﴿أَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ﴾ [غافر: 53] أي: التوراة المنزلة عليه.

وأبقيناها بينهم؛ لتكون ﴿هُدًى﴾ هاديًا إلى ما هداهم موسى من الأمور الدينية ﴿وَذِكْرَى﴾ أي: عظة وتذكيرًا يتذكرون به إلى ما يرومون من المقاصد الدينية والمعالم اليقينية، لا لكل أحدٍ من العوام، بل ﴿لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [غافر: 54] الألباء المستكشفين عن سائر الأمور الدينية بمقتضى العقول المستقيمة المفاضة لهم من المبدأ الفياض.

ومع ذلك سمعت يا أكمل الرسل قصص أولئك الهالكين في تيه العتو والعناد، وما جرى بينهم وبين الرسل المبعوثين إليهم من التحارب، والتنازع المفضي إلى أذى الأنبياء العظام والرسل الكرام، فصبروا على أذاهم إلى أن ظفروا عليهم بنصر الله إياهم وإعلاء دينه المنزل عليهم من عنده سبحانه.

﴿فَاصْبِرْ﴾ أنت أيضًا يا أكملَ الرسل على ما أصابك من أذيات هؤلاء الجهلة المستكبرين المعاندين معك، وانتظر إلى ما وعدك الحق من النصر والظفر وإعلاء دين الإسلام، وإظهاره على الأديان كلها ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ العليم القدير الحكيم الخبير ﴿حَقٌّ﴾ ثابت محقق إنجازه ووفاؤه، إلا أنه مرهون بوقته، فسينصرك ويغلبك على أعدائك عن قريب، ويبقي آثار هدايتك وإرشادك بين أوليائك إلى النشأة الأخرى ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ أي: اشتغل في عموم أوقاتك بالاستغفار لفرطاتك؛ ليكون استغفارك هذا سنة سنية منك لأمتك ﴿وَسَبِّحْ﴾ أيضًا ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ في جميع حالاتك وأوقاتك؛ إذ كل نفس من أنفاسك يستلزم شكرًا منك، سيما ﴿بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ [غافر: 55] أي: في أول النهار وأواخره؛ إذ هما وقتان خاليان عن تزاحم الأشغال وتفاقم الآمال، وبالجملة: كن مع ربك في جميع أحوالك وأطوارك، يكفي مؤنة جميع من عاداك وعاندك.

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّ﴾ المشركين المعاندين ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ﴾ ويخاصمون معك يا أكمل الرسل ﴿فِي آيَاتِ اللَّهِ﴾ المنزلة عليك لتأييد دينك وشأنك على سبيل المكابرة والعناد ﴿بِغَيْرِ سُلْطَانٍ﴾ أي: حجة وبرهان ﴿أَتَاهُمْ﴾ وفاض عليهم من ربهم على طريق الوحي والإلهام ﴿إِنْ فِي صُدُورِهِمْ﴾ أي: ما في صدورهم وضمائرهم شيء يبعثهم على المجادلة ﴿إِلَّا كِبْرٌ﴾ وخيلاء مركوز في جبلتهم، تقية لثروتهم ورئاستهم على زعمهم الفاسد، مع أنه ﴿مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ﴾ على مقتضى ما جبلوا في نفوسهم؛ إذ هم سيغلبون عن قريب في هذه النشأة الأولى، ويحشرون إلى جهنم البعد والخذلان في

الأخرى ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللهِ﴾ القوي القادر، والتجئ إليه سبحانه عن غدر كل غادر ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه ﴿هُوَ السَّمِيعُ لأقوالهم البَصِيرُ﴾ [غافر: 56] بنياتهم وأفعالهم، يكفيك مؤنة ما يقصدون عليك بمقتضى آرائهم الباطلة.

﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [غافر: 57-60].

ومن أعظم ما يجادلون فيه أولئك المكابرون أمر الساعة والمعاد الجسماني، وبعث الموتى من قبورهم وحشرهم إلى المحشر، والله ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي: إظهار العلويات والسفليات من كتم العدم على سبيل الإبداع في النشأة الأولى ﴿أَكْبَرُ﴾ وأعظم ﴿مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ وإعادتهم أحياء في النشأة الأخرى ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: 57] قدرة الحق واقتداره على جميع ما دخل في حيطة علمه الشامل، وإرادته الكاملة؛ لقصور نظرهم عن إدراك الحق وصفاته ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور: 40].

ثم أشار سبحانه إلى تفاوت طبقات عباده في العلم بالله والجهل به وبصفاته، فقال: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى﴾ الغافل عن ظهور ذات الحق ومقتضيات أوصافه العظمى وأسمائه الحسنى ﴿وَالبَصِيرُ﴾ العرف الكاشف بوحدة الحق، وظهوره سبحانه على هياكل جميع ما ظهر وبطن سبحانه حسب أسمائه وشئونه الذاتية ﴿وَ﴾ لا المصلحون المحسنون ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله واعتقدوا بتوحيده ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ المقبولة عنده سبحانه من الأعمال والأفعال المترتبة على الإيمان واليقين ﴿وَلاَ المُسِيءُ﴾ أي: المسيئون الأدب مع الله، وهم الكفرة الذين لا يؤمنون بالله، ولا يتصفون بتوحيده، بل يستروحون شروق شمس ذاته بغيوم هوياتهم الباطلة، وأظلال أنانياتهم الزائلة المضمونة في شمس الذات؛ لذلك عملوا عملاً سيئًا بمقتضى ما تهويه نفوسهم الخبيثة وأخلاقهم السخيفة، لكن ﴿قَلِيلاً مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [غافر: 58] أي: ما تتذكرون

وتفطنون على عدم المساواة إلا تذكرًا قليلاً؛ لذلك تنكرون البعث والحشر.

وكيف تنكرونه؟! ﴿إِنَّ السَّاعَةَ﴾ الموعودة على ألسنة عموم الأنبياء والرسل ﴿لَآتِيَةٌ﴾ ألبتة؛ بحيث ﴿لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ أي: في مجيئها ووقوعها بوضوح الدلائل العقلية الدالة على إمكان إعادة المعدوم، مع أنها مديدة بالوحي والإلهام على عموم الأنبياء والرسل الكرام ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [غافر: 59] بها، ولا يصدقون وقوعها وقيامها؛ لانحطاطهم عن مرتبة الخلافة المترتبة على فطرة التوحيد واليقين.

﴿وَ﴾ بعدما أشار سبحانه إلى مرتبة كلا الفريقين الموحد والمشرك، أشار إلى أن من توجه نحوه متحننًا، وقصد تجاه توحيده مجتهدًا، ودعا إليه متضرعًا، أجاب له وأنجح مطلوبه؛ حيث ﴿قَالَ رَبُّكُمُ﴾ الذي رباكم على فطرة التوحيد والعرفان: ﴿ادْعُونِي﴾ أيها المكلفون بمقتضى العقل المفاض حق دعوتي، وتوجهوا إلي مخلصين بلا رؤية الأسباب والوسائل في البين ﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ دعوتكم، وأوصلكم إلى مقصدكم ومقصودكم الذي هو توحيد الذات، فعليكم ألَّا تستكبروا عن عبادتي وإطاعتي، وبالجملة: ﴿إِنَّ﴾ المسرفين ﴿الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ويستكنفون ﴿عَنْ عِبَادَتِي﴾ بمقتضى آرائهم الباطلة وأهوائهم الفاسدة ﴿سَيَدْخُلُونَ﴾ في يوم الجزاء ﴿جَهَنَّمَ﴾ الحرمان والخذلان ﴿دَاخِرِينَ﴾ [غافر: 60] صاغرين ذليلين مهانين.

﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [غافر: 61-65].

وكيف يستنكفون ويستكبرون عن عبادة الفاعل على الإطلاق، والمنعم بالاستقلال والاستحقاق مع أنه ﴿اللَّهُ﴾ الواحد الأحد الصمد، المتصف بصفات الكمال ونعوت الجلال والجمال، هو ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ﴾ مظلمًا باردًا ﴿لِتَسْكُنُوا﴾

وتستريحوا ﴿فِيهِ﴾ بلا ضرر وإضرار ﴿وَ﴾ جعل لكم ﴿النَّهَارَ مُبْصِرًا﴾[1] لتكتسبوا فيه معايشكم، وتجمعوا حوائجكم ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المنعم المكرم على عباده ﴿لَذُو فَضْلٍ﴾ عظيم وكرامة كاملة شاملة ﴿عَلَى﴾ عموم ﴿النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ المجبولين على النسيان والكفران ﴿لَا يَشْكُرُونَ﴾ [غافر: 61] نعمه، ولا يواظبون على أداء حقوق كرمه، جهلاً منهم بالله، وعنادًا مع رسله الهادين إليه.

﴿ذَلِكُمُ اللهُ﴾ الذي أفاض عليكم موائد بره وإحسانه، وأظهر عليكم مقتضيات ألوهيته وربوبيته ﴿رَبُّكُمْ﴾ الذي رباكم بأنواع اللطف والكرم، بعدما أوجدكم من كتم العدم؛ إذ هو ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ومظهره من العدم إظهارًا إبداعيًا بمقتضى اختياره واستقلاله، فلكم أن تتوجهوا إليه وتتحنثوا نحوه مخلصين؛ إذ ﴿لَا إِلَهَ﴾ يعبد له بالاستحقاق، ويرجع إليه في الخطوب على الإطلاق ﴿إِلَّا هُوَ﴾ الذات الواحدة الموصوفة بالصفات الكاملة، المربية لجميع ما في الكون من العكوس والأظلال المنعكسة منها ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ [غافر: 62] وتنصرفون عن عبادته أيها الآفكون المنصرفون؟!.

فأين تذهبون من بابه أيها الذاهبون الجاهلون، ما لكم كيف تحكمون أيها الضالون المحرومون؟! ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: مثل ما سمعت من المجادلة والمكابرة بلا برهان واضح وبيان لائح ﴿يُؤْفَكُ﴾ ويصرف عن طريق الحق عموم المسرفين ﴿الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللهِ﴾ ودلائل توحيده ﴿يَجْحَدُونَ﴾ [غافر: 63] وينكرون بلا تأمل وتدبر؛ لينكشف لهم ما فيها من المعارف والحقائق المودعة فيها، فكيف تجحدون بآيات الحكيم العليم أيها الجاحدون الجاهلون، مع أنه سبحانه هو المتفرد بالألوهية والربوبية؟!.

إذ ﴿اللهُ﴾ الواحد الأحد الصمد ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ﴾ أي: عالم الطبيعة والهيولي ﴿قَرَارًا﴾ تستقرون عليها بمقتضى هويتكم ﴿وَ﴾ رفع لكم ﴿السَّمَاءَ﴾ أي: عالم الأسماء والصفات ﴿بِنَاءً﴾ أي: سقفًا محفوظًا رفيعًا، تستفيضون منها الكمالات

---

(1) منيرًا بالشمس المستمرة في الفلك، فتقومون من فرشكم إلى أشغالكم الدينية والدنيوية، هذا لذكره وقراءته، وهذا لصلاته، وهذا لطلبه العلم ودراسته، وهذا لبيعه وشرائه، وهذا لبنائه أو حدادته، أو نحوها من الصناعات، وهذا لسفره برًا وبحرًا، وهذا لفلاحته، وهذا لتصليح حيواناته «تفسير السعدي» (741/1).

اللائقة لاستعداداتكم وقابلياتكم الموهوبة لكم من عنده ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿صَوَّرَكُمْ﴾ من آباء العلويات وأمهات السفليات ﴿فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ بأن خلقكم على أعدل الأمزجة وأحسن التقويم؛ لتكونوا قابلين لائقين لخلافة الحق ونيابته.

﴿وَ﴾ بعدما صوركم فأحسن صوركم ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ الصورية والمعنوية تقوية وتقويمًا لأشباحكم وأرواحكم ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ﴾ الذي سمعتم نبذًا من أوصافه الكاملة ونعمه الشاملة ﴿رَبُّكُمْ﴾ الذي أظهركم من كتم العدم بمقتضى لطفه، فأنّى تصرفون عنه وعن توحيده وعبادته أيها المسرفون الضالون، مع ألّا رب لكم سواه؟! ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ﴾ الواحد الأحد الصمد، العلي بذاته، الجلي بحسب أسمائه وصفاته ﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر: 64] على الإطلاق بالاستقلال والاستحقاق لا يعرضه زوال، ولا يطرأ له انقراض وانتقال.

بل ﴿هُوَ الْحَيُّ﴾ الأزلي الأبدي الدائم، المستغني عن مقدار الزمان ومكيال المكان مطلقًا ﴿لَا إِلَٰهَ﴾ في الوجود سواه، ولا موجود يعبد بالحق ﴿إِلَّا هُوَ﴾ وبعدما سمعتم أيها المكلفون خواص أسمائه وصفاته سبحانه ﴿فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ﴾ واعبدوه مخصصين ﴿لَهُ الدِّينَ﴾ أي: العبادة والانقياد؛ إذ لا مستحق للإطاعة والعبادة سواه، وبعدما رجعتم نحوه مخلصين، وعبدتم له مخصصين، قولوا بلسان الجمع: ﴿الْحَمْدُ﴾ المستوعب لجميع المحامد الناشئة من ألسنة عموم المظاهر ثابت ﴿لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر: 65] لانفراده في الألوهية، واستقلاله في الربوبية بلا توهم الشركة والمظاهرة.

﴿۞ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾﴾ [غافر: 66-68].

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل لعموم المشركين على وجه التنبيه والإرشاد، بعدما وضح أمر التوحيد، واتضح سبيل الهداية والرشاد: ﴿إِنِّي نُهِيتُ﴾ من قبل ربي الذي سمعتم استقلاله في ألوهيته وربوبيته ﴿أَنْ أَعْبُدَ﴾ وأنقاد الآلهة الباطلة ﴿الَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ أنتم

﴿مِن دُونِ اللهِ﴾ الواحد الأحد الصمد، الفريد في الألوهية، الوحيد بالربوبية ﴿لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ﴾ أي: حين نزل علي الآيات المبينة الموضحة ﴿مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ﴾ أيضًا من لدنه سبحانه ﴿أَنْ أُسْلِمَ﴾ أي: أعبد وأنقاد على وجه الإخلاص والاختصاص، بلا رؤية الوسائل والأسباب ﴿لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر: 66] إذ هو سبحانه منزه عن التعدد والتكثر مطلقًا، ورجوع الكل إليه أولاً وبالذات.

وكيف لا يعبدونه سبحانه، ولا ينقادون إليه بتوحده مع أنه ﴿هُوَ﴾ الخالق المصور ﴿الَّذِي خَلَقَكُم﴾ قدر صوركم أولاً ﴿مِّن تُرَابٍ﴾ مسترذل إظهارًا لقدرته الغالبة الكاملة ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ مهينة مستحدثة من التراب ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ خبيثة متكونة من النطفة ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ﴾ من بطون أمهاتكم ﴿طِفْلاً﴾ كائنًا من أجزاء العلقة، والروح المنفوخ فيها من لدنه سبحانه.

﴿ثُمَّ﴾ يربيكم بأنواع اللطف والكرم ﴿لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾ أي: كمال قوتكم وحولكم نظرًا وعملاً ﴿ثُمَّ﴾ أمهلكم وأعمركم زمانًا ﴿لِتَكُونُوا شُيُوخًا﴾ منحطين منسلخين عن كلتا القوتين معًا ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى﴾ ويموت ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: قبل بلوغه إلى أشده أو شيخوخته ﴿وَ﴾ إنما فعل سبحانه كل ما فعل من الأطوار المتعاقبة ﴿لِتَبْلُغُوا أَجَلاً﴾ معينًا مقدرًا ﴿مُّسَمًّى﴾ عنده بلا اطلاع أحد عليه؛ لقبضكم نحوه ورجوعكم إليه ﴿وَ﴾ الحكمة الباعثة على جميع ذلك ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [غافر: 67] وتفهمون أن مبدأكم ومنشأكم منه، ومعادكم إليه، فتعبدونه حق عبادته كي تعرفوه حق معرفته.

وكيف لا تعبدونه سبحانه، ولا تعرفونه أيها العقلاء المجبولون على فطرة الدراية والشعور مع أنه ﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي﴾ بامتداد أظلال أسمائه كل ما لاح عليه شمس وجوده ﴿وَيُمِيتُ﴾ بقبض تلك الأظلال بالإرادة والاختيار، وبالجملة: ﴿فَإِذَا قَضَى أَمْرًا﴾ أي: تعلقت إرادته ومشيته بإحداث ما ظهر في عالم الأمر ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ﴾ بعد تعلق مشيته: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [غافر: 68] بلا تراخ وتعاقب، مفهوم من منطوق هذا الكلام على ما هو المتبادر من أمثاله، بل كل ما لمع عليه برق إرادته، وصدر منه سبحانه ما يدل على نفوذ قضائه يكون المقضي؛ بحيث لا يسع بين القضاء والمقضي توهم المهلة والتراخي والترتيب أصلاً.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ ۝٦٩ الَّذِينَ كَذَّبُوا

بِالْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾[غافر: 69-77].

ومع سرعة نفوذ قضاء الله، وظهور هذه الآثار العظيمة من قدرته الكاملة على الوجه المذكور ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أيها الرائي ﴿إِلَى﴾ المشركين المسرفين ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ﴾ ويكابرون ﴿فِي آيَاتِ اللهِ﴾ الدالة على كمال علمه وقدرته، ومتانة حكمه وحكمته ﴿أَنَّى يُصْرَفُونَ﴾ [غافر: 69] أي: إلى أين ينصرفون عن عبادته، ويعرضون عن ساحة عز الوحدة الذاتية؟.

سيما إلى المكابرين ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ﴾ أي: بالقرآن الجامع الكامل المنزل عليك يا أكمل الرسل ﴿وَبِمَا أَرْسَلْنَا﴾ أي: بجميع ما أرسلنا ﴿بِهِ رُسُلَنَا﴾ الذين مضوا من قبلك من الكتب والصحف المنزلة عليهم ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: 70] وبال جدالهم وتكذيبهم في النشأة الأخرى.

وقت ﴿إِذِ﴾ تكون ﴿الأَغْلالُ﴾ الثقيلة معقودة ﴿فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ بسبب انصرافهم عن آيات الله، وعدم التفاتهم إلى رسله الحاملين ﴿وَالسَّلاسِلُ﴾ في أيديهم وأرجلهم؛ لعظم جرائمهم وآثامهم الباعثة على أخذهم ومقتهم ﴿يُسْحَبُونَ﴾ [غافر: 71] ويجرون على وجوههم، ﴿فِي الْحَمِيمِ﴾ أي: الجحيم إلى ما شاء الله تفضيحًا لهم ﴿ثُمَّ فِي النَّارِ﴾ المسعرة ﴿يُسْجَرُونَ﴾ [غافر: 72] [1] يوقدون، ويطرحون فيها طرح الحطب

---

(1) وقوله:(فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ إِذِ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ) وهذا تهديد من الله المشركين به؛ يقول جلّ ثناؤه: فسوف يعلم هؤلاء الذين يجادلون في آيات الله، المكذبون بالكتاب حقيقة ما تخبرهم به يا محمد، وصحة ما هم به اليوم مكذّبون من هذا الكتاب، حين تجعل الأغلال والسلاسل في أعناقهم في جهنم. وقرأت قراءة الأمصار: والسلاسل، برفعها عطفا بها على الأغلال على المعنى الذي بينّت. وذُكر عن ابن عباس أنه كان يقرؤه"والسَّلاسِلَ يُسْحَبُونَ"

الوقود للنار.

﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ﴾ من قبل الحق توبيخًا وتقريعًا: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ [غافر: 73] أي: أين أصنامكم وأوثانكم، وعموم معبوداتكم التي ادعيتم شركتها مع الله في الألوهية، وسميتموهم آلهة ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ لم لا تنقذكم من عذاب الله، ولم لا يشفعون لكم عنده سبحانه بمقتضى ما زعمتم في شأنكم؟.

وبعدما سمعوا ما سمعوا من التوبيخ والتقريع ﴿قَالُوا﴾ متحسرين متأوهين: ﴿ضَلُّوا﴾ وغابوا ﴿عَنَّا﴾ آلهتنا وشفعاؤنا التي كنا ندعو إليهم ونستشفع منهم ﴿بَل﴾ قد ظهر اليوم أنَّا ﴿لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ﴾ في النشأة الأولى شيئًا ينفعنا، ويدفع عنَّا من غضب الله ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ﴾ المنتقم المضل ﴿الْكَافِرِينَ﴾ [غافر: 74] الضالين؛ حيث لا ينكشفون بضلالهم إلا وقت حلول العذاب والوبال عليهم.

ثم قيل لهم مبالغة في توبيخهم وتعييرهم: ﴿ذَٰلِكُم﴾ أي: إضلال الله إياكم ﴿بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ وتمشون عليها خيلاء بطرين مسرورين، مستكبرين عن قبول آيات الله المنزلة على رسله، مكذبين لهم ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي: بلا دليل عقلي قطعي، أو سمعي إقناعي، أو ظني، بل بمجرد الوهم الناشئ من كبركم وخيلائكم

بنصب السلاسل في الحميم. وقد حكي أيضا عنه أنه كان يقول: إنما هو وهم في السلاسل يسحبون، ولا يجيز أهل العلم بالعربية خفض الاسم والخافض مضمر. وكان بعضهم يقول في ذلك: لو أن متوهما قال: إنما المعنى: إذ أعناقهم في الأغلال والسلال يسبحون. حاز الخفض في السلاسل على هذا المذهب، وقال: مثله، مما رد إلى المعنى. قول الشاعر: قَدْ سَالَمَ الحَيَّاتُ مِنْهُ القَدَمَا... الأُفْعُوَانَ والشُّجاعَ الأَرْقَما، فنصب الشُّجاع والحيات قبل ذلك مرفوعة، لأن المعنى: قد سالمت رجله الحيات وسالمتها، فلما احتاج إلى نصب القافية، جعل الفعل من القدم واقعا على الحيات، والصواب من القراءة عندنا فى ذلك ما عليه قراء الأمصار، لإجماع الحجة عليه، وهو رفع السلاسل عطفا بها على ما في قوله:(فِي أَعْنَاقِهِمْ) من ذكر الأغلال، وقوله:(يُسْحَبُونَ) يقول: يسحب هؤلاء الذين كذّبوا في الدنيا بالكتاب زبانية العذاب يوم القيامة في الحميم، وهو ما قد انتهى حرّه، وبلغ غايته، وقوله (ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ) يقول: ثم في نار جهنم يحرقون، يقول: تسجر بها جهنم: أي توقد بهم، وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل، عن مجاهد، في قوله: (يُسْجَرُونَ) قال: يوقد بهم النار، حدثنا محمد، قال: ثنا أحمد، قال: ثنا أسباط، عن السدي(ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ) قال: يحرقون في النار؛ قال ابن زيد: يسجرون في النار: يوقد عليهم فيها. «تفسير الطبري» (21/415 - 416).

﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ [غافر: 75] أي: تتوسعون، وتتوفرون على أنفسكم الفرح والسرور بمخالفتكم حدود الله وسنن أنبيائه ورسله عنادًا ومكابرة.

ثم قيل لهم بعد تفضيحهم على رءوس الأشهاد: ﴿ادْخُلُوا﴾ أيها المسرفون الضالون ﴿أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ المعدة لكم بدل ما فوّتم على نفوسكم من الدرجات العلية الجنانية، وكونوا ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أبد الآباد ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [غافر: 76] ومأواهم جهنم البعد والخذلان، وجحيم الطرد والحرمان، أعاذنا الله وعموم المؤمنين.

وبعدما ظهر واتضح مآل حال الكفرة المستكبرين وعاقبة أمرهم ﴿فَاصْبِرْ﴾ يا أكمل الرسل على أذاهم، وانتظر إلى هلاكهم الموعود، وثق بالله في إنجاز وعده ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ القدير الحكيم بإهلاك المشركين المكذبين المسرفين ﴿حَقٌّ﴾ ثابت محقق ثبوته ألبتة، بلا خلف منه سبحانه؛ إذ الله لا يخلف الميعاد مطلقًا، إلا أن وعده سبحانه مرهون بأجل مقدر عنده.

ولا تحزن من تأخير الموعود، ولا تعجل لحلول الأجل المعهود ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ أي: فإن نُرِكَ ونُبصرك، زيدت «ما» في أول الفعل، والنون في آخره للتأكيد والمبالغة ﴿بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ من القتل والسبي والجلاء، فذاك تحقق وعدنا إياك ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ ونميتنك قبل حلول أجل إهلاكهم وتعذيبهم ﴿فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [غافر: 77] أي: لا تحزن من تأخير الموعود، وبعد توفيك أيضًا؛ إذ نحن نعذبهم، وننتقم عنهم بعد رجوعهم إلينا في النشأة الأخرى بأضعاف ما في النشأة الأولى وآلافها.

وبالجملة: بعدما وعدنا لهم العذاب بانحرافهم عن سبيل الرشاد، مصرين على المكابرة والعناد، أنجزنا الموعود ألبتة سواء كان عاجلاً أم آجلاً.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾﴾ [غافر: 78-81].

﴿وَ﴾ ليس لك أن تتعب نفسك بتعجيل العذاب عليهم قبل حلول الأجل المقدر من عندنا؛ إذ ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ من مقام جودنا ﴿رُسُلاً﴾ كثيرًا ﴿مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا﴾ قصتهم ﴿عَلَيْكَ﴾ في كتابك ﴿وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ ولم نذكر قصتهم في كتابك؛ إذ ما يعلم جنود ربك وما جرى عليهم إلا هو.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَا كَانَ﴾ أي: ما صح وجاز ﴿لِرَسُولٍ﴾ من الرسل ﴿أَن يَأْتِيَ﴾ ويعجل ﴿بِآيَةٍ﴾ مقترحة أو غير مقترحة من تلقاء نفسه ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ﴾ وبمقتضى مشيئته وإرادته سبحانه، بل أن ينتظر الوقت الذي عين سبحانه ظهورها فيه؛ إذ جميع الآيات والمعجزات موهوبة لله، مقسومة بين أنبيائه ورسله بمقتضى قسمته سبحانه في حضرة علمه ولوح قضائه، لا يسع لأحد منهم أن يعجل بها، أو يؤخر عن وقتها، بل ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللهِ﴾ العليم الحكيم بتعذيب المشركين وإثابة الموحدين ﴿قُضِيَ بِالْحَقِّ﴾ جميع المقتضيات الإلهية، سواء كانت من العقوبات والمثوبات ﴿وَ﴾ كما ﴿خَسِرَ هُنَالِكَ﴾ أي: عند وقوع المقضي وظهوره ﴿الْمُبْطِلُونَ﴾ [غافر: 78] المستوجبون لأنواع العذاب والنكال، وربح حينئذ المستحقون لأصناف المثوبات واللذات الروحانية.

وكيف لا يكون مقاليد الأمور بيد الله وقبضته وقدرته؛ إذ ﴿اللهُ﴾ المتفرد بالألوهية والربوبية هو ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ﴾ مسخرة مقهورة لكم، محكومة تحت أمركم وحكمكم ﴿لِتَرْكَبُوا مِنْهَا﴾ ما يليق بركوبكم تتميمًا لتربيتكم وحضوركم ﴿وَ﴾ جعل لكم أيضًا ﴿مِنْهَا﴾ أي: من النعام ﴿مَا تَأْكُلُونَ﴾ [غافر: 79] لتقويم المزاج وتقوية البدن.

﴿وَ﴾ جعل ﴿لَكُمْ فِيهَا﴾ أيضًا ﴿مَنَافِعُ﴾ كثيرة كالألبان والصواف والأشعار والأوبار، وغير ذلك ﴿وَلِتَبْلُغُوا﴾ أي: لتصلوا، وتنالوا بالحمل والركوب ﴿عَلَيْهَا﴾ أي: على الأنعام ﴿حَاجَةً﴾ مطلوبة لكم مركوزة ﴿فِي صُدُورِكُمْ﴾ ونفوسكم، ولولا ركوبكم وحملكم عليها، لم تصلوا إليها إلا بشق النفس ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿عَلَيْهَا﴾ أي: على الأنعام في البر ﴿وَعَلَى الْفُلْكِ﴾ في البحر ﴿تُحْمَلُونَ﴾ [غافر: 80] يعني: سهل عليكم سبحانه أمور معاشكم في إقامتكم وأسفاركم تتميمًا لتربيتكم وحفظكم؛ لتواظبوا على شكر نعمه، وتلازموا لعبادته وعبوديته بالتبتل والإخلاص التام.

﴿وَ﴾ بهذا ﴿يُرِيكُمْ﴾ أيها المغمورون المستغرقون في بحار أفضاله وجوده ﴿آيَاتِهِ﴾ الدالة على وجوب وجوده، ووحدة ذاته واستقلاله في الآثار الصادرة منه سبحانه حسب أسمائه وصفاته ﴿فَأَيَّ﴾ آية من ﴿آيَاتِ اللهِ﴾ الدالة على كمال ألوهيته

وربوبيته ﴿تُنكِرُونَ﴾ [غافر: 81] أيها المسرفون المشركون.

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [غافر: 82-85].

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ﴾ يعني: أينكر المشركون المصرون على الخروج عن مقتضى الحدود الإلهية كمال قدرته سبحانه على أنواع الانتقام والعذاب، فلم يسيروا في الأرض التي هي محل الكون والفساد ﴿فَيَنظُرُوا﴾ عليها معتبرين من البلاقع والخربة والأطلال المندرسة ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ﴾ الأمم الهالكة المسرفة ﴿الَّذِينَ﴾ مضوا ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ مع أنهم ﴿كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ﴾ عَددًا وعُددًا ﴿وَأَشَدَّ قُوَّةً﴾ أي: بسطة واستيلاء ﴿وَ﴾ أحكم ﴿آثَارًا فِي الأَرْضِ﴾ أي: أبنية وقصورًا وقلاعًا وحصونًا مشيدة مرفوعة، ومع ذلك ﴿فَمَا أَغْنَى﴾ وأدفع ﴿عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [غافر: 82] عليها من الأمور المذكورة شيئًا من غضب الله وعذابه، بل لحقهم ما لحقهم من العذاب، بحيث لا شعور لهم بأماراته ومقدماته فاستأصلهم بالمرة.

﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: فهم في العتو والعناد كانوا كأمثال هؤلاء المسرفين، لما جاءهم رسلهم المبعوثون إليهم بالمعجزات والآيات الواضحات، المبينة لطريق الحق، لم يلتفتوا ولم يلقوا أسماعهم نحوها تعنتًا واستكبارًا، بل ﴿فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ العِلْمِ﴾ أي: الجهل المركب المركوز في طباعهم من تقليد آبائهم على أوجه الإصرار، بلا التفات منهم إلى ما ظهر من الوحي الإلهي المنزل على رسلهم، بل كذبوهم واستهزءوا معهم ﴿وَ﴾ لهذا ﴿حَاقَ﴾ وأحاط ﴿بِهِم﴾ وبال ﴿مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [غافر: 83] حين دعوة الرسل وإرشادهم إلى طريق الحق بأنواع الوعد والوعيد، وكانوا على ما هم عليه من العناد مصرين مستكبرين.

﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ أي: عذابنا وبطشنا حلّ عليهم ﴿قَالُوا﴾ متذكرين دعوة رسلهم

متحسرين على ما فوّتوا على أنفسهم: ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ على الوجه الذي هدانا إليه رسله ﴿وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ [غافر: 84] من الأصنام والأوثان، وسائر ما عبدنا من دونه سبحانه.

﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ إذ حينئذ قد انقضى زمان التدارك والتلافي، وبالجملة: قد كانت هذه الديدنة المستمرة ﴿سُنَّتَ اللَّهِ﴾ العليم الحكيم ﴿الَّتِي قَدْ خَلَتْ﴾ ومضت ﴿فِي عِبَادِهِ﴾ المستكبرين عن إطاعته وانقياده حين دعوة الرسل وإرشادهم ﴿وَ﴾ بعد حلول أوان اليأس ونزول العذاب ﴿خَسِرَ هُنَالِكَ﴾ أي: عنده ﴿الْكَافِرُونَ﴾ [غافر: 85] [1] المصرون على الإنكار والاستهزاء خسرانًا عظيمًا في

---

(1) فلما رأوا بأسنا شدة عذابنا ومنه قوله تعالى: بعذاب بئيس قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين يعنون الأصنام أو سائر آلهتهم الباطلة: فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا أي عند رؤية عذابنا لأن الحكمة الإلهية قضت أن لا يقبل مثل ذلك الإيمان وإيمانهم رفع بيك أسما لها أو فاعل ينفعهم وفي يك ضمير الشأن على الخلاف الذي في كان يقوم زيد ودخل حرف النفي على الكون لا على النفع لإفادة معنى نفي الصحة فكأنه لم يصح ولم يستقم حكمة نفع إيمانهم إياهم عند رؤية العذاب وههنا أربعة فاءات فاء فما أغنى وفاء فلما جاءتهم وفاء فلما رأوا وفاء فلم يك فالفاء الأولى مثلها في نحو قولك: رزق المال فمنع المعروف فما بعدها نتيجة مآلية لما كانوا فيه من التكاثر بالأموال والأولاد والتمتع بالحصون ونحوها والثانية تفسيرية مثلها في قولك: فلم يحسن إلى الفقراء بعد فمنع المعروف في المثال فما بعدها إلى قوله تعالى: (وحاق بهم) إيضاح لذلك المجمل وأنه كيف انتهى بهم الأمر إلى عكس ما أملوه وأنهم كيف جمعوا واحتشدوا وأوسعوا في إطفاء نور الله وكيف حاق المكر السيء بأهله إذ كان في قوله سبحانه: فما أغنى عنهم إيماء بأنهم زاولوا أن يجعلوا مغنية والثالثة للتعقيب وجعل ما بعدها تابعا لما قبلها واقعا عقيبه فلما رأوا بأسنا مترتب على قوله تعالى: (فلما جاءتهم) إلخ تابع له لأنه بمنزلة فكفروا إلا أن فلما جاءتهم الآية بيان كفر مفصل مشتمل على سوء معاملتهم وكفرانهم بنعمة الله تعالى العظمى من الكتاب والرسول فكأنه قيل: فكفروا فلما رأوا بأسنا آمنوا ومثلها الفاء الرابعة فما بعدها عطف على آمنوا دلالة على أن عدم نفع إيمانهم ورده عليهم تابع للإيمان عند رؤية العذاب كأنه قيل: فلما رأوا بأسنا آمنوا فلم ينفعهم إيمانهم إذ النافع إيمان الإختيار سنت الله التي قد خلت في عباده أي سن الله تعالى ذلك أعني عدم نفع الإيمان عند رؤية البأس سنة ماضية في العباد وهي من المصادر المؤكدة كوعد الله وصبغة الله وجوز انتصابها على التحذير أي احذروا يا أهل مكة سنة الله تعالى في أعداء الرسل (وخسر هنا لك الكافرون) أي وقت رؤيتهم في البأس على أنه اسم مكان قد استعير للزمان كما سلف آنفا وهذا الحكم خاص بإيمان البأس وأما توبة البأس فهي مقبولة نافعة بفضل الله تعالى وكرمه والفرق ظاهر، وعن بعض الأكابر أن إيمان البأس مقبول أيضا ومعنى فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا أن نفس

الدنيا، وفي الآخرة أعظم منه وأدوم، أعاذنا الله وعموم عباده المؤمنين من بأسه وبطشه بمنّه وجوده.

خاتمة السورة

عليك أيها المحمدي القاصد نحو الحق المتوجه إلى توحيده - وفقك الله على إنجاح مهامك، وأوصلك إلى منتهى مقصدك ومرامك - أن تكون على خبرة كاملة من آيات الله النازلة من عنده سبحانه؛ لإهداء عباده التائهين في فضاء وجوده، وعبرة تامة سريان وحدته الذاتية على عموم هياكل ما لمع عليه بروق تجلياته الجمالية والجلالية المنتشئة من ذاته حسب شئونه وتطوراته المتفرعة على أسمائه الحسنى وأوصافه العظمى.

فلك ألّا تغفل في عموم أحوالك عن مطالعة جمال الله وجلاله في كل ذرة من ذرائر الأكوان على وجه الاستبصار والاعتبار، بلا شائبة شك وإنكار وتردد واستكبار؛ لئلا تلحق بالأخسرين الذين يؤمنون بالله وتوحيده، حين لم يكُ ينفعهم إيمانهم؛ لانقضاء نشأة التلافي والاختبار، وذلك حين يعرضون على الملك الجبار، ويساقون إلى النار بأنواع الخسار والبوار.

ربنا آتنا من لدنك رحمة وقنّا عذاب النار.

إيمانهم لم ينفعهم وإنما نفعهم الله تعالى حقيقة به ولا يخفى عليك حال هذا التأويل وما كان من ذلك القبيل والله تعالى أعلم. «روح المعاني» (24/92 - 93).

سورة فصلت

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة سورة فصلت

لا يخفى على المستبصرين المستكشفين عن سرائر الكتب الإلهية، وأسرار الآيات المنزلة من عنده سبحانه على رسله وأنبيائه المؤيدين من لدنه بتكميل مرتبتي الولاية والنبوة المتفرعة على اسم الظاهر والباطن والأول والآخر، أن سر الإنزال والإرسال الذي جرت عليه السنة السنية الإلهية، واقتضت حكمته البالغة العلية وعلمه الشامل ورحمته الواسعة، إنما هو لتنبيه أهل الحيرة والضلال من المترددين في فضاء الوجود، بلا شعور منهم إلى مبدئهم ومعادهم؛ لاحتجابهم بالقرب المفرط المعمي عيون بصائرهم وقلوبهم، ليتفطن منهم ويتذكر بها من كان له قلب يقلبه الرحمن بأصابع أسمائه وصفاته كيف يشاء، أو ألقى السمع، وهو وإن كان محجوبًا لهويته، شهيد حاضر القلب غير مغيَّب من الله وآثار ألوهيته وربوبيته؛ ليفنى كل من سمع وتذكر عن هويته الباطلة، ويبقى بهوية الله الغير الزائلة.

ولهذا خاطب سبحانه حبيبه، ورمَز في خطابه بعدما تيمن بأمهات أسمائه التي هي مقاليد كنوز الوجود، ومفاتيح خزائن الفيض والجود فقال: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ المدبر لأمور عموم مظاهره بمقتضى استعداداتها الفائضة عليها حسب جوده ﴿الرَّحْمَنِ﴾ عليها بإخراجها عن مكمن العدم إلى فضاء الوجود ﴿الرَّحِيمِ﴾ لخواص عباده إيصالهم إلى الحوض المورود والمقام المحمود.

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٤ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ۝٥﴾ [فصلت: 1-5].

﴿حم﴾ [فصلت: 1] يا حافظ وحي الله، المؤيَّد من عنده لحفظ حدوده بمقتضى

أوامره ونواهيه، هذا القرآن الجامع لمصالح عموم المظاهر والأكوان[1].

﴿تَنزِيلٌ﴾ صادر ﴿مِّنَ الرَّحْمَنِ﴾ أي: من الذات الأحدية بمقتضى اسم الرحمن المستوي به على عروش عموم الأكوان؛ لإصلاح حال كل ما لاح عليه شمس ذاته تتميمًا لتربيته إياه؛ إذ ما من رطب ولا يابس إلا وهو سبحانه مشتمل عليه ومتكفل لتربيته وتدبيره ﴿الرَّحِيمِ﴾ [فصلت: 2] بإنزاله لخواص عباده؛ ليتنبهوا من رموزه وإشاراته إلى وحدة الحق وكمال أسمائه وصفاته.

وإنما صار القرآن جامعًا بين مرتبتي الظاهر والباطن والأول والآخر؛ لأنه ﴿كِتَابٌ﴾ شامل كامل ﴿فُصِّلَتْ﴾ بُينت وأوضحت ﴿آيَاتُهُ﴾ المشتملة على دلائل التوحيد بشواهد القصص والأحكام، ومنبهات العز والحكم، ومحاسن الأخلاق والأعمال، ومقابيح المناهي من الأفعال والأحوال في النشأة الأولى والأخرى، ولهذا صار ﴿قُرْآنًا﴾ فرقانًا واضحًا تبيانًا ﴿عَرَبِيًّا﴾ بيانًا؛ إذ لا لغة أحسن منه وأشمل وأفضل وأكمل، وإنما فصلت وأوضحت ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: 3] أي: يوفقون من لدنه سبحانه على العلم اللدني والفطرة الأصلية التي هي المعرفة والتوحيد.

ولهذا صار ﴿بَشِيرًا﴾ يبشر أهل العناية والسعادة والفوز العظيم الذي هو يحققهم بمقام الرضا والتسليم ﴿وَنَذِيرًا﴾ ينذر أصحاب الشقاوة والحرمان عن خلود النيران والعذاب الأليم، ومع علو شأنه ووضوح تبيانه وبرهانه.

﴿فَأَعْرَضَ﴾ عنه، وانصرف عن قبوله وسماعه سمع تدبر وتأمل ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾ أي: أكثر المكلفين المأمورين من عنده سبحانه بامتثال ما فيه من الأوامر والنواهي والأحكام، وباتصاف ما ذكر فيه من الأخلاق والأعمال، وما رمز إليه من المعارف والأحوال ﴿فَهُمْ﴾ من شدة قساوتهم وغفلتهم ﴿لَا يَسْمَعُونَ﴾ [فصلت: 4] ولا يلتفتون نحوه عتوًا وعنادًا، فكيف عن فحصه وقبوله، ودراية ما فيه من الرموز والإشارات.

﴿وَ﴾ من غاية عمههم وسكرتهم، ونهاية عتوهم، وإعراضهم عن استماع كلمة الحق والالتفات إليه ﴿قَالُوا﴾ على سبيل التهكم والتسخر: ﴿قُلُوبُنَا﴾ التي في وعاء

---

(1) معنى الحاء والميم أن هذا الخطاب وهذا التنزيل من الحبيب الأعظم إلى المحبوب الأعظم، وأيضًا هو قسمٌ أي: بحياتي ومجدي هذا التنزيل نزل من عين الرحمانية الرحيمية الأزلية الأبدية، نزل برحمتي على عبادي ومحبتي لهم، وأيضًا بحياتك ومشاهدتك يا حبيبي ويا محبوبي هذا تنزيل أنزلت إليك بالرحمة والكرم عليك وعلى أمتك.

الإيمان والاعتقاد ﴿فِي أَكِنَّةٍ﴾ وأغطية كثيفة وغشاوة غليظة ﴿مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾ من المعرفة والتوحيد، لا نتنبه ولا نتفطن بحقيته ﴿وَ﴾ أيضًا ﴿فِي آذَانِنَا﴾ التي هي وسائل العظة والتذكير ﴿وَقْرٌ﴾ صمم مانع عن استماع آياتك الدالة على صدقك في دعواك المبينة المثبتة لدعواك.

﴿وَ﴾ بالجملة: حال ﴿مِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ﴾ أيها المؤيد بالوحي والإلهام ﴿حِجَابٌ﴾ عظيم يمنعنا عما تدعونا إليه؛ بحيث لا يتيسر لنا رفعه، ولا نقدر على انكشافه ﴿فَاعْمَلْ﴾ أيها المدعي بمقتضى ما أوحاك إليك ربك وألهمك عليه ﴿إِنَّنَا﴾ أيضًا ﴿عَامِلُونَ﴾ [فصلت: 5] بما تيسر لنا ووفقنا عليه؛ إذ كل ميسر لما خُلق له.

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾ ﴾ [فصلت: 6-8].

وبعدما استنكفوا عنك، واستكبروا عليك وعلى دينك وكتابك ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل كلامًا ناشئًا عن محض اليقين والتوحيد، خاليًا عن وصمة التخمين والتقليد: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ أي: ما أنا إلا بشر مثلكم ما أدعي الملكية لنفسي، غاية ما في الباب أنه ﴿يُوحَى إِلَيَّ﴾ أي: يوحي ربي إليّ بمقتضى سنته السنية المستمرة في سالف الزمان ﴿أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ﴾ الذي أظهركم من كتم العدم، وأخرجكم من فضاء الوجود ﴿إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ أحد صمد فرد وتر، لا تعدد فيه بوجه من الوجوه ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ﴾ توجهوا نحوه مخلصين موحدين ﴿وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ لفرطاتكم التي صدرت عنكم بمقتضى بشريتكم؛ ليغفر لكم ما تقدم منكم من طغيان بهيميتكم.

﴿وَ﴾ عليكم ألَّا تشاركوا معه سبحانه شيئًا من مظاهره ومصنوعاته؛ إذ ﴿وَيْلٌ﴾ عظيم وعذاب أليم معد عنده ﴿لِلْمُشْرِكِينَ﴾ [فصلت: 6] المشركين له غيره، الخارجين عن مقتضى توحيده واستقلاله في ألوهيته ظلمًا وزورًا.

والمشركون المستكبرون عن آيات الله هم ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ المفروضة لهم من أموالهم تطهيرًا لنفوسهم عن رذالة البخل، ولقلوبهم عن الميل إلى ما سوى الحق ﴿وَ﴾ سبب امتناعهم عن التخلية والتطهير، أنهم بمقتضى أهويتهم الفاسدة

وآرائهم الباطلة ﴿هُم بِالآخِرَةِ﴾ المعدة لتنقيد أعمال العباد ﴿هُمْ كَافِرُونَ﴾ [فصلت: 7] منكرون جاحدون، لذلك يمتنعون عن قبول التكاليف الشرعية، وعن الامتثال للأوامر الدينية المنزلة على مقتضى الحكمة الإلهية.

ثم قال سبحانه على مقتضى سنته السنية: ﴿إِنَّ الموحدين الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بوحدة الحق واستقلاله في الألوهية ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: أكدوا إيمانهم بصالحات الأعمال، مخلصين فيها لمجرد امتثال أمر العبودية، بلا ترقب منهم إلى ما يترتب عليها من المثوبات ﴿لَهُمْ﴾ عند ربهم بدل إخلاصهم ﴿أَجْرٌ﴾ وجزاء ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [فصلت: 8] أي: بلا منّة معقبة للثقل والأذى، بل يحسن ويتفضل عليهم سبحانه من محض الرضا.

﴿ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰٓ إِلَى السَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا السَّمَآءَ الدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ ﴾ [فصلت: 9-12].

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل لمن أشرك بالله، وجحد توحيده على سبيل التوبيخ والتقريع: ﴿أَئِنَّكُمْ﴾ أيها الجاهدون المسرفون ﴿لَتَكْفُرُونَ﴾ وتنكرون ﴿بِالَّذِي﴾ أي: بالقادر العليم الحكيم الذي ﴿خَلَقَ الأَرْضَ﴾ أي: عالم الطبيعة والهيولي ﴿فِي يَوْمَيْنِ﴾ يومًا لاستعداداتها القابلة لانعكاس أشعة نور الوجود، ويومًا لاتصافها بها بمقتضى الجود الإلهي.

﴿وَ﴾ من كمال غفلتكم وضلالكم عن توحيد الحق وتوحده في ذاته ﴿تَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا﴾ تثبتون له شركاء في الوجود، مشاركين معه سبحانه في الآثار والتصرفات الواقعة في الكائنات، وتتوجهون نحوهم في الخطوب والملمات، مع أنه لا رب لهم سواه سبحانه، ولا مرجع لهم غيره، بل ﴿ذَلِكَ﴾ الواحد الأحد الصمد الذي ذكر نبذًا من أخص أوصافه ﴿رَبُّ العَالَمِينَ﴾ [فصلت: 9] أي: موجد جميع ما لاح عليه برق

الوجود، ومربيها بمقتضى الجود.

﴿وَ﴾ كيف تنكرون وحدة الحق، واستقلاله في ملكه وملكوته مع أنه ﴿جَعَلَ﴾ بمقتضى حكمته ﴿فِيهَا﴾ أي: في عالم الطبيعة ﴿رَوَاسِيَ﴾[1] أي: أقطابًا وأوتادًا رفيعة الهمم عالية القدر مستمرة ﴿مِن فَوْقِهَا﴾ أي: من عالم الأسماء والصفات ﴿وَ﴾ لهذا ﴿بَارَكَ فِيهَا﴾ وكثّر الخير والبركة عليها ﴿وَ﴾ من كمال حكمته سبحانه ﴿قَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾[2] أي: قدر وأظهر في عالم الطبيعية جميع ما يحتاج إليه أهلها من الرزق الصوري والمعنوي تتميمًا لتربيتهم، وتكميلاً لهم حسب نشأتهم.

كل ذلك صدر منه سبحانه ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ يومين للنشأة الأولى المتعلقة بالظهور والبروز، ويومين للنشأة والأخرى المتعلقة بالكمون والبطون، ولهذا كانت الأيام المذكورة ﴿سَوَاءً﴾ أي: سبيلاً سويًا وطريقًا مستقيمًا ﴿لِّلسَّائِلِينَ﴾ [فصلت: 10] المستكشفين عن مدة بروز عالم الطبيعة عن مكمن الغيب.

﴿ثُمَّ﴾ أي: بعدما هبط ونزل من عالم الأسماء إلى مهبط الطبيعة والهيولي، وصعد إليها ﴿اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾ أي: سماء الأسماء، وتمكن عليها مستعليًا مستغنيًا فارغًا عن الصعود والهبوط ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿هِيَ﴾ أي: عالم الأسماء والصفات في أنفسها أيضًا ﴿دُخَانٌ﴾ حجاب بالنسبة إلى صرافة الذات؛ إذ لا تخلو عن شوب الكثرة المستلزمة للظلمة، بعدما استقر عليها سبحانه، وتمكن ﴿فَقَالَ لَهَا﴾ أي: لسماء الأسماء والصفات.

﴿وَلِلْأَرْضِ﴾ أي: الطبيعة والهيولي إظهارًا للقدرة الشاملة والسلطنة الغالبة: ﴿ائْتِيَا﴾ وتوجهًا نحو جنابنا، منسلخين عن هوياتكما الباطلة ووجوداتكما العاطلة الزائلة ﴿طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ أي: طائعتين أو كارهتين؛ إذ لا وجود لكما في أنفسكما، وبعدما سمعتا من النداء المهول ما سمعتا ﴿قَالَتَا﴾ على وجه التصريح والتذلل، حسب

---

(1) قال القشيري: أي: جبالًا مرتفعات، وجعلنا بها الماء سقيًا لكم، يُذكّرهم عظيم مِنّتِهِ بذلك عليهم. والإشارةُ فيه إلى عظيم مِنّته أنه لم يخسف بكم الأرض، وإن عملتم ما عملتم (17/8).

(2) أي: حكم أن يوجد فيها لأهلها ما يحتاجون إليه من الأقوات المختلفة المناسبة لهم على مقدار مُعين، تقتضيه الحكمة والمشيئة، وما يصلح بمعايشهم من الثمار والأنهار والأشجار، وجعل الأقوات مختلفة في الطعم والصورة والمقدار، وقيل: خصابها التي قسمها في البلاد. البحر المديد (391/5).

استعداداتهما الفطرية وقابلياتهما الجبلية: ﴿أَتَيْنَا﴾ نحو بابك يا ربنا ﴿طَائِعِينَ﴾ [فصلت: 11] من أين يتأتي منا الكره لحكمك، يا من لا وجود لنا إلا منك، لا تحقق إلا بك، نعبدك ونستعين منك على العبادة عبادتك؛ إذ لا معبود لنا سواك، ولا مقصود إلا إياك.

﴿فَقَضَاهُنَّ﴾ أي: قضي سبحانه وقدر لإمدادهما ﴿سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ على عدد الصفات السبع التي هي أمهات الأسماء الإلهية ﴿فِي يَوْمَيْنِ﴾ أي: يوم الظهور ويوم البطون، يوم لتحصيل المادة، ويوم لتكميل الصورة ﴿وَ﴾ بعدما حكم وقضي سبحانه ﴿أَوْحَى﴾ وألهم ﴿فِي كُلِّ سَمَاءٍ﴾ من الأسماء المدبرة ﴿أَمْرَهَا﴾ أي: أمورها التي طلب منها ووضع لأجلها ﴿وَ﴾ قال سبحانه بعدما رتبها عليها تتميمًا للتربية، وتكميلاً للقدرة الكاملة الشاملة: ﴿زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا﴾ أي: القرب إلى عالم الشهادة المشتملة على الآثار والأعمال، الصادرة من المظاهر والأظلال ﴿بِمَصَابِيحَ﴾ مقتبسة مسرجة من أشعة أنوار الذات ﴿وَ﴾ جعلناها ﴿حِفْظًا﴾ أي: وقاية ورقيبًا لأرباب العناية من وساوس شيطان الأوهام، والخيالات المترتبة على القوى الطبيعية المائلة بالذات إلى السفل ﴿ذَلِكَ﴾ الذي سمعت من الخلق والإيجاد على النظام البديع والترتيب العجيب ﴿تَقْدِيرُ﴾ الحكيم ﴿الْعَزِيزِ﴾ الغالب على إيجاد جميع ما دخل في حيطة إرادته ﴿الْعَلِيمِ﴾ [فصلت: 12] بإظهارها على عموم الصور الممكنة لظهورها.

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [فصلت: 13-16].

وبعدما ظهر من دلائل توحيد الحق ما ظهر، ولاح من آثار قدرته الكاملة ما لاح ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ أي: الكفرة الجهلة المستكبرون عنك يا أكمل الرسل، وعن جميع ما جئت لهم من الآيات البينات لدلائل توحيد الذات، وكمال الأسماء والصفات الإلهية ﴿فَقُلْ﴾ لهم على وجه التحذير والتنبيه: ﴿أَنذَرْتُكُمْ﴾ أيها التائهون في تيه الغفلة

والضلال، أتى بالماضي لتحقق وقوعه ﴿صَاعِقَةً﴾ أي: بلية عظيمة نازلة عليكم من شدة قساوتكم، وإعراضكم عن الحق وأهله كأنها صاعقة في الحول والشدة ﴿مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: 13].

وقت ﴿إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ﴾ المبعوثون إليهم؛ لتكميليهم وإرشادهم، والمبلغون لهم الوحي الإلهي ﴿مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أي: في حضورهم وغيبتهم بواسطة وبغير واسطة، المنبهون عليهم، القائلون لهم: عليكم أيها المجبولون على فطرة التوحيد ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا﴾ ولا تتوجهوا بالعبودية الخالصة ﴿إِلَّا اللَّهَ﴾ الواحد الأحد الصمد، الحقيق بالإطاعة والانقياد؛ إذ لا معبود لكم سواه، ولا مقصد إلا هو.

وبعدما سمعوا من رسلهم ما سمعوا ﴿قَالُوا﴾ متهكمين مستهزئين: ﴿لَوْ شَاءَ رَبُّنَا﴾ الذي ادعيتم ربوبيته وألوهيته بالانفراد والاستقلال ﴿لَأَنزَلَ﴾ بمقتضى قدرته الكاملة التي ادعيتم له ﴿مَلَائِكَةً﴾ يخرجوننا من أودية الجهالات وبادية الضلال والغفلات، وبالجملة: ﴿فَإِنَّا﴾ بأجمعنا ﴿بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ﴾ أي: بجميع ما جئتم به وادعيتم الرسالة فيه ﴿كَافِرُونَ﴾ [فصلت: 14] منكرون جاحدون، إن أنتم إلا بشر مثلنا بلا مزية لكم علينا، ومن أين يتأتى لكم هذا؟!.

ثم فصل سبحانه ما أجمل بقوله: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا﴾ على عباد الله ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ التي هي محل الاختبار الإلهي ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي: بلا انقياد وإطاعة إلى دين ونبي يرشدهم إلى طريق الحق ﴿وَ﴾ من كمال تعنتهم وبطرهم ﴿قَالُوا﴾ على وجه الشرف والمباهاة: ﴿مَنْ أَشَدُّ﴾ على وجه الأرض ﴿مِنَّا قُوَّةً﴾ وأكثر عددًا وعُددًا، وأتم بسطة واستيلاء؟!.

وقالوا هذا حين تخويفهم الرسل بإلمام العذاب عليهم، وهم كانوا أعظم الناس جسما وأوفرهم قوة وقدرة، لذلك اغتروا بما عندهم من القوة والثروة، فكذبوا الرسل وقالوا لهم: نحن ندفع العذاب الذي ادعيتم نزوله أيها الكاذبون بوفور حولنا وقوتنا ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ يعني: أيغترون على قوتهم وجسامتهم وينكرون كمال قدرة الله وشدة انتقامه، ولم يعلموا ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ القدير العزيز ﴿الَّذِي خَلَقَهُمْ﴾ وأظهرهم من كتم العدم، ولم يكونوا شيئًا مذكورًا ﴿هُوَ﴾ سبحانه بذاته وكمال أسمائه وصفاته ﴿أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ وأكمل حولاً وقدرة، وأحكم بطشًا وانتقامًا ﴿وَ﴾ هم وإن جزموا حقية رسلنا المبعوثين إليهم، وآياتنا المنزلة عليهم في ظواهرهم وبواطنهم، لكن ﴿كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾

[فصلت: 15] وينكرون بحسب الظاهر عنادًا ومكابرة، اغترارًا بما معهم من الثروة والجسامة.

وبعدما تمادوا على غيهم، وأصروا على عتوهم وضلالهم ﴿فَأَرْسَلْنَا﴾ بمقتضى قهرنا وجلالنا ﴿عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ باردة شديدة البرد، عقيمة عن المطر، تعميمهم بنقعها، وتصميمهم بصريرها ﴿فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ لا سعود فيها؛ يعني: إنما بدلنا مسعودات أيامهم بالمنحوسات ﴿لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ﴾ أي: المذلة والهوان اللازم على العذاب حيث كان ونزل ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ التي هم مغرورون فيها، مسرورون بلذاتها وشهواتها ﴿وَ﴾ الله ﴿لَعَذَابُ الْآخِرَةِ﴾ المعدة للانتقام والجزاء ﴿أَخْزَى﴾ أي: أشد خزيًا، وأتم تذليلاً وتصغيرًا بأضعاف عذاب الدنيا وآلافها ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿هُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ [فصلت: 16] ولا يشفعون فيها بدفع العذاب عنهم لحظة، بل يخلدون في العذاب ما شاء الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (17) وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (18) وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (19) حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (20) وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (21) ﴾ [فصلت: 17-21].

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ بإرسال الرسل إياهم؛ ليرشدوهم إلى النجاة، وينقذوهم من الضلال، وبعدما بلغهم الرسل ما بلغهم من آيات الهداية والرشاد، كذبوهم وأنكروا هدايتهم ﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى﴾ والضلال بمقتضى عميهم وغفلتهم ﴿عَلَى الْهُدَى﴾ المنزل عليهم من عندنا على ألسنة رسلنا، وبعدما أصروا على ما هم عليه من الغواية ﴿فَأَخَذَتْهُمْ﴾ فجأة ﴿صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ﴾ المخزي المذل النازل من نحو السماء على صورة الصاعقة السريعة الجري والحركة، فاستأصلهم بالمرة ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [فصلت: 17][1] أي: بشؤم ما يقترفون من المعاصي والآثام الجالبة إياهم شدة غضب

(1) ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فهديناهم﴾ قال ابن عباس وقتادة والسدي: أي بينا لهم، وأرادوا بذلك على ما قيل

بيان طريقي الضلالة والرشد كما في قوله تعالى: ﴿وهديناه النجدين﴾ [البلد:10] وهو أنسب بقوله تعالى: ﴿فاستحبوا العمى عَلَى الهدى﴾ أي: فاختاروا الضلالة على الهدى فالظاهر في أنه بين لهم الطريقان فاختاروا أحدهما، وصرح ابن زيد بذلك فقد حكي عنه أنه قال: أي اعلمناهم الهدى من الضلال، وفسر غير واحد الهداية هنا بالدلالة أي فدللناهم على الحق بنصب الحجج وإرسال الرسل فاختاروا الضلال ولم يفسروها بالدلالة الموصلة لإباء ظاهر ﴿فاستحبوا﴾ إلخ عنه، واستدل المعتزلة بهذه الآية على أن الإيمان باختيار العبد على الاستقلال بناءً على أن قوله تعالى: ﴿هديناهم﴾ دل على نصب الأدلة وإزاحة العلة، وقوله تعالى: ﴿استحبوا العمى﴾ إلخ دل على أنهم بأنفسهم آثروا العمى، والجواب كما في «الكشف» أن في لفظ الاستحباب ما يشعر بأن قدرة الله تعالى هي المؤثرة، وأن لقدرة العبد مدخلًا ما فإن المحبة ليست اختيارية بالاتفاق وإيثار العمى حبًا وهو الاستحباب من الاختيارية، فانظر إلى هذه الدقيقة تر العجب العجاب، وإلى نحوه أشار الإمام الداعي إلى الله تعالى قدس سره، ومعنى كون المحبة ليست اختيارية أنها بعد حصول ما تتوقف عليه من أمور اختيارية تكون بجذب الطبيعة من غير اختيار للشخص في ميل قلبه وارتباط هواه بمن يحبه، فهي نفسها غير اختيارية لكنهاباعتبار مقدماتها اختيارية، ولذلك كلفنا بمحبة الله تعالى ومحبة رسوله ﷺ، وفي «طوق الحمامة» لابن سعيد أن المحبة ميل روحاني طبيعي، وإليه يشير قوله ﷻ: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: 189] أي بميل فجعل علة ميلها كونها منها، وهو المراد بقوله ﷺ: «الأرواح جنود مجندة» وتكون المحبة لأمور أخر كالحسن والإحسان والكمال، ولها آثار يطلق عليها محبة كالطاعة والتعظيم، وهذه هي التي يكلف بها لأنها اختيارية فاعرفه، وقرأ ابن وثاب والأعمش وبكر بن حبيب ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ﴾ بالرفع مصروفًا وقد قرأ الأعمش وابن وثاب بصرفه في جميع القرآن إلا في قوله تعالى: ﴿وآتينا ثمود الناقة﴾ [الإسراء: 59] لأنه في المصحف بغير ألف، وقرأ ابن أبي إسحاق وابن هرمز بخلاف عنه، والمفضل قال ابن عطية: والأعمش وعاصم وروي عن ابن عباس ﴿ثموذًا﴾ بالنصب والتنوين، وروي المفضل عن عاصم الوجهين والمنع عن الصرف للعلمية والتأنيث على إرادة القبيلة، ومن صرفه جعله اسم رجل، والنصب على جعله من باب الإضمار على شريطة التفسير، ويقدر الفعل الناصب بعده لأن أما لا يليها في الغالب إلا اسم، وقرىء بضم الثاء على أنه جمع ثمد وهو قلة الماء فكأنهم سموا بذلك لأنهم كانوا يسكنون في الرمال بين حضرموت وصنعاء وكانوا قليلي الماء ﴿الهدى فَأَخَذَتْهُمْ صاعقة العذاب الهون﴾ أي الذي وهو صفة للعذاب أو بدل منه، ووصفه به مصدرًا للمبالغة وكذا إضافة صاعقة إلى العذاب فيفيد ذلك أن عذابهم عين الهون وأن له صاعقة، والمراد بالصاعقة النار الخارجة من السحاب كما هو المعروف وسبب حدوثها العادي مشهور في كتب الفلسفة القديمة، وقد تكلم في ذلك أهل الفلسفة الجديدة المتداولة اليوم في بلاد الروم وما قرب منها فقالوا في كيفية انفجار الصاعقة: من المعلوم أن انطلاق الكهربائية التي في السحاب وهي قوة مخصوصة في الأجسام نحو قوة الكهرباء التي بها تجذب التبنة ونحوها إليها إنما يحصل باتحاد كهربائية الأجسام مع بعضها، فإذا قرب السحاب من الأجسام الأرضية طلبت الكهربائية السحابية أن تتحد بالكهربائية الأرضية

الله وعذابه.

﴿وَ﴾ من كمال قدرتنا على الإنعام والانتقام ﴿نَجَّيْنَا﴾ من تلك الصاعقة المهولة المهلكة القوم ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ برسلنا واهتدوا هدايتهم، مع أنهم كانوا فيهم مجاورين معهم ﴿وَ﴾ بسبب تخليصنا إياهم أنهم ﴿كَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [فصلت: 18] عن محارمنا ومنهياتنا، مع كونهم متصفين بكمال الإيمان والتوحيد.

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل لمن عاندك من المشركين ﴿يَوْمَ يُحْشَرُ﴾ ويُساق ﴿أَعْدَاءُ اللَّهِ﴾ بعد العرض والحساب ﴿إِلَى النَّارِ﴾ المعدة لجزائهم ﴿فَهُمْ﴾ حينئذ ﴿يُوزَعُونَ﴾ [فصلت: 19] أي: يدفعون؛ يعني: حبس أولهم ومقدمهم على آخرهم؛ لئلا ينقطع تلاحقهم واجتماعهم.

﴿حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا﴾ أي: حضروا النار، وازدحموا حولهم مجتمعين صائحين فزعين مجادلين منكرين بصدور أسباب العذاب عنهم، مع أنهم يحاسبون أولاً ثم يساقون نحو النار، ولإسكاتهم وتبكيتهم عن الجدال والمراء ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ﴾ أي: اعترفت جوارحهم وقواهم ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: 20] ويقترفون بها من المحرمات والمنهيات، بأن يلهمهم الله الاعتراف والتنطق بلسان الحال والمقال؛ إذ الكل مما أحاطت به قدرته سبحانه.

﴿وَ﴾ بعدما سمعوا من قواهم ما سمعوا من الاعتراف ﴿قَالُوا﴾ موبّخين مقرعين ﴿لِجُلُودِهِمْ﴾ وجوارحهم المعترفة بذنوبهم: ﴿لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ مع أنّا لا نُعذب إلا بكم ومعكم؟ من أين تجترئون على أنفسكم بالعرض على العذاب المؤبد أيها الحمقى الجهلاء ﴿قَالُوا﴾ ما كنا مختارين في هذه الشهادة والاعتراف، بل ﴿أَنطَقَنَا اللَّهُ﴾ القادر المقتدر العليم الحكيم ﴿الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ بآيات وجوب وجوده، ودلائل توحيده

فتنبجس بينهما شرارة كهربائية فتصعق الأجسام الأرضية، وتتفاوت قوة الصاعقة باختلاف الاستحالة البخارية فليست في جميع البلاد والفصول واحدة، وأوضحوا ذلك بكلام طويل من أراده فليرجع إليه في كتبهم، وقيل: المراد بالصاعقة هنا الصيحة كما ورد في آيات أخر، ولا مانع من الجمع بينهما . وقرأ ابن مقسم ﴿الهوان﴾ بفتح الهاء وألف بعد الواو ﴿بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من اختيار الضلالة على الهدى، وهذا تصريح بما تشعر به الفاء . «تفسير الألوسي» (179/18).

بمقتضى جوده، وليس تعجبًا من قدرته سبحانه إنطاقنا بما اقترفتم بنا من المعاصي والآثام المخالفة لأمره وحكمه، غيرة منه سبحانه، وقهرًا على من خرج عن ربقة عبوديته بترك أوامره وأحكامه.

﴿وَ﴾ كيف لا يغار ويقهر سبحانه عليكم أيها المفسدون المسرفون مع أنه ﴿هُوَ﴾ بذاته وبمقتضى أسمائه وصفاته ﴿خَلَقَكُمْ﴾ وأظهركم من كتم العدم خلقًا إبداعيًا ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ بلا سبق مادة ومدة، وشركة من أحد ومظاهرة ﴿وَإِلَيْهِ﴾ أيضًا آخر مرة كذلك ﴿تُرْجَعُونَ﴾ [فصلت: 21] رجوع العكوس والأظلال إلى الأضواء، والأمواج إلى الماء، فمن أين تستنكفون عن عبوديته، وتخرجون عن حكمه وأمره؟!.

﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [فصلت: 22-25].

ثم قال سبحانه تذكيرًا لما هم عليه عند ارتكاب المعاصي توبيخًا لهم وتقريعًا: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ﴾ أي: لم تكونوا مسرين مستترين عند ارتكاب الفواحش والمحظورات مخافة ﴿أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلاَ أَبْصَارُكُمْ وَلاَ جُلُودُكُمْ﴾ عند الله في يوم الجزاء؛ لإنكاركم به، بل إنما تشترون وتكتمون معاصيكم وقبائحكم مخافة فضاحتكم واشتهاركم بين الناس بالمذام ﴿وَلَكِن ظَنَنتُمْ﴾ بالله ظن السوء، وهو ﴿أَنَّ اللهَ﴾ المطلع لسرائر الأمور وخفاياتها ﴿لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: 22] في خلواتكم، لذلك اجترأتم على اقتراف المعاصي والآثام المحرمات.

﴿وَذَٰلِكُمْ﴾ أي: هذا الذي نسبتم إلى الله بقولكم هذا ﴿ظَنُّكُمْ﴾ السوء، وزعمكم الفاسد ﴿الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ﴾ العليم الخبير بجميع ما صدر عنكم، وهذا ﴿أَرْدَاكُمْ﴾ وأهلككم في تيه الجهل والضلال، وبعدما فوّتم على أنفسكم أسباب السعادة والهداية، واخترتم بدلها ما يوجب الشقاوة والضلال ﴿فَأَصْبَحْتُم مِّنَ﴾ زمرة ﴿الْخَاسِرِينَ﴾ [فصلت: 23] وانقلبتم صاغرين مهانين، وصرتم في النار خالدين.

وبعدما دخلوا في النار المسعرة بأنواع المذلة والهوان ﴿فَإِن يَصْبِرُوا﴾ على

فوحاتها والتهاباتها الشديدة ﴿فَالنَّارُ مَثْوًى﴾ منزلاً ﴿لَّهُمْ﴾ أبدًا، لا نجاة لهم منها أصلاً ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا﴾ ويبثوا الشكوى والعتبى، ويظهروا الكآبة وعدم الطاقة ﴿فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ [فصلت: 24] المجابين بإزالة العتبى والشكوى، بل كلما أظهروا العتاب ضوعف لهم العذاب.

﴿وَ﴾ كيف يزال عتابهم، ولا يضاعف عليهم عذابهم؛ إذ قد ﴿قَيَّضْنَا﴾ وقدرنا ﴿لَهُمْ﴾ فيما هم عليه من الكفر والشقاق، وأنواع الفسوق والنفاق ﴿قُرَنَاءَ﴾ أخدانًا وإخوانًا من الشياطين يوحون إليهم ما يبعدهم عن الحق وأهله ﴿فَزَيَّنُوا لَهُم﴾ وحسَّنوا لطباعهم ﴿مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ من اتباع الشهوات، وارتكاب المناهي والمحظورات ﴿وَ﴾ إنكار ﴿مَا خَلْفَهُمْ﴾ من الأمور الأخروية مواعيدها وموعوداتها.

﴿وَ﴾ سبب ارتكاب المعاصي وإصفاؤهم، قول قرنائهم ﴿حَقَّ﴾ وثبت ﴿عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ وكلمة العذاب المؤبد منًا، وليس هذا مخصوص بقوم دون قوم بل جرت سنتنا كذلك ﴿فِي﴾ كل ﴿أُمَمٍ﴾ مفسدة مشركة ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ ومضت ﴿مِن قَبْلِهِم﴾ أي: قبل هؤلاء المشركين المسرفين سواء أكانوا ﴿مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ أي: المكلفين منها، وإنما استحقوا العذاب المؤبد والنكال المخلد بسبب ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ [فصلت: 25] خسرانًا مبينًا؛ لاستبدالهم أسباب السعادة والهداية بالشقاوة والضلال.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [فصلت: 26-29].

﴿وَ﴾ من شدة غيهم وضلالهم المفضي إلى الخسران العظيم ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بك وبدينك وبكتابك - يا أكمل الرسل - حين تلاوتك وتبليغك عليهم آيات القرآن: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ﴾ ولا تلتفتوا إلى محمد حين قرأ، بل ﴿وَالْغَوْا فِيهِ﴾ بالصياح، وإنشاد الأشعار، وخلط الأصوات والخرافات ﴿لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: 26] محمدًا، وتدفعون قراءتهم، وتخجلونه فيسكت.

وهم من شدة شكيمتهم وغيظهم، وإن بالغوا في تخجيلك وتخذيلك يا أكمل الرسل، لا تبالِ بهم وبفعلهم هذا ﴿فَلَنُذِيقَنَّ﴾ لهؤلاء ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بك وأساءوا

الأدب معك ﴿عَذَابًا شَدِيدًا﴾ منتقمين عنهم في النشأة الأولى ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ﴾ في النشأة الأخرى ﴿أَسْوَأَ﴾ وأشد وأقبح من ﴿الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: 27] معك بأضعافها وآلافها.

﴿ذَلِكَ﴾ العذاب الأسوأ الأشد ﴿جَزَاءُ﴾ أعمال ﴿أَعْدَاءِ اللَّهِ﴾ الذين عاندوا معك يا أكمل الرسل، واستهزءوا بك وبكتابك، بطرين بما معهم من الجاه والثروة، وهي ﴿النَّارُ﴾ المسعرة المعدّة لدخولهم ونزولهم؛ إذ ﴿لَهُمْ فِيهَا﴾ أي: في النار ﴿دَارُ الْخُلْدِ﴾ أي: إقامة على وجه الخلود، وإنما صارت كذلك ليكون ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت: 28] وينكرون بها، ويكذبون بمن أنزل إليه ويستهزئون.

﴿وَ﴾ بعدما استقر أهل النار في النار بأنواع السلاسل والأغلال ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله ورسله وكتبه في النشأة الأولى، متحسرين متأسفين، متضرعين إلى الله، مناجين له: ﴿رَبَّنَا﴾ يا من ربانا على فطرة الإسلام والتوحيد، فكفرنا بك وأشركنا معك غيرك في ألوهيتك بإضلال قرنائنا الضالين المضلين ﴿أَرِنَا﴾ الشياطين ﴿اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا﴾ عن طريق توحيد كتبك ورسلك الكائنين ﴿مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ أي: المضلّين اللذين أضلانا من هذين الجنسين بأنواع الوساوس والزخارف، والتغريرات والتزيينات ﴿نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾ لننتقم عنهم جزاء ما فوتوا عنّا سعادة الدارين وصلاح النشأتين، وإنما نرجو منك هذا يا مولانا ﴿لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾ [فصلت: 29] المستتبعين لنا، كما كنا كذلك بالنسبة إليهم؛ وإنما قالوا ما قالوا تحسرًا وتضجرًا.

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فصلت: 30-33].

ثم قال سبحانه على مقتضى سنته في كتابه: ﴿إِنَّ﴾ الموحدين ﴿الَّذِينَ قَالُوا﴾ في السراء والضراء والسر والعلن: ﴿رَبُّنَا اللَّهُ﴾ الواحد الأحد الفرد الصمد الذي ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: 3-4] ﴿ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ وثبتوا على ما

أقروا، واعترفوا بأعمالهم وأحوالهم وبيناتهم المترتبة عليها عموم أفعالهم ﴿تَتَنَزَّلُ﴾ على إعانتهم وشرح صدورهم وتهذيب أخلاقهم ﴿عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ المترصدون لأمر الله، القائمون لحكمه، قائلين لهم مبشرين إياهم: ﴿أَلَّا تَخَافُوا﴾ على فرطاتكم التي صدرت عنكم قبل انكشافكم بسرائر التوحيد واليقين ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾ بما جرى عليكم من مقتضيات بشرياتكم ﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: 30][1] بألسنة أنبيائكم ورسلكم الهادين المهدين.

وبعدما وفقناكم على انكشاف سرائر توحيدنا، والتخلق بأخلاقنا ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ﴾ نولي عموم أموركم؛ بحيث نكون سمعكم وبصركم وجميع قواكم وجوارحكم ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ حسب اسمنا الظاهر ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ أيضًا كذلك حسب اسمنا الباطن ﴿وَلَكُمْ﴾ منّا وراء ذلك تفضلاً وإحسانًا ﴿فِيهَا﴾ أي: في الآخرة ﴿مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ﴾ من اللذات الروحانية حسب استعداداتكم الفطرية وقابلياتكم الجبلية الفائضة عليكم بمقتضى جودنا الواسع ﴿وَلَكُمْ﴾ أيضًا ﴿فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ [فصلت: 31] تطلبون وتتمنون وقت دعائكم في نشأة الدنيا حسب عقولكم وهوياتكم.

كل ذلك صار ﴿نُزُلًا﴾ معدًا لكم قبل نزولكم فيها تفضلاً عليكم وإحسانًا لكم ﴿مِّنْ غَفُورٍ﴾ ستّار لأنانياتكم، محّاء لذنوب هوياتكم ﴿رَّحِيمٍ﴾ [فصلت: 32] موصل لكم بمقتضى سعة رحمته وجوده إلى زلال توحيده.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا﴾ وأصلح عملاً، وأكمل إيمانًا واعتقادًا، وأتم معرفة وتوحيدًا ﴿مِّمَّن دَعَا﴾ أي: أرشد وهدى ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ الواحد الأحد الصمد، المستقل بالألوهية والربوبية، المتفرد بالوجود والديمومية ﴿وَعَمِلَ﴾ عملاً ﴿صَالِحًا﴾ مطابقًا موافقًا لصفاء مشرب التوحيد، مجتنبًا عن رعونات العجب والرياء، وتخمينات التقليد والهوى ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿قَالَ﴾ بعدما نال أولاً ما نال، وفني فيما فني: ﴿إِنَّنِي مِنَ﴾ زمرة ﴿الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: 33] المسلِّمين المنقادين، المفوضين إلى الله جميع ما لاح عليهم من بروق تجلياته الجمالية والجلالية، وما لي أيضًا إلا التسليم والرضا بعموم ما جرى عليه القضاء.

---

(1) قال محمد بن علي الترمذي: تتنزل عليهم ملائكة الرحمة، عند مفارقة الأرواح الأبدان، ألا تخافوا سلب الإيمان، ولا تحزنوا على ما كان من العصيان، وأبشروا بدخول الجنان، التي توعدون في سالف الأزمان. البحر المديد (402/5).

﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥) وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٦) وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (٣٧) فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ۩ (٣٨) ﴾ [فصلت: 34-38].

ثم قال سبحانه على سبيل التعليم والإرشاد لعموم العباد: ﴿وَلاَ تَسْتَوِي الحَسَنَةُ﴾ أي: لا تستوي جنس الحسنات بل هي متفاوتة في الحسن والبهاء ﴿وَلاَ السَّيِّئَةُ﴾ أي: وكذا لا تستوي جنس السيئات أيضًا بعضها أسوأ من بعض ﴿ادْفَعْ﴾ أيها السالك القاصد سلوك طريق التوحيد من جادة العدالة المنكشفة لأكمل الرسل وأفضل الأنبياء الهادين، المرشدين إلى بحر الوحدة الذاتية من جداول الأسماء والصفات المترشحة منها حسب تموجاتها وتطوراتها المتفرعة على شئونها الذاتية ﴿بِالَّتِي﴾ أي: بالخصلة الحسنة التي ﴿هِيَ أَحْسَنُ﴾ الحسنات أسوأ السيئات، ودوام عليها، وتخلق بها حتى تستوي وتستقيم أنت على جادة العدالة الإلهية.

وبعد استقامتك وتحققك في هذه المرتبة ﴿فَإِذَا الَّذِي﴾ كان ﴿بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ﴾ مستمرة ناشئة من القوى البهيمية من كلا الطرفين، صار صديقك وخليلك إلى حيث ﴿كَأَنَّهُ وَلِيٌّ﴾ حفيظ لك، رقيب على حضانتك عن جميع ما يؤذيك ويرديك، فكيف يؤذيك؛ إذ هو ﴿حَمِيمٌ﴾ [فصلت: 34] مشفق كريم رءوف، رحيم لك، لايخاصمك أصلاً.

﴿وَ﴾ لكن ﴿مَا يُلَقَّاهَا﴾ أي: الخصلة الحميدة الحسنة التي هي دفع الإساءة بالإحسان، والمكروه بالمعروف، والقهر باللطف ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ أي: الأبطال المتحملون الذين صبروا على كظم الغيظ وتحمل المتاعب والمشاق المتعاقبة على نفوسهم؛ لتحققهم بمقام الرضا والتسليم بما جرى عليهم من القضاء، وتمكنهم في مقر التوحيد المسقط للإضافات، المستلزمة لأنواع الاختلافات والانحرافات ﴿وَ﴾

بالجملة: ﴿مَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: 35] [1] ونصيب كامل من الكشف والشهود بأسرار الوجود بمقتضى الجود الإلهي.

﴿وَ﴾ بعدما أرشد سبحانه عموم عباده إلى طريق النجاة، وعلمهم الخصلة المحمودة المخلِّصة لهم عن أودية الضلالات والجهالات، وأوصاهم بما أوصاهم من الصبر والثبات على تحمل المشاق والمكروهات، خاطب حبيبه ﷺ بما خاطب حثًا له ولمن تبعه واسترشد منه على دفع ما يمنعهم عن الاتصاف بتلك الخصال الحميدة، ويعوقهم منها بالإضلال والإغواء، فقال: ﴿إِمَّا يَنزَغَنَّكَ﴾ ويعرضن عليك يا أكمل الرسل ﴿مِنَ الشَّيْطَانِ﴾ المضل المغوي ﴿نَزْغٌ﴾ نخس يحرك غضبك وحمية بشريتك، ويوقعن فيك بوسوسته فتنة تبعثك على الإساءة والانتقام بترك تلك الخصلة المحمودة ﴿فَاسْتَعِذْ﴾ بالله أي: بادر إلى الإعادة والالتجاء ﴿بِاللَّهِ﴾ المقلب للقلوب، وفوض أمورك كلها إليه سبحانه على وجه التبتل والإخلاص؛ لتأمن من غوائله وتلبيساته ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه ﴿هُوَ السَّمِيعُ﴾ لمناجاتك ﴿الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: 36] بحاجاتك وخلوص نياتك فيها.

ثم قال سبحانه ردًا على المشركين، المتخذين شركاء الله من مظاهره ومصنوعاته ظلمًا وزورًا، يعبدونهم كعبادته: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ أي: من جملة الدلائل الدالة على قدرة

---

(1) بيّن الله سبحانه هاهنا أن الخلق الحسن ليس كالخلق السيئ، وأمرنا بتبديل الأخلاق المذمومة بالأخلاق المحمودة، وأحسن الأخلاق الحلم؛ إذ يكون به العدو صديقًا والبعيد قريبًا، حين دفع غضب بحلمه وظلمه بعفوه وسوء خاتمته بكرمه، وفي مظنة الخطأ أن من كان متخلقًا بخلقه متصفًا بصفاته مستقيمًا في خدمته صادقًا في محبته عارفًا بذاته وصفاته ليس كالمدعي الذي ليس في دعواه معنى. قال ابن عطاء: لا يسوّي بين من أحسن الدخول في خدمتنا والخروج منها وبين من أساء الأدب في الخدمة؛ فإن سوء الأدب في القرب أصعب من سوء الأدب في البعد فقد يصفح عن الجهّال الكبائر، ويأخذ الصديقين باللحظ والالتفات، وقال الأستاذ: أي: ادفع بالخصلة التي هي أحسن السيئة يعني بالعفو عن المكافآت بالتجاوز والصفح عن الزلة، وبيَّن الله سبحانه ألا يبلغ أحدٌ إلى درجة الخلق الحسن وحسنات الأعمال وسيئات الأفعال إلا من يصبر في بلاء الله وامتحانه بالوسائط وغير الوسائط، ولا يحتمل هذه البليات إلا ذو حظٍّ من مشاهدته وذو نصيب من قربه ووصاله، صاحب معرفة كاملة ومحبة شاملة، وكمال هذا الصبر الاتصاف بصبر الله، ثم الصبر في مشاهدة الأزل، فبالصبر الاتصافي والمشاهدة الأبدية والحظ الجمالي يوازي طوارق صدمات الألوهية وغلبات القهارية. قال بعضهم: لا يطيق أحدٌ الهجوم على المعارف إلا من يصبر على احتمال النوائب والشدائد فيها، ولا يرى لنفسه قيمةً، ولا لروحه خطرًا؛ إذ ذاك يمكنه مجاورة المعارف والهجوم عليها. وقال ابن عطاء: لا يوفق لجميل الأخلاق إلا الصابرون على خفض الخلاف.

الصانع الحكيم﴿ٱلَّيۡلُ﴾ المظلم ﴿وَٱلنَّهَارُ﴾ المبصر المضيء ﴿وَ﴾ كذا ﴿ٱلشَّمۡسُ﴾ المشرق في النهار ﴿وَٱلۡقَمَرُۚ﴾ المنير في الليل، قل لهم يا أكمل الرسل على وجه التنبيه والتذكير: ﴿لَا تَسۡجُدُواْ﴾ أي: لا تعبدوا ولا تتذللوا أيها الأظلال الهالكة في شمس الذات ﴿لِلشَّمۡسِ﴾ المستهلكة أمثالكم في شروق ذاته سبحانه ﴿وَلَا لِلۡقَمَرِ﴾ المستنير منها بالطريق الأولى.

بل ﴿وَٱسۡجُدُواْ﴾ وتذللوا بوضع جباهكم وجوار حكم على تراب المذلة ﴿لِلَّهِ﴾ الواحد الأحد القدير العزيز ﴿ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾ أي: أظهرهن، وأوجدهن من كتم العدم على سبيل الإبداع بلا سبق مادة وزمان، بل بمجرد امتداد أظلال أسمائه، وبسط عكوس صفاته على مرآة العدم، فعليكم الإطاعة والإنقياد إليه، والتوجه نحوه على وجه الإخلاص والاختصاص فاعبدوه ﴿إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ﴾ سبحانه ﴿تَعۡبُدُونَ﴾ [فصلت: 37] أيها العابدون المخلصون.

وبعدما بلغت إليهم بأكمل الرسل ما بلغت من الحق الحقيق بالقبول والاتباع ﴿فَإِنِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾ واستنكفا عن سجود الله، وأصروا على ما هم عليه عن سجود الله، اعرض عنهم وعن نصحهم، ولا تبالِ لهم وبشأنهم ﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ يا أكمل الرسل من الملائكة المهيمين، المستغرقين بمطالعة جماله وجلاله، والموحدين المفنين هوياتهم في هوية الله ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُۥ﴾ ويقدسون ذاته عن شوب الشركة مطلقًا، قولاً وفعلاً، وخاطرًا وناظرًا ﴿بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي: في عموم الأوقات والحالات ﴿وَهُمۡ﴾ من كمال شوقهم وتحننهم ﴿لَا يَسۡـَٔمُونَ﴾ [فصلت: 38] أي: لا يملون ولا يفترون منها أصلاً.

﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡۚ إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٣٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ٤٠ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ٤١ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ٤٢﴾ [فصلت: 39-42].

ومع ذلك هو سبحانه غني عن عبادتهم فكيف عن عبادة هؤلاء الحمقى،

المنغمسين في بحر الجهالات التائهين في بادية الضلالات وأودية الشهوات والغفلات ﴿وَ﴾ أيضًا ﴿مِنْ﴾ جملة ﴿آيَاتِهِ﴾ الدالة على وحدة ذاته وكمال أسمائه وصفاته: ﴿أَنَّكَ﴾ يا أكمل الرسل، وإنما وجه سبحانه أمثال هذه الخطابات إلى النبي ﷺ، مع أنه يصلح عموم الناس؛ لكمال لياقته بمطالعة آيات الله، وخبرته منها ﴿تَرَى الأَرْضَ﴾ أي: الطبيعة العدمية الجامدة اليابسة ﴿خَاشِعَةً﴾ ذليلة ساقطة عن درجات الاعتبار ﴿فَإِذَا أَنزَلْنَا﴾ من مقام جودنا ورششنا ﴿عَلَيْهَا المَاءَ﴾ المحيي المترشح من بحر الوجود، الذي هو الحي الأزلي والقيوم السرمدي ﴿اهْتَزَّتْ﴾[1] أي: تحركت وارتعدت اهتزازًا شوقيًا ﴿وَرَبَتْ﴾ أي: زادت ونمت، مع أنها لا شعور فيها، بل لا وجود لها أصلاً.

وبالجملة: ﴿إِنَّ﴾ القادر المقتدر الحكيم ﴿الَّذِي أَحْيَاهَا﴾ مع أنها لم تكن في ذاتها شيئًا مذكورًا ﴿لَمُحْيِي المَوْتَى﴾ مرة أخرى بعدما كانت أحياء بالطريق الأولى، وبالجملة: ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ دخل في حيطة علمه وإرادته ﴿قَدِيرٌ﴾ [فصلت: 39] بلا فتور وقصور.

ثم قال سبحانه تهديدًا على منكر الآخرة، وقدرة الله على إعادة الموتى وحشر الأموات: ﴿إِنَّ﴾ المسرفين ﴿الَّذِينَ يُلْحِدُونَ﴾ أي: يميلون وينحرفون ﴿فِي آيَاتِنَا﴾ الدالة على عظمة ذاتنا وكمال قدرتنا على أنواع الانتقام ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾ أي: لا يشتبه حالهم علينا، بل نحن منكشفون بهم وبجميع ما جرى في ضمائرهم، واختلج في خواطرهم من الميل والانحراف، فيجازيهم على مقتضى إلحادهم وانحرافهم بأشد العذاب وأسوأ الجزاء.

﴿أَفَمَن يُلْقَى فِي النَّارِ﴾ أي: قل لهم يا أكمل الرسل على سبيل التوبيخ والتقريع: إن من يُلقى في النشأة الأخرى في النار المسعرة بأنواع المذلة والهوان ﴿خَيْرٌ﴾ عندهم ﴿أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا﴾ من العذاب مسرورًا ﴿يَوْمَ القِيَامَةِ﴾ بأنواع الفتوحات والكرامات الموهوبة له من ربه تفضلاً عليه وإحسانًا، وبالجملة: قل يا أكمل الرسل للملحدين المصرين على الميل والإلحاد على سبيل التبكيت والتهديد: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ من الخوض في آيات الله، والميل عن دلائل توحيده ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

(1) (اهتزت) أي: تحركت (وربت) انتفخت؛ لأن النبات إذا دنا أن يظهر ارتفعت به وانتفخت، ثم تصدّعت عن النبات، وقيل: تزخرفت وارتفعت بارتفاع نباتها، البحر المديد (407/5).

[فصلت: 40] يجازيكم عليه بلا فوت شيء منه، ثم عرض عنهم ودعهم ﴿فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: 91].

ثم قال سبحانه على وجه التخصيص بعد التعميم: ﴿إِنَّ﴾ المشركين المفرطين ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وأنكروا ﴿بِالذِّكْرِ﴾ أي: القرآن الكامل الشامل لما في الكتب السالفة، المنزل على أكمل الرسل تفضلاً منّا إياه وتكريمًا ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ أي: حين جاءهم به الرسول المؤيد من عندنا، المرسل إليهم ليرشدهم به إلى سبيل الهداية والرشاد، وهم يعاندون في تكذيبه، ويكابرون في إنكاره وقدحه عتوًا واستكبارًا، كيف يفرطون في علو شأنه، ويكابرون في سمو برهانه ﴿وَإِنَّهُ﴾ أي: القرآن ﴿لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾ [فصلت: 41] منيع ساحة عزته ورتبته، وعلو قدره ومكانته عن أن يحوم حوله شائبة الجدل والعناد.

إذ ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ﴾ الزائغ الزائل في خلال أوامره وأحكامه لا ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ بأن يتصف حكمه وأحكامه حين نزوله وظهوره بعدم المطابقة لما في الواقع، وما في علم الله ولوح قضائه ﴿وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ بأن يلحقه نسخ وتبديل كالكتب السالفة؛ إذ هو ﴿تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ﴾ كامل في الإتقان والإحكام، عليم بأساليب الحكم والأحكام ﴿حَمِيدٍ﴾ [فصلت: 42] في ذاته، يحمده كل الأنام على ما أفاض عليهم من موائد الإفضال والإنعام.

﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [فصلت: 43-46].

ثم أخذ سبحانه يسلي حبيبه ﷺ ويزيل عنه أذى الكفرة الجهلة المعاندين معه بمقتضى آرائهم الباطلة وأهويتهم الفاسدة العاطلة، فقال: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ﴾ أي: ما يقول لك كفار قومك ليس ﴿إِلَّا﴾ مثل ﴿مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ﴾ الذين مضوا ﴿مِن قَبْلِكَ﴾ من

قِبل قومهم، فصبروا على أذاهم حتى ظفروا عليهم وانتصروا، فاصبر أنت أيضًا على أذى هؤلاء المعاندين حتى تظفر عليهم، وبعدما ظفرت يؤمنوا بك، ويصروا على عنادهم ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ على المؤمنين بك، يغفر لهم ما تقدم من ذنبهم وما تأخر، إن أخلصوا في إيمانهم ﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ [فصلت: 43] على من تولى واستكبر، وأصرَّ على كفره ولم يؤمن.

وبعدما قدح كفار مكة في شأن القرآن، وقالوا: هلا نزل بلغة العجم كالكتب السالفة، مع أنه لم يعهد منه سبحانه إنزال كتاب بلغة العرب قط، ورد الله عليهم هذا بقوله: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ﴾ أي: الذِكر المنزل عليك يا أكمل الرسل ﴿قُرْآنًا أَعْجَمِيًا لَقَالُوا﴾ في شأنه من شدة بغضهم وشكيمتهم معك ﴿لَوْلَا فُصِّلَتْ﴾ أي: هلا أُوضحت وبُيِّنت ﴿آيَاتُهُ﴾ بلسان نفقهها وندركها، مع أنه إنما أنزل إليك وإلينا ونحن لا نفهم لغة العجم، ثم يأخذون في القدح والاستهزاء بوجه آخر، ويقولون: ﴿ءَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ يعني: أينزل كلام أعجمي من قبل الحق على سبيل الوحي على نبي عربي، لا شعور له بكلام العجم أصلاً ليرشد الأعراب به ويبين لهم ما فيه؟! كلا وحاشا، ما هذا إلا كذب مفترى، وبالجملة: لا يسكتون أولئك المعاندون عن القدح والطعن فيه بحال.

وبعدما وضح حالهم في التعنت والعناد ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل كلامًا خاليًا عن وصمة المجادلة والعناد: ﴿هُوَ﴾ أي: القرآن ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ به، وامتثلوا بأوامره ونواهيه، وتنبهوا من رموزه وإشارته، واعتبروا من عبره وأمثاله وقصصه وأخباره ﴿هُدًى﴾ يهديهم إلى الحق الصريح، ويوصلهم إلى محض اليقين والتحقيق ﴿وَشِفَاءٌ﴾ لما في النفوس من الجهل، والأمراض العضال المورثة لهم من تقليد آبائهم وتخمينات وأوهام صناديدهم ورؤسائهم ﴿وَ﴾ المكابرون ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ولا يصدقون نزوله، بل يكذبونه ويستهزئون مع من أنزل إليه، هو بالنسبة إليهم ﴿فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ﴾ مستقر وصمم شديد يصمهم عن استماع آياته الدالة على تهذيب الظاهر والباطن، بل ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ يعمي بصائرهم وأبصارهم عن رؤية الحق الظاهر في الأنفس والآفاق.

وبالجملة: ﴿أُولَئِكَ﴾ البعداء عن ساحة عز الحضور ﴿يُنَادَوْنَ﴾ إلى مقصد التوحيد ﴿مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: 44] بمراحل عن الوصول إليه؛ يعني: هم وإن جبلوا على نشأة التوحيد صورة، إلا أنهم حطوا عنها ولحقوا بمرتبة البهائم، بل صاروا أبعد منها وأنزل لذلك ينادون من مكان بعيد إن نودوا.

﴿وَ﴾ إن عاندوا معك يا أكمل الرسل، واختلفوا في كتابك بالتصديق والتكذيب لا تبالِ بهم وبردهم وقبولهم، فإنَّا ﴿لَقَدْ آتَيْنَا﴾ من كمال جودنا أخاك ﴿مُوسَى الْكِتَابَ﴾ أي: التوراة المشتمل على ضبط ظواهر الأحكام وبواطنه، حفظًا لهم وضبطًا لأمور معاشهم ومعادهم، ومع ذلك ﴿فَاخْتُلِفَ فِيهِ﴾ أي: في حق التوراة وشأنه، فقبله بعضهم، ورده الآخر مثلما يفعل هؤلاء الغواة بكتابك هذا، وليس هذه الديدنة ببدع من هؤلاء الجهلة، بل هي من عادتهم المستمرة وشيمتهم القديمة.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿لَوْلا كَلِمَةٌ﴾ موعودة معهودة ﴿سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ من أخذ الظالم منهم على ظلمه في يوم الجزاء ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: بأخذهم سبحانه بظلمهم، ويستأصلهم اليوم بالكلية بلا إمهال لهم لاستئصالهم بالأخذ والانتقام، لكن ثبت حكمه سبحانه على ما وعد وقضى؛ إذ ما يبدل القول لديه ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ من كمال تماديهم في الغفلة والإعراض عن الحق واقتداره على وجوه الانتقام ﴿لَفِي شَكٍّ﴾ عظيم ﴿مِّنْهُ﴾ أي: من قضاء الله وحكمه المبرم في يوم الجزاء ﴿مُرِيبٍ﴾ [فصلت: 45] فيه ريبًا منتهيًا إلى الإنكار والتكذيب.

وبالجملة: لا تبالِ يا أكمل الرسل بهم وبريبهم، وإنكارهم وطغيانهم، فاعلم أنه ﴿مَنْ عَمِلَ﴾ من عموم عبادنا عملاً ﴿صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾ أي: صلاحه عائد إلى نفسه، راجع إلى إصلاح حاله في معاده ومعاشه ﴿وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ أي: رجع وبال إساءتها أيضًا على نفسها ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَا رَبُّكَ﴾ المنزه في ذاته عن طاعة المطيع وعصيان العاصي ﴿بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: 46] أي: لا ينقص من أجورهم المطيعين، ولا يزيد عن جزاء العاصين، بل يتفضل على أهل الطاعة فوق ما استحقوا بأعمالهم أضعافًا وآلافًا عناية منه وفضلاً، ويقتصر على أصحاب المعصية والضلال بجزاء ما اقترفوا لأنفسهم عدلاً منه وقهرًا.

﴿۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾ لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ

﴿لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾﴾ [فصلت: 47-50].

وكيف لا يتفضل حين الجزاء على أرباب العناية، ولا يعدل على أصحاب الغّواية حين الجزاء؛ إذ ﴿إِلَيْهِ﴾ لا إلى غيره من أظلال الوسائل والأسباب ﴿يُرَدُّ﴾ ويرجع ﴿عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أي: العلم المتعلق بوقت قيامها، وكيفية ما جرى فيها من الأهوال والأفزاع؛ إذ هي من جملة الغيوب التي استأثر الله بها ولم يطلع أحدًا عليها ﴿وَ﴾ أيضًا يرجع إلى علمه سبحانه ﴿مَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ﴾ أي: من أجناس الثمار مع اختلاف أنواعها وأصنافها متى تخرج ﴿مِّنْ أَكْمَامِهَا﴾ أي: أوعيتها التي فيها أنوارها الحاصلة منها الأثمار؛ إذ هي أيضًا من جملة الأمور الغيبية المستأثرة بها سبحانه ﴿وَ﴾ كذا ﴿مَا تَحْمِلُ﴾ وتحبل ﴿مِنْ أُنثَى﴾ أي: فوائد الحمل والحبل ﴿وَلَا تَضَعُ﴾ حملها بمكان من الأمكنة ﴿إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ سبحانه؛ إذ هو العالم لا غيره بما في الأرحام ومدة بقائه فيها وخروجه منها، لا اطلاع لأحد عليها.

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل لمن أشرك بالله، وأثبت الوجود لغيره والشركة في ألوهيته وربوبيته عدوانًا وظلمًا ﴿يَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ الله لهم حين إرادة الانتقام عنهم، موبّخًا لهم ومقرعًا إياهم: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِي﴾ الذين تزعمون شركتهم معي وشفاعتهم عندي، أحضروهم؛ لينجوكم من عذابي ويشفعوا لكم لدي، وبعدما سمعوا النداء الهائل ﴿قَالُوا﴾ متأسفين متحزنين: ﴿آذَنَّاكَ﴾ وأعلمناك يا مولانا اليوم، وإن كنت أعلم منّا بحالنا إنا ﴿مَا مِنَّا﴾ أي: ما أحد منّا اليوم ﴿مِن شَهِيدٍ﴾ [فصلت: 47] يشهد على شركة شركائنا الذين ادعينا شركتهم معك ظلمًا وزورًا.

﴿وَ﴾ بعدما تقوّلوا ما تقوّلوا من شدة الأسف ونهاية الحسرة والضجرة ﴿ضَلَّ﴾ وغاب ﴿عَنْهُم﴾ وخف عن أبصارهم وبصائرهم ﴿مَّا كَانُوا يَدْعُونَ﴾ ويعبدون إليه ﴿مِن قَبْلُ وَظَنُّوا﴾ بل تيقنوا حينئذ ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ [فصلت: 48] مهرب ومخلِّص من عذاب الله، فتندموا وما ينفعهم الندم، ورجعوا إلى الله حينئذ وما يفيدهم الرجوع؛ لانقضاء مدة التدارك والاختبار.

ومن العادة القديمة والديدنة المستمرة أنه ﴿لَّا يَسْأَمُ﴾ أي: لا يمل ولا يفتر ﴿الْإِنسَانُ﴾ المجبول على جلب الإحسان ﴿مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ﴾ لنفسه وجذب المنفعة

إلى ذاته حريصًا عليها، مولعًا لاقتنائها وجمعها ﴿وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ﴾ وعرض عليه الضر حينًا من الأحيان ﴿فَيَئُوسٌ﴾ من قدرة الله على دفع الضر عنه، وجلب النفع إياه بعدما أزال عنه ابتلاء ﴿قَنُوطٌ﴾ [فصلت: 49] [1] من فضل الله عليه وسعة رحمته وجوده.

﴿وَ﴾ من غاية يأسه وقنوطه عن مقتضى فضلنا وجودنا ﴿لَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً﴾ ووفرناها عليه؛ بحيث تسري في جميع أجزائه مع كونها تفضلاً ﴿مِّنَّا﴾ بلا اقتراف ﴿مِن﴾ جانبه سوى أنه ﴿بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ﴾ لحقته أوائلها؛ إذ المساس يحصل بمجرد الملاقاة ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ معرضًا عن الله: ﴿هَٰذَا لِي﴾ وأنا أستحق بها لاحتمال الشدائد ولكمال فضلي وعلمي، أو هذا لي بمقتضى ذاتي ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَا أَظُنُّ السَّاعَةَ﴾ الموهومة الموعودة ﴿قَائِمَةً﴾ آتية ﴿وَلَئِن﴾ فرضت وقوعها وقيامها على الوجه الذي زعم الرسل المدعون، ونطقت الكتب المزورة المفترية ﴿رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي﴾ كما زعموا ﴿إِنَّ لِي﴾ أي: ثبت وتحقق لي ﴿عِندَهُ﴾ سبحانه ﴿لَلْحُسْنَىٰ﴾ أي: الحالة التي هي أحسن الحالات وأكرم الكرامات؛ لاستحقاقي بها واقتضاء ذاتي إياها، وإنما يقول ما يقول استهزاءً وتهكمًا.

﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ﴾ ونخبرن حين الجزاء الكافرين ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بوفور قدرتنا على وجوه الانتقام ﴿بِمَا عَمِلُوا﴾ من الجرائم العظام وكبائر الآثام ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم﴾ ونحيطن عليهم ﴿مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [فصلت: 50] مؤلم فظيع فجيع، لا يمكنهم الخلاص عنه.

---

(1) قال الورتجبي: وصف الله من لم يعرفه ولم يعرف لطائف برّه بأوليائه ويكون مقلدًا في الدعاء ومعرضًا بسرّه عنه وبظاهره عن طاعته ليس هو يدعوه بالحقيقة، إنما يدعو مراده، فإذا حصل مراده قام على تكلفه وتقليده، وإن لم يحصل مراده ويمسه بلاؤه يفرُّ منه، ولا يدعوه، ولو كان على محل التحقيق في دعائه ومعرفته بربه فإنه لا يفرُّ من بلائه، ولا يقنط من رحمته؛ فإن العارف الصادق يستلذُّ بلاءه، كما يستلذُّ نعمه في لسان الخلائق لنا فيه إشارةٌ؛ وذلك أن العارف المشتاق الذي من كمال شوقه يريد أن يشرب جميع بحار الأزل والأبد والربوبية والألوهية والذات والصفات المنزهة عن مباشرة الحدثان بشرية واحدة وهو لا يقدر؛ لأنه تعالى منزهٌ عن أن يحيط به أحدٌ من خلقه وإن كان نبيًا مرسلاً، فإذا وجد نفسه أنه يسهل عليها شربها على قدر مذاقها وزيادة يستقيم في طلبها، وإذا نظر إلى امتناع الألوهية عن إدراكه ييأس ويقنط عن أن يدركه بالحقيقة، وهذا إذا كان هو مطالعًا في بطون الأزل وأكناف القدم وغيوب الأبد، لو رأيته يا عاقل كيف يفرُّ من الحق وهو غضبان عليه معربدًا شطاحًا بتكلّمه عن سرّ الانبساط، ويخاصمه، وهذا كله من حيرته في الله واشتياقه إلى درك الحقائق.

﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾ ﴾ [فصلت: 51-54].

﴿وَ﴾ من شدة طغيان الإنسان ونهاية كفرانه وعدوانه: إنَّا ﴿إِذَا أَنْعَمْنَا﴾ وأكرمنا من مقام جودنا ﴿عَلَى الإِنسَانِ﴾ المجبول على النسيان ﴿أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ﴾ أي: تباعد عنَّا، ولم يشكر على نعمنا، ولم يلتفت إلى موائد كرمنا ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ﴾ ولحقه الضر ﴿فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت: 51] كثير ممتد عرضًا وطولاً، وهو كناية عن إلحاحهم ولجاجهم في طلب الكشف والتفريج من الله عند نزول البلاء وإلمام المصيبة.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل لمنكري القرآن والقادحين فيه عدوانًا وظلمًا: ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ أخبروني ﴿إِن كَانَ﴾ القرآن منزلاً ﴿مِنْ عِندِ اللهِ﴾ بحسب الواقع مع أنه لاشك فيه ﴿ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ﴾ بلا تأمل وتدبر في دلائل صدقه، وبراهين إعجازه لفظًا ومعنى ﴿مَنْ أَضَلّ﴾ سبيلاً وأخطأ رأيًا وطريقًا ﴿مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: 52] وخلاف شديد عن الحق وقبوله، وبالجملة: من أضل منكم أيها القادحون المنكرون له مع وضوح محجته وسطوع برهانه.

ثم أشار سبحانه إلى وحدة ذاته وظهوره حسب أسمائه وصفاته في عموم مظاهره ومصنوعاته، وحيطته عليها، وشموله إياها؛ ليكون دليلاً على حقية كتابه، وصدوره منها، فقال: ﴿سَنُرِيهِمْ﴾ أي: المجبولين على فطرة التوحيد، المخلوقين على نشأة الإيمان والعرفان، الموقنين على كمال الكشف والعيان ﴿آيَاتِنَا﴾ أي: دلائل توحيدنا الدالة على وحدة ذاتنا الظاهرة ﴿فِي الآفَاقِ﴾ أي: ذرائر الأكوان الخارجة عن نفوسهم المدركة بآلاتهم وحواسهم، سميت بها؛ لطلوع شمس الحقيقة الحقية منها، وظهورها عليها ﴿وَفِي أَنفُسِهِمْ﴾ أي: ذواتهم التي هي أدل دليل على معرفة الحق ووحدة الحق.

لذلك قال أصدق القائلين وأكمل الكاملين: «من عرف نفسه فقد عرف ربه»[1].

وإنما نريهم ما نريهم ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ﴾ ويظهر دونهم وينكشف عليهم ﴿أَنَّهُ﴾ أي: الأمر الظاهر في الآفاق والأنفس ﴿الْحَقُّ﴾ الحقيق بالتحقق والثبوت لصرافة وحدته الذاتية والقرآن المعجز أيضًا، ومن جملة مظاهره وصفاته.

ثم لما أشار سبحانه إلى وحدة ذاته بالنسبة إلى عموم عباده، أراد أن ينبه على المستكشفين من أرباب المحبة والولاء، الوالهين في مطالعة وجهه الكريم، فخاطب حبيبه ﷺ؛ إذ هو الحري بأمثال هذه الخطابات، فقال مستفهمًا على سبيل التعجب: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ﴾ أي: أتشكون في وجود مربيك يا أكمل الرسل ومربيهم، وظهوره وتحققه، ولم يكف دليلاً ﴿أَنَّهُ﴾ بذاته وعموم أسمائه وصفاته ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ مما لاح عليه برق وجوده ورشاشة نوره ﴿شَهِيدٌ﴾ [فصلت: 53] حاضر غير مغيّب عنه.

وبالجملة: أو لم يكف لهم دليلاً على تحقق الحق وحضوره مع كل شيء من مظاهره ومصنوعاته.

ثم نوّر سبحانه ما نبه عليه على سبيل التعجب والتلويح تأكيدًا ومبالغة وزيادة إيضاح وتوضيح، فقال: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ﴾ بعدما أضاء لهم شمس الذات من مرايا الكائنات ﴿فِي مِرْيَةٍ﴾ شك وارتياب ﴿مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ﴾ فيها ومطالعة وجهه الكريم عنها ﴿أَلَا إِنَّهُ﴾ بذاته حسب شئونه وتطوراته المتفرعة على أسمائه وصفاته ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ من مظاهره ومصنوعاته ﴿مُّحِيطٌ﴾ [فصلت: 54][2] بالاستقلال والانفراد، إحاطة ذاتية بلا شوب شركة؛ إذ لا موجود سواه، ولا إله إلا هو.

---

(1) رواه أبو نعيم في «الحلية» (208/10).

(2) نريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم قال الحسن يعني ما أهلك به الأمم السالفة في البلدان فقد رأوا آثار ذلك وفي أنفسهم أخبر بأنهم تصيبهم البلايا فكان ذلك كما قال فأظهره الله عليهم وابتلاهم بما ابتلاهم به قال يحيى يعني من الجوع بمكة والسيف يوم بدر حتى يتبين لهم أنه الحق يعني القرآن أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد أي شاهد على كفرهم وأعمالهم أي بلى كفى به شهيدا عليهم قال محمد المعنى أو لم يكف بربك ألا إنهم في مرية في شك من لقاء ربهم يقولون لا نبعث ولا نلقى الله ألا إنه بكل شيء محيط أحاط علمه بكل شيء. «تفسير ابن أبي زمنين» (2 /135).

خاتمة السورة

عليك أيها السالك المترقب لشهود الحق من ذرائر عموم المجال والمظاهر الظاهرة في الآفاق والأنفس أن تصفي ضميرك أولاً من وساوس مطلق الأوهام، والخيالات العائقة عن التوجه إلى صرافة الوحدة، وتجلي خُلدك عن الإضافات الصارفة عنه.

فلك أيضًا أن تكون في نفسك متوجهًا إلى ربك الذي هو حصة لاهوتك، ونشأة جبروتك، خاليًا عنك وعن لوازم ناسوتك وعوارض بشريتك بالمرة، بحيث لا شعور لك عما جرى على هويتك أصلاً.

وبالجملة: كن فانيًا في الله، باقيًا ببقائه، ناظرًا بنوره إلى وجهه الكريم تفز بنعيم الجنات وعظيم اللذات، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

تم بحمد الله تعالى الجزء الثالث من تفسير سلطان العارفين

سيدي عبد القادر الجيلاني

قدس الله سره العزيز

آمين

سورة الشورى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة الشورى

لا يخفى على من تحقق بمرتبة التوحيد، وتمكن عليها بلا تردد وتلوين أن عموم مراتب الأنبياء والرسل ومشارب الأولياء المتابعين لهم، المقتفين أثرهم إنما هي على صرافة الوحدة الذاتية المسقطة لجميع الكثرات والإضافات، وأن ما أنزل الله على سبيل الوحي والإلهام من الكتب والصحف إنما هو لبيان الطرق الموصلة إليها، ولهذا نبه سبحانه حبيبه على طريق توحيده، بعدما خاطب بما خاطب متيمنًا باسمه العظيم: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي ظهر على ما ظهر وبطن بصرافة وحدته الذاتية المحيطة بالكل ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ على جميع الكائنات بإفاضة الوجود الذي هو منبع عموم الكمالات ﴿الرَّحِيمِ﴾ على خواصها وخلاصتها بالإيصال إلى منبع ماء الحياة الذي هو وحدة الذات المسقطة لمطلق الإضافات.

﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ۝٤ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ۝٦﴾ [الشورى: 1-6].

﴿حم * عسق﴾ [الشورى: 1-2] [1] يا حامل وحي الله، وماحي الوجود عن

(1) هذه الأحرف رمز الله مع حبيبه ﷺ، يخبره بهنّ ومن كان أهله من سرّ الذات والصفات والأفعال، الحاء رمز الحياة الأزلية، والميم رمز محبة القديم، والعين رمز عينية ذاته وعلمه القديم وعيانه لأهل العيان، والسين رمز سرّه وسرّ سرّه وغيبه وغيب غيبه وسنا سبحات وجهه وكشفه لأهل

غيره يا عالم سرائر قدرة الله، وعارف سريان سر وحدته الذاتية على قلوب خُلَّص عباده من الأنبياء والأولياء.

﴿كَذَلِكَ﴾ أي: مثل ما ذكر في هذه السورة من سرائر التوحيد والأخلاق المرضية الإلهية ﴿يُوحِي إِلَيْكَ﴾ يا أكمل الرسل في كتابك هذا ﴿وَإِلَى الَّذِينَ﴾ مضوا ﴿مِن قَبْلِكَ﴾ من الأنبياء والرسل في كتبهم وصحفهم ﴿اللهُ﴾ المتوحد بذاته المحيط بعموم مظاهره ومصنوعاته، المستقل بأمر الإرسال والإنزال والوحي والإلهام ﴿العَزِيزُ﴾ الغالب في أمره وشأنه ﴿الحَكِيمُ﴾ [الشورى: 3] المتقن في أفعاله وتدبيراته الجارية في ملكه وملكوته.

إذ ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ ملكًا وتصرفًا، إيجادًا وإعدامًا ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿هُوَ العَلِيُّ﴾ المستقل بالعلو في مطلق ملكه وملكوته ﴿العَظِيمُ﴾ [الشورى: 4] في شأنه وأمره، لا علو ولا عظمة إلا له، ولا حول ولا قوة إلا به، ولا حكم ولا حكمة إلا منه.

- الكشوف، والقاف عن قديمية وجوده، وقوله القديم الذي منه بدأ العالم، وآدم بالحاء الحياتي، أحيا قلوب العارفين حين تجلت منها حياته لها، وبالميم المحيي بملك الأرواح المحبين بحلاوة محبته، التي برقت سناها في عيونها، ثم بسرِّ الحرفين ورمز النعتين حمى أسرار الواصلين عن خطرات الريب، وكاشف لها أسرار الغيب، ومن العين عاين ذاته وصفاته للعالمين به وبأوصافه ونعوته، وبالسين سار سنا برق سبحاته في أسرار السابقين، وبالقاف ظهر قاف كبرياء قدم ذاته وقيوميته صفاته للقائمين به في قربه عند ظهور قيامه عليهم، وافهم أن الحروف على أوائل السور رموز الحق، أخفى أسرارها عن غير أهلها، ثم أخفى من تلك الخفيات هذه الأحرف على أوائل هذه السورة بأن رفع عن السين نقوش الشين، فأراد بالسين الشين وبيان ﴿حمٓ﴾ عشق أي: يحيى الأزلي، وجمال الأبدي عشق العاشقون، وأنا عشيقهم، وبرمز العشق أخاطبهم، حتى لا يطّلع على أحوالها أهل الرسوم فيهلكوا، لأن من بين العاشق والمعشوق ارتفع حشمة الربوبية وكلفة العبودية في مقام المشاهدة، ثم أقسم الحق بهذه النعوت أي: بحياتي يا حبيبي ومجدي وجمالي وملكي ومحبتي لك والأولياء أمتك يا محب يا محمد، وبعلو شأني وعلمي المحيط وعزي وعياني، وخلقي يا عارف يا عالم يا عالي الهمة يا عزيز، وبسنائي وقدسي وسرمديتي، وسبق وجودي على كل شيء، يا صاحب سري، ويا سبّاق كل سابق بالشرف والفضل والتقدم، ويا سبّاح بحر قدسي وأنسى ومقدمي وقيوميتي وقيامي على كل شيء، وبقولي الحق، وبقدرتي القديمة، وبقضائي وقدري، وبعشقي يا عاشقي، وبصدقي يا صادق، إن هذه الإشارة قد أشرتها إليك، كذلك أشرتها إلى أنبيائي قبلك وأوليائي وأهل خالصتي.

ومن كمال عزته وعظمته ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ﴾ السبع ﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾ بالياء والتاء، أو بالياء والنون معناه على كلتا القراءتين: يتشققن ﴿مِن فَوْقِهِنَّ﴾ أي: من فوق السماوات أو من فوق الأرضين السبع من كمال خشية الله ورهبته، خوفًا من تجليه عليهن باسمه القهار المفني للأغيار مطلقًا ﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ أيضًا من خشيتهم من كمال غضبه وقهره سبحانه ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ تعديدًا لنعمه إياهم بإفاضة الشعور والإدراك على حقوق ربوبيته ومقتضيات ألوهيته، والتمكن والاقتدار على مواظبة عبوديته ومشاهدة آثار سلطنته وعظمته ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ﴾ أيضًا بإذنه وبمقتضى أمره ﴿لِمَن فِي الْأَرْضِ﴾ من خُلّص عباده الموحدين المجبولين على صورته، المجعولين لخلافته ونيابته ﴿أَلَا﴾ أي: تنبهوا أيها الأظلال المنهمكون في بحر الحيرة والضلال ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ الذي أظهركم من كتم العدم، ورباكم بأنواع اللطف والكرم ﴿هُوَ الْغَفُورُ﴾ الستار لذنوب أناناياتكم، المحّاء لآثام هوياتكم إن تبتم وأخلصتم فيها ﴿الرَّحِيمُ﴾ [الشورى: 5] لكم يقبل توبتكم ويغفر زلتكم، ويوصلكم إلى ما جبلتم لأجله.

ثم قال سبحانه تهديدًا على المشركين المتخذين لله المتوحد في ذاته، المستقل في وجوده أندادًا ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ﴾ سبحانه ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ يوالونهم كولايته سبحانه، ويتوجهون نحوهم مثل توجهه، ولا تلتفت يا أكمل الرسل إليهم، ولا تبالِ بشأنهم؛ إذ ﴿اللَّهُ﴾ المحيط بذواتهم وأفعالهم وصفاتهم ﴿حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ عليم بأعمالهم ونياتهم فيها، ويحاسبهم عليها ويجازيهم بمقتضاها ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ [الشورى: 6] كفيل يخلصهم عن مفاسد أعمالهم ومقابح أفعالهم، بل ما أنت إلا مبلغ ونذير.

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ ﴾ [الشورى: 7-10].

وبعدما بلغت وأنذرت لم يبقَ من أمرك شيء ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا﴾ أي: ومثل ما

أوحينا إلى من قبلك من الأنبياء كتبًا، وأوحينا ﴿إِلَيْكَ﴾ يا أكمل الرسل أيضًا ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ نظمًا وأسلوبًا ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ﴾ يعني: أهل مكة ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ من أقطار الأرض وأنحائها، كما أنذر الأنبياء أقوامهم فيما مضى من مطلق الأمور المنافية لسلوك طريق التوحيد وسبيل الهداية والرشاد ﴿وَتُنذِرَ﴾ خاصة ﴿يَوْمَ الْجَمْعِ﴾ أي: الخذلان والحرمان الحاصل لهم يوم الحشر والاجتماع على المحشر، والوقوف بين يدي الله، الذي ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: في إتيانه ووقوعه، وبعدما اجتمعوا فيه حيارى سكارى هائمين، يساقون بعدما يحاسبون منهم ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ﴾ مسروررون مقبولون ﴿وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: 7] محزونون مطرودون.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ الهادي لعباده وأراد هدايتهم جميعًا ﴿لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ مقتصدة معتدلة على مقتضى صرافة الوحدة الذاتية واعتدالها، ﴿وَلَٰكِن﴾ راعى سبحانه مقتضيات أوصافه وأسمائه المتقابلة، وشئونه المتخالفة لذلك ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ ويوصله إلى فضاء وحدته بمقتضى جوده وحكمته عناية منه وفضلاً، وولاية لهم ونصرًا ﴿وَالظَّالِمُونَ﴾ الخارجون عن مقتضى عناية الله، وولايته بمقتضى قهره وانتقامه إياهم إظهارًا لكمال قدرته ﴿مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ﴾ يواليهم، ويشفع لهم عنده سبحانه ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ [الشورى: 8] ينقذهم من عذابه، فظهر ألا ولاية ولا نصرة إلا لله، ولا غالب إلا هو، وإن زعموا آلهة سواه.

﴿أَمِ اتَّخَذُوا﴾ أي: بل أثبتوا ﴿مِن دُونِهِ﴾ سبحانه ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ واعتقدوهم شركاء له سبحانه أو شفعاء لهم عندهم، لا تنفعهم موالاتهم واتخاذهم بل تضرهم وتغويهم ﴿فَاللَّهُ﴾ المستقل بالألوهية والربوبية ﴿هُوَ الْوَلِيُّ﴾ المقصور على الولاية، لا ولي في الوجود سواه ﴿وَهُوَ﴾ بكمال قدرته ﴿يُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ ويميت الأحياء بالإرادة والاختيار، لا فاعل في الوجود إلا هو ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿هُوَ﴾ باستقلاله واختياره ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من مقدوراته ومراداته ﴿قَدِيرٌ﴾ [الشورى: 9] بلا فتور وقصور.

﴿وَ﴾ بعدما ثبت أن الولاية والقدرة منحصرة لله، لا فاعل في الوجود سواه، فاعلموا أيها المكلفون بسلوك طريق الحق وتوحيده أن ﴿مَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ﴾ أي: من شعائر الدين ومعالم التوحيد واليقين واختلافكم فيه؛ إذ هل هو مفيد لكم في سلوككم، أم مفسد له ﴿فَحُكْمُهُ﴾ مفوض ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ وأمره موكول إلى كتبه ورسله، فعليكم التعبد والامتثال بما أمرتم به ونهيتهم عنه على ألسنة الرسل والكتب؛ إذ لا

مدبر لأموركم سواه، ولا متصرف في الوجود إلا هو.

﴿ذَٰلِكُمُ﴾ الذي سمعتم وصفه واستقلاله في ملكه وملكوته ﴿اللَّهُ رَبِّي﴾ وربكم، فاعبدوه حق عبادته، وفوضوا أموركم كلها إليه، وإن خوفتموني بغيره مع أنه لا غير في الوجود معه، فأنا ﴿عَلَيْهِ﴾ لا على غيره من الوسائل والأسباب العادية ﴿تَوَكَّلْتُ﴾ واتخذته وكيلاً، يدفع عني مؤنة جميع من عاداني ﴿وَإِلَيْهِ﴾ لا إلى الوسائط ﴿أُنِيبُ﴾ [الشورى: 10] وأرجع في مطلق الملمات والخطوب.

﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ۖ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ [الشورى: 11-13].

وكيف لا أتوكل عليه ولا أنيب؛ إذ هو بذاته حسب شئونه وتطوراته ﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ومظهرها من كتم العدم، ومدبر ما يتكون بينهما من الطبائع والهيولي وصور المواليد، ومن جملة تدبيراته سبحانه: إنه ﴿جَعَلَ﴾ وخلق ﴿لَكُم﴾ أيها المجبولون على فطرة التوحيد إبقاء لتناسلكم وتوالدكم ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ ومن بني نوعكم ﴿أَزْوَاجًا﴾ أيضًا من جنسكم وصنفكم إبقاء لكم وإدامة لبقائكم ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ﴾ أيضًا ﴿أَزْوَاجًا﴾ تربية لكم وتتميمًا لمعاشكم.

وبالجملة: ﴿يَذْرَؤُكُمْ﴾ يبثكم ويكثركم ﴿فِيهِ﴾ أي: في عالم الظهور ونشأة الشهادة بهذا التدبير البديع، لتعلموا أو تعرفوا أنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ﴾ أي: ليس مثله سبحانه ﴿شَيْءٌ﴾ يناسبه في الوجود ويماثله في التحقق والثبوت، والمراد يقينًا بالمثل المنفي هو ذاته؛ أي: لا يماثله ذاته، فكيف غيره من قولهم: مثلك لا يبخل؛ بمعنى: أنت لا تبخل، والمراد: نفي التعدد عنه سبحانه مطلقًا على سبيل المبالغة والتأكيد، فثبت حينئذ ألا موجود سواه، ولا تحقق لغيره ﴿وَ﴾ متى ثبت هذا ظهر أنه ﴿هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾

[الشورى: 11] [1] أي: هو بذاته المنحصر على صفة السمع والبصر، وجميع الأوصاف

(1) أفاد الشيخ البيطار في تأويل هذه الآية المباركة من فوائد معارف الحقيقة المحمدية بقوله: اعلم - رحمك الله تعالى وفتح فهمك للمعاني الإلهية - أن الكاف في قوله: ﴿ كَمِثْلِهِۦ﴾ ، أصلية لا زائدة كما يفهمه العتموم، فإنا إذا جعلناها زائدة يكون المعنى ليس مثل الله شيء؛ لأن الحوادث لا تشبهه، وكل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك، وهذه عقيدة من يعرف الله بفكره لا بإيمانه، ومثل هذا ينزل جميع ما ورد في الكتاب والسنة من العلم بالله على حسب ما يأوله بفكره، وهو الذي في قلبه زيغ عمّا أبانه الله ونطق به رسوله ﷺ، فيصف الله بتنزيه لم يصف به نفسه، ويفضل في حق الله ألفاظه على ألفاظ الله ورسوله؛ فيقول مثلاً: حاشا ربنا من النزول والاستواء والضحك والبدء والقدم وأمثال ذلك، فالذي أثبته الله لنفسه ينفيه عنه، فما أقبح هذه المعرفة! وما أشنع هذا التنزيه! وهذا هو الجهل المركب فهو كما قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف:14] وأما المحققون من أهل الله فلا زائد عندهم في القرآن العظيم، بل كل شيء له معنى ولا عبث في القرآن ألبتة، فالكاف عند المحققين بمعنى المثل، فيكون المعنى: ليس مثل مثله شيء، فالمثل الأول هو آدم ﷺ، ومثل هذا المثل هو محمد ﷺ فكون المثل آدم لقوله ﷺ: «إن الله خلق آدم على صورته» فهو المثل، وليس المراد أنه ثاني؛ لأن واحدية الله لا تقبل الثاني كواحدية العدد، بل واحدية الله وجوده الذي لا يقبل الغير كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد:3]. وقد اجتمعت هذه الأربعة في آدم ﷺ فهو أول من جهة روح الله المنفوخ فيه، وآخر باعتبار أنه غاية تنزلات الحقائق، فهو الإنسان الذي هو أحسن تقويم وأسفل سافلين، فلا أعلا منه ولا أسفل منه، وهو صورة والباطن روحًا؛ فلهذا المعنى هو المراد بأنه مثل الله، أي: صورة الله الكاملة، ومجلى ذاته، ومحل ظهور أسمائه وصفاته، ولهذا على ملائكة الله حتى سجدوا له، فافهم. وأما كون محمد ﷺ مثل هذا المثل؛ لأنه في الصورة إنسان مثل آدم فما هو من حقيقة غير آدم لحقيقة الملائكة مثلًا إلا باعتبار أحدية الوجود المطلق فليس المنفي عنه الشيئية في كلام الله تعالى المثل، بل المنفي عنه الشيئية هو مثل المثل وهو محمد ﷺ كما يفيده قول الله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [الأحزاب:40]، أي: منتهى دائرة الكل أجمعين، والمنتهى عين المبدأ؛ فهو مطلق عن الشيئية والوجود المحض الذي هو نور السماوات والأرض، فهو ليس شيئًا من الأشياء المقيدة؛ لأن الشيء المقيّد كالجزء من الأجزاء، فنفى الله عن مثل المثل وهو محمد ﷺ الشيئية التي تطلق على كائن في الوجود من المظاهر المقيّدة، وقد أشار ﷺ إلى شأنه الأحدي بقوله:«كان الله ولم يكن شيء غيره» فلا شيء في حضرة الإطلاق المشار إليها«كنت نبيا وآدم بين الماء والطين» وقد بيّن الله معنى هذه النبوة بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:11] والجملة المعرفة الطرفين تفيد الحصر، أي: لا سميع إلا هو، ولا بصير إلا هو، فهو السميع لنفسه أزلًا والبصير كذلك، يعني أنه الحقيقة الجامعة لكل شيء سميع ومسموع ولكل بصير ومبصر، وحيث كان كذلك فليس شيئًا كما تعهدون بل كما أخبر الله عنه -

بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح:10]، فهذا بيان الله وأصرح من بيان الله لا يكون ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء:87] ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء:122]. فنبوته وآدم بين الماء والطين كونه روح آدم وحقيقة القائل: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [الحجر:29]، فما سجد الملائكة إلا لتلك الروح المنفوخة في صورة آدم، فآدم قبلة وكعبة الملائكة كما أن الكعبة المشرفة قبلتنا، والسجود له هو المعنى الظاهر في صورة آدم، وهذا المعنى عين نبوته الباطنة ﷺ فبين الله ذلك بأن محمدًا ﷺ عين الوجود المطلق الذي يندرج فيه كل ما يسمى شيئا فكيف يكون شيئًا وهو حقيقة كل شيء ؟! فلتفهم قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:11]، فالسجود الملكي لمحمد باطنًا وهو في الظاهر لآدم . واعلم - سقاك الله شراب محمد الطهور وألبسك من ملابس ظهوراته نور على نور - أنه فتح عليّ في الكلام على هذا الوارد الجامع للمعرفة الإلهية المحمدية، وأنا أطالع الفص النوحي من كتاب: «فصوص الحكم» لسلطان العارفين وأستاذهم الشيخ الأكبر، وقد تكلم على هذه الآية، ولكن لا بالمعنى الذي تكلمنا به، ولا أشك أنه من باطنه ، فإنه مظهر كمالات محمد ﷺ التي انطوى عليه باطنه ﷺ، وذلك لأني طلبت منه في مقامه عند ضريحه الشريف أن يفيض على معاني كتابه «الفصوص» حسب ما يفهمها هو من نفسه، فأخذ الشرح منه ، ولاشك أن أجاب، وكيف لا وجدّه حاتم طي ما بدا منه الجود العظيم إلا من كون هذا المظهر المحمدي الكامل في ظهره، ومن جوده أنه أهدى لنا أذواقه وعلومه في كتبه لنحصل على ما حصل عليه؛ إذ المؤمن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، والله هو المؤمن في الحقيقة، فافهم ما أشرنا إليه، وعلى الله قصد السبيل، فهو القاصد بنا وهو عين السبيل وعين ما يقصد، فالكل منه وإليه، فهو المؤمن المحب والمؤمن المسمى بالأخ والنفس هي نفسه والحقيقة حقيقته والمظاهر مظاهره ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:115]، ؛ فكل وجه في الوجود وجهه، فما طلب طالب إلا منه، ولا أعطى إلا إليه، فمن قال: يا رسول المدد، أو يا محيي الدين، أو يا عبد القادر، أو يا رفاعي لا يجيبه إلا الله؛ لأن الله قال: ﴿ٱلنَّاسُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْفُقَرَآءُ أَنتُمُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر:15]. فمن زعم أن الذي ينادي الأولياء مشرك فهو المشرك؛ لأننا لا نثبت غير الله، والوهابي يثبت غير الله، فهو المشرك ونحن الموحدون بفضل الله ورحمته؛ لأننا نراه في كل شيء، ونشاهده في كل شيء، فحينئذ لا يغيب عنّا: لأن الأشياء لا تغيب عنّا، وكيف يغيب عنا ونحن المؤمنون بأنه هو الظاهر ؟!. وأما أهل غير الحقيقة لا يصدقونه في أنه هو الظاهر، ولا يسلمون له كلامه فيعبدون ربهم بالتخيل فيطلبونه ولا يجدونه؛ لأنهم على قاعدة: كل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك، فكذبوا الله في قوله: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد:3]، فمتى يجدونه وقد أعدموه؟! ولهذا أضل الله أعمالهم كما ضلوا فلا يجدون ربهم ولا يجدون أعمالهم إلا في العدم كما قال: ﴿كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ﴾ [النور:39]، وأما نحن فوجدنا عين الشراب لا عند السراب، فما ظمأنا ولكن شربنا

الذاتية الكاملة الشاملة آثارها عالمي الغيب والشهادة.

إذ ﴿لَهُ﴾ لا لغيره من الوسائل والأسباب العادية الظاهرة في أظلال المظاهر والمجالي ﴿مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي: مفاتيح خزائن العلويات من الأسماء والصفات، والسفليات من مظاهر الطبائع، والمرايا العدمية القابلة لانعكاس شمس الذات من مشكاة الأسماء والصفات، هو بذاته ﴿يَبْسُطُ﴾ ويقبض ﴿الرِّزْقَ﴾ الصوري والمعنوي ﴿لِمَن يَشَاءُ﴾ من أظلاله وعكوسه ﴿وَيَقْدِرُ﴾ ويقبض عمن يشاء منهم، وبالجملة: ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه بذاته حسب أسمائه وصفاته ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ دخل تحت ظل وجوده بمقتضى فضله وجوده ﴿عَلِيمٌ﴾ [الشورى: 12] بعلمه الحضوري، لا يعزب عن حضوره شيء مما ظهر وبطن، وغاب وشهد.

ومن كمال استقلاله في تدابير ملكه وملكوته وحيطة علمه وشمول قدرته: ﴿شَرَعَ﴾ أي: قضى ووضع ﴿لَكُم﴾ أيها الأظلال المنهمكون في بحر الحيرة والضلال ﴿مِّنَ الدِّينِ﴾ القويم والطريق المستقيم الموصل إلى توحيده ﴿مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا﴾ أي: دينًا شرعه سبحانه ووضعه على نوح؛ إذ هو أول من ظهر على نشأة التدين والتشريع في طريق التوحيد، وهو الدين الموصل إلى توحيد الأفعال ﴿وَ﴾ الدين ﴿الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ يا أكمل الرسل من كمال جودنا هو الدين الموصل إلى توحيد الذات، لذلك ختم ببعثتك أمر الرسالة والتشريع، وبعدما عين سبحانه مبدأ التوحيد ومنتهاه، أشار إلى ما بينهما من المراتب، فقال: ﴿وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى﴾ أي: والأديان التي وضعناها على هؤلاء المشاهير، وغيرهم من جماهير الأنبياء والرسل المتشرعة وغير المتشرعة هو الموصل إلى توحيد الصفات.

وبالجملة: وصينا لعموم ذوي الأديان ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ﴾ المنزل إليهم،

وطريننا وساقينا، هو ساقي القوم، فهو أولنا شربًا وآخرنا شربًا، فلا يدخل الجنة حتى ندخلها جميعا مع أنه أول من يقرع بابها، ويدخلها بصورته الخاصة، ومن جهه حقيقته هو الآخر، فالأول هو والآخر هو، فلا يصدق من وصفه بدخول الجنة إلا بدخول مظاهر حقيقته، وهذا معنى قول الله تعالى: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [الأعراف:40] أي: حتى يكشف لهم أن الحقيقة المحمدية عين المظاهر الصورية ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [إبراهيم:20]، لأنه القائل: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه:5]، والمعنى استيلاء الحقيقة واندراج صور الوجود في حقيقة الرحمن فتلك الحقيقة موطن الصور والله الموفق.

واستقيموا في الإطاعة والامتثال به ﴿وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ أي: لا تختلفوا في أصل الدين الذي هو التوحيد الإلهي، وإن كانت الطرق والأديان والمناهج نحوه مختلفة باختلاف ذوي المراتب المترتبة اختلافاتهم إلى شئون الحق وتجلياته، فلك يا أكمل الرسل أن تدعو الناس إلى توحيد الحق، وإن كان ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ﴾ أي: شقَّ وعظم عليهم ﴿مَا تَدْعُوهُمْ﴾ أي: دعوتك إياهم ﴿إِلَيْهِ﴾ أي: إلى التوحيد الذاتي؛ إذ لم يعهد هذا من غيرك من الأنبياء والرسل الماضين، لذلك شق عليهم حسدًا وغيظًا، فكيف يحسدون ويغيظون لك ولشأنك؛ إذ ﴿اللهُ﴾ العليم الحكيم المطلع على استعدادات العباد وقابلياتهم ﴿يَجْتَبِي﴾ أي: يختار ويجذب ﴿إِلَيْهِ﴾ أي: إلى توحيده الذاتي ﴿مَن يَشَاءُ﴾ من المجبولين على فطرة التوحيد، ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ﴾ ويوفق عليه ويرشد نحوه ﴿مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: 13] إليه سبحانه إنابة صادرة عن محض الإخلاص والتبتل والتفويض والتوكل.

﴿ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ (١٤) فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (١٥) ﴾ [الشورى: 14-15].

﴿وَ﴾ بعدما ثبت أن أصل الأديان كلها هو التوحيد، وأن الأنبياء والرسل إنما جاءوا لإظهاره وتبيينه، ظهر أن الأمم الهالكة ﴿مَا تَفَرَّقُوا﴾ واختلفوا من مذاهبهم ومشاربهم ﴿إِلَّا مِن﴾ بعدما ﴿جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ أي: الوحي المشتمل على بيان التوحيد من قبل الحق على ألسنة الكتب والرسل، فتركوا مقتضى الوحي، وأنكروا عليه فاختلفوا ﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ أي: عدوانًا وظلمًا وإعراضًا عن الحق وأهله، وما ظهر بينهم هذا إلا مراء وافتراء.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿لَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ يا أكمل الرسل، وهي إمهال انتقامهم وتأخيره ﴿إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هو يوم القيامة ﴿لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ وحكم عليهم حين اختلافهم وتفرقهم إليه، فاستؤصلوا فيه بالمرة ﴿وَإِنَّ﴾ المختلفين المتفرقين ﴿الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ﴾ المنزل على أسلافهم ﴿مِن بَعْدِهِمْ﴾ أي: بعد انقراض أسلافهم

﴿لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ﴾ أي: من الكتاب أمثال أولئك الأسلاف الضلال ﴿مُرِيبٍ﴾ [الشورى: 14] موقع لهم في الريب والضلال، لذلك اختلفوا معك يا أكمل الرسل وأنكروا على كتابك ودينك.

ولو كان لهم علم بكتابهم ما ظهروا عليك، وما طعنوا في دينك وكتابك؛ إذ الإيمان بكتاب من كتب الله، ودين من أديانه، ورسول من رسله يوجب الإيمان بجميع الكتب والرسل بناء على الأصل الذي سمعت من التوحيد ﴿فَلِذَٰلِكَ﴾ الأصل الذي هو التوحيد الذاتي المسقط لعموم الإضافات والاختلافات ﴿فَادْعُ﴾ يا أكمل الرسل كل من تدعوه من المجبولين على فطرة التوحيد والإسلام ﴿وَاسْتَقِمْ﴾ أنت في نفسك على جادة التوحيد ﴿كَمَا أُمِرْتَ﴾ من قِبل ربك، ومكن إقدام عزمك عليها معتدلاً حنيفًا مائلاً عن كلا طرفي الإفراط والتفريط ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي: أهوية أصحاب الخلاف والاختلاف، الضالين المترددين في أودية الجهالات وأغوار الخيلات المنافية لصفاء مشرب التوحيد.

﴿وَقُلْ﴾ يا أكمل الرسل بعد صفاء سرك وخلاء خلدك عن الأكدار الموجبة للاختلاف: ﴿آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ أي: بجميع ما أنزل الله ﴿مِن كِتَابٍ﴾ مبين موضح لطريق الحق وتوحيده ﴿وَ﴾ قل بعد ذلك أيضًا إظهارًا لدعوتك إياهم: ﴿أُمِرْتُ﴾ من قِبل ربي ﴿لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ وأبين لكم طريق العدالة الإلهية بمقتضى وحي الله وإلهامه إياي، فأنا مأمور بتبليغه وتبيينه إياكم وتربيتكم وتكميلكم؛ إذ ﴿اللَّهُ﴾ المدبر لأمور عموم عباده ﴿رَبُّنَا﴾ الذي ربانا للإرشاد والتكميل ﴿وَرَبُّكُمْ﴾ أراد أن يربيكم بالهداية والرشاد، وإن لم نكن مأمورين من عنده سبحانه لإهدائكم وإرشادكم ما لنا معكم.

إذ ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا﴾ أي: جزاء صالحها وفاسدها ﴿وَلَكُمْ﴾ أيضًا ﴿أَعْمَالُكُمْ﴾ كذلك؛ إذ كل منَّا ومنكم مجزي بما عمل ﴿لَا حُجَّةَ﴾ أي: نزاع ولا خصومة ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ بعدما بلغناكم ما أمرنا بتبليغه، وأوضحنا لكم طريق الحق، وبالجملة: ﴿اللَّهُ﴾ أي: الذات المستجمع لجميع الأسماء والصفات ﴿يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾ وبينكم، إن تعلق مشيئته بجمعنا ﴿وَ﴾ كيف لا يجمع بيننا سبحانه ﴿إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [الشورى: 15] أي: رجوع الكل إليه كما هو صدوره منه.

﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا

يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾﴾ [الشورى: 16-19].

﴿وَ﴾ بعد وضوح محجة الحق ومنهج اليقين ﴿الَّذِينَ يُحَاجُّونَ﴾ يجادلون ويخاصمون، متشبثين بأذيال الجدل والمغالطات الواهية الزائفة ﴿فِي﴾ توحيد ﴿اللهِ﴾ سيما ﴿مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ﴾ أي: قَبِله العقل والنقل والكشف الصريح والذوق الصحيح ﴿حُجَّتُهُمْ﴾ التي تمسكوا بها ﴿دَاحِضَةٌ﴾ زائلة باطلة ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ الذي رباهم لمصلحة المعرفة والتوحيد ﴿وَعَلَيْهِمْ﴾ بسبب عنادهم وجدالهم بالحق الصريح ﴿غَضَبٌ﴾ نازل من الله ﴿وَلَهُمْ﴾ في النشأة الأخرى ﴿عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [الشورى: 16] لا عذاب أشد منه وأفزع.

فكيف يحاجون أولئك المعاندون في توحيده سبحانه مع أنه هو ﴿اللهُ﴾ المدبر المصلح لأمور عباده ﴿الَّذِي أَنزَلَ﴾ لإصلاحهم ﴿الْكِتَابَ﴾ أي: جنس الكتب النازلة من عنده لتبيين مناهج توحيده ملتبسًا ﴿بِالْحَقِّ﴾ الصريح المعرى عن الباطل الزاهق الزائل مطلقًا ﴿وَ﴾ أنزل على طبق الكتاب ﴿الْمِيزَانَ﴾ أي: جنس الشرائع والأديان التي توزن بها أعمال الأنام وإخلاصهم فيها، وثباتهم على جادة التوحيد والإسلام، فعليك يا أكمل الرسل وعلى من تبعك امتثال عموم ما أمر ونهى من أحكام كتابك، وأن تزن أنت ومن معك أعمالكم وأخلاقكم وأحوالكم بميزان الشرع القديم والدين المستقيم ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَا يُدْرِيكَ﴾ أيها المجبول على الدراية والشعور ﴿لَعَلَّ السَّاعَةَ﴾ الموعودة التي تعذرت دونها التدارك والتلافي ﴿قَرِيبٌ﴾ [الشورى: 17][1] إتيانها

---

(1) ﴿أنزل الكتاب﴾ أي جنس الكتاب ﴿والميزان﴾ والعدل والتسوية . ومعنى إنزال العدل: أنه أنزله في كتبه المنزلة، وقيل: الذي يوزن به ﴿بالحق﴾: ملتبسا بالحق مقترنا بعيدا من الباطل أو بالغرضالصحيح كما اقتضته الحكمة . أو بالواجب من التحليل والتحريم وغير ذلك ﴿الساعة﴾ في تأويل البعث فلذلك قيل: ﴿قريب﴾ أو لعل مجيء الساعة قريب، فإن قلت: كيف يوفق ذكر اقتراب الساعة مع إنزال الكتاب والميزان؟ قلت: لأن الساعة يوم الحساب ووضع الموازين للقسط فكأنه قيل: أمركم الله بالعدل والتسوية والعمل بالشرائع قبل أن يفاجئكم اليوم الذي يحاسبكم فيه ويزن أعمالكم ويوفي لمن أوفى ويطفف لمن طفف، المماراة: الملاجة؛ لأن كل واحد منهما يمرى عند صاحبه ﴿لفي ضلال بعيد﴾ من الحق: لأن قيام الساعة غير مستبعد من

وقيامها، وعند قيامها تتندمون وما ينفعكم الندم.

﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا﴾ وبقيامها استهزاءً وتهكمًا ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ولا يصدقون ﴿بِهَا﴾ عنادًا ومكابرة، ويزعمون ألَّا يلحقهم ما يوعدون فيها من العذاب الروحاني والجسماني ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ بها وبما فيها من المواعيد والوعيدات الهائلة، هم ﴿مُشْفِقُونَ﴾ خائفون ﴿مِنْهَا﴾ ومن إلمامها بغتة قبل تهيئة الإعداد والزاد ﴿وَ﴾ ذلك؛ لأنهم ﴿يَعْلَمُونَ﴾ يقينًا ﴿أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ المحقق إتيانه وقيامها بلا ريب ومرية ﴿أَلَا﴾ أي: تنبهوا أيها المؤمنون بكمال قدرة الله ووفور حكمته ﴿إِنَّ﴾ المسرفين المكابرين ﴿الَّذِينَ يُمَارُونَ﴾ ويشكون ﴿فِي﴾ قيام ﴿السَّاعَةِ﴾ الموعود قيامها من قبل الحق مراء ومجادلة ﴿لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ [الشورى: 18] بمراحل عن الهداية الموصلة إلى مقر التوحيد.

إذ هم محجوبون بالأغشية الكثيفة الإمكانية، والأغطية الغليظة الهيولانية، مع أنه ﴿اللَّهُ﴾ المنزه ذاته عن سمة الحدوث والإمكان، المقدس أسماؤه وصفاته عن وصمة العيب والنقصان ﴿لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾ الخُلَّص ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ﴾ منهم بالرزق المعنوي، الموصل إلى مبدئهم ومعادهم ترحمًا وتلطفًا معهم ﴿وَ﴾ كيف لا ﴿هُوَ الْقَوِيُّ﴾ القادر المقتدر على عموم مقدوراته الصادرة منه بمقتضى حكمته ﴿الْعَزِيزُ﴾ [الشورى: 19] الغالب على مطلق مراداته الجارية منه حسب اختياره.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ ۗ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾﴾ [الشورى: 20-22].

قدرة الله ولدلالة الكتاب المعجز على أنها آتية لا ريب فيها ولشهادة العقول على أنه لا بد من دار الجزاء. «الكشاف» (1155/1).

ثم لما أشار سبحانه إلى كمال تنزهه وتقدس ذاته عن وصمة النقصان مطلقًا، وإلى كمال ترحمه وتلطفه مع خُلّص عباده، قال: ﴿مَن كَانَ﴾ منهم ﴿يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ﴾ أي: يزرع في النشأة الأولى بذور الأعمال الصالحة والأخلاق الحميدة؛ ليحصد ما يترتب عليها من المثوبات والكرامات في النشأة الأخرى ﴿نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾ ونضاعف ثوابها لأجله، ونعطه من اللذات الروحانية ما لا مزيد عليه تفضلاً منّا وتكريمًا ﴿وَمَن كَانَ﴾ منهم ﴿يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا﴾ ونوى نماء بذوره فيها ﴿نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ﴾ ولذاتها الباقية ﴿مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: 20] لاختياره لذات الدنيا وشهواتها الفانية على ما في الآخرة من اللذات الروحانية؛ لذلك ما له حظ في الآخرة ونصيب من لذاتها.

أهم بأنفسهم يحرمون نفوسهم من اللذات الأخروية والفتوحات الروحانية ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ﴾ من شياطين الجن والإنس ظاهروهم عليه؛ حيث ﴿شَرَعُوا﴾ وزينوا ﴿لَهُم مِّنَ الدِّينِ﴾ الباطل والديدنة الزائغة ﴿مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ﴾ الحكيم المتقن في أفعاله المدبر لعموم مصالح عباده على مقتضى حكمته، ولم يأمر بوضعه واتخاذه لا بالوحي ولا بطريق الإلهام، بل إنما أخذوا ما أخذوا من تلقاء أنفسهم، وعلى مقتضى أهويتهم الباطلة؛ لذلك لم يتم لهم إلا الخيبة والخذلان والحسرة والحرمان.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿لَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ﴾ والقضاء صادرة من الله بتأخير أخذهم لظلمهم وإمهال انتقامهم إلى يوم الجزاء ﴿لَقُضِيَ﴾ وحكم اليوم ﴿بَيْنَهُمْ﴾ أي: بين أهل الهداية والضلال، فيلحق لكل منهم جزاء ما اقترفوا من الحسنات والسيئات ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ الخارجين عن مقتضى الحدود الإلهية، ومتابعة آرائهم وإخوانهم من الشياطين ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورى: 21] في النشأة الأخرى، وهو حرمانهم عما أعد لنوع الإنسان المصور على صورة الرحمن من الكرامات السنية والمقامات العلية، لا عذاب أشد منه وأفزع.

ومن كمال حرمانهم وخسرانهم: إنهم حينئذ ﴿تَرَى﴾ أيها الرائي ﴿الظَّالِمِينَ﴾ الخارجين عن مقتضى الحدود عدوانًا وظلمًا ﴿مُشْفِقِينَ﴾ خائفين مرعوبين ﴿مِمَّا كَسَبُوا﴾ أي: من لحوق وبال ما اكتسبوا من الآثام والمعاصي ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿هُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ لاحق لهم، وما ينفعهم الإشفاق وعدمه؛ لانقضاء نشأة التدارك والتلافي.

ثم قال سبحانه على مقتضى سنته السنية المستمرة: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: وترى

أيضًا أيها الرائي المؤمنين الذين آمنوا بوحدة الحق حين أخبرهم الرسل ودعاهم إليه حسب استعداداتهم الفطرية وقابليتهم الجبلية ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: وأكدوا إيمانهم وتوحيدهم بصالحات أعمالهم وأخلاقهم؛ ليدل على توحيد الأفعال والصفات أيضًا، هم في النشأة الأخرى لكمال إطاعتهم وانقيادهم متنعمون ﴿فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ﴾ أي: منتزهات اليقين العلمي والحقي والعيني، ومع ذلك حاصل حاضر ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ﴾ من اللذات المتجددة والفيوضات المترادفة من الفتوحات وأنواع الكرامات ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ الذي أوصلهم إلى كنف قربه وجواره ﴿ذَلِكَ﴾ الذي أعد لأرباب العناية والتوحيد ﴿هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [الشورى: 22] والفوز العظيم الذي يستحقر دونه عموم اللذات والكرامات.

﴿ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الشورى: 23-26].

﴿ذَلِكَ﴾ المذكور من الفضل والفوز هو ﴿الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ﴾ المنعم المفضل به ﴿عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بوحدة ذاته ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ المفضية الموصلة لهم إلى توحيد أفعاله وصفاته ﴿قُل﴾ يا أكمل الرسل بعدما بينت لهم طريقي الهداية والضلال، وبلغت ما يوصل بوحي إليك للإرشاد والتكميل إياهم: ﴿لَّا أَسْأَلُكُمْ﴾ أي: على تبليغي وتبشيري إياكم ﴿عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ جعلاً منكم ونفعًا دنيويًا ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ أي: ما أطلب منكم نفعًا دنيويًا بل أطلب منكم محبة أهل بيتي ومودتهم؛ ليدوم لكم طريق الاستفادة والاسترشاد منهم؛ إذ هم مجبولون على فطرة التوحيد الذاتي مثلي.

روي أنها لما نزلت، قيل: يا رسول الله ﷺ: من قرابتك؟ قال: «علي وفاطمة

وأبنائهما»[1].

وكفاك شاهدًا على ذلك ظهور الأئمة الذين هم أكابر أولي العزائم في طريق الحق وتوحيده، صلوات الله على أسلافهم وسلامه عليهم وعلى أخلافهم، ما تناسلوا بطنًا بعد بطن.

﴿وَمَن يَقْتَرِفْ﴾ ويكتسب متابعة الرسول وأهل بيته ﴿حَسَنَةً﴾ دينية حقيقة ﴿نَّزِدْ لَهُ فِيهَا﴾ أي: فيما يترتب عليها من الكرامات الأخروية ﴿حُسْنًا﴾ أي: زيادة حسن تفضلاً منًا وإحسانًا ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المطلع لضمائرهم عباده ونياتهم ﴿غَفُورٌ﴾ لذنوب من أحب أهل بيت حبيبه لرضاه سبحانه ﴿شَكُورٌ﴾ [الشورى: 23] يوفي عليهم الثواب، ويوفر عليهم أنواع الكرامات.

أينكرون مطلق رتبة النبوة والرسالة؟! أولئك المنكرون المعاندون ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى﴾ محمد ﷺ ﴿عَلَى اللهِ كَذِبًا﴾ واختلق آيات مفتريات ترويجًا لمدعاه، وما قولهم هذا وزعمهم بك يا أكمل الرسل بأمثاله إلا قول باطل، وزعم زاهق زائغ ﴿فَإِن يَشَإِ اللهُ﴾ الغني بذاته عن عموم مظاهره ومصنوعاته ﴿يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ﴾ كما ختم على قلوبهم، ويضلك عن طريق توحيده مثل ما أضلهم ﴿وَ﴾ بعد ذلك ﴿يَمْحُ اللهُ الْبَاطِلَ﴾ لو تعلق مشيئته ﴿وَيُحِقُّ﴾ ويثبت ﴿الْحَقَّ﴾ الحقيق بالإطاعة والاتباع ﴿بِكَلِمَاتِهِ﴾ التي هي آيات القرآن بلا سفارتك ورسالتك، وبالجملة: ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه ﴿عَلِيمٌ﴾ يعلمه بعلمه الحضوري ﴿بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الشورى: 24] فيظهر عليهم ما هو مكنون في صدورهم وضمائرهم، ويجازيهم بمقتضاه.

﴿وَ﴾ كيف لا يعلم سبحانه بمكنونات صدورهم ﴿هُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ﴾ الصادرة عن محض الندم والإخلاص اللذين هما من أفعال القلوب ﴿عَنْ عِبَادِهِ﴾ المسترجعين نحوه بكمال الخشية والخضوع ﴿وَ﴾ بعد قبول التوبة عنهم ﴿يَعْفُو﴾ ويتجاوز ﴿عَنِ﴾ مطلق ﴿السَّيِّئَاتِ﴾ الصادرة عنهم على سبيل الغفلة ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿يَعْلَمُ﴾ منكم جميع ﴿مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الشورى: 25] بظواهركم وبواطنكم.

﴿وَيَسْتَجِيبُ﴾ أي: بحيث يقبل توبة ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ ترحمًا لهم وإشفاقًا، بعدما رجعوا نحوه تائبين نادمين عما فعلوا ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ بدل

(1) ذكره الرازي في تفسيره (432/13).

إخلاصهم واستحيائهم منه سبحانه من الكرامات ما لا يكتنه وصفه ﴿وَالْكَافِرُونَ﴾ الساترون بأباطيل هوياتهم، وما صدر منها من الجرائم والآثام شمس الحق الحقيق بالكشف والظهور ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [الشورى: 26] حين رجعوا إلى الله، وحشروا نحوه مهانين صاغرين.

﴿ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾ ﴾ [الشورى: 27-31].

وبالجملة: كفر عموم الكفرة واستكبارهم وضلالهم، إنما نشأ من كفرانهم بنعم الله وطغيانهم لأجلها على الله وعلى خُلَّص عباده، كما أشار إليه سبحانه بقوله: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ﴾ الصوري المستجلب المستتبع لأنواع العتو والاستكبار ﴿لِعِبَادِهِ﴾ المجبولين على الكفران والنسيان بمقتضى بشريتهم وبهيميتهم ﴿لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ﴾ بغيًا فاحشًا، واستكبروا على عباد الله، وظهروا على أوليائه، ومشوا على وجه الأرض خيلاء مفتخرين بمالهم من الجاه والثروة والرئاسة، فسرى بغيهم واستكبارهم على الله وعلى أنبيائه ورسله، فكفروا لذلك ظلمًا وعدوانًا ﴿وَلَكِن﴾ جرت سنته سبحانه، واقتضت حكمته على أنه ﴿يُنَزِّلُ﴾ ويفيض ﴿بِقَدَرٍ﴾ أي: مقدارًا وتقدير ﴿مَّا يَشَاءُ﴾ على من يشاء بمقتضى حكمته ومشيئته، وبالجملة: ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه ﴿بِعِبَادِهِ﴾ أي: باستعداداتهم وعموم أحوالهم ﴿خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ [الشورى: 27] يعلم منه ما خفي عليهم وما ظهر دونهم.

﴿وَ﴾ كيف لا يعلم سبحانه سرائر عباده وضمائرهم ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾ بمقتضى علمه وحكمته ﴿مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا﴾[1] وآيسوا من نزوله ﴿وَ﴾ بتنزيله وإمطاره

(1) أي: يئسوا منه وتقييد تنزيله بذلك مع تحققه بدونه أيضا لتذكير كمال النعمة، فإن حصول النعمة

﴿يَنشُرُ رَحْمَتَهُ﴾ الواسعة على جميع أقطار الأرض وأرجائها عناية منه سبحانه إلى سكانها من أجناس المواليد وأنواعها وأصنافها ﴿وَ﴾ كيف لا يرحم سبحانه على مظاهره؛ إذ ﴿هُوَ الْوَلِيُّ﴾ المولي لعموم أمورهم المنحصرة على ولايتهم؛ إذ لا ولاية إلا له ﴿الْحَمِيدُ﴾ [الشورى: 28] المستحق لجميع المحامد بذاته؛ إذ عموم المظاهر وذرائر الأكوان حامدة له سبحانه طوعًا ورغبة حالاً ومقالاً.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ الدالة على كمال ولايته وتدبيره وتربيته ﴿خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي: إظهار الكائنات العلوية والسفلية بامتداد أظلال أسمائه وصفاته ﴿وَمَا بَثَّ﴾ وبسط ﴿فِيهِمَا﴾ وركب منهما ﴿مِن دَابَّةٍ﴾ ذي حياة وحركة ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه ﴿عَلَى جَمْعِهِمْ﴾ أي: جمع الأظلال والعكوس إلى شمس الذات، وقبضهم عليها بعد بثهم وبسطهم منها ﴿إِذَا يَشَاءُ﴾ ويريد ﴿قَدِيرٌ﴾ [الشورى: 29] بلا فترة وتقصير.

﴿وَ﴾ اعلموا أيها الأظلال الهالكة في أنفسها ﴿مَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ﴾ مضرة مؤلمة ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ أي: بسبب اقترافكم المعاصي والآثام ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿يَعْفُو﴾ سبحانه ﴿عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: 30] من المعاصي، لا يعقبها بمصيبة تخفيفًا لكم وتسهيلاً.

﴿وَ﴾ لو أراد سبحانه تعقيب كل معصية بمصيبة ﴿مَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ له ﴿فِي الأَرْضِ﴾ أي: ليس لكم أن تفوتوا شيئًا مما قضى سبحانه عليكم من المصائب المستتبعة لجرائمكم وآثامكم إن شاء، ﴿وَ﴾ الحال أنكم عاجزون في أنفسكم، مقهورون تحت قبضة قدرته؛ إذ ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِ اللهِ مِن وَلِيٍّ﴾ يولي أموركم ويحفظكم منها ﴿وَلاَ نَصِيرٍ﴾ [الشورى: 31] ينصركم ويدفع عنكم ما يؤذيكم ويعينكم على مبتغاكم.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ

بعد اليأس والبلية أوجب لكمال الفرح فيكون أدعى إلى الشكر.

اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الشورى: 32-36].

﴿وَ﴾ أيضًا ﴿مِنْ آيَاتِهِ﴾ الدالة على ولايته الكاملة، وتدبيراته الشاملة ﴿الْجَوَارِ﴾ أي: السفن الجاريه ﴿فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ [الشورى: 32] أي: كالجبال الرواسي في العظمة والثقل.

﴿إِن يَشَأْ﴾ سبحانه ﴿يُسْكِنِ الرِّيحَ﴾ المجرية لهن ﴿فَيَظْلَلْنَ﴾ ويبقين تلك السفن حيئذ ﴿رَوَاكِدَ﴾ سواكن ﴿عَلَىٰ ظَهْرِهِ﴾ أي: ظهر البحر ولججه، فضاع جميع من فيها وما فيها ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الإجراء والإرسال ﴿لَآيَاتٍ﴾ دلائل واضحات على تولية الحق وتدبيره ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ حبس نفسه في مقام الرضا بما قسم له ربه ﴿شَكُورٍ﴾ [الشورى: 33] بما ظهر عليه من آله ونعمائه.

﴿أَوْ﴾ إن يشأ يرسلهن إرسالاً عنيفًا بالرياح العاصفة حتى ﴿يُوبِقْهُنَّ﴾ أي: يغرقهن، ويهلك بعض من فيهن ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾ أي: بشؤم أعمالهم التي اقترفوها من البخل والحسد والحرص المفرط والأمل الطويل، وغير ذلك من الأخلاق المذمومة ﴿وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: 34] أي: ومع ذلك يتجاوز سبحانه عن إهلاك أكثرهم، وينجيهم من ورطة الهلاك بحسن أعمالهم وخلوص نياتهم تفضلاً منه سبحانه إياهم وتكريمًا لهم.

كل ذلك ليختبر سبحانه عباده، وينتقم عنهم، ويميز منهم أهل الرضا والتسليم عن غيرهم ﴿وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ﴾ أي: وليعلم المجادلون المكابرون ﴿فِي آيَاتِنَا﴾ ومقتضياتها عنادًا وعدوانًا ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ [الشورى: 35] مهرب ومخلص من عذابنا إن تعلقت إرادتنا بانتقامهم وإهلاكهم.

وإن استظهر أهل الجدال بالأموال والأولاد، واستكبروا بها وافتخروا عليها، قل لهم يا أكمل الرسل نيابة عنّا: ﴿فَمَا أُوتِيتُم﴾ وأعطيتم ﴿مِّن شَيْءٍ﴾ حقير قليل، ما هي إلا من حطام الدنيا ومتاعها ﴿فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فانية بفنائها، تتمتعون بها فيها مدة يسيرة، ثم تمضون مع حسرة كثيرة وندامة طويلة ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ﴾ من اللذات الروحانية والكرامات المعنوية ﴿خَيْرٌ﴾ من الدنيا وما فيها، بل من آلافها وأضعافها ﴿وَأَبْقَىٰ﴾ أقدم وأدوم ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ بوحدة الحق وانكشفوا بكمالات أسمائه وأوصافه، وتحققوا بشهود شئونه وتجلياته ﴿وَ﴾ هم بعدما تمكنوا في مقام الرضا والتسليم، وتوطنوا في أعظم سواد الفقر، وأعلى درجات عالم اللاهوت ﴿عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ لا على غيره من

الوسائل والأسباب العادية ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الشورى: 36] يفوضون أمورهم ويسلمون، غاضين عيون بصائرهم وأبصارهم عن الالتفات إلى ما سوى الحق مطلقًا، لذلك ما يرون بنوره من مرايا مظاهره ومجاليه إلا لمعات وجهه الكريم.

﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (37) وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (38) وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ (39) وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (40) وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ (41) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (42)﴾ [الشورى: 37-42].

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ﴾ وهي الآثام والجرائم المؤديان إلى الشرك الجلي والخفي ﴿وَالْفَوَاحِشَ﴾ أي: الصغائر المنتهية إلى الكبائر بالرسوخ والإصرار ﴿وَ﴾ أيضًا من جملة أخلاق هؤلاء المؤمنين المحسنين ﴿إِذَا مَا غَضِبُوا من مكروه هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى: 37] يبادرون إلى العفو والستر، وكظم الغيظ، وإصلاح البين، وإخراج الغل والحقد عن نفوسهم.

﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا﴾ أي: أجابوا، وقبلوا دعوة من دعاهم إلى الطاعات والعبادات ومطلق الخيرات والحسنات، لا لغرض دنيوي بل ﴿لِرَبِّهِمْ﴾ طلبًا لمرضاته وهربًا عن سخطه وانتقاماته ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿أَقَامُوا الصَّلاةَ﴾ أي: أداموا الميل والرجوع إلى الله في جميع حالاتهم ﴿أَمْرُهُمْ﴾ أي: عموم أمورهم المتعلقة لمعاشهم ومعادهم ﴿شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ أي: هم متشاورون فيها مع إخوانهم، بلا استبدادهم لهم فيها برأيهم ولا انفراد بعقلهم ﴿وَ﴾ من معظم أخلاقهم أنهم ﴿مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ أي: أبحنا لهم وأضفنا إليهم من الرزق الصوري ﴿يُنْفِقُونَ﴾ [الشورى: 38] في سبيلنا للفقراء والمساكين، طالبين منّا مرضاتنا ومثوباتنا.

﴿وَ﴾ من جملة أخلاقهم وأجلّها: إنهم هم ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ﴾ ولإخوانهم في الدين ﴿الْبَغْيُ﴾ والعدوان من بغي باغٍ ظالم وعدو عادٍ ﴿هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾ [الشورى: 39] يبادرون إلى الغلبة والانتصار غيرة على الله، وحمية لحمى حدوده الموضوعة على

مقتضى العدالة القويمة الإلهية عن الظلم والعدوان، وإظهارًا لما أودع الحق فيهم من فضيلة خصلة الشجاعة المحمودة عند الله، وعند عموم أرباب المروءة من الأنبياء والأولياء؛ إذ كلا طرفيها وهما الجبن والتهور، مذمومان عقلاً وشرعًا، والشجاعة المقتصدة بينهما محمودة جدًا.

ثم قال سبحانه تعليمًا لعباده طريق هدايته ورشاده: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ﴾ أصابتك من أحد من بني نوعك ﴿سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ لا أزيد منها؛ أي: إذا أساءك أحد بسيئة، فأنت أيها المكلف تسيئه بمثلها جزاءً وعقوبة، سمى الجزاء سيئة؛ للازدواج والمشاكلة، هذا بحسب الرخصة الشرعية، وأما بحسب العزيمة ﴿فَمَنْ عَفَا﴾ وتجاوز عن الجاني والمسيء خالصًا لوجه الله وطلبًا لمرضاته ﴿وَأَصْلَحَ﴾ بالصلح والإحسان ما أفسده بالجناية والإساءة ﴿فَأَجْرُهُ﴾ قد وقع ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ وجزاؤه مفوض إلى كرمه يجازيه بمقتضى فضله وجوده ما شاء الله، وبالجملة: ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه بمقتضى عدالته الذاتية ﴿لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [الشورى: 40] المجاوزين عن الحدود الإلهية سيما في العقوبات والجنايات.

﴿وَلَمَنِ انتَصَرَ﴾ وغلب على الظالم ﴿بَعْدَ ظُلْمِهِ﴾ أي: بعدما ظلم منه منتقمًا عليه ﴿فَأُولَئِكَ﴾ المنتصرون المنتقمون ﴿مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ [الشورى: 41] بالمعاتبة والمعاقبة؛ لأنهم منتقمون بالرخصة الشرعية.

بل ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ﴾ بهما ﴿عَلَى﴾ المسرفين ﴿الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ﴾ أي: يبتدئون بالظلم، ويظهرون بينهم بالعدوان والطغيان ﴿وَيَبْغُونَ﴾ أي: يطلبون بظلمهم فسادًا ﴿فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ بلا رخصة شرعية ﴿أُولَئِكَ﴾ البعداء المجاوزون عن الحدود الشرعية ﴿لَهُم﴾ في النشأة الأخرى ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورى: 42][1] هو إحراقهم بنار

(1) يقول تعالى ذكره: ولمن انتصر ممن ظلمه من بعد ظلمه إياه ﴿فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ يقول: فأولئك المنتصرون منهم لا سبيل للمنتصر منهم عليهم بعقوبة لا أذى، لأنهم انتصروا منهم بحق، ومن أخذ حقه ممن وجب ذلك له عليه، ولم يتعد، لم يظلم، فيكون عليه سبيل، وقد اختلف أهل التأويل في المعني بذلك، فقال بعضهم: عني به كل منتصر ممن أساء إليه، مسلما كان المسيء أو كافرا، ذكر من قال ذلك: حدثني محمد بن عبد الله بن بزيع، قال: ثنا معاذ، قال: ثنا ابن عون، قال: كنت أسأل عن الانتصار (وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ...)الآية، فحدثني علي بن زيد بن جدعان، عن أم محمد امرأة أبيه، قال ابن عون: زعموا أنها كانت تدخل على أم المؤمنين قالت: قالت أم المؤمنين: دخل رسول الله ﷺ، وعندنا زينب بنت جحش، فجعل يصنع بيده شيئا،

القطيعة، لا عذاب أشد منه وأفزع.

﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾﴾ [الشورى: 43-46].

﴿وَلَمَن صَبَرَ﴾ من المظلومين، ولم ينتصر، ولم ينتقم من الظالم كظمًا وهضمًا

ولم يفطن لها، فقلت بيده حتى فطّنته لها، فأمسك، وأقبلت زينب تقحم عائشة، فنهاها، فأبت أن تنتهي، فقال لعائشة:«سُبيها» فسبتها وغلبتها وانطلقت زينب فأتت عليا، فقالت: إن عائشة تقع بكم وتفعل بكم، فجاءت فاطمة، فقال لها:«إنها حبة أبيك وربّ الكعبة» فانصرفت وقالتِ لعليّ: إني قلت له كذا وكذا، فقال كذا وكذا،-قال: وجاء عليّ إلى النبيّ ﷺ فكلّمه في ذلك، حدثنا بشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة، قوله:(وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ...) الآية، قال: هذا في الخمش يكون بين الناس، حدثنا ابن عبد الأعلى، قال: ثنا ابن ثور، عن معمر، عن قتادة، في قوله:(وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ) قال: هذا فيما يكون بين الناس من القصاص، فأما لو ظلمك رجل لم يحلّ لك أن تظلمه، وقال آخرون: بل عُنِيَ به الانتصار من أهل الشرك، وقال: هذا منسوخ، ذكر من قال ذلك: قال ابن زيد، في قوله: (وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ) قال: لمن انتصر بعد ظلمه من المؤمنين انتصر من المشركين وهذا قد نسخ، وليس هذا في أهل الإسلام، ولكن في أهل الإسلام الذي قال الله تبارك وتعالى: (ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ) والصواب من القول أن يقال: إنه معنيّ به كل منتصر من ظالمه، وأن الآية محكمة غير منسوخة للعلة التي بينت في الآية قبلها، وقوله: (إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ) يقول تبارك وتعالى: إنما الطريق لكم أيها الناس على الذين يتعدّون على الناس ظلما وعدوانا، بأن يعاقبوهم بظلمهم لا على من انتصر ممن ظلمه، فأخذ منه حقه، وقوله: (وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ) يقول: ويتجاوزون في أرض الله الحدّ الذي أباح لهم ربهم إلى ما لم يأذن لهم فيه، فيفسدون فيها بغير الحق، يقول: فهؤلاء الذين يظلمون الناس، ويبغون في الأرض بغير الحق، لهم عذاب من الله يوم القيامة في جهنم مؤلم موجع. «تفسير الطبري» (549/21).

﴿وَغَفَرَ﴾ أي: عفا وتجاوز مسترجعًا إلى الله، طالبًا الأجر منه سبحانه ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ العفو والصفح عند القدرة ﴿لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: 43] أي: من الأمور التي آثرها أولو العزائم الصحيحة من أرباب العناية، وهم الذين يرون من الله جميع ما يرون منحة أو محنة، ويوطنون نفوسهم على الرضا بما جرى عليهم من القضاء.

﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ﴾ بمقتضى قهره وجلاله ويغويه عن طريق توحيده ﴿فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ﴾ سواه ينصره ويدفع عنه ما يخذله ﴿مِّنْ بَعْدِهِ﴾ أي: من بعد خذلان الله إياه ﴿وَ﴾ بعدما ردهم سبحانه إلى دار الانتقام بأنواع الخيبة والخسران ﴿تَرَى﴾ أيها الرائي ﴿الظَّالِمِينَ﴾ المغرورين بما هم عليهم من الجاه والثروة والمفاخرة بالأموال والأولاد في دار الدنيا ﴿لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ النازل عليهم المحيط بهم من جميع جوانبهم ﴿يَقُولُونَ﴾ حينئذ أي: بعضهم لبعض من شدة اضطرابهم واضطراهم: ﴿هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ﴾ رجعة إلى الدنيا وعود إليها ﴿مِّن سَبِيلٍ﴾ [الشورى: 44] حتى نعود ونستعد ليومنا هذا.

﴿وَ﴾ هم في هواجس أنفسهم يتكلمون بهذا الكلام تحسرًا وتضجرًا ﴿تَرَاهُمْ﴾ أيها الرائي حين ﴿يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ أي: على النار ﴿خَاشِعِينَ﴾ خاضعين ﴿مِنَ الذُّلِّ﴾ والصغار المفرط الشامل لهم ﴿يَنظُرُونَ﴾ نحو النار ﴿مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ أي: بنظرة خفية من تحت الأهداب بلا تحريك الأجفان من كمال رعبهم وخشيتهم منها، كنظر من يؤمر بقتله إلى سيف الجلاد.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ حين رأوا أعداءهم معذبين: ﴿إِنَّ الْخَاسِرِينَ﴾ المسرفين المفسدين ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ بالظلم والضلال ﴿وَأَهْلِيهِمْ﴾ بالضد والإضلال، لذلك استحقوا العذاب المخلد ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ والنكال المؤبد فيها ﴿أَلَا﴾ أي: تنبهوا أيها الأظلال المستظلون تحت لواء العدالة الإلهية ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ الخارجين عن مقتضاها بإغواء الغوائل الإمكانية والتسويلات الشيطانية ﴿فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ [الشورى: 45] وعقاب دائم أليم.

﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَاءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ وينقذونهم من عذابه، والحال أنه قد أضلهم الله بمقتضى قهره وجلاله ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ﴾ المنتقم الغيور ﴿فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ﴾ [الشورى: 46] إلى الهداية والنجاة من وبال ما يترتب على الغي والضلال.

﴿ اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ

يَوۡمَئِذٖ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٖ ﴿٤٧﴾ فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًاۖ إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ فَرِحَ بِهَاۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَإِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ كَفُورٞ ﴿٤٨﴾﴾ [الشورى: 47-48].

وبالجملة: ﴿اسْتَجِيبُوا﴾ أيها المكلفون بالإجابة والقبول ﴿لِرَبِّكُم﴾ الذي رباكم على فطرة التوحيد، وتوجهوا نحوه مخلصين، وأجيبوا داعيه محمدًا ﷺ، مصدقين ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾ يحل فيه العذاب عليكم، مع أنه ﴿لَّا مَرَدَّ لَهُ﴾ أي: لا رفع ولا رد للعذاب النازل فيه ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ وبعدما قضى سبحانه وحكم حتمًا ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ﴾ سواه، وقد جرى حكمه بتعذيبكم ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ [الشورى: 47] وما يتيسر لكم حينئذ إنكار أسباب العذاب وموجباته؛ إذ تشهد عليكم يومئذ أعضاؤكم وجوارحكم بما اقترفتم بها من الجرائم والآثام.

وبالجملة: قل لهم يا أكمل الرسل على سبيل العظة والتذكير أمثال هذه المواعظ والتذكيرات نيابة عنّا، فإن امتثلوا وقبلوا، فقد اهتدوا ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ عنها، ولم يلتفتوا إليها عنادًا ومكابرة ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ﴾ أي: فاعلم أنا ما أرسلناك يا أكمل الرسل ﴿عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ يحفظهم عن جميع ما يضرهم ويغويهم، بل ﴿إِنْ عَلَيْكَ﴾ أي: ما عليك ﴿إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ وقد بلغت، وبعد تبليغك ما بقي عليك من حسابهم من شيء.

ثم أشار سبحانه إلى وهن عزائم الإنسان وضعف عقائده، فقال: ﴿وَإِنَّا﴾ من مقام عظيم جودنا ﴿إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ﴾ تفضلاً ﴿مِنَّا﴾ بلا سبق استحقاق منه ﴿رَحْمَةً﴾ شاملة محيطة بجمع أعضائه وجوارحه ﴿فَرِحَ بِهَا﴾ وانبسط بحلولها ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ﴾ حينًا من الأحيان ﴿سَيِّئَةٌ﴾ من السيئات مؤلمة لهم، مع أنها ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: بشؤم ما اقترفوا من المعاصي والآثام الجالبة لأنواع المضرات ﴿فَإِنَّ الْإِنسَانَ حينئذ كَفُورٌ﴾ [الشورى: 48] مسرع إلى الكفران، مبادر إلى النسيان، كأنه لم ير منّا الإحسان والإنعام قط.

﴿لِّلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانٗا وَإِنَٰثٗاۖ وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٞ قَدِيرٞ ﴿٥٠﴾ ۞وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا

فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٞ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ [الشورى: 49-53].

فكيف يكفرون لوفور نعمة الحق وشمول رحمته مع أنه ﴿لِلَّهِ﴾ المحيط بكل المظاهر الموجد المظهر لها ﴿مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي: العلويات والسفليات وما بينهما من الممتزجات؛ لذلك ﴿يَخْلُقُ﴾ ويوجد ﴿مَا يَشَاءُ﴾ إرادة واختيارًا حيث ﴿يَهَبُ﴾ بمقتضى جوده وفضله ﴿لِمَن يَشَاءُ﴾ من عباده ﴿إِنَاثًا﴾ محضًا من الأولاد، قدمهن للتدرج من الأدنى إلى الأعلى، ونكرهم؛ لأن النكارة مطلوبة فيهن ﴿وَيَهَبُ﴾ أيضًا ﴿لِمَن يَشَاءُ﴾ منهم ﴿الذُّكُورَ﴾ [الشورى: 49] الخُلَّص، عرَّفهم؛ لأنهم أولى بالتعريف وأجرى بالمعرفة.

﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ﴾ ويخلط لهم ﴿ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا﴾ مجتمعين ممتزجين ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ﴾ منهم ﴿عَقِيمًا﴾ بلا إيلاد واستيلاد، ذكرًا كان أو أنثى إظهارًا لكمال قدرته، وإشعارًا بأنه لا تأثير للوسائل والأسباب العادية، حتى ينسب تناسلهم وتوالدهم إلى اجتماع الأزواج والزوجات منهم، كما هو المتبادر إلى الأحلام السخيفة، وبالجملة: ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه ﴿عَلِيمٌ﴾ باستعدادات عباده وقابلياتهم ﴿قَدِيرٌ﴾ [الشورى: 50] على إفاضة ما ينبغي لمن ينبغي كما ينبغي، بمقتضى كرمه وجوده إرادة واختيارًا، بلا إيجاب والتزام من جانبه سبحانه.

ثم لما شنَّع اليهود على رسول الله ﷺ وعيروه وطعنوا في نبوته، مستهزئين معه؛ حيث قالوا له تهكمًا: ألَا تكلم الله وتنظر إليه لو كنت نبيًّا كما كلمه موسى ونظر إليه.

فقال ﷺ: «لم ينظر موسى إلى الله تعالى»[1] إذ هو سبحانه أجل وأعلى من أن تنظر إليه العيون، وتدركه الأبصار ومحيط به الآراء والأفكار.

أنزل سبحانه هذه الآية تصديقًا لحبيبه ﷺ، فقال: ﴿وَمَا كَانَ﴾ أي: ما صح وجاز ﴿لِبَشَرٍ﴾ أي: لجنسه، ليس في وسعه واستعداده ﴿أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ﴾ مشافهة بلا سترة

(1) ذكره ابن عجيبة في «البحر المديد» (449/5).

وحجاب؛ إذ لا مناسبة بين المحدود والمحبوس في مضيق الجهات، وبين غير المحدود والمستغني عن الحدود والجهات حتى تقع المكالمة بينهما ﴿إِلَّا وَحْيًا﴾ أي: تكلمًا ناشئًا عن وحى إلهامي أو منامي ﴿أَوْ﴾ تكلمًا مسموعًا ﴿مِن وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ أي: وراء تعين من التعينات، كما سمع موسى كلامه سبحانه من وراء حجاب الشجرة، فكذلك يسمع العارف المتحقق بمقام الفناء في الله كلامه سبحانه، من وراء تعينات عموم المظاهر الناطقة بتسبيحه سبحانه حالاً ومقالاً ﴿أَوْ﴾ تكلمًا بالسفارة والترجمان بأن ﴿يُرْسِلَ رَسُولاً﴾ من سدنة ذاته التي هي الملائكة الحاملون لكمالات أسمائه وصفاته ﴿فَيُوحِيَ﴾ الملك ﴿بِإِذْنِهِ﴾ سبحانه ﴿مَا يَشَاءُ﴾[1] ويسمعه من كلامه سبحانه لمن يشاء من عباده.

وبالجملة: ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه ﴿عَلِيٌّ﴾ في شأنه المختص به، وكمالاته اللائقة له، متعالٍ عن أن يحوم حول سرادقات عز سلطانه أحد من خلقه، فكيف أن يتكلموا معه بلا سترة وحجاب ﴿حَكِيمٌ﴾ [الشورى: 51] في كمال تمنعه وكبريائه ونهاية تعززه وترفعه؛ بحيث تكلم تارة بالوحي والإلهام، وتارة من وراء الحجب والأستار، وتارة بطريق السفارة والرسالة.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: ومثل ما أوحينا إلى من تقدمك من الأنبياء والرسل، وتكلمنا معهم بإحدى الطرق الثلاث ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ أيضًا يا أكمل الرسل لتتكلم معك ﴿رُوحًا﴾ منًا تكريمًا لك وتعظيمًا لشأنك، وتخصيصًا لك من بين سائر الأنبياء لظهوره على نشأة التوحيد الذاتي، ناشئًا ﴿مِّنْ أَمْرِنَا﴾ المتعلق لتدبيراتنا وتصرفاتنا في ملكنا وملكوتنا، ألا وهو القرآن المنتخب من حضرة علمنا ولوح قضائنا، سميناه روحًا؛ لأنه يحيي به أموات مطلق التعينات، وخصصناك به مع أنك ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي﴾ وتعلم قبل نزوله ﴿مَا الْكِتَابُ﴾ المبين للأحكام المتعلقة بتهذيب الظواهر والبواطن ﴿وَلَا الْإِيمَانُ﴾ والإيقان المتعلق لتوحيد الحق وعرفانه، لكونك أميًا عاريًا عن طريق الاستفادة والتعلم مطلقًا ﴿وَلَٰكِن﴾ من محض جودنا وفضلنا اصطفيناك لرسالتنا، واجتبيناك لخلافتنا

(1) إذا دخل القلب في عالم الغيب فما يراه فهو كشف، وما يسمعه فهو كلام وما يتكلم به فهو وحي، فيتولد مما يسمع الفهم، وما يتولد مما يبصر فهو بيان وكشف ونظر، وما يتولد مما يتكلم به فهو حكمة ومعرفة وعلم، وما يقع في موضع العقل من القلب فهو علم لدني، وما يقع في الفؤاد وهو الرؤية والإدراك. تقسيم الخواطر (ص95) بتحقيقنا.

ونيابتنا؛ لذلك أنزلناه إليك.

وبعد نزوله ﴿جَعَلْنَاهُ نُورًا﴾ تلألأ وتشعشع بعد ظهور نشأتك ﴿نَهْدِي بِهِ﴾ إلى توحيدنا ﴿مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ المجبولين على فطرة الإسلام ﴿وَإِنَّكَ﴾ أيضًا بمقتضى خلافتك ونيابتك عنَّا ﴿لَتَهْدِي﴾ به عموم عبادنا وتدعوهم ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: 52] لا عوج فيه ولا انحراف؛ لكونه ﴿صِرَاطِ اللهِ الَّذِي لَهُ﴾ مظاهر ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ أي: العلويات والسفليات، وما ظهر منهما وفيهما وعليهما، وبالجملة: عموم ما ظهر وبطن وغاب وشهد؛ إذ هو سبحانه آخذ بيمين القدرة بناصية الكل، ويجذبه نحوه.

﴿أَلَا﴾ أي: تنبهوا أيها الأظلال المستمدون من الله في كل الأحوال ﴿إِلَى اللهِ﴾ أي: إلى وجهه الكريم لا إلى غيره من وجوه الأسباب والوسائل العادية ﴿تَصِيرُ الأُمُورُ﴾ [الشورى: 53] أي: إليه ترجع وجوه الصور المرتبة بعد ارتفاع الوجوه الهالكة عن البين واضمحلال الرسوم الباطلة عن العين.

خاتمة السورة

عليك أيها الطالب للتحقق في صراط الحق، والراكن نحوه بحزائمك الأقصى وعزائمك الأوفى أن تجعل قبلة مقصدك توحيد ربك، وتستقيم على جادته التي هي الدين القويم المحمدي، والسبيل السوي المصطفوي، الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ البَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ [فصلت: 42] وتقتفي أثر من سلف من خُلَّص أتباعه الذين اهتدوا بمتابعته إلى مقر التوحيد واليقين بك، ووصلوا إلى عالم اللاهوت والتمكين بعدما انخلعوا عن جلبات ناسوتهم بالمرة، بتوفيق من الله وجذب من جانبه، وإرشاد حبيبه ﷺ.

سورة الزخرف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة الزخرف[1]

لا يخفى على المحققين المتحققين بحيطة الحق على عموم المظاهر، وشمول أسمائه، وأوصافه الذاتية عليها، أن من جملة أسمائه الحسنى وصفاته الأسنى اسم المتكلم، وصفة الكلام المنزل من عنده على كل أمة من الأمم حسب اللغة الموضوعة فهيم بوضع إلهي؛ إذ واضع الألفاظ واللغات كلها هو الله سبحانه.

ولا شك أن القرآن المنزل على خير الأنام إنما هو من أمهات الكتب الإلهية وأصولها؛ لكونه منتخبًا من الحضرة العلمية الإلهية، منتزعًا من لوح محفوظ القضاء على الوجه الأتم الأبلغ.

ولهذا أقسم سبحانه بكتابه هذا، بعدما خاطب على حبيبه ﷺ بما خاطب، ثم منّ

---

(1) الزُّخْرُف بِالضَّمِ: الذَّهَبُ نَقَلَهُ الجَوْهَرِيُّ وهو قَوْلُ الفَرَّاءِ ومنه قَوْلُه تعالَى: (أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ) قال ابنُ سِيدَه: هذا هو الأَصْلُ ثم سُمِّيَ كُلُ زِينَةٍ زُخْرُفًا شُبِّهَ كُلُّ مُمَوَّهٍ مُزَوَّرٍ بِهِ وفي حديثِ يومِ الفَتْحِ: (أَنَّهُ لم يَدْخُلِ الكَعْبَةَ حتى أَمَرَ بالزُّخْرُفِ فنُحِّيَ وأَمَرَ بالأَصْنامِ فكُسِّرَتْ) الزُّخْرُفُ هنا: نُقُوشٌ وتَصاوِيرُ تُزَيَّنُ بها الكَعْبَةُ وكانتْ بالذَّهَبِ، الزُّخْرُفُ: الزِّينَةُ وكَمالُ حُسْنِ الشَّيْءِ . الزُّخْرُفُ مِن القَوْلِ: زِينَتُهُ وحُسْنُهُ بتَرْقِيشِ الكَذِبِ ومنه قَوْلَهُ تَعالَى: (زُخْرُفَ القَوْلِ غُرُوراً) الزُّخْرُفُ مِن الأَرْضِ: أَلْوَانُ نَباتِها مِن بَيْنِ أَحْمَرَ وأَصْفَرَ وأَبْيَضَ ومنه قَوْلَهُ تَعالَى: (حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا) أَي: زِينَتَهَا مِنَ الأَنْوَارِ والزَّهْرِ وقيل: تَمامَها وكَمالَهَا، والزَّخارِفُ: السُّفُنُ كما في التَّهْذِيبِ وفي المُحْكَمِ: ما زُيِّنَ مِن السُّفُنِ وفي العَيْنِ: ما يُزَخْرَفُ به السُّفُنُ، الزَّخارِفُ مِن الماءِ: طَرَائِقُهُ نَقَلَهُ الجَوْهَرِيُّ، الزَّخارِفُ: دُوَيْبَّات تَطِيرُ على الماءِ كما في التَّهْذِيبِ زَاد في العُبَابِ: ذَوَاتُ أَرْبَعٍ كَالذُّبابِ وفي المُحْكَمِ: ذُبَابٌ صِغَارٌ ذاتُ قَوَائِمَ أَرْبَعٍ تَطِيرُ على الماءِ قال أَوْسُ بنُ حَجَرٍ: تَذَكَّرِ عَيْنًا مِنْ غَمَازَةَ مَاؤُهَا ... لَهُ حَدَبٌ تَسْتَنُّ فِيهِ الزَّخارِفُ ومِمَّا يُسْتَدْرَكُ عليه: الزُّخْرُفُ: الزِّينَةُ، وبَيْتٌ مُزَخْرَفٌ، وزَخْرَفَ البَيْتَ زَخْرَفَةً: زَيَّنَهُ وأَكْمَلَهُ، وكُلُّ مَازُوِّقَ وزُيِّنَ فقد زُخْرِفَ، وقال ابنُ أَسْلَمَ: الزُّخْرُفُ: مَتاعُ البَيْتِ، والمُزَخْرَفُ: المُزَيَّنُ قال العَجَّاجُ: يا صَاحِ مَا هَاجَ العُيُونَ الذُّرَّفَا... مِنْ طَلَلٍ أَمْسَى تَخَالُ المُصْحَفَا ، رُسُومَهُ والمُذْهَبَ المُزَخْرَفَا وزَخْرَفَ الكلامَ: نَظَمَهُ، وتَزَخْرَفَ الرَّجُلُ: إِذا تَزَيَّنَ، والزُّخْرُفُ: طائِرٌ وبه فَسَّرَ كُرَاعٌ بَيْتَ أَوْسٍ.

عليه بما منّ، ورمز بما رمز تأييدًا أو تعضيدًا له على حمل أعباء الرسالة، وتبليغ الوحي المنزل عليه من عنده باللغة الفصيحة العربية، المعجز نظمه ومعناه على كافة البرية وعامة الرعية؛ ليكون رحمة للعالمين وخاتمًا للنبيين.

فقال بعدما تيمن باسمه المبين: ﴿بِسْمِ اللهِ﴾ المنزل للرسل والكتب للهداية، والإرشاد تبين طريق الرشاد ومنهج السداد لعموم عباده ﴿الرَّحْمَنِ﴾ عليهم بإرسال رسول كل قوم من جنسهم، وإنزال الكتاب عليهم على لغتهم ﴿الرَّحِيمِ﴾ لهم يوصلهم بتبليغ الرسل وتبيين الكتب إلى مبدئهم ومعادهم.

﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾﴾ [الزخرف: 1-8].

﴿حم﴾ [الزخرف: 1] يا حارس دين الله، وملازم طريق توحيده.

﴿وَ﴾ حق ﴿الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ [الزخرف: 2] العظيم الذي انتخبناه من حضرة علمنا ولوح قضائنا.

﴿إِنَّا﴾ من كمال فضلنا وجودنا ﴿جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا﴾ فرقانًا بيانًا، وتبيانًا ﴿عَرَبِيًّا﴾ أسلوبًا ونظمًا ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: 3] وتفهمون ما فيه من الأسرار العجيبة والحكم البديعة، والرموز والإشارات التي خلت عنها الكتب السالفة.

﴿وَإِنَّهُ﴾ أي: الشأن المندرج فيه، والمرموز إليه من جملة ما هو كائن مثبت ﴿فِي أُمِّ الْكِتَابِ﴾ الذي هو حضرة العلم ولوح القضاء، ولا يمكنكم الإطلاع عليها والاستفادة منها إلا بوسائل الألفاظ لكونه محفوظًا ﴿لَدَيْنَا﴾ محروسًا عندنا، لا يتيسر لكم الوصول إلينا، مادمتم محبوسين في مضيق الإمكان، مقيدين بسلاسل الزمان والمكان؛ إذ ساحة عز حضورنا ﴿لَعَلِيٌّ﴾ منيع متعال عن أن يحوم حول سرادقات عزنا أحد من خلقنا، ونحن ﴿حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: 4] في تلك المنعة والدفاع، لا نطلعكم على سرائرنا وأسرارنا، إلا من وراء الحجب والأستار.

ثم استفهم سبحانه مهددًا مقرعًا، مشيرًا إلى ما أودع سبحانه في استعدادات عباده من قابلية الهداية والرشاد، بقوله: ﴿أَ﴾ نهملكم أيها المجبولون على فطرة الهداية، ولم نرسل إليكم يرشدكم إلى ما جبلتم لأجله من قابلية الانكشاف لسرائر توحيدنا ﴿فَنَضْرِبُ﴾ أي: فنصرف ﴿عَنكُمُ الذِّكْرَ﴾ أي: القرآن المبين لكم ما في نشأتكم وفطرتكم من الاطلاع والشعور على شئوننا وتجلياتنا الذاتية، وبالجملة: نعرض عنكم ﴿صَفْحًا﴾ إعراضًا وانصرافًا كليًا، مع كمال قابليتكم على الصلاح وبالفوز بالفلاح ﴿أَن كُنتُمْ﴾ أي: أنهملكم لئن كنتم ﴿قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ [الزخرف: 5] منحطين عن الاعتدال الفطري والقسط الجبلي الذي جبلناكم عليه؛ والمعنى: أنهمل مقتضيات حكمتنا المودعة فيكم، إن كنتم في أنفسكم قومًا مسرفين في التمرد والإعراض؟.

﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا﴾ أي: كثير أرسلنا ﴿مِن نَّبِيٍّ﴾ هادٍ مرشد ﴿فِي الْأَوَّلِينَ﴾ [الزخرف: 6] أي: في الأمم الماضين المسرفين في التمرد والإعراض.

﴿وَ﴾ هم من شدة تعنتهم وإصرارهم ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الزخرف: 7] أمثال هؤلاء المستهزئين معك يا أكمل الرسل.

وبعدما تمادوا في الغفلة والعناد، وبالغوا فيها مغرورين ﴿فَأَهْلَكْنَا﴾ أي: أخذناهم بذنوبهم، واستأصلناهم مع كونهم ﴿أَشَدَّ مِنْهُم﴾ أي: من هؤلاء المسرفين المستهزئين معك ﴿بَطْشًا﴾ حولا وقوة، وأكثر أموالاً وأولادًا، وأكبر جاهًا وشدةً ﴿وَ﴾ بعدما ﴿مَضَىٰ﴾ وجرى ﴿مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الزخرف: 8] على ما جرى، ومضى مثل الأولين من قصصهم ووقائعهم الهائلة، وسيمضي ويجري عن قريب على هؤلاء أيضًا مثلهم بالطريق الأولى.

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [الزخرف: 9-14].

﴿وَ﴾ كيف لا يجري عليهم ما جرى على أسلافهم مع أنهم أعظم جرمًا وأكبر إنكارًا منهم، ومن إنكارهم أنهم ﴿لَئِن سَأَلْتَهُم﴾ أي: مشركي مكة يا أكمل الرسل: ﴿مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ وأوجدهما من كتم العدم ﴿لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ العزيزُ﴾ الغالب على الخلق والإيجاد ﴿العَلِيمُ﴾ [الزخرف: 9] المطلع على سرائر ما أوجد وأظهر.

ومع اعترافهم بأخص أوصاف الفاعل المختار، وإقرارهم باستناد الأمور المتقنة إلى أوصافه وأسمائه، أنكروا وحدة ذاته، وأشركوا معه غيره عتوًا وعنادًا، قل لهم يا أكمل الرسل بعدما بالغوا في الإنكار والإصرار: كيف تنكرون وحدة الحق أيها الجاحدون المنكرون مع أن الله ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا﴾ تستقرون فيها، وتتوطنون عليها مترفهين متنعمين ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً﴾ لمعاشكم، تطلبون منها حوائجكم، وطرقًا تصلون منها إلى معادكم ﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: 10] بها إلى وحدة ربكم.

﴿وَ﴾ كيف تنكرون وجود موجدكم ﴿الَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي: من عالم الأسباب ﴿مَاءً﴾ محييًا لأموات المسببات ﴿بِقَدَرٍ﴾ معتدل معتاد ﴿فَأَنشَرْنَا بِهِ﴾ أي: أحيينا واخضررنا بإجراء الماء المحيي ﴿بَلْدَةً﴾ جافًا يابسًا لا نبات فيها، ولا خضرة لها ﴿مَّيْتًا كَذَلِكَ﴾ أي: مثل إخراجنا النبات من الأرض اليابسة بإنزال الماء ﴿تُخْرَجُونَ﴾ [الزخرف: 11] وتنشرون؛ أي: الموتى حال كونكم موتى من قبورهم بنفخ الروح فيكم تارةً أخرى.

﴿وَ﴾ كيف تجحدون وتنكرون وجود الصانع الحكيم ووحدته مع أنه ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾ وأظهر ﴿الأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ أي: جميع أصناف المخلوقات من زوجات ممتزجات ﴿وَجَعَلَ لَكُم﴾ تتميمًا لأمور معاشكم وتسهيلاً لها ﴿مِّنَ الْفُلْكِ وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ [الزخرف: 12] أي: تركبونه.

﴿لِتَسْتَوُوا﴾ وتتمكنوا ﴿عَلَى ظُهُورِهِ﴾ أي: ظهور ما خلق لكم من المراكب ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ كيف أفاض عليكم من النعم أصولها وفروعها، وتواظبوا على شكرها أداء لحق شيء منها ﴿وَتَقُولُوا﴾ عند استوائكم عليها: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي﴾ أي: تنزه وتقدس عن شوب النقص والاستكمال ذات القادر العليم الحكيم،

الذي ﴿سَخَّرَ لَنَا هَذَا﴾ المركوب ﴿وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ [الزخرف: 13] [1] مطيقين لتسخيره لولا إقرانه وتسخيره سبحانه لنا.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿إِنَّا﴾ في عموم أوصافنا وأحوالنا وذواتنا ﴿إِلَى رَبِّنَا﴾ الذي أظهرنا بمد أظلال أسمائه الحسنى وصفاته العليا علينا، وربانا بمقتضى لطفه بالنعم الأوفى ﴿لَمُنقَلِبُونَ﴾ [الزخرف: 14] راجعون إليه، صائرون نحوه بعد انخلاعنا عن لوازم ناسوتنا وارتفاع غشاوة تعيناتنا عنّا.

وإنما أوصله به تنبيهًا على أن العبد العارف لا بدّ أن يكون في عموم انقلاباته وحالاته مسترجعًا إلى الله، عازمًا نحو الفناء فيه، متذكرًا لموطنه الأصلي ومقره الحقيقي.

﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا ۚ أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الزخرف: 15-20].

﴿وَ﴾ من غاية غفلتهم عن الحق وجهلهم بحقوق ألوهيته وربوبيته: ﴿جَعَلُوا لَهُ﴾ سبحانه واتخذوا ﴿مِنْ عِبَادِهِ﴾ بعضًا، وادعوه ﴿جُزْءًا﴾ له، وولدًا ناشئًا منه حيث قالوا: الملائكة بنات الله، والعزير ابن الله، والمسيح كذلك، وبالجملة: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ﴾ المجبول على الجهل والنسيان ﴿لَكَفُورٌ﴾ متناهٍ في الغفلة عن الله، والكفران بنعمه

---

(1) أي: مطيعين، وكم سَخَّرَ لهم الفُلْكَ في البحر، والدوابَّ للركوب، وأعظم عليهم المنة بذلك فكذلك سَهَّلَ للمؤمنين مركب التوفيق فَحَمَلهم عليه إلى بساط الطاعة، وسهّلَ للمريدين مركبَ الإرادة فَحَمَلهم عليه إلى عرَصَاتِ الجود، وسَهّل للعارفين مركبَ الهِمَمِ فأناخوا بعَقْوَةِ العِزّة وعند ذلك مَحَطّ الكافة؛ إذ لم تخرق سرادقاتِ العزّة هِمّةُ مخلوقٍ سواء كان مَلَكًا مُقَرّبًا أو نبيًا مُرْسَلًا أو وليًا مُكَرّمًا فعند سطواتِ العِزّة يتلاشى كلُّ مخلوقٍ، ويقف وراءها كلُّ مُحْدَثٍ مسبوق، تفسير القشيري (210/7).

وحقوق كرمه ﴿مُّبِينٌ﴾ [الزخرف: 15] ظاهر البغي والطغيان على الله، والإلحاد عن دينه وطريق توحيده.

ومن شدة ظهور بغيهم وطغيانهم: أثبتوا له أولادًا ﴿أَمِ اتَّخَذَ﴾ أي: بل قالوا: اتخذ وأخذ ﴿مِمَّا يَخْلُقُ﴾ سبحانه؛ أي: من مظاهره ومصنوعاتها أخسها وأدونها؛ أعني: ﴿بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم﴾ أي: أخلص أنفسكم ﴿بِالْبَنِينَ﴾ [الزخرف: 16].

﴿وَ﴾ كيف تثبتون لله الواحد الأحد الصمد بنات، وتختارون لأنفسكم بنين مع أنه ﴿إِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلاً﴾ من إثبات البنات له ﴿ظَلَّ﴾ صار ﴿وَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾ من كمال ضجرته وكآبتها ﴿وَهُوَ﴾ حينئذ ﴿كَظِيمٌ﴾ [الزخرف: 17] مملوء من الغيظ والكرب.

﴿أَوَ مَن يُنَشَّأُ﴾ أي: أتثبتون للصمد المنزه عن الأهل والولد ولدًا ناقصًا يُربى ويزين ﴿فِي الْحِلْيَةِ﴾ والزينة، لعدم كماله الذاتي ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿هُوَ فِي الْخِصَامِ﴾ أي: المجادلة والمحاباة ﴿غَيْرُ مُبِينٍ﴾ [الزخرف: 18] معرب مظهر؛ لما يدعيه لنقصان عقله وركاكة رأيه وفهمه، وهن البنات الناقصات عقلاً ودينًا وخلقة، وبالجملة: أثبتوا لله ما ينزهون أنفسهم عنه، ويتغممون عند حصوله لهم.

﴿وَ﴾ من نهاية جهلهم وركاكة رأيهم ﴿جَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾ المستغرقون الوالهون بمطالعة وجهه الكريم، المستغفرون لعموم عباد الله من سعة رحمته وجوده ﴿إِنَاثًا﴾ ناقصات العقل والدين، منحطات عن زمرة الكاملين مع أنهم - أي: الملائكة - من أعزة عباد الله وأجلهم، متمكنون عند كنف قربه وجواده، مسبحون له في عموم الأوقات والحالات ﴿أَشَهِدُوا﴾ وحضروا أولئك الحمقى ﴿خَلْقَهُمْ﴾ أي: خلق الله إياهم في بدء الأمر؛ إذ الأنوثة والذكورة من جملة الأمور التي لا اطلاع لأحد عليها إلا بالمشاهدة، أم شهدوا رجمًا بالغيب، ظلمًا وزورًا ﴿سَتُكْتَبُ﴾ في النشأة الأولى ﴿شَهَادَتُهُمْ﴾ التي شهدوا بها على خُلَّص عباد الله، وافتراؤهم على الله الصمد المنزه من الاستيلاد ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿يُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: 19] يوم القيامة عن جميع ما أتوا من المعاصي، سيما عن هذه الشهادة والافتراء، ثم يجازون بمقتضاها.

﴿وَ﴾ بعدما سفَّه المسلمون أهل الشرك وعيروهم باتخاذ الملائكة والأوثان والأصنام، وجميع المعبودات الباطلة آلهة من دون الله، شركاء له في الألوهية، مع كونهم منحطين عن رتبة الألوهية والربوبية مطلقًا ﴿قَالُوا﴾ مستدلين على أخذهم

واتخاذهم: ﴿لَوْ شَاءَ﴾ وأراد ﴿الرَّحْمَنُ﴾ عدم أخذنا وعبادتنا إياهم ﴿مَا عَبَدْنَاهُم﴾ ألبتة، لكن أراد سبحانه عبادتنا فعبدناهم؛ إذ لا يبدل قوله سبحانه ولا يغير حكمه ومشيئته، إنما قالوا ما قالوا تهكمًا واستهزاءً، وعلى زعم المؤمنين، لا عن اعتقاد ويقين بمشيئة الله وتقديره، وعدم تغيير مراده سبحانه؛ لذلك جعلهم سبحانه بقوله: ﴿مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي: ما صدر عنهم هذا الاستدلال عن علم بمقدماته واعتقاد بنتيجته، بل ﴿إِنْ هُمْ﴾ أي: ما هم في قولهم هذا واستدلالهم ﴿إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الزخرف: 20] يتمحلون تمحلاً باطلاً، ويتزورون زورًا ظاهرًا.

﴿ أَمْ ءَاتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الزخرف: 21-25].

أهم يدعون دليلاً عقليًا سواه على مدعاهم ﴿أَمْ﴾ يدعون دليلاً نقليًا بأن ﴿آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ﴾ أي: من قبل القرآن، مشتملاً على اتخاذهم وادعائهم المذكور؟! ﴿فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ [الزخرف: 21] متمسكون به في دعواهم هذه.

﴿بَلْ﴾ ليس لهم لا هذا ولا ذاك سوى أنهم ﴿قَالُوا﴾ على وجه التقليد: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ﴾ طريقة معينة ﴿وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: 22] إلى ما اهتدوا تقليدًا لهم واقتفاء بأثرهم.

﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي: ومثل ما قال هؤلاء التائهون في تيه التقليد والضلال ﴿مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿فِي قَرْيَةٍ﴾ من القرى الهالكة ﴿مِّن نَّذِيرٍ﴾ من النذر الأولى ﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا﴾ ومتنعموها على سبيل البطر والمفاخرة: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ﴾ أي: طريقة معهودة معينة ﴿وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: 23] لا نترك ديدنة آبائنا، بما اخترعتموه من تلقاء أنفسكم أيها المدعون.

﴿قَالَ﴾ - المفسر بقراءة قال على قراءة الجميع غير حفص وابن عامر - يا أكمل الرسل بعدما سمعت منهم ما سمعت كلامًا خاليًا عن وصمة المراء والمجادلة، عاريًا

عن أمارات التقليد والتخمين: ﴿أَوَ لَوْ جِئْتُكُم﴾ يعني: أتقلدن، وتتبعون آباءكم أيها المقلدون المسرفون، ولو جئتكم ﴿بِأَهْدَى﴾ أي: بدين أهدى، وأنفع لكم في أولاكم وأخراكم ﴿مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ﴾ أي: من أديان آبائكم وتقليداتهم، فتتركون الهداية وتتبعون الضلال.

وبعدما سمع من هؤلاء المقلدون والمسرفون ما سمع أسلافهم من النذر الأولى من الهداية والرشاد ﴿قَالُوا﴾ مصرين على ما هم عليه: ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ﴾ أي: بجميع ما جئتم به أيها المدعون للرسالة ﴿كَافِرُونَ﴾ [الزخرف: 24] منكرون جاحدون، لا نقل من أمثال هذا، ولا نترك دين آبائنا ومتابعتهم بمجرد ما ابتدعتموه مراء، ونسبتموه إلى الله افتراء.

وبعدما أصروا على ضلالهم، وتقليداتهم الموروثة له من آبائهم، لم ينفعهم إرشاد الرسل وإهداؤهم ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ فأخذناهم صاغرين ﴿فَانظُرْ﴾ أيها المعتبر الناظر ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [الزخرف: 25] المصرين على التكذيب والعناد مع رسل الله، وذوي الخطر من خُلّص عباده.

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الزخرف: 26-32].

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل لمشركي مكة وقت ﴿إِذْ قَالَ﴾ جدك ﴿إِبْرَاهِيمُ﴾ الخليل صلوات الله عليه وسلامه ﴿لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ﴾ المغمورين في التقليدات الموروثة لهم من أسلافهم، بعدما انكشف بحقية الحق ووحدته، وبطلان الآلهة الباطلة التي أثبتوها شركاء الله ظلمًا وزورًا ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ [الزخرف: 26] أي: أنا بريئ من معبوداتكم التي أنتم تعبدونها من دون الله الواحد الأحد، المستحق للعبادة والإطاعة.

﴿إِلَّا الَّذِي﴾ أي: ما أعبد معبودًا سوى الذي ﴿فَطَرَنِي﴾ أي: أظهرني وأوجدني

بمقتضى حوله وقوته، ووفور علمه وحكمته ﴿فَإِنَّهُ﴾ سبحانه بمقتضى سعة رحمته وتوفيقه ﴿سَيَهْدِينِ﴾ [الزخرف: 27] ويثبتني على جادة الهداية بأزيد مما هداني إليه من إجراء كلمة التوحيد على لساني.

﴿وَجَعَلَهَا﴾ سبحانه كلمة التوحيد ﴿كَلِمَةً بَاقِيَةً﴾ مستمرة ﴿فِي عَقِبِهِ﴾ أي: أولاد إبراهيم وذرياته إلى يوم القيامة موروثة لهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: 28] إلى الله بكرامة هذه الكلمة، ويوحدونه حق توحيده؛ لذلك ما خلا زمان من الأزمنة من موحدي هذه الذرية، وممن يدعون منهم إلى الحق وطريق توحيده، وإن كان منهم أيضًا من يشرك بالله كمشركي قريش خذلهم الله.

كما قال سبحانه في شأنهم: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ﴾ المسرفين المعاندين معك يا أكمل الرسل ﴿وَ﴾ كذا متعت ﴿آبَاءَهُمْ﴾ كذلك بأنواع النعم وأصناف الكرم ﴿حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ﴾ أي: الطريق الموصل إلى التوحيد الذاتي ﴿وَرَسُولٌ﴾ مرشد كامل ﴿مُبِينٌ﴾ [الزخرف: 29] مظهر موضح لهم بطريق الهداية والرشاد.

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ﴾ الحقيق بالاتباع ﴿قَالُوا﴾ من فرط تعنتهم وعنادهم: ﴿هَذَا﴾ الذي جاء به هذا المدعي؛ يعني: محمدًا ﷺ ﴿سِحْرٌ﴾ وشعر اختلقه من تلقاء نفسه، ونسبه إلى ربه افتراء وتغريرًا ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿إِنَّا بِهِ﴾ وبدينه ﴿كَافِرُونَ﴾ [الزخرف: 30] منكرون جاحدون.

﴿وَقَالُوا﴾ من شدة شكيمتهم وغيظهم معك يا أكمل الرسل، ونهاية إنكارهم بكتابك: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ﴾ إن كان نزوله من عند الله حقيقة ﴿عَلَى رَجُلٍ﴾ ذي ثروة وجاه لائق بمرتبة النبوة والرسالة ﴿مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ﴾ أي: من إحدى القريتين؛ أي: مكة الطائف ﴿عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: 31][1] عند الناس بكثرة الأموال والأولاد والأتباع؛

---

(1) يقول تعالى ذكره: وقال هؤلاء المشركون بالله من قريش لما جاءهم القرآن من عند الله: هذا سحر، فإن كان حقا فهلا نزل على رجل عظيم من إحدى هاتين القريتين مكة أو الطائف، واختلف في الرجل الذي وصفوه بأنه عظيم، فقالوا: هلا نزل عليه هذا القرآن، فقال بعضهم: هلا نزل على الوليد بن المُغيرة المخزومي من أهل مكة، أو حبيب بن عمرو بن عمير الثقفي من أهل الطائف؟ ذكر من قال ذلك: عن ابن عباس، قوله: (لَوْلَا نزلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ) قال: يعني بالعظيم: الوليد بن المغيرة القرشي، أو حبيب بن عمرو بن عمير الثقفي، وبالقريتين: مكة والطائف، وقال آخرون: بل عُنِي به عُتْبةُ بن ربيعة من أهل مكة، وابن

ليكون له اليد والإستيلاء على سائر الناس.

إذ منصب النبوة منصب عظيم، يحتاج إلى ثروة ووجاهة ومكنة تامة ورئاسة ظاهرة، ولم يفهموا أن رتبة النبوة والولاية عبارة عن الغنى الذاتي المسقط لعموم الإضافات المنافية لصرافة الوحدة الذاتية، وهو لا يكون إلا بالتعري عن ملابس الأكوان ولوازم الإمكان، والتخلق بالأخلاق المرضية الإلهية.

﴿أَهُمْ﴾ بأخلاقهم السخيفة، وتدبيراتهم الركيكة ﴿يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ﴾ يا أكمل الرسل، ويضعون رتبة النبوة والرسالة إلى من يقتضيه أوهامهم وخيالاتهم الباطلة ونفوسهم الخبيثة، بل ﴿نَحْنُ﴾ بوفور حكمتنا ﴿قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ﴾ التي يحتاجون إليها ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ومع تدبيرنا إياهم مصالحَ معاشهم، لا يُحسنون تدبيرها فيما بينهم؛ ليصلح أمر ائتلافهم وتمدنهم فيها، فكيف يخوضون في مصالح العباد وتدبيراتها؟! ومن أين يتأتى لهم التفوه في الأوضاع الألوهية والتدابير الربوبية الناشئة

عبد ياليل، من أهل الطائف، ذكر من قال ذلك: عن مجاهد (عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ) قال عتبة بن ربيعة من أهل مكة، وابن عبد ياليل الثقفي من الطائف، وقال آخرون: بل عني به من أهل مكة: الوليد بن المُغيرة، ومن أهل الطائف: ابن مسعود ، ذكر من قال ذلك: عن قتادة، في قوله: (رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ) قال: الرجل: الوليد بن المغيرة، قال: لو كان ما يقول محمد حقا أنزل عليّ هذا، أو على ابن مسعود الثقفي، والقريتان: الطائف ومكة، وابن مسعود الثقفي من الطائف اسمه عروة بن مسعود، حدثنا بشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة، قوله: (لَوْلا نزلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ) والقريتان: مكة والطائف؛ قال: قد قال ذلك مشركو قريش، قال: بلغنا أنه ليس فخذ من قريش إلا قد ادّعته، وقالوا: هو منا، فكنا نحدّث أن الرجلين: الوليد بن المغيرة، وعروة الثقفي أبو مسعود، يقولون: هلا كان أنزل على أحد هذين الرجلين، حدثني يونس، قال: أخبرنا ابن وهب: قال ابن زيد، في قوله: (لَوْلا نزلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ) قال: كان أحد العظيمين عروة بن مسعود الثقفي، كان عظيم أهل الطائف، وقال آخرون: بل عني به من أهل مكة: الوليد بن المغيرة، ومن أهل الطائف: كنانة بن عَبد بنِ عمرو، ذكر من قال ذلك: عن السديّ (وَقَالُوا لَوْلا نزلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ) قال: الوليد بن المغيرة القرشي، وكنانة بن عبد بن عمرو بن عمير، عظيم أهل الطائف، وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال كما قال جلّ ثناؤه، مخبرا عن هؤلاء المشركين(وَقَالُوا لَوْلا نزلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ) إذ كان جائزًا أن يكون بعض هؤلاء، ولم يضع الله تبارك وتعالى لنا الدلالة على الذين عنوا منهم في كتابه، ولا على لسان رسوله ﷺ، والاختلاف فيه موجود على ما بيّنت. «تفسير الطبري» (21/592 - 594).

عن كمال العلم والحكمة والإرادة الكاملة والقدرة الشاملة؟!.

﴿وَ﴾ من غاية قصورهم عن تدبيرات معاشهم ﴿رَفَعْنَا﴾ بمقتضى حكمتنا وتربيتنا إياهم ﴿بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ بأن فضّلنا بعضهم على بعضٍ في الرزق الصوري وغيره؛ ليكون لهم الكبرياء والاستيلاء على البعض الآخر ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ أي: يستعمل البعض الأغنياء أُجراء من البعض الفقراء، فيأمروهم بما قصدوا من الحوائج؛ ليتم أمر النظام والتمدن والتضام ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿رَحْمَتُ رَبِّكَ﴾ يا أكمل الرسل، وهي رتبة النبوة والرسالة ﴿خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: 32] من حطام الدنيا ومزخرفاتها الفانية؛ لاشتمالها على ضبط الظواهر والبواطن المتعلقة بالنشأة الأولى والأخرى.

﴿ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الزخرف: 33-36].

ثم أشار سبحانه إلى دناءة زخارف الدنيا وأمتعتها، ورداءة ما فيها من اللذات الوهمية، وما يترتب عنها من الشهوات البهيمية، فقال: ﴿وَلَوْلَا﴾ مخافة ﴿أَن يَكُونَ النَّاسُ﴾ المجبولون على الكفران والنسيان ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ مائلة إلى الكفر، منحرفة عن الإيمان ﴿لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ﴾ أي: بسطنا على الكافرين من الزخارف الدنيوية إلى حيث يتخذون ﴿لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا﴾ مصنوعة متخذة ﴿مِّن فِضَّةٍ وَ﴾ كذا يعملون ﴿مَعَارِجَ﴾ ومراقي منها ﴿عَلَيْهَا﴾ أي: على سطوح بيوتهم ﴿يَظْهَرُونَ﴾ [الزخرف: 33] أي: يعلون ويصعدون بتلك المعارج المعمولة بالفضة عليها.

﴿وَ﴾ كذا يعملون ﴿لِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ﴾ [الزخرف: 34] ترفعًا وتنعمًا.

﴿وَ﴾ بالجملة: لوسعنا عليهم حطام الدنيا إلى حيث جعلنا لهم ﴿زُخْرُفًا﴾ وزينة من الذهب والفضة يتزينون بها، ويتلذذون بلذاتها الفانية وشهواتها الزائلة الزائفة، المبعدة عن اللذات الباقية الأخروية، لكن لو فعلنا كذلك لمالَ إليها المسلمون، وتحسروا بما نالوا، فضعف رأيهم في اتباع الدين القويم والصراط المستقيم.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿إِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: ما كل ذلك المذكور من المزخرفات الدنيوية إلا متاع الحياة الدنيا الفانية، لا قرار لها، ولا مدار لما فيها، ولما يترتب عليها من اللذات والشهوات ﴿وَ﴾ النشأة ﴿الْآخِرَةُ﴾ الباقية الدائمة لذاتها أزلاً وأبدًا ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ يا أكمل الرسل حاصلة ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: 35] الذين يحفظون نفوسهم عن التلطخ بقاذورات الدنيا، والركون إلى مزخرفاتها الفانية، سوى سد جوعة ولبس خرقة وكنٍّ[1] يدفعون بها ضرر الحر والبرد، ولا يميلون إلى ما سواها طلبًا لمرضاة الله وهربًا عن مساخطه.

﴿وَمَن يَعْشُ﴾ أي: يعرض وينصرف ﴿عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ﴾ أي: القرآن المبيّن له طريق الإيمان والعرفان؛ لفرط انهماكه باللذات والشهوات الفانية الدنيوية ﴿نُقَيِّضْ لَهُ﴾ ونسلط عليه ﴿شَيْطَانًا﴾ يضله ويغويه ويوسوس عليه، ويرديه، وبالجملة: ﴿فَهُوَ﴾ أي: الشيطان ﴿لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: 36] دائمًا، يزين عليه المعاصي والقبائح، ويغريه عليها، إلى أن يدخله في نار القطيعة والحرمان.

﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الزخرف: 37-42].

﴿وَإِنَّهُمْ﴾ أي: جنود الشياطين وأتباعهم ﴿لَيَصُدُّونَهُمْ﴾ أي: يذبُّونهم ويصرفونهم؛ أي: أتباعهم ﴿عَنِ السَّبِيلِ﴾ السوي، الموضوع بالوضع الإلهي، الموصل إلى توحيده ﴿وَيَحْسَبُونَ﴾ من فرط عمههم وسكرتهم ﴿أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: 37] لهداية قرنائهم من الشياطين، مع أنهم غاوون ضالون بإغوائهم وإضلالهم، ولم يعلموا إضلالهم.

---

(1) الكِنُّ بالكسر: وِقاءُ كلِّ شيءٍ وسِتْرُهُ، كالكِنَّةِ والكِنانِ - بكسرِهما - والبَيْتُ، ج: أكْنانٌ وأكِنَّةٌ. القاموس المحيط (361/3).

﴿حَتَّى إِذَا جَاءَنَا﴾ أي: الغاشي الأعمى، وعلم ضلاله عنَّا، وغوايته عن طريقنا ﴿قَالَ﴾ متحسرًا متأسفًا لقرينه المغوي: ﴿يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ﴾ أي: بُعد ما بين المشرق والمغرب ﴿فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾ [الزخرف: 38] أنت أيها المضل، أضللتني عن الطريق القويم وابتليتني بالعذاب الأليم.

﴿وَ﴾ قيل لهم حينئذٍ من قبل الحق: ﴿لَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ﴾ تمنيكم وأسفكم ﴿إِذ﴾ قد ﴿ظَّلَمْتُمْ﴾ أنفسكم في نشأة التدارك والتلافي، والآن قد انقرضت، بل ﴿أَنَّكُمْ﴾ وقرناءكم اليوم ﴿فِي الْعَذَابِ﴾ النازل عليكم ﴿مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزخرف: 39] كما إنكم كنتم مشتركون في الأسباب الجالبة له في النشأة الأولى.

ثم لما كان ﷺ يبالغ في إرشاد عشيرته ويُتعب نفسه في إهدائهم، رد الله سبحانه على وجه التعجب والتأديب ردعًا له عما كان عليه من المبالغة، فقال مستفهمًا: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ﴾ أي: أأنت تتخيل لنفسك أنك تقدر على إسماع من جُبِل على الصمم في أصل فطرته ﴿أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ﴾ المجبول على العمى في مبدأ خلقته ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَن كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الزخرف: 40] وغواية عظيمة جبلية، كيف تسعى لهدايته، وتبالغ في إرشاده وتكميله؛ إذ ليس في وسعك تغيير الخلقة، وإنما عليك الإنذار والتبليغ فقط، وإلى متى تتعب نفسك وتسعى؟!.

ثم سجل سبحانه على أخذ المشركين والانتقام عنهم بقوله: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾ أي: أن نتوفينك يا أكمل الرسل، ونخرجنك عن الدنيا قبل انتقامنا منهم، وأخذنا إياهم ﴿فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ [الزخرف: 41][1] البتة بعد مماتك ووفاتك.

---

(1) وقوله: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ اختلف أهل التأويل في المعنيين بهذا الوعيد، فقال بعضهم: عني به أهل الإسلام من أمة نبينا عليه الصلاة والسلام، ذكر من قال ذلك: حدثنا سوار بن عبد الله العنبري، قال: ثني أبي، عن أبي الأشهب، عن الحسن، في قوله:﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ قال: لقد كانت بعد نبي الله نقمة شديدة، فأكرم الله جلّ ثناؤه نبيه ﷺ أن يريه في أمته ما كان من النقمة بعده، حدثنا بشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة، قوله:﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ فذهب الله بنبيه ﷺ ولم ير في أمته إلا الذي تقرّ به عينه، وأبقى الله النقمة بعده، وليس من نبيّ إلا وقد رأى في أمته العقوبة، أو قال ما لا يشتهي. ذُكر لنا أن النبيّ ﷺ أري الذي لقيت أمته بعده، فما زال منقبضا ما انبسط ضاحكا حتى لقي الله تبارك وتعالى، حدثنا ابن عبد الأعلى، قال: ثنا ابن ثور، عن معمر، قال: تلا قتادة ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ فقال: ذهب النبيّ ﷺ وبقيت النقمة، ولم ير الله نبيه ﷺ في أمته شيئا

﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ﴾ العذاب الموعود ﴿الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ﴾ للإعراض عنك، وعن دينك وكتابك، وبالجملة: ﴿فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾ [الزخرف: 42] قادرون على وجوه الانتقام إياهم حال حياتك أو بعدها.

﴿ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٤٤﴾ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الزخرف: 43-48].

وبعدما أكد سبحانه إنجاز الوعد الموعود عليهم، وبالغ فيه، أمر حبيبه ﷺ بالتمكن والتثبت على مقتضى الوحي المنزَّل من عنده، فقال: ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾ من القواعد الشرعية الموضوعة بالوضع الإلهي، واعتمد عليه، ولا تلتفت إليهم، ولا تبالِ بإعراضهم ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الزخرف: 43] موصل إلى توحيد ربك.

﴿وَإِنَّهُ﴾ أي: القرآن ﴿لَذِكْرٌ﴾ أي: عظة وتذكير ﴿لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ فعليكم أن تتعظوا به، وبما فيه من الحِكم والأحكام، والعبر والرموز والإشارات ﴿وَسَوْفَ

يكرهه حتى مضى، ولم يكن نبيّ قطّ إلا رأى العقوبة في أمته، إلا نبيكم ﷺ قال: وذُكر لنا أن النبي ﷺ أري ما يصيب أمته بعده، فما رئي ضاحكا منبسطا حتى قبضه الله، وقال آخرون: بل عنى به أهل الشرك من قريش، وقالوا: قد أري الله نبيه عليه الصلاة والسلام فيهم، ذكر من قال ذلك: حدثنا محمد، قال: ثنا أحمد، قال: ثنا أسباط، عن السديّ، في قوله:﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ كما انتقمنا من الأمم الماضية ﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ﴾ فقد أراه الله ذلك وأظهره عليه، وهذا القول الثاني أولى التأويلين في ذلك بالصواب وذلك أن ذلك في سياق خبر الله عن المشركين فلأن يكون ذلك تهديدا لهم أولى من أن يكون وعيدا لمن لم يجر له ذكر. فمعنى الكلام إذ كان ذلك كذلك: فإن نذهب بك يا محمد من بين أظهر هؤلاء المشركين، فنخرجك من بينهم ﴿فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ كما فعلنا ذلك بغيرهم من الأمم المكذّبة رسلها ﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ﴾ يا محمد من الظفر بهم، وإعلائك عليهم ﴿فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾ أن نظهرك عليهم، ونخزيهم بيدك وأيدي المؤمنين بك. «تفسير الطبري» (21/ 608، 609).

تَسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: 44] عن قيامكم بها وامتثالكم بما فيها.

وإن عاند المشركين معك، واستهزءوا بك وبكتابك، ونسبوا دينك إلى البدعة والاختلاق، فـ ﴿لاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: 127] وينسبونك إليه، ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا﴾ أي: أحبار قومهم وعلماء دينهم، وفتش أحوالهم عن آثارهم وأخبارهم وكتبهم الباقية بعدهم ﴿أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ﴾ المنزه في ذاته عن الشركة والتعدد مطلقًا ﴿آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: 45] أي: هل حكمنا لهم، وأمرناهم باتخاذ آلهة سوى الحق، يُعبد لهم كعبادة الله، بل ما اتخذوا آلهتهم إلا بمقتضى آرائهم الباطلة وأهويتهم الفاسدة، وما عبدوا لهم إلا ظلمًا وزورًا.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ أخاك ﴿مُوسَى بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على توحيدنا ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ﴾ الطاغي المستعلي على من في الأرض ﴿وَمَلَئِهِ﴾ المعاونين له في طغيانه ﴿فَقَالَ﴾ لهم بإذن منّا وبمقتضى وحينا: ﴿إِنِّي رَسُولُ رَبِّ العَالَمِينَ﴾ [الزخرف: 46] أرسلني إليكم لأرشدكم إلى طريق توحيدي، وأوضح لكم سبيل المعاد.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُم﴾ مؤيدًا ﴿بِآيَاتِنَا﴾ أي: بالخوارق والمعجزات الدالة على صدقه ﴿إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ [الزخرف: 47] أي: فاجؤوا على الضحك والاستهزاء أول رؤيتهم بها بلا تأمل وتدبر فيها.

﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿مَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ﴾ من الآيات ﴿إِلَّا هِيَ﴾ أي: الآية المرئية في الحال ﴿أَكْبَرُ﴾ وأظهر دلالة على كمال قدرتنا وصدق نبينا ﴿مِنْ أُخْتِهَا﴾ أي: من الآية السابقة عليها، ومع ذلك أنكروا عليها واستهزءوا ﴿وَ﴾ بعدما بالغوا في العتو والعناد ﴿أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ﴾ العاجل من القحط والطاعون وغيرها ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: 48] رجاء أن يرجعوا عن إنكارهم وإصرارهم عليه.

﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ

﴿٥٣﴾ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الزخرف: 49-56].

﴿وَ﴾ مع ذلك لم يرجعوا بل ﴿قَالُوا﴾ عند نزول البلاء وهجوم العناء مسترجعين نحوه، منهمكين معه: ﴿يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ﴾ الماهر في السحر ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ الذي زعمت ألا منزل للمصيبة سواه، ولا كاشف أيضًا إلا هو ﴿بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ﴾ أي: بمقتضى ما وعد لك وعهد معك ألا يعذب من آمن بك وصدقك، فإن انكشف الضر عنّا بدعائك ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: 49] بهدايتك مؤمنون لك، مصدقون بنبوتك ورسالتك، وبجميع ما دعوتنا إليه.

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ﴾ بعد دعاء الأنبياء والرسل وتضرعهم نحونا، راجين منّا العفو والتجاوز ﴿إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ [الزخرف: 50] أي: فاجؤوا على نقض ما عهدوا، مبادرين على الإنكار والعناد بلا تراخ وتأخير.

﴿وَ﴾ من كمال عتو فرعون ونهاية عناده واستكباره ﴿نَادَى فِرْعَوْنُ﴾ بنفسه يومًا من الأيام حين كان ﴿فِي﴾ مجمع ﴿قَوْمِهِ﴾ مباهيًا بما عنده من الجاه وسعة المملكة؛ حيث ﴿قَالَ يَا قَوْمِ﴾ ناداهم؛ ليسمعوا منه ويصغوا إليه سمع قبول ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ﴾ مع كمال وسعته وكثرة مملكته ﴿وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ﴾ الثلاثة المنشعبة من النيل؛ هي نهر طولون، ونهر دمياط، ونهر نفيس ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾ أي: تحت تصرفي وملكي ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الزخرف: 51] أيها المجبولون على البصارة.

﴿أَمْ أَنَا﴾ أي: بل أنا ﴿خَيْرٌ مِّنْ هَذَا﴾ الساحر المدعي ﴿الَّذِي هُوَ مَهِينٌ﴾ رذيل مهان، لا عزة له ولا مقدار ﴿وَ﴾ مع رذالته وسفالته ﴿لَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: 52] يظهر ويعرب كلامه للكنة في لسانه.

﴿فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ﴾ أي: فلو كان مؤيدًا من عند الله، ومكرمًا لديه كما زعم، هلا ألقي عليه أسورة ﴿مِّن ذَهَبٍ﴾ تدل على عزته وكرامته عنده وسيادته عند الناس؛ إذ العادة حينئذ أن أهل الرئاسة والسيادة يُسورون ويطوقون بأسورة من ذهب ﴿أَوْ﴾ هلا ﴿جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ من عند ربه ﴿مُقْتَرِنِينَ﴾ [الزخرف: 53] معه مجتمعين، يعينونه فيما يعنيه.

وبالجملة: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ﴾ وسفَّههم وضعَّف أحلامهم بامتثال هذه الهذيانات الباطلة ﴿فَأَطَاعُوهُ﴾ وقَبِلوا منه جميع ما قال عتوًا وعنادًا ﴿إِنَّهُمْ﴾ في أنفسهم ﴿كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [الزخرف: 54] [1] خارجين عن مقتضى العدالة الإلهية، لذلك انحرفوا عن سواء السبيل واتبعوا ذلك الفاسق الطاغي.

﴿فَلَمَّا آسَفُونَا﴾ وحملونا على القهر والغضب، وحركوا حمية الغيرة الإلهية بامتثال هذه الجرائم الفاحشة ﴿انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ بمقتضى قهرنا وجلالنا ﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الزخرف: 55] في اليم، ومحونا رسومهم عن وجه الأرض.

﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا﴾ قدوة وأسلافًا قديمة ﴿وَ﴾ صاروا ﴿مَثَلاً لِلآخِرِينَ﴾ [الزخرف: 56] من أخلافهم، يمثلون بهم، وبوقائعهم يتعظون.

﴿۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾﴾ [الزخرف: 57-62].

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً﴾ يعني: لما ضرب بن الزبعرى مثلاً بعيسى عليه السلام

---

(1) فيه إشارتان: الأولى: إن القلب إذا كان خفيفًا، فالقوي أيضًا كذلك؛ لأنها تابعة له كما أن الرعايا تابعة للسلطان، كما قيل: الناس على دين ملوكهم، وثقله، ومتانته، إنما هو من خوف الله تعالى، فإن الخائف من الله لا يميل إلى المنكرات؛ بل يثبت عندما عُيّن له من الشرائع، ويقدر الخوف والعمل بمقتضاه، يُعرف مقادير الناس، ومراتبهم في التقوى. والثانية: إن الملوك لا بد لهم من الرزانة، والوقار، والحياء في الصورة بلا تقليد، وتلوين، ورياء، فإن ذلك مما يدلُّ على ما في قلوبهم من المعاني والحقائق، وقد طلب بعض الأولياء من الله تعالى أن يلقي في قلوب الناس هيبته في حقه؛ لكون ذلك أقرب لقبول ما عنده من الحق؛ فكأنه طلب أن يُلقي ذلك في قلبه، فإنه إذا كانت حقائق الصفات والأحوال في باطن الإنسان؛ فظاهره يكون أهول وأهيب. ولذا ترى ملوك الزمان وأمراءه يتكلّفون في الأوضاع، ويرون من أنفسهم ما ليس في قلوبهم، ومن ثم لا يعدُّهم الناس في جملة المراجيح الرزان؛ بل يسخرون بهم في خلواتهم، والمتحققون المتشيّخون، فما اشترى العارفون ذلك منهم بفلس؛ لفرقهم بين الجيد والردىء، والطيب والخبيث.

حين نزلت آية كريمة: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: 98] حيث قال مجادلاً مع رسول الله ﷺ: إنك تزعم أن النصارى من أهل الكتاب، وأنهم يعبدون عيسى، ويعتقدونه ابن الله، والملائكة أولى بالمعبودية من عيسى، فسكت رسول الله ﷺ.

والقوم لما سمعوا مجادلته، ورأوا سكوت الرسول ﷺ من كلامه فهموا منه إلزام الرسول وإفحامه، فأوجسوا في نفوسهم إعراضًا، كما حكى عنهم سبحانه بقوله: ﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ﴾ أي: من كلام ابن الزبعرى ﴿يَصِدُّونَ﴾ [الزخرف: 57] ويعرضون عنك فرحًا بأنك قد ألزمت من كلامه.

﴿وَ﴾ بعدما أعرضوا واعتقدوا إلزامك من ذلك الطاغي ﴿قَالُوا﴾ أي: بعضهم لبعض: ﴿ءَآلِهَتُنَا﴾ التي كنا نعبد نحن وأسلافنا أيضًا إياهم ﴿خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ يعنون: إن محمدًا الذي ادعى الرسالة من عنده، وإنما قالوا ما قالوا له تهكمًا واستهزاءً، كما قال سبحانه: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ﴾ مثلاً ﴿إِلَّا جَدَلًا﴾ مجادلة ومراء ﴿بَلْ هُمْ﴾ في أنفسهم ﴿قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: 58] مجادلون مكابرون في الخصومة، وإجراء الباطل مجرى الحق وترويجه جدلاً ومغالطة.

بل ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي: ما عيسى ﴿إِلَّا عَبْدٌ﴾ من جملة عبادنا ﴿أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ بمقتضى فضلنا وجودنا، وأظهرنا على يده من المعجزات الباهرة والخوارق الظاهرة الدالة على كمال قدرتنا ﴿وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا﴾ عجيبًا وشأنًا بديعًا ﴿لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الزخرف: 59] يسري بينهم أمر وجوده بلا أب وظهور الخوارق العجيبة عنه، سيما في حال صباه وإرهاصات أمه كالمثل السائر، كل ذلك من كمال قدرتنا وعلمنا، ومتانة حكمتنا.

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم﴾ أيضًا وأنشأنا بدلكم ﴿مَّلَائِكَةً﴾ يسكنون ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ مكلفين بالعبادة والعرفان أمثالكم، وإذا انقرضت طائفة منهم ﴿يَخْلُفُونَ﴾ [الزخرف: 60][1] أمثالهم أمثالكم إلى ما شاء الله.

---

(1) قوله:(وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ) يقول تعالى ذكره: ولو نشاء معشر بني آدم أهلكناكم، فأفنينا جميعكم، وجعلنا بدلا منكم في الأرض ملائكة يخلفونكم فيها يعبدونني وذلك نحو قوله تعالى ذكره: (إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا) وكما قال:(إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ) وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل، غير أن منهم من قال: معناه: يخلف بعضهم بعضا، ذكر من قال ذلك: عن ابن

يعني: لا تتعجبوا من شأن عيسى وظهوره على الوجه الأبدع الأغرب، بل تأملوا وتدبروا في كمال قدرة المبدع وفور حكمته وجوده؛ إذ هو سبحانه قادر على إظهار أمور عجيبة وشئون بديعة، لا تُعد ولا تُحصى، ومن جملتها: ظهور عيسى وما صدر منه من الخوارق، بل كل من وصل بعالم القلب، وحصل دور الكشف والشهود اليقيني الحقي، مترقبًا من المشاهدات العادية والمحسوسات الألفية ظهر له ولاح عنده أن كل ما لمع عليه برق الوجود وتشعشع منه بمقتضى الجود، إنما هو على وجهٍ غريبٍ وشأنٍ عجيبٍ.

ثم قال سبحانه: ﴿وَإِنَّهُ﴾ أي: شأن الظهورات المنبهة عليها والتطورات المشارة بها ﴿لَعِلْمٌ﴾ دليل لائح وبرهان واضح ﴿لِّلسَّاعَةِ﴾ الموعودة المعهودة ﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ وبقيامها ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿اتَّبِعُونِ﴾ في جميع ما أنزلت لكم في كتبي وعلى ألسنة رسلي، وأطيعوا أمري وأمرهم ﴿هَٰذَا﴾ الذي أشرناكم إليه ﴿صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [الزخرف: 61] فاسلكوا فيه؛ لعلكم تهتدون على توحيدي وتفوزون بالفوز العظيم.

﴿وَ﴾ عليكم محافظة الحدود الشرعية والمعالم الدينية حتى ﴿لَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ أي: لا يعرضنكم عنها، ولا يوقعنكم في فتنةٍ عظيمةٍ وبليةٍ شديدةٍ ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الزخرف: 62] ظاهر العداوة شديد الخصومة، يضلكم عن جادة التوحيد، ويوقعكم في العذاب الشديد، أعاذنا الله وعموم عباده من فتنته.

﴿ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (٦٣) إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٦٤) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٦٥) هَلْ

عباس، قوله:(وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ) يقول: يخلف بعضهم بعضًا، وعن مجاهد، قوله: (لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ) قال: يعمرون الأرض بدلا منكم، عن قتادة، في قوله: (مَّلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ) قال: يخلف بعضهم بعضًا، مكان بني آدم، عن قتادة (وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ) لو شاء الله لجعل في الأرض ملائكة يخلف بعضهم بعضًا، عن السدي (وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ) قال: خلفا منكم. «تفسير الطبري» (630/21).

﴿يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ۝٦٦ ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ۝٦٧﴾ [الزخرف: 63-67].

﴿وَ﴾ كيف لا يكون عيسى عبدًا من عبادنا، اذكر لهم يا أكمل الرسل ﴿لَمَّا جَاءَ عِيسَى﴾ إلى بني إسرائيل من عندنا مؤيدًا ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الباهرة التي ما ظهر مثلها من نبي من الأنبياء ﴿قَالَ﴾ مظهرًا لهم الدعوة إلى طريق الحق وتوحيده: ﴿قَدْ جِئْتُكُم﴾ من عند ربي ﴿بِالْحِكْمَةِ﴾ البالغة ﴿وَ﴾ إنما جئتكم ﴿لأُبَيِّنَ﴾ أوضح وأظهر ﴿لَكُم﴾ طريق العبودية والعرفان سيما ﴿بَعْضَ الَّذِي﴾ أي: بعض المعالم الدينية التي ﴿تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ وفي نزوله في كتب الله، وعدم نزوله فيها ﴿فَاتَّقُوا اللهَ﴾ أولاً حق تقاته ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ [الزخرف: 63] فيما جئت لكم من عنده.

﴿إِنَّ اللهَ﴾ المتوحد المتفرد بالألوهية والربوبية ﴿هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ دبر أمري وأمركم، وبينه في كتابه ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ بمقتضى وحيه وإنزاله، واعلموا أن ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [الزخرف: 64] موصل إلى توحيده الذي جبلتم لأجله، إن كنتم مؤمنين موقنين.

وبعدما تم أمر الدعوة والتبليغ ﴿فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ﴾ وتفرقوا تفرقًا ناشئًا ﴿مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ أي: من بين قومه المبعوث إليهم، بعدما دعاهم إلى طريق الحق وتوحيده، وهداهم إلى صراط مستقيم ﴿فَوَيْلٌ﴾ عظيم وعقاب شديد يتوقع ﴿لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ خرجوا عن مقتضى العبودية المأمورة لهم بالوحي الإلهي ﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [الزخرف: 65] مؤلم في غاية الإيلام.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ أي: ما ينظرون وينتظرون ﴿إِلَّا السَّاعَةَ﴾ الموعودة قيامها ﴿أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ فجأة بلا سبق مقدمة وأمارات ﴿وَهُمْ﴾ من غاية اشتغالهم بالملاهي الدنيوية ﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الزخرف: 66] إتيانها إلا وقت وقوعهم في أهوالها.

﴿الأَخِلَّاءُ﴾ والأحباء ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ من شدة الهول والفزع ﴿بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ إذ يتذكرون حينئذ ما جرى بينهم من المعاونة والمشاركة في الإعراض عن الله وكتبه ورسله، وعدم الانقياد والإطاعة للدين القويم ﴿إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: 67][1] أي:

---

(1) القول في تأويل قوله تعالى: ﴿الأَخِلاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إلا الْمُتَّقِينَ * يَا عِبَادِ لا خَوْفٌ

الأحباء الذين تحابوا في الله، وتشاركوا في طريق توحيده.

﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [الزخرف: 68-73].

ثم التفت يومئذ سبحانه إلى خُلّص عباده الذين اتقوا عن محارمه، طلبًا لمرضاته، مناديًا لهم على رءوس الأشهاد: ﴿يَا عِبَادِ﴾ ناداهم وأضافهم إلى نفسه اختصاصًا لهم وتكريمًا: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ لخوفكم عن مقتضى قهرنا وجلالنا في النشأة الأولى ﴿وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الزخرف: 68] اليوم؛ لتصبركم على الشدائد ومقاساة الأحزان في طريق الإيمان في دار الابتلاء.

وهؤلاء البررة المبشرون هم ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا﴾ المنزلة على رسلنا، وامتثلوا

عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ يقول تعالى ذكره: المتخالون يوم القيامة على معاصي الله في الدنيا، بعضهم لبعض عدوّ، يتبرأ بعضهم من بعض، إلا الذين كانوا تخالّوا فيها على تقوى الله، وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل ذكر من قال ذلك: عن مجاهد، في قوله: ﴿الأَخِلاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلا الْمُتَّقِينَ﴾ فكلّ خُلّةٍ على معصية الله في الدنيا متعادون، عن ابن عباس، قوله: ﴿الأَخِلاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلا الْمُتَّقِينَ﴾ فكلّ خُلّةٍ هي عداوة إلا خلة المتقين، حدثنا ابن عبد الأعلى، قال: ثنا ابن ثور، عن معمر، عن أبي إسحاق، أن عليًا ﷺ قال: خليلان مؤمنان، وخليلان كافران، فمات أحد المؤمنين فقال: يا ربّ إن فلانا كان يأمرني بطاعتك وطاعة رسولك، ويأمرني بالخير، وينهاني عن الشرّ ويخبرني أني ملاقيك يا ربّ فلا تضله بعدي واهده كما هديتني وأكرمه كما أكرمتني، فإذا مات خليله المؤمن جمع بينهما فيقول: ليثن أحدكما على صاحبه فيقول: يا ربّ إنه كان يأمرني بطاعتك وطاعة رسولك، ويأمرني بالخير، وينهاني عن الشرّ، ويخبرني أني ملاقيك، فيقول: نعم الخليل، ونعم الأخ، ونعم الصاحب؛ قال: ويموت أحد الكافرين فيقول: يا ربّ إن فلانا كان ينهاني عن طاعتك وطاعة رسولك، ويأمرني بالشرّ، وينهاني عن الخير، ويخبرني أني غير ملاقيك، فيقول: بئس الأخ، وبئس الخليل، وبئس الصاحب. «تفسير الطبري» (21/637 - 638).

بمقتضاها ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ [الزخرف: 69] منقادين مطيعين، مفوضين أمورهم كلها إلى الله، راضين بجميع ما قضى عليهم، وكتب لهم من المنح والمحن.

لذلك نودوا حينئذ من قبل الحق على سبيل البشارة والكرامة: ﴿ادْخُلُوا الجَنَّةَ﴾ المعدة لخُلَّص أوليائنا الذين اتخذونا وكيلاً ﴿أَنتُمْ﴾ أصالة ﴿وَأَزْوَاجُكُمْ﴾ أي: نساؤكم المؤمنات المتوكلات الراضيات من الله بما قسم لهن المجتنبات عن محارم الله حال كونكم ﴿تُحْبَرُونَ﴾ [الزخرف: 70] تبهجون وتسرون فيها على وجه يظهر أثر البهجة والمسرة في وجوهكم، ويلوح من سيماكم.

وبعدما تقرروا في مقام العز والتكريم، وتمكنوا في مكمن التمجيد والتعظيم: ﴿يُطَافُ عَلَيهِم﴾ أي: يطوف حولهم خدمة الجنة ﴿بِصِحَافٍ﴾ جمع: صحفةٍ، وهي القطعة الكبيرة المتخذة ﴿مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾ جمع: كوب، وهي الكوز التي لا عرى لها أيضًا متخذة منها ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿فِيهَا﴾ أي: في الجنة ﴿مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ﴾ من اللذات والشهوات المدركة بآلاتها ﴿وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ﴾ أي: من المحسوسات التي استحسنتها العيون واستلذذن بها، ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿أَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الزخرف: 71] دائمون لا تتحولون منها أبد الآبدين.

﴿وَتِلْكَ الجَنَّةُ الَّتِي﴾ تفوزون بها ﴿أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزخرف: 72] من الأعمال المصورة بها، المنتجة لها، المأمورة لأجلها.

وبالجملة: ﴿لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ﴾ من المستلذات الروحانية والجسمانية ﴿مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [الزخرف: 73] ومنها تتفكهون جزاءً بما كنتم تعملون.

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الزخرف: 74-80].

ثم قال سبحانه على مقتضى سنته السنية المستمرة: ﴿إِنَّ المُجْرِمِينَ﴾ المنهمكين في بحر الجرائم والمعاصي ﴿فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ [الزخرف: 74] على عكس خلود أصحاب الجنة في الجنة.

بحيث ﴿لَا يُفَتَّرُ﴾ ولا يخفف ﴿عَنْهُمْ﴾ من عذابها ﴿وَهُمْ فِيهِ﴾ أي: في العذاب الدائم ﴿مُبْلِسُونَ﴾ [الزخرف: 75] آيسون من الخلاص والنجاة.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ بإنزال العذاب عليهم ﴿وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ [الزخرف: 76] المقصورين على الخروج والعدوان على مقتضى الحدود الموضوعة فيهم؛ لحفظهم عن مثال هذا العذاب والنكال.

﴿وَ﴾ من شدة العذاب عليهم وقلة التصبر وفرط الفزع والجزع ﴿نَادَوْا﴾ صائحين صارخين: ﴿يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ أي: سل ربك أن يقضي علينا بالمقت والهلاك؛ إذ لا طاقة لنا اليوم بالعذاب وهوله وشدته، ثم لما بثوا شكواهم مرارًا، وصاحوا فجعين فزعين تكرارًا ﴿قَالَ﴾ القائل في جوابهم من قبل الحق على سبيل الاستبعاد والتأبيد: هيهات هيهات ﴿إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾ [الزخرف: 77] لا نجاة لكم عنها، لا بالموت ولا بالخلاص والتخفيف، بل كلما نضجت جلودكم بدلنا لكم جلودًا غيرها، وعذبناكم أشد العذاب.

وكيف لا نعذبكم أيها الجاهلون المسرفون ﴿لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ﴾ أي: بالطريق الحق الثابت الحقيق بالإطاعة والاتباع فانصرفتم عنه، وأنكرتم عليه ولم تلتفتوا إليه، بل ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ﴾ بعدما تفطنوا ﴿لِلْحَقِّ﴾ وحقيته ﴿كَارِهُونَ﴾ [الزخرف: 78] لقبوله والامتثال بمقتضاه.

وهم مع كمال كراهتهم للحق وذبهم عنه لا يقتصرون عليها ﴿أَمْ أَبْرَمُوا﴾ أي: بل حكموا وقطعوا ﴿أَمْرًا﴾ حكمًا مبرمًا، مكرًا وخديعة لرد الحق وتكذيب أهله ﴿فَإِنَّا﴾ بمقتضى قهرنا وجلالنا ﴿مُبْرِمُونَ﴾ [الزخرف: 79] حاكمون حكمًا قطعيًا بإنزال العذاب المخلد عليهم جزاءً لمكرهم وخداعهم.

أيشكون ويترددون أنّا لا نقدر على انتقامنا وأخذهم ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ﴾ نعلم وندرك ﴿سِرَّهُمْ﴾ الذي يخفونه في ضمائرهم ﴿وَنَجْوَاهُم﴾ الذي يتناجون به في هواجس نفوسهم ﴿بَلَى﴾ إنّا عالمون بجميع ما يجري في أسرارهم وضمائرهم، مطلعون بعموم ما صدر من استعدادتهم وقابلياتهم ﴿وَ﴾ مع إحاطة علمنا بهم ولأحوالهم ﴿رُسُلُنَا لَدَيْهِمْ حفظتنا عندهم يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: 80][1] جميع ما صدر

(1) وصف الله سبحانه نفسه وإحاطته ببطون المغيبات وحقائق المضمرات بالعلم القديم، وسماعه

عنهم، نقيره وقطميره، حتى نحاسبهم عليه، ونجازيهم بمقتضاه.

﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾﴾ [الزخرف: 81-84].

ثم لما شاع قول اليهود والنصارى بولدية عزير وعيسى، ومال إليه أولو الأحلام الضعيفة منهم ومن غيرهم، ردَّ الله عليهم على أبلغ وجهٍ وآكده، بأن أمرَّ حبيبه ﷺ بالقول على سبيل الفرض والتقدير: ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل بعدما بالغوا في هذه الفرية البعيدة عن الحق بمراحل مستحيلة في نفسها: ﴿إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ﴾ أي: إن صح وجاز أن يكون له ولد متصف ببنوته ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ [الزخرف: 81][1]

حركات صميم أسرار الخلق بسمعه القديم المنزه عن الإصغاء، وكيف يخفى عليه ما أبدع وأوجد في بطون القلوب والغيوب! بل له كرامٌ كحَّل عيونهم بنور نوره، حتى يروا حقائق الأمور الغيبية كما قال ﷺ: «اتقوا فِراسةَ المؤمنِ؛ فإنَّه ينظرُ بنورِ الله» والملائكة يسمعون من الحق بالإلهام بعد ما وقع الغيب لله الخاص له. والعارف الصادق له درجتان في ذلك: درجة الملائكة التي هي الإلهام، ولهم خاصية الرؤية والفراسة بنور الله، وهو أن يكون متصفًا بعلمه وصفاته، وهذه الآية وعيدٌ وتحذيرٌ لمن كان له قلبٌ يخطر عليه شيءٌ غير ذكر الله، قال يحيى بن معاذ: من ستر من الناس ذنوبه وأبداها للذي لا يخفى عليه شيءٌ من السماوات والأرض فقد جعل ربه أهون الناظرين إليه، وهو من علامات النفاق.

(1) قال البيطار: أي للرحمن المتجلي في صورة البشر الذي يتولد منه الأنثى والذكر، ويجوز أن يرجع قوله: ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ [الزخرف:81]، لولد الرحمن؛ لأن الرحمن عين صورة الإنسان كما ورد الحديث: «إن الله خلق آدم على صورة الرحمن» ألا ترى قوله تعالى في حق آدم: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر:29]، وروحه عينه، إذ الولد سر أبيه، فآدم سر الرحمن وسره عينه، ففي هذا الولد سر الواحد الأحد، فإن قلت: قال الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة:17]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة:30]، مع قوله تعالى: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [المائدة:17]. فأقول: إن القرآن العظيم المنزَّل على محمد ﷺ نزل من حقيقة الأحدية الجامعة لأسماء التنزيه وأسماء التشبيه،

فهو الجامع لكل شرع في الوجود، وسواء كان أولًا وآخرًا وظاهرًا وباطنًا، والمنزَّل عليه هذا القرآن هو حقيقة الوجود، فله شرع عام وله شرع خاص، فمن شرعه العام اندرجت كل أمة في شرعه، ومن شرعه الخاص خصَّ أمته التي بعد ظهور جسمه الطاهر بخصوصيات، فآية تأتي بشرعه العام وآية تأتي بشرعه الخاص، فكان ما يجوز في حق هذا يحرم في حق هذا. ألا ترى أنه أقرّ أهل الذمة على ما هم عليه وقَبِل منهم الجزية، فالتوراة شرعة في حق اليهود وهي مندرجة في القرآن، والإنجيل شرعة في حق النصارى، وهو مندرج في القرآن، وأما نحن معشر الأمة القرآنيين فآتينا من كتاب الله، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران:85]. ألا ترى أنه قبل الرهبانية من أهلها، ولم يقبلها منَّا، فقبولها لأهلها في القرآن من قوله: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ [الحديد:27]، فلما أوجبوها على أنفسهم كتبها عليهم ابتغاء رضوان الله، فكانت في حقهم قربة إلى الله، لا في حقنا للحديث الشريف: «لا رهبانية في الإسلام». فهذا مما يدلك على أن كل أمة وشرعها اندرجت باطنًا في أمة محمد ﷺ وشرعه، فهو ﷺ كما أنه هيولي العالم، هو الهيولي في باطن الأمر لكل دين إلهي وحكمي من الاستحسانات التي رتبها العقلاء بمقتضى دور الزمان؛ لأنه مظهر اسم الله الديَّان على الكمال، فالأديان في حق أربابها من باطن التنزلات المحمدية، ولذا قال: «آدم فمن دونه تحت لوائي، وليس دون آدم إلا جميع من سواه من ذريته، أي: آدم وغيره من ذريته تحت لوائي، فلو لم يكن آدم وذريته منتسبين إليه لما كانوا تحت لوائه، فافهم، فاتسعت الدائرة المحمدية لقبول جميع الدوائر، ومن هذا المعنى بدت تسوية الحرية التي ظهرت في زماننا، وهي السنة السادسة والعشرون بعد الألف والثلاثمائة من الهجرة المحمدية من تجلي الاسم الرحمن المذكور في هذا الوارد وإنما قلنا من تجلي الاسم الرحمن ؛ لأن الاسم الرحمنَ هو الذي كشف هذه التسوية قال الله تعالى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك:3]. ومن النكت البديعة: أننا جمعنا لفظة «عابدين» بإسقاط (أل) التعريفية من قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ [الزخرف:81]، ولكن حسبنا النون وحدها بخمسة بطريق الجمل الصغير، وضممنا عددها الموافق في العدد الاسم محمد ﷺ وهو اثنا وتسعون لعدد قوله تعالى: ﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ [آل عمران:160]، وهو ألف ومائتان وأربع وثلاثون، فبلغ الجميع عدد سنتنا، التي هي سنة ظهور جمعية الاتحاد، وذلك ألف وثلاثمائة وستة وعشرون، فعلمنا أن هذه الجمعية - الذين هم رجال دولة مولانا السلطان عبد الحميد خان نصره الله - مظهر نصر الله والفتح، مؤيدون بالإمداد المحمدي، فلا غالب لهم؛ لأنهم عابدون لله متناصرون على الحق، ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [آل عمران:13]. ومما يقوي هذا الاستخراج أننا حسبنا اسم محمد ﷺ بالجمل الصغير، فبلغ عشرين، وحسبنا عدد جمعية بالوقف على الهاء بالجمل الصغير، فبلغ عشرين وحسبنا عدد سنانيك بالجمل الصغير فبلغ عشرين، فهذه الموافقة تقوي نسبة هذه الجمعية إلى محمد ﷺ . واعلم - رحمك الله - أنك إذا وقفت على قوله

لابنه؛ إذ أنا أعلم الناس بلوازم الألوهية وأحفظهم بحقوق الربوبية، إن كان له سبحانه ولد أنا أحق بعبوديته وتعظيمه من جميع بريته.

﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبِّ العَرْشِ﴾ أي: تنزه وتعالى شأن من هو مربي العلويات والسفليات، المنبسط بالإحاطة التامة والاستيلاء الكامل الشامل على عموم عروش المظاهر بالاستقلال والانفراد ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الزخرف: 82] أولئك الواصفون من نسبة الولد والمولود له، تعالى شأنه عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا.

وبعدما انكشفت يا أكمل الرسل بحقية الحق ووحدته وحميديته: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا﴾ في أباطيلهم ويستغرقوا في ضلالهم وغفلاتهم ﴿وَيَلْعَبُوا﴾ بمقتضيات أوهامهم وخيالاتهم ﴿حَتَّى يُلاقُوا﴾ يلحقوا ﴿يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعدُونَ﴾ [الزخرف: 83] بملاقات ولحوق ما فيه من أنواع العقوبات والنكبات.

﴿وَ﴾ كيف يتخذون له سبحانه ولدًا وينسبون له شريكًا، مع أنه سبحانه ﴿هُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ﴾ أي: عالم الأسماء والصفات ﴿إِلَهٌ﴾ يُعبد له ويُرجع إليه مع صرافة وحدته الذاتية ﴿وَفِي الأَرْضِ﴾ أي: عالم الطبيعة والهيولي ﴿إِلَهٌ﴾ كذلك بلا تعدد وتغير في ذاته ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿هُوَ الحَكِيمُ﴾ المقصور على الحكمة المتقنة البالغة لا حاكم سواه ﴿العَلِيمُ﴾ [الزخرف: 84] المقصور على العلم الكامل الشامل، المحيط بجميع ما لاح عليه بروق تجليات الوجود وشروق شمس الذات.

﴿ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ

تعالى: ﴿فَأَنَا﴾ ، من آية هذا الوارد وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ [الزخرف:81]، يكون الوقف هنا في غاية الحسن، ويكون الولد بمعنى النتيجة، لأنه ﷺ نتيجة رحمة الرحمن المتجلية في سائر الأكوان من حضرة أم كتاب السر والإعلان، ومن هنا يعلم قوله تعالى: ﴿حم﴾ [فصلت:1] رمز محمد ﷺ الذي هو بذاته، ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [فصلت:2]، فهو منزّل من إطلاق البطون العمائي الذي هو قبل خلق الخلق إلى شهادة ظهور نور ذات الله القديم، وقد استخرجت اسم محمد ﷺ من قوله تعالى: ﴿حمٓ﴾ من منه علم المعمي بطريق الدور والتدلي، وذلك أن الميم من قوله تعالى: ﴿حمٓ﴾ دورية أولها ميم وآخرها ميم، فحصل ميمان في النطق، ثم تدلت الميم من عدد الأربعين إلى عدد الأربعة، وهي عدد الدال فحصل من ميم ﴿حمٓ﴾ ميمان ودال، ضممنا ذلك إلى حاء، ﴿حمٓ﴾ فظهر اسم محمد ﷺ.

﴿تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [الزخرف: 85-89].

﴿وَتَبَارَكَ﴾ أي: تعاظم وتعالى الذات القادر العليم الحكيم ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي: العلويات والسفليات ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من المركبات والممتزجات، تدبيرًا وتصرفًا على وجه الاستقلال بالإرداة والاختيار ﴿وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ الموعودة قيامها من عنده سبحانه ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الزخرف: 85] في النشأة الأخرى رجوع الأظلال إلى الأضواء والأمواج إلى الماء.

﴿وَ﴾ بعدما ثبت وحدة الحق واستقلاله في ملكه وملكوته ﴿لَا يَمْلِكُ﴾ ولا ينفع المشركين المسرفين ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ ويعبدون ﴿مِن دُونِهِ﴾ سبحانه ﴿الشَّفَاعَةَ﴾ عنده من آلهتهم الذين زعموا أنهم شفعاؤهم عند الله ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ﴾ أن الشفاعة؛ أي: إلا شفاعة من أقر ﴿بِالْحَقِّ﴾ واعترف بتوحيده ﴿وَهُمْ﴾ مع إقرارهم واعترافهم ﴿يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: 86] وينكشفون بوحدة ذاته وكمالات أسمائه وصفاته.

﴿وَ﴾ الله يا أكمل الرسل ﴿لَئِن سَأَلْتَهُم﴾ أي: المشركين عن ﴿مَّنْ خَلَقَهُمْ﴾ وأوجدهم من كتم العدم، وأظهر أشباحهم منه ﴿لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ الموجد المظهر للكل؛ إذ لا يمكنهم المكابرة والعناد في أمثال هذه الظواهر ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [الزخرف: 87] ويصرفون بعدما اعترفوا باستقلاله في الخلق والإيجاد.

وكيف يشركون معه غيره في استحقاق العبادة، والرجوع إليه في الخطوب والمهمات ﴿وَقِيلِهِ﴾ أي: من جملة قوله ومقوله ﷺ في مناجاته مع ربه في شأن قومه حين آيس عن إيمانهم، بعدما بالغ في إرشادهم وتكميلهم مناديًا متضرعًا إلى الله، متعجبًا من كمال قسوتهم وانهماكهم في الغي والضلال: ﴿يَا رَبِّ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ﴾ البعداء عن جادة الهداية والرشاد ﴿قَوْمٌ﴾ متناهٍ في الغفلة والإعراض عنك ﴿لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [الزخرف: 88] بتوحيدك ولا يقبلون دعوتي، ولا يسمعون قولي.

وبعدما تضرع وناجى مع ربه، قيل له من قِبل الحق على سبيل الوحي والإلهام ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ﴾ يا أكمل الرسل، واعرض عن هدايتهم وإرشادهم، فإنهم مجبولون على الغواية، مطبوعون بالكفر والضلال ﴿وَ﴾ بعدما آيست منهم يأسًا كليًا ﴿قُلْ سَلَامٌ﴾

على سبيل التوديع والمتاركة ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: 89][1] وبال ما تعملون وتدخرون لنفوسكم من الذخائر الجالبة لأنواع العقوبات، نعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهدِ الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

خاتمة السورة

عليك أيها الموحد القاصد لتحقيق الحق الحقيق بالإطاعة والاتباع أن تصفي همَّك في جميع حالاتك عما سوى الحق، وتخلي قلبك عن الشواغل العائقة عن التوجه الحقيقي نحوه، وتستقيم على صراط التوحيد مستويًا، مائلاً عن كلا طرفي الإفراط والتفريط، مقتصدًا؛ إذ مرجع جميع الطرق والسبل السوية إلى العدالة الإلهية الفائضة منه سبحانه على استعدادات عموم القوابل والمجالي، حسب قابلياتهم الفطرية التابعة للتجليات الإلهية وشئونه المتفرعة على أسمائه وصفاته الذاتية، وتقتفي في تهذيبك وتصفيتك هذا أثر النبي المجبول على العدالة الإلهية وخلافته ونيابته.

وعليك الإعراض عمَّن أعرض عن الحق وأهله، وانحرف عن سواء السبيل.

جعلنا الله وعموم عباده من زمرة أهل الهداية واليقين، وجنبنا من الضلال عن الطريق المستبين.

---

(1) وشكا محمد ﷺ شكواه إلى ربه. وقرأته عامة قرّاء الكوفة ﴿وقِيلِهِ﴾ بالخفض على معنى: وعنده علم الساعة، وعلم قيله، والصواب من القول في ذلك أنهما قراءتان مشهورتان في قراءة الأمصار صحيحتا المعنى فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب، فتأويل الكلام إذن: وقال محمد ﷺ قيله شاكيًا إلى ربه تبارك وتعالى قومه الذين كذّبوه، وما يلقى منهم: يا ربّ إن هؤلاء الذين أمرتني بإنذارهم وأرسلتني إليهم لدعائهم إليك، قوم لا يؤمنون، عن مجاهد، في قوله: ﴿وَقِيلِهِ يَارَبِّ إِنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ لا يُؤْمِنُونَ﴾ قال: فأبرّ الله ﷻ قول محمد ﷺ. عن قتادة، قوله: ﴿وَقِيلِهِ يَارَبِّ إِنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ لا يُؤْمِنُونَ﴾ قال: هذا قول نبيكم عليه الصلاة والسلام يشكو قومه إلى ربه، عن قتادة ﴿وَقِيلِهِ يَارَبِّ﴾ قال: هو قول النبي ﷺ ﴿إِنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ لا يُؤْمِنُونَ﴾. تفسير الطبري» (21/656 - 657).

سورة الدخان

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة سورة الدخان

لا يخفى على أرباب الكشف والشهود من المنجذبين نحو الحق في عموم أوقاتهم وحالاتهم سيما في أوائل أيام الطلب والإرادة المنبعثة من المحبة الغالبة الجالبة للميل والركون إلى المبدأ الحقيقي والمنشأ الأصلي أن الحالات الطارئة على أرباب الإرادة في تلك الأوقات متفاوتة قبضًا وبسطًا، تلذذًا وتحزنًا، تلونًا وتمكنًا، وبالجملة: لا طمأنينة للسالك في تلك الأوقات إلى أن يصفو له الحال، وينزل على سلطان قلبه التمكن والوقار والتمرن والقرار.

ثم لما وصل ﷺ إلى ذلك المقام واستولى وغلب على قلبه سلطان المحبة والعشق المفرط الإلهي، وكان ورود تلك الحالة إياه في ليلة القدر أو البراءة على اختلاف الرواية، أنزل سبحانه عليه بعض آيات القرآن الفرقان الفارق بين نشأتي التلوين والتمكين، ليتقرر في مقام الكشف والشهود، ويتمكن في مقعد الصدق والمقام المحمود، وقال مناديًا لحبيبه بعدما تيمن باسمه الأعلى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي تجلى على ما تجلى ﴿الرَّحْمَنِ﴾ لعموم مظاهره بإفاضة الوجود والرزق الأوفى بمقتضى الكرم والجود ﴿الرَّحِيمِ﴾ لخواصهم بإيصالهم إلى سدرة المنتهى والمقام المحمود.

﴿حمٓ ۝١ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝٢ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝٥ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝٦ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٧ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ۝٨ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ۝٩﴾ [الدخان: 1-9].

﴿حمٓ﴾ [الدخان: 1] يا حافظ حدود الله ومراقب وحيه في عموم أوقاتك وحالاتك.

﴿وَ﴾ حق ﴿الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ [الدخان: 2] الذي هو القرآن العظيم الذي ﴿لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: 42].

﴿إِنَّا﴾ من مقام عظيم جودنا ﴿أَنزَلْنَاهُ﴾ أي: ابتدأنا إنزاله إليك تأييدًا لأمرك وتعظيمًا لشأنك ﴿فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾ كثيرة الخير والبركة، هي ليلة القدر أو البراءة، وإنما أنزلناه مشتملاً على الأحكام والمواعظ والعبر والأمثال والقصص والتواريخ والرموز والإشارات المنبهة على المعارف والحقائق ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ [الدخان: 3] مخوفين بإنزال ما فيه من الأوامر والنواهي والوعيدات الهائلة على من انصرف عن جادة العدالة الإلهية وانحرف عن الطريق المستبين.

وإنما أنزلناه إليك في ليلتك هذه؛ إذ ﴿فِيهَا يُفْرَقُ﴾ يميز ويفصل عندك يا أكمل الرسل بعدما تمكنت في مقر العز والتمكين ﴿كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: 4] أي: محكم صادر عن محض الحكمة المتقنة الإلهية، ولهذا صار ما ذكر في كتابك هذا ﴿أَمْرًا﴾ محكمًا مبرمًا نازلاً ﴿مِّنْ عِندِنَا﴾ على مقتضى كمال علمنا وقدرتنا ووفور حكمتنا؛ ليكون هداية لك وإرشادًا لعموم عبادنا، المتابعين لك المهتدين بهدايتك ﴿إِنَّا كُنَّا﴾ في عموم الأوقات ﴿مُرْسِلِينَ﴾ [الدخان: 5] رسلاً مبشرين ومنذرين، منزلين عليهم كتبًا مبينة مصلحة لأحوال عبادنا، بعدما أفسدوا على أنفسهم.

وصار ذلك الإرسال والإنزال ﴿رَحْمَةً﴾ نازلة ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ يا أكمل الرسل سنة سنية مستمرة بين عموم عباده حين ظهر الفساد فيهم، وبالجملة: أنه سبحانه ﴿هُوَ السَّمِيعُ﴾ لمناجاة عباده نحوه بألسنة استعدادتهم ﴿الْعَلِيمُ﴾ [الدخان: 6] لحاجاتهم ونياتهم فيها.

وكيف لا يرحمهم ولا يصلح أحوالهم مع أنه هو بذاته ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ السياق يدل على أن التفسير على قراءة: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ﴾ على قراءة ابن عامر وغيره من الكوائن المركبة منها، يعني: مربي الكل ومظهره بالاستقلال والانفراد إن ﴿كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الدخان: 7] أي: من أرباب المعرفة واليقين، فاعرفوه كذلك ووقروه.

إذ ﴿لاَ إِلَهَ﴾ ولا موجود في الوجود ﴿إِلاَّ هُوَ﴾ بصرافة وحدته وتنزهه عن وصمة الشركة مطلقًا هو ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أي: يظهر ويوجد ما يظهر، ويعدم ما يعدم، بمد ظله

إليه وقبضه عنه؛ إذ هو سبحانه ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ﴾ [الدخان: 8] لا مربي لكم ولهم سواه، لو تأمل عموم العباد في دلائل توحيده سبحانه، ونظروا في آيات ألوهيته وربوبيته، لعرفوا يقينا وحدة ذاته ﴿بَلْ هُمْ﴾ أي: أكثرهم ﴿فِي شَكٍّ﴾ أي: غفلة وتردد ﴿يَلْعَبُونَ﴾ [الدخان: 9] ويترددون في أودية الظنون والجهالات حسب آرائهم الفاسدة وأهويتهم الباطلة.

﴿ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ ۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الدخان: 10-16].

﴿فَارْتَقِبْ﴾ يا أكمل الرسل وانتظر لهم مترقبا بإلمام البلاء عليهم، بعدما أصروا على كفرهم وشركهم ﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ﴾[1] مظلم ﴿مُبِينٍ * يَغْشَى النَّاسَ﴾ [الدخان: 10-11] يحيط بهم وينزل عليهم، فيتيقنوا أن ﴿هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الدخان: 11] مؤلم ألم بهم.

(1) (دخنت) النار دخنا ودخونا ودخانا ظهر دخانها وكثر دخانها والوقود أتى بالدخان والغبار سطع (دخنت) النار دخنا دخنت ويقال دخنت الفتنة ظهرت وثارت والطعام والشراب غلب على طعمه الدخان فأفسده والخلق والعقل والدين فسد فهو دخن والشيء دخنا ودخنة صار لونه كلون الدخان فهو أدخن وهي دخناء (ج) دخن (دخن) الشيء دخنة دخن (أدخنت) النار دخنت (دخنت) النار دخنت والوقود دخن وعلى الشيء جعل الدخان يصل إليه ويقال دخن على الشجر أو على الثوب طهره ببخور خاص ليقتل ما به من الآفات، والثوب بخره بالدخنة أو الدخان والتبغ ونحوه أحرقه متعاطيا إياه (ادخنت) النار دخنت وفلانٌ تبخر بالدخنة أو الدخان والزرع اشتد حبه فصار لونه كلون الدخان (تدخن) مطاوع دخنه والقدر علاها الدخان وفلان ادخن (الداخنة) منفذ يتخذ على المقلى والأتون ونحوهما ليخرج منه الدخان (ج) دواخن (الدخان) ما يتصاعد عن النار من دقائق الوقود غير المحترقة والتبغ، ويقال كان بينهم أمر ارتفع له دخان شر مستطير (ج) أدخنة ودواخن ودواخين (الدخان) الدخان (الدخن) نبات عشبي من النجيليات حبه صغير أملس كحب السمسم ينبت بريا ومزروعا (الدخن) الدخان ويقال بينهما دخن حقد وهدنة على دخن صلح على فساد باطن وفي متن السيف دخن ما يتراءى في متنه من سواد لشدة الصفاء (الدخنان) الذي غشيه الدخان فسخن واغبر ويقال يوم دخنان حار أغبر كأنما غشيه الدخان يقال ليلة دخنانة (الدخنان) ضرب من العصافير. «المعجم الوسيط» (573/1).

فيتضرعون حينئذ نحو الحق صارخين قائلين: ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ﴾ بفضلك وجودك ﴿عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا﴾ بعدما كشفت عنا ﴿مُؤْمِنُونَ﴾ [الدخان: 12] موقنون بوحدانيتك، مصدقون بكتابك ورسولك، وذلك أن قريشًا لما بالغوا في استهزاء الرسول ﷺ والتهكم معه ومع ضعفاء المؤمنين، دعا عليهم ﷺ فقال: «اللهم أعني عليهم بالسبع الشداد كسبع يوسف عليه السلام»[1] فأجاب الله دعاءه، فأخذهم بالقحط، فأكلوا الميتة والجيفة، وهلك كثير منهم، فيغشاهم حينئذ دخان عظيم، يسمع كل منهم كلام صاحبه ولا يراه من ظلمة الدخان، وقالوا صارخين متضرعين: ﴿هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾[2] وكانوا عليه حتى جاء أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ فقال: إنك قد جئت بصلة الرحم، وإن قومك قد هلكوا من الجهد، فدعا لهم، فكشف الله عنهم جهدهم، ومع ذلك لم يوفوا بعهدهم الذي عهدوا، ولذلك رد الله عليهم بقوله: ﴿أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى﴾ أي: من أين يتأتى منهم التذكر والاتعاظ ﴿وَقَدْ جَاءَهُمْ﴾ لتكميلهم وإرشادهم ﴿رَسُولٌ مُبِينٌ﴾ [الدخان: 13] ظاهر الفضل والعظمة أكمل من كل الرسل.

﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا﴾ مدبرين وأعرضوا عن دعوته ودينه، مصرين على ما هم عليه ﴿وَ﴾ لم يقتصروا على مجرد التولي والإعراض، بل ﴿قَالُوا﴾ في شأنه كلامًا لا يليق بعلو مكانه، حيث قال بعضهم أنه: ﴿مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ﴾ [الدخان: 14] يعلمه بعض الأعجمين مع أنه أمي، وقال البعض الآخر: أنه مجنون مخبط مختل العقل يتكلم بكلام المجانين، مع أنه أعقل الناس وأرشدهم.

ثم قال سبحانه على سبيل الإخبار والتنبيه لحبيبه ﷺ بعدما دعا لهم بالكشف: ﴿إِنَّا﴾ من مقام عظيم جودنا معك يا أكمل الرسل ﴿كَاشِفُوا الْعَذَابِ﴾ المحيط بهم بدعائك زمانا ﴿قَلِيلًا﴾ في دار الاختبار، إلا أنهم لم يوفوا بعهدهم الذي عهدوا معك لعراقتهم وانهماكهم في الكفر، ثم خاطبهم سبحانه مخبرًا بما سيصدر عنهم فقال:

---

(1) رواه البخاري في «الصحيح» (5/16) بنحوه.

(2) ضعف الإيمان ما يكون عند تزول البليات، بل الإيمان الأصلي ما يكون أعظم في العافية مما يكون في البلاء، ولا ينكشف العذاب والحجاب إلا بصدق الافتقار والحياء من الله في النظر إلى غيره.

وقال بعضهم: لا يستكشف العذاب إلا بتمام الإيمان وصحة الالتجاء والرغبة والدعاء. [العرائس].

﴿إِنَّكُمْ﴾ وإن كشفنا العذاب عنكم أيها الضالون المكذبون ﴿عَائِدُونَ﴾ [الدخان: 15] راجعون إلى كفركم وضلالكم غب الكشف والفرج، مبادرون على ما كنتم عليه.

اذكر لهم يا أكمل الرسل ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى﴾ أي: يوم نأخذهم وننتقم عن جرائهم وآثامهم في يوم القيامة والطامة الكبرى، كيف ينقذون أنفسهم من عذابنا الذي لا مرد له حينئذ ﴿إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ [الدخان: 16] منهم ألبتة يومئذ.

﴿ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الدخان: 17-24].

ثم قال سبحانه تسلية لحبيبه ﷺ وتسكينًا لقلبه بما أهمه من استهزاء قومه معه واستخفافهم عليه: ﴿وَ﴾ كما امتحنا قريشًا بإرسالك إليهم مع إنا نعلم منهم أنهم لم يؤمنوا لك ولم يهتدوا بهدايتك، وأوقعناهم في فتنة عظيمة وبلية فظيعة ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا﴾ وامتحنا ﴿قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ بإرسال أخيك موسى الكليم إياهم ﴿وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ﴾ مرسل من لدينا ﴿كَرِيمٌ﴾ [الدخان: 17] مكرم بأنواع الكرامات، مريد بالمعجزات، مبلغ لهم على مقتضى الوحي الإلهي ﴿أَنْ أَدُّوا﴾ أي: بأن أدوا ﴿إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ﴾ حق الله، وأرسلوا معي عباده بني إسرائيل ﴿إِنِّي لَكُمْ﴾ من قبل ربي ﴿رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ [الدخان: 18] مأمون مصون عن الكذب والافتراء، غير متهم به؛ لدلالة ما عندي من المعجزات على صدق دعوتي ورسالتي.

﴿وَ﴾ عليكم ﴿أَن لَّا تَعْلُوا﴾ ولا تتكبروا ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ وعلى قبول وحيه وتصديق رسوله ﴿إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الدخان: 19] حجة واضحة دالة على صدقي في دعواي ﴿وَ﴾ مع وضوح الحجة وسطوع البرهان أن تظهروا علي بالعناد والمكابرة اتكالاً على شوكتكم وكثرتكم، فإنا لا نبالي بكم وبشوكتكم واستيلائكم، بل ﴿إِنِّي عُذْتُ﴾ التجأت ووثقت ﴿بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ﴾ [الدخان: 20] وتقتلون أو تضربوني بالحجارة أو تشتموني باللسان.

﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي﴾ ولم تقبلوا قولي ودعوتي ﴿فَاعْتَزِلُونِ﴾ [الدخان: 21] لا علي ولا لي، وبعدما كذبوه وقصدوا قتله ومقته: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ﴾ وتضرع نحوه بقوله: ﴿أَنَّ هَؤُلَاءِ﴾ المسرفون ﴿قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ﴾ [الدخان: 22] منهمكون في الغي والضلال، لا ينفعهم نصحي، ولا يؤثر فيهم قولي ودعوتي.

وبعدما أيس عن إيمانهم، بل خاف عن مكرهم وطغيانهم، قلنا له: إن كان الأمر كذلك ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي﴾ أي: سر معهم ﴿لَيْلاً﴾ وبعدما علموا خروجك ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ [الدخان: 23] أي: يتبعكم فرعون وجنوده ليلحقوكم ويستأصلوكم.

وبعدما وصلتم غدوة، وهم على أثركم مدركون بكم، فاضرب حينئذ بعصاك البحر، فانفلق وتفرق من كمال قدرتنا، وادخل أنت ومن معك بلا خوفٍ من الغرق، فاعبروا سالمين ﴿وَ﴾ بعد عبوركم ﴿اتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا﴾ ذا فجوة وانفلاق ولا تقصد إلى اجتماعه خوفًا من عبورهم، ولا تضرب بالعصا ليجتمع ﴿إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ [الدخان: 24] بعد دخولهم ألبتة، لا تخف منهم ومن إدراكهم، ففعل موسى ﷺ كذلك، فعبروا سالمين، وترك البحر على هيئته، فاقتحمه فرعون وجنوده بأجمعهم اغترارًا بعبورهم بافتراق البحر وانفلاقه، فلما دخلوا اتصل البحر فغرقوا بالكلية.

﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾﴾ [الدخان: 25-33].

وبعدما هلكوا ﴿كَمْ تَرَكُوا﴾ أي: كثيرًا تركوا ﴿مِن جَنَّاتٍ﴾ منتزهات ﴿وَعُيُونٍ﴾ [الدخان: 25] جاريات فيها ﴿وَزُرُوعٍ﴾ كثيرة في حواليها ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ [الدخان: 26] أي: محافل مزينة ومنازل حسنة في خلالها ﴿وَنَعْمَةٍ﴾ أي: أسباب تنعم وترفه من الأمتعة والنسوان ﴿كَانُوا فِيهَا﴾ أي: في تلك الجنات ﴿فَاكِهِينَ﴾ [الدخان: 27] متنعمين مترفهين، كذلك فعلنا بهم معهم من كمال قدرتنا، بعدما أردنا إهلاكهم وانتقامهم بسبب تكذيبهم واستكبارهم على رسولنا، وهكذا نفعل مع كل مكذب متكبر، لا يؤمن بيوم الحساب.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ بعدما تركوا الكل على ما كان وهلكوا ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا﴾ أي: تلك الجنات وما يتفرع عليها من المستلذات المتروكات ﴿قَوْمًا آخَرِينَ﴾ [الدخان: 28] لا قرابة بينهم نسبًا ودينًا، وهم بنو إسرائيل، وبعدما هلكوا واستؤصلوا.

﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾[1] أي: لم تكترثا، ولم تعتدا بهلاكهم واستئصالهم أصلاً، مثل اعتدادهما لهلاك المؤمنين وفقدهم، قال ﷺ: «**ما من عبد مؤمن إلا له في السماء بابان باب يخرج منه رزقه وباب يدخل منه عمله فإذا مات فقداه وبكيا عليه**»[2].

وعن المرتضى الأكبر كرم الله وجهه: إذ مات المؤمن بكى عليه مصله من الأرض ومصعد عمله من السماء، قال السدي: لما قتل الحسين بن علي - رضي الله عنهما - بكت عليه السماء، وبكاؤها عبارة عن حمرة أطرافها.

﴿وَ﴾ هم من غاية انهماكهم في الغي والضلال واستهالهم بالمقت والهلاك ﴿مَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾ [الدخان: 29] ممهلين مؤخرين إلى وقت آخر، بل أخذتهم العزة بإثمهم حيث لا يمهلهم ولا يسوف عليهم ساعة.

﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ [الدخان: 30] وهو استعبادهم وقتل أبنائهم واستحياء نسائهم استذلاً لا لهم واستهانة عليهم، وإنما نجيناهم كرامة منا إياهم وامتنانًا عليهم، وكيف لا يهينهم العذاب النازل عليهم.

﴿مِن فِرْعَوْنَ﴾ الطاغي المتجبر المتكبر على الأرض ﴿إنه كَانَ عَالِيًا مِّنَ﴾ عموم ﴿الْمُسْرِفِينَ﴾ [الدخان: 31] في عصره، متبالغًا في العتو والعناد، والغلبة على العباد أقصى غايته، وبالجملة: لقد اخترناهم أي: بني إسرائيل واصطفيناهم من بين سائر

---

(1) قال البقلي: كيف تبكي السماء والأرض على من يدّعي الأنانية في ساحة كبرياء الأزل، والسماوات والأرضون في عظمها تصير هناك أقل من خردلة من هيبة عزة جبروته وملكوته، فغارت عليهم السماوات والأرض؛ إذ ادّعوا ما ليس لهم في أمر الربوبية، وهي تبكي على العارفين الذين لا يجترئون أن يصفوا معروفهم بجميع الألسنة حياءً منه، إذا فارقوا من الدنيا تبكي السماوات والأرض بمفارقتهم حين لا تصعد عليهم أنوار أنفاسهم ولا يجري عليها بركات آثارهم كما روي في الحديث أن: «السماءُ والأرضُ تبكي بموت العلماء». قال بعضهم: كيف تبكي السماء على من لم يصعد إليه منه طاعة؟! وكيف تبكي الأرض على من يعصي الله عليها؟! معناه ما بكت عليهم مصاعد عملهم من السماء، ولا مواضع عبادتهم من الأرض.

(2) ذكره ابن كثير في تفسيره (253/7).

الأمم المعاصرين معهم على علم متعلق منا أنهم أحقاء بالرئاسة والسيادة وأنواع الثروة والجاه على العالمين؛ لكثرة ظهور الأنبياء والرسل فيهم ومنهم وبعد ﴿وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الدخان: 32] بعدما اخترناهم.

﴿وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الْآيَاتِ﴾ العظام الدالة على كمال اختصاصهم بمزيد الشرف والكرامة ﴿مَا فِيهِ بَلَاءٌ واختبار مُّبِينٌ﴾ [الدخان: 33] ظاهر، نختبر به إخلاصهم ورسوخهم على الإيمان.

﴿ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَاهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ اللَّهُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الدخان: 34-42].

ثم لما أوضح سبحانه تفضيح حال المجرمين المكذبين لرسول الله قال: ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ﴾ المسرفين المكذبين لك يا أكمل الرسل يعني: قريشًا خذلهم الله ﴿لَيَقُولُونَ﴾ [الدخان: 34] من غاية إنكارهم بقدرة الله، وبما أخبر به الرسول، ونطق به الكتاب: ﴿إن هِيَ﴾ أي: ما الموتة التي تعرض لنا ﴿إِلَّا مَوْتَتُنَا الأولى﴾ التي طرأ علينا في دار الدنيا وأزال حياتنا عنا ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿مَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ [الدخان: 35] مبعوثين من قبورنا أحياء، ثم نحشرهم للحساب والجزاء كما زعمتم أيها المفترون الكاذبون.

وإن أردتم تصديقنا إياكم في هذه الدعوى ﴿فَأْتُوا بِآبَائِنَا﴾ الذين انقرضوا عن الدنيا أحياء ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الدخان: 36] في دعواكم، إنما قالوا ما قالوا تهكمًا واستهزاء.

وبعدما أصروا على عنادهم وبالغوا في إنكارهم، رد الله عليهم على أبلغ وجه وآكده بقوله مستفهما على سبيل التقريع والتوبيخ: ﴿أَهُمْ﴾ يعني: قريشًا ﴿خَيْرٌ﴾ مالاً وجاهًا، وثروة وسيادة ﴿أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ اسم لمن ملك الحمير، ككسرى لملوك فارس، وقيصر للملوك الروم، والمراد: أبو كريب سعيد بن منبل، آمن بنبينا قبل بعثته، فتنحى

عنه قومه، معللين أنك قد تركت ديننا، فأخذهم الله بجرمهم هذا، وأهلكهم ﴿وَالَّذِينَ مضوا مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم الهالكة كعاد وثمود ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ مع شدة قوتهم وبسطتهم وكثرة شوكتهم ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [الدخان: 37] بالجرائم العظيمة الموجبة للمقت والهلاك، أمثال جرائمكم أيها المجرمون المسرفون.

﴿وَ﴾ بالجملة ﴿مَا خَلَقْنَا وأظهرنا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من الممتزجات ﴿لاعِبِينَ﴾ [الدخان: 38][1] عابثين بلا طائل ﴿مَا خَلَقْنَاهُمَا﴾ وأظهرناهما على هذا النمط البديع والنظام العجيب المشتمل على أنواع التغيرات من الكائنات والفاسدات ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ ليستدلوا بها على وحدة ذاتنا، وكمال علمنا وقدرتنا، ومتانة حكمتنا وحكمنا واستقلالنا في تدبيراتنا وتصرفاتنا في ملكنا وملكوتنا ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ لقصور نظرهم عن إدراك الحكم والأسرار ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الدخان: 39] ولا يشعرون إلا بالمحسوسات العادية، أولئك القاصرون عن النظر والاستدلال، القانعون باللذات الهيمية من هذا العجيب كالأنعام بل هم أضل سبيلاً وأسوأ حالاً منها.

اذكر لهم يا أكمل الرسل: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ﴾ الذي يمتاز فيه المحق عن المبطل والهادي المهتدى عن الضال المضل ﴿مِيقَاتُهُمْ﴾ وموعد جزائهم وقطع خصوماتهم ﴿أَجْمَعِينَ﴾ [الدخان: 40] فيجزى كل منهم حسب ما حوسب، أن خيرًا فخير، وان شرًا فشر.

﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي﴾ لا يدفع ولا يرفع ﴿مَوْلًى عَن مَّوْلًى﴾ قرابة عن قرابة ﴿شَيْئًا﴾ من الإغناء والدفع مما كتب له من الجزاء ثوابًا كان أو عقابًا ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [الدخان: 41] بعضهم ببعض على سبيل المظاهرة والمعاونة ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ اللَّهُ﴾ بمقتضى فضله وجوده، أو قبل شفاعة أحد في حق أحد عناية منه وعفوًا ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه ﴿هُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب القادر على عموم مرادته ومقدوراته ﴿الرَّحِيمُ﴾ [الدخان: 42] المشفق على

---

(1) قال البقلي: كان في علم الله في أزل أزله أنه يوجد الكون من العدم، فأوجده بحق العلم السابق، وذلك الحق حق سوابق إرادته الأزلية على وجود الأكوان والحدثان؛ لتحقق بأنوار حقائق اصطناعه حقائق أنوار قلوب العارفين، وليتطرقوا بوسائط الشواهد إلى مشاهد جلاله وجماله؛ لئلا يحترقوا بالبديهة في بروز سطوات قدسه وكبريائه، قال ابن عطاء: خلق السماوات والأرض، وأظهر فيهما بدائع صنعه وبوادي قدرته، فمن نظر إليهما فرأى فيهما آثار الصنع فهو لتيقظه، ومن نظر وشاهد الصنائع فهو لتحققه.

عباده عند إنابتهم ورجوعهم نحوه، يقبل توبتهم ويعفو زلتهم.

﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ۝٤٣ طَعَامُ الْأَثِيمِ ۝٤٤ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ۝٤٥ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ۝٤٦ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ ۝٤٧ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ۝٤٨ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ۝٤٩ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ ۝٥٠﴾ [الدخان: 43-50].

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ﴾ [الدخان: 43] المعدة لذوي الغفلة والضلال ﴿طَعَامُ الأَثِيمِ﴾ [الدخان: 44] المنهمك في الجرائم والآثام، وهو أبو جهل ومن مثله في العتو والعناد، وهي في الحرقة والبشاعة ﴿كَالْمُهْلِ﴾ أي: الذهب الذائب، أو دردي الزيت الأسود، وهو من شدة حرقته وحرارته ﴿يَغْلِي فِي الْبُطُونِ * كغلي الحميم﴾ [الدخان: 45-46] أي: كالماء الحار إذا اشتد غليانه، كيف هو، هو مثله يغلي في بطون أهل النار، قال ﷺ: «أيها الناس اتقوا الله حق تقاته، ولو أن قطرة من الزقوم قطرت على الأرض لأمرت على أهل الدنيا معيشتهم أبدا»[1]، فكيف حال من هو طعامه دائمًا ولم يكن له غذاء سواه، وبالجملة: هم مبتلون بهذا العذاب إلى حيث قطع أمعائهم.

ومع ذلك العذاب الهائل يقال من قبل الحق للزبانية الموكلين عليهم على الدوام: ﴿خُذُوهُ﴾ أي: المسرف الأثيم ﴿فَاعْتِلُوهُ﴾ أي: ادفعوه وسوقوه بشدة العنف والزجر ﴿إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ [الدخان: 47] أي: وسطه ﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ﴾ مثل ما في جوفه ﴿مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ﴾ [الدخان: 48] ليستغرقوا بالعذاب الهائل استغراقًا تامًا، وقولوا له: عند صبكم وتعذيبكم على سبيل التهكم والتوبيخ: ﴿ذُقْ﴾ أيها المتجبر الطاغي طعم العذاب الهائل ﴿إِنَّكَ﴾ في نفسك وعلى مقتضى زعمك ﴿أَنْتَ الْعَزِيزُ﴾

(1) أخرجه الطيالسي (ص 344، رقم 2643) وأحمد (338/1، رقم 3136) والترمذي (706/4، رقم 2585) وقال: حسن صحيح، والنسائي (313/6، رقم 11070) وابن ماجه (1446/2، رقم 4325) وابن حبان (511/16، رقم 7470)، والحاكم (322/2، رقم 3158) وقال: صحيح على شرط الشيخين.

المنيع ﴿الكَرِيمُ﴾ [الدخان: 49] الغالب المقصور على الغلبة والكرم بينْ أهل الوادي، ثم قولوا لهم بعد تشديد العذاب عليهم تفظيعًا لهم وتفضيحًا: ﴿إِنَّ هَذَا﴾ العذاب والنكال الذي أنتم فيه الآن ﴿مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ [الدخان: 50] تشكون وتمارون في النشأة الأولى.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [الدخان: 51-59].

ثم ذكر سبحانه على مقتضى سنته المستمرة مستقر المؤمنين المتقين ومنزلتهم في النشأة الأخرى، فقال: ﴿إِنَّ المُتَّقِينَ﴾ المجتنبين عن محارم الله في عموم أوقاتهم وحالاتهم، بعدما انقرضوا عن نشأة الاختبار والابتلاء ﴿فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ [الدخان: 51] [1] أي: مقر مأمون مصون عن طريان التغير والانتقال، محروس عن وصمة الغفلة والضلال، وبالجملة: ﴿فِي جَنَّاتٍ﴾ منتزهات من العلم والعين والحق ﴿وَعُيُونٍ﴾ [الدخان: 52] جاريات من أنواع المعارف والحقائق والكشوفات والشهودات، ومن كمال تلذذهم وترفههم باللذات الروحانية ﴿يَلْبَسُونَ﴾ من ألبسة أرباب الكشف والشهود في مراقي درجات القرب والوصول ﴿مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ أي: مما رق وغلظ من عروض المعارف والحقائق إلى أن صاروا ﴿مُتَقَابِلِينَ﴾ [الدخان: 53] في المحبة، متماثلين في الوجد والحضور.

﴿كَذَلِكَ﴾ ينكشف لهم الأمر بعد انقراضهم عن نشأة الدنيا وعالم

(1) لما ذكر وعيد الكفار أردفه بآيات الوعد فقال: «إِنَّ المُتَّقِينَ» قال أهل السنة: كل من اتقى الشرك صدق عليه أنه متق، فوجب أن يدخل الفساق هذا الوعد فقال: (فِي مَقَامٍ أَمِينٍ) وقرأ أهل المدينة والشام بضمّ ميم «مُقَام» على المصدر، أي في إقامة وقرأ الباقون فتح الميم أي في مَجْلِس أمنين آمنوا فيه من الغير. «تفسير ابن عادل» (176/14).

﴿١٠﴾ هَٰذَا هُدًى ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [الجاثية: 7-11].

وبعدما وضح محجة الحق واتضح دلائل توحيده: ﴿وَيْلٌ﴾ عظيم وهلاك شديد ﴿لِّكُلِّ أَفَّاكٍ﴾ مفتر كذاب ﴿أَثِيمٍ﴾ [الجاثية: 7] منغمس في الإثم والعدوان، مغمور في العناد والطغيان، إلى حيث: ﴿يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ﴾ الدالة على عظمة ذاته حين ﴿تُتْلَىٰ عَلَيْهِ﴾ مع كمال وضوحها وسطوعها ﴿ثُمَّ يُصِرُّ﴾ يقيم ويديم على ما هو عليه من الكفر والضلال ﴿مُسْتَكْبِرًا﴾ بلا علة وسند سوى العناد والاستكبار، ويصير من نهاية عتوه وعناده حين يسمعها ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ اغترارًا بما عنده من الجاه والثروة، وبالجملة: ﴿فَبَشِّرْهُ﴾ يا أكمل الرسل على إصراره وعناده ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الجاثية: 8] في غاية الإيلام، وهو انحطاطه عن رتبة الخلافة الإنسانية؛ إذ لا عذاب عند العارف أشد من ذلك.

﴿وَ﴾ من نهاية استكباره واغتراره ﴿إِذَا عَلِمَ بعدما بلغه مِنْ آيَاتِنَا﴾ الدالة على ضبط الظواهر وتهذيب البواطن ﴿شَيْئًا﴾ أي: آية ﴿اتَّخَذَهَا﴾ وأخذها من غاية تكبره وتجبره ﴿هُزُوًا﴾ محل استهزاء وسخرية يستهزأ بها ويتهكم عليها ﴿أُولَٰئِكَ﴾ البعداء الأفاكون الضالون، المنحرفون عن منهج الحق وصراطه ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [الجاثية: 9] في الدنيا بإعلاء كلمة الحق وإظهار دين الإسلام على الأديان كلها.

ومع تلك الإهانه العاجلة ﴿مِّن وَرَائِهِمْ﴾ أي: قدامهم ﴿جَهَنَّمُ﴾ البعد والخذلان، وسعير الطرد والحرمان ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿لَا يُغْنِي﴾ ولا يدفع ﴿عَنْهُم﴾ يومئذ ﴿مَّا كَسَبُوا﴾ وجمعوا من الأموال والأولاد والثروة والجاه ﴿شَيْئًا﴾ من الدفع والإغناء من غضب الله عليهم ﴿وَ﴾ كذا ﴿لَا﴾ ينفعهم ﴿مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ﴾ الواحد الأحد الصمد، المستقل بالإلوهية، المتفرد بالربوبية ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ من الأصنام والأوثان، يدعون ولايتهم كولاية الله، ويعبدونهم كعبادته عدوانًا وظلمًا، بل ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الجاثية: 10] لا عذاب أعظم منه.

وبالجملة: ﴿هَٰذَا﴾ الذي ذكر في كتابك يا أكمل الرسل ﴿هُدًى﴾ يبين طريق الهداية والرشاد لأهل العناية والتوفيق ﴿وَ﴾ المسرفون ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ المنزلة في كتابك هذا، والتي نزلت في الكتب السالفة ﴿لَهُمْ عَذَابٌ﴾ نازل ناشئ ﴿مِّن

الحجبات ﴿وَ﴾ مع ذلك القرب والوصول والوجد والحضور ﴿وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ [الدخان: 54] مصورة من الأعمال الصالحة والأخلاق المرضية والخصائل السنية التي تأدبوا بها عند ربهم في النشأة الأولى.

﴿يَدْعُونَ﴾ أي: يطالب بعضهم بعضًا حين تمكنهم واستقرارهم ﴿فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ﴾ ملذة لأزواجهم واستعداداتهم من الفواكه الحاصلة لهم من شجرة اليقين العلمي والعيني والحقي ﴿آمِنِينَ﴾ [الدخان: 55] من غوائل الشيطان وتسويلاته وتزييناته كما في النشأة الأولى، وبالجملة: هم أحياء عند ربهم بحياته الأزلية الأبدية، باقون دائمون ببقائه السرمدي، بحيث ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ﴾ أي: طعم مرارة الموت المعطل عن التلذذ باللذات الروحانية ﴿إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى﴾ التي ذاقوها عند افتراقهم عن لوازم نشأة الإمكان وانقطاعهم عن مقتضيات عالم الناسوت ﴿وَ﴾ بالجملة: بعدما وصلوا إلى فضاء الوجود، وحصلوا في عالم اللاهوت ﴿وَقَاهُمْ﴾ وحفظهم ﴿ربهم عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [الدخان: 56] [1] أي: عن عذاب بقعة الإمكان ونشأة الناسوت.

وبالجملة: إنما أعطوا ما أعطوا ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ﴾ يا أكمل الرسل وبمقتضى كرمه وجوده بلا استحقاق منهم واستجلاب بطاعاتهم ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي بشر الله به عباده المتقين ﴿هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [الدخان: 57] والفضل الجسيم، لا فوز أعظم منه وأعلى.

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ﴾ وسهلناه أي: المذكور في القرآن من المعارف والحقائق والرموز

---

(1) قال الورتجيبي: افهم يا فَهِم لو تدرك حقائق أمور المعارف لا تتهمني بالجهل فيما أقول لك؛ فإن الموت الأصلي هو العدم، وكيف يموت من أوجده الحق بنور القدم، الموتة الأولى هي عدمهم قبل وجودهم، فبعد الوجود لا يكون القدم بالحقيقة، إنما يجري عليهم أطوار فنون امتحانات الحق كالذهب ساعة في طين، وساعة في نار، وساعة في بوتقة، وساعة في سواد، وساعة في بياض حتى يعود إلى ما خرج من المعدن ،فأطوار الخليقة إلى الأبد في تقلبها بقاء في بقاء، وكيف يفنى بالحقيقة من أوجده الحق من مكمن الغيب إلى قضاء ربوبيته، فإذا أحضرهم في ساحة كبريائه ويتجلى لهم بالبداهة من عين الجبارية والقهارية يكونون في محل الفناء وفي فناء الفناء من عليات سطوات ألوهيته، فإذا صاروا فانين ألبسهم الله لباس بقائه؛ فيبقون ببقائه أبد الأبدين، فإذا الاستثناء وقع على التحقيق لا على التأويل فيأرب موت هناك؛ ويأرب حياة هناك؛ لأن الحدث لا يستقيم عند بروز حقائق بواطن القدم، ألا ترى إلى إشارة النبي ﷺ كيف قال: «حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه».

﴿رِجْزٍ﴾ غضب عظيم من الله المقتدر على أنواع الانتقام ﴿أَلِيمٌ﴾ [الجاثية: 11] مؤلم أشد الإيلام.

﴿۞ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١٣) قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١٥)﴾ [الجاثية: 12-15].

وكيف تكفرون أيها الجاحدون المسرفون بآيات المنعم المفضل الكريم مع أنه: ﴿اللهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ﴾ وسهل عليكم العبور عنه بأن جعله أملس مستوي السطح، ساكنًا على هيئته ﴿لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ﴾ أي: بمقتضى تسخيره وحكمه ﴿وَ﴾ أنتم تركبون عليها ﴿لِتَبْتَغُوا﴾ وتطلبوا ﴿مِن فَضْلِهِ﴾ بالتجارة والاصطياد والغوص، وغير ذلك من الأغراض﴿وَ﴾ إنما سخر وسهل ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الجاثية: 12] نعمه، وتواظبون على أداء حقوق كرمه.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿سَخَّرَ لَكُم﴾ وهيأ لتربيتكم وتدبير معاشكم مظاهر ﴿مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا﴾ إذ أنتم زبدة الكائنات، وخلاصة الموجودات كل ذلك لكم متنشئة منه سبحانه، مستندة إليه أولاً وبالذات، فعليكم ألا تسندوها إلى الوسائل والأسباب العادية ﴿مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: 13] في آلاء الله، وسوابغ نعمائه، وكيفية ظهور العالم منه سبحانه وصدوره عنه، وارتباطه له.

ثم قال سبحانه على سبيل العظة والتذكير: ﴿قُل﴾ يا أكمل الرسل نيابة عنها: ﴿لِّلَّذِينَ آمَنُوا﴾ تذكرة للمؤمنين وتهذيبًا لأخلاقهم: اغفروا واصفحوا واعفوا سيما المسيئين؛ ليكون العفو والغفران ديدنة راسخة في نفوسكم حتى ﴿يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ﴾ أي: للكافرين الذين ﴿لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ﴾أي: انعكاس الدول وتقلبها عليهم، اغترارًا بما عندهم من الثروة والجاه، وإنما أمر سبحانه المؤمنين بالصفح والعفو عن المسيء ﴿لِيَجْزِيَ﴾ سبحانه جزاء حسنًا ﴿قَوْما﴾ من المتخلقين بالعفو عند المقدرة، وكظم

والإشارات التي خلت عنها سائر الكتب ﴿بِلِسَانِكَ﴾ وبناء على لغتك ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ أي: الأعراب ﴿يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الدخان: 58] أي: يفهمونه ويتعظون بما فيه، كي يتفطنوا إلى كنوز رموزه وبعدما لم يؤمنوا بك ولم يقصدوا كتابك، فكيف التذكر والاتعاظ بما فيه، وبالجملة: ﴿فَارْتَقِبْ﴾ وانتظر يا أكمل الرسل ما ينزل عليهم من العذاب ﴿إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ﴾ [الدخان: 59] منتظرون أيضًا بما ينزل عليك من القهر والغضب على زعمهم الفاسد.

جعلنا الله من المتذكرين الفائزين من عنده سبحانه بالفوز العظيم بمنه وجوده.

خاتمة السورة

عليك أيها السالك المراقب لنفحات الحق ونسمات لطفه الموهبة من عالم قدسه في عموم أحوالك: أن تلازم بالتقوى عن محارم الله، والاجتناب عن منهياته المنافية لآداب العبودية، وتداوم على التخلق بالأخلاق المرضية الإلهية، والاشتغال بالطاعات المقربة نحوه، والإعراض عن الملاهي الملهية عن التوجه إليه؛ لتكون من جملة المتقين الفائزين من عنده سبحانه بالفوز العظيم والفضل الكريم.

الغيظ عند الغضب ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الجاثية: 14][1]. من الإحسان بدل الإساءة؛ لأن ﴿مَنْ عَمِلَ﴾ عملاً ﴿صَالِحا فَلِنَفْسِهِ﴾ أي: يعود نفعه إليه ﴿وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ وبال إساءته ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [الجاثية: 15] جميعًا، يحاسبكم على أعمالكم، ويجازيكم بمقتضاها، لكن ما أخذ الله سبحانه عباده إلا بعد أن يرسل عليهم رسلاً مبشرين ومنذرين وينزل عليهم كتبًا مبينةً طريق الهداية والرشاد، فإن اهتدوا فقد فازوا بصلاح الدارين وإن اعتدوا فقد ضلوا عن سواء السبيل، واستحقوا بالعذاب الأليم.

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الجاثية: 16-20].

كما أخبر سبحانه حكاية عن ضلال بني إسرائيل وانحرافهم عن سواء السبيل: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا﴾ بمقتضى فضلنا وجودنا ﴿بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ﴾ أي: التوراة المبينة لهم طريق الهداية والرشاد ﴿وَالْحُكْمَ﴾ أي: الحكمة المنبئة عن العدالة الإلهية في قطع الخصومات ﴿وَالنُّبُوَّةَ﴾ إذ أكثر الأنبياء بعث منهم وإليهم ﴿وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أي:

---

(1) قال الله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ قال مقاتل والكلبي: وذلك، أن رجلًا من الكفار من قريش، شتم عمر ﷺ بمكة، فهم عمر بأن يبطش به، فأمره الله بأن يتجاوز عنه. فقال: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ يعني: عمر ﴿يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ﴾ يعني: يتجاوزوا، ولا يعاقبوا الذين ﴿لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ﴾ يعني: لا يخافون عقوبته التي أهلك بها عادًا وثمودًا، والقرون التي أهلكت قبلهم، يعني: لا يخشون مثل أيام الأمم الخالية، قال قتادة: ثم نسختها آية القتال ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشهور عِندَ الله اثنا عَشَرَ شَهْرًا في كتاب الله يَوْمَ خَلَقَ السماوات والارض مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذلك الدين القيم فَلاَ تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا۟ المشركين كَآفَّةً كَمَا يقاتلونكم كَآفَّةً واعلموا أَنَّ الله مَعَ المتقين﴾ [التوبة:36] ثم قال: ﴿لِيَجْزِىَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ يعني: يجزيهم بأعمالهم في الآخرة. قال مجاهد: ﴿لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ﴾ يعني: لا ينالون نعم الله، قرأ حمزة والكسائي، وابن عامر لِنَجْزِيَ بالنون على الإضافة إلى نفسه، والباقون لِيَجْزِيَ بالياء؛ أي: ليجزي الله. «بحر العلوم» للسمرقندي (130/4).

سورة الجاثية

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة سورة الجاثية[1]

لا يخفى على أرباب العزة المتحققين بمقتضيات الفطرة الأصلية التي فطروا عليها من المعرفة واليقين أن المظاهر العلوية والسفلية من الآفاق والأنفس والغيب والشهادة إنما ظهرت وبرزت من مكمن الغيب وعالم العماء؛ ليستدل الوالهون

---

(1) جثا جثوا وجثوا كجذا جذوا وجذوا إذا قام على أطراف أصابعه ، وعده أبو عبيدة في البدل وأما ابن فقال ليس أحدًا لحرفين بدلًا من الأخر بل هما لغتان، واجثاه غيره وهو جاث (ج) جثى بالضم مثل جلس جلوسًا وقوم جلوس، والكسر لما بعده من الكسر وبهما قرئ قوله تعالى: ﴿ونذر الظالمين فيها جثيًا﴾ وقال الراغب يصح أن يكون جمعًا نحو باك وبكى، وأن يكون مصدرًا موصوفًا به وفي الحديث: فلان من جثى جهنم؛ أي: ممن يجثو على الركب فيها، وجاثيت ركبتي الى ركبته، وفى بعض نسخ الصحاح جائيته، وتجاثوا على الركب في الخصومة مجاثاة وجثاء وهما من المصادر الآتية على غير أفعالها، والجثاء كسحاب الشخص ويضم، نقله الصاغانى وأيضًا الجزاء والقدر والزهاء، يقال جثاء كذا؛ أي زهاؤهم وجثى كسمى جبل بين فدك وخيبر وضبطه نصر كربى، وقال جبل من جبال أجا مشرف على رمل طيء، وجثوت الأبل، والغنم جثوًا، وجثيتها جثيًا جمعتها نقله الصاغاني، ومما يستدرك عليه الجاثية في قوله تعالى: ﴿وترى كل أمة جاثية﴾ موضوع موضع الجمع كقولك جماعة قائمة وجماعة قاعدة قاله الراغب، وبه سميت سورة الجاثية وهى التى تلى الدخان، وقال ابن شميل يقال للرجل العظيم الجثوة بالضم والجثا الجماعة ومنه الحديث «يصيرون يوم القيامة جثا كل أمة تتبع نبيها» والجثوة القبر ومنه قول طرفة: ترى جثوتين من تراب عليهما * صفائح صم من صفيح مصمد، والجمع الجثا ومنه قول عدى يمدح النعمان عالم بالذى يكون نقى السدر عف على جثاه يحور، أراد ينحر النسك على جثا آبائه؛ أي: على قبورهم، وقيل الجثا صنم كان يذبح له، والجثوة الربوة الصغيرة، وقيل هي الكومة من التراب، وفي حديث عامر: رأيت قبور الشهداء جثا؛ يعني: أتربة مجموعة، والجاثي القاعد، وقيل المستوفز على ركبتيه عن مجاهد، وقال أبو معاذ المستوفز الذى رفع إليتيه ووضع ركبتيه، ويروى فلان من جثا جهنم؛ أي: من جماعات أهل جهنم عن أبى عبيد وفى حديث إتيان المراة مجباة روى مجثاة كأنه أراد جثيت فهى مجثاة؛ أي: حملت على أن تجثو على ركبها، والجث الجاثوم بالليل، والتجاثي في إشالة الحجر مثل التجاذي. «تاج العروس» (8322/1).

الرزق الصوري والمعنوي ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿فَضَّلْنَاهُمْ﴾ بإفاضة النعم الجليلة عليهم ﴿عَلَى العَالَمِينَ﴾ [الجاثية: 16] من أهل عصرهم.

﴿وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ﴾ دلائل مبينات منبهات موضحات ﴿مِّنَ الأَمْرِ﴾ أي: التوحيد الذاتي الذي أنت يا أكمل الرسل تبعث عليه وعلى تبيينه، وبالجملة: ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا﴾ في شأنك أي: ﴿إِلَّا مِن بعد ما جَاءَهُمُ العِلْمُ﴾ القطع في كتبهم وعلى ألسنة رسلهم بأنك وكتابك ودينك يا أكمل الرسل على الحق، وما أنكروا لك إلا ﴿بَغْيًا﴾ وطغيانًا ناشئًا بينهم حسدًا وعدوانًا بلا مستند عقلي أو نقلي، فاصبر يا أكمل الرسل على مضضهم، وغيظهم ﴿بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ﴾ الذي اصطفاك بكرامته، واجتباك لرسالته ﴿يَقْضِي﴾ ويحكم ﴿بَيْنَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الجاثية: 17] يعني: في شأنك ودينك وكتابك، بعدما عرفوا صدقك وحقية كتابك بالدلائل العقلية والنقلية بأنواع المؤاخذة والمجازاة.

﴿ثُمَّ﴾ اعلم يا أكمل الرسل إنا من مقام فضلنا وجودنا ﴿جَعَلْنَاكَ﴾ تابعًا مقتديًا مقتفيًا ﴿عَلَى شَرِيعَةٍ﴾ وطريقة منبئة موضحة ﴿مِّنَ الأَمْرِ﴾ الذي أنت تظهر عليه، وأتيت لتنبيهه، ألا وهي الحقيقة التي هي عبارة عن الوحدة الذاتية الإلهية ﴿فَاتَّبِعْهَا﴾ أي: الشريعة الموصلة إلى الحقيقة بالعزيمة الخالصة ﴿وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ القوم الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: 18] فكيف ينكشفون بسرائرها وحكمها، ولا تقبل منهم أباطيلهم الناشئة وآراءهم الفاسدة وأحلامهم السخيفة الكاسدة.

وبالجملة: ﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ﴾ غضب ﴿اللهِ شَيْئًا﴾ إن تعلقت مشيئته بطردك ومقتك بسبب موالاتهم ومتابعتهم ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ الخارجين عن مقتضى الحدود الإلهية، المنحرفين عن جادة العدالة الفطرية ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ لكمال منسابتهم وموالاتهم؛ إذ الجنسية علة الانضمام وعلامة الالتئام بينهم، فعليك الإعراض والانصراف عنهم وعن موالاتهم ﴿وَاللهُ﴾ المطلع على عموم ما في ضمائر عباده ﴿وَلِيُّ المُتَّقِينَ﴾ [الجاثية: 19] الذين يتقون عن محارم الله، ويوالون أولياء الله لله وفي الله.

﴿هَذَا﴾ الذي ذكر في كتابك من الأخلاق المرضية، المنبهة على القسط الحقيقي والعدل الإلهي ﴿بَصَائِرُ لِلنَّاسِ﴾ يبصرهم طريق الهداية، ويوصلهم إلى التوحيد الذاتي، إن استقاموا عليها بالعزيمة الصادقة الصحيحة ﴿وَهُدًى﴾ يهديهم إلى سواء السبيل

المستغرقون في مطالعة جمال الله وجلاله من صحائف الكائنات على شئون الحق وتطوراته؛ لذلك نبه سبحانه حبيبه ﷺ على ذلك بعدما تيمن باسمه الكريم: ﴿بِسْمِ اللهِ﴾ الذي ظهر على ما ظهر بمقتضى حكمته ﴿الرَّحْمَنِ﴾ لعموم بريته بسعة رحمته ﴿الرَّحِيمِ﴾ لخواصهم بمزيد عطيته التي هي وصولهم إلى ينبوع وحدته.

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٣ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٤ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٥ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾ [الجاثية: 1-6].

﴿حم﴾ [الجاثية: 1] يا حاوي الوحي والإلهام ومزيل الشبه الحادثة من الأوهام وذي الأحلام.

﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ﴾ الجامع لجميع مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم على الإطلاق ﴿مِنَ اللهِ﴾ المحيط لعموم الأنفس والآفاق ﴿الْعَزِيزِ﴾ المنيع ساحة عز حضوره عن أن يحيط به الإدراك ﴿الْحَكِيمِ﴾ [الجاثية: 2] المتقن في أفعاله، بحيث لا يكتنه حكمته أصلاً.

اعلموا أيها الأظلال الهالكة في شمس الذات ﴿إِنَّ فِي﴾ خلق ﴿السَّمَوَاتِ﴾ ورفعها وتنظيمها مطبقة ﴿وَ﴾ في خفض ﴿الأَرْضِ﴾ وبسطها ممهدة ﴿لآيَاتٍ﴾ دلائل واضحات وشواهد لائحات على كمال قدرة الصانع الحكيم ومتانة حكمته وتدبيراته ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الجاثية: 3] الموقنين بوحدة الحق وكمال أسمائه وصفاته، هذا في خلق الآفاق.

﴿وَفِي خَلْقِكُمْ﴾ أي: في خلق أنفسكم وإيجادكم من كتم العدم ﴿وَ﴾ كذا في أنفس ﴿مَا يَبُثُّ﴾ ينتشر ويتفرق على الأرض ﴿مِن دَابَّةٍ﴾ مركبة من العناصر متحركة على وجه الأرض من أنواع الحيوانات والحشرات وأصنافها ﴿آيَاتٌ﴾ دلائل وشواهد واضحات ﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية: 4] [1] وحدة الحق وينكشفون بشؤونه وتجلياته

(1) قال الورتجبي: أي: ما بان في السماوات والأرض بان في خلق الإنسان والحيوان أيضًا، فما بان في السماوات والأرض للمؤمنين بان في خلق الإنسان والحيوان للموقنين؛ لأن ما بان في خلق

﴿وَرَحْمَةٌ﴾ نازلة من قبل الحق ﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية: 20] يوفقون للإيمان والإيقان والكشف والعيان.

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الجاثية: 21-24].

ثم قال سبحانه: ﴿أَمْ حَسِبَ﴾ الغافلون الضالون المسرفون ﴿الَّذِينَ اجْتَرَحُوا﴾ واكتسبوا طول عمرهم ﴿السَّيِّئَاتِ﴾ المبعدة لهم عن طريق الحق وسبيل الهداية ﴿أَنْ نَجْعَلَهُمْ﴾ ونصيرهم بعدما رجعوا إلينا ﴿كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ المقربة لهم إلى الحق وتوحيده، أي: مثلهم بلا مزية لهم عليهم، بل ظنوا أنهم وهم ﴿سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ السياق يدل على أن التفسير على قراءة بن عامر ونافع وغيرهما: ﴿سَوَاءٌ﴾ يعني: حياة المشركين ومماتهم عندنا كحياة الموحدين المخلصين ومماتهم؟ كلا وحاشا ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: 21] أي: حكمهم هذا، وما حكموا به لأنفسهم أولئك الجاحدون الجاهلون.

﴿وَ﴾ كيف يحكم الحكيم المتقن في عموم أحكامه وأفعاله بمساواة المطيع والعاصي، مع أنه ﴿خَلَقَ اللَّهُ﴾ المستوى بالعدل القويم على عروش عموم المظاهر ﴿السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ ملتبسة بالحق، أي: بالعدالة الصورية المنبئة عن العدالة المعنوية الحقيقية، وإنما خلقها كذلك ﴿بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ من خير وشر، بعدما أمر الحق بما أمر، ونهى عن ما نهى ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الجاثية: 22] في أجور أعمالهم وجزائهم زيادة ونقصانًا.

﴿أَفَرَأَيْتَ﴾ أيها المعتبر الرائي إلى ﴿مَنِ اتَّخَذَ﴾ أي: إلى الجاحد الجاهل المعاند الذي اتخذ ﴿إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ أي: ما يهواه، وكيف أطاع من يتمناه وعبد إلى ما يحبه ويرضاه، ولم يفوض أمره إلى مولاه ﴿وَ﴾ ما ذلك إلا أن ﴿أَضَلَّهُ اللَّهُ﴾ العليم الحكيم

التي لا تعد ولا تحصى.

﴿وَ﴾ كذا في ﴿اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ وإيلاجهما وازديادهما وانتقاصهما في الفصول الأربعة حسب الأوضاع الفلكية وأشكالها، وارتفاع الشمس وانحطاطها ﴿وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ المدبر لأمور عباده ﴿مِنَ﴾ جانب ﴿السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ﴾ بعد تصعيد الأبخرة والأدخنة وتراكمها سحبًا وصيرورتها ماء في غاية الصفاء ﴿فَأَحْيَا بِهِ﴾ بإنزال المطر ﴿الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ يبسها وجفافها ﴿وَ﴾ في ﴿تَصْرِيفِ الرِّيَاحِ﴾ السائقة للسحب إلى الأراضي الميتة اليابسة، بعدما تعلق إرادته سبحانه بإحيائها ﴿آيَاتٌ﴾ أنواع من الدلائل القاطعة والبراهين الساطعة على وحدة القادر العليم الحكيم ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الجاثية: 5] يستعملون عقولهم في كيفية انبعاث هذه الأوضاع والحركات، وارتباط بعضها مع بعض، وترتب الأمور الغير المحصورة عليها، وانشعاب الحوادث الغير المتناهية منها.

وبالجملة: ﴿تِلْكَ﴾ الآيات المجملة الكلية ﴿آيَاتُ اللَّهِ﴾ أي: بعض آياته الدالة على نبذ من كمالاته، وإلا فلا يفي ذرك أحد من عباده لتفصيل كمالاتها كلها ﴿نَتْلُوهَا﴾ ونقصها ﴿عَلَيْكَ﴾ يا أكمل الرسل تأييدًا لأمرك وتعظيمًا لشأنك ملتبسة ﴿بِالْحَقِّ﴾ بلا ريب فيه وتردد، وإنما نتلوها عليك لتبين لهم بها طريق توحيدنا، وتنبههم على وحدة وكمالات أسمائنا وصفاتنا ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ﴾ أي: فهم بأي كلام وقول ﴿بَعْدَ﴾ نزول كتاب ﴿اللَّهِ وَآيَاتِهِ﴾ المنزلة من عنده المبينة لتوحيده ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية: 6] يذعنون ويوقنون.

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ

الإنسان حقيقة مباشرة الصفة في الفعل، وذلك يوجب حقيقة اليقين، وبين اليقين والإيمان فروق كثيرة، وحقيقة الإيمان هو اليقين؛ حين باشر الأسرار بظهور الأنوار، ألا ترى كيف سأل النبي ﷺ بقوله: «اللَّهُمَّ إنِّي أسألك إيمانًا يباشرُ قلبي ويقينًا ليس بعده كفرٌ». قال بعضهم: في شواهد القدرة وآثار الصنع دلالاتٌ وآياتٌ على وحدانيته، فمن استشهد بها على وحدانيته فهو الموحِّد، ومن كان نظره إلى القادر الصانع المبدي لها ثم يرجع إلى الصنع والقدرة فهو العارف.

باسمه المذل المضل مع أنه أظهره سبحانه ﴿عَلَى﴾ صورة ذي ﴿عِلْمٍ﴾ وجبله على فطرة أولى المعرفة والتوحيد ﴿وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ﴾ لئلا يسمع كلامه الحق من أهله ﴿وَخَتَمَ﴾ أيضًا ﴿على قَلْبِهِ﴾ لئلا يتفكر في آيات الله ودلائل توحيده ﴿وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾ غليظة وغطاء كثيفًا، لئلا يعتبر من عجائب مصنوعاته سبحانه وغرائب مخترعاته، مع أنه خلقه سبحانه كذلك ﴿فَمَن يَهْدِيهِ﴾ ويرشده أي: ينقذه من الضلال ﴿مِنْ بَعْدِ﴾ إضلال ﴿اللهِ﴾ إياه وإذلاله ﴿أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: 23] وتتفطنون من تبدل أحواله أيها العقلاء المجبولون على فطرة العبرة والعظة من غاية غوايتهم وضلالهم، عن مقتضى كمال قدرة الله، وعدم تنبههم وتفطنهم بوحدة ذاته، وكمال أسمائه وصفاته، واستقلاله في تدبيراته وتصرفاته.

﴿وَقَالُوا﴾ منكرين الحشر والنشر: ﴿مَا هِيَ﴾ أي: ما الحال والحياة ﴿إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا التي نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ فيها لا منزل لنا سواها، ولا سكن لنا غيرها ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَا يُهْلِكُنَا﴾ ويميتنا فيها ﴿إِلَّا الدَّهْرُ﴾ أي: مر الزمان وكر الأعوام، لا فاعل سواه، ولا متصرف إلا هو ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿مَا لَهُم بِذَلِكَ﴾ الذي صدر عنهم ﴿مِنْ عِلْمٍ﴾ عقلي أو نقلي أو كشفي بل أن ﴿هُمْ﴾ أي: ما هم باعتقادهم هذا ﴿إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: 24] ظنًا على وجه التقليد والتخمين بلا سند لهم يستندون إليه، سوى الأُلف بالمحسوسات والتقليد بالرسوم والعادات.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الجاثية: 25-29].

﴿وَ﴾ من نهاية جهلهم وغفلتهم عن الله وعن مقتضى ألوهيته وربوبيته ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾ الدالة على كمال تربيتنا إياهم مع كونها ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ مبينات لهم طريق الهداية والرشاد، منبهات لهم إلى ميعاد المعاد ﴿مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ﴾ حين سمعوها ﴿إِلَّا أَن قَالُوا﴾ على سبيل الإنكار والاستبعاد ﴿ائْتُوا بِآبَائِنَا﴾ وأسلافنا الذين مضوا وانقرضوا

أحياء كما كانوا ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الجاثية: 25][1] في دعوى الحشر والنشر والميعاد الجسماني.

وبعدما أعرضوا عن الحق وانصرفوا عن الآيات البينات، وتشبثوا بأمثال هذه الحجج الواهية: ﴿قُلِ﴾ لهم يا أكمل الرسل كلامًا يحرك سلسلة حميتهم الفطرية، ومحبتهم الجبلية لو ساعدهم التوفيق والعناية من عندنا: ﴿اللَّهُ﴾ المظهر للكل، المحيط به، المتصرف فيه على الإطلاق بالاختيار والاستحقاق ﴿يُحْيِيكُمْ﴾ ويبعثكم في النشأة الأخرى كما أوجدكم وأظهركم من كتمَ العدم أولاً في النشأة الأولى، يبسط ظله عليكم ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ ويعدمكم بقبضه عنكم ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ﴾ أي: أنتم ومن انقرض من آبائكم ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ الذي ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ وفي وقوع ما فيه من الحساب والجزاء والسؤال والصراط والجنة والنار وسائر المعتقدات الأخروية ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ المجبولين على الكفران والنسيان ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: 26] وقوعه وقيامه، بل ينكرون عليه لاعتيادهم بالأمور الحسية، وقصورهم عن مدركات الكشف والشهود.

﴿وَ﴾ كيف ينكرون جمع الله عباده في النشأة الأخرى؛ إذ ﴿لِلَّهِ﴾ المتوحد في الألوهية والربوبية ﴿مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وملكوتهما، وله التصرف المطابق في ملكه وملكوته بالاستقلال، إرادة واختيارًا ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ المعدة للحشر والجزاء ﴿يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ﴾ [الجاثية: 27] المنكرون حين يشهدون ربح المحقين المؤمنين بقيام الساعة، وبحقية جميع ما فيها من الوعد والوعيد.

﴿وَتَرَى﴾ أيها المعتبر الرائي حين تقوم الساعة ويحشر الناس إلى الحشر للحساب ﴿كُلَّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم ﴿جَاثِيَةً﴾ أي: كل فرد من أفراد الأمم ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى

---

(1) القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ يقول تعالى ذكره: وإذا تُتلى على هؤلاء المشركين المكذّبين بالبعث آياتنا، بأن الله باعث خلقه من بعد مماتهم، فجامعهم يوم القيامة عنده للثواب والعقاب (بَيِّنَاتٍ) يعني: واضحات جليات، تنفي الشكّ عن قلب أهل التصديق بالله في ذلك(مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) يقول جل ثناؤه: لم يكن لهم حجة على رسولنا الذي يتلو ذلك عليهم إلا قولهم له: ائتنا بآبائنا الذين قد هلكوا أحياء، وانشرهم لنا إن كنت صادقا فيما تتلو علينا وتخبرنا، حتى نصَدّق بحقيقة ما تقول بأن الله باعثنا من بعد مماتنا، ومحيينا من بعد فنائنا. «تفسير الطبري» (80/22).

﴿إِلَى كِتَابِهَا﴾ بين يدي الله إلى صحيفة أعمالها التي كتب فيها جميع أحوالها وأفعالها الكائنة الحاصلة منها في النشأة الأولى، فيقال لهم حينئذ: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ﴾ كل منكم ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: 28] [1] في نشأتكم الأولى، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر.

وبالجملة: ﴿هَذَا كِتَابُنَا﴾ الذي فصلنا فيه أعمال كل منكم ﴿يَنطِقُ عَلَيْكُم﴾ ويذكركم ﴿بِالْحَقِّ﴾ على الوجه الذي صدر عنكم بلا زيادة ولا نقصان ﴿إِنَّا﴾ بعدما كلفناكم على امتثال أوامرنا، والاجتناب عما نهيناكم عنه ﴿كُنَّا نَسْتَنسِخُ﴾ ونأمر الملائكة الموكلين عليكم، المراقبين لأحوالكم وأعمالكم أن يكتبوا جميع ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: 29] أي: أعمالكم حسناتها وسيئاتها، صغائرها وكبائرها.

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدۡخِلُهُمۡ رَبُّهُمۡ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ وَكُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيۡبَ فِيهَا قُلۡتُم مَّا نَدۡرِي مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُسۡتَيۡقِنِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الجاثية: 30-32].

وبعدما تحاسبون على مقتضى كتبكم وصحائفكم: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [2] أذعنوا وأيقنوا بوحدة الحق، وصدقوا رسله وكتبه ﴿وَ﴾ مع كمال إيمانهم ويقينهم ﴿عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ من الأفعال والأخلاق تقربًا إلى الله، وتأدبًا معه سبحانه بما يليق بعبوديته

---

(1) قال الشيخ ابن عجيبة: فهي عامة للناس في حال الموقف قبل التواصل إلى الثواب والعقاب، فإن أهل الموقف جاثون على الرُّكب، كما هو المعتاد في مقام التفاوّل والخصام، قلت: ولعل هذا فيمن يُناقش الحساب، وأما غيرهم فيلقى عليهم سحابة كنفه، ثم يقررهم بذنوبهم ويسترهم. البحر المديد (3 /479).

(2) بيّن أحوال المطيعين فقال:﴿فَأَمَّا الذين ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الفوز المبين﴾ وفيه مسائل: المسألة الأولى: ذكر بعد وصفهم بالإيمان كونهم عاملين للصالحات، فوجب أن يكون عمل الصالحات مغايرًا للإيمان زائدًا عليه . المسألة الثانية: قالت المعتزلة علق الدخول في رحمة الله على كونه آتيًا بالإيمان والأعمال الصالحة، والمعلق على مجموع أمرين يكون عدمًا عند عدم أحدهما، فعند عدم الأعمال الصالحة وجب أن لا يحصل الفوز بالجنة وجوابنا: أن تعليق الحكم على الوصف لا يدل على عدم الحكم عند عدم الوصف. المسألة الثالثة: سمى الثواب رحمة والرحمة إنما تصح تسميتها بهذا الاسم إذا لم تكن واجبة، فوجب أن لا يكون الثواب واجبًا على الله تعالى. «تفسير الرازي» (14/36 - 37).

وتعظيم شأنه ﴿فَيُدْخِلُهُمْ اليوم رَبُّهُم﴾ الذي يوفقهم على الإيمان والتوحيد في سعة ﴿رَحْمَتِهِ﴾ وفضل وحدته وفضل لطفه ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي بشر به عباده المؤمنين المخلصين ﴿هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ [الجاثية: 30] والفضل العظيم، لا فوز أعظم منه وأعلى.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله وأنكروا وحدة ذاته، بل أثبتوا له شركاء ظلمًا وزورًا، يقال لهم حينئذ من قبل الحق مستفهمًا على سبيل التوبيخ والتقريع: ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أي: ألم يأتكم رسلي، ولم يتلوا عليكم آياتي الدالة على عظمة ذاتي وكمال قدرتي على أنواع الانتقامات والوعيدات، فكذبتم بها وبهم، بل ﴿فَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ على الرسل ومن قبول الآيات ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿كُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [الجاثية: 31][1] مستكبرين، عادتكم الإجرام والعدوان.

﴿وَ﴾ من كمال استكباركم واغتراركم بما عندكم من الجاه والثروة ﴿إِذَا قِيلَ﴾ لكم إمحاضًا للنصح: ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ الذي وعدكم على ألسنة رسله وكتبه ﴿حَقٌّ﴾ مطلقًا، لا بدَّ وأن يقع الموعود منه سبحانه ألبتة بلا خلف في وعده ﴿وَ﴾ لاسيما ﴿السَّاعَةُ﴾ الموعودة آتية ﴿لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ وفي قيامها، وإذا سمعتم كلمة الحق عن أهله ﴿قُلْتُم مَّا نَدْرِي﴾ على وجه الاستبعاد والاستغراب ﴿مَا السَّاعَةُ﴾ الموعودة وما معنى قيامها والإيمان بها ﴿إِن نَّظُنُّ﴾ أي: ما نظن بها وفي شأنها ﴿إِلَّا ظَنًّا﴾ ضعيفًا، بل وهمًا مرجوحًا سخيفًا؛ إذ ما لنا علم بها سوى الاستماع من أفواه الناس ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ [الجاثية: 32] بها حتى نؤمن لها وبقيامها، ونصدق بما فيها من المواعيد والوعيدات.

---

(1) قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الذين كَفَرُواْ أَفَلَمْ تَكُنْ ءاياتي تتلى عَلَيْكُمْ فاستكبرتم وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ وفيه مسائل: المسألة الأولى: ذكر الله المؤمنين والكافرين ولم يذكر قسمًا ثالثًا وهذا يدل على أن مذهب المعتزلة إثبات المنزلتين باطل. المسألة الثانية: أنه تعالى علل أن استحقاق العقوبة بأن آياته تليت عليهم فاستكبروا عن قبولها، وهذا يدل على استحقاق العقوبة لا يحصل إلا بعد مجيء الشرع، وذلك يدل على أن الواجبات لا تجب إلا بالشرع، خلافًا لما يقوله المعتزلة من أن بعض الواجبات قد يجب بالعقل . المسألة الثالثة: جواب﴿أَمَّا﴾ محذوف والتقدير: وأما الذين كفروا فيقال لهم: أفلم تكن آياتي تتلى عليكم فاستكبرتم عن قبول الحق وكنتم قومًا مجرمين فإن قالوا كيف يحسن وصف الكافر بكونه مجرمًا في معرض الطعن فيه والذم له؟ قلنا معناه أنهم مع كونهم كفارًا ما كانوا عدولًا في أديان أنفسهم، بل كانوا فساقًا في ذلك الدين، والله أعلم . «تفسير الرازي» (37/14).

﴿ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۚ فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾
[الجاثية: 33-37].

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿بَدَا﴾ وظهر ﴿لَهُمْ﴾ بعدما تُبلى السرائر، وانكشفت الحجب والأستار ﴿سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ مصرين عليه، وعرفوا وخامة عاقبته ﴿وَ﴾ حينئذ ﴿حَاقَ﴾ وأحاط ﴿بِهِم﴾ جزاء ﴿مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الجاثية: 33].

﴿وَقِيلَ﴾ لهم حينئذ من قبل الحق ﴿الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ﴾ نترككم في النار خالدين ﴿كَمَا نَسِيتُمْ﴾ ونبذتم وراء ظهوركم ﴿لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ بل أنكرتم لقياه، وكذبتم الرسل المبلغين لكم أخباره، المنذرين لكم من أهواله ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَأْوَاكُمُ النَّارُ﴾ أبدًا، لا منزل لكم سواه ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [الجاثية: 34] منقذين لكم منها بعدما استوجبتم بها بمفاسد أعمالكم ومقابح أفعالكم.

﴿ذَٰلِكُم﴾ الذي وقعتم فيها وابتليتم بها ﴿بِأَنَّكُمُ﴾ بسبب أنكم ﴿اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ الدالة على الرشاد والهداية ﴿هُزُوًا﴾ محل استهزاء، واستهزأتم بها بلا مبالاة بشأنها، وأنكرتم عليها بلا تأمل وتفكر في برهانها ﴿وَ﴾ أيضًا بسبب أنكم ﴿غَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ ولذاتها وشهواتها، بحيث لا تلتفتون إلى العقبى ولذاتها الأبدية، بل تنكرون عليها عنادًا ومكابرة ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا﴾ أي: من النار المترتبة على ذلك الاتخاذ والغرور ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [الجاثية: 35] أي: لا يمكنهم أن يعتذروا عند الله، ويتداركوا ما فوتوا على أنفسهم بالتوبة والإنابة؛ إذ قد انقرض أوانه ومضى زمانه.

وبعدما ثبت أن مرجع الكل إلى الله ومحياه ومماته بيده، وله أن يثيب ويعاقب عباده على مقتضى فضله وعدله ﴿فَلِلَّهِ﴾ على وجه الاختصاص لا لغيره من الوسائل والأسباب العادية ﴿الْحَمْدُ﴾ المستوجب لجمع الأثنية، والمحامد الصادرة من ألسنة ذرائر مظاهره، لكونه ﴿رَبِّ السَّمَاوَاتِ﴾ أي: العلويات ﴿وَرَبِّ الْأَرْضِ﴾ أي: السفليات،

ورب ما يتركب منهما من الممتزجات، وبالجملة: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الجاثية: 36] أي: مربي الكل، هو بذاته علوًا وسفلاً، بسيطًا ومركبًا، غيبًا وشهادةً.

﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ﴾ والعظمة ﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ تدبيرًا وتصرفًا، حلاً وعقدًا؛ إذ ظهور الكل من آثار أوصافه وأسمائه ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب على عموم تدابيره وتقاديره، إرادة واختيارًا ﴿الْحَكِيمُ﴾ [الجاثية: 37] المتقن في جميع مقدوراته ومراداته على الوجه الأبلغ الأحكم.

فعليكم أيها المجبولون على فطرة العبودية والعرفان: أن تحمدوه وتكبروا ذاته، وتشكروا نعمه؛ لتؤدوا شيئًا من حقوق كرمه، إن كنتم مخلصين.

جعلنا الله من زمرة الحامدين المخلصين

خاتمة السورة

عليك أيها السالك المتحقق بمقام الرضا والتسليم، المنكشف بعظمة الله وكمال كبريائه وعلو شأنه وبهائه: أن تواظب وتلازم على أداء الشكر له، ملاحظًا نعمه الفائضه المترادفة عليك، المتجددة آنًا فآنًا، بحيث تستغرق جميع أوقاتك وحالاتك بشكره سبحانه؛ إذ علامة العارف الواصل ألا يرى في مملكة الوجود سواه سبحانه، ولا يتكلم إلا به ومعه وفيه وله، لا إله إلا هو، ولا نعبد إلا إياه.

سورة الأحقاف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة الأحقاف

لا يخفى على من انكشف بسلطنة الحق واستيلائه التام على عروش عموم مظاهرة: أن إثبات الوجود لما سواه وادعاء التحقق والثبوت لغيره من الأظلال الهالكة في شمس ذاته، إنما هو زور ظاهر وقول باطل، بل ما ظهر إلا من انعكاس أشعة أسمائه وآثار أوصافه الذاتية الصادرة منه سبحانه حسب شئونه وتجلياته الحبية؛ ليستدل بها من جبل على فطرة الدراية والشعور على وحدة ذاته وكمال أسمائه وصفاته؛ لذلك خاطب سبحانه حبيبه بما خاطب وأوصاه بما أوصى، بعدما تيمن باسمه العلى.

﴿بِسْمِ اللهِ﴾ المنزل للكلم مفصحًا عما عليه قضاؤه وإراداته ﴿الرَّحْمَنِ﴾ للعموم عباده يصلح أحوالهم على مقتضى حكمته ﴿الرَّحِيمِ﴾ لهم يوصلهم إلى منبع رحمته وفضاء وحدته.

﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ ﴾ [الأحقاف: 1-5].

﴿حم﴾ [الأحقاف: 1] يا من حمل أعباء الرسالة بحولنا وقوتنا، ومال إلى جناب قدسنا بالميل الذاتي الحقيقي بعد مساعدة توفيقنا وجذب من جانبنا ﴿تَنزِيلُ الكِتَابِ﴾ الذي أنزل إليك لتأييد أمرك، وضبط شرعك ودينك ﴿مِنَ اللهِ﴾ المطلع لما في استعدادات عباده ﴿العَزِيزِ﴾ الغالب على جميع ما دخل في حيطة قدرته وإرادته ﴿الحَكِيمِ﴾ [الأحقاف: 2] في مطلق تدابيره الصادرة منه لضبط مصالح عباده.

ثم التفت سبحانه تهويلاً وتفخيمًا لحكمه فقال: ﴿مَا خَلَقْنَا﴾ وأظهرنا من كتم

العدم ﴿السَّمَوَاتِ﴾ أي: آثار الأسماء والصفات الذاتية ﴿وَالأَرْضَ﴾ أي: عالم الاستعدادات القابلة لانعكاس أشعة أنوار الذات الفائضة عليها حسب الشئون والتطورات الجمالية والجلالية ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من الآثار المتراكمة من امتزاج الفواعل الأسمائية من الآثار الناشئة من قوابل المسميات والهيولي ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي: خلقًا ملتبسًا بالصدق المطابق للواقع ﴿وَ﴾ قدرنا بقاء ظهورها إلى ﴿أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ أي: وقت مقدر عندنا، محفوظ في خزانة حضرة علمنا ولوح قضاتنا لا نطلع أحدًا عليه، فإذا جاء الأجل المسمى انعدم الكل بلا تقدم وتأخر ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وأنكروا كمال قدرتنا واقتدارنا على إيجاد الأشياء وإعدامها وإبدائها وإعادتها ﴿عَمَّا أُنذِرُوا﴾ من أهوال يوم القيامة المعدة لانعدام الكل وانقهار الأظلال الهالكة في شروق شمس الذات ﴿مُعْرِضُونَ﴾ [الأحقاف: 3] لذلك لا يترددون له، ولا يتهيئون أسبابه، ولا يستعدون لحلوله.

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل بعدما أفرطوا في الإعراض عن الله وعن توحيده وأثبتوا له شركاء ظلمًا وزورًا، مستفهمًا على سبيل الإلزام والتبكيت: ﴿أَرَأَيْتُم﴾ أي: أخبروني ﴿مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ وتتخذون آلهة سواه وتعتقدونهم شركاء معه في الأرض ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا﴾ أي: أي: شيء أوجدوا ﴿مِنَ الأَرْضِ﴾ حتى اتصفوا بالخالقية واستحقوا بالمعبودية والربوبية، وأخبروني هل تنحصر شركتهم مع الله بعالم العناصر والمسببات ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ﴾ أيضًا ﴿فِي السَّمَوَاتِ﴾ وعالم الأسباب ﴿ائْتُونِي بِكِتَابٍ﴾ نازل من قبل الحق ﴿مِّن قَبْلِ هَذَا﴾ القرآن يؤمر فيه باتخاذ هؤلاء الهلكى آلهة سوى الله، مستحقة بالعبادة ﴿أَوْ أَثَارَةٍ﴾ ائتوني ببقية ﴿مِّنْ عِلْمٍ﴾ دليل عقلي أو نقلي، قد بقى لكم من أسلافكم، يدل على إيثارهم واختيارهم آلهة شركاء معه سبحانه في ألهويته، وبالجملة: ائتوني بسند صحيح أن ﴿كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأحقاف: 4] في دعوى الشركة مع الله المنزه عن التعدد مطلقًا.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَنْ أَضَلُّ﴾ طريقًا وأسوأ سبيلاً وأشد سفها وحماقة ﴿مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ﴾ السميع العليم البصير الحكيم القدير الخبير، المستقل في تصرفاته بالإرادة والاختيار ﴿مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ﴾ أي: أصنامًا لا يسمع دعاءه، ولا يجيب ولا يعلم بحاله، ولا يدبر له أموره، وإن دعاه وتضرع نحوه ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ أي: أبدًا ما دامت الدنيا بل ﴿وَهُمْ﴾ أي: معبوداتهم الباطلة ﴿عَن دُعَائِهِمْ﴾ أي: عن دعاء عابديهم

﴿غَافِلُونَ﴾ [الأحقاف: 5] ذاهلون، لا شعور لهم حتى يفهموا أو يجيبوا.

﴿ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٩﴾ ﴾ [الأحقاف: 6-9].

﴿وَ﴾ هم قد عبدوهم معتقدين نفعهم، ولم يعلموا أنهم ﴿إِذَا حُشِرَ النَّاسُ﴾ وجمعوا في الحشر للحساب والجزاء ﴿كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً﴾ أي: المعبودين للعابدين، بل ﴿وَكَانُوا﴾ أي: المعبودين ﴿بِعِبَادَتِهِمْ﴾ أي: العابدين لهم ﴿كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: 6] منكرين جاحدين.

﴿وَ﴾ هم كانوا من شدة غيهم وضلالهم عنا وعن توحيدنا ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾ الدالة على وحدة ذاتنا وكمال أسمائنا وصفاتنا مع كونها ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ واضحات مبينات، لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ﴾ الصريح المبين ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ أي: حين جاءهم ليهديهم ويبين لهم طريق الحق وتوحيده ﴿هَذَا﴾ المتلو ﴿سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [الأحقاف: 7] ظاهر كونه سحرًا باطلاً، وهذا التالي ساحر عظيم، إنما قالوا هكذا ونسبوا إلى ما نسبوا؛ لعجزهم عن إتيان مثله، مع إنهم من أرباب اللسن ووفور دواعيهم بالمعارضة معه.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ أي: بل انصرفوا عن سبته إلى السحر إلى أفحش من ذلك، وهو الافتراء فيقولون: اختلقه هذا المدعي من تلقاء نفسه ونسبه إلى ربه تغريرًا وترويجًا ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل بعدما نسبوا كتابك إلى الفرية كلامًا مفصحًا لهم عن حقيقة الأمر وحقيته لو تأملوا فيه: ﴿إِنِ افْتَرَيْتُهُ﴾ واختلقته من عندي ونسبته إلى الله زورًا وبهتانًا، فيأخذني العزيز بإثم الافتراء ألبتة، وإن أخذني ﴿فَلَا تَمْلِكُونَ﴾ ولا تدفعون ﴿لِي مِنَ اللهِ شَيْئًا﴾ حين أخذني وانتقم، وبالجملة: ﴿هُوَ﴾ سبحانه ﴿أَعْلَمُ﴾ بعلمه الحضوري ﴿بِمَا تُفِيضُونَ﴾ وتخوضون ﴿فِيهِ﴾ أي: في كلامه بما يليق به ويشانه سبحانه من نسبته إلى السحر والافتراء وتكذيبه بأنواع وجوه المراء ﴿كَفَى بِهِ﴾ أي: كفى

الله ﴿شَهِيدا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أي: بيننا يجازينا على مقتضى علمه وخبرته بي وبكم ﴿وَهُوَ الغَفُورُ﴾ المبالغ في الستر والعفو لمن استغفر له ﴿الرَّحِيمُ﴾ [الأحقاف: 8] لمن تاب ورجع نحوه نادمًا عن ما صدر عنه، يقبل توبته ويمحو زلته.

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل بعدما اقترحوا عليك من الآيات التي تهواها نفوسهم ليلزموك ويعجزوك: ﴿مَا كُنتُ بِدْعًا﴾ رسولاً بديعا ﴿مِّنَ﴾ بين ﴿الرُّسُلِ﴾ مبتدعًا أمرًا غريبًا مدعيًا الإتيان، بل ﴿وَ﴾ الله ﴿مَا أَدْرِي﴾ وأعلم بحال نفسي ﴿مَا يُفْعَلُ بِي﴾ وكيف يصنع معي ﴿وَلاَ بِكُمْ﴾ أي: وكيف بما يصنع بكم، بل أن ﴿أَتَّبِعُ﴾ أي: ما أتبع ﴿إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ من قبل ربي ويطلعني عليه ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ﴾ من قبل الحق ﴿مُّبِينٌ﴾ [الأحقاف: 9] مبين موضح مظهر لكم بإذنه ما أوحى إلى من وحيه، وما لي إلا التبليغ والإنذار، والتوفيق من الله العليم الحكيم.

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ ﴾ [الأحقاف: 10-12].

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل بعدما أقر رأيهم على أن القرآن مختلق من عندك، افتريته على الله، أو سحر نسبته إلى الله تغريرًا وترويجًا: ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ أخبروني أن ﴿كَانَ﴾ القرآن ﴿مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ العليم العلام ﴿وَكَفَرْتُم بِهِ﴾ بلا مستند لكم في تكذيبه وإنكاره ﴿وَ﴾ الحال أنه قد ﴿شَهِدَ شَاهِدٌ﴾ حبر ماهر ﴿مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ عالم بالتوراة ﴿عَلَى مِثْلِهِ﴾ أي: على مثل ما في القرآن، يعني: أقر واعترف عبد الله بن سلام أنه قرأ في التوراة أحكامًا وأوامر مثل في القرآن، ووجد فيها من أوصاف القرآن ما يلجئه إلى الإيمان به ﴿فَآمَنَ﴾ به وصدق من أنزل إليه، وامتثل بما فيه ﴿وَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾[1] أنتم عن

(1) قال سعد بن أبي وقاص: ما سمعت رسول الله ﷺ يقول لأحد يمشي على وجه الأرض إنه من أهل الجنة إلا لعبد الله بن سلام وفيه نزل: ﴿وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله﴾ الضمير للقرآن أي: على مثله في المعنى وهو ما في التوراة من المعاني المطابقة لمعاني القرآن من

الإيمان والقبول، بل كذبتم به، وأنكرتم عليه ألستم قومًا ضالين ظالمين ؟! ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المطلع على ما في استعدادات عباده ﴿لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأحقاف: 10] الخارجين عن مقتضى حدوده إلى زلال هدايته وتوحيده.

﴿وَ﴾ من شدة شقاقهم ونفاقهم ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: لأجلهم وفي حقهم ﴿لَوْ كَانَ﴾ الإيمان وبما أتى به محمد من الدين ﴿خَيْرًا﴾ مما نحن عليه ﴿مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ بأنواع الكرامة والجاه والثروة إذا هو ومن تبعه كلهم أراذل سقاط رعاة فقراء، فاقدين لوجه الكفاف، ونحن أغنياء ذوو الحظ بين الناس، إنما قالته قريش حين افتخروا على المؤمنين وقصدوا إضلالهم وإذلالهم ﴿وَ﴾ لا تبال يا أكمل الرسل بهم وبعنادهم بك وبكتابك ﴿إِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ﴾ أي: بالقرآن ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ من جهلهم وضلالهم: ﴿هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ [الأحقاف: 11] وأساطير الأولين.

﴿وَ﴾ عليك يا أكمل الرسل أن لا تلتفت إلى هذياناتهم وأباطيلهم؛ إذ جاء ﴿مِن قَبْلِهِ﴾ أي: قبل كتابك ﴿كِتَابُ مُوسَى﴾ أي: التوراة حال كونه ﴿إِمَامًا﴾ مقتدى لقاطبة الأنام ﴿وَرَحْمَةً﴾ شاملة فوائدها على كافة الخواص والعوام ﴿وَهَذَا﴾ الكتاب الذي نزل

التوحيد والوعد والوعيد وغير ذلك . ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وإنه لفي زبر الأولين﴾ [الشعراء: 196] ﴿إن هذا لفي الصحف الأولى﴾ [الأعلى: 18] ﴿كذلك يوحي إليك وإلى الذين من قبلك﴾ [الشورى: 3] ويجوز أن يكون المعنى: إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد على نحو ذلك يعني كونه من عند الله، فإن قلت: أخبرني عن نظم هذا الكلام لأقف على معناه من جهة النظم . قلت: الواو الأولى عاطفة لكفرتم على فعل الشرط كما عطفته ثم في قوله تعالى: ﴿قل أريتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به﴾ [فصلت:52] وكذلك الواو الآخرة عاطفة لاستكبرتم على شهد شاهد وأما الواو في وشهد شاهد فقد عطفت جملة قوله: ﴿شهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم﴾ على جملة قوله: ﴿كان من عند الله وكفرتم به﴾ ونظيره قولك: إن أحسنت إليك وأسأت وأقبلت عليك وأعرضت عني لم نتفق في أنك أخذت ضميمتين فعطفتهما على مثليهما والمعنى: قل أخبروني إن اجتمع كون القرآن من عند الله مع كفركم به واجتمع شهادة أعلم بني إسرائيل على نزول مثله وإيمانه به مع استكباركم عنه وعن الإيمان به ألستم أضل الناس وأظلمهم . وقد جعل الإيمان في قوله: ﴿فآمن﴾ مسببًا عن الشهادة على مثله؛ لأنه لما علم أن مثله أنزل على موسى صلوات الله عليه وأنه من جنس الوحي وليس من كلام البشر وأنصف من نفسه فشهد عليه واعترف كان الإيمان نتيجة ذلك. «الكشاف» (1/ 1193 - 1194).

عليك يا أكمل الرسل ﴿كِتَابٌ مُصَدِّقٌ﴾ لجميع ما مضى من الكتب السالفة ﴿لِسَانًا عَرَبِيًّا﴾ أسلوبًا ونظمًا، إنما جاء كذلك ﴿لِّيُنذِرَ﴾ التفسير هنا على قراءة ابن عامر ونافع وغيرهما بما فيه من الوعيدات الهائلة ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ خرجوا عن مقتضى العدالة الإلهية بمتابعة آرائهم الباطلة المنحرفة عن صراط الحق الحقيق بالإطاعة والاتباع ﴿وَ﴾ ليصير ﴿بُشْرَى﴾ بما فيه من أنواع المواعيد الدالة على كرامة الحق وإحسانه ﴿لِلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأحقاف: 12] من خلص عباده.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ [الأحقاف: 13-15].

إن المحسنين ﴿الَّذِينَ قَالُوا﴾ بعدما تحققوا بمقام العبودية ﴿رَبُّنَا اللَّهُ﴾ الواحد الأحد الصمد المستقل بالألوهية والربوبية ﴿ثُمَّ﴾ بعدما تمكنوا من مقر التوحيد وتمرنوا عليه ﴿اسْتَقَامُوا﴾ فيه ورسخوا بمحافظة الآداب الشرعية والعقائد الدينية الموضوعة لتأييد أرباب المعرفة، وتمكينهم على جادة التوحيد؛ لئلا يطرأ عليهم التزلزل والانحراف عن صراط الحق وسواء سبيله ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ بعدما وصلوا إلى مقر التمكين ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأحقاف: 13] عن التردد والتلوين، وبالجملة: ﴿أُولَٰئِكَ﴾ السعداء المقبولون عند الله ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ المعدة لأرباب العناية ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ بلا تبديل ولا تحويل، وإنما جوزوا ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأحقاف: 14] من الإحسان مع الله بمراعاة الأدب معه سبحانه بملازمة الطاعات والعبادات على وجه الإخلاص والتسليم، ومع عموم عباده بحسن المعاشرة والمصاحبة وأداء حقوق المؤاخاة والموالاة.

ثم أشار سبحانه إلى معظم أخلاق المحسنين المستحقين بخلود الجنة وبالفوز العظيم فيها، فقال: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ﴾ أي: ومن جملة ما ألزمنا على الإنسان الاتصاف به والمحافظة عليه حتمًا إكرامه ﴿بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا﴾ لهما وحسن الأدب معهما، أداءً

لحقوق تربيتهما وحضانتهما له، وكيف لا يحسن إليهما؛ إذ ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ﴾ لأجله حين حبلت به ﴿كُرْهًا﴾ مشقة عظيمة، وألمًا شديدًا، وحملاً ثقيلاً ﴿وَ﴾ حين ﴿وَضَعَتْهُ﴾ أيضًا ﴿كُرْها﴾ أشد من مشقة الحمل، وأكثر ألمًا منها ﴿وَ﴾ ليست مشقتها ومقاساتها زمانًا قليلاً، بل ﴿حَمْلُهُ﴾ أي: مدة حمل أمة إياه في بطنها ﴿وَفِصَالُهُ﴾ أي: مدة فطامه عن لبنها كلاهما ﴿ثَلاثُونَ شَهْرا﴾[1] وهي مدة طويلة، ثم بعد فطامه أيضًا تلازم حفظه وحضانته ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ وكمل عقله ورشده ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ إذ القوة العاقلة إنما تكاملت دونها، لهذا قيل: لم يبعث نبي إلا بعد الأربعين إلا نادرًا.

﴿قَالَ﴾ بعدما تذكر نعم الحق الفائضة عليه من بدء فطرته إلى أوان رشده وكماله مناجيًا مع ربه مستمدًا منه: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي﴾ أي: أولعني وحرصني بتوفيقك إياي ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ طول دهري وأواظب على أداء حقوقها حسب طاقتي وقدر قوتي ﴿وَ﴾ كذا أشكر نعمتك التي أنعمت ﴿عَلَى وَالِدَيَّ﴾ إذ أداء حقوقهما، وما لزم عليهما من حقوق نعمك عليك واجبة عليَّ ﴿وَ﴾ كذا حرصني بمقتضى كرمك وجودك ﴿أَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا﴾ مطلقًا على الوجه الذي ﴿تَرْضَاهُ﴾ عني﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿أَصْلِحْ لِي﴾ بمقتضى كرامتك عليَّ عملي، واجعل بفضلك صلاحي ساريًا ﴿فِي ذُرِّيَّتِي﴾ ليكونوا صلحاء مثلي، وارثين مستحقين لكرامتك وعنايتك بهدايتهم

---

(1) فإن قال لنا قائل: فما معنى قوله -إن كان الأمر على ما وصفت-: ﴿وحمله وفصاله ثلاثون شهرا﴾ وقد ذكرت آنفا أنه غير جائز أن يكون ما جاوز حد الله تعالى ذكره، نظير ما دون حده في الحكم؟ وقد قلت: إن الحمل والفصال قد يجاوزان ثلاثين شهرا؟ قيل: إن الله تعالى ذكره لم يجعل قوله:﴿وحمله وفصاله ثلاثون شهرا﴾ حدا تعبد عباده بأن لا يجاوزه، كما جعل قوله:﴿والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة﴾ حدا لرضاع المولود الثابت الرضاع، وتعبد العباد بحمل والديه عند اختلافهما فيه، وإرادة أحدهما الضرار به؛ وذلك أن الأمر من الله تعالى ذكره إنما يكون فيما يكون للعباد السبيل إلى طاعته بفعله والمعصية بتركه، فأما ما لم يكن لهم إلى فعله ولا إلى تركه سبيل، فذلك مما لا يجوز الأمر به ولا النهي عنه ولا التعبد به، فإذ كان ذلك كذلك، وكان الحمل مما لا سبيل للنساء إلى تقصير مدته ولا إلى إطالتها، فيضعنه متى شئن، ويتركن وضعه إذا شئن كان معلوما أن قوله: ﴿وحمله وفصاله ثلاثون شهرا﴾ إنما هو خبر من الله تعالى ذكره عن أن من خلقه من حملته وولدته وفصلته في ثلاثين شهرًا، لا أمر بأن لا يتجاوز في مدة حمله وفصاله ثلاثون شهرا، لما وصفنا. وكذلك قال ربنا تعالى ذكره في كتابه: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف:15] «تفسير الطبري» (41/5).

وصلاحهم ﴿إِنِّي تُبْتُ﴾ ورجعت ﴿إِلَيْكَ﴾ عن جميع ما لا يرضيك من عملي؛ إذ أنت أعلم مني بحالي ﴿وَإِنِّي﴾ إليك يا رب ﴿مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأحقاف: 15] المنقادين لك، المطيعين لحكمك، المفوضين أمورهم كلها إليك؛ إذ لا مقصد لنا غيرك ولا مرجع سواك.

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [الأحقاف: 16-19].

﴿أُولَئِكَ﴾ السعداء المولعون على شكر نعم الله وأداء حقوق الوالدين، وحسن المعاشرة معهما، والإحسان إليهما، هم ﴿الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ﴾ التفسير جرى على قراءة ابن عامر ونافع مغيرهما: «يتقبل عنهم أحسن ما عملوا ويتجاوز عن ... الآية»، ولكن سياق «ويتجاوز» سبحانه لا تدل إلا على قراءة المطوعي - بفتح الياء - وهي قراءة شاذة ولكنها تذكر ضمن القراءات الأربع عشرة «يتقبل عنهم» بقبول حسن ﴿أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ مخلصين فيه، طالبين رضاء الله، مجتنبين عن سخطه ﴿وَنَتَجَاوَزُ﴾ ويتجاوز سبحانه ﴿عَن سَيِّئَاتِهِمْ﴾ بعدما تابوا، ورجعوا نحوه نادمين، وهم ﴿فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ﴾ ومعهم، آمنون فائزون لا خوف عليهم، ولا هم يحزنون، إنجازًا لما وعد لهم الحق ﴿وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ [الأحقاف: 16] في النشأة الأولى.

وبعدما وصى سبحانه بما وصى من رعاية حقوق الوالدين، وما يترتب عليها من الفوز العظيم عقبه بضده، وهو عقوق الوالدين، وما يترتب عليها من العذاب الأليم فقال: ﴿وَالَّذِي﴾ أي: والمسرف المتناهي الذي ﴿قَالَ لِوَالِدَيْهِ﴾ من فرط سرفه وعصيانه وشدة عقوقه عليهما حين دعواه إلى الإيمان والتوحيد، واجتهدا أن يخلصاه من ظلمة الشرك والتقليد، وعن أهوال يوم القيامة وأفزاعها: ﴿أُفٍّ﴾ أي: أتضجر ﴿لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي﴾ وتخوفانني من العذاب والنكال بعد أن ﴿أُخْرَجَ﴾ من قبري حيًا ﴿وَ﴾ الحالَ

أنه ﴿قَدْ خَلَتِ﴾ ومضت ﴿الْقُرُونُ﴾ الماضية ﴿مِن قَبْلِي﴾ ولم يخرج أحد منهم من قبره حيًّا، فإنّا أيضًا لا أخرج أمثالهم، والحال أنه هو يصر على هذا ﴿وَهُمَا﴾ من كمال تحننهما وترحمهما ﴿يَسْتَغِيثَانِ اللهَ﴾ ويطلبان الغوث والتوفيق منه سبحانه لأجل إيمانه قائلين له على وجه المبالغة في التخويف: ﴿وَيْلَكَ﴾ أي: ويل وهلاك ينزل عليك أيها المسرف لو لم تؤمن ﴿آمِنْ﴾ بالله، وبجميع ما جاء من عنده في النشأة الأولى والأخرى أن ﴿وَعْدَ اللهِ﴾ بعموم المواعيد والوعيدات الصادرة منه سبحانه على ألسنة رسله وكتبه ﴿حَقٌّ﴾ لا خلف فيه، سينجزه الله القادر المقتدر على وجوه الانتقام والإنعام ﴿فَيَقُولُ﴾ بعدما سمع منهما ما سمع من شدة إصراره وإنكاره: ﴿مَا هَذَا﴾ الذي جئتما به على سبيل العظة والتذكير ﴿إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأحقاف: 17] أي: أباطيلهم الزائغة، لمجرد الترغيب والترهيب.

وبالجملة: ﴿أُوْلَئِكَ﴾ الأشقياء المردودون عن ساحة عز القبول هم ﴿الَّذِينَ حَقَّ﴾ أي: ثبت وتحقق ﴿عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ والحكم من الله المطلع بما في صدور عباده من الغل والغواية، بأنهم أصحاب النار المعدودون ﴿فِي﴾ زمرة ﴿أُمَمٍ﴾ هالكة مستحقة لعذاب ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ ومضت ﴿مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ أي: من جنسهما، وبالجملة: ﴿إِنَّهُمْ﴾ بأجمعهم ﴿كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ [الأحقاف: 18] مضيعين على أنفسهم كرامة مرتبة الخلافة والنيابة الإلهية الموعودة في النشأة الإنسانية.

﴿وَ﴾ اعلموا أن ﴿لِكُلٍّ﴾ من المحقين والمبطلين ﴿دَرَجَاتٌ﴾ من الثواب والعقاب متفاوتة شدةً وضعفًا، ورفعةً ودناءةً، منتشئة ﴿مِّمَّا عَمِلُوا﴾ مترتبة عليه خيرًا كان أو شرًا، حسنات أو سيئات ﴿وَ﴾ كل منهم متعلق بعمله، يشاكل عليه ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾ ويوفى عليهم جزاءهم المترتب عليها درجات أو دركات ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأحقاف: 19] بالزيادة والنقصان على أجور ما كسبوا.

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ (20) ۞ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (21)﴾ [الأحقاف: 20-21].

﴿وَ﴾ اذكر لهم يا أكمل الرسل ﴿يَوْمَ يُعْرَضُ﴾ المسرفون ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالحق

وأعرضوا عنه وعن أهله ﴿عَلَى النَّارِ﴾ المسعرة المعدة للكافرين المعرضين لهم حينئذ على التوبيخ والتشنيع أنتم ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ﴾ من اللذائذ وتلذذتم بها ﴿فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ فيها ﴿فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ﴾ بدلها ﴿عَذَابَ الْهُونِ﴾ المخزي المضل ﴿بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الأَرْضِ﴾ على عباد الله ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ يعني: بدل تعززكم وتعظمكم بها في دار الدنيا وكبركم وخيلائكم على ضعفاء العباد ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ [الأحقاف: 20] وتخرجون عن مقتضى الحدود الإلهية ظلمًا وزورًا.

﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾ أي: اذكر يا أكمل الرسل لمشركي مكة قصة قوم عادٍ مع أخيهم هود عليه السلام إذ ﴿أَنذَرَ قَوْمَهُ﴾ إمحاضًا للنصح لهم وهم يسكنون ﴿بِالأَحْقَافِ﴾ أي: الرمال المعوجة الغير المستوية على شاطئ البحر ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿قَدْ خَلَتِ النُّذُرُ﴾ والرسل المنذرين ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ أي: قبل هود عليه السلام ﴿وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ أي: بعده، كلهم متفقون في المنذر به، وهو ﴿أَلاَّ تَعْبُدُوا﴾ أي: أن لا تعبدوا ﴿إِلاَّ اللَّهَ﴾ الواحد الأحد الحقيق بالإطاعة والعبادة ولا تشركوا معه شيئًا من مصنوعاته؛ ولا تتوجهوا ولا تسترجعوا في الخطوب إلا إليه وانصرفوا عن عبادة غيره ﴿إِنِّي﴾ بسبب عبادتكم غير الله واتخاذكم آلهة سواه ﴿أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأحقاف: 21] [1]هائل شديد.

﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا

---

(1) أخو عاد أى هود عليه السلام إذ أنذر قومه بدل اشتمال منه أى وقت انذاره إياهم بالأحقاف جمع حقف وهو مل مستطيل مرتفع فيه إنحناء من احقوقف الشئ إذا اعوج وكانت عاد أصحاب عمد يسكنون بين رمال مشرفة على البحر بأرض يقال لها الشجر من بلاد اليمن وقيل بين عمان ومهرة وقد خلت النذر أى الرسل جمع نذير بمعنى المنذر من بين يديه أى من قبله ومن خلفه أى من بعده والجملة اعتراض مقرر لما قبله مؤكد لوجوب العمل بموجب الإنذار وسط بين أنذر قومه وبين قوله أن لا تعبدوا إلا الله مسارعة إلى ما ذكر من التقرير والتأكيد وإيذانا باشتراكهم فى العبارة المحكية والمعنى واذكر لقومك إنذار هود قومه عاقبة الشرك والعذاب العظيم وقد أنذر من تقدمه من الرسل ومن تأخر عنه قومهم مثل ذلك فاذكرهم وأما جعلها حالا من فاعل أنذر على معنى أنه عليه الصلاة والسلام أنذرهم وقال لهم لا تعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم وقد أعلمهم أن الرسل الذين بعثوا قبله والذين سيبعثون بعده كلهم منذرون نحو إنذاره فمع ما فيه من تكلف تقدير الأعلام لا بد فى نسبة الخلو إلى من بعده من الرسل من تنزيل الآتى منزلة الخالى. «تفسير أبي السعود» (85/8).

﴿الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأحقاف: 22-25].

وبعدما سمعوا منه ما سمعوا من التوحيد ﴿قَالُوا﴾ له متهكمين معه مشنعين عليه ﴿أَجِئْتَنَا﴾ مدعيًا ملتزمًا ﴿لِتَأْفِكَنَا﴾ وتصرفنا ﴿عَنْ آلِهَتِنَا﴾ أي: عن عبادتهم وإطاعتهم، ونؤمن بك وبإلهك، وبالجملة: لا نؤمن بك ولا نصدقك في قولك ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ وتخوفنا من العذاب على الشرك الآن ﴿إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأحقاف: 22] [1] في دعواك أنه آت لا محالة.

وبعدما استهزؤوا معه واستعجلوا بالعذاب الموعود ﴿قَالَ﴾ هود: إني أعلم بمقتضى الوحي الإلهي أنه آت، ولا أعلم متى يأتي؛ إذ لم يوح إلى وقت إتيانه بل ﴿إِنَّمَا الْعِلْمُ﴾ بوقت نزوله ﴿عِندَ اللَّهِ﴾ المطلع على عموم الغيوب ﴿وَ﴾ إنما ﴿أُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ﴾ وأمرت بتبليغه من عنده؛ إذ ما على الرسول إلا البلاغ ﴿وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ﴾ بسبب إعراضكم عن الحق وأهله وإصراركم على الشرك الباطل والضلال الزائل ﴿قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ [الأحقاف: 23] عن كمال عظمة الله وعزته، ومن مقتضيات قوته وقدرته.

وبالجملة: قال هود ﷺ ما قال، وهم كانوا على شركهم وإصرارهم كما كانوا ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾ يومًا من الأيام ﴿عَارِضًا﴾ سحابًا ذا عرض على الأفق ﴿مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ﴾ أي: متوجهًا لأمكنتهم التي كانوا متوطنين فيها، وكانوا حينئذ، قد حبس عليهم القطر، فلما رأوها حينئذ ﴿قَالُوا﴾ فرحين مستبشرين: ﴿هَٰذَا عَارِضٌ﴾ مبارك توجه نحو بلادنا

---

(1) ﴿قالوا أجئتنا لتأفكنا﴾ أى تصرفنا عن آلهتنا عبادتهم فأتنا بما تعدنا من العذاب العظيم إن كنت من الصادقين فى وعدك بنزوله بنا قال إنما العلم أى بوقت نزوله أو العلم بجميع الأشياء التى من جملتها ذلك عند الله وحده لا علم لى بوقت نزوله ولا مدخل لى فى إتيانه وحلوله وإنما علمه عند الله تعالى فيأتيكم به فى وقته المقدر له وأبلغكم ما أرسلت به من مواجب الرسالة التى من جملتها بيان نزول العذاب إن لم تنتهوا عن الشرك من غير وقوف على وقت نزوله وقرئ أبلغكم من الإبلاغ ولكنى أراكم قوما تجهلون حيث تقترحون على ما ليس من وظائف الرسل من الإتيان بالعذاب. «تفسير أبي السعود» (85/8).

هو ﴿مُمْطِرُنَا﴾ مطرًا عظيمًا، وهم استدلوا بسواده إلى كثرة مائه، وبعدما استبشروا في ما بينهم، قال هود: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ﴾ واستبشرتهم باستقباله ﴿رِيحٌ﴾ عاصفة لا راحة فيها بل ﴿فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأحقاف: 24] لا عذاب أشد منه.

إذ ﴿تُدَمِّرُ﴾ وتهلك ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ ذي حياة ﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ وبمقتضى مشيئته، وبعدما وصلت الريح دمرتهم تدميرًا إلى حيث استأصلهم ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى﴾ منهم ﴿إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾ أي: سوى دورهم الخربة وأطلالهم المندرسة، وليس هذا مخصوصًا بهم بل ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي﴾ عموم ﴿الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأحقاف: 25] الخارجين عن ربقة عبوديتنا بارتكاب الجرائم والآثام.

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٢٦) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٧) فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً ۖ بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٨)﴾ [الأحقاف: 26-28].

ثم أشار سبحانه إلى توبيخ مشركي مكة ومجرميهم على وجه التأكيد والمبالغة، فقال سبحانه مقسمًا: ﴿وَ﴾ الله يا أهل مكة ﴿لَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ﴾ أي: عادًا ﴿فِيمَا﴾ أي: في الأمور التي أن ﴿مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾ أي: ما مكناكم وأقدرناكم فيه من كثرة الأموال والأولاد والحصون والقلاع والقصور الرفيعة والمنازل الوسيعة ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا﴾ ليسمعوا به آياتنا الدالة على وحدة ذاتنا ﴿وَأَبْصَارًا﴾ ليشهدوا بها آثار قدرتنا ومتانة حكمتنا الدالة على كمال علمنا ﴿وَأَفْئِدَةً﴾ ولينكشفوا بها على وحدة ذاتنا ويتفطنوا بها باستقلالنا في تدبيراتنا وتصرفاتنا، ومع ذلك ﴿فَمَا أَغْنَى﴾ ودفع ﴿عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ﴾ أي: شيئًا من الإغناء، أي: ما أفاد لهم هذه الآلات العجيبة الشأن شيئًا من الفائدة التي هي إنقاذهم عن الجهل بالله، وعم الضلال في طريق توحيده؛ إذ ﴿كَانُوا يَجْحَدُونَ﴾ وينكرون بمقتضى جهلهم المركب في جبلتهم أمثالكم أيها الجاحدون بآيَاتِ اللهِ ودلائل توحيده، ويستهزئون بها وبمن أنزلت إليه من الرسل ﴿وَ﴾ لذلك ﴿حَاقَ﴾ وأحاط ﴿بِهِم﴾ وبال ﴿مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأحقاف: 26] عاجلًا،

وسيلحقهم وينزل عليهم وعليكم أيضًا أيها المسرفون آجلا بأضعافه وآلافه.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا﴾ وخربنا ﴿مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَى﴾ الهالكة كعاد وثمود؛ لتعتبروا منها، وتتعظوا بما لحق بأهلها من أنواع البليات ﴿وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ﴾ الدالة على كمال قدرتنا واختيارنا وكررناها مرارًا ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأحقاف: 27] إلينا منخلعين عن مقتضى وجوداتهم الباطلة وهوياتهم العاطلة، مع ذلك لم يرجعوا، ولم ينخلعوا.

﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ﴾ أي: هلا نصرهم ومنعهم عن الهلاك والإهلاك شفعاؤهم ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ﴾ الفرد الصمد، وقربوا لهم ﴿قُرْبَانًا﴾ لأنهم اتخذوهم ﴿آلِهَةً﴾ شركاء مع الله في الألوهية والربوبية، لذلك تقربوا إليهم، وتوجهوا نحوهم في عموم الملمات، مع أنه ما ينفعهم لدى الحاجة إليهم وإلى تصرفهم ﴿بَلْ ضَلُّوا﴾ وغلبوا ﴿عَنْهُمْ﴾ فأنى ينصرهم ويدفع عنهم ما يضرهم ﴿وَذَلِكَ﴾ الذي اعتقدوا في شأنهم ﴿إِفْكُهُمْ﴾ أي: صرفهم عن الحق وإعراضهم عنه وميلهم إلى الباطل وإصرارهم فيه ﴿وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأحقاف: 28] أي: افتراؤهم على الله بإثبات الشريك له، والمشاركة معهم.

﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ (٢٩) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ (٣٠) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٣١) وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٣٢)﴾ [الأحقاف: 29-32].

﴿وَ﴾ اذكر لمن عاندك وكذلك إلزامًا لهم وتبكيتًا وقت ﴿إِذْ صَرَفْنَا﴾ وأملنا ﴿إِلَيْكَ﴾ يا أكمل الرسل تأييدًا لك ولشأنك ﴿نَفَرًا﴾ جماعة ﴿مِّنَ الْجِنِّ﴾ حال كونهم ﴿يَسْتَمِعُونَ﴾ منك ﴿الْقُرْآنَ﴾ حين تلوته في صلاتك وتهجدك ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ﴾ أي: القرآن وسمعوه، تعجبوا من حسن نظمه واتساقه، وكمال بلاغته وفصاحته ﴿قَالُوا﴾ أي: بعضهم لبعض: ﴿أَنصِتُوا﴾ ولا تخالطوا أصواتكم حتى نسمع على وجهه؛ إذ هو كلام عجيب في أعلى مرتبة البلاغة ﴿فَلَمَّا قُضِيَ﴾ وتم قراءته وفهموا معناه وفحواه ﴿وَلَّوْا﴾

ورجعوا ﴿إِلَى قَوْمِهِم﴾ حال كونهم ﴿مُنذِرِينَ﴾ [الأحقاف: 29] [1] بما يفهمون منه من الإنذارات والوعيدات القوم الذين بلغوا حد التكليف من إخوانهم ينذرونهم بها عن الضلال والانحراف عن طريق الحق.

إذ: ﴿قَالُوا﴾ أي: النفر المستمعون مبشرين لقومهم: ﴿يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا﴾ عجيبًا سماويًا، وعربيًا نظمًا وأسلوبًا ﴿أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: جميع الكتب السالفة السماوية شأنه أنه ﴿يَهْدِي إِلَى﴾ توحيد ﴿إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف: 30] موصل إليه بلا عوج وانحراف، وهذا الكتاب العجيب الشأن، الجلي البرهان، منزل إلى داع من العرب اسمه محمد ﷺ يدعو قاطبة الأنام إلى دين الإسلام بوحي الله العليم العلام.

﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ﴾ يعني: محمدًا ﷺ واقبلوا منه دعوته إلى توحيد الحق ودين الإسلام ﴿وَآمِنُوا بِهِ﴾ وبكتابه الذي أنزل إليه لتبيين دينه وتأييد أمره ﴿يَغْفِرْ لَكُم﴾ سبحانه ﴿مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ أي: من جميعها أن تبتم ورجعتم إليه مخلصين ﴿وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأحقاف: 31] [2] هو عذاب النار؛ إذ لا عذاب أشد منها وأفزع.

﴿وَ﴾ بالجملة ﴿مَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ﴾ ولا يؤمن به سبحانه، وبجميع ما جاء داعيه من عنده، بل كذب الداعي وأنكر دعوته ولم يقبل منه ﴿فَلَيْسَ﴾ هو أي المنكر ﴿بِمُعْجِزٍ لله فِي الْأَرْضِ﴾ حتى يهرب عن انتقامه سبحانه، ويفر من غضبه من مكان على مكان، أو يستر عنه سبحانه ويخفى نفسه في أقطار الأرض، بل له الإحاطة

---

(1) وصف الله أهل معرفته من الجن كيف حبست ألستهم هيبة الخطاب وحشمة المشاهدة، وهكذا من ألبس أنوار الهيبة والعظمة يخرس لسانه عن الانبساط والمخاطبة وإفشاء السر، وهذا بعد شهود القلوب أنوار الغيوب بنعت إصغاء الأسرار إلى وقوع الخطاب وكشف النقاب، قال محمد بن سليمان: ليس في مقام الحضرة إلا الخمول والذبول والسكون تحت موارد الهيبة.

(2) إنما اقتصر على مغفرة الذنوب، والإجارلا ة من العذاب، وطوى ذكر إدخال الجنات، والإثابة بالنعيم؛ لأنه كقوله تعالى: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [المدثر:2]، وذلك لا يقتضي ألا يكون للجن نعيم ورؤية، فإن أول الدعوة الإنذار للنجاة من النار، ثم التبشير للفوز بالنعيم، كما هو مقتضى الإيمان، ودخل في النعيم الرؤية؛ لأنها أعلى النعيم الإلهية؛ ولذا ورد: «وأسألك لذة النظر إلى وجهك الكريم» حيث أثبت اللذة للنظر؛ لأن الرؤية من اللذات المعنوية، والنعم الروحانية، فظهر من هذا أن المؤمنين من الجن؛ كالمؤمنين من الإنس في الإجارة والإثابة؛ لأن كلًا منهم داخلون تحت التكلف والدعوة، فمشاركتهم في ذلك تقتضي مشاركتهم في النعيم مطلقًا.

والاستيلاء بعموم الأمكنة والأنحاء ﴿وَلَيْسَ لَهُ﴾ أي: للمنكر المعاند مِن ﴿دُونِهِ﴾ سبحانه ﴿أَوْلِيَاءُ﴾ يوالونه وينقذونه من غضب الله وعذابه بعدما نزل عليه، وبالجملة: ﴿أُوْلَئِكَ﴾ المنكرون المكابرون الذين لا يجيبون داعي الله، ولا يقبلون منه دعوته عنادًا ومكابرة ﴿فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الأحقاف: 32] وغواية ظاهرة، يجازيهم سبحانه بمقتضى ما صدر عنهم من الغي والضلال.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأحقاف: 33-35].

ثم أشار سبحانه إلى توبيخ منكري الحشر والنشر وإعادة الموتى أحياء وتقريعهم، فقال مستفهمًا على سبيل التبكيت والإلزام: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ يعني: أيشكون ويترددون أولئك الشاكون المترددون في قدرة الله على إعادة المعدوم ونشر الأموات أحياء من قبورهم وحشرهم إلى المحشر للحساب والجزاء، ولم يعلموا ﴿أَنَّ اللهَ﴾ العليم الحكيم القادر المقتدر ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾ أظهر وأوجد ﴿السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ أي: العلويات والسفليات خلقًا إبداعيًا من كتم العدم ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿لَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ﴾ أي: لم يفتر ولم يضعف بإظهارهن ابتداء مع غاية عظمتهن وسعتهن ﴿بِقَادِرٍ﴾ يعني: أليس القادر المقتدر على الإبداع والإبداء بقادر ﴿عَلَى أن يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾ ويعيدهم أحياء بعدما أماتهم ﴿بَلَى﴾ أنه سبحانه ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ دخل في حيطة علمه وإرادته ﴿قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: 33] (1) بلا فتور ولا قصور. ﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل لمنكري

---

(1) اعلم أنه تعالى قرر من أول سورة إلى ههنا أمر التوحيد والنبوة. ثم ذكر ههنا تقرير القادر من تأمل في ذلك علم أن المقصود من القرآن كله تقرير هذه الأصول الثلاثة. واعلم أن المقصود من هذه الآية الدلالة على كونه تعالى قادرًا على البعث، لأنه تعالى أمام الدليل على خلق السموات والأرض وخلقهام أعظم من أعادة هذا الشخص حيًا بعد أن كان ميّتًا، والقادر على الأكمل لا بدّ ولن يكون قادرًا على ما دونه، قوله: ﴿وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ﴾ العامة على سكون العين

الحشر ﴿يَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالبعث والجزاء ﴿عَلَى النَّارِ﴾ المعدة لهم، فيقال لهم حينئذ تفضيحًا وتهويلاً وتوبيخًا وتقريعًا: ﴿أَلَيْسَ هَذَا﴾ العذاب الذي أنتم فيه الآن، وكذبتم به من قبل في نشأة الاختبار ﴿بِالْحَقِّ قَالُوا﴾ متأسفين متحسرين: ﴿بَلَى﴾ هو الحق ﴿وَ﴾ حق ﴿رَبِّنَا﴾ الذي ربانا على فطرة الإسلام، وأنذرنا عن إتيان هذا العذاب في هذه الأيام، فكفرنا به ظلمًا وزورًا، وأنكرنا عليه عنادًا واستكبارًا، وبعدما اعترفوا وندموا في وقت لا ينفعهم الندم والاعتراف ﴿قَالَ﴾ قائل من قبل الحق: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الأحقاف: 34] إذا لم يفدكم اعترافكم هذا، بعدما انقضى نشأة التدارك والتلافي.

وبعدما سمعت يا أكمل الرسل مآل حال الكفرة المصرين على العتو والعناد ﴿فَاصْبِرْ﴾ يا أكمل الرسل على تحمل أعباء الرسالة ومتاعب التبليغ وأذيات أصحاب الزيغ والضلال ﴿كَمَا صَبَرَ﴾ عليها ﴿أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ العازمين عليها وعلى تبليغها بالعزيمة الخالصة والثبات التام؛ ليبينوا للناس طريق التوحيد ويرشدوهم إلى سبيل الاستقامة والرشاد ﴿وَلاَ تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ أي: للمعاندين من قريش بحلول العذاب الموعود عليهم، فإنه سينزل عليهم حتمًا عند حلول وقته ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ﴾ من العذاب من نهاية شدته وهوله وغاية طوله، تذكروا أنهم ﴿لَمْ يَلْبَثُوا﴾ في الدنيا ﴿إِلَّا سَاعَةً﴾ واحدة ﴿مِّن نَّهَارٍ﴾ يعني: استقصروا مدة لبثهم في الدنيا وقاسوا بالنسبة إلى طول يوم القيامة بساعة بل أقصر منها.

وفتح الياء مضارع «عَيِيَ» بالكسر يَعْيَا بالفتح فلما دخل الجازم حذف الألف. وقرأ الحسن يَعِي بكسر العين وسكون الياء. قالوا: وأصلها عَيِيَ بالكسر فجعل الكسر فتحة، على لغة طَيِّء فصار «عَيَا»، كما قالوا في بَقِيَ: بَقَا ولما بنى الماضي على «فَعَلَ» بالفتح جاء مضارعه على يَفْعِلُ بالكسر فصار يَعْيِي مثل يَرْمِي، فلما دخل الجَازم حذف الياء الثانية فصار: لَمْ يَعْيِ بعين ساكنة وياء مكسورة، ثم نقل حركة الياء إلى العين فصار اللفظ كما تَرَى. وقد تقدم أن عَيِيَ وحَيِيَ فيها لغتان، الفَكّ والإدغام. فأما حَيِيَ فتقدَّمَ في الأنفال وأما عَيِيَ فكقوله: عَيُوا بأمْرِهِمْ كمَا عَيِيَتْ ... بيضَتِهَا الحَمَامَة، والعي عدم الاهتداء إلى جهة. ومنه العَيُّ في الكلام، وعَيِيَ بالأمر إذا لم يهتد لوجهه، قوله: ﴿بِقَادِرٍ﴾ الباء زائدة وحَسَّنَ زيادتَها كَوْنُ الكلام في قوة ﴿أَلَيْسَ ذلك بِقَادِرٍ﴾ قال أبو عبيدة، والأخفش: الباء زائدة للتوكيد، كقوله: ﴿تَنبُتُ بالدهن﴾ [المؤمنون:20] وقاس الزجاج «مَا ظَنَنْتُ أَنَّ أحدًا بِقَائِمٍ» عَلَيْهَا، والصحيح التوقف، وقال الكسائي والفراء العرب تدخل الباء في الاستفهام فتقول: ما أظُنُّكَ بقائمٍ. «تفسير اللباب» لابن عادل (231/14).

هذا الذي ذكر من المواعظ والتذكيرات في هذه السورة ﴿بَلاغٌ﴾ كافٍ لأهل الهداية والإرشاد إلى أن اتعظوا بها، ويتذكروا منها، وإن لم يتعظوا بها، هلكوا في تيه الجهل والغواية مثل سائر الهالكين ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ﴾ وما يستأصل بالقهر الإلهي ﴿إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الأحقاف: 35] الخارجون عن مقتضى الحدود الإلهية النازلة من عنده سبحانه على أنبيائه ورسله، المبعوثين إلى الهداية والتكميل.

جعلنا الله ممن تذكر بما في كتابه من المواعظ والتذكير، وامتثل بما فيه من الأوامر والنواهي.

خاتمة السورة

عليك أيها العازم على سلوك طريق التوحيد: أن تقصد نحوه بالعزيمة الخالصة الصافية عن كدر الرياء ورعونات الهوى، وتتصبر على مشاق التكاليف ومتاعب الطاعات والرياضات القالعة لمقتضيات القوى البشرية بجملتها ومشتهيات القوى البهيمية برمتها، فلك أن تقتدي في سلوكك هذا أثر أولى العزائم من الرسل الكرام والأنبياء العظام والكمل من الأولياء الذين هم ورثة الأنبياء؛ لتفوز بالدرجة القصوى والمرتبة العليا.

سورة محمد

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة سورة محمد ﷺ

لا يخفى على الفائزين بالدرجة العليا من التوحيد الذاتي، المتحققين بانكشاف كيفية سريان الهوية الذاتية الإلهية في أعيان المظاهر الكونية والكيانية أن أكمل من تحقق بهذا الشهود، وأتم من اتصف بهذا الانكشاف هو الختمية المحمدية التي لا مرتبة أعلى وأجمع من مرتبته ﷺ ولا درجة أرفع من درجته؛ لذلك ما ظهر نبي على إظهار التوحيد الذاتي وتبيينه، وما بعث إلى كافة الأمم وعامة البرايا أحد سواه، ولهذا ختم ببعثته ﷺ أمر الإرشاد والتكميل، فمن كفر به ﷺ وأنكر عليه، فقد كفر بعموم مراتب الوجود، وضل عن جميع الطرق الموصلة إلى كعبة الذات وقبلة المقصود، ومن آمن له ﷺ فقد اهتدى بما هو المقصد والمرمى، وليس وراءه مرمى ومنتهى.

لذلك أخبر سبحانه عن ضلال الكافرين به ﷺ والمنكرين عليه وإحباط أعمالهم بعدما تيمن باسمه الأعلى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي تجلى على المرتبة الختمية المحمدية بعموم أسمائه الحسنى وصفاته العليا ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ لعموم عباده بإظهار مرتبته ﷺ؛ لتكون قبلة جميع مراتبهم ومشاربهم ﴿الرَّحِيمِ﴾ لهم، يوصلهم إلى وحدة ذاته؛ لهدايته وإرشاده ﷺ.

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ (٢) ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ (٣) فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (٤) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ (٥) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ (٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (٧) وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (٨) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ

كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٩﴾ ۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾﴾ [محمد: 1 – 11].

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله وتوحيده، وأنكروا على نبوة حبيبه ﷺ ورسالته عنادًا ومكابرة ﴿وَ﴾ مع كفرهم وانصرافهم بأنفسهم عن الهداية ﴿صَدُّوا﴾ وصرفوا سائر الناس ﴿عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وطريق توحيده الذي هدي إليه ﷺ وبعث لتبيينه، وإرشاد عموم عباد الله نحوه منه حسدًا عليه ﷺ وعلى من تبعه ﴿أَضَلَّ﴾ أحبط وأضاع سبحانه ﴿أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: 1] أي: صوالح أعمالهم التي أتوا بها طمعًا للكرامة والمثوبة من لدنه سبحانه بعدما كفروا به سبحانه وبرسوله ﷺ؛ إذ لا تثمر الأعمال الصالحة إلا بالإيمان والتصديق بالله وبرسوله.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله وبرسوله ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ المقربة لهم إلى الله ﴿وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ أي: بجميع ما نزل عليه ﴿وَ﴾ صدقوا أن جميع ما نزل به ﴿هُوَ الْحَقُّ﴾ الصدق المطابق للواقع، النازل ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾ بلا شك وتردد ﴿كَفَّرَ﴾ وأزال ﴿عَنْهُمْ﴾ سبحانه ﴿سَيِّئَاتِهِمْ﴾ أي: وبالها وعذابها ﴿وَأَصْلَحَ﴾ اللاحق المستتبع إياها بها ﴿بَالَهُمْ﴾ [محمد: 2] أي: أحسن حالهم في الدين والدنيا بحسب النشأة الأولى والأخرى، ويجازيهم أحسن الجزاء.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: إضلال الكفرة وإصلاح المؤمنين ﴿بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ﴾ وتركوا الحق الحقيق بالاتباع ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ﴾ النازل ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾ لإصلاح حالهم في النشأتين ويرشدهم إلى ما هو خير لهم ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ذلك الذي سمعت من الإضلال والإصلاح بالنسبة إلى كلا الفريقين ﴿يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾ [محمد: 3] ويبين لهم أحوالهم المتواردة عليهم في أولاهم وأخراهم.

وبعدما سمعتم أيها المؤمنون وخامة عاقبة الكفرة وضياع أعمالهم وإحباطها ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ على أي وجه وأي حال ﴿فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ أي: فعليكم أن تضربوا رقابهم مهما أمكن، وأن تقتلوهم بلا مبالاة وبدمائهم ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ﴾ أي: أغلظتم وبالغتم في قتلهم، فأسروا بقاياهم ﴿فَشُدُّوا الْوَثَاقَ﴾ والنكال على أسرائهم، واحفظوهم مقيدين موثقين ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾ أي: تمنون عليهم منًّا

فتطلقونهم، أو تفدون منهم فداءً على إطلاقهم وتخلون سبيلهم، وبالجملة: افعلوا أيها المؤمنون مع المشركين كذلك ﴿حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾[1] أي: تضع أهل الحرب من كلا الجانبين آلات الحراب والقتال، وذلك لا يحصل إلا بالمؤاخاة والائتلاف التام، وتدين الجميع بدين الإسلام﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الأمر من الله ذلك، فافعلوا معهم كذلك.

﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ﴾ القادر المقتدر على أنواع الانتقام ﴿لَانتَصَرَ﴾ وانتقم ﴿مِنْهُمْ﴾ أي: من المشركين بلا اقتتالكم وحرابكم ﴿وَلَٰكِن﴾ إنما يأمركم سبحانه بالقتال ﴿لِّيَبْلُوَ﴾ ويختبر ﴿بَعْضَكُم﴾ أيها الناس المؤمنون ﴿بِبَعْضٍ﴾ أي: بقتال بعض منكم، وهو الكافرون؛ لينال المؤمنون بقتالهم وجهادهم الثواب الجزيل والأجر الجميل، ويستوجب الكافر بمعاداة المؤمن بالعقاب العظيم والعذاب الأليم، كل بتقدير العليم الحكيم، ثم قال سبحانه تبشيرًا للمؤمنين الذين استشهدوا في سبيل الله: ﴿وَ﴾ اعلموا أيها المؤمنون أن ﴿الَّذِينَ قُتِلُوا﴾ منكم ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ باذلين مهجهم في ترويج دينه ﴿فَلَن يُضِلَّ﴾ ويضيع ﴿أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: 4] التي أتوا بها طلبًا لمرضاة الله، وتثبيتًا لقلوبهم على الإيمان بما نزل من عنده.

بل ﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾ ربهم ويرشدهم سبحانه بعدما استشهدوا إلى زلال هدايتهم ﴿وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ [محمد: 5] بإيصالهم إلى غاية ما جبلوا لأجله.

﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ﴾ التي ﴿عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ [محمد: 6] حين أمرهم بالجهاد، ألا وهي الحياة الأزلية الأبدية الإلهية الموعودة للشهداء من عنده سبحانه بقوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا﴾ [آل عمران: 169].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ﴾ يعني: دينه ورسوله ﴿يَنصُرْكُمْ﴾[2] على

---

(1) إلى أن يقصد القاصد المقصود، ويجد الطالب المطلوب، ويصل العاشق المعشوق، فإن جرى على النفس بعد الظفر بها مسامحة في إعفاء ساعة وإفطار يوم؛ ترويحًا للنفس من الكد وإجماعها للحواس، قوةً لها على الجهد فيما يستقبل من الأمر، فذلك على ما يحصل به الاستصواب من شيخ المريد، أو فتوى لسان القوم أو فراسة صاحب الوقت. [التأويلات].

(2) نصرة العبد لله أن يجاهد نفسه وهواه وشيطانه؛ فإنهم أعداء الله؛ فإذا خاصمها يقويه الله وينصره عليهم، بأن يدفع شرهم عنه، ويجعله مستقيمًا في طاعة الله، ويجازيه بكشف جماله حتى يثبت في مقام العبودية وانكشاف أنوار الربوبية، قال ابن عطاء: هو أن يكون عون الله على النفس، فإن الله ينصرك عليها حتى تنقاد لك، ولا يكون عون النفس فتصرع ضرعة لا تقوم بعدها أبدًا. قال الحكيم الترمذي: إن أكرمتم أوليائي أكرمتكم، قال بعضهم: يرزقكم الله الاستقامة في كل

أعدائكم ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: 7] في جادة توحيده وصراط تحقيقه.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله، وأعرضوا عن نصرة دينه ورسوله ﴿فَتَعْسًا﴾ أي: زلقًا وعثورًا وانحطاطًا ﴿لَّهُمْ﴾ عن رتبة الإنسانية وعن جادة العدالة الإلهية ﴿وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: 8] وأضاعها بحيث لا تفيدهم شيئًا أصلاً.

﴿ذَٰلِكَ﴾ العثور والانحطاط لهم ﴿بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا﴾ أي: أنكروا واستكرهوا ﴿مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ المدبر المصلح لأحوال عباده في كتابه من الأوامر والنواهي المهذبة لظواهرهم وبواطنهم ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: 9] بسبب كفرهم وكراهتهم.

﴿أَفَ﴾ ينكرون قدرة الله على الإحباط والإضلال ﴿لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ التي هي محل الاختبارات الإلهية وانتقاماته ﴿فَيَنظُرُوا﴾ بنظر العبرة والاستبصار؛ ليبصروا ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ﴾ المجرمين ﴿الَّذِينَ﴾ مضوا ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ مع أنهم ذوو ثروة كبيرة، ورئاسة عظيمة، ووجاهة كاملة، كيف ﴿دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ واستأصلهم بحيث لم يبق منهم على وجه الأرض أحد ﴿وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾ [محمد: 10] أي: سيؤول ويعود عاقبة هؤلاء الكفرة المعاندين معك يا أكمل الرسل إليها وإلى أمثالها، بل أفظع وأشد منها ألبتة.

كل ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ﴾ المطلع على ضمائر عباده ﴿مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بوحدة الحق وتحققوا في مقر توحديه، لذلك يواليهم وينصرهم على أعاديهم، ويحفظهم عما لا يعنيهم ﴿وَأَنَّ الْكَافِرِينَ﴾ المصرين على الكفر والعناد ﴿لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد: 11] لينصرهم ويدفع عنهم ما يرديهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم ﴿١٤﴾ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ

أحوالكم. [العرائس].

كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴿١٥﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ﴿١٨﴾ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴿١٩﴾﴾ [محمد: 12– 19].

وبالجملة: ﴿إن الله﴾ العليم الحكيم ﴿يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ﴾ متنزهات من المعارف والحقائق ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ الجارية من العلوم اللدنية، المتنشئة من منبع الوحدة الذاتية، تتلذذون بها تلذذًا معنويًا حقيقيًا ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بوحدة الحق وكمالاته المترتبة على شئونه وتجلياته ﴿يَتَمَتَّعُونَ﴾ بالحطام الدنيوية ويتلذذون باللذات البهيمية ﴿وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ﴾ وتتلذذ بلا شعور لهم باللذة الأخروية ﴿وَ﴾ بالآخرة ﴿النَّارُ﴾ المعدة المسعرة صارت ﴿مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [محمد: 12] ومحل قرارهم واستقرارهم.

﴿وَكَأَيِّن﴾ أي: كثيرًا ﴿مِّن قَرْيَةٍ﴾ من القرى الهالكة ﴿هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً﴾ أي: أهلها، وأكثر أموالاً وأولادًا ﴿مِّن﴾ أهل ﴿قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ﴾ أي: أهلها منها ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ واستأصلناهم بسبب إخراجهم رسل الله من بينهم، وتكذيبهم والاستكبار عليهم ﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ [محمد: 13] يظاهرهم ويدفع انتقامنا عنهم، فكذا ننتقم عن هؤلاء المشركين المستكبرين عليك يا أكمل الرسل، المخرجين لك وقومك من بينهم ظلمًا وعدوانًا؛ يعني: مشركي مكة - خذلهم الله - ونغلب المؤمنين عليهم، ونظهر دينك على الأديان كلها.

وكيف لا ننصرك ونظهر دينك؟ ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ حجة واضحة، آتية له ﴿مِّن رَّبِّهِ﴾ مبينة له أمر دينه ﴿كَمَن زُيِّنَ﴾ أي: حبب وحسن ﴿لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ﴾[1] بلا مستند عقلي أو نقلي، بل ﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم﴾ [محمد: 14] بمقتضى آرائهم الباطلة وأمانيهم الزائغة الزائلة.

---

(1) أي: من شهد مقام الله عز وجل بالبيان، فقام له بشهادة الإيقان، فليس هذا كمن زُين له سوء عمله، واتبع هواه، فآثره على طاعة مولاه. بل هذا قائم بشهادته، متبع لشهيده، مستقيم على محبة معبوده. البحر المديد (39/3).

كلا وحاشا، بل ﴿مَثَلُ الجَنَّةِ﴾ وشأنها العجيبة ﴿الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ بها، المجتنبون عن محارم الله، المتحرزون عن مساخطه على الوجه الذي بيَّنهم الكتب وبلغهم الرسل، الممتثلون بجميع ما أمروا من عنده سبحانه إيمانًا واحتسابًا عند ربهم، هكذا ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ﴾ هي: العلوم اللدنية المجيبة لهم بالحياة الأزلية الأبدية ﴿غَيْرِ آسِنٍ﴾ أي: خالص صافٍ عن كدر التقليدات والتخمينات، الحادث عن مقتضيات القوى البشرية المنغمسة بالعلائق الجسمانية ﴿وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ﴾ من المحبة الذوقية الإلهية، المنتشئة من الفطرية الأصلية التي فطروا عليها في بدء ظهورهم ﴿لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ﴾ وذوقه بالميل إلى الهوى، ومن مزخرفات الدنيا ﴿وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ﴾ جذبة إلهية وشوق مفرط مسكر لهم، محير لعقولهم من غاية استغراقهم بمطالعة جمال الله وجلاله، بحيث لا يكتنه لهم وصفه بكونه من الأمور الذوقية ﴿لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ﴾ حسب تفاوت أذواقهم ومواجيدهم ﴿وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ﴾ هي: اليقين الحقي الذي لا شيء أحلى منه وألذ عند العرف المتحقق به ﴿مُّصَفًّى﴾ من شوب الإثنينية اللازمة لمرتبتي اليقين العلمي والعيني.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿لَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ المستلزمة لأنواع اللذات الروحانية، وأكبر من الكل أن لهم فيها ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ ستر ومحو لأنانياتهم الباطلة ناشئة ﴿مِّن رَّبِّهِمْ﴾[1] الذي رباهم على الكرامة من عنده بعدما جذبهم تحت قباب عزه، ومكنهم

(1) قال المحقق روزبهان: لأهل الحق في هذا العالم جِنان في قلوبهم وعقولهم، وأرواحهم وأسرارهم، فجنة القلوب روضة الإتقان، وجنة العقول بستان العرفان، وجنة الأرواح حديقة البيان، وجنة الأسرار فردوس العيان، ولكل جنة منها نهرٌ وشجرٌ وثمرٌ وزهرٌ، فنهر جنة القلوب ماء حياة الأزل التي تجري بنعت التجلي فيها من عيون الوحدانية، وهو لا يتغير بكدورات البشرية، يحيى القلوب بنور اليقين حتى لا يجري عليها موت الجهالة، وأشجارها أشجار الإيمان، وثمرها أنوار الإيقان، ونهر جنة العقول من ألبان القدرة يسقيها الحق منه؛ ليربيها لصفاء أنوار قدرته التي يورث معرفتها بعزته وجلال قدرته وأشجارها الحكمة وأزهارها الفطنة، ونهر جنة الأرواح نهر كشف الجمال الذي مورده بحر الجلال، يسقيها الحق منه ليطيبها بلذة الجمال ورؤية الجلال، وأشجارها المحبة، وأزهارها الشوق، وأثمارها العشق، ونهر جنة الأسرار كشوف الذات المقدس عن انقطاع فيضه المسرمد، فيقويها الحق بشربة حتى استقامت في وصله، فهناك أشجارها التوحيد، وأزهارها التفريد، وأثمارها التحقيق، فأصحاب القلوب هم أهل الشهود، وأصحاب العقول هم أهل الكشوف، وأصحاب الأرواح هم أهل السكر والوجود، وأصحاب الأسرار هم أهل المحو والصحو، فأهل الشهود أصحاب المراقبات، وأهل الكشوف أهل المقامات، وأهل الوجود أهل الحالات، وأهل المحو والصحو أهل الاستقامة، فطوبى لمن كان

من كنف جواره، هؤلاء المكرمون بهذه الكرامة العظمى ﴿كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ﴾ أي: كالكافر الطاغي الباغي، الذي خرج عن ربقة العبودية بمتابعة الأهوية الأمارة وأمانيها، وظهر على الحق وأهله بأنواع الإنكار والاستكبار، وبسبب هذا صار مخلدًا في نار القطيعة، مؤبدًا فيها لا نجاة له عنها ﴿وَ﴾ هم من شدة عطشهم وحرقة أكبادهم إذا استسقوا ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا﴾ حارًا في غاية الحرارة ﴿فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: 15] بعدما شربوا منه؛ وذلك لعدم الفهم واعتيادهم بالعلم اللدني وبرد اليقين العلمي والعيني والحقي.

﴿وَمِنْهُم﴾ أي: من المستوجبين بخلود النار أبد الآباد ﴿مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ يا أكمل الرسل حين دعوتك وتذكرك وجلسوا في مجلسك صامتين محبوسين ﴿حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ﴾ وانصرفوا عن مجلسك ﴿قَالُوا﴾ من كمال غفلتهم وذهولهم عنك وعن كلامك وكمالاتك وعدم إدراكهم بما فيها وإصغائهم إليها ﴿لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ أي: أصحابك المتذكرين عن كلامك، الموفقين على التصديق والإذعان بك وبكتابك: ﴿مَاذَا قَالَ﴾ أي: أي شيء قال صاحبكم ﴿آنِفًا﴾ في هذا المجلس؟ مع أنهم معهم ﴿أُولَئِكَ﴾ الأشقياء البعداء عن ساحة عز القبول هم ﴿الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ وختم على سمعهم وأبصارهم ﴿وَ﴾ لهذا ﴿اتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ [محمد: 16] وتركوا إهداءه ﷺ ولم يقتبسوا النور من مشكاة النبوة، ولم يلتفتوا إلى هداية القرآن، بل استهزءوا معه ومع الرسول ﷺ.

﴿وَ﴾ المؤمنون ﴿الَّذِينَ اهْتَدَوْا﴾ بهدايته ﷺ ﴿زَادَهُمْ﴾ استماع القرآن ﴿هُدًى﴾ على هدى ﴿وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: 17] وبين لهم ما يعينهم على سلوك طريق التوحيد ويجنبهم عما يغويهم عن منهج الحق وصراط التحقيق.

وبالجملة: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ﴾ وما ينتظرون في عموم أوقاتهم وحالاتهم ﴿إِلَّا السَّاعَةَ﴾ الموعودة أن ﴿تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ فجأة، وكيف لا تأتيهم الساعة ﴿فَقَدْ جَاءَ﴾ وظهر ﴿أَشْرَاطُهَا﴾ أي: بعض علاماتها وأماراتها التي من جملتها: بعثة الرسول الحضرة

له مثل هذه الجنان في دار الامتحان.

قال الأستاذ: اليوم للأولياء لهم شراب الوفاء، ثم شراب الصفة، ثم شراب الولاء، ثم شراب في حال اللقاء، ولكل من هذه الأشربة عملٌ. ولصاحبه سكرٌ وصحوٌ، فمن شرب بكأس الوفاء لم ينظر في غيبته إلى غيره.

الختمية المحمدية؛ إذ ظهوره متممًا لمكارم الأخلاق، ومكملاً لأمر التشريع والإرشاد من دلائل انقضاء نشأة الكثرة، وطلوع شمس الوحدة الذاتية من آفاق ذرائر الكائنات، وكيف ينتظرون الساعة ولا يهيئون أسبابها قبل حلولها، وإن تأتهم بغتة ﴿فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ﴾ [محمد: 18] أي: كيف يفيدهم التذكر والاتعاظ وقت إذ جاءت الساعة فجأة؟ ومن أين يحصل لهم التدارك والتلافي حينئذ؟.

وبعدما سمعتم حال الساعة وحلول الساعة بغتة ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ﴾ أي: فاثبت أنت يا أكمل الرسل على جادة التوحيد الذاتي، وتمكن على صراط الحق في عموم أوقاتك وحالاتك، واشهد ظهور شمس الذات على صفائح عموم الذرات، وشاهد انقهار جميع المظاهر والمجالي في وحدة ذاته، واهد جميع من تبعك من المؤمنين إلى هذا المشهد العظيم ﴿وَاسْتَغْفِرْ﴾ في عموم أوقاتك ﴿لِذَنْبِكَ﴾[1] الذي صدر عنك من الالتفات إلى ما سوى الحق والعكوس والأظلال ﴿وَ﴾ استغفر أيضًا ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ إذا أنت كفيلهم وهاديهم إلى طريق التوحيد ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿اللهُ﴾ المحيط بعموم أحوالكم ونشأتكم ﴿يَعْلَمُ﴾ بعمله الحضوري ﴿مُتَقَلَّبَكُمْ﴾ أي: موضع تقلبكم وانقلاباتكم في دار الاختبار ونشأة التلون والاعتبار ﴿وَمَثْوَاكُمْ﴾ [محمد: 19] أي: موضع إقامتكم وتمكنكم في دار الإقامة والقرار، فعليكم أن تستعدوا لأخراكم في أولاكم وتهيئوا أسباب عقباكم في دنياكم.

---

(1) أمر تعالى بالعلم مع أنه هو العالم، كما أنه هو الشاهد في قوله: ﴿شَهِدَ اللهُ﴾ والرامي في قوله: ﴿وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى﴾ إشارة إلى ذنب الوجود المغفور؛ ولذا قال عقيبه: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ [محمد: 19]، وهي نسبة الوجود التي بها أُضيف العلم إليه، فإذا غفر وستر؛ كان الوجود وما يتبعه لله تعالى؛ وإنما أمره بالعلم مع أن هذه الشهادة أول ما صدر منه ﷺ، وهو في مرتبة العقل الأول، إشارة إلى الفرق بين مرتبتي الروح والجسد، فمرتبة الروح لكونها مرتبة التجرُّد؛ لا تحتاج إلى التذكير والأمر بالعلم، وأمَّا مرتبة الجسد فكونها مرتبة التعلُّق؛ تحتاج إلى ذلك؛ ولذا لمَّا خلقه الله تعالى، وهو أول المبدعات قال: (لا إله إلا الله)، ولم يقل: وأنا العبد؛ لأن تلك المرتبة ليست مرتبة العبودية؛ بل مرتبة الحامدية بلسان الروح، ولمَّا وقع المعراج، ودخل على الله تعالى قال: (لا إله إلا الله أنا العبد) فأثبت العبودية حينئذ لِما يقتضيه الموطن، فلكل من المواطن اعتبار غير اعتبار الآخر، ولمَّا كانت الألوهية من الإضافات؛ لأنها تقتضي إلوهية العبد؛ وقع عليها العلم الذي هو نسبة من النسب أيضًا، وليس فوق مرتبة العلم والألوهية إضافة أصلاً؛ لأن ما فوقها ذات بحت لا اسم هناك، ولا رسم، ولا وصف، فإلى مرتبة الألوهية ينتهي علوم العلماء، ومكاشفة المكاشفين، ومن ثَمَّ حكم على العالم؛ بل المكاشف أيضًا بالحيرة لكنها هي الحيرة الممدوحة الناشئة عن علم وتجلِّي، لا عن جهل واحتجاب، والله الهادي إلى عين ذاته.

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى ۙ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ ۖ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٢٨﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴿٢٩﴾ ﴾ [محمد: 20 - 29].

﴿وَ﴾ من معظم زاد يوم المعاد: الجهاد مع جنود أعداء الله في الأنفس والآفاق؛ لذلك ﴿يَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ من كمال حرصهم وشغفهم على القتال، وترويج كلمة التوحيد وإعلاء دين الإسلام: ﴿لَوْلَا﴾ وهلا ﴿نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ مشتملة على الأمر بالجهاد حتى نجاهد في سبيل الله، ونبذل غاية وسعنا في ترويج دينه ﴿فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ﴾ على مقتضى ما تمناها المخلصون ﴿وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ﴾ أي: أمر فيها على البت، واستبشر المؤمنون المخلصون بنزولها، واستعدوا لامتثالها وقبول ما فيها ﴿رَأَيْتَ﴾ يا أكمل الرسل حينئذ المنافقين ﴿الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ راسخ وضعف مستقر مستمر ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ حين تلاوتك وتبليغك إياهم ما يوحى إليك من ربك ﴿نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ يعني: صاروا حين سمعوا الأمر بالقتال من كمال نفاقهم وشقاقهم كأنهم أشرفوا على الموت وظهرت عليهم أماراته، وشخصت أبصارهم من أهواله جبنًا من القتال وبغضًا عليك ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد: 20] أي: قرب منهم وحاق بهم ما يكرهون ويخافون منه أولئك الأشقياء المردودون.

والأليق بحالهم في هذه الحالة: ﴿طَاعَةٌ﴾ أي: انقياد وإطاعة ﴿وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ قبول مستحسن عند ذوي المروءات والفتوات لو صدر عنهم لكان خيرًا لهم وأليق بحالهم لو كانوا مؤمنين، وبالجملة: ﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ﴾ أي: جد ولزم أمر القتال ﴿فَلَوْ

صَدَقُوا اللَّهَ﴾ المطلع بما في ضمائرهم ونياتهم فيما اظهروا من الحرص والجرأة على القتال ﴿لَكَانَ﴾ الصدق والثبات والعزيمة ﴿خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [محمد: 21] في أولاهم وأخراهم.

وإن لم يصدقوا ولم يثبتوا على ما أملوا من طلب القتال ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ﴾ ويتوقع منكم أيها المسرفون الكاذبون إن ﴿تَوَلَّيْتُمْ﴾ وأعرضتم عن امتثال المأمور أن ﴿تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ المعدة للإصلاح والسداد ﴿وَتُقَطِّعُوا﴾ [محمد: 22] عن المؤمنين المجبولين على فطرة التوحيد والإسلام مع أنكم مجبولون أيضًا عليها.

وبالجملة: ﴿أُولَئِكَ﴾ الأشقياء المعرضون عن الهداية والرشاد، هم ﴿الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ العليم الحكيم، وطردهم عن ساحة عز حضوره ﴿فَأَصَمَّهُمْ﴾ بهذا عن استماع دلائل توحيده ﴿وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ﴾(1) [محمد: 23] عن مشاهدة آيات ألوهيته وربوبيته الظاهرة على الأنفس والآفاق.

﴿أَ﴾ يصرون أولئك المسرفون على الإعراض والانصراف عن الهدى ﴿فَلَا يَتَدَبَّرُونَ﴾ ويتصفحون ﴿الْقُرْآنَ﴾ ولا يتأملون ما فيه من المواعظ والتذكيرات المفيدة لهم، الموصلة إلى الهداية والنجاة عن أهوال يوم القيامة حتى ينزجروا عن ارتكاب المعاصي، وينصرفوا عن الميل إليها ﴿أَمْ عَلَى قُلُوبٍ﴾ أي: بل مختومة على قلوبهم ﴿أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: 24] مطبوعة عليها، لا تأثر لهم من القرآن ومواعيده، مع أنهم آمنوا له قبل نزوله على ما وجدوا في كتبهم نعته وعرفوا أحكامه، ومع ذلك أنكروا عليه وارتدوا عنه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِم﴾ سيما ﴿مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ﴾ وظهر ﴿لَهُمُ الْهُدَى﴾ والرشاد وجزموا بحقيته، وحقية ما فيه من الأحكام والعبر والمواعظ، وبالجملة: ﴿الشَّيْطَانُ﴾ المضل المغوي ﴿سَوَّلَ لَهُمْ﴾ أي: حسّن وزيّن لهم الارتداد عن الحق تغريرًا وتلبيسًا بعدما وضح لهم حقيته ﴿وَأَمْلَى لَهُمْ﴾ [محمد: 25] بتسويلاته خلاف ما ظهر عليهم من ألسنة كتبهم ورسلهم.

﴿ذَلِكَ﴾ التسويل والتغرير، وما يترتب عليه من الإعراض والانصراف عن الحق ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي: بسبب أن اليهود والنصارى ﴿قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا﴾ أي: للمنافقين الذي

(1) قال في التأويلات: أتصل الحق على قلوب أهل الهوى، فلا يدخلها زواجر التنبيه، ولا ينبسط عليها شعاع العلم، ولا يحصل لهم فهم الخطاب، وإذا كان الباب مقفلاً فلا الشك والإنكار الذي فيها يخرج، ولا الصدق واليقين الذي هم يدعون إليه يدخل في قلوبهم.

كرهوا ﴿مَا نَزَّلَ اللهُ﴾ من السور المشتملة على أمر القتال؛ حثًا لهم على المخالفة والقعود ﴿سَنُطِيعُكُمْ﴾ ونعاون عليكم ﴿فِي بَعْضِ الأَمْرِ﴾ لو أظهرتم المخالفة؛ يعني: إن أخذوكم وقصدوا الانتقام عنكم نحن نعاونكم، إنما قالوا ما قالوا في خلواتهم ﴿وَاللهُ﴾ المطلع لعموم أحوالهم ﴿يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ [محمد: 26] كما يعلم إعلانهم، هذا من جملة ما احتالوا ومكروا مع الله ورسوله.

﴿فَكَيْفَ﴾ يحتالون ويمكرون ﴿إِذَا تَوَفَّتْهُمُ المَلائِكَةُ﴾ المأمورون لقبض أرواحهم ﴿يَضْرِبُونَ﴾ حينئذٍ ﴿وُجُوهَهُمْ﴾جزاء ما توجهوا بها نحو الباطل ﴿وَأَدْبَارَهُمْ﴾ [محمد: 27] جزاء ما انصرفوا بها عن الحق.

﴿ذَلِكَ﴾ التوفي على وجه العبرة ﴿بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللهَ﴾ من الإعراض عن طريق الحق ومتابعة أهله ﴿وَكَرِهُوا﴾ بمقتضى أهويتهم الفاسدة ﴿رِضْوَانَهُ﴾ أي: ما رضي عنه سبحانه من الأوامر والنواهي المنزلة على ألسنة رسله وكتبه بعدما خالفوا أمر الله وأمر رسوله ﴿فَأَحْبَطَ﴾ سبحانه بمقتضى قهره وجلاله ﴿أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: 28] أي: صوالح أعمالهم، ولم يترتب عليها الجزاء الموعود كما يرتب على صالحات أعمال المطيعين .

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ مستقر، وحسد مؤبد، وشكيمة شديدة مع الله ورسوله والمؤمنين ﴿أَن لَّن يُخْرِجَ اللهُ﴾ ولن يبرز أبدًا ﴿أَضْغَانَهُمْ﴾[1] [محمد: 29] وأحقادهم التي أضمروها في نفوسهم.

﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ ﴿٣٢﴾ ۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ

(1) قال في التأويلات: يشير إلى أن من مرض القلوب الحسبان الفاسد والظنون الكاذبة، فظنوا أن الله لا يطلع على خبث عقائدهم ولا يظهره على رسوله، ليس الأمر كما توهموه؛ بل الله تعالى فضحهم وكشف تلبيسهم، ولقد أخبر رسوله ﷺ وعرفه أعيانهم.

وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم ﴿٣٨﴾﴾ [محمد: 30–38].

﴿وَ﴾ لم يعلموا أنَّا ﴿لَوْ نَشَاءُ﴾ تفضيحهم ﴿لَأَرَيْنَاكَهُمْ﴾ وأبصرنا عليك يا أكمل الرسل ما أضمروا في نفسهم ﴿فَلَعَرَفْتَهُم﴾ حينئذٍ ﴿بِسِيمَاهُمْ﴾ بمجرد إبصارك إياهم؛ لظهور ما في صدورهم من الغل على وجوههم ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ﴾ ألبتة نفقهم ﴿فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ الباطل الذي صدر عنهم مغشوشًا مزخرفًا، وبعدما نزل هذا لا يتكلم منافق عند النبي ﷺ إلا عرفهم، ويستدل بكلامه على فساد ضميره ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿اللَّهُ﴾ المطلع بعموم أحوال عباده ﴿يَعْلَمُ منكم أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: 30] ونياتكم فيها ومقاصدكم عنها، فيجازيكم على مقتضى علمه.

ثم قال سبحانه مقسمًا: ﴿وَ﴾ الله ﴿لَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ ونختبرنكم أيها المجبولون على فطرة الإسلام بالتكاليف الشاقة والأوامر الشديدة ﴿حَتَّى نَعْلَمَ﴾ أي: نفرق ونميّز ﴿الْمُجَاهِدِينَ﴾ المجتهدين ﴿مِنكُمْ﴾ ببذل الوسع والطاقة على امتثال المأمور، والصابرين المرابطين قلوبهم بحبل الله وتوحيده، الموطنين نفوسهم بالرضا بجميع ما جرى عليهم من القضاء ﴿وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ﴾ أيضًا ﴿أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: 31] التي صدرت عنكم وقت تكليفنا إياكم؛ إذ الأخبار منبئة عن الضمائر والأسرار.

وبالجملة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله، وأعرضوا عن مقتضيات تكاليفه الصادرة عن الحكمة البالغة ﴿وَ﴾ مع كفرهم وضلالهم في أنفسهم ﴿صَدُّوا﴾ وصرفوا ﴿عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ضعفاء عباده ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿شَاقُّوا الرَّسُولَ﴾ المرسل من عنده سبحانه، المبعوث إليهم للإرشاد والتكميل، لا من شبهة صدرت عنه تدل على كذبه وافترائه ﴿مِن﴾ بعدما ﴿تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى﴾ أي: ثبت عندهم هدايته عقلاً ونقلاً، ومع ظهور صدقه وهدايته كذبوه عدوانًا وظلمًا، وبواسطة هذه الجرأة على الله ورسوله ﴿لَن يَضُرُّوا اللَّهَ﴾ المنزه في ذاته عن أن يكون معروضًا للنفع والضر ﴿شَيْئًا﴾ من الضرر والإضرار، بل ﴿وَسَيُحْبِطُ﴾ ويضيع سبحانه بأمثال هذه الجرائم والآثام ﴿أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: 32] الصادرة عنهم لتثمر لهم الثواب، فانقلب الأمر عليهم، فيثمر لهم العذاب .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مقتضى إيمانكم إطاعة الله وإطاعة رسوله ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ﴾

المظهر لكم من كتم العدم، المنعم عليكم بأنواع النعم وأصناف الكرم ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ الهادي، المرشد لكم إلى توحيد الحق وكمالات أسمائه وأوصافه ﴿وَلاَ تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾[1] [محمد: 33] بالإعراض عن الله، والانصراف عن متابعة رسوله.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ مَاتُوا وَ﴾ الحال أنه ﴿هُمْ كُفَّارٌ﴾ مصرون معاندون على ما هم عليه طول عمرهم ﴿فَلَن يَغْفِرَ اللهُ﴾ [محمد: 34] أبدًا لإشراكهم بالله وخروجهم عن ربقة عبوديته بمتابعة أهويتهم الباطلة وآرائهم الفاسدة.

وبعدما أطعتم الله ورسوله أيها المؤمنون، وأخلصتم في إطاعتكم وانقيادكم ثقوا واعتصموا بحبل توفيقه ونصره ﴿فَلاَ تَهِنُوا﴾ ولا تضعفوا عن الجهاد والمقاتلة ﴿وَ﴾ لا ﴿تَدْعُوا﴾ وتركنوا ﴿إِلَى السَّلْمِ﴾ والصلح، وبالجملة: لا تجنوا ﴿وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ﴾ الأغلبون، أيها الموحدون المحمديون؛ إذ الحق يعلو ولا يُعلى ﴿وَ﴾ كيف لا تتصفون بصفة العلو والغلبة؛ إذ ﴿اللهُ﴾ المحيط بكم ﴿مَعَكُمْ﴾ لا على وجه المقارنة والاتحاد، ولا على سبيل الحلول والامتزاج، بل على وجه الظهور والبروز وامتداد الأظلال عليكم وانعكاسكم منها ﴿وَ﴾ بعدما صار الحق معكم على الوجه المذكور ﴿لَن يَتِرَكُمْ﴾ ولن يضيع عليكم ﴿أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: 35] التي جئتم بها مخلصين؛ طلبًا لمرضاة الله وهربًا عن مساخطه؛ إذ الموحد المعتدل دائمًا بين الخوف والرجاء، وكيف لا يكون كذلك؛ إذ هو مستوٍ على متن الصراط المستقيم الذي هو أدق وأرق من كل دقيق ورقيق.

وبعد ما سمعت صفة صراط ربك يا أكمل الرسل ﴿إِنَّمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ أي: ما الحياة الدنيا إلا ﴿لَعِبٌ﴾ يلعب بها أبناء بقعة الإمكان وهم غافلون عن حقيقتها ﴿وَلَهْوٌ﴾ يلهى ويحير قلوبهم في تيه الغفلة والضلال، وهم تائهون فيها ساهون عمّن ظهر عليها ﴿وَ﴾ بعدما سمعتم نبذًا من أوصاف دنياكم ﴿إِن تُؤْمِنُوا﴾ بوحدة الحق وبكمالات أسمائه وصفاته الظاهرة آثارها على هياكل الهويات المستحدثة في الكائنات، وتوكلوا عليه مفوضين أموركم كلها إليه، واتخذوه وكيلاً واتخذوه كفيلاً، واعتصموا بحبل توفيقه ثقة واعتمادًا ﴿وَتَتَّقُوا﴾ أي: تحفظوا أنفسكم عن الميل إلى ما

(1) قال في التأويلات: يشير إلى أن عمل وطاعة لم يكن بأمر الله وسنة رسوله، فهو باطل لم يكن له ثمرة؛ لأنه صدر عن الطبع والطبع ظلماني، وإنما جاء الشرع وهو نوراني؛ ليزيل ظلمة الطبع بنور الشرع، فيكون ثمرًا وثمرته أن يخرجكم من الظلمات إلى النور؛ أي: من ظلمات الطبع إلى نور الحق.



سوى الحق من الأماني العاطلة الإمكانية، العائقة الدنية الدنيوية، المثمرة لغضب الحق بمقتضى قدرته الجليلة ﴿يُؤْتِكُمْ﴾ بمقتضى إرادته الجليلة الجميلة ﴿أُجُورَكُمْ﴾[1] التي استوجبتم بصوالح أعمالكم، ويزيد عليكم تفضلاً وإحسانًا ما لا مزيد عليكم من اللذات الروحانية ﴿وَلاَ يَسْأَلْكُمْ﴾ ويطلب منكم بمقابلة ما أفاض عليكم من الكرامات ﴿أَمْوَالَكُمْ﴾ [محمد: 36] أي: جميعها، بل مقدار ما يزكي بها نفوسكم ويطيب لها قلوبكم من الشح المفرط والميل المتبالغ، فكيف أن ﴿يَسْأَلْكُمُوهَا﴾ ويطلب منكم سبحانه جميعها ﴿فَيُحْفِكُمْ﴾ ويبالغ عليكم في طلب ما اقترفتم؟ ﴿تَبْخَلُوا﴾ ألبتة على الله ورسوله، وتظهروا الحقد فلا تعطوا، بل ﴿وَيُخْرِجْ﴾ أي: يبرز ويظهر بخلكم وحقدكم هذا ﴿أَضْغَانَكُمْ﴾ [محمد: 37] وشكائمكم التي تضمرونها في نفوسكم.

وبالجملة: ﴿هَا أَنتُمْ﴾ أيها الحمقى الغافلون عن مقتضى الألوهية والربوبية ﴿هَؤُلاَءِ﴾ البخلاء المغرورون بحطام الدنيا الدنية، المغمورون في لذاتها وشهواتها الفانية العائقة عن اللذات الأخروية، إنما ﴿تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا﴾ مما أنتم مستخلفون فيه ﴿فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ فتفوزوا بالمثوبة العظمى والكرامة الكبرى عنده سبحانه، وبعد وصول الدعوة إليكم ﴿فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ﴾ أي يمنع ولم يعط بل يظهر ما يضمر في نفسه من الضغن والحقد.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَن يَبْخَلْ﴾ من مال بعدما أمر بإنفاقه ﴿فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ﴾ إذ نفع الإنفاق وضرر البخل كلاهما عائد إليها ﴿واللهُ الغَنِيُّ﴾ المستغنى بذاته عن هموم صدقاتكم ومطلق طاعاتكم وعباداتكم ﴿وَأَنتُمُ الفُقَرَاءُ﴾[2] المقصورون على الفقر والاحتياج الذاتي إلى ما عنده سبحانه من أنواع الإنعام والإحسان ﴿وَ﴾ بعدما بلغت لهم يا أكمل الرسل ما بلغت من مقتضيات الوحي والإلهام الإلهي ﴿إِن تَتَوَلَّوْا﴾ وتنصرفوا عن الإيمان وامتثال عموم المأمورات ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْما غَيْرَكُمْ﴾ أي: يهلككم ويقيم بدلكم قومًا يؤمنون ويقيمون بامتثال الأوامر والنواهي ﴿ثُمَّ﴾ لما علموا واعتبروا

---

(1) قال في التأويلات: بالتقرب إليكم على حسب تقربكم إليه؛ فإن تقربتم إليه شبرًا يتقرب إليكم ذراعًا، وإن جئتم إليه وأنتم تمشون يجئ إليكم وهو يهرول كما يليق بذاته وصفاته، تعالى عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا.

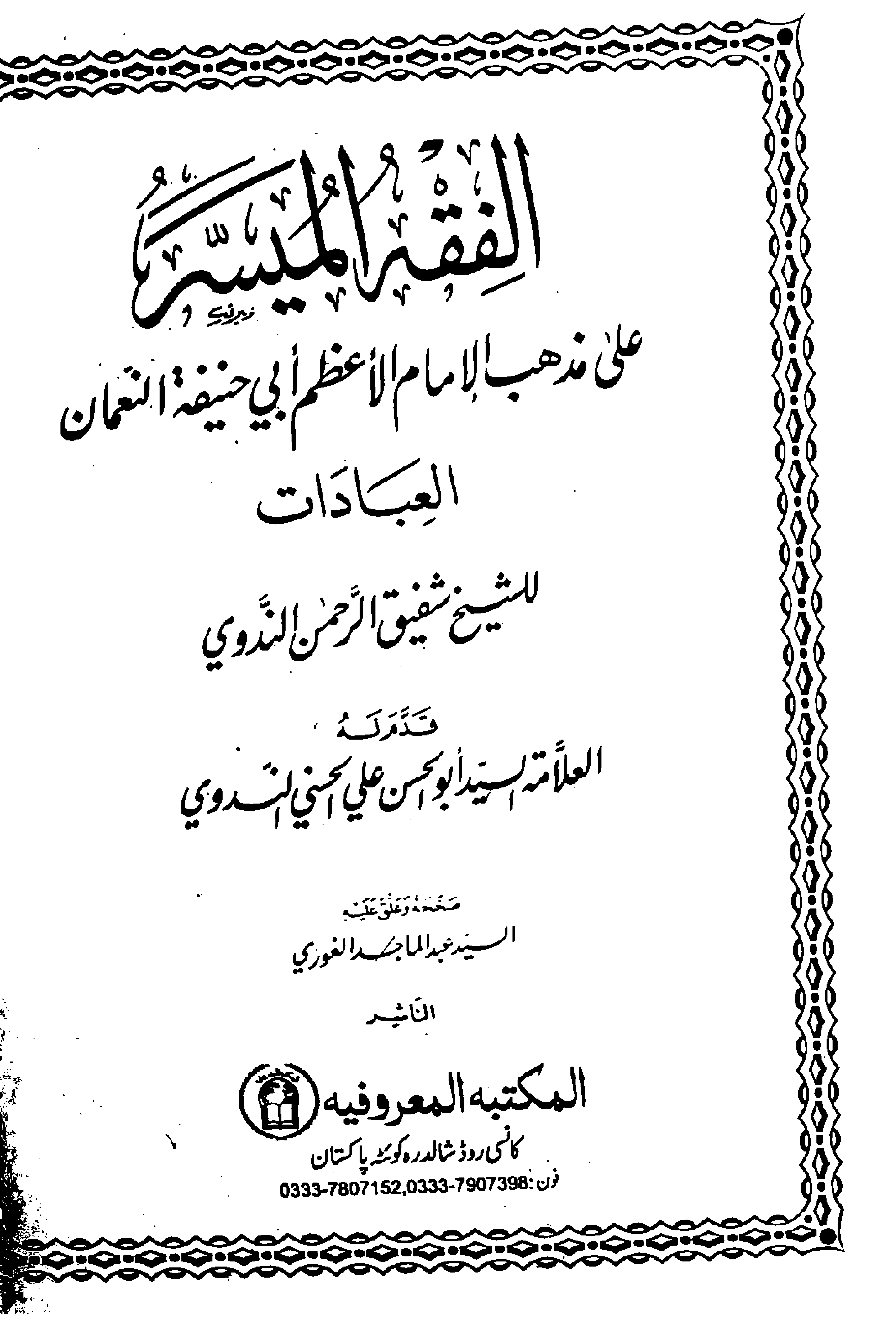
(2) قال القشيري: والله الغني للذاته بذاته، ومن غنائه: تمكُّنه من تنفيذ مُراده، واستغناؤه عما سواه، وأنتم الفقراء إلى الله، في نعمة الإيجاد، ونعمة الإمداد، في الابتداء ليخلقكم، وفي الوسط ليُربيكم، وفي الانتهاء يفنيكم عن أنانيتكم، ويُبقيكم بهويته، فالله غني عنكم من الأزل إلى الأبد، وأنتم الفقراء محتاجون إليه من الأزل إلى الأبد.

منكم، وشاهدوا مقتكم وهلاككم ﴿لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ [محمد: 38] كافرين بالله كفارًا لنعمه ولحقوق كرمه.

خاتمة السورة

عليك أيها القاصد نحو طريق التوحيد، العازم على سلوك سبيل الفناء المثمر للبقاء الذاتي - أوصلك الله إلى غاية مبتغاك ونهاية متمناك - أن تعتدل في عموم أوصافك وأخلاقك، سيما في أحوالك التي تتعلق بالإنفاق المأمور عليك بمقتضى الحكمة والعدالة الإلهية، الناشئة من الله عن محض الإرادة والرضا، وإياك إياك البخل والتقتير، فإنه الجالب لحلول غضب الله ونزول أنواع سخطه بمقتضى قهره وجلاله، فعليك الامتثال بالمأمور، والاتكال على الملك الرحيم الغفور.

فهرس المحتويات



الفقه الميسر

على مذهب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان

العبادات

للشيخ شفيق الرحمن الندوي

قدم له

العلامة السيد أبو الحسن علي الحسني الندوي

صححه وعلق عليه

السيد عبد الماجد الغوري

الناشر

المكتبه المعروفيه

کانسی روڈ شالدرہ کوئٹہ پاکستان

فون: 0333-7807152,0333-7907398

